المؤرخ العربي

مجلة فصلية تاريخية محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

العدد ٧٤ / ١٤٤٥هـ / ٢٠٢٤م

تصدر عن

الأمانة العامة لإتحاد المؤرخين العرب

بغداد

الترقيم الدولي: ISSN 2710-2831

JOURNAL OF ARAB HISTORIANS



Office of the General Secretary

Iraq - Baghdad - P.O.Box 6387

Cable:MOARKHEEN Baghdad

ISSN 2710-2831 رقم المعيار الدولي للمجلة

ISSN 2710 – 2831

27102831

المؤرخ العربي

المؤرخ العربي

مجلّة فصليّة تاريخيّة محكمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي

تصدر عن

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

بغـــداد

ISSN 2710 – 2831

27102831

العدد: 74 / 1445 هـ / 2024 م

بطاقة الاشتراكات

مجلة المؤرخ العربي ـ العنوان
العراق ـ بغداد ـ المنصور ـ
شارع النقابات
ص. ب (٦٣٨٧)

قيمة الاشتراك للاقطار العربية	للاقطار الأخرى
٥٠ دولاراً للمؤسسات الرسمية	١٥٠ دولاراً
٢٥ دولاراً للمؤرخين وطلبة معاهد التاريخ	٥٠ دولاراً

الخلوي: ٠٠٩٦٤٧٧٠٥٨٨٨٨٠٧ _ ٠٠٩٦٤٧٩٠١٤٧٨٣١٥ _ ٠٠٩٦٤٧٨١٤٤٠٤٠١١

البريد الإلكتروني: arabhistory1974@gmail.com

ارجو قبول اشتراكي في مجلتكم لمدة سنة واحدة

الاسم: ....

العنوان: ....

المدينة: ....

القطر: ....

التاريخ: ....

يرجى ارسال قائمة بالحساب وتجدون طياً صكاً بقيمة ....

Subscription card

Please enter my subscription for

Address:

Prof. Dr. Muhammed J. al Mashhadani

Secretary General of Union of Arab Historians

Iraq – Baghdad – Al-Mansour - Al-Nagabat St. – P.O.Box. (6387)

Tel.: 009647814404011 – 009647901478315 – 009647705888807

email: arabhistory1974@gmail.com

One year $ 150 for institutions
$ 50 for Historians & Students of History
Please Bill me

Check enclosed for ....

Name ....

Address .... Country ....

City ....

Date ....

التنضيد الإلكتروني: يسرى توفيق

شروط نشر البحوث في المجلة

1. أن يعتمد البحث الأسس العلمية في إعداد وكتابة البحث.
2. أن يكون منسجماً مع أهداف اتحاد المؤرخين العرب.
3. أن لا يزيد عدد صفحاته عن (50) صفحة.
4. أن لا يكون قد سبق نشره أو قبل للنشر في مجلة أخرى، على أن يقدم كاتب البحث تعهداً يؤكد ذلك مرفقاً برسالة مع البحث موجهة إلى مدير التحرير.
5. تقبل البحوث في جميع فروع المعرفة التاريخية، وباللغتين العربية والإنكليزية.
6. يطبع عنوان البحث على ورقة مستقلة، ويفضل أن يكون مختصراً، ويثبت اسم الباحث أو أسماء الباحثين الكاملة والعنوان لكل منهم.
7. يطبع البحث على وجه واحد من الورقة، وتأخذ كل ورقة رقمها الخاص، ويقدم نسختين.
8. بالنسبة للبحوث المقدمة إلى المؤتمرات أو الندوات أو ما كان مستقلاً من رسالة أشرف عليها مقدم البحث فيشار إلى ذلك في حاشية البحث.
9. لأمور فنية خاصة بالطباعة يجب أن توحّد الهوامش بالبحث من أول هامش في البحث إلى آخر هامش فيه، وتعطى تسلسلاً واحداً.
10. يحال البحث المقدم للنشر إلى خبير مختص ويُعاد إلى كاتبه لإجراء التعديلات المقترحة إن وجدت، على أن يُعاد إلى مدير التحرير في غضون خمسة أيام.
11. رتبت البحوث لاعتبارات فنية وهي تعبِّر عن آراء أصحابها مع التأكيد على أن مجلة المؤرخ العربي منبر تاريخي قومي تنطق باسم القضية العربية الكبرى.
12. البحوث التي ترد للمجلة لا تعاد إلى أصحابها في حالة عدم نشرها.
13. يرجى تدوين اسم الباحث وعنوانه، وعنوان بحثه باللغة الإنكليزية.

ترسل البحوث إلى
الأمانة العامة
لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد – المنصور – شارع النقابات
حي طرابلس – ص . ب (6387)
البريد الإلكتروني:
arabhistory1974@gmail.com

الهيئة الاستشارية لمجلة المؤرخ العربي

المحتويـــات

18	الملاح أحمد بن ماجد والمستشرقون :جرالد ر.تبيتز أنموذجاً	أ.د. صباح ابراهيم الشيخلي	331 – 327
19	موقف بريطانيا من التوسع المصري في الخليج العربي (1811 – 1819)	أ.د. صادق ياسين الحلو	341 – 332
20	موقف الولايات المتحدة الأميركية من المسعى التركي للانضمام للاتحاد الأوربي	أ.م.د. محمد رشيد عبود	350 – 342

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة العــدد

يسعدنا ويشرفنا باسم المؤرخين العرب إصدار هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي للعام ١٤٤٥ هجرية/ ٢٠٢٤ ميلادية، والمتضمن عدداً من البحوث التاريخية والتراثية التي دُوِّنت بأقلام عدد من المؤرخين العرب من أجل إدامة تواصل المجلة النادية رسالتها ودورها بين أوساط المؤرخين العرب وبين أفراد المجتمع العربي لتؤدي دورها ورسالتها وأهدافها في تعزيز ورفد الثقافة التاريخية العربية الصحيحة بين أوساط المجتمع العربي لتمثل بذلك رافداً مهماً من روافد الثقافة والمعرفة التاريخية العربية التي تهدف إلى تعزيز الثقافة التاريخية العربية بما يؤكد مكانة وعظمة تاريخ الأمة بين أبنائها والذين قدموا هذه الأبحاث بروح تابعة من تراث وتاريخ هذه الأمة وبما يعزز كرامتها وعزتها ودورها الريادي على مر الأزمان والعهود المتعاقبة.

إننا إذ نصدر هذا العدد الجديد من مجلة المؤرخ العربي نهيب بالأشقاء العرب التواصل لرفد هذه المجلة بكل ما لديهم من أبحاث ودراسات تاريخية أصيلة ومعمقة من أجل أن يتعزز المنهج العربي في كتابة تاريخ الأمة على مر العصور التاريخية القديمة والإسلامية والحديثة والمعاصرة، علماً أن هذه البحوث رُتِّبت وفقاً للمراحل التاريخية لكل مرحلة من تلك المراحل، وقُسِّمت وفقاً لما يأتي:

أ. التاريخ العربي القديم

ب. التاريخ العربي الإسلامي

ت. التاريخ العربي الحديث والمعاصر

وأخيراً نرجو من الله تعالى أن يوفقنا من أجل أن نتمكن من إدامة إصدار هذا الرافد الثقافي والتاريخي ليؤدي دوره المنشود في خدمة تاريخ وتراث الأمة بما يعزز مكانتها ودورها وفعلها في التاريخ الإنساني والحضارة الإنسانية.

والله ولي التوفيق، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

أ.د. محمد جاسم المشهداني
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب
رئيس تحرير المجلة

بحوث التاريخ القديم

ملامح التوحيد في خلق الكون بين الأساطير السومرية والكتب الدينية المقدسة

دراسة مقارنة

الأستاذ الدكتور أحمد لفتة محسن
أستاذ في التاريخ القديم ولغاته/ جامعة بغداد – كلية اللغات
م.م . سلمى أحمد
أستاذة في التاريخ القديم / كلية الرشيد الجامعة

الملخص

حفلت حضارة العراق القديم بالعديد من النتاجات المدونة بالخط المسماري - كالأساطير والملاحم وغيرها - عالجت مختلف مناحي الحياة الفكرية والاجتماعية ولعل من أبرز وأهم المواضيع التي تطرقت لها تلك النتاجات، موضوع الخلق بعامة وخلق الكون (السماء والأرض) بخاصة.

وتتأتى أهمية هذه الدراسة في تأصيل فكرة التوحيد في الفكر العراقي القديم من خلال تناولها لأسطورة خلق السماء كما وردت في الموروث السومري والأكدي، ومقارنتها مع ما ورد في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) وفي القرآن الكريم. باعتماد المنهج الوصفي والمنهج المقارن وسيلة لتحقيق تلك الغاية.

وقد خلصت الدراسة إلى أن هناك موروث إنساني مشترك فطرةً، استمدت منه تلك الأساطير والأديان، موضوعة وجود خالق واحد للكون. ولا يمكن من خلالها، الجزم مطلقا، أن اللاحق من هذا الموروث الفكري قد استل من السابق له، رغم ورود أفكار متشابهة بينها حينا ومتطابقة حينا آخر، بل إن أصل هذا الموروث لا يمكن أن يكون إلا نتاجا عن النبوءات التي لم نحط بها علما، والتي أرسلها الإله الواحد (الله) لغرض هداية البشر جميعا إلى عبادته وإقامة شرائعه.

- الأسطورة

ميز المختصون بدراسة الآداب القديمة، ثلاث نتاجات رئيسة لدى السومريين والأكديين في التآليف الأدبية ذات الطابع القصصي هي: الاسطورة[1] والملحمة والخرافة[2]. وللأسطورة وظيفتان أساسيتان، الأولى: محاولة الإجابة عن ((من صنع الكون؟)) و((كيف ينتهي؟)) ومن كان ((أول إنسان؟)) والوظيفة الثانية للأسطورة هي تبرير لنظام اجتماعي قائم، ولشعائر وأعراف تقليدية سائدة[3]. كما أن للأساطير شخصيتها ولها حدودها ورموزها وتكشف طريقة ناضجة ومصقولة لفهم الآلهة وأعمالها فمن ورائها يمكن أن نلاحظ انعكاسا جديرا بالاعتبار للآراء الكونية واللاهوتية[4].

- النصوص المسمارية

إن المقصود بمصطلح (النصوص المسمارية) في هذه الدراسة يعني الأساطير والملاحم والتراتيل والكتابات الملكية وغيرها التي أرخت لحضارة وادي الرافدين في مطلع الألف الثالث ق.م حين نضجت الكتابة المسمارية[5] وصارت وسيلة فاعلة لتدوين شؤون الحياة المختلفة ومقوماتها الأساسية مثل نظام الحكم والمعابد وتنظيم المجتمع بالقوانين.

-الكتب الدينية المقدسة

هو مجموع الكتب الموحاة من الله والمتعلقة بخلق العالم ومجموع التنبوءات والنصائح الدينية والأدبية التي تناسب بني البشر في كل الأزمنة. كالكتاب المقدس والقرآن الكريم.

1- الكتاب المقدس

يتوزع على قسمين رئيسين هما: العهد القديم والعهد الجديد.

أ- العهد القديم: كتاب اليهود المقدس ويضم تسعة وثلاثين سفرا، ويسمى العهد القديم عند الكتاب العرب تجاوزا بالتوراة في حين أن التوراة أصلا تدل على الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم فقط[6]. وتضم أسفار العهد القديم: كتب موسى (التوراة) وتشمل: أسفار التكوين والخروج والتثنية واللاويين والعدد والمشتملة على التوراة في نظر اليهود. والأسفار التاريخية وهي: أسفار يوشع والقضاة وراعوث وصموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني وأخبار الأيام الأول وأخبار الأيام الثاني وعزرا ونحميا واستير. وأسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية وهي: أسفار أيوب ومزامير داود وأمثال سليمان والجامعة من كلام سليمان ونشيد الإنشاد لسليمان. وأخيرا أسفار الأنبياء وهي: أسفار اشعيا وارميا ومراثي ارميا وحزقيال والاثني عشر نبيا وهوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونس (يونان) وميخا وناجوم وحبقوق وصفينا وحجّي وزكريا وملاخي(2).

ب- العهد الجديد فهو الكتاب المقدس عند المسيحيين فضلا عن العهد القديم ويضم: انجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا . واعمال الرسل . والرسائل [7] . وهي متشابهة تقريبا في مادتها من ناحية سيرة السيد المسيح وأعماله وتختلف كثيرا عن الإنجيل الرابع، أي إنجيل يوحنا[8].

2- القرآن الكريم

وهو دستور الشريعة الاسلامية، احتوى اسس الدين وانتظم قواعد التشريع واركانه ويتألف من (114) سورة مقسمة بين (86) مكية و(28) مدنية. وقد ادعى البعض، ان العرب قد اتت بمثل القرآن وعارضته بالحجة إلا ان هذه المعارضة لو كانت حاصلة لاعلنها العرب وشهرتها في المواسم والاسواق ولاتخذه اعداء الاسلام طعنا فيه [9] .

خلق الكون

الكون مصدر من (كان) ويعني عالم الوجود[10] والكون في السومرية (an -ki-bi -da) (السماء والارض) ويمكن تجزئته بموجب الفكر السومري الى جزئين سماوي ويتكون من سماء وفضاء فوقها (يعني في السومرية العلى) حيث تسكن الالهة السماوية والاخر ارضي ويتكون من سطح الارض وفضاء تحتها يعرف بالعالم الاسف، حيث تعيش الهة العالم الاسفل وحيث يوجد الاموات [11] .

ومنها يتضح ، ان السومريين وضعوا قواعد للكونيات، لكنهم لم يكتبوا معارفهم القيمة في حقول الفلسفة واللاهوت والكون على هيئة قواعد او شرائع[12]، وانما وردت في اعمالهم الادبية التي خلفوها، كالميثولوجيا (الاساطير) والملاحم والحكايات والتراتيل[13] وبصورة عامة فأن السومري قد ارجع مظاهر الكون المتضادة التي ليس بامكانه ان يعقلها او ان يجد حل لهذه المتناقضات المنتظمة الى الارادة الالهية [14]. حيث قسموا الكون على ثلاثة اقسام:

الاول منها السماء التي عدت مقرا للآلهة والثاني الارض التي يسكن عليها البشر، والثالث هو ما يفصل بينهما حيث عدوه عالم (المابين) وجسدوه بالاله (انليل) ومعنى اسمه (السيد الهواء) (15). لقد اعتقد الكهنة السومريين بوجود مجموعة من الالهة شبيهة بالانسان شكلا الا انها تمتلك صفتي الخلود والتفوق ولا ترى بالعين ، وان تلك الالهة تقود الكون وتدبره بما فيه وفقا لخطط معينة وقوانين معلومة (16). والسومريون هم اول امة نعرفها حتى الان توصلت الى معرفة فكرة القدر. ولعل الفكرة كانت محاولة منهم لتفسير سر انتظام الكون وسط تعدد الارباب وكثرتهم واختلاف اهوائهم (17).

اما افكار الاكديين (البابليين) فإن (اسطورة الخليقة البابلية) التي تناولت في مضامينها خلق الكون فلابد من ان تكون لافكارها اصولا سومرية (18). كان التحول الكوني الاول - في نظر سكان العراق القديم - بحسب (اسطورة الخليقة البابلية) هو الخروج من العماء لخلق الكون، بعد ذلك كان لابد للحياة من ان تدب بمستوى الكون الذي خلق فبرزت الالهة في عملية التحول الثاني(19). وتتحدث (اسطورة الخليقة البابلية) عن الصراع الرهيب الذي حدث بين قوى الخير المتمثلة بالاله (مردوخ) اله مدينة بابل(20)، وقوى الشر المتمثلة بالالهة (تيامة)(21) في الحقبة التي سبقت خلق الكون. ويعكس الصراع والعنف(22) اللذان رافقا عملية الخلق والتكوين عنف طبيعة العراق القديم (23).

1- خلق السماء

أ-خلق السماء في الموروث السومري

كلمة آن (AN) السومرية تطلق على كبير الالهة (آنو) اله السماء (24)، التي تعني السماء ايضا في اللغة السومرية (25) ويقابلها كلمة (anu B) البابلية بالمعنى نفسه (26) والسماء من (سما): (السمو) الارتفاع والعلو، وسما الشيء يسمو - سموا، فهو سام أي ارتفع وسماء كل شيء اعلاه والسماء في اللغة تقال لكل ما ارتفع والسماء كل ما علاك فأضلك(27).

هكذا شغلت السماء تفكير الانسان في العراق القديم . حيث وقف متأملا طبيعة الكون ونظامه وما يجري فيه ، وحاول الاجابة عن اسئلة معينة تتعلق باصل الكون وخلق السماء وتنظيم الحياة (28) . وجاءت نتيجة هذه التأملات على شكل قصص واساطير حاولت الاجابة عن خلق الكون باجزائه المختلفة ففي اسطورة خلق الكون (29) نقرأ الآتي: (حينما خلق الالهة بمجمعهم (30) كل شيء، صمموا السماء وصوروا الارض) (31) . وفي انشودة اخرى قديمة مخصصة للالهة (عشتار) تشمل المقطع الآتي: (ابي اعطاني السماء، واعطاني الارض انا سيدة السماء، هل بوسع اله، ايا كان، ان يحتقرني، انليل اعطاني السماء، واعطاني الارض انا سيدة السماء))(32) ولا يمكن ان نجزم من خلال ما تقدم من ان الاله (انليل) هو خالق السماء وغاية ما نتصوره هو انه له قدرة على السماء والتصرف فيها بحيث اعطاها الى الالهة (عشتار). كما يصور لنا الادب السومري السماء والارض متحدتين في الاصل اتحادا وثيقا متماسكا فأن البحر الاول) او (النهر العظيم) او (الالهة نمو) هي اصل السماء والارض(33) حيث تنجب الالهة (نمو) (Nammu) ي انثى (آن) (An) اله السماء وهو ذكر و (كي) (Ki) الهة الارض ملتصقين غير منفصلين عن امهما بعد ذلك يتزوج (آن) بـ (كي) فيولد من اتحادهما انليل (Enlil) اله الهواء ثم يفصل (انليل) بقدرته الخارقة اباه (آن) عن امه (كي) رافعا الاولى الى السماء، وداحيا الثانية ارضا (34). وبحسب هذا النص فأنه تعزى عملية خلق

الكون واجزائه الى الالهة المجسدة لتلك الاجزاء أي ان كل اله وجد قبل وجود الجزء الذي يجسده من الكون، فـ (آنو) اله السماء، خلق السماء أي ان الرمز الغيبي للأشياء أي الإله وفقا للمعتقدات القديمة، قد وجد أولا، ثم انه قام بتجسيد ما رمز اليه، فخلق الجزء الذي كان مسؤولا عنه [35] او انه ادار ذلك الجزء بعد خلقه. كما يعد الاله (انو) القوة الموجودة في السماء [36] وان الاله (انليل) هو الطاقة الكامنة في (الجو المتحرك)[37]. ويعزز هذه الفكرة ما ورد في (اسطورة الصراع بين ((انكي)) والوحش ((كور))[38] حيث نقرأ: (بعد ان ابتعدت السماء عن الارض، بعد ان انفصلت الارض عن السماء، بعد ان اصبحت السماء بحوزة (آن))[39] أي ان السماء كانت بمادتها الاولى موجودة وبعد فصلها عن الارض اخذها الاله (آن) وقام بتدبير امورها. نظر السومريون الى منطقة (اوزموا) في (نفر)[40] نظرة تقديس، فقد عدوها منطقة رباط الارض والسماءوآخر مكان انفصلت منه السماء عن الارض وهذا يعني انها كانت (سرة الارض) [41] .

وورد في رقية (الدودة ووجع الانسان))[42]:
(بعدما انجز انو خلق السماء) [43]

نجد ان هذه الرقية احدث عهدا من الاساطير السابقة التي ذكرت ولادة السماء لان مفهوم السومريين لـ (آنو) يشمل السماء والاله معا بينما نرى هنا ان (آنو) موجود قبل السماء وهو الذي خلقها [44] .

ب-فكرة خلق السماء في الموروث البابلي

وهذا ما ورد ايضا في (اسطورة الخليقة البابلية) حيث نقرأ:

e-nu-ma e-liš la na-bu-ú šá-ma-m

šap-liš am-ma-tum šu-ma la zak-rat

ZU.AB-ma reš-tu-ú za-ru-šu-un

mu-um-mu ti-amat mu-al-li-da-at gim-ri-šú-un

A.MEŠ-šú-nu iš-te-niš i-ḫi-qu-ú-ma

gi-pa-ra la ki-is-su-ru su-sa-a la še-'u-ú

e-nu-ma <u>dingir</u> <u>dingir</u> la šu-pu-u ma-na-ma

(حينما في العلى لم ينبأ عن السماء (لم تسم باسم)، وفي الدنى (الاسفل) لم تذكر الارض باسم حينما كانت مياه (ابسو) الموجود الاول والدهم والام ((تيامة) والدة جميعهم ، واحدة مختلطة)[45]

(فجاء الى الوجود (آنو) بكرهم ووريثهم ومنافسهم ، اجل صار ((انو)) بكر (انشار) يضارع اباه [46]. ثم نصل الى عملية خلق السماء :

(شطرها نصفين كما تشطر المحارة (؟)، وجه احد نصفيها الى موضع مكونا (بذلك) السماء، ثبت الركائز (و) عين الحراس وامرهم الا يتركوا ماءها يتسرب)[47].

ج - فكرة خلق السماء في الكتاب المقدس (العهدالقديم)

تبدأ روايةالخلق في العهد القديم بالقول : "בְּרֵאשִׁית, בָּרָא אֱלֹהִים, אֵת הַשָּׁמַיִם, וְאֵת הָאָרֶץ". (في البدء خلق الله السموات والارض) [48] ثم تفصل عملية الخلق" וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים, יְהִי רָקִיעַ בְּתוֹךְ הַמָּיִם, וִיהִי

מַבְדִּיל, בֵּין מַיִם לָמָיִם .ז וַיַּעַשׂ אֱלֹהִים, אֶת-הָרָקִיעַ, וַיַּבְדֵּל בֵּין הַמַּיִם אֲשֶׁר מִתַּחַת לָרָקִיעַ, וּבֵין הַמַּיִם אֲשֶׁר מֵעַל לָרָקִיעַ; וַיְהִי-כֵן .ח וַיִּקְרָא אֱלֹהִים לָרָקִיעַ, שָׁמָיִם; וַיְהִי-עֶרֶב וַיְהִי-בֹקֶר, יוֹם שֵׁנִי ".

((وقال الله ليكن جلَد في وسط المياه . وليكن فاصل بين مياه ومياه فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد . وكان كذلك ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا)) (49)

ومن هنا نستدل على ان السماء قام بايجادها الله بكلمة منه ، وفي موضع آخر من العهد القديم نقرأ כֹּה, אָמַר יְהוָה, הַשָּׁמַיִם כִּסְאִי, וְהָאָרֶץ הֲדֹם רַגְלָי ((السموات كرسي)) (50) كما ان الله استراح في اليوم السابع بعد اتمام خلق السماء (51) . اما فيما يخص خلق الشمس والقمر فقد ورد ان الله امر ان تكون فكانت: (יד וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים, יְהִי מְאֹרֹת בִּרְקִיעַ הַשָּׁמַיִם, לְהַבְדִּיל, בֵּין הַיּוֹם וּבֵין הַלָּיְלָה; וְהָיוּ לְאֹתֹת וּלְמוֹעֲדִים, וּלְיָמִים וְשָׁנִים .טו וְהָיוּ לִמְאוֹרֹת בִּרְקִיעַ הַשָּׁמַיִם, לְהָאִיר עַל-הָאָרֶץ; וַיְהִי-כֵן .טז וַיַּעַשׂ אֱלֹהִים, אֶת-שְׁנֵי הַמְּאֹרֹת הַגְּדֹלִים: אֶת-הַמָּאוֹר הַגָּדֹל, לְמֶמְשֶׁלֶת הַיּוֹם, וְאֶת-הַמָּאוֹר הַקָּטֹן לְמֶמְשֶׁלֶת הַלַּיְלָה, וְאֵת הַכּוֹכָבִים .יז וַיִּתֵּן אֹתָם אֱלֹהִים, בִּרְקִיעַ הַשָּׁמָיִם, לְהָאִיר, עַל-הָאָרֶץ .יח וְלִמְשֹׁל, בַּיּוֹם וּבַלַּיְלָה, וּלְהַבְדִּיל, בֵּין הָאוֹר וּבֵין הַחֹשֶׁךְ; וַיַּרְא אֱלֹהִים, כִּי-טוֹב. (وقال الله لتكن انوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون الايات واوقات وايام وسنين. وتكون انوارا في جلد السماء لتنير على الارض وكان كذلك . فعمل الله النورين العظيمين . النور الاكبر لحكم النهار والنور الاصغر لحكم الليل وجعلها الله في جلد السماء لتنير على ارض ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة). ومن الجدير بالذكر ان الله (سبح) خلق الليل والنهار في اليوم الاول من ايام الخلق:

" וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים, יְהִי אוֹר; וַיְהִי-אוֹר .ד וַיַּרְא אֱלֹהִים אֶת-הָאוֹר, כִּי-טוֹב; וַיַּבְדֵּל אֱלֹהִים, בֵּין הָאוֹר וּבֵין הַחֹשֶׁךְ .ה וַיִּקְרָא אֱלֹהִים לָאוֹר יוֹם, וְלַחֹשֶׁךְ קָרָא לָיְלָה; וַיְהִי-עֶרֶב וַיְהִי-בֹקֶר, יוֹם אֶחָד" (وقال الله ليكن نور فكان نور ورأى الله النور حسن وفصل بين النور والظلمة ودعا الله النور نهار والظلمة دعاها ليلا) (52)

د- فكرة خلق السماء في الكتاب المقدس (العهد الجديد)

وايد العهد الجديد ما جاء في العهد القديم ، فقد دخل (يسوع المسيح) كاقنوم ثالث في عملية الخلق ، فهو يخلق باذن الله وما يدل على هذا الامر ما ورد في الرسالة الاولى للعبرانيين :

ܒܟܠ ܡܢܘܢ ܘܒܟܠ ܕܡܘܢ ܡܠܠ ܐܠܗܐ ܥܡ ܐܒܗܝܢ
ܒܢܒܝܐ ܡܢ ܩܕܝܡ ܆ ܘܒܗܠܝܢ ܝܘܡܬܐ ܐܚܪܝܐ ܡܠܠ ܥ
ܡܢ ܒܒܪܗ ܕܠܗ ܣܡ ܝܪܬܐ ܕܟܠܡܕܡ ܘܒܗ ܥܒܕ ܠܥܠܡ
ܐ

((والله بعدما كلم الاباء بالانبياء قديما بانواع وطرق كثيرة كلمنا في هذه الايام الاخيرة في ابنه الذي جعله وارثا لكل شيء الذي به ايضا عمل العاملين)) (53) .

وبما ان الله جعل يسوع وارثا لكل شيء وبه عمل العالمين، فمن الممكن ان تكون السماء قد ورثها يسوع وان الله علمها به كما ذكر العهد الجديد ان السماء تتكون من ثلاث طبقات حيث يرد :

ܝܕܥܢܐ ܓܒܪܐ ܒܡܫܝܚܐ ܕܡܢ ܩܕܡ ܐܪܒܥܣܪܐ ܫܢܝܢ
ܐܢ ܒܦܓܪ ܕܝܢ ܗܘܐ ܘܐܢ ܕܠܐ ܦܓܪ ܠܐ ܝܕܥ ܐܢܐ ܐܠܗ
ܐ ܗܘ ܝܕܥ ܕܐܬܚܛܦ ܗܘ ܗܢܐ ܥܕܡܐ ܠܫܡܝܐ ܕܬܠܬܬ
ܐ ⁘

(اختطف هذا الى السماء الثالثة) (54)

ولقد ذكر العهد الجديد ان الله هو ((صانع النعش الجبار والثريـــا)) עֹשֶׂה-עָשׁ، כְּסִיל וְכִימָה (55) وهــذه مجموعات نجمية تقع في برج الثور وفي ابراج السماء الاخرى (56) .

هـ ـ فكرة خلق السماء في القرآن الكريم

(الحمد لله الذي خلق السموات والارض) (57)
ان هذه الاية تكفي للاجابة على السؤال من خلق السماء في القرآن الكريم ؟ وعند التوسع في القرآن وتنـاول مختلف الايات التي تتعرض لخلق السماء ، نجد الكثير من الحقائق والمفاهيم فقد ورد فيـه : ((ان السموات والارض كانتـا رتقـا ففتقناهمـا)) (58) وقـد ذكـر احـد المفسـرين ان المـراد برتـق السـماوات والارض عـدم تمييز بعضـها عن بعض فـي الوجـود بعد العدم (59) ، وذكر القرآن ما يمكن ان نعده اشـارة الـى ان المـاء كـان يسبق خلق السموات والارض:

(وهو الذي خلق السموات والارض في ستة ايام وكان عرشه على المـاء) (60) وفي ايـة اخرى تبين ان الله تعالى خلق السموات ولم يتعب بخلقها:

(ان الله الذي خلق السموات والارض لـم يعي بخلقهن) (61) وهنـاك اشـارة فـي القرآن الكـريم الـى ان السموات سبعة وان الله خلقها في يومين

(فقضــهن ســبع ســموات فــي يــومين) (62)
واليـوم اصـل معنــاه مجمـوع زمنــي الليـل والنهــار المتعـاقبين ولكنــه استعمل فـي بعض آي القرآن وفـي كـلام العـرب بمعنـى الحـوادث والوقـائع المهمـة (63). وهناك اشـارة الى (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا)(64)

اثبتت النظريات العلميـة عن خلـق الكـون انـه كان سديما في الفضاء انفصل الى اجزاء مكونـا الشمس والارض والنجـوم (65).وهـذا يؤيـد مـا جـاء فـي القـرآن الكـريم (ثـم استوى الـى السـماء وهـي دخـان فقـال لهـا وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين) (66).

كما ان الله يمسك السماء ان تقع على الارض فهو تعالى يمنـع اجرام السماوات من ان تسقط بعضـها على بعض وعلى الارض ، أي ان السماوات من شـأنها ان تقــع وتســقط علــى الارض ولكنــه بتــدبيره الحكـيم ولسبب معين منعها من السقوط (67) .

وفيمــا يخــص الشــمس والقمــر فهنــاك ايــة صـريحة تـدل علـى ان الله هـو الـذي قـام بخلقهمـا : (لاتسـجدوا للشـمس ولا للقمــر واسـجدوا لله الــذي خلقهن)(68) .

كمـا ان الله قدر القمر منـازل لكـي يعلم النـاس عـدد السـنين والحسـاب (69) . واقسـم الله فـي القـرآن (والسـماء ذات البـروج) (70) والبـروج هـي المنــازل العاليـة أي منـازل الشـمس والقمـر والكواكب وهـي اثنـا عشر برجا يسير القمر في كل بـرج منهـا يـومين وثـلاث وتسير الشمس في كل برج منها شهرا (71)

كما قدم القرآن الكريم في اغلب آياته ذكر الليل على النهار فمثلا :

(وهو الذي خلق الليل والنهار) (72) (يكور الليل على النهار) (73) . (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) (74) ، كما وردت اشارة الى خلقهما جاء بعد خلق السموات والارض حيث يرد : (خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار) (75).

وبصورة عامة فأن الله اذا اراد خلق شيء (فانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون) (76) وعلى هذا الاساس فأن السماء خلقت بمبدأ الكلمة الخلاقة (كن) . وعن خلق الكواكب نقرأ : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) (77) و(هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) (78)

والله هو الذي خلق الليل والنهار فقد قال (وهو الذي خلق الليل والنهار)(79) والله هو الذي قدر الشهور وعددها (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والارض) (80) والله (يرسل رياحا فتثير سحابا فيبسطه في السماء) (81) وعن المطر ورد ((الله الذي خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء)) (82)(وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موته) (83)

والله ((يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء)) (84) ((ويسبح الرعد بحمده)) (85) وبصورة عامة يمكن القول ان السماء مع جميع اجزائها ومحتوياتها والظواهر المناخية من مطر ورياح وغيرها خلقت من قبل الله كما ورد ذلك في القرآن الكريم .

<u>المقارنة</u>

النصوص المسمارية	الكتاب المقدس	القرآن الكريم
1. حسب ما ورد في النصوص المسمارية فأن المادة التي (ولدت) منها السماء او (خلقت) منها هي ذات طبيعة ثنائية، اذ كانت مادة والها في الوقت نفسه، أي ان المادة ازلية وجدت منذ البدء ولم تخلق .	- لم تكن المادة التي خلقت منها السماء ازلية ولم تكن الها ولم يكن ازلي واله سوى (الله) في العهد القديم ويضاف اليه في العهد الجديد المسيح والروح القدس .	- لم تكن المادة التي خلقت منها السماء ازلية وانما كانت محدثة ولا يوجد شيء ازلي في القرآن الكريم سوى الله تعالى .
2. ان الماء اصل الوجود وبضمنه السماء .	- الماء اصل الوجود وبضمنه السماء .	- اشار القرآن الكريم الى ان الماء سبق خلق السموات والارض ووردت اشارة فيه الى ان السماء وكانت دخانا .
3. ان الكون كان كتلة مائية واحدة ثم شطر الى شطرين السماء والارض وان الذي قام بعملية الشطر الاله (انليل) او الاله (مردوخ) .	- الكون كان كتلة مائية واحدة ثم فصل الله بينها وجعل من احد اجزائها السماء .	وردت اشارة في القرآن الكريم الى نفس مضمون هذه الفكرة من حيث اتصال السماء بالارض .

النصوص المسمارية	الكتاب المقدس	القرآن الكريم
5. ان هناك اكثر من سماء واحدة في الاقسام العليا من الكون (ثلاث سماوات)	- ذكرت السماء بلفظة الجمع (سماوات) في العهد القديم ، كما ذكر العهد الجديد ان السماء تتكون من ثلاث طبقات	- ان هناك سبع سماوات حسب المفهوم القرآني .
6. خضع خلق السماء لمبدأ الاسم المعروف بشكل جيد في الفكر العراقي القديم .	نفس المفهوم يرد في الكتاب المقدس فالله دعا الجلد سماء فكان سماء .	لقد خلقت السماء بمبدأ (كن فيكون) أي ان الله اذا اراد خلق شيء فيقول له كن فيتحقق هذا الشيء كما اراد.
7. هناك افكار ومعتقدات سومرية وبابلية لاتبدو بعيدة عن منطق العلم الحديث فقصص الخليقة في العراق القديم تؤكد ان الكون كان في البدء كتلة واحدة لكن الاله (انليل) او (مردوخ) شطره الى قسمين خلق منها السماء والارض .	- ان الكون كان كتلة واحدة وان الله فصله الى سماء وارض .	القرآن مليء بالاشارات العلمية بخصوص السماء المتطابقة مع منطق العلم الحديث .
8. لقد تقدم خلق السماء حسب بعض النصوص المسمارية على خلق سائر الكواكب والاجرام السماوية.	- تقدم خلق السماء على خلق الاجرام والكواكب الاخرى .	تقدم خلق السماء على خلق الاجرام والكواكب .

النصوص المسمارية	الكتاب المقدس	القرآن الكريم
9. تشير (اسطورة الخليقة البابلية) الى ان الكون لم يكن فيه سوى العماء (Chaos) المؤلفة من (المياه الاولى) وتسمى (تيامة) ومنها (تهامة) [86] .	- يوجد تشابه مع (اسطورة الخليقة البابلية) فالكون لم تكن فيه سوى المياه الاولى والتي تسمى (تيهوم) [87] .	- لا نجد هذه التفاصيل بالدقة في القرآن الكريم .
11. ترد فكرة استراحة الاله (مردوخ) في (اسطورة الخليقة البابلية) في اللوح الرابع وذلك قبل خلق السماء .	- ترد فكرة استراحة الاله في العهد القديم وذلك في اليوم السابع بعد اتمام خلق السماء .	- رفض القرآن فكرة ان الاله يتعرض للتعب واكد انه لم يمسه لغوب جراء خلق السماء .
12. ان المادة التي خلق منها القمر ازلية حسب النصوص المسمارية .	لم تكون المادة التي خلق منها القمر ازلية حسب الكتاب المقدس .	لم تكن المادة التي خلق منها القمر ازلية .
13. ورد في بعض النصوص المسمارية ان القمر ولد من قبل اله الهواء (انليل) او ان الاله (مردوخ) خلقه او خلقه الالهة الرئيسة (انو وانليل وانكي)	- ان الذي خلق القمر هو الله .	- ان الذي خلق القمر هو الله .
14 فيما يخص خلق الشمس فأنها خلقت من القمر او (ولدت) منه، او قام الاله (مردوخ) برسم طريق الشروق والغروب لها او خلقها الالهة الرئيسة (انو وانليل وانكي) .	- ان الذي خلق الشمس هو الله .	- ان الذي خلق الشمس هو الله.

النصوص المسمارية	الكتاب المقدس	القرآن الكريم
15. ان الكواكب والنجوم خلقت لغرض تحديد ايام السنة والفصول والاشهر .	خلقت الكواكب والنجوم لتكون آيات واوقات وايام وسنين .	خلق الله الكواكب لتكون زينة للسماء وخلق النجوم ليهتدي الناس بها في ظلمات البر والبحر .
16. ان عدد الاشهر كان اثنا عشرا شهرا حسب النصوص المسمارية.	وردت اشارات في الكتاب المقدس الى الايام والسنين عند خلق الاجرام السماوية	ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا كما ورد في القرآن الكريم.
17. فيما يخص الهواء والرياح فأن الهواء ولد من اتحاد السماء والارض وجسد بالاله (انليل) وقام الاله (مردوخ) بخلق الرياح في صراعه مع (تيامة) وقد يكون للاله الطائر (انزو) اثر في الرياح .	ورد في الكتاب المقدس ان الله يأمر الريح فتستجيب لامره .	ذكر القرآن الكريم ان الرياح مستمرة بامر الله .
18. فيما يخص المطر فقد ورد في النصوص المسمارية ان الاله مردوخ) قد خلقه واوكله الى الاله (ادد) وقد يكون للاله الطائر (انزو) اثر في المطر .	ان الله يأمر المطر بالنزول على الارض .	ذكر القرآن الكريم ان الله ينزل المطر .
19. ورد في بعض النصوص المسمارية ان الاله (شمش) يأتي بالبرد والجليد والجمد والثلج .	- يمكن القول ان جميع مظاهر المناخ كافة وبضمنها البَرَد كان من قبل الله	رد القرآن جميع مظاهر المناخ وبضمنها البَرَد الى الله تعالى .
20. ورد ذكر الليل قبل النهار في بعض المعطيات المسمارية وجعل خلقهما بعد خلق السماء والارض بدليل خلق القمر قبل خلق الشمس.	ورد ذكر الليل قبل النهار في العهد القديم وجعل خلقها قبل خلق السماء والارض .	ورد ذكر الليل قبل النهار في معظم آيات القرآن الكريم وجعل خلقها بعد خلق السموات والارض .

2- خلق الارض

أ خلق الارض في الفكر السومري

لاشك ان النظرة الى خلق الكون والافكار الخاصة كان مألوفا وشموليا قبل ان يصار الى التدوين الذي كان نتيجة لتطور لغة الكلام والثقافة والمعرفة والعلوم [88]. حيث ورد في المفاهيم السومرية والاكدية، عن خلق الارض، ان السماء والارض كانتا متحدتين ثم فصلت السماء عن الارض كما جاء في اسطورة (خلق المعول) السومرية: (السيد الاله (انليل) قد جعل كل ما هو نافع يبدو ناصعا ،السيد الذي تقريره للمصير لا يمكن ان يتغير، قد اسرع لفصل السماء عن الارض، قد اسرع

لفصل الارض عن السماء)[89]. وفي اسطورة اخرى[90] نقرأ :

(عندما فصلت السماء عن الارض بعدما كانتا متصلتين ظهرت الالهة الام وبعدما وضعت الارض وثبتت في مكانها وبعدما وضعت الالهة قواعد السماء والارض وبعدما نظمت (الالهة) الجداول والقنوات وثبتت شواطيء دجلة والفرات جلست الالهة انو وانليل واوتو وانكي)[91]

ومن خلال هذه الاسطورة نجد ان الارض قد شارك في وضع قواعدها الالهة الاربعة العظام (انو انليل واوتو وانكي)، وفي كل ما تقدم نجد ان فكرة ان الارض كانت متحدة ع السماء وانها فصلت فيما بعد ، اما فيما يتعلق بالمادة التي خلقت منها الارض فاعتقد السومريون انه كان في البدء الالهة (نمو) وتمثل مياه البحر الاول ثم ولدت الالهة (نمو) الاله (آن) الاله السماء و (كي) الالهة الارض [92]. والتي جسمت الارض فيما بعد ، واعتقد السومريون بان ، هذا (البحر الاول) يتصف بالسرمدية والازلية ، انه سبب وجود الارض [93] .

وعلى هذا الاساس فأن فكرة الخلق من القدم ولم تكن مدار بحث في اية اسطورة قديمة، ذلك لان فكرة الخلق كما تضمنتها تلك الاساطير ما هي الا عملية استخلاص النظام من حالة فوضى اصلية [94]. وفي مفهوم اخر نجد ان الهة المياة الازلية (نمو) قد خلقت الهة الارض (كي) وان الهة الارض كانت باعتقاد السومريين هي الفناء الواسع الذي يقع تحت السماء[95] ولقد جاء في احدى الاساطير: (آه يا انليل، عندما خلقت السموات والارض، كنت انت الملك)[96]

وهنا نجد ان الاله (انليل) بمفرده قام بخلق الارض، وعلى ضوء ما تقدم فقد اعتبر سكان العراق القديم ان المادة التي خلقت منها الارض ازلية [97]. وان الالهة (نمو) قامت بولادة السماء والارض [98] متحدتين على شكل جبل كوني ، ثم قام الاله (انليل) الذي تولد من اتحاد اله السماء (انو) والهة الارض (كي) بفصل السماء عن الارض [99] . وهذا قد يفسر ما ورد في الاسطورة السابقة حيث تعد عملية الفصل التي قام بها الاله (انليل) للسماء والارض عملية خلق لهما .

اعتقد السومريون بان الارض على شكل قرص مسطح وان السماء على شكل قبة تعلوه [100] كما شخص السومريون الارض بالالهة (كي)حيث تجسدت هذه الالهة بالارض [101] اما كيف كانت الارض قبل تمييزها، فكانت غمرا من المياه وكانت هذه المياه ممثلة بالالهة (نمو) وهي ام الوجود كله وهي البحر الاول [102] ، وكانت الارض والسماء محاطة من كل الجهات ببحر خضم لا نهاية له وان الكون باكمله ثابت في هذا الخضم[103] .

ان خلق الارض لم يكن من العدم وان عناصر الكون كانت مختلطة وان الخلق قد تم بالتمييز ثم بالتسمية ففي مطلع النص السومري لملحمة جلجامش نجد الاسطر التالية: (بعد ان تم ابعاد السماء عن الارض بعد ان فصلت الارض عن السماء) [104]

وبصورة عامة فأن اساس فكرة الخلق لدى السومريين انها قائمة على مبدأ انقسام المنظومة الاساسية (الكل) الى اجزاء منفصلة يعمل كل منها (ككل) قائم بذاته . فمنظومة الكون كانت في الاساس واحدة متمثلة بالجبل الكوني (Mauntain Cosmic) وان فكرة النشوء وخلق الارض جاء نتيجة انقسام هذا الجبل الى اجزاء (منظومات احادية) كانت الارض احداها [105] .

ب خلق الأرض في الأساطير البابلية

قبل خلق السموات والارض، أي في البداية الاولى كان الكون باسره فوضى جسيمة مائية مضطربة[106] وما يهمنا في هذه الاسطورة الان هو ما يتعلق بخلق الارض حيث نذكر في مطلعها :

e-nu-ma e-liš la na-bu-ú šá-ma- šap-liš am-ma-tum šu-ma la zak-ra

(عندما في العلى لم تكن السماء قد سميت والارض لم يكن قد ظهر بعد اسمها) [107]

وتبدأ احداث هذه الاسطورة حيث لم يكن هناك كون ولا آالهة ولم يكن موجود سوى فوضى مؤلفة من المياه الممتزجة وهي (ابسو) الذي هو لجة الماء العذب و (تيامة) وهي محيط الماء المالح [108] . ثم خرجت من هذه الفوضى كائنات الهية بدائية وبعد ذلك اتخذت هذه الالهة اشكالا واضحة ، ووصلت سلسلة الالهة الى ولادة الاله (مردوخ) ، وبعد قتال محتدم تمكن (مردوخ) من قتل (تيامة) الهائجة الغاضبة ، ثم شق جسدها الى شطرين رفع احدهما لخلق السماء :

(شقها مثل سمكة الى نصفين ثبت احدهما عاليا ليكون السماء ووسع الابسو ، حيث مقام نوديمود (ايا) قاس ابعاد الابسو) [109] ويمكن القول ان هناك ثلاثة احتمالات لخلقها بحسب هذه الاسطورة :

ان الارض سقف المياه العمق (ابسو) وبالتالي مسكن (ايا) هو الارض نفسه ويوافق مدلول اسم (ايا) في السومرية (انكي) حيث يتكون من (ان) وتعني سيد و (كي) الارض فيصبح معنى اسمه (سيد الارض) . خلق (مردوخ) من شطر (تيامة) الاخر الارض . ان الجزئين الرئيسين من الكون يتمثلان في باطن الارض وفي السماء ، ومن هنا اهملت الاسطورة الاشارة الى عملية خلق الارض باعتبارها جزءا قائما بذاته ، ولكنها في نفس الوقت اشارت الى المادة التي ستخلق منها،أي الشطر الثاني من جسم(تيامة) [110]

وبحسب الاحتمالين الاخيرين فان الذي قام بخلق الارض هو الاله (مردوخ) ، وقد ادى ما اداه الاله (انليل) تقريبا في الاساطير السومرية المتقدمة من خلال فصله السماء عن الارض .

يمكن ان نستشف من وراء الغلاف الاسطوري (الاسطورة الخليقة البابلية) احوال العراق القديم حيث ان الصراع بين (مردوخ) وتيامة (المياه المالحة) ، فالسهول الرسوبية التي نشأت فيها الحضارات ان لم تكن مغمورة بمياه البحر او مياه الاهوار والاحراش الناجمة عن فياضانات لانهار ثم استطاع الانسان بمرور الزمن ان يسيطر على تلك الاحوال الطبيعية العنيفة بما اقامه من سدود ونظام للري [111] .وان (اسطورة الخليقة البابلية) على العكس من الاساطير السومرية السابقة ، فهي توحد الظواهر المتباينة وتؤمن بثنائيات الوجود ، فالخلق عند البابليين ينتج من اتحاد عنصرين متقابلين يتولد منهما عنصر ثالث وهو ما يسمى عملية الخلق الثلاثية [112] .

وهناك اسطورة بابلية [113] تتناول خلق الارض تتناول خلق الارض من قبل الاله (مردوخ) على النحو الآتي : (مردوخ على سطح المياه ظفرا حصرا وصنع شيئا من التراب وخلطه مع الحصير وهذا كون لوحا صلبا فوق المياه : وهي الارض) [114] . كما ان هناك فكرة جديدة عن خلق الارض وردت في تعويذة جاء فيه : (بعد ان خلق (انو) السماء السماء خلقت الارض)) [115]

حيث تجعل السماء مسؤولة عن خلق الارض قسمت الارض الى ثلاث طبقات حيث يرد تحديدها في احد النصوص المسمارية بانها : الارض (العليا) التي يسكن عليها البشر والارض الوسطى التي اعتبرت مقام الاله (انكي) (ايا) والارض السفلى وهي العالم الاسفل [116] .

واعتقد سكان العراق القديم ان جميع الظواهر انما تحدث بامر الالهة [117] . وان الارض تشكلت بتدخل مجموعة آلهة او اله واحد ، علما ان المادة التي تشكلت منها الارض هي مادة ازلية .

ويمكن القول ان سكان العراق القديم تخيلوا الارض في هيئة قرص مسطح محاط بحاشية من الجبال يطفو على محيط من المياه العذبة (الابسو) وعلى الجبال يستقر قوس السماء الذي يفصل الجو (ليل) عن الارض والكون كله (ان - كي) (سماء - ارض) ينغمر كفقاعة كبيرة في محيط لاحدود له من الحياة البدائية غير المخلقة ولم تكن الارض عندهم لتشمل اكثر من وادي الرافدين والمناطق المجاورة له تماما ، وفي وسط هذه ((الارض)) تقع مدينة (بابل) للبابليين وربما (نفر) للسومريين [118] .

على الرغم من ان كثيرا من القضايا التي عالجها سكان العراق القديم كانت قائمة على اساس الفكر الاسطوري الا انهم خلصوا الى افكار ومعتقدات لا تبدو بعيدة عن منطق العلم احيانا [119]، ومن ضمن هذه الافكار ما ورد من ان الكون كان في البدء كتلة واحدة ، لكن الاله (انليل) او الاله (مردوخ) شطره الى قسمين خلق منهما السموات والارض [120]

ج - خلق الارض في الكتاب المقدس .

ارجع العهد القديم خلق الارض الى الله ففي سفر التكوين نقرأ : א בְּרֵאשִׁית, בָּרָא אֱלֹהִים, אֵת הַשָּׁמַיִם, וְאֵת הָאָרֶץ .ב וְהָאָרֶץ, הָיְתָה תֹהוּ וָבֹהוּ, וְחֹשֶׁךְ, עַל-פְּנֵי תְהוֹם;(في البدء خلق الله السموات والارض . وكانت الارض خربة وخالية) [121] ونقرأ ايضا : ט וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים, יִקָּווּ הַמַּיִם מִתַּחַת הַשָּׁמַיִם אֶל-מָקוֹם אֶחָד, וְתֵרָאֶה, הַיַּבָּשָׁה; וַיְהִי-כֵן .י וַיִּקְרָא אֱלֹהִים לַיַּבָּשָׁה אֶרֶץ, וּלְמִקְוֵה הַמַּיִם קָרָא יַמִּים; וַיַּרְא אֱלֹהִים, כִּי-טוֹב. (وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء الى مكان واحد ولتظهر اليابسة وكان كذلك ودعا الله اليابسة ارضا . ومجتمع المياه دعاه بحارا)[122] .من هنا نرى ان اصل الارض هي المياه التي اجتمعت تحت السماء . وفي الرواية الاخرى للتكوين نقرأ : ד אֵלֶּה תוֹלְדוֹת הַשָּׁמַיִם וְהָאָרֶץ, בְּהִבָּרְאָם: בְּיוֹם, עֲשׂוֹת יְהוָה אֱלֹהִים--אֶרֶץ וְשָׁמָיִם (هذه مبادىء السموات والارض حين خلقت يوم عمل الرب الاله الارض والسموات) [123] وهناك من يذكر ان الله عندما قرر خلق السماء والارض لم يجد سوى (اللاتكون) والفراغ [124] .(וְהָאָרֶץ, הָיְתָה תֹהוּ וָבֹהוּ, וְחֹשֶׁךְ, עַל-פְּנֵי תְהוֹם)

لقد عدت التوراة ان المياه اصل الوجود وان السماء والارض خلقتا بعد عملية فصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد [125] ، اما الخلق بالكلمة فتظهر واضحة في التوراة וַיֹּאמֶר אֱלֹהִים, יִקָּווּ הַמַּיִם מִתַּחַת הַשָּׁמַיִם אֶל-מָקוֹם אֶחָד, וְתֵרָאֶה, הַיַּבָּשָׁה; וַיְהִי- כֵן . וַיִּקְרָא אֱלֹהִים לַיַּבָּשָׁה אֶרֶץ, וּלְמִקְוֵה הַמַּיִם קָרָא יַמִּים [126] وعليه يمكن القول ان الله خلق الارض من المياه التي تقع تحت السماء وانه الخالق الاوحد لها . خلق الله الماء الذي اوجد منه السماء والارض فيما بعد .

د- خلق الأرض في العهد الجديد

ولكون (يسوع المسيح) هو اقنوم من اقانيم الرب فقد كان له اثر - ولو بصورة غير مباشرة - في خلق الارض حيث نقرأ :

ܐܝܬܘܗܝ ܗܘܐ ܒܪ ܢܘܗܪܐ ܕܫܪܪܐ ܕܡܢܗܪ ܠܟܠܢܫ ܕ
ܐܬܐ ܠܥܠܡܐ ܀

ܒܥܠܡܐ ܗܘܐ ܘܥܠܡܐ ܒܐܝܕܗ ܗܘܐ ܘܥܠܡܐ ܠܐ ܝܕ
ܥܗ ܀ (كان النور الحقيقي الذي ينير كل انسان آتيا الى العالم كان في العالم وكون العالم به ولم يعرفه العالم) (127) فالعالم كون بـ (يسوع) والارض جزء من هذا العالم بطبيعة الحال .

هـ- خلق الأرض في القرآن الكريم

قرر الله في القرآن الكريم حقيقة ثابتة ومهمة وهي ان الارض قد خلقت من قبله والحقيقة الاخرى هي ان الارض وجدت لنفع الانسان: (والله جعل لكم الارض بساطا) (128) فقد جمعت هذه الاية بين الحقيقتين اعلاه فالله هو الذي جعل الارض أي اوجدها وخلقها كما انه جعلها بساطا لبني البشر . ويذكر القرآن الكريم ان الارض قد خلقت في مقدار يومين ثم جعل فيها جبالا من فوقها ، وبارك فيها بما خلق من المنافع . وقدر فيها ارزاق اهلها على حسب الحاجة اليها في قوام ابدان الناس وسائر الحيوان في تتمة اربعة ايام من حين ابتداء الخلق فاليومان الاولان داخلان (129) .

وهناك اشارات في القرآن الكريم الى ان السموات والارض كانتا رتقا أي سدا بمعنى مسدودة (ففتقناهما) أي جعلنا السماء سبعا والارض سبعا او فتق السماء ان كانت لا تمطر فامطرت وفتق الارض ان كانت لاتنبت فانبتت (130) . كما قص القرآن الكريم في سورة النازعات قصة خلق الارض وما عليها حيث يذكر ان الارض بعد ان وضع فيها الليل والنهار واخذت شكلها الذي يقرب من البيضة ((والارض بعد ذلك دحاها)) (131) وتقرر الاية الاخرى ان الماء وجد بعد ذلك ثم وجدت المراعي حيث تقول الاية ((اخرج منها ماءها ومرعها)) (132) ثم بعد ذلك وجدت الجبال اذ نصت الاية ((والجبال ارساها)) (133) . كما وردت اشارة في القرآن الكريم الى وجود سبع ارض قام الله بخلقها وان لم نتمكن من معرفة تفاصيل هذه الطبقات الارضية حيث نقرأ . (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن) (134) بل ان القرآن الكريم ذكر ان الارض سوف تتحرك وتتزلزل عند قيام الساعة وهذا يعني ان القرآن قد تعرض لنهاية الارض ومن عليها حيث نقرأ : (اذا زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها)(135)

المقارنـــة

النصوص المسمارية	الكتاب المقدس	القرآن الكريم
1.ورد في النصوص المسمارية ان السماء والارض كانتا متحدتين وان الاله (انليل) حسب المفهوم السومري قام بفصلهما بعضهما عن بعض واوجد الارض،او الاله (مردوخ) حسب(اسطورة الخليقة البابلية) قام بشطر جسد (تيامة) الى قسمين خلق الارض على الاغلب من احد القسمين .	-وردت نفس الفكرة في العهد القديم تقريبا ، فقد كان الكون عبارة عن غمر من المياه غير محدد ثم قام الله بفصل السماء عن الارض بواسطة فاصل .	- وردت اشارة في القرآن الكريم الى المفهوم نفسه فالسماء والارض كانتا رتقا ففتقهما الله

النصوص المسمارية	الكتاب المقدس	القرآن الكريم
2. ورد في النصوص المسمارية ان المادة التي خلقت منها الارض ازلية وتتمثل بالمياه الاولى .	- لايوجد أي شيء ازلي في العهد القديم سوى الله ، او الله واقنومه في العهد الجديد كما ان المادة التي خلقت منها الارض غير ازلية وكانت من المياه .	- لايوجد شيء ازلي في القرآن الكريم سوى الله ، ولم يتعرض القرآن الكريم الى نوع المادة التي خلقت منها الارض .
3. ورد في بعض النصوص المسمارية ان الالهة الاربعة الرئيسة (انو وانليل واوتو وانك) قاموا بخلق الارض .	- ان الذي قام بخلق الارض هو الله وحده اما في العهد الجديد فقد كان المسيح بوصفه اقنوم من اقانيم الرب مشتركا في خلق الارض .	- ان الذي قام بخلق الارض هو الله وحده في القرآن الكريم .
5. وردت اشارات في بعض النصوص المسمارية الى ان الارض تتكون من ثلاث طبقات .	- وردت لفظة (الارض) بصيغة المفرد في الكتاب المقدس .	- وردت اشارة في القرآن الكريم الى ان الله خلق سبع ارضين .

<u>الاستنتاجات</u>

-ورد في كل من المحاور الثلاثة فكرة ان الكون كان كتلة واحدة وان (الاله) قام بفصله الى سماء وارض وان هذه الفكرة لها ما يدعمها بمنطق العلم الحديث كما مر سابقا .

-ان هناك اكثر من سماء واحدة - اذا اخذنا بنظر الاعتبار ورود لفظة السموات في العهد القديم - في كل من المحاور الثلاثة .

-تقدم خلق السماء في كل من المحاور الثلاثة على خلق الاجرام والكواكب الاخرى .

-من الامور الملفتة للنظر هو تحديد مدة زمنية لخلق السماء في كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم فالكتاب المقدس يذكر ان السماء خلقت في اليوم الثاني من ايام الخلق والقرآن الكريم يذكر ان خلق السماء جرى في يومين وقد ورد ذكر خلق السماء في اللوح الرابع من اسطورة الخليقة البابلية المؤلفة من سبعة الواح .

-لقد وردت فكرة استراحة الاله بعد الخلق في الكتاب المقدس ، وورد ان الاله (مردوخ) استراح بعد قتل (تيامة) وذلك قبل خلق السماء اما في القرآن الكريم فنجد انه ينفي فكرة استراحة الاله بعد الخلق حيث يرد : (ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما وما مسنا من لغوب)

-ورد ان عدد الاشهر اثنا عشر شهرا ، سواء في النصوص المسمارية والقرآن الكريم .

-خضع خلق السماء لمبدأ الاسم المعروف بشكل جيد في الفكر العراقي القديم . اما في الكتاب المقدس والقرآن الكريم فقد خضع خلق السماء من قبيل ان الله امر ان تكون السماء فكانت ،

اما خلق الارض في كل من هذه المحاور الثلاث فقد تطور تدريجيا بدءا من خلقها بحسب النصوص السومرية والبابلية مرورا في كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم .

-حيث ورد في النصوص المسمارية ان الذين قاموا بخلق الارض الهة كثيرون كان منهم (آنو وانليل واوتو وانكي) وحتى الاله (مردوخ) ، اما في الكتاب المقدس يرد ان الله في العهد القديم واقنومه يسوع المسيح في العهد الجديد قاما بخلق الارض اما في القرآن الكريم فان الله وحده خلق الارض وهذا تطور في الفكر الانساني نحو التوحيد ونضج في الافكار الدينية .

- لقد خلقت الارض في اليوم الثالث من ايام الخلق كما ورد في العهد القديم وذكر القرآن الكريم ان الارض خلقت في يومين وانها خلقت من قبل الله تعالى .

-لقد اثبت العلم الحديث ما قاله القرآن الكريم فقد عرف ان الارض بردت بعد انفصالها عن الشمس

لذا فأن الافكار المتشابهة في كل من هذه المحاور الثلاث ربما تعود الى الموروث الانساني المشترك وان اللاحق من هذا الموروث الفكري لم يستل من السابق له، رغم ورود افكار متشابهة بينها حينا ومتطابقة حينا آخر، بل ان اصل هذا الموروث لايمكن ان يكون الا نتاجا عن النبوءات التي لم نحط بها علما ، والتي ارسلها الاله الواحد (الله) لغرض هداية البشر جميعا الى عبادته واقامة شرائعه

الهوامش:

---

(1) عرف من الاساطير السومرية ما يربو على عشرين اسطورة منها : اسطورة انليل وننليل - انليل وخلق الفأس - اسطورة انكي وتنظيم الكون - انكي وننخرساك - انكي واريدو والرحلة الى نفر - رحلة اله القمر ننا (سين) الى نفر - ننورتا والوحش اساك - إنانا وانكي - انانا وجبل ابيخ - انانا والبستاني - إنانا وبيلولو - نزول انانا الى العالم السفلي - اساطير دموزي (تموز) والمعتقدات الخاصة به - منازلة التنين ومثله في الاسطورة السومرية . اما الاساطير البابلية فهي :

اسطورة الخليقة البابلية - اسطورة انزو وسرقة الواح القدر - نركال وايرشكيجال - اسطورة ايرا . ينظر:

الجبوري ، صلاح سلمان رميض ، ادب الحكمة في وادي الرافدين ، مراجعة أ.د فاضل عبد الواحد علي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 2000) ، ص 20 – 21 .

(2) علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر اسطورة وملحمة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 1997 ، ص 85 .

(3) الخوري ، لطفي ، معجم الاساطير، ج 1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 1990) ، ص 9 وحول انواع الاساطير ينظر : الخوري ، لطفي ، "المعجم الميثولوجي"، التراث الشعبي، عدد 1-2 السنة 15 ، 1984 ، ص ص 125 – 127 .

(4) علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر ... ، المصدر السابق ، ص 92 .

(5) رشيد ، صبحي انور ، تاريخ الفن في العراق القديم ، جـ 1 ، فن الاختام الاسطوانية ، المؤسسة الاسلامية للطباعة والنشر (بيروت - لبنان ، ب ت) ، ص 4 .

(6) بوترو، جين وآخرون، الشرق الأدنى الحضارات المبكرة، ترجمة عامر سليمان، جامعة الموصل، 1986، ص 21. وللمزيد حول العهد القديم ينظر: السقا ، أحمد حجازي، نقد التوراة، أسفار موسى الخمسة السامرية - العبرانية - اليونانية، دار الجيل، (بيروت ، 1995)، ص ص 26 - 30 .

(7) st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/22_K/K_016.html الكتاب المقدس

، دار الكتاب المقدس في اشلرق الاوسط ، ط 1، الاصدار الخامس ، 2003 م .

[8]. الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، ص 2 .

[9] الخوئي ، ابو القاسم الموسوي ، البيان في تفسير القرآن، الكتاب الاول مطبعة العمال المركزية ، (بغداد ، 1988) ، ص 50 وللمزيد حول معجزة القرآن ينظر : المصدر نفسه، ص ص 43 - 54 .

[10] المصري ، ابي الفضل ، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي لسان العرب ، مج 14 ، ص 397

[11] علي ، فاضل عبد الواحد ، من الواح ... ، المصدر السابق ، ص ص 245 - 246 .

[12] هناك من الباحثين من يرى ان الامم القديمة كانت خاضعة في الدين والسياسة لطبقة من الكهان المستغلين للدين في سبيل السلطة ، من اجل ذلك كتموا علومهم حتى لا تصل الى العامة فتضيع سلطتهم هم ، فلما انقرضت طبقة الكهان انقرض علمها معها . حول هذه الفكرة ينظر : فرّوخ ، عمر ، تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون ، ط2 ، دار العلم للملايين ، (بيروت ، 1979) ص 30 .

[13] كريمر ، س.ن ، هنا بدأ التاريخ - حول الاصالة في حضارة وادي الرافدين ، ترجمة ناجية المرواني ، دار الجاحظ ، (بغداد ، 1980) ص 62 .

[14] امين ، بديعة ، " فكرة الصراع في الادب السومري " ، افاق عربية ، (اذار - 1978) ، ص 62 .

[15] حنون ، نائل ، عقائد ما بعد الموت عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ، ط2 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 1986) ، ص 181.

[16] كريمر ، س.ن ، هنا بدأ التاريخ ... ، المصدر السابق ، ص ص 64 - 65 .

[17] الاحمد ، سامي سعيد ، " اسطورة ايتانا والنسر - استنتاجات المؤرخ العربي، العدد 18 ، (العراق ، 1981) ص 147 .

[18] الاحمد ، سامي سعيد ، السومريون وتراثهم الحضاري، منشورات الجمعية التأريخية العراقية ، (بغداد ، 1975)، ص 25 .

[19] حنون ، نائل ، عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت ، 2002) ، ص 19 .

[20] بابل : وهي مدينة برزت مع سلالة بابل الاولى 01894 - 1595 ق.م) ويرى الباحثين ان معنى اسمها (بابيلو) هو باب الاله او بابيلي) أي باب الالهة . ينظر : بوتيرو ، بلاد الرافدين - الكتابة - العقل - الالهة ، ترجمة الاب البير ابونا ، مراجعة د. وليد الجادر ، دار الشؤون الثاقفية العامة ، (بغداد ، 1990) ، ص 364 و ينظر ايضا : ملرش ، ايج - أي - ايل ، قصة الحضارة في سومر وبابل ، ترجمة عطا بكري ، مطبعة الارشاد ، (بغداد ، 1971) ص 8 .

[21] حنون ، نائل ، عقائد الحياة ... ، المصدر السابق ، ص 19 .

[22] يظهر جليا من دراسة الاساطير لبلدان العالم القديم ان عملية خلق الكون قد اقترنت بصراع عنيف بين الالهة في الدهور الاولى ، فنحن نقرأ على سبيل المثال في الاسطورة المصرية اخبار المؤامرة التي دبرها الاله (سيث) لاخيه الاكبر (اوسيرس) وكيف قتله ثم الصراع العنيف الذي نشب بين (هورس) ابن (اوسيرس) وعمه (سيث) حيث صمم (هورس) على قتل عمه فقتله وجلس على عرش ابيه . ينظر : علي ، فاضل عبد الواحد ، " الخلق والتكوين في المعتقدات السومرية والبابلية " مجلة كلية الاداب ، العدد 53 ، 2001 ، ص ص 9 -10 وحول اساطير الخلق عند المصريين القدامى ينظر : الاحمد ، سامي سعيد ، واحمد ، جمال رشيد ، تاريخ

الشرق القديم، الجميعة التاريخية العراقية ، (بغداد ، 1988) ، ص ص 96 - 99 .

(23) سليمان ، عامر ، العراق في التاريخ القديم ـ التاريخ الحضاري ، (جامعة الموصل ، 1993) . ، ص ص 276 - 277 .

(24) سليمان ، عامر ، معجم اللغة (الاكدية البابلية ـ الاشورية) باللغة العربية والحرف العربي، جـ 1 ، منشورات المجمع العلمي ، (بغداد ، 1999) ، ص 86.

(25) بوستغيث ، نيكولاس ، حضارة العراق واثاره ـ تاريخ مصور ، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي ، دار المأمون للترجمة والنشر ، (بغداد ، 1991) ، ص 126 .

(26) سليمان ، عامر ، معجم اللغة الاكدية ... ، المصدر السابق ، ص 86 .

(27) المصري ، ابي الفضل ، لسان العرب ، مج 14 ، ص 397 .

(28) كريمر ، صموئيل نوح ، من الواح سومر ، ترجمة طه باقر ، مكتبة المثنى ببغداد ومؤسسة الخانجي بالقاهرة ، ب ت ، ص 151 .

(29) كتبت هذه الاسطورة على رقيم طيني وجد بحالة رديئة وفيه خروم عديدة تم اكتشافه من قبل المنقب البريطاني (جورج سمث) وذلك في احد الخنادق التي حفرت بطريقة غير علمية في نينوى خلال القرن التاسع عشر الميلادي . وللمزيد حول هذا اللوح ينظر : حنون ، نائل ، عقائد الحياة ... ، المصدر السابق ، ص ص 33-34

(30) اعتقد سكان العراق القديم ان الالهة تعيش كما كان البشر يعيشون في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط معينة وعلى رأس هذا المجمع يقف رئيس الالهة يساعده في ادارة شؤون مجمع الالهة عدد من الالهة الكبار . ويقف على رأس مجمع الالهة الاله (آنو) ، اله السماء وابو الالهة ويليه في الاهمية الاله (انليل) ، ثم الاله انكي (ايا) اله الارض . ثم تلي هذه المجموعة من الالهة العظام مجموعة ثانية تتألف من الاله (سين) ، اله القمر ، والاله (شمش) ، اله الشمس ، والالهة (عشتار) ينظر : سليمان ، عامر ،" جوانب من حضارة العراق القديم ، العراق في التاريخ ، (بغداد ، 1983) ، ص 211 .

(31) حنون ، نائل ، عقائد الحياة ... ، المصدر السابق ، ص 34 .

(32) لابات ، رينيه ، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين ـ مختارات من النصوص البابلية ، تعريب الاب البير ابونا و د.وليد الجادر ، (بغداد ، 1988) ، ص 288 .

(33) حبي ، يوسف ، " الانسان والارض في ادب وادي الرافدين " ، افاق عربية ، السنة الرابعة ، العدد 9 ، ايار ، 1979 ، ص 84 .

(34) الشوك ، علي ، الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ، دار الام،(لندن ، 1987) ، ص 38 . وينظر حول نفس الموضوع : كريمر ، صموئيل نوح ، الاساطير السومرية ... ، المصدر السابق ، ص 66 .

(35) المصدر نفسه ، ص 31 .

(36) Jacabsen, Thorkild, The Treasures of darkness – Ahistory of Mesopotamian Religion, Yale University Press, (New Haven and London, 1976), P. 95 .

(37) I bid., P. 98 .

(38) هي اسطورة سومرية ولكنه ليس لدينا منها سوى اسطر لا يزيد عن اثني عشر سطرا او اكثرها غير كامل. ينظر : كريمر ، صموئيل نوح ، من الواح سومر ، المصدر السابق ، ص ص 284-285 .

(39) كريمر ، صموئيل نوح ، الاساطير السومرية ... ، المصدر السابق ، ص 63 .

(40) (نفر) : وتقع اطلالها بالقرب من مدينة (عفك) الحالية وتبعد عن جنوب شرقي بابل بحوالي 45 ميلا ، وهي من اشهر المدن المقدسة في العراق القديم . ينظر : باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، جـ 1 ، (بغداد ، 1973) ، جـ 1 ، ص 272 .

(41) الماجدي ، خزعل ، انجيل بابل ، المصدر السابق ، ص 108 .

(42) عن هذه الرقية ينظر : باقر ، طه ، مقدمة في ادب العراق القديم ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1976) ، ص 84 . حنون ، نائل ، عقائد الحياة ... ، المصدر السابق ، ص ص 31-33 .

(43) هايدل ، الكسندر، الخليقة البابلية -قصة النشوء والتكوين عند قدماء العراقيين وانعكاساتها على "العهد القديم " ، ترجمة ثامر مهدي ، مراجعة محي الدين اسماعيل ، بيت الحكمة ، (بغداد ، 2001) ، ص 93 .

(44) عكه ، اسعد محمد ، "اساطير الخلق واصل الحياة "، افاق عربية ، السنة السابعة ، عدد 11-12 ، (تموز – آب ، 1982) ، ص 77 .

(45) باقر ، طه ، مقدمة في ادب ... ، المصدر السابق ، ص 74 .

(46) المصدر نفسه ، ص 75 .

(47) هايدل ، الكسندر ، الخليقة البابلية ...، المصدر السابق، ص 54 .

(48) سفر التكوين 1:1 .

(49) سفر التكوين 1: 6-8 .

(50) سفر اشعيا 66 : 1 .

(51) ((فاكملت السموات والارض وكل جندها . وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل . فاستراح في اليوم السابع)) سفر التكوين 2 : 1-3 .

(52) سفر التكوين 1 : 3-5 .

(53) الرسالة الاولى الى العبرانيين 1 : 1-2 .

(54) رسالة بولس الرسول الثانية الى اهل كورنثوس 12:2.

(55) سفر ايوب 9:9 .

(56) ينظر : الكتاب المقدس ، معجم الكلمات الصعبة للعهد الجديد ، ط1 ، الاصدار الخامس ، دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط ، 2003 ، ص 15 .

(57) سورة الانعام :اية 1 .

(58) سورة الانبياء : اية 30 .

(59) الطباطبائي ، محمد ، الميزان ... ، المصدر السابق ، مج 14 ، ص 279 .

(60) سورة هود : اية 7 .

61

6262(62) سورة فصلت : اية 12 .

(63) احمد ، حنفي ، التفسير العلمي للآيات الكونية ، دار المعارف (مصر ، ب ت) ص 244 . وقد ورد في القرآن الكريم ان مقدار اليوم عند الله خمسين الف سنة (في يوم كان مقداره خمسين الف سنة) سورة المعارج : اية 4 .

(64) سورة فاطر : اية 41 .

(65) نوفل ، عبد الرزاق ، القرآن والعلم الحديث ، دار الكتاب العربي ، 0بيروت ، ب ت) ص 162 . وللمزيد حول هذا الموضوع ينظر : المصدر نفسه ، ص 162 –169.

(66) سورة فصلت :اية 11 .

(67) احمد ، حنفي ، التفسير العلمي ... ، المصدر السابق ، ص 249 .

(68) سورة فصلت : اية 37 .

(69) ينظر : سورة يونس : اية 5 .

(70) سورة البروج :اية 1 .

(71) الطبرسي ، ابو علي ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت ، 1379 هـ) ، مج 5 ، ص 466 .

(72) سورة الانبياء : اية 33 .

(73) سورة الزمر :اية 5 .

(74) سورة غافر :اية 61 .

(75) سورة الزمر : اية5 .

(76) سورة يس :اية 82 .

(77) سورة الصافات : اية 6 .

(78) سورة الانعام : اية 97 .

(79) سورة الانبياء :اية 33 .

(80) سورة التوبة :اية 36 .

(81) سورة الروم :اية 48 .

(82) سورة ابراهيم : اية 32 .

(83) سورة البقرة :اية 164 .

(84) سورة الرعد :اية 13 .

(85) سورة الرعد :اية 13 .

(86) باقر ، طه ، مقدمة في ادب ... ، المصدر السابق ، ص 81 .

(87) باقر ، طه ، المصدر نفسه ، ص 81 .

(88) الجادر ، وليد ، وفاضل ، عبد الاله ، " دور العلم والمعرفة في العراق القديم" ،المورد ، مج 16 ، العدد 3 ، 1997 ، ص 82 .

(89) رشيد ، فوزي ، " خلق الانسان في الملاحم السومرية والبابلية" ، افاق عربية ، العدد 9 ، ايار ، 1981 ، ص 17 .

(90) لم نستطع معرفة عنوان الاسطورة بسبب التلف الذي اصابها . ينظر : فوزي ، رشيد ، خلق الانسان ... ، المصدر السابق ، ص 17 .

(91) المصدر نفسه ، ص 17 .

(92) باقر ، طه ، و فرنسيس ، بشير ، " الخليقة واصل الوجود "، سومر ، مج 5 ، جـ 1 ، كانون الثاني ، 1949 ، ص 1 .

(93) كريمر ، صموئيل نوح ، الاساطير السومرية ... ، المصدر السابق ، ص 119 .

(94) هوك ، صموئيل هنري ، الاساطير في بلاد ما بين النهرين ، ترجمة يوسف داود عبد القادر ، وزارة الثقافة والاعلام ، (العراق ، 1968) ، ص 10 .

(95) كريمر ، صموئيل نوح ، من الواح سومر ، المصدر السابق ، ص 162 وحول نفس الموضوع ينظر : الهيتي ، قصي منصور عبد الكريم ، عبادة الاله سين في حضارة بلاد وادي الرافدين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ـ جامعة بغداد ، 1995 ، ص 2 .

(96) الطعان ، عبد الرضا ، الفكر السياسي ... ، المصدر السابق ، ص 359 .

(97) علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر ... ، المصدر السابق ، ص 64 .

(98) هوك ، صموئيل ، الاساطير ... ، المصدر السابق ، ص 11 . وحول نفس الموضوع ينظر : علي ، فاضل عبد الواحد ، من الواح ... ، المصدر السابق ، ص 118 .

(99) حنون ، نائل ، عقائد الحياة ... ، المصدر السابق ، ص 35 .

(100) Richard M. ، Powers ، land of The Two ، Rivers، (U.S.A. ، 1962) P.54 .

(101) الخوري ، لطفي ، معجم الاساطير ، المصدر السابق ، ص 64 .

(102) عكه ، اسعد محمد ، اساطير الخلق ... ، المصدر السابق ، ص 78 .

(103) كريمر ، صموئيل نوح ، هنا بدأ التاريخ ... ، المصدر السابق ، ص 63 .

(104) عكه ، اسعد محمد ، المصدر السابق ، ص 77 .

(105) عبد الرزاق ، جنان عبد الوهاب ، جدلية التواصل في العمارة العراقية ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2002 ، ص 174 .

(106) كيرا ، ادوارد ، كتبوا على الطين – رقم الطين البابلية تتحدث اليوم ، ط2 ، ترجمة د.محمود حسين الامين ، مراجعة علي خليل ، مكتبة دار المثنى ، (بغداد، 1964)، ص 14 .

(107) King ، L.W. ، Op. Cit. ، P. 10 .

وحول نفس الموضوع ينظر : الجنابي ، كاظم ، مقدمة لدراسة اقدم ادب عرفه الانسان ، القسم الاول في العراق ، (بغداد ، 1975) ، ص 60 .

(108) Hooke ، S.H. ، Babylonian and Assyrian Religion، 2nd ed. ، (Oxford ، 1962)، P. 58

(109) حنون ، نائل ، عقائد الحياة ... ، المصدر السابق ، ص ص 25-26 .

(110) المصدر نفسه ، ص 24 .

(111) باقر ، طه ، مقدمة في ادب ... ، المصدر السابق ، ص 82 .

(112) عبد الرزاق ، جنان عبد الوهاب ، جدلية التواصل ...، المصدر السابق ، ص 174 .

(113) تسمى هذه الاسطورة بـ (قصة اريدو) وتم تدوينها باللغتين السومرية والبابلية ويعود تاريخ تدوينها الى القرن السادس ق. م وعثر عليها في مدينة (سبار) المعروفة اليوم باسم (ابوحبة) . ينظر : هايدل ، الكسندر، الخليقة البابلية ... ، المصدر السابق ، ص 77-81

(114) بوتيرو ، جان ، الديانة عند البابليين ، ترجمة وليد الجادر ، جامعة بغداد ، (العراق ، 1970) ص 96

(115) Hook ، S.H. ، Babylonian ... ، Op. Cit. ، P. 70 .

(116) حنون ، نائل ، عقائد ما بعد الموت ... ، المصدر السابق ، ص 182 .

(117) السعدون ، نصار سليمان ، الجوانب الحضارية والسياسية والعسكرية لعلاقات بلاد الرافدين مع بلاد عيلام في التاريخ القديم ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية – جامعة القادسية ، 2002 ، ص 205 .

(118) رو ، جورج ، ، ص 136 .

(119) قبل 2 الف مليون سنة الى الوراء كان الفضاء كتلة من المادة الملتهبة يتكون من شهب وضاءة ومشتعلة تحوم بسرعة لا يحدها البصر ، ثم تمر ملايين السنين تتباعد الاجرام النارية شيئا فشيئا ثم تنفصل عن هذا الفضاء الذي كانت جزءا منه . عن اصل الارض في المنظور العلمي الحديث ينظر : حنا ، جورج ، قصة الانسان ، ط 6 ، دار العلم للملايين ، (بيروت ، 1979) ، ص ص 7-17 . ومن الباحثين من يرى ان الانفجار الكوني (أي التباعد بين اجزاء الكون) حصل قبل حوالي(13) مليار سنة . ينظر : شعبان ، سمير صلاح الدين ، " رحلة خلابة الى زمن صفر" ، العربي ، العدد 376 ، مارس، 1990 ، ص 155 .

(120) علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر ...، المصدر السابق ، ص ص 58-59

(121) سفر التكوين 1 : 1-2 .

(122) سفر التكوين 1 : 9 – 10 .

(123) سفر التكوين 2 : 4 .

(124) الشوك ، علي ، الاساطير ... ، المصدر السابق، ص 31 .

(125) علي ، فاضل عبد الواحد ، من الواح ... ، المصدر السابق ، ص 252 .

(126) سفر التكوين 1 : 3 .

(127) انجيل يوحنا 1 : 9-10 .

(128) سورة نوح : اية 19 .

(129) الطبرسي ، ابو علي ، مجمع البيان ... ، المصدر السابق ، مج 5 ، ص ص 4-5 .

(130) المحلي ، جلال الدين ،والسيوطي، جـ 2، ص 30.

(131) سورة النازعات :اية 30 .

(132) سورة النازعات :اية 31 .

(133) سورة النازعات :اية 32 .

(134) سورة الطلاق :اية 12 .

(135) سورة الزلزلة : الايات 1-2 .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الكتاب المقدس

st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible--Dictionary/22_K/K_016.html

أ. الكتب :

-الاحمـد ، سـامي سـعيد ، السـومريون وتـراثهم الحضاري ، منشورات الجمعية التأريخية العراقية ، (بغداد ، 1975)

ــــ ، واحمد ، جمال رشيد ، تاريخ الشرق القديم، الجميعة التاريخية العراقية ، (بغداد ، 1988) .

-باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، جـ 1 ، (بغداد ، 1973) .

ــــ ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، جـ 2 ، (بغداد ، 1956) .

-بوتيرو ، جان ، الديانة عند البابليين ، ترجمة وليد الجادر، (جامعة بغداد ، 1970)

-بوترو ، جين ، وآخرون ، الشرق الادنى الحضارات المبكرة ، ترجمة عامر سليمان ، (جامعة الموصل ، 1986) . ــــ ، بلاد الرافدين - الكتابة - العقل - الالهة ، ترجمة الاب البير ابونا ، مراجعة د. وليد الجادر ، دار الشؤون الثاقفية العامة ، (بغداد ، 1990) .

-بوستغيت ، نيكولاس ، حضارة العراق واثاره - تاريخ مصور ، ترجمة سمير عبد الرحيم الجلبي ، دار المأمون للترجمة والنشر ، (بغداد ، 1991) .

-الجبوري ، صلاح سلمان رميض ، ادب الحكمة في وادي الرافدين ، مراجعة أ.د فاضل عبد الواحد علي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 2000) .

-الجنابي ، كاظم ، مقدمة لدراسة اقدم ادب عرفه الانسان ، القسم الاول في العراق ، (بغداد ، 1975) .

-حنا ، جورج ، قصة الانسان ، ط6 ، دار العلم للملايين ، (بيروت ، 1979) .

-حنون ، نائل ، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ، ط2 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 1986) .

ــــ ، عقائد الحياة والخصب في الحضارة العراقية القديمة ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،

-الخوري ، لطفي ، معجم الاساطير ، جـ 1 ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 1990) .

-ديورانت ، ويل ، قصة الحضارة ، جـ 1، ،جـ 2، جـ 4 ، ترجمة د. زكي نجيب محمود ، دار الجيل ، (بيروت ، 1988) .

-رشيد ، صبحي انور، تاريخ الفن في العراق القديم ، جـ 1 ، فن الاختام الاسطوانية ، المؤسسة الاسلامية للطباعة والنشر ، (بيروت ، ب ت) .

-رشيد ، فوزي ، ابي سين آخر ملوك سلالة اور الثالثة ، شركة المنصور للطباعة ، (بغداد،1990) .

-رو ، جورج ، العراق القديم ، ترجمة حسين علوان ، (بغداد ،1984) .

-ريان ، وليم ، وبتمان ، والتر ، طوفان نوح ، الاكتشافات العلمية الحديثة بخصوص الحدث الذي غير

التـاريخ ، ترجمـة فـارس بطـرس ، مطبعـة النهـار الجديد ، بغداد ، 2005 .

-زكي ، احمد كمال ، الاساطير دراسة حضارية مقارنة ، ط 2 ، دار العودة ، (بيروت ، 19

-السقا ، احمد حجازي ، نقد التوراة ـ اسفار موسى الخمسة ـ السامرية ـ العبرانية ـ اليونانية ، دار الجيل ، (بيروت ، 1995) .

-سليمان، عامر ، " جوانب من حضارة العراق القديم، العراق في التاريخ ، (بغداد ، 1983) .

ـــ ، العراق في التاريخ القديم ـ موجز التاريخ السياسي ، دار الحكمة (الموصل ،1992) .

ـــ ، العـراق فـي التـاريخ القـديم ـ التـاريخ الحضاري، (جامعة الموصل ، 1993) .

ـــ ، معجم اللغة (الاكدية البابلية ـ الاشورية) باللغة العربيـة والحـرف العربـي، جـ 1 ، منشـورات المجمـع العلمي ، (بغداد ، 1999) .

-الشـوك، علـي، الاسـاطير بـين المعتقـدات القديمـة والتوراة ، دار الام،(لندن ، 1987) .

-الطبرسي ، ابو علي الفضل بن الحسن ، مجمع البيان فـي تفسـير القـرآن ، تحقيـق السـيد هاشـم الرسـولي المحلاتي ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت ، 1379 هـ) .

-عبد الرزاق ، جنان عبد الوهاب ، جدلية التواصل في العمـارة العراقيـة ، دار الشـؤون الثقافيـة العامـة ، (بغداد، 2002) .

-علي ، فاضل عبد الواحد ، سومر اسطورة وملحمة ، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد ، 1997) .

-فروخ ، عمر ، تـاريخ الفكـر العربـي الـى ايـام ابـن خلدون ، ط 2 ، دار العلم للملايين ، (بيروت ، 1979) .

-كريمر ، صموئيل نـوح ، من الـواح سومر ، ترجمـة طـه بـاقر ، مكتبـة المثنـى ببغداد ومؤسسـة الخـانجي بالقاهرة ، ب ت .

ـــ ، هنا بدأ التاريخ ـ حول الاصالة في حضارة وادي الرافـدين ، ترجمـة ناجيـة المروانـي ، دار الجـاحظ (بغداد،1980) .

-كييرا ، ادوارد ، كتبوا على الطين ـ رقم الطين البابلية تتحدث اليوم ، ط 2 ، ترجمة د. محمود حسين الامين ، مراجعـة علـي خليـل ، مكتبـة دار المثنـى ، (بغـداد ، 1964) .

-الكيلاني ، رعد شمس الدين ، الانبياء في العراق ـ دراسـة مقارنـة بـين القـرآن والتـوراة والاثـار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 2001) .

-لابـات ، رينيـه ، المعتقـدات الدينيـة فـي بـلاد وادي الرافدين ـ مختـارات من النصـوص البابليـة ، تعريـب الاب البير ابونا و د.وليد الجادر ، (بغداد ، 1988) .

-الماجدي ، خزعل ، انجيل بابل ، شركة الطبع والنشر اللبنانية ، (عمان ، 1998) .

-مـاريون ، الـيس ، و راجلـين ، كـاروك ك. ، مـن اسـاطير الهنـود الحمـر ، ترجمـة ميسلون هـادي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (بغداد ، 1986) .

-المحلي ، جلال الدين بن احمد ، والسيوطي ، جلال الدين بن عبد الرحمن بن ابي بكر ، تفسير الجلالين للقرآن العظيم ، مراجعة عبد العزيز سيد الاهل ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، (القاهرة ، ب ت) .

-المصري ، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظــور الافريقــي ، لســان العــرب ، دار صــادر ، (بيروت، ب ت) .

-المعموري ، ناجح ، الاسطورة والتوراة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (بيروت ، 2002) .

-ملرش ، ايج ـ أي ـ ايل ، قصة الحضارة في سومر وبابل ، ترجمة عطا بكري ، مطبعة الارشاد ، (بغداد، 1971) .

-النجار ، عبد الوهاب ، قصص الانبياء ، ط 3 ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت ، ب ت) .

-نوفل ، عبد الرزاق ، القرآن والعلم الحديث ، دار الكتاب العربي،(بيروت ، ب ت)

-هايدل ، الكسندر ، الخليقة البابلية ـ قصة النشوء والتكوين عند قدماء العراقيين وانعكاساتها على "العهد القديم " ، ترجمة ثامر مهدي ، مراجعة محي الدين اسماعيل ، بيت الحكمة ، (بغداد ، 2001) .

-هوك ، صموئيل ، هنري ،الاساطير في بلاد ما بين النهرين ، ترجمة يوسف داود عبد القادر ، وزارة الثقافة والاعلام ، (العراق ، 1968) .

<u>ب ـ الدوريات والبحوث.</u>

-الاحمد ، سامي سعيد ، " اسطورة ايتانا والنسر ـ استنتاجات " ، المؤرخ العربي ، العدد 18 ، 1981 .

-امين ، بديعة ، " فكرة الصراع في الادب السومري "، افاق عربية ، اذار ، 1978 .

-باقر ، طه ، وفرنسيس ، بشير ، " الخليقة واصل الوجود "، سومر ، مج 5 ، جـ 1 ، كانون الثاني ، 1949

-الجادر ، وليد ، وفاضل ، عبد الاله ، " دور العلم والمعرفة في العراق القديم "، المورد ، مج 16 ، العدد 3 1987

-جميل ، فؤاد ، " الطوفان في المصادر السومرية ، البابلية ، الاشورية والعبرانية دراسة نقدية " ، سومر، مج 28 ، جـ 1 + 2 ، 1972 .

-حبي ، يوسف ، " الانسان والارض في ادب وادي الرافدين " ، افاق عربية ، السنة الرابعة ، العدد 9 ، ايار ، 1979 .

-الخوري ، لطفي ، مترجما ، "مدخل لدراسة اساطير امريكا الجنوبية " ، التراث الشعبي ، العدد 2 ، السنة

ـــــــ ، " المعجم الميثولوجي " ، التراث الشعبي، العدد 1 + 2 ، السنة 15 ، 1984 .

-الدوري ، رياض عبد الرحمن ، "آشور بانيبال مكتبته وثقافته "، سومر ، مج 32 ، جـ 1 + 2 ، مج 45 ، (1987 - 1988) .

-رشيد ، فوزي ، " خلق الانسان في الملاحم السومرية والبابلية "، افاق عربية ، العدد 9 ، ايار – 1981 .

-عكه ، اسعد محمد ، " اساطير الخلق واصل الحياة "، افاق عربية ، السنة 7 ، العدد 11-12 ، تموز – آب، 1982 .

-علي ، فاضل عبد الواحد ، "الخلق والتكوين في المعتقدات السومرية والبابلية "، مجلة كلية الاداب – جامعة بغداد ، العدد 53 ، 2001 .

<u>ج ـ الرسائل والاطاريح</u>

-الحسيني ، عباس علي ، مجتمع الالهة في الديانة المصرية القديمة ، اطروحة دكتوراه غير

منشـورة ، كليــة التربيــة ـ جامعــة القادســية ،
. 2004

-الهيتـي ، قصـي منصـور عبـد الكـريم ، عبـادة
الالــه سـين فــي حضــارة بـلاد وادي الرافـدين ،
رسـالة ماجسـتير غيـر منشـورة ، كليـة الاداب ـ
جامعة بغداد ، 1995 .

The Sumerian ، Adam ،-Falkenstein
1974) ،(Los Angeles ،Temple City_

Ritual and ، Myth ، S.H. ،-Hook
، the clarendon Press_،Kingship
(1958)

Babylonian and Assyrian ،________
1962) ، (oxford ، 2nd .ed.،Religion

The ، Thorkild ،-Jacobsen
Treasures of Darkness - A history of
Yale ،Mesopotamia Religion
(New Haven and ،University Press
1976) . ،London

Land of the ، Richard M. ،-Powers
،(U.S.A. ، 1 st. ed. ،Two Rivers
1962).

أثر النشاط الاقتصادي على العلاقات الاشورية – الفينيقية

خلال الالف الأول قبل الميلاد

الأستاذ المساعد الدكتور حسن كاظم دخيل
أستاذ مساعد في التاريخ القديم
الكلية التربوي

المقدمة

لاشك أن عوامل التأثر والتأثير بين المجتمعات والحضارات موجودة قدم وجود هذه الحضارات والجماعات والعامل الأساسي الذي يلعب دوراً فيها هو مستوى الرقي للحضارة التي تؤثر بمن جاورها أو له صلات تجاريه معها أو تربطه عوامل سياسيه أو اقتصادية أو عسكرية ذات تأثير متبادل بين الطرفين ، ولابد من ذكر أن حضارة العراق القديم اتصفت بالسبق الزمني قياساً بالحضارات الأخرى في منطقة الشرق الأدنى القديم ، وأن أغلب أوجه التشابه بين الحضارة العراقية والحضارات المجاورة لها آنذاك إنما تعني أن الحضارات المجاورة قد أقتبست من الحضارة العراقية القديمة على أن تكون هناك قنوات اتصال عبرت أو انتقلت بواسطتها الحضارة من العراق القديم إلى الأقاليم سواء منها المجاورة له أو البعيدة عنه ...،وهذا الكلام ينطبق على العلاقات بين أشور والأقاليم المجاورة ويشتمل على الجوانب العسكرية والمصاهرات السياسية والتمثيل الدبلوماسي والمعاهدات السياسية.

أن الظروف السياسية العامة التي أحاطت بالمملكة الأشورية أملت عليها إتباع سياسة عسكرية تتمثل بالضربات الأستباقية للمحافظه على حدودها ولضمان سيادة المملكة ووحده أرضها وشعبها وكذلك لتأمين طرق مواصلاتها التجارية مع العالم.

ويتبين من تفسير الملك الأشوري توكلتي ننورتا الأول ((890-884ق.م)) الذي يقول ((إن السلام لا يمكن تحقيقه في أوقات عديدة بدون حرب)) فلسفة العلاقات الخارجية عند فشل الطرق السلمية أو عقد المعاهدات أو قيام المصاهرات السياسية فأن البديل هو الحملات العسكرية لإرغام الطرف الأخر على توقيع أتفاق للسلام ، وهذا المفهوم الفكري العسكري للملوك الأشوريين لعب دوراً في نقل الموروث الحضاري بين تلك المجتمعات لاسيما مجتمعات البحر المتوسط ، كما أن لسياسية التهجير التي انتهجتها الممالك القوية التي تقوم بنقل واستبدال سكان المدن المغلوبة واستبدالهم بسكان مناطق أخرى ، وهذا الأجراء له دور كبير في نقل الموروث الحضاري ومثال على ذلك حينما هَجّر الملك الأشوري شركين الثاني سكان مدينة السامرة عام (721 ق.م) وأتى بأقوام من بابل أسكنهم في السامرة بدل سكانها الأصليين بني إسرائيل ، والأقوام الذين نُقلوا معهم مورثهم الحضاري من بلادهم إلى بلاد التي سكنوها ، والذين هُجروا من بني إسرائيل إلى وسط المجتمع البابلي ساعدهم على التعرف على حضارته من خلال التعايش أو من خلال الاطلاع على النصوص المسمارية التي تتعلق منها بالآداب والدين .

ومن ابرز الأنظمة السياسية التي ظهرت في العراق القديم هو نظام دويلات المدن ومن العراق انتقل إلى مناطق أخرى من العالم ومنهم الفينيقيين بدليل انتشار دويلات المدن من نهر الفرات حتى البحر المتوسط .

وأن العامل التجاري متمثلاً بحاجة العراق إلى المعادن والأخشاب والأحجار واستيراده لهذه الأشياء من الدول المجاورة كان لهذا الاتصال بالمجتمعات المجاورة فحملت السمات الحضارية كما حملت البضائع مما ادى إلى توطيد الصلات الثقافية التي ترافق التواصل الاجتماعي خاصة في أوقات السلم .

سنتناول في هذا الموضوع أربع مباحث:-

المبحث الأول : تطلعات حكام بلاد وادي الرافدين للتوسع غرباً للقبض على نهايات الطرق التجارية.

المبحث الثاني : العلاقات الحضارية

المبحث الثالث : الحياة الاقتصادية

المبحث الرابع : الحياة الدينية والاجتماعية

المبحث الأول:

(تطلعات حكام بلاد الرافدين للتوسع غرباً للقبض على نهايات الطرق التجارية)

ترجع أولى الإشارات التي تدل على علاقة بلاد النهرين بفينيقيا إلى أيام الملك السومري (لوكال زاكيزي) في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد ملك الوركاء حين يقول في أحدى نصوصه أن معبوده ((إنليل)) قد جعل شعوب كل البلاد (من البحر السفلي عند دجلة والفرات والخليج العربي حتى البحر العلوي البحر المتوسط توجه أقدامها نحوه ، أي تتجه إلية كقائد لها) [1] ، ولم يحصل له مناوئ من الشرق إلى الغرب ، وهذا يعني أنه بسط نفوذه من الخليج العربي جنوباً إلى البحر المتوسط شمالاً .

وفي عهد الملك الإكدي ((سرجون الأول)) 2370 – 2315 ق.م أول الملوك الساميين العظام في العراق القديم يشير أن المعبود ((أنليل)) قد منحة كل المنطقة من البحر العلوي (البحر المتوسط) إلى البحر السفلي (الخليج العربي) وأنه قد غسل أسلحة في البحر المتوسط [2] ويذكر ((نرام سن)) في نصوصه إلى حملة في الشمال الغربي كأقصى امتداد لأملاك أكد في غرب الفرات وانه وصل إلى البحر العلوي (البحر المتوسط) [3]

أما في عهد الأشوريين فلم يسفر الضغط السياسي العسكري الأتي من المناطق الشرقية على فينيقيا عن نتيجة حاسمة إلا عندما انهارت الدولة الحيثية ، وظهرت قدرة الدولة الأشورية ، وحينئذٍ أصبح من مبادئ سياسة حكام الرافدين أن يتوسعوا غرباً لكي يقبضوا على نهاية الطرق التجارية[4] .

بدأت أشور منذ أيام (تجلات بلاسر الثالث 744 – 727 ق.م) ترى أن امتلاكها السورية وفلسطين وفينيقيا هو الشرط الأساسي لنجاح إمبراطوريتها ، فهو لم يكن بالنسبة لحكام بلاد الرافدين بسبب ثورة بلاد الشام من أخشاب نادرة في الشرق، وبسبب ثورتها المعدنية ، وسواحلها الطويلة على شاطئ البحر المتوسط وتجارتها الغنية فحسب ولكن لانها المدخل إلى جنوب شرق أسيا الصغرى من ناحية، ومصر من ناحية أخرى ، لذلك يتخذ ((تجلات بلاسر)) الخطوات الجادة لضم الأجزاء الأساسية من سوريه وفلسطين وفينيقيا ، من هنا فانه لم يقنع ، كغيره من الحكام الأشوريين ، بقبول الجزية ممن يخضعهم من الأمراء في بلاد الشام ،

الأمر الذي كان يتبعه الحكام الكلدانيون كذلك[5]، وهكذا بدأت أشور تتجه نحو غزو بلاد الشام في عهد ((تجلات بلاسر الأول 1116 – 1090 ق.م)) والذي غزا سورية في عام 1094 ق.م ، وأعلن نفسه فاتحاً لأمور كلها ، كوريث للحيثيين في سيطرتهم على سورية ، وقطع الفاتح الأشوري أخشاب الأرز من جبال لبنان وأرسلها إلى بلاده لبناء هياكل لا لهته [6] ، وبعد عقدين من الزمان تقدم العاهل الأشوري ((ناصر بال الثاني 883 – 859 ق.م)) نحو سورية الشمالية ، ثم اتجه إلى الجنوب ، وعبر نهر العاصي ودخل لبنان ، ونزل إلى البحر المتوسط بدون مقاومة ، وهنا تلقى

خضوع المدن الفينيقية ، صور وصيدا وجبيل في حوالي 876 ق.م ، وأرغمها على أن تدفع الجزية ، وأن يقدم له سكانها الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد والمنتوجات الملونة وكميات من خشب الأبنوس والأرز والصندل والعاج ، وأقام بهذه المناسبة لوحه تذكارية عند نهر الكلب ، شمال بيروت،[7] ويقول الملك الأشوري ((لقد استوليت على كل جبال لبنان المترامية الأطراف ، ووصلت إلى البحر الكبير في بلاد أمورو ، وغسلت أسلحتي في البحر العظيم، وقدمت قرابين من الماشية للإلهة جميعاً[8] .

وفي عام 853 ق.م يتقدم شلمنصر الثالث (859-824 ق.م) الى وسط سورية ، وحدثت موقعة قرقار واعاد الكرة تحدث مرات بهدف اخضاع سورية وفينيقيا وفلسطين حتى استطاع في عام 842 ق.م من إرغام المدن الفينيقية ، وخاصة صور وصيدا ، على دفع الجزية له ، ويقول الملك الأشوري في حولياته عن نصره في هذا ((في السنة الثامنة عشرة لملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشر ، وكان حزائيل ملك أرام يثق بجيوشه ... ولكني حققت سقوطه . وزحفت الى (بلعي راسي) وهو رأس في البحر وأقمت صورتي هناك ، وفي ذلك الحين تلقت الجزية من رجال صور وصيدا ، ومن ياهو بن عمري [9] ،وفي عهد ((أدد نيراري الثالث)) الذي قدم إلى فينيقيا مرتين في عامين 804 و 803 ق.م واستمرت صور وصيدا تدفعان الجزية للأشوريين ، وكذلك الحال بالنسبة ((تجلات بلاسر الثالث 745 – 727 ق.م)) الذي أقام معسكرة الرئيسي في ((أرباد)) (أربادو بالأشورية وهي تل ارفاد الحالية على مبعدة 21 كم شمالي حلب ومنها ارسل الى دمشق حملة، ثم فرض الجزية على المدن الفينيقية ، وطبقاً لما جاء في المسلة السوداء ، فقد خضع له كذلك ((ياهو)) ملك إسرائيل ، وقدم له الجزية على هيئة أوان من الذهب والفضة والرصاص[10] ، وفي عهد ((سرجون الثاني 722 – 705 ق.م)) سقطت السامرة في ربيع أو خريف عام 722 ق.م تحت أقدام الأشوريين ، ومنها أتجه سرجون الثاني إلى فينيقيا [11] وفي عهد ((سنحاريب 705 – 681 ق.م)) نهج نهج سلفه ، فأعاد فتح المدن الفينيقية والسورية ومملكة يهوذا ، ثم قام بعد ذلك بنقل عمال فينيقيين إلى عاصمته (نينوى) ليقوموا بصناعة سفن له تشبه سفن بلادهم ، وقد جهزت هذه السفن ببحارة من صور وصيدا ، وكذا من اليونانيين ، وربما القبارصة ، واستطاع سنحاريب بهذا الأسطول القيام بحملة بحريه (نهرية) على دجلة لإخضاع شعوب (بيت ياقين) والعيلاميين ، وعاد من هناك بأسرى وذلك في عام 694 ق.م [12] جاء ((أسرحدون 680 – 669 ق.م)) بعد والده سنحاريب ، وفي عهده ظن ملك صيدا (ملقارت) أن في وسعه أن يستقل ، فسعى الى ذلك وارتبط ببعض الامراء المجاورين في حلف أدرك أسرحدون أهدافه فعَجل بالقضاء عليه ، وباءت المحاولة بالفشل ،بعد أن اغتصبت صيدا في عام 678 ق.م وعوملت بقسوة حتى لا تعود لمثلها[13].

وأنتقم أسرحدون من أهل صيدا أبشع انتقام ، ودمر المدنية وهدم عمرانها ، ودك بيوتها ، وأطاح بأسوارها ، وقذف بأحجارها في البحر ، وكانت هذه الكارثة أول الكوارث التي توالت على صيدا عبر التاريخ ، ثم أمر أسرحدون سكان صيدا بالانتقال عنها إلى بلاده ، وأحل محلهم أقواماً من الخليج العربي ، أو من شرق الإمبراطورية الأشورية ، وأمر بتعمير مدينة جديدة في موضع صيدا وأسماها ((كار أسرحدون)) أي مدينة أسرحدون ..،[14] وقد تكررت عملية التهجير والإحلال على درجة كبيرة ، وحين نجح العاهل الأشوري في القضاء على هذه الاضطرابات عمل أن يأتي بقوم آخرين ، وأن يسكنهم هذه الأقاليم ومن بينهم مجاميع من العرب حددهم النص الأشوري ((قبائل تامودي وإيباديدي ومرسيمانو وجبايا، الذين يعيشون بعيداً في الصحراء والذين لم يعترفوا بروساء وموظفين والذين

لم يكونوا قد جاءوا من قبل بجزاهم لأي ملك، سبيت الأحياء منهم، ونقتلهم إلى السامرة [15]، وكان الأشوريون يهدفون من وراء ذلك إلى كسر التحالفات القديمة بإدخال أجانب في البلاد، ربما كانوا في بعض الحالات من الأشوريين أنفسهم، وبداية لظروف، جديدة أكثر ملائمة للإمبراطورية الأشورية الطموح،

أن الغزوات الأشورية قد عجلت بنهاية الدويلات السامية المنهارة ، كما أن الأحوال القديمة قد تغيرت، واختفت المعالم القديمة ، واضمحلت المشاعر المحلية والقومية ، ودمرت الدويلات الحاجزة [16] .

أن موقف المدن الفينيقية من أسرحدون يتوضح من خلال خضوع ملك أرواد ((ياكنلو)) وسلم مدينته وكذا أبنته إلى أسرحدون ، كما خضعت مدن فينيقية أخرى تحت زعامة ((بعل)) ملك صور لأسرحدون ، ووقعت معاهدة بين بعل واسرحدون غير أن ملك صور سرعان ما مزقها حين أحس بأن الوقت أصبح مناسباً لنزع النير الأجنبي [17] .

في عهد ((أشور بانيبال 668 – 626 ق.م)) حوصرت صور للمرة الثالثة، فأقامت الحصون الدفاعية على الأرض اليابسة ، ووضعت المتاريس في كل الطرق براً وبحراً، واضطر أهلها المحاصرون أن يشربوا من ماء البحر، كما أن بعلها أضطر أن يستسلم في ظروف قاسية، واستولى الأشوريون على خيرات صور، وعلى أسطولها الذي استخدموه في إخضاع ملك أرواد ((ياكنلو)) الذي أضطر في نهاية الأمر أن يستسلم ويبعث بابنته إلى ((نينوى)) العاصمة الأشورية[18] .

أما في عهد الكلدانيين البابليين الذين ورثوا إمبراطوريه الأشوريين بعد انتصارهم في نينوى عام 612 ق.م، ثم في حران عام 609 ق.م واللذين اضحوا وارثين للإمبراطورية الأشورية في السيطرة على سوريا وفينيقيا وفلسطين، وتكرر تمرد المدن الفينيقية في زمن الكلدانيين كما حصل مع الأشوريين من قبلهم،وساعدتهم مصر وذلك في سعيها لاسترداد سيادتها المفقودة على بلاد الشام . وكانت المدن الفينيقية أكثر ميلاً للاعتراف بالسيادة المصرية منها بالسيادة البابلية.

في عام 587 ق.م ظهر نبوخذ نصر ((605 – 562 ق.م)) في شمالي سورية، وأقام معسكره في ((ربله)) على مبعدة 33 كم جنوب حمص ، في وادي العاصي، ومن هناك أرسل قواته لإخضاع المدن الفينيقية وفتح بلاد اليهودية، وقد تم الاستيلاء على القدس في عام 586 ق.م ونهبت المدينة المقدسة، وأشعلوا فيها النيران ، وأحرقوا القصر الملكي والمعبد، وفيه البقية الباقية من التابوت الذي كفت الروايات اليهودية عن ذكره بعد نقله إلى معبد أورشليم [19].

وفي عام 572 ق.م أتجه نبوخذ نصر إلى فينيقيا ، فهاجم صيدا وحاصرها حتى مات عدد كبير من أهلها بسبب الجوع والوباء ، فاستسلمت له ، أما صور فقد صمدت أمامه 13 عاماً وبعد ذلك تحطمت مقاومتها فاستسلم ملكها ((أثبعل الثالث)) ودخلت قوات الكلدانيين ودمرت مبانيها وسوتها بالأرض ، ومنذ ذلك الحين تخلت صور عن مكانتها ، خاصة وأن الفرعون ((أحمس الثاني 570 – 526 ق.م)) كان قد أنتقص من سيادتها بانتزاع قبرص [20].

بعد سقوط بابل في أكتوبر عام 539 ق.م وإعلان ((كيروش الثاني 558 – 530 ق.م)) نفسه ملكاً على بابل ، وقبلها سقوط نينوى عام 612 ق.م ، لا يعد نهاية لتاريخ العراق القديم كدولة مستقلة فحسب بل نهاية لسيطرة العناصر السامية ،وبداية سيادة العناصر الهندو – أوربية ، من فرس وإغريق ورومان، والتي استمرت قرابة أثنى عشر قرناً ، حتى جاء الإسلام الحنيف ، وقد أعتبر الفرس ولايات سورية وفينيقيا وفلسطين من أملاكم ، كورثة للإمبراطورية البابلية ،واعترفت جميع مناطق الإمبراطورية البابلية بما فيها فينيقيا بالحكم الفارسي الجديد [21] .

المبحث الثاني

(العلاقات الحضارية، الحياة الفكرية والأدبية)

1. اللغة والكتابة
2. الأدب

عند تحديد العناصر الحضارية المقتبسة بين المجتمعات القديمة، وحسب رأي الباحثين، لابد من توفر عدد من الشروط لاسيما السبق الزمني منها، إذ لا بد أن تكون الحضارة المقتبس منها سابقة للحضارة المقتبسة، فضلاً عن ضرورة وجود عدة أوجه شبه ومضاهات بين العناصر الحضارية بين الحضارتين المشار إليهما يدل على الاقتباس[22].

وإذا أردنا التحدث عن العمليات العسكرية ودورها في نقل الموروث الحضاري بين المجتمعات القديمة، فلابد من ذكر مسالة بالغة الأهمية ألا وهي السياسة العسكرية إلى انتهجتها الدول أو الممالك القوية حينذاك وفي مقدمتها سياسة التهجير إلى كانت تقضي نقل أعداد كبيرة من سكان المدن المغلوبة واستبدالهم بسكان من مناطق أخرى ،وهذه العملية التي كان لها دور كبير وفعال في نقل الموروث الحضاري لإقليم معين ،ذي طابع حضاري معين إلى إقليم أخر فمثلاً حينما هجر الملك الأشوري شركين الثاني في عام 721 ق.م سكان مدينة السامرة وأتى بأقوام أخرى أسكنهم بدلاً منهم وكان معظم الذين أسكنهم في السامرة من بلاد بابل،كما جاء في النص التالي ((..... في بداية حكمي.. أجليت 27290 شخصاً من السامرة التي أعدت بنائها بشكل جيد وأسكنت فيها أناساً من مناطق أخضعتها سابقاً وعينت فيها حاكماً ....))[23].

لقد بين النص أن الأشوريين عندما نقلوا هؤلاء الناس من مناطقهم وأسكنوهم في السامرة،فأن هؤلاء نقلوا معهم موروثهم الحضاري من بلادهم إلى المناطق التي سكنوها،وأن تواجد المهجرين الذين تم إجلائهم من قبل الأشوريين إلى وسط المجتمع العراقي آنذاك ساعدهم على التعرف على حضارته من خلال اطلاعهم على النصوص المسمارية ،خاصة تلك التي تتعلق بالدين والأدب.

ونتيجة لهذه المواجه والاحتكاك اندمج الكثير من الأشوريين بالشعوب المجاورة، فأخذت معظم هذه الأقوام عن الأشوريين الشيء الكثير من النظم السياسية والإدارية ،فضلاً عن مجالات عديدة لاسيما ما كان يتعلق منها بالزراعة والري والتجارة.[24]

أما بخصوص نظام الحكم فأنه في عموم المنطقة بما فيها الدول الكبرى والصغيرة منها كان نظاماً وراثياً وفي أغلب الأحيان كان الابن الأكبر يرث أباه ، أمتاز هذا النظام بكثرة حالات اغتصاب العرش من أفراد في الأسر الحاكمة لا يمتلكون الحق فيه وقد أكد هؤلاء في نقوشهم الكتابية أحقيتهم الشرعية في امتلاك زمام الحكم عن طريق التفويض الإلهي لهم ،كما جاء في نص الملك سن – اخي ادينا بقوله : ((على الرغم من أنني أصغر من أخوتي الكبار . ألا أن أبي الذي خرجت من صلبة اختارني في اجتماع من بين إخوتي بأمر الإلهة أشور وشمش، بيل، نابو،عشتار، قائلاً : (هذا هو خليفتي)) وأستفسر من الإله شمش وأدد عن طريق الفأل وأجابوه مؤكدين: أنه هو الذي يجب أن يخلفك.[25]

-1 اللغة والكتابة :

الكتابة تعد الوسيلة المثلى لتسجيل معرفة الإنسان وعلمه فضلاً عن ماضي أفكاره وثقافته .

تلكم الفينيقيون وكتبوا كتاباتهم بالكنعانية – الفينيقية نسبة إليهم،[26]

كما أشتهر الفينيقيون باقتران أسمهم بالحروف الهجائية التي ينسب إليهم أنهم أول من تعرف عليها،فقد كان الفينيقيون بحكم وضعهم الجغرافي يحتلون مكاناً وسطاً بين شعبين،استطاعا أن يصلا إلى التعبير عن أفكارهم وتسجيلها بالكتابة [27] ،أنهم ليسوا أول من عرف حروف الهجاء، بل هناك من سبقهم إليها واهتدى إلى معرفتها قبلهم فهم في أغلب الأمر ناقلون استطاعوا أن يدخلوا بعض التحسينات والإضافات للحروف التي وأخذوها من حيث أخذوا البردي[28].

أن أقدم الوثائق الأبجدية التي كشف عنها في فينيقيا،إنما وثائق أوغاريت ولكنها مسمارية الطابع، وأقدم نقش أبجدي فينيقي الطابع هو النقش المكتوب على تابوت أحيرام 969 – 936 ق.م [29].

إن كل ما فعله الفينيقيون أنهم طوروا الفكرة ،واستخدموا الرموز للدلالة على حروف فقط أي أنهم جعلوا منها نظاماً أبجدياً تاماً مؤلفاً من أثنين وعشرين علامة [30].

وقد سبقهم السومريون في اختراع الكتابة بنحو ألف عام،إذ تأثرت بها الأوغاريتيه بالخط المسماري الذي نشأ في أرض العراق القديم.

-2 الأدب :

كان للأدب العراقي القديم أثره الواضح في آداب الشعوب الأخرى لا يقل أهميه عن إنجازاتهم في الجوانب الأخرى كالجانب الديني والتشريعي،لاسيما تلك التأثيرات في حضارة الساحل الفينيقي بحكم موقعه الجغرافي بين حضارتي العراق القديم ووداي النيل مما أكسب أهله حضارة مكتسبة وليست أصلية ،إذ استحدثت الكثير من مقوماتها الحضارية منها [31] .

أن التنقيبات الأثرية التي أجريت في العراق القديم قد أسفرت عن قدم الأدب العراقي وأصالته ،لاسيما أن النصوص المسمارية المكتشفة آنذاك قد أثبتت أن العراق القديم أخذ السبق في هذا المجال،إذ أشارت الكثير من المصادر ذات العلاقة أن الكثير من الأفكار الأدبية قد انتشرت من العراق القديم إلى سوريا ومصر وأسيا الصغرى وصولاً إلى بلاد اليونان[32].

كان للأدب صدى واضح في الأدب الكنعاني الفينيقي نتيجة للاحتكاك المباشر مع العراق القديم وعموم بلاد الشام[33].

يعد الطوفان من أكثر القصص القديمة انتشاراً في الآداب القديمة،فلا يكاد أدب من آداب الأمم يخلو منها،[34]

وقد بقت رواية مقدسة تتناقلها الأجيال في العراق القديم،وشقت طريقها غرباً نحو البحر المتوسط..،ويرجع السبب في ذلك إلى الأثر العميق الذي تركته قصة الطوفان في أذهان الناس وقلوبهم في ذلك الزمان ،فضلاً عن ذكر النصوص الكنعانية التي تشير إلى أن الكنعانيين اتخذوا من بعل وأنات إلهين للخصب، وهما يكونان شبيهان الدموزي وعشتار في العراق القديم،وعلى الرغم من أوجه التشابه بين الأسطورة الكنعانية والأسطورة العراقية القديمة ،إلا أن فارقاً بينهما هو عشتار كانت سبباً في مأساة حبيبة زوجها دموزي،

أما الإلهة أنات تقوم بدور المنتقم للآلة بعل من قاتله ،[35] أن قصة ولادة شركين كان لها حضور متميز بين آداب الأقوام والشعوب القديمة في المنطقة، إذ أن الطبيعة القصصية التي كانت سائدة آنذاك تميل إلى إظهار عظمة الملوك من خلال الاقتداء أو التقليد وصولاً إلى أكبر قدر من الشهرة وقد اختلفت الآراء حول جذور هذه القضية إذ ذهب بعض الباحثين على أن اقدم تقديم لها يعود الى العصر الأشوري وبالتحديد عام 750 ق.م،وهناك رأي أخر يعود إلى عام 600 ق.م ،أي

خلال حكم الدولة البابلية الحديثة،فضلاً عن رأي ثالث يؤكد على أن قصة شركين دونت بعد قصة موسى (ع) بأكثر من ستة قرون،وأن الأشوريين كانوا على اتصال دائم مع بلاد الشام،ومن المتحمل أن هؤلاء قد تعرفوا على قصة موسى (ع) وتأثروا بها فنسجوا قصة مشابه لها مثل شخصية شركين الأكدي من أجل إضفاء العظمة والقدسية علية ..،[36] ويزداد المتتبع لتفاصيل القصتين قناعة بأنها نسجت من جذور واحدة،إذ تكمن بوادر الشبه فيهما من نقطتين مهمتين الأولى كانت تتمثل بالتكتم السرية الذي رافق ولادة بطلي القصة،أما النقطة الثانية فهي الطريقة التي ألقي فيها الطفل بالنهر إذ أشارت كلتا القصتين إلى أن تلك العملية قد تمت بوضع الطفل في السلة وإلقاءه في النهر فضلاً عن طريقة إنتشاله هي الأخرى متشابه في كلتا القصتين[37]،هنالك جوانب أدبية أخرى تدلل على تلك الصلات الحضارية المتبادلة بين الطرفين،منها ما يتعلق بالأمثال وأدب الحكمة والذي يشير إلى ذلك ما ينسب إلى احيقار الحكيم وزير الملك(سين – أخي – اريبا بن أشور – أخ – ادينا) حسبما جاءت في القصة الأراميه ،ورغم الاختلاف الذي ظهر بين المهمتين بالتاريخ الأشوري والفينيقي حول أصول هذه القصة ،إلا أن الراجح إنها أشورية لأنها انتشرت باللسان الأشوري ومن ثم نقلت إلى الآرامية التي كتبت على البردي لجزيره الفيلة ،والدليل على أشورية القصة،فان كان نصها ومؤلفها إغريقي أو يهودي أو فارسي،فلماذا جاءت الأسماء فيها أشورية كما أن أسماء الإلهة هي الأخرى أشورية،فضلاً عن مسرح أحداثها في نينوى وآشور ، فروح القصة وآلهتها ومسرح أحداثها وأسلوب سردها تدل على أنها أشورية المنشأ واللغة وعنها بقيت شائعة في القرن السادس ق.م فأخذها اليهود الذين يتكلمون الأراميه .

وعن الأراميه نقلت بأسماء يهودية،وبروح عبرية إلى اللغة العبرية فاليونانية فضلاً عن سائر الآداب التي يرد فيها ذكر احيقار وحكمه وأمثاله،[38] أن لحكمة احيقار ترابطاً وثيقاً بعدة أسفار من العهد القديم كونها حكمة إنسانية منتشرة سواء بطريقة الكتابة أو بالكلام الشفهي عن طريق الطرفين المشار إليهما،[39]

نستنتج مما تقدم أن الاتصال بين العراق القديم وسكان ساحل البحر المتوسط كان واضحاً بشكل لا يقبل الشك،وذلك من خلال ما جاء في النصوص التوراتية التي حملت بين أسفارها العديد من القصص والأشعار وهي بالأساس كانت موجودة في النصوص المسمارية للعراق القديم ولفترة زمنية جاوزت ألف سنة أو أكثر.

المبحث الثالث

(الحياة الاقتصادية)

1- الزراعة

2- الصناعة

3- التجارة

ارتكزت الحياة الاقتصادية على الزراعة والتجارة والصناعة.

1- الزراعة :-

لعبت الزراعة دوراً أساسياً في الاقتصاد الأشوري ،إذ شكل الشعير المحصول الأساسي،ويليه من حيث الأهمية القمح،وكان هذان المحصولان يعتمدان بالدرجة الأولى على مياه الأمطار وليس على الري وخاصة في المنطقة الشمالية من العراق القديم، إلا أن الاعتماد على الأمطار فقط كان له أثار سلبية فإن أنحباسها في بعض السنوات يؤدي الى حصول مجاعات في البلاد ، وإلى جانب هذين المحصولين ، كان هناك محصول الكتان الذي يستفاد من بذوره في إنتاج نوع من الزيوت[40]،هذا وإلى جانب الفواكه ،كالعنب والتين والزيتون والتمر وغيرها،

ولقد سعى الملوك الأشوريين إلى إدخال مزروعات عديدة إلى بلادهم، فالملك سين – أخي – اريبا مثلاً زرع القطن في حديقة نينوى وأطلق عليه أسم ((الأشجار التي تحمل الصوف))[41]، فيقول ((جلبت الشجرة التي تحمل الصوف وزرعتها في العاصمة وحملت الصوف وقاموا بجزه وغزله)) .

ويذكر الملك نفسه في أحدى حولياته في معرض حديثه عن أحدى الحدائق التي أقامها في شمال عاصمته نينوى عن الثروات الطبيعية للبلدان التي فتحها وعرفت الناس بثروات الجبال البلدان وبأعشاب بلاد حاتي (بلاد الأناضول) وبنباتات المر.

حيث إن قائدتها هنا – أي بلاد أشور – أكثر من موطنها الطبيعي وكل أنواع الكروم وجميع أنواع الفواكه من مختلف البلدان ومختلف الأعشاب وأشجار الفاكهة كما يذكر الملك الأشوري (شركين الثاني) أنواعاً كثيرة من أخشاب الأشجار التي أستعملها في تشييد قصور عاصمته دور شركين (خر سباد)، وهو الذي شيد القصور من خشب القبقب والبقس والتوت والسرو والعرعر والصنوبر وخشب أشجار الفستق،وبعد تعداد هذه الأنواع من الأشجار يختتم حديثه قائلاً : وهي من نتاج خمان (جبل الأمانوس في سوريا) [42].

ونقرأ في ملحمة كلكامش عن مشاهدته العنب الأسود أثناء رحلته إلى بلاد الشام والذي لم يكن له وجود في العراق آنذاك ،ولم يدخل العنب في بلاد أشور إلا في الألف الأول ق.م حيث انتشرت زراعته ،في العصر الأشوري الحديث أن جميع إلبساتين كانت مزروعة بالعنب حسبما جاء في إحصاء حران من العصر المذكور ،إذ بلغ عدد أشجاره من 2000 – 29000 شجرة ،فضلاً عن وجود منطقة أخرى بلغت اشجار العنب فيها 282000 شجرة وأخرى 41000 شجرة [43]، وما يدلل على أهمية تنظيم الاقتصاد الزراعي لدى الأشوريين أنهم كانوا حريصين على حماية الملكية الزراعية بما شرعوا في قانونهم عدة مواد قانونية منها المادة العاشرة من القانون الأشوري الوسيط الذي تنص: ((إذا تجاوز شخص على حقوق الغير وحفر بئر فيها أو أقام سد، تصادر البئر أو السد، فضلاً عن الجلد والخدمة لدى الملك))[44].

وقد أنتشر استعمال نوع من المحاريث التي عرفها العراقيون القدماء،لاسيما بعد أن تم استبدال المحراث ذي اليدين بالمحراث ذي اليد الواحدة،مما أعطته هذه الميزة ازدواجية في العمل لأحداث أخدود أكثر عرضاً وعمقاً،ومكنت المزارع من استعمال يده الثانية لتسير الثيران التي تجره ،فأصبح هذا النوع من المحاريث من أكثر الأنواع شيوعاً في مدن البحر المتوسط لاسيما الفينيقية منها بعد ما كانوا يبذرون الحب بأيديهم في أول الأمر ،ثم ما لبثوا أن استعملوا المحاريث التي أدت إلى إنتاج نسبي أكبر في قطع الأراضي المزروعة وذلك بجعل استعمال القوة الحيوانية في الزراعة ممكنا، وهذه المحاريث لا يزال يستعمل قسماً منها ليومنا هذا مع تعديل بسيط في الشكل[45].

-2 الصناعة :

ترتبط الصناعة في بلاد أشور ومدن الساحل الفينيقي ارتباطاً وثيقاً بالعوامل السياسية، وذلك أن كلا العاملين يتأثر بالأوضاع الطبيعة والبشرية التي كانت تحيط بأشور والساحل الفينيقي،

ومن هنا نستطيع القول أن الفينيقيين لعبوا دور الوسيط بين العراق القديم وبين جزر البحر المتوسط والأقاليم والأخرى ،وسرعان ما قلدوا وهذه الصناعات والتي ارتكزت على المواد الأولية التي توفرها لهم أرضهم وسواحلهم البحرية،فضلاً عن استيراد المواد الأولية من الدول المجاورة كالصوف الذي يستورد من أعالي العراق [46]،الذي قاموا بتلوينه

بإصباغهم الأرجوانية الشهيرة التي أصبحت لهم شهره صناعية خاصة بها لاسيما في صناعة الثياب ذات اللون الأرجواني التي انفردوا بصناعتها فضلاً عن الصناعات الأولى التي استطاعوا أن يؤثروا بها كما في الوقت نفسه ليتأثروا بالصناعات الأخرى من البلدان والأقاليم المجاورة التي تعاملوا معها، لاسيما العراق القديم،كما تأثر الفينيقيون بسكان العراق القديم فيما يتعلق بتنظيم الأفراد في الحرف حيث كان أصحاب هذه الحرف يدينون بالولاء لرؤساء يمثلون حرفهم،ويطلق على رئيس الحرف لقب (رب) الذي يدير أمور الحرفة ويتولى رعاية شؤونهم (47) .

ومن أهم الصناعات ذات التأثير المتبادل بين الأشوريين والفينيقيين :

1- صناعة الزجاج

2- صناعة السفن

1- صناعة الزجاج:

يعد الأشوريين أول من أبتكر صناعة الزجاج دون غيرهم إذ عدت من الصناعات المهمة في بلاد أشور ونينوى ،كما أنتشر صناعتها في مناطق أخرى من العراق ،ألا أنه يمكن الاستدلال على أن بلاد أشور كان لها السبق في ذلك لأن زجاجها اكتسب شهرة أكثر من غيره في العراق القديم حتى أنهم قلدوا في صناعاتهم الزجاجية الأحجار الكريمة غالية الثمن(48).

وما دامت الغاية التي تكمن وراء تصنيع الزجاج هي الحصول على ألأحجار الكريمة فقد أحاط الأشوريين عملية بناء الفرن الخاص بتصنيع الزجاج ببعض الطقوس التي لا يجوز الاستغناء عنها ،لقد ورد في إحدى النصوص التي تصف كيفية بناء الفرن : ((عندما تضع أسس فرن لصناعة الزجاج،عليك أولا أن تختار الشهر المناسب واليوم البهيج،وبعد أن تنتهي من وضع الأسس عليك أن تبدأ في بناء الفرن وبشرط أن لا تنسى وضع تمثال الإله كوبو داخل بناء الفرن،علماً أنه لا يجوز أن يمر من قرب الدمية رجل غير نظيف،وعليك أيضا سكب الماء المقدس وتقديم الأضاحي إلى دمية الإله كوبو،وفي اليوم الذي تنوي فيه وضع مزيج الزجاج في الفرن عليك أن تقدم البخور في المبخرة، وعليك أن تسكب خليطاً من العسل والزبد،ثم أشعل النار اللازمة لعمل الزجاج...))(49).

على الرغم من قدم صناعة الزجاج في العراق القديم،إلا أنه حاول بعض المهتمين بصناعة الزجاج ومنهم المؤرخ الإغريقي بليني التأكيد على أسبقية الفينيقيين بصناعة،وينسب ذلك إلى الاكتشاف التلقائي لمادة الزجاج عن طريق تجار مادة النطرون،الذين نزلوا السواحل الفينيقية قرب عكا ،ففي أثناء قيامهم بما يلزم لأعداد طعامهم،لم يعثروا إلا على أحجار الكربونات،لعدم وجود أحجار على الشاطئ واستخدموها كمساند للقدر،ولكن نترات البوتاس ما لبثت أن انصهرت بتأثير النار وامتزجت برمل الشاطئ مما أدى إلى ظهور سائل شفاف،فكان ذلك بداية فجر اكتشاف الزجاج وصناعته (50)،واللافت للنظر أن دقة الفينيقيين في صناعة الزجاج وإتقانهم لها كان سبباً مباشراً في دفع المؤرخين الكلاسيكيين (اليونانيون والرومانيين) على القول بأن اكتشاف صناعة الزجاج كانت على يد الفينيقيين،إلا أن الحقيقة أنهم يدينون بذلك إلى معلميهم العراقيون القدماء(51)،

والأمر الذي يؤكد هذه الحقيقة الألواح الفخارية الموجودة في المتحف البريطاني المسروقة من مكتبة أشور – أخ – أدينا الشهيرة في نينوى والتي تحمل نصوصاً مسمارية تتعلق بتعليمات طرق صنع الزجاج(52).

2- صناعة السفن :

أستوطن الفينيقيون الساحل السوري اللبناني المُطل على البحر المتوسط وكانت من أهم مدنه التي لها دور فعال ارواد ،جبيل، صيدا، صور، فضلاً عن مدن أخرى كانت لها أهمية أقل مثل عمريت واسيميرا وتأتي شهرتهم من تجارتهم البحرية الرائدة في حوض البحر المتوسط،والبلدان المطلة علية والعراق القديم شرقاً والعالم الأيجي ،فقد شكلوا نقطة التقاء بين الحضارات ،وتفاعل وثيق الصلة عبر تجارتهم التي بفضلها نقلوا فنونهم وعاداتهم وحرفهم الصناعية إلى تلك الأقاليم والبلدان[53].

بعد نقل الأخشاب إلى أسفل تجمع في شكل أرماث ثم تصدر إلى الخارج أو توضع في أحواض خاصة ويشرع في صناعة القوارب ثم السفن التي تشكل البحرية الفينيقية بنوعيها التجارية والحربية وغالباً ما كانت أحواض صناعة السفن توجد ضمن الموانئ البحرية [54].

أن صناعة السفن في العراق القديم كانت تمر بمراحل متعددة بدأ من تهيئة الأخشاب بأنواعها المختلفة وحجومها كخشب التوت والعرعر والأرز والغار والأبنوس،والأوتاد التي كانت تستعمل لردم الفراغات أو الفجوات التي كانت بين الألواح العرضية، فضلاً عن توفير الزفت والقار الذي يضاف إلية زيت نباتي ليمنحه ليونة عند الاستخدام،كما يضاف إلى هذا المزيج مواد نباتية مثل القصب والقش وذلك لقدرتها على منع تسريب المياه إلى بدن السفينة،من خلال عملية الأكساء والطلاء[55].

ويوضح النص المسماري الذي ترد فيه أول أشارة إلى صناعة السفن في ملحمة كلكامش عندما صدرت الأوامر الإلهية لأتونابشتم ببناء السفينة التي ستنجيه ومن معه الطوفان[56]،والجدير ذكره أن التوراة في سفر حزقيال أشارت إلى المواد التي تصنع منها السفن الفينيقية بنوعيها التجاري والحربي،وهذا يزيد النصوص المسمارية قوة في الاستدلال فأنها تصف السفن التجارية علماً أنها كانت مستديرة،وتظهر بمقدمة ومؤخرة مرتفعين وشكل المقدمة غالباً ما يشبه عنق الطير ورأسه ،وكانت في أول الأمر شراعيه.

ثم تقدمت صناعتها عندما بدأت تتوغل في أعماق البحار والمحيطات فزودت بالمجاذيف التي تستعين بها عند الدخول إلى الموانئ أو الخروج منها في حالة سكون الرياح حتى أصبحت تشبه إلى حد كبير السفن المستعملة حالياً في سوريا والتي تعرف بالماعون [57].ويشترط في السفينة الفينيقية التجارية سعتها الكبيرة لحمل الكثير بغض النظر عن عامل السرعة،وقد وجدت عدة نماذج لسفن تجارية وحربية فينيقية منقوشة على جدران قصر خرسباد الذي بني في عهد شركين الثاني،وهي محملة بأعداد كبيرة من الخشب،

أما بالنسبة للنوع الثاني أي السفن الحربية فقد كانت مستطيلة الشكل ولها مؤخرة مرتفعه ومقدمة تكون في مستوى الماء،وان الفينيقيين هم الذين كانوا يقودون البحرية الحربية في الشرق القديم[58].

كان الأشوريون عند استيلائهم على الساحل الفينيقي يستخدمون سفن المدن الخاضعة لهم لأخماد ثورات المدن الأخرى التي كانت تمتنع عن دفع الجزية والتي تتمرد على حكمهم انضمام سفن صيدا وعكا وصور في البحر إلى الملك الأشوري شلمان اشريد الثالث (شلمنصر) أثناء حصاره لمدينة صور سنة 722 ق.م والذي دام خمس سنوات انتهى بمعاهدة التزمت فيها صور بدفع الجزية للأشوريين،فضلاً عن طلب الملك سن – أخي – أريبا من الفينيقيين أن يبنوا له أسطولا حربياً ،وجد ضمن بقايا قصره في نينوى رسم منقوش يصور جزاءاً من حملته في جنوب العراق لإخضاع المنشقين [59]،وكانت هذه السفن مبنية من طابقين الأول مخصص للملاحين والثاني مخصص

للجنود،واستخدم في قسم منها المجاذيف والقسم والأخر فيه الأشرعة[60]،أن ثمة فوارق بين السفن التجارية والحربية،فالاخير مستطيلة الشكل ولها مؤخرة مرتفعة ومقدمتها غالباً ما تكون بمستوى الماء مجهزه بكتله حديدية في شكل سكة المحراث يطلق عليها أسم رأس الكبش تستعمل لتحطيم سفن الأعداء أو قلبها في الماء أثناء الاصطدام بها، تتميز السفن الفينيقية بالخفة والسرعة أثناء مناورة الأعداء وهي تعتمد في سيرها على المجاذيف بدلاً من الأشرعة التي تستعملها السفن التجارية، إذ كانت في أول الأمر تعتمد على صفين من المجذفين ينتظم أحدهما فوق الأخر ثم تطورت صناعتها فيما بعد لتصبح ثلاثة صفوف أو أربعة[61]

3- التجارة :

تعد التجارة من أهم النشاطات الاقتصادية الفينيقية ،نظراً لوقوع المدن الفينيقية على شاطئ البحر الذي أعطاها دوراً كبيراً في التجارة حينذاك،لاسيما البحرية منها،فضلاً عن منتجاتهم المحلية من الأخشاب والزيوت التي كانت تصدرها إلى مصر وبالمقابل فأن منتجات هذه البلدان كانت تصل إلى سورية والعراق القديم عبر الموانئ الفينيقية واهم هذه المنتجات النحاس من قبرص والذهب من مصر[62].

فضلاً عن تجارة الأخشاب،إذ نجد الفينيقيين هم الذين أمدوا الملك الأشوري شركين الثاني بالأخشاب لاستعمالها في بناء قصر خرسباد،ثم أن الأشوريين حين فرضوا على فينيقية معاهدة جعلوا بعض الجزية المفروضة من خشب الصنوبر،ومن المعروف لدينا أن حضارة العراق القديم وصلت إلى سواحل البحر المتوسط (فينيقية) منذ وقت مبكر عن طريق الحملات العسكرية، فضلاً عن المراكز الأشورية الإستراتيجية التي عدت من أهم الانجازات التي اقترنت باسم أشور ناصر إيلي الثاني الذي أسس هذه المراكز في مناطق خارج السيطرة الأشورية المباشرة.

ولعل أهم تلك المراكز أهم تلك المراكز (كار-أشورإيلي) و(نابارتي- أشور) وقد حققت تلك المراكز للأشوريين نفوذاً سياسياً ونشاطاً تجارياً متميزاً الى عهد الملوك الذين خلفوه في الحكم لتحقيق انجازات أعظم فازدادت المملكة الأشورية قوة وجبروتاً[63].

أضطر الأشوريون لعقد معاهدات اقتصادية بغية تأمين الممرات التجارية من اجل وصول المواد الأولية،مثل معاهدة الملك أشور – اخ – ادينا مع بعل حاكم صور [64]،تضمنت هذه المعاهدة تعيين مندوب أشوري مهمته مراقبة مصالح بلاده التجارية[65]، فضلاً عن إعطائه صلاحيات مطلقه إذ لا يجوز لبعل حاكم صور أن يتصرف من دون استشارة المندوب الأشوري ،في حين تعهد الملك الأشوري بحماية السفن التابعة له ،فإذا تحطمت في مكان أخر تابع لسيطرة الدولة الأشورية يعد كل اعتداء عليها اعتداء على أموال الدولة الأشورية نفسها كما ورد في النص الأتي: ((إذا تحطمت (غرقت) سفينة لبعل أو لشعب صور في ساحل بلاد الفلسطينيين أو أي مكان على حدود إقليم أشوري، فكل شيء في السفينة مُلك لسن – اخ – ادينا ملك بلاد أشور))

لقد أثرت البيئة الجغرافية لبلاد أشور كثيراً في توجيه الاقتصاد وصياغة السياسة العسكرية للمملكة الأشورية، فمن الناحية الاقتصادية على الرغم من أن الأشوريين عنوا بالتجارة واشتغلوا بها وقاتلوا كثيراً من اجل المحافظة على طرق مواصلاتها وجعلها مفتوحة أمام قوافلهم التجارية وإلا أن الاقتصاد الأشوري كان زراعياً،بما أعطته ارض أشور من تربة خصبة ووفرة في المياه الزراعية اللازمة لزراعة الغلال ،التي كانت ضرورية لديمومة الحياة واستمرارها الأمر الذي حدا بالإنسان القديم ومنذ العصور التاريخية المبكرة إلى الاستقرار في هذه الأماكن القريبة من أشور[66].

لقد شكلت بلاد الشام والأقاليم الغربية في أعالي العراق العمق الاستراتيجي لأمن بلاد أشور واقتصادها وعلى مدى تاريخها الطويل ولهذا نرى أن اتجاه الأشوريين نحو الغرب في العصر الأشوري الحديث كان بميولهم ونزعاتهم ونشاطهم التجاري والحضاري[67]،خاصة وأن تلك المدن وفرت هي أو عن طريقها كل ما تحتاجه بلاد أشور من مواد خام ويد عاملة فنية واقتصاد تجاري وفتحت الطرق والممرات والمسالك التي ساهمت بنمو الحركة التجارية،ويبدو ذلك واضحاً من خلال العمليات العسكرية التي شهدتها الأقسام الغربية من بلاد أشور كونها تشكل أكثر الجهات تحديداً وتهديداً لمصالح المملكة الأشورية الاقتصادية.

ترد أشارات إلى انخراط أعداد كبيرة من سكان المدن الفينيقية كمرتزقة في الجيش الأشوري كجنود ومستخدمين وعمال،ويبدو أن بعضهم تبوأ مراكز هامة في الجيش الأشوري،وبرز قسم منهم كحكام مقاطعات تابعين للدولة الأشورية (شاكن sakana)، كما عين إلى جوار هذا الموظف جامع الضرائب (تاجيرو)، أن أهم الواجبات الملقاة على عاتق حكام المقاطعات هو حفظ الأمن في المقاطعات وفي الطرق المؤدية إليها عن طريق وضع فيالق عسكرية تحضر دائماً في الحصون المحلية وتكون متأهبة لأي طارئ يحدث[68].

ولم يكن واجب حكام المقاطعات وموظفيهم حماية الثكنات العسكرية والحصون فحسب بل عليهم أيضاً مراقبة حركة التجارة بين المدن.

المبحث الرابع

((الحياة الدينية والاجتماعية))

1- الحياة الدينية :

أن ما نعلمه عن ديانة الفينيقيين وصل إلينا نبذاً في التوراة وتواريخ الإغريق،ولا توجد سجلات من سكان البلاد ذاتها يبين لنا ماهية عباداتهم،ومن تلك النبذ من الآثار الموجودة أستطاع الباحثين والمؤرخين كشف النقاب عن ديانتهم ومعرفتها معرفة تامة.

لقد انتشرت الإلهة في المدن الفينيقية،حيث كان لكل مدينة تقريباً إلهة خاصة بها،فمثلاً جبيل (بيبلوس) وصور وصيدا وغيرها كانت إلهتها الرئيسة ثلاثة،أي ثالوث الإلهة كان شائعاً في مدن الساحل الفينيقي،إلى جانب مجموعة من الإلهة الثانوية وبعض هذه الإلهة كان على صلة بالطبيعة وبعض الأخر بالكواكب[69].

أزداد التأثير الأشوري في مجال المعتقدات الدينية خلال الوجود العسكري للأشوريين في مدن الساحل الفينيقي فضلاً عن قيام المراكز التجارية،وفي موضع التأثيرات الحضارية بين العراق القديم ومدن الساحل الفينيقي نرى المعتقدات الدينية الخاصة بالإلهة أنانا السومري (عشتار) والإله دموزي السومري (تموز) في تراث تلك الأمم ومنها بلاد فينيقية [70].

وأن هناك التقاء وتشابه بين أساطير شعوب الشرق الأدنى القديم (عراقيين قدماء – فينيقيين – مصريين) على وجه الخصوص وبالذات ما كان يتعلق منها بالإله دموزي عند السومريين والبابليين وبعل عند الكنعانيين وأدونيس عند الفينيقيين واليونانيين ،فالنصوص المكتشفة في أوغاريت (رأس شمرة) [71] تذكر أن الفينيقيين اتخذوا من بعل وأنات إلهين للخصب وبذلك يكونان شبيهين لتموز وعشتار على التوالي،وهنالك أوجه تشابه بين الأساطير عند الشعوب القديمة في الشرق وربما جاءت من أصل واحد بعيد مشترك استمدت منه الأساطير مادتها[72].

مارس الفينيقيون الطقوس الدينية داخل المعابد أو خارجها وتضع للإلهة تماثيل توضع في زوايا المعابد،كما كان الفينيقيون يقدمون الضحايا البشرية

للإلهة[73]،أما المعبد فكان يمثل بحد ذاته مكانة بارزة في المعتقدات الدينية عند الشعوب لأنه المكان الطبيعي لتأدية مناسك التعبد وإجراء المراسيم والطقوس، فبالنسبة لأله الفينيقيين هناك نص لملك أشور –سن – أخ – أدينا يحمل معاهدة بين بعل ملك صور وملك أشور المذكور،وهو النص الوحيد الذي يقدم تفاصيل تتعلق بآلهة الكنعانيين الفينيقيين فضلاً عن بنود المعاهدة التي يحملها والتي تلقى الضوء على علاقة المملكة الأشورية بمدينة صور زعيمة مدن الساحل الفينيقي، ومن النقاط البارزة فيه،أن المعاهدة تبدأ بذكر مجموعة من الإلهة العراقية القديمة والكنعانيين الفينيقيين كشهود على المعاهدة وضمان لتنفيذ بنودها[74]، خاصة من قبل الطرف الفينيقي، والإلهة هم عشترت،جولا،الإلهة المحاربون ،بيت إل،وعناة،إلهة السماء والأرض، إلهة أشور وأكد ،بعل شميم وبعلة ملقة،بعل صفن،ملقرت،إشمن،يسمي نص المعاهدة وظيفة مشتركة لكل من بعل شميم وبعلة ملقة وبعل صفن يذكر أن أولئك الإلهة سوف يثيرون ريحاً صرصراً على سفنكم – أي سفن الفينيقيين...الأمر الذي يتعلق بالعاصفة وهي إحدى صفات الإله بعل أما ملقرت وإشمن فقد ورد في نص المعاهدة أنهما سيسلمان أرضكم للخراب ويعملان على زوال طعام أفواهكم وملابس أجسادكم وزيت أدهانكم وتلك أمور ترتبط بوظائف الخصوبة، ومن بنود المعاهدة ((إذا تحطمت سفينة لبعل ملك صور أو لأهل أرواد في المياه الإقليمية الفلستية أو في أي مكان تابع للأشوريين فان محتوياتها مُلكاً لسن – أخ – أدينا دون التعرض لملاحيها...يمنح سن – أخ – أدينا لخادمه بعل ملك صور حق رسو سفنه في موانئ عكا ودور في الإقليم الفلستي... وفي المدن الساحلية التابعة لآشور،وفي جبيل... والمدن الجبلية...))[75].

2- الحياة الاجتماعية :

أن التغيرات الديموغرافية التي أجراها بعض الملوك الأشوريين في مدن الساحل الفينيقي ،لاسيما بعد تهجير أهل السامرة وإحلال بابليين محلهم،الأمر الذي يفيد في معرفة أصول السكان في المنطقة[76].

وأن من أهم المعلومات الاجتماعية التي تستمد من حوليات الملك أشور – بان – أيلي إذ تستنتج بعض العادات الاجتماعية التي تخص الزواج (الزوجة غير الشرعية وتقديم البائنه للرجل) فيذكر: (...بالنسبة إلى يكينلو ملك ارواد السكان وسط البحر والذي لم يخضع لآبائي الملوك ،فقد أخضعته ....وقد جائني بابنته إلى نينوى ومعها بائنه ضخمة لتكون سرية لي)) .

ويطلعنا هذا النص الأشوري على معلومات تخص الحياة الاجتماعية الفينيقية،فورد ذكر الزوجة غير الشرعية،وكانت بنت ملك أرواد مثالاً على هذا النوع من الزواج بالملك الأشوري،وكما واضح في النص فان البائنة الضخمة هي هدية ترافق الزوجة غير الشرعية،ولم يوضح النص إن كان هذا الزواج منتشراً بين العامة كما هو الحال عند الملوك ومن خلال الاطلاع على حوليات الملك الأشوري على مجموعة أسماء فينيقية كاسم ملك أرواد وأبناءه العشرة: ((بعد وفاة يكينلوا ملك أرواد جاءنئ أبناءه عزيبعل، وابيبعل، وادنبعل،وشفط بعل، وبدبعل، وبعليشب،وبعل حنون،وبعل ملك ،وابيملك،واحميلك،جاءني جميعهم بهداياهم الثمينة وقبلوا قدمي فأثنيت على عزيبعل ونصبته ملكاً على أرواد...)).

من هذا النص يتضح الاعتقاد بتبعية أرواد إلى الملك الأشوري الذي قام بتنصيب الملك الجديد على العرش فيها،وبما أن الملك الأشوري اختار الابن الأكبر من بين أبناء ملك أرواد المتوفى،استناد إلى ترتيب ورود أسمه في النص الأشوري،فذلك يعني اعتراف الملك الأشوري بالنظام الوراثي للمدينة ودائماً شريطة تقديم فروض الطاعة له،أن المهجرين الذين تم إجلائهم

مـن منـاطقهم مـن قبـل الملـوك الأشـوريين لـم يعـاملوا معاملة مختلفة عن الأشوريين اجتماعياً واقتصادياً ،وقد وصل أنـاس كثر من المهجرين إلى مناصب عالية في الجـيش الأشـوري،إذ إنهـم شـكلوا فرقـاً منفصـلة فـي الجيش الأشوري.

كما كانت المملكة الأشورية ترسل أشخاصاً من المهجرين لتدريبهم على حرف معينـة للاستفادة منـهم كالتدريب عند الخبازين، وكذلك للعمل في مجال الأعمال المكتبية في القصر في عهد شركين الثاني، ويتضح من ذلك أن هؤلاء المرحلين لم يعيشوا عبيداً في بلاد أشور ،وإنما عدوا من السكان واستمروا بالاشتغال في حرفهم التـي تعلموهـا أو ورثوهـا فـي بلادهـم طبقـاً لحاجـات المملكة الأشورية[77].

ويمكـن الاسـتنتاج إن لسياسـة الترحيـل أهـدافاً بعيدة المدى ألا وهي توحيد جميع الأقاليم والمقاطعات الأشورية في دولـة واحدة ودمـج السكان المرحلين مـع سـكان البلـد الـذي رحلـوا إليـة لجعلهـم أمـة واحدة ذات عـادات وتقاليد اجتماعيـة متشـابهه ،وبهذا يمكن القول أن هذه السياسـة حققت أهدافها مـن جوانـب عدة منهـا الجانب الاجتماعي،إذ أصبحت هنـاك علاقـات واتصـالات اجتماعيــة بــين أبنــاء تلــك الشــعوب وبــين المجتمــع الأشوري[78].

لـم تمـدنا الحمـلات العسـكرية بمعلومـات عـن أولئــك المــرحلين ،بــل أن الإشــارة إلــيهم وردت فــي النصوص الملكية،كما ورد في نـص شركين الثـاني : ((أحصيتهم سوية مـع المـواطنين والنـاس في بلاد أشور واعتبرتهم مع أناس بلاد أشور)).

كما وردت العبارة نفسها في حوليات ((شـلمان اشريد الثالث)) حينمـا رحـل 17500 شـخص مـن بيت أدني إلى بلاد أشور وعدهم بمنزلة الأشوريين الأصليين فـي المتجمـع... لـذا سـاد اعتقـاد أن جميـع الأقـوام التـي عاشــت فــي بــلاد أشــور كانــت تتمتــع بــالحقوق والواجبات.... سواء في فرض الضريبة أو الجزيـة التي كانـت تفـرض علـى سـكان أشـور الأصليين،فضـلاً عـن وقوعهم تحت الحمايـة الأشورية،كما جاء في حوليات شركين الثـاني : ((فرضـت الضـريبة والأتـاوة علـى بـلاد أشور)).

أما مدى تأثير الأقوام المهجرة على بلاد أشور مـن خـلال انـدماجها فـي المجتمـع الأشـوري إذ وردت أسماء أعلام مختلفة في العائلـة الواحدة فمثلاً يرد ذكر أخـوين احـدهما يحمـل أسـماً أشـورياً نـابو – زاقـب – انشـي،والأخر يحمـل أسـماً أراميـاً – نـاني، وادى هـذا الاندماج كذلك إلى حدوث روابط وثيقـة بين الأشـوريين والأقوام المهجرة إلى بلاد أشور عن طريق الزواج

ويبدو أن سلطات المملكة الأشورية كانـت تهـتم بتـوفير الحيـاة المسـتقرة لهـؤلاء المهجـرين فـي منـاطق سكناهم الجديدة،كما أن الزوجـة الثانيـة للملـك الأشـوري سين – اخي – اريبا المعروفة باسمها الأرامـي هو نقيـة Naqia التـي تحمـل أسـماً اشـورياً هـو زاكـو تـو Zakkutu وقد أثرت هذه المرأة في أدارة دفـة الحكم في المملكة الأشورية بوصفها زوجة للملك ووالـدة ولـي العهـد أشـور – أخ – أدينـا وظهـرت قوتهـا فـي صـناعة القرار السياسي الأشوري ،من خلال تنصيب ابنهـا وليـاً للعهـد علــى الــرغم مــن انــه لــم يكــن الابــن الأكبــر لوالده،وجعلته يرتقى العرش بعد وفاة والدة [79].

الخـــــاتمة

يتبين مما عرضنا من معلومات متواضعة حول موضوعنا،أن الموقع الجغرافي لبلاد أشور قد أثر في تاريخها وجعلها منطقة مفتوحة مهددة باستمرار لذلك أهتم الأشوريين بالجانب العسكري خاصة بعد خضوع بلاد أشور لفترة طويلة للاحتلال الميتاني ،ففكروا بتأمين حدود المملكة الأشورية ضد الأخطار الخارجية،كما كان لعامل المناخ دور كبير في جعل الاقتصاد في بلاد أشور اقتصاداً زراعياً،

واعتمدت البلاد على استيراد ما ليس موجوداً فيها كالأخشاب والمعادن والذهب والفضة....

أن أول اتصال بين الأشوريين والفينيقيين قد تم أثناء العصر الأشوري الوسيط وبالتحديد في زمن الملك توكلتي إبل أيشر الأول وذلك حينما أشار ذلك الملك في حولياته إلى مدن الساحل الفينيقي،وثاني اتصال يرجع إلى العصر الأشوري الحديث إبان حكم الملك أشور ناصر إيلي واستمر بعد ذلك حتى سقوط المملكة الأشورية، بعد انتشار استعمال الحديد أستغله الأشوريين في صناعة أسلحتهم الفتاكة وآلات الحصار وظهرت نتائجه في المعارك والحرب التي خاضوها ضد أعدائهم خاصة في الجبهة الغربية للعراق القديم.

لقد تحقق الرفاه الاقتصادي للمملكة الأشورية بعد أن توسعت وامتدت حدودها لتصل إلى البحر العظيم (البحر المتوسط) وبذلك أحكمت سيطرتها على طرق التجارة،وأخذت هدايا الطاعة والولاء تتدفق عليها من المدن الفينيقية التابعة لها.

ونتيجة لتوسع حدود الإمبراطورية الأشورية فقد أنتشر شعور الكراهية ضدها في البلاد التي سيطرت عليها،فقامت تحالفات ضدها ففي الغرب تحالفت الدويلات الآرامية والمدن الفينيقية ومملكة إسرائيل،

وقد غزت المملكة المصرية تلك التحالفات بإرسالها الأموال والإمدادات العسكرية خوفاً على فقدان مصالحها في الساحل الفينيقي..،

وفي نهاية المطاف سيطر حكام المقاطعات وانفصلوا عن السلطة المركزية وبدأوا يعملون لصالحهم مما سبب ضعف المملكة الأشورية.

الهوامش:

----

(1) محمد بيومي مهران ، المدن الفينيقية ، دار النهضة العربية ، بيروت 1994 ، ص 245.

(2) محمد عبد اللطيف ، تاريخ العراق القديم ، الإسكندرية 1977 ، ص262

(3) المرجع السابق نفسه ، ص 281

(4) فليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ،بيروت 1958 ، ص 150

(5) محمد بيومي مهران ، المدن الفينيقية ، مرجع سابق ، ص 247

(6) فيليب حتى ، مرجع سابق، ص 173

(7) محمد بيومي مهران ، مرجع سابق ، ص 248

(8) نجيب ميخائيل ، مصر والشرق الأدنى القديم ، ج 3 ، الإسكندرية 1966 ، ص 48

(9) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ، ص 112

(0) فيليب حتى ، المرجع السابق ، ص 153

(1) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 250

(2) السيد عبد العزيز سالم، دراسة في تاريخ مدينة حيدا، بيروت 1970، ص 32

(3) نجيب ميخائيل ، مرجع سابق ، ص129

(4) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص 33

(5) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 220

(6) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج2، ص269

(7) ڤيليب حتى ، مرجع سابق ، ص 155

(8) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ، ص 131 .

(9) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق، ص 256

(20) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص 33

(21) محمد بيومي مهران ، المرجع السابق ، ص 258

(22) ابتهال عادل الطائي،أصالة الحضارة العراقية القديمة وأثرها في الحضارات الأخرى في مجال في العلوم الإنسانية،رسالة ماجستير غير منشورة،الموصل 1996، ص13

(23) ثروت عكاشة ،الفن العراقي القديم،سومر وبابل وأشور،بيروت،ب ت،ص 25

(24) خليل سعيد،معالم حضارة بلاد الرافدين،(الدار البيضاء،1984)،ص 63

(25) قسطنطين زريق، في معركة الحضارة،ط4 (بيروت،1981م) ،ص233

(26) عيد مرعي،موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، ص366

(27) محمد الخطيب،الحضارة الفينيقية، ص 139

(28) أحمد علي إسماعيل،تاريخ بلاد الشام،(دمشق.1998)، ص 168

(29) محمد الخطيب،المرجع السابق،ص 141

(30) سامي سعيد الأحمد وجمال رشيد،تاريخ الشرق القديم،366

(31) ابتهال عادل الطائي،المرجع السابق،ص 64

(32) فاضل عبد الواحد،العراق في موكب الحضارة،ط 1،بغداد 1988،ص 197

(33) المرجع السابق نفسه،ص 199

(34) ول ديورانت ،قصة الحضارة،ص 80

(35) ابتهال عادل الطائي،المرجع السابق،ص 70

(36) المرجع السابق نفسه،ص 59

(37) فاضل عبد الواحد،من ألواح سومر إلى التوراة،(بغداد 1989م)،ص 303

(38) أنيس فريحة،أحيقار حكيم من الشرق الأدنى،(بيروت 1963)، ص 149

(39) طه باقر ،مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ،ص .115

(40) سامي سعيد الأحمد ،الزراعة في العصور التاريخية ،ص 170

(41) عامر عبد الله ألجميلي ،المعارف الجغرافية عند العراقيين القدماء ،(دهوك 2011)،ص 125.

(42) سامي سعيد الأحمد،الزراعة والري، موسوعة حضارة العراق،(بغداد 1985) ،ج2،ص 165

(43) المرجع السابق نفسه، ص 166

(44) عامر سليمان ،القانون في العراق القديم،ط2، (بغداد 1987) ،ص 291

(45) فيليب حتى ،المرجع السابق ،ص 165

(46) ابتهال عادل الطائي،المرجع السابق ،ص195

(47) المرجع السابق نفسه،ص 196

(48) فوزي رشيد،العلوم الإنسانية والطبيعية ،موسوعة الموصل الحضارية ،مج1،ص382

(49) ابتهال عادل الطائي،المرجع السابق،ص 196

(50) فيليب حتى،المرجع السابق،ص 99

(51) نعيم فرج،موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم،ص 17

(52) جورج رو،العراق القديم،ص 429

(53) محمد الصغير غانم،التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط ،ص21

(54) ابتهال عادل الطائي،المرجع السابق،ص 10

(55) رضا جواد الهاشمي ،الملاحة النهرية في بلاد الرافدين،مجلة سومر ،بغداد1981،ص 49

(56) احمد سلطان محمد،الصناعات الخشبية في العراق القديم حتى 612 ق.م ،رسالة ماجستير غير منشورة،الموصل 2011،ص 152

(57) جورج كونتينو ،الحضارة الفينيقية، ص 234

(58) ابتهال عادل الطائي، مرجع سابق، ص 12

(59) محمد الصغير غانم، مرجع سابق، ص 60

(60) طالب منعم ألشمري،سنحاريب سيرته ومنجزاته،ص 145

(61) محمد الصغير غنام،المرجع السابق،ص 62

(62) جباغ قابلو،تاريخ الحضارات القديمة في الوطن العربي،دمشق 2009،ص 112

(63) جورج رو،العراق القديم،ص 390

(64) هاري ساكز ،قوة أشور،ص 120

(65) جورج رو،المرجع السابق،ص 92

(66) بهنام أبو الصوف،تجارة العراق الخاصة في عصور ما قبل التاريخ، مخيلة مابين النهرين، العدد 48، (بغداد،1985)، ص 191

(67) محمد صبحي عبد الله،العلاقات العراقية المصرية في العصور القديمة،رسالة الماجستير غير منشورة،بغداد 1977،ص 24

(68) جيوفاني بيتيناو، سمير أميس ملكة أشور وبابل، ترجمة عيد مرعي،ط1،دمشق 2008،ص 143

(69) جباغ قابلو،المرجع السابق،ص 233

(70) فاضل عبد الواحد،عشتار ومأساة تموز (بغداد،1986)، ص 173

(7) فاضل عبد الواحد ،المرجع السابق،ص 174

(72) محمد أبو المحاسن عصفور،معالم حضارة الشرق الأدنى،ص 165

(73) المرجع السابق نفسه،ص 165

(74) محمد حسين منطر، الحرف والصورة في عالم قرطاج،تونس 1999م،ص 317

(75) إبراهيم خليل خلايلي،الحياة المدنية والدينية في المدنية الكنعانية والفينيقية في ضوء العهد القديم والحوليات الأشورية،أطروحة دكتوراه غير منشورة،تونس2001،ص 325

(76) إبراهيم خليل خلايلي،المرجع السابق،ص 326

(77) وليد الجادر،الحرف والصناعات اليدوية في العصر الأشوري المتاخر،بغداد1975،ص32

(78) فرجي بصمجي،كنوز المتحف العراقي،بغداد 1972،ص 298

(79) أحمد مالك الفتيان،نظام الحكم في العصر الأشوري الحديث،أطروحة دكتوراه غير منشورة،بغداد 1991،ص .258

قائمة المصادر والمراجع

1- إبراهيم ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ،ج3 ،ط2 ، (الإسكندرية ،1966).
2- الأحمد ، سامي سعيد : الزراعة والري ، موسوعة حضارة العراق ،(بغداد،1985)
3- الأحمد ، سامي سعيد : الزراعة في العصور التاريخية،موسوعة الموصل الحضارية ،(الموصل،1991)
4- الأحمد ، سامي سعيد وجمال رشيد : تاريخ الشرق القديم ، (بغداد،1988)
5- إسماعيل ، أحمد علي : تاريخ بلاد الشام القديم (دمشق،1988)
6- باقر ، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة،(بغداد،1986)،ج1
7- بصمجي ، فرج : كنوز المتحف العراقي،(بغداد،1972)
8- بيتيناو ، جيوفاني : سمير أميس ملكة أشور وبابل،ترجمة عيد مرعي،ط1،(دمشق،2008)
9- الجادر ، وليد : الحروف والصناعات اليدوية في العصر الأشوري المتأخر ،(بغداد،1975)
10- حتى ، فيليب : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رأفت،(بيروت،1958)،ج1
11- الخطيب ، محمد : الحضارة الفينيقية ط1،(دمشق،2006)
12- الخلايلي ، إبراهيم خليل : الحياة الدينية والمدنية في المدينة الكنعانية والفينيقية في صور العهد القديم والحوليات الأشورية ، أطروحة دكتوراه غير منشورة(تونس،2001)
13- ديورانت ، ول : قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران،ط2، (القاهرة،1961)،مج2
14- رشيد ، فوزي : العلوم الإنسانية والطبيعية ،موسوعة الموصل الحضارية ، مج1 ،1991.
15- رو ، جورج : العراق القديم ،ترجمة حسين علوان، ط2 ، (بغداد،1986)
16- زريق ، قسطنطين : في معركة الحضارة ، ط4، (بيروت ،1981)
17- ساكز ، هاري : عظمة بابل، ترجمة عامر سليمان، (الموصل،1979)
18- سليمان ، عامر : القانون في العراق القديم،ط2، (بغداد1987)
19- ألشمري ، طالب منعم : سنحاريب سيرته ومنجزاته 704-681 ق.م رسالة غير منشورة، (بغداد، 1987)
20- أبو الصوف ، بهنام : تجارة العراق الخاصة في عصور ما قبل التاريخ مجلة ما بين النهرين، العدد48، (بغداد،1985)
21- الطائي ، ابتهال عادل : أصالة الحضارة العراقية القديمة وأثرها في الحضارات الأخرى في مجال العلو الإنسانية رسالة ماجستير غير منشورة، (الموصل،1996)
22- عبد اللطيف، محمد : تاريخ العراق القديم، (الإسكندرية ،1977)
23- عبد الواحد ، فاضل : من الواح سومر إلى التوراة ،ط1 ،(بغداد،1989)
24- عبد الواحد ، فاضل : الكتابة والأدب ،العراق موكب الحضارة ، ط1،(بغداد،1988)
25- مرعي ، عيد :موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم، (السعودية،2003م)
26- غانم ، محمد الصغير : التوسع الفينيقي في غرب البحر المتوسط (الجزائر،1979)
27- الفتيان ، أحمد مالك : نظام الحكم في العصر الأشوري الحديث،أطروحة دكتوراه غير منشورة، (بغداد،1991)
28- فريحة ، أنيس : أحيقار حكيم من الشرق الأدنى، (بيروت،1963)
29- قابلو ، جباغ :تاريخ الحضارات القديمة في الوطن العربي ،(دمشق،2009)
30- كونتينيو ، جورج : الحضارة الفينيقية ،ترجمة محمد عبد الهادي شعيره ، (القاهرة ،1981)

31- مهران ،محمد بيومي : المدن الفينيقية ، تاريخ لبنان القديم ، دار النهضة العربية، (بيروت، 1994)
32- الهاشمي ، رضا جواد : الملاحة النهرية في بلاد الرافدين ،مجلة سومر، (بغداد).

الجنة مفهومها ودلالاتها الدينية والدنيوية في بلاد الرافدين القديمة

منذ الألف الثالث ق.م

دراسة لغوية-تاريخية

الدكتورة فردوس محمد الخطيب

دمشق – سورية

ملخص باللغة العربية

الجنــة فـي اللغـات القديمـة تعنـي البسـتان أو الحديقـة واسـتعملت فـي الأسـاطير القديمـة علـى أنهـا الأرض ذات الشـجر الكثيـر والبسـاتين ذات الخيـرات العظيمة، يدور البحث حول فكرة الجنة بقسميها الجنة السـماوية و الجنـة الأرضـية وعناصرها المتمثلـة فـي عشبة الخلود وأنهار المياه العذبة والأفعى في الموروث الأدبي والديني والاجتماعي القديم في بلاد الرافدين.

وينتهي البحث بمقاربـة تاريخيـة بـين الفكـرة التخيليـة للجنـة عنـد سكان بـلاد الرافدين فـي العصـور التاريخيـة القديمة و بين التنظيم البشري للحدائق التي بدأت ملكيـة ثـم انتشرت بـين جمـوع العامـة والتـي كانـت فيمـا يبـدو إشـــارات واضـــحة لتقليـــد بشـــري لفكـــرة الفـــردوس السماوي.

لا بـد وأن الانسـان القـديم منـذ بداياتـه الأولـى كـان يطمـح أن يعـيش علـى أرض خاليـة مـن المشـاكل والهموم والالتزامات الاجتماعية والنزاعات السياسية والدينية في مشهد أقرب ما يكون الى الجنـة السماوية فبدأ يبتكر أماكن على الأرض تكون شبيهة بفكرة الجنـة بمنظوره الإنساني البسيط.

إن الأفكـار التـي كونهـا الانسـان القـديم عـن الجنـة لـم تكـن مجـرد رؤى فلسـفية بـل تعـدتها لتكـون منـاطق طبيعيـة حقيقيـة يكتنفهـا الجمـال والسـلام، عـاش فيها ونسج عنها أهم الاساطير والقصص وبنـى عليها أهم حضاراته القديمة .

أولاً: الجنة في اللغات القديمة:

Pa-r-de-e-su فـي السـومرية [1] وهـي فـي الأكادية Pardēsu [2]وتعني الجنـة والمنتزه والحديقـة المسـورة وهـي فـي الأسـاطير الحديقـة ذات الشـجر والبسـتان الخصـيب[3]. واسـتمر اللفـظ اليونـاني لهـا paradeisos أي الحديقـة الجميلـة بينمـا عرفـت عنـد الفرس pairi-daé أي الحديقة المحاطـة بالجدران[4]، ويذكر أن أقدم نص وردت فيـه كلمـة برديسو هو نص بابلي يصف الأجزاء الشرقية من جزيرة العرب وساحل الخليج العربي بمـا فيـه ماجـان-سلطنة عمـان اليـوم – ودلمون-البحرين- بأنها الفردوس أو مـا يعرف بالجنـة على الارض.

وقد وردت كلمـة الجنـة في النصوص الكتابيـة الأكاديـــة بلفظـــة gannû، gannatu [5] وهـــي الحديقـة[6]، كمـا وردت فـي النصوص الآراميـة القديمـة الـــواردة مـــن مدينـــة دور كتليمـــو بلفظـــة (ج ن ت أ) ومفردهـــا (ج ن) ومؤنثهـــا (ج ن ه) أي البســـتان والحديقـة[7]، والتـي كانـت تسمى جنـة إذا كانـت كثيـرة الشجر والنخل فلا يقال لها جنة إلا ومن أول أشجارها

العنب والنخل، كما وصفت الجنة في الآخرة من الاجتنان أي الستر لتكاثف أشجارها وتظليلها بالتفاف أغصانها[8]. ومازالت بعض تسميات المناطق الجغرافية تسمى جناتا -وهي قرية تابعة لمحافظة اللاذقية اليوم في سورية- وتعني الأرض الخضراء ذات البساتين كما واشتهرت في شرقي العراق مدينة تاريخية قديمة باسم جناناتا Gananata في منطقة ديالى والتي تعني الجنات باعتبارها كانت مشهورة جدا بالبساتين والرياض.

ومن الالفاظ التي عرفت بها الجنة قديما كلمة ادين-ادينو edin و edinnu والتي تعني في السومرية السهل المنبسط، وقد وردت في النصوص السومرية لفظة GU Edinna والمقصود بها السهل الخصيب الواقع بين مدينتي لكش وأوما في جنوبي العراق، ومنها الجذر اللغوي لكلمة عدن ومنها جنة عدن أي المشبعة بالمياه العذبة والتي ورد ذكر أنهارها في التوراة –العهد القديم في سفر التكوين "وغرس الرب الاله جنة في عدن شرقا وأسكن هناك آدم الذي جبله وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة حسنة المنظر طيبة المأكل وكانت شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر في وسط الجنة وكان يخرج من عدن نهر فيسقي الجنة ويتشعب من هناك فيصير أربعة أنهار أحدها اسمه فيشون ويحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب وذهب تلك الأرض جيد وهناك اللؤلؤ وحجر العقيق واسم النهر الثاني جيحون ويحيط بجميع ارض كوش واسم النهر الثالث دجلة ويجري في شرقي آشور والنهر الرابع هو الفرات"[9].

وقد عرفت عدن كأشهر مدينة في أرض اليمن جنوبي شبه الجزيرة العربية بهذه التسمية لكثرة مياهها، وكما عرف عن مدينة عدن وجود كميات ضخمة من المياه العذبة فيها، ويقال في اللغة العربية عدن فلان بالمكان أي توطنه وأقام به وجنات عدن هي مكان إقامةٍ خالدة للمؤمنين[10]، كما ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: "جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون"[11]

وما زالت الكثير من قرى بلاد الشام تقول أرض عدينة أي مغرقة بالمياه وبساتين عدّنانة أي كثيرة الماء والخضرة والخيرات وعدّان الماء أي فرز المياه الى الأراضي وسقايتها حتى الاشباع في وقت محدد.

وللفردوس وعدن والجنة معنى موحد إلا أن الجنة هي الأصل والفردوس وعدن أقسامٌ منها وعندما يطلق اسم الفردوس أو عدن على الجنة فهو من باب دلالة الجزء على الكل.

<u>ثانياً: الجنة السماوية عند السومريين في الألف الثالث ق.م:</u>

يتضح مفهوم الجنة السماوية بالنسبة للسومريين الذين عاشوا جنوبي بلاد الرافدين في الألف الثالث ق.م من خلال قصة أدابا ابن آيا اله الحكمة، وهي أسطورة سومرية تحكي قصة الإنسان الوحيد الذي صعد إلى السماء عند السومريين، وشاهد مباشرة نور الإله آنو حيث تؤكد أحداث القصة أن أدابا كان يصطاد في المياه العذبة في أريدو جنوبي بلاد الرافدين فهبت عليه رياح من الجنوب فأغرقت سفينته ولكنه بفضل حكمته ومعرفته استطاع كسر جناح الرياح التي تعطلت وتوقفت عن الهبوب فاستغرب الإله آنو تصرفه هذا وطلب أن يمثل أمامه يمثل أدابا أمام الإله آنو إلا أنه يرفض تماما الطعام والشراب والزيت والكساء الذي يقدمه له الإله آنو[12]، بأمر من أبيه أيا ذلك بأن آنو سيقدم له خبز الموت وماء الموت وعليه أن يرفض ذلك، وعندما وصل آدابا السماء قرر آنو أن ينعم عليه بالخلود فقدم له خبز الحياة وماء الخلود فرفضهما طاعة لأمر والده أيا مما جعل الإله آنو يحرمه من الخلود، لا تنتهي الأسطورة بهذه الأحداث بل يبدو أنها كانت البداية الحقيقية حيث أن عصيان أوامر ورغبات

الإله آنو يؤدي إلى طرد آدابا من السماء وحرمانه من عطاءات الإله في جنته السماوية وإعادته إلى الأرض[13].

إن الأسطورة تصور بشكل مباشر ما يعرف بخطيئة الإنسان الذي يعصي أوامر ربه كما فعل أدابا بامتناعه عن أكل طعام الحياة وشرب ماءها [14] فحرم من الجنة ، ترد القصة في النص السومري كما يلي:

ونحن ما عسانا نفعل من أجله........خبز الحياة

فليقدم له وليأكل منه

قدم له خبز الحياة ولكنه لم يأكل

قدم له ماء الحياة ولكنه لم يشرب

قدم له كساءاً فلبسه

قدم له زيتاً فامتسح به

آنو أمام تصرفه هزأ منه

وقال ضاحكاً تعال هنا يا أدابا

لماذا لم تأكل ولم تشرب

لن تكون لك حياة أبدية

إنه أيا يا إلهي

الذي قال لي لا تأكل ولا تشرب

فليؤخذ إذن قال آنو وليعد إلى أرضه[15]

إن في الأسطورة ما يمكن مقارنته مع عصيان آدم في التوراة والقرآن الكريم باقترافه الخطيئة ومعصيته للرب إلا أن اختلاف تفاصيل المعصية بين أدابا في الأسطورة و قصة آدم في الكتب السماوية جاءت بنوعية الخطيئة عندما امتنع أدابا عن الأكل والشراب[16]، بينما أقدم أدم على الأكل من الشجرة المحرمة هو وزوجته، مما تسبب بالنتيجة ذاتها في كلا القصتين بطرد الإنسان من الجنة السماوية ووجوب معاقبته بحرمانه من فرصة الخلود فيها[17] كما ورد في الآية القرآنية:" و يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ماوري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين "[18].

ثالثاً: مفهوم الجنة الأرضية عند السومريين:

-مدن سومر أول نموذج للجنة على الأرض: بما أن مفهوم الجنة عند السومريين اقترن بالأنهار والمياه العذبة والموارد الطبيعية الوفيرة فقد أكدت المصادر الكتابية القديمة على أن مناطق عديدة - داخل بلاد الرافدين وخارجها- كانت بنظر السومريين أشبه بالجنة لطبيعتها الخلابة ووفرة مياهها العذبة فسموا السهل الخصيب بين أوما ولكش المدينتين السومريتين والذي ترويه الأنهار في جميع أقسامه بأرض عدن في إشارة الى خصوبته وغناه بالمياه ، كما ورد في اسطورة انكي وتنظيم العالم التي تعتبر من أطول وأهم الأساطير السومرية التي تروي قصة الإله انكي[19] وهو ينشر الخير في الكون ويقرر مصائر البلدان فيبدأ ببلاد سومر فيجعلها بلداً مقدساً تتخذه الآلهة مسكناً لها، فيسبغ نعمه وخيراته على مدينة أور العظيمة حيث أصبح يطلق عليها مسمى دار الرخاء المقدسة على وجه الأرض وهي تحمل معنىً ضمنياً لفكرة الجنة الأرضية وقد جاء في متن الأسطورة :

لقد جاء الى أور
انكي ملك الماء الذي لا يسبر غوره وقدر مصيرها
أيتها المدينة التي ازداد طعامها
وغسلت بالماء الوفير ووقفت كالثور الراسخ
يا دار الرخاء المقدسة على وجه الأرض
....

هو الذي قدر مصيرك على أحسن وجه[20]

-دلمون الجنة المثالية على الأرض: كما أطلق السومريون أرض الفردوس بالتسمية الصريحة المباشرة على دلمون -البحرين وساحل الخليج العربي اليوم- التي كانت تتمتع بكل الصفات الطبيعية التي جعلت منها فردوساً بنظر السومريين بحق.



لقد كانت دلمون هي الجنة لموقعها الجغرافي المتميز بين البر والبحر (الخليج العربي) وثرواتها النادرة كاللؤلؤ وبضائعها النفيسة وحياة الرخاء التي يعيشها قاطنوها، وقد بدأت الأساطير السومرية تورد تفاصيل دقيقة تشرح مفهوم الجنة عند السومريين ففي أسطورة ننخرساج وانكي توصف دلمون بالمكان المقدس النقي حيث موطن الآلهة انكي إله المياه والأرض وننخرساج الربة الأم[21].



الربة ننخرساج الربة الأم[22]

دلمون كانت المكان الخالي من الأذى، مكان لا يعرف ساكنوه الخوف ولا الهلع ولا الكراهية ولا يعرف فيه المرض ولا العجز ولا القتل ولا العنف ومن الأسطورة نقرأ:

مقدسة هي المدينة التي منحت لكم

مقدسة هي دلمون

مقدسة هي سومر

أرض دلمون مكان طاهر

أرض دلمون مكان نظيف

أرض دلمون مكان مضيء

في أرض دلمون لا ينعق الغراب

والأسد لا يفترس أحداً

ولا ينقض الذئب على الحمل

ولا ينهش الكلب البري الجدي

ولا يلتهم الخنزير البري الزرع

والطير في الأعالي لم يكن يأتي لينقر شعير الأرملة وهو يجفف على السطح

والحمامة لم تكن تحني رأسها

وحيث لا أحد يعرف رمد العين

وحيث لا أحد يعرف آلام الرأس

حيث لا يشكو الرجل من الشيخوخة

وحيث لا تشكو المرأة من العجز[23]

كما ورد أيضا في اسطورة انكي وتنظيم العالم أن الإله انكي يغدق خيراته على دلمون لتصبح مقدسةً كما الجنة السماوية:

طهر بلاد دلمون وجعلها نقية

وعين نين-سكيلا عليه

وأعطى......حتى تأكل (دلمون) من أسماكه

وأعطى الحقول الطيبة نخيلا

حتى تأكل (دلمون) من تموره[24].

وقد أكدت الأساطير القديمة أن السومريين اعتبروا دلمون موطنهم الأصلي الذي قدموا منه باتجاه بلاد سومر، وأنها بلاد النهاية الأبدية لذلك قرروا دفن موتاهم فيها، واستمر هذا الاعتقاد حتى الفترة البابلية والتي وصفت فيها دلمون بأرض الأحياء وموطن الخالدين. إن أسطورة الطوفان الشهيرة جداً تظهر البطل زيوسدرا بمنزلة الإنسان الوحيد الذي استطاع أن يدخل الفردوس ويمنح حياة الخالدين التي تمنح للآلهة في دلمون المكان الذي تشرق منه الشمس[25].

الملك زيوسدرا

اصطفى آن وانليل زيوسدرا

ووهباه الحياة مثل إله

زيوسدرا الملك الذي حافظ على الزرع

والذي صان ذرية البشر

في أرض العبور في أرض دلمون

الموضع الذي تشرق منه الشمس أسكناه هناك[26].

وفي أسطورة جلجامش يعود ذكر دلمون كونها أرض الآلهة ومسكن الأحياء وإليها ينتهي مصير الأبطال والخالدين.

إلى أرض الأحياء تاق السيد للسفر

إلى أرض الأحياء تاق جلجامش للسفر

فقال لخادمه انكيدو

لسوف أدخل أرض الأحياء وأخلد لنفسي هناك ذكراً

في الأماكن التي رفعت فيها الأسماء سأرفع اسمي

في الأماكن التي ترتفع فيها الأسماء سأرفع اسم الآلهة[27]

وبحسب نتائج التنقيب الأثري التي أجريت في موقع دلمون القديم فقد عثر الآثاريون على مجموعة كبيرة من المدافن فيها رغم قلة عدد سكانها حيث عثر على أكثر من **17300**مدفن مما دفع الباحثين للاعتقاد بأنها كانت مقابر للسومريين يدفنون فيها أمواتهم كونهم اعتبروها أرضاً مقدسة، على الرغم من عدم ذكر أي من النصوص القديمة لهذه الحالة صراحةً.

رابعاً: عناصر الجنة عند السومريين:

1-أنهار المياه العذبة:

لا بد وأن أهم مكونات الجنة السومرية على الإطلاق كانت أنهار المياه العذبة فبلاد سومر مثلا لم تكن نموذجاً للجنة الأرضية بدون مياه نهري دجلة والفرات العذبة التي تروي مدن الجنوب السومري كما أحدثت القنوات المائية انقلاباً اقتصادياً كبيراً وفر للمنطقة أكثر مما تتوقعه من الخيرات.

أما دلمون فلم تكن نموذجاً فريداً للجنة المقدسة بدون ينابيع المياه الجوفية العذبة والوفيرة جداً والتي ساهمت بأن تخصب أرضها حيث طلبت الآلهة ننسكيلا[28] من الإله انكي توفير هذه المياه لبلاد دلمون كمطلب أساسي لتكون دلمون هي الجنة[29]، وقد وردت هذه الأحداث في النص التالي المقتبس من أسطورة انكي وننخرساج ومنه:

دع أوتو القائم في السماء

يحضر لنا الماء العذب من الأرض

لتشرب مدينتك من المياه الوافرة

لتشرب دلمون من المياه الوافرة[30]

فيستجيب لها الإله انكي بمساعدة الإله أوتو ويخرج لدلمون ماءً عذباً عبر تفجيره للينابيع والآبار العذبة لتنعم دلمون الجنة بالحياة والرخاء ولتحل عليها صفة القداسة، حيث ورد في النصوص:

من مقره السماوي

أخرج أوتو المياه الحلوة من الأرض

من فوهات تنبعث منها

جعلها تصل إلى صهاريج.... متسعة

فاستهلكت المدينة منها كميات وافرة

بلد دلمون استهلكتها بكميات وافرة

....

نعم هذا ما حدث آنذاك بفضل أوتو[31]

وبالفعل فقد تحولت دلمون إلى جنة طبيعية تحتوي على المياه العذبة والمحاصيل الزراعية والبساتين الغناء، وفي النص:

فتحولت آبار مياهها المالحة إلى آبار مياه حلوة

وجلبت حقول حصادها كميات كبيرة من الحبوب[32]

انظر كيف أصبحت مدينتها موضعا ذو شطآن وموانئ

انظر دلمون أصبحت ذات شطآن وموانئ[33]

واستمرت فكرة غنى الجنة بالأنهار والعيون والمياه العذبة لتؤكد الكتب السماوية أن أنهار المياه العذبة هي اول وأهم عناصر الجنة السماوية كما ورد في قوله تعالى في القرآن الكريم "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير"[34]

2-عشبة الخلود:

المكون الثاني الذي لا يخلو ذكر للجنة دون أن يكون محورها وأهم ما فيها هو عشبة الخلود أو نبتة الحياة التي سافر جلجامش باحثاً عنها[35]، وفي النص:

يقول أوتا-نبشتم لجلجامش

يا جلجامش إنك قد جئت إلى هنا شقيت وأجهدت نفسك

فماذا أعطيك وأنت تعود إلى بلادك............

هناك نبات جذره مثل العنكبوت

وشوكه مثل الوردة .....

إذا وصلت يداك لهذا النبات

ستكون ثانية كما كنت في صباك

....

إن هذا النبات هو نبات دقة القلب

به يعود الإنسان لطاقته السابقة

لأحمله إلى قلب أوروك ذات الأسوار[36]

ولا تتوقف قوائم الملوك السومريين عن ذكر الملوك الذين سافروا بحثا عن نبتة الحياة والخلود فالملك ايتانا والذي كانت صفته الملك الراعي الذي صعد الى السماء كان عقيما فسافر من أجل نبتة الولادة.

ذهب إيتانا وساعد النسر على الخروج

وراح النسر يجوب باحثاً في الجبال

لكن نبتة الولادة لم تكن موجودة هناك

"تعال ياصديقي دعني أصعد بك الى السماء"

فلنلتقي عشتار سيدة الولادة

وقرب عشتار سيدة الولادة دعنا"[37]

لملك إيتانا كان يسعى ليرزق بابنٍ يرثه [38] ويحمل اسمه بعد نصيحة إله العدالة شاماش له بأن يحصل على النبات الذي سيحصل عليه بعد تحريره لنسر تحبسه حية في حفرة ثم يقوم النسر المحرر بحمل ايتانا على ظهره والانطلاق به باتجاه السماء ليحصل على النبات المنشود[39]



إيتانا على ظهر النسر صاعداً إلى السماء للبحث عن نبات الولادة[40]

إلا أن القصة تقف في النص الأصلي بين السماء والأرض بسبب انكسار اللوح المكتوبة عليه وتهشم ما تبقى من النص ومما يشير إلى هذا النبات في الأسطورة:

يا صديقي أعطني النبات المساعد على الحمل

واجعل أن يكون لي اسم

هكذا أجاب النسر إيتانا

أريد أن أحملك إلى علو أكبر في السماء

....

تعال يا صديقي لأحملك إلى سماء عشتار

مع عشتار ذات السناء

يوجد النبات المساعد على الحمل[41].

يبدو أن فكرة وجود نبات الخلود في الجنة هي فكرة تمثل استمرارية حضارية بين جميع الأساطير القديمة والكتب السماوية فقد ذكر هذا النبات أيضاً في القرآن الكريم في معرض الحديث عن قصة آدم وزوجته في الجنة السماوية، حيث ورد في الآية القرآنية: "فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى"[42].

3-الأفعى عنصر أساسي من عناصر الجنة: ارتبطت الأفاعي بكونها رمزاً للخصوبة والخلود في الميثولوجيا الرافدية حيث ذكرت ملحمة جلجامش أن جلجامش عندما حصل على نبتة الخلود من أوتونابشتيم وجد بركة ماء بارد فنزل ليغتسل بمائها، فتسللت الأفعى إلى النبتة وحصلت على النبتة فأكلتها[43]، ومن هنا جاءت فكرة الخلود التي ألصقت بالأفاعي ذاك أن الأفعى تنزع جلدها وتغيره لتعاود حياتها من جديد في كل مرة.



الأفعى تسرق نبات الحياة من جلجامش[44]

رأى جلجامش بركة ماؤها بارد

نزل إلى وسطها ليستحم

شم ثعبان رائحة النبات

تسلق بصمت وحمل النبات

في عودته نزع جلده[45]

وتبدو الأفعى كإحدى مكونات الجنة في ختم سومري يظهر فيه رجل وامرأة يجلسان على مقاعد متقابلة وبينهما شجرة تتدلى منها ثمارها وهما يمدان أيديهما نحو الثمار المتدلية وخلف المرأة أفعى منتصبة تبدو وكأنها تغريها بالأكل من الثمر، إن نقش الختم يوحي بقصة آدم وحواء وفكرة أكل الإنسان في الجنة من الشجرة المحرمة بإغراء من الأفعى.



عناصر الجنة السومرية[46]

وأخيرا: فإن محاولاتٍ واضحة لتقليد فكرة الجنة بمنظور سكان بلاد الرافدين لا يمكن أن تغيب عن أذهاننا مطلقاً فليس من المعقول أن كل الاهتمام الآشوري الذي صرف على إنشاء الحدائق النباتية والحيوانية الملكية التي احتوت على الكثير جداً من النباتات و الأشجار المثمرة وغير المثمرة بأنواعها وأصنافها والحيوانات المحلي منها والمستقدم من البلاد المجاورة هي مجرد أعمال لإيجاد مكان ترتاح فيه العائلة الملكية فحسب بل إن حدائق الملك آشور ناصر بال والملك شلمانصر الثالث والملك سنحاريب وجنائن بابل المعلقة التي بناها الملك نبوخذ نصر الثاني لزوجته الميدية كانت فيما يبدو إشارات واضحة لتقليد بشري لفكرة الفردوس المنشود التي سلبت عقول وأفئدة الملوك العظماء ملوك آشور وبابل منذ تلك العصور الغابرة.

الهوامش

(1) - Gleb and others: The Assyrian Dictionary, The Oriental institute of the university of Chicago, Vol 12, p, forth, printing, 2004, p.182.

(2) الجبوري، علي: قاموس اللغة الأكادية-العربية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كامبردج، 2008، ص 441.

(3) مرعي، عيد: اللسان الأكادي (موجز في تاريخ اللغة الأكادية وقواعدها)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق،2012، ص229.

(4) الجوراني، وداد: الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1998، 65.

(5) CAD: ibid, G, P.42.

(6) مرعي: المرجع السابق، ص157-158.

(7) دوركتليمو: تقع على بعد 70كم تقريباً شمال شرقي دير الزور، على الضفة الشرقية لنهر الخابور، كانت مستوطنة صغيرة منذ أواخر الالف الرابع ق.م، ووصلت ذروة ازدهارها ما بين 800-550ق.م، عرفت دور كتليمو للمرة الأولى من خلال حوليات الملك الآشوري آشور بل كالا(1073-1056ق.م)، كشف عن أطلالها في عام 1977م.

إسماعيل، فاروق: نقوش آرامية من دور كتليمو في سورية، منشورات الجمعية التاريخية السعودية، الرياض،2015، ص43-44.

(8) ابن منظور: لسان العرب، مج1، باب الجيم، دار المعارف، القاهرة، د.ت ، ص507.

(9) العهد القديم" سفر التكوين، الاصحاح2، الاية من 8-14.

(10) مرعي، عيد: معجم الآلهة والأساطير والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2018، ص60

(11) القرآن الكريم: سورة النحل، الآية 31.

Gwendolyn: A Dictionary Of ،-Leick (12) ،Ancient Near Eastern Mythology published in the Taylor & Francis e-p.2، 2003، New York،Library

(13) هوك: صموئيل هنري: الأساطير في بلاد ما بين النهرين، تر: يوسف عبد القادر، مديرية الثقافة العامة، بغداد، 1968، ص51.

R.W: Adapa And The Food ،(14)-Rogers Of Life [from "Cuneiform Parallels to p.1-2.، 1912،the Old Testament

(15) -الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور- الآلهة والبشر-،دار الساقي، بيروت، ط1 ،1997، ص484

p.2-3.،(16)- Rogers: ibid

(17) الجوراني: المرجع السابق، ص68.

(18) -القرآن الكريم: سورة الأعراف، الآية 20.

(19) انكي: اله الارض والمياه العميقة يعني اسمه في السومرية سيد الارض ويقابله في الاكادية الاله ايا ومركز عبادته مدينة اريدو

علي، ختام عدنان: آلهة بابل العظيمة: آشور بانيبال للثقافة، بغداد، الطبعة الاولى،2018، ص57.

(20) الماجدي: المرجع السابق، ص182.

(21) - الربة ننخورساج وهي بالسومرية-d nin-ḫur-sag وتعرف بالإلهة الأم ، ذكرتها النصوص السومرية بأنها أم كل الأطفال -d nin-ḫur-sag ama- و أم كل المعبودات -d nin- dummu-dummu-ne ḫur-sag ama-d ingir-re-ne-ra واسمها يعني سيدة الجبل، وورد اسمها في نصوص شوروباك (فارة)، كانت الزوجة الرئيسية للمعبود انليل وأم المعبود ننجرسو الإله الرئيسي في مدينة لجش، وكان مركز عبادتها في مدينة كيش.

محمود، داليا حنفي: المعبودة ننخورساج، المؤتمر الخامس بعنوان الكلمة والصورة في الحضارات القديمة ، مركز الدراسات البردية والنقوش في جامعة عين شمس،ج2، الصفحات من133-146، القاهرة، 2014.

(22) - الماجدي، خزعل: متون سومر التاريخ والمثيولوجيا ، دار الاهلية، الأردن، ط1، 1998، ص103

(23) السامرائي، عبد الجبار: دلمون فردوس السومريين، مجلة الوثيقة، مج28، العدد56، البحرين، 2009، من ص170-185، ص174.

(24) الناشف، خالد: آلهة دلمون، مجلة الوثيقة، مج2، العدد4، البحرين،1984، من ص170-199، ص186.

Elisabeth C. L. During Caspers: (25)- ،Dilmun: International Burial Ground and Social Economic of the Journal Leiden ، Vol 27،History of the Orient pp.1-32. P.2،1984،

عبد الواحد، فاضل: الطوفان في المراجع المسمارية، منشورات جامعة بغداد، ص122.(26)-

(27) السامرائي: المرجع السابق، ص176.

(28) -يبدو أن اسم الربة ننسكيلا قد جاء من الماء العذب المقدس الذي توفر لدلمون عن طريق طلبها من الآلهة توفيره حيث أن كلمة asikilla الأكادية تعني الماء المقدس.

p.331.، part 2 ، a،CAD: vol 1

p.42.،- Leick: ibid (29)

(30) النوري: المرجع السابق، ص9-10

(31) الشواف، قاسم: ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور، ج1، ص28.

(32) السامرائي: المرجع السابق، ص174.

(33) باقر، طه و فرنسيس، بشير: الخليقة وأصل الوجود، مجلة سومر، المديرية العامة للآثار في بغداد، مج5، ج2، العراق، 1949، من ص175-214، ص187.

(34) القرآن الكريم سورة البروج، الآية11

p.69.، Leick: ibid-(35)

[36] حنون، نائل: ملحمة جلجامش، ص232.

[37] دالي، ستيفاني: أساطير من بلاد مابين النهرين، ترجمة نجوى نصر، دار جامعة أكسفورد للنشر،أكسفورد،1991، ص241

Stephen Herbert: The ،[38]- Langdon Cooper Square ،Mythology Of All Races ، 1964، New York، Volume 5،Publishers . p.167-168 انظر أيضاً P.60-61.،Leick: ibid

[39] د. ادزارد و آخرون: قاموس الالهة والاساطير في بلاد الرافدين والحضارة السورية ، تعريب محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي ، لبنان، 1960، ص60-61.

p.172.،[40] -Langdon: ibid

[41] الشواف: المرجع السابق، 503-504.

[42] القرآن الكريم: سورة طه، الآية120.

[43] هوك: المرجع السابق، ص47.

p.177.،- Langdon: ibid [44]

[45] حنـــون، نائـــل: ملحمـــة جلجامش(ترجمـــة الـــنص المسماري)،دار الخريف، دمشق، 2006. ص233.

p.179،Langdon: ibid [46]

وانظر أيضاً: الماجدي، خزعل: متون سومر، دار الاهلية للنشر، الأردن، الطبعة الأولى، 1998. ص151.

<u>المراجع والمصادر المعتمدة:</u>

1-القرآن الكريم.

2- العهد القديم.

3-ابن منظور: لسان العرب، مج1، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

3- ادزارد و آخرون: قاموس الالهة والاساطير في بلاد الرافدين والحضارة السورية ، تعريب محمد وحيد خياطة، دار الشرق العربي ، لبنان، 1960

4-إسماعيل، فاروق: نقوش آرامية من دور كتليمو في سورية، منشورات الجمعية التاريخية السعودية، الرياض،2015، ص43-.44

5-باقر، طه وفرنسيس، بشير: الخليقة وأصل الوجود، مجلة سومر، المديرية العامة للآثار في بغداد، مج5، ج2، العراق، 1949، من ص175-.214

6-الجبوري، علي: قاموس اللغة الأكادية-العربية، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كامبردج، 2008.

7-الجوراني، وداد: الرحلة إلى الفردوس والجحيم في أساطير العراق القديم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1998.

8-حنـــون، نائـــل: ملحمـــة جلجامش(ترجمـــة الـــنص المسماري)،دار الخريف، دمشق، .2006

9- دالي، ستيفاني: أساطير من بلاد مابين النهرين، ترجمة نجوى نصر، دار جامعة أكسفورد للنشر، أكسفورد،1991

10-السامرائي، عبد الجبار: دلمون فردوس السومريين، مجلة الوثيقة، مج28، العدد56، البحرين، 2009، من ص170-.185

11-الشواف، ديوان الأساطير سومر وأكاد وآشور- الآلهة والبشر-،دار الساقي، بيروت، ط1 ،.1997

12-عبد الواحد، فاضل: الطوفان في المراجع المسمارية، منشورات جامعة بغداد، ص.122

13- علي، ختام عدنان: آلهة بابل العظيمة: آشور بانيبال للثقافة، بغداد، الطبعة الاولى،2018

14-الماجدي، خزعل: متون سومر التاريخ و المثيولوجيا ، دار الاهلية، الأردن، ط1، 1998

15-محمود، داليا حنفي: المعبودة ننخورساج، المؤتمر الدولي الخامس بعنوان الكلمة والصورة في الحضارات القديمة، مركز الدراسات البردية والنقوش في جامعة عين شمس ،ج2، الصفحات من133-146، القاهرة، .2014

16- مرعي، عيد: اللسان الأكادي (موجز في تاريخ اللغة الأكادية وقواعدها)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق،.2012

17- مرعي، عيد: معجم الآلهة والأساطير والكائنات الأسطورية في الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2018

18-الناشف، خالد: آلهة دلمون، مجلة الوثيقة، مج2، العدد4، البحرين،1984، من ص170-199.

19-هوك: صموئيل هنري: الأساطير في بلاد ما بين النهرين، تر: يوسف عبد القادر، مديرية الثقافة العامة، بغداد، 1968.

المراجع الأجنبية:

- Elisabeth C. L. During Caspers: Dilmun: 1 of the Journal‹International Burial Ground ‹and Social History of the Orient Economic pp.1-32.‹1984‹ Leiden ‹Vol 27

2-Gleb and others: The Assyrian The Oriental institute of the ‹Dictionary forth ‹ p‹ Vol 12‹university of Chicago . 2004‹printing

Stephen Herbert: The ‹3- Langdon Cooper Square ‹Mythology Of All Races . 1964‹ New York‹ Volume 5‹Publishers

Gwendolyn: A Dictionary Of ‹4-Leick published‹Ancient Near Eastern Mythology New ‹in the Taylor & Francis e-Library 2003‹York

R.W: Adapa And The Food Of ‹ Rogers-5 Life [from "Cuneiform Parallels to the Old 1912‹Testament

بحوث التاريخ العربي الإسلامي

حركة عبد الله بن علي العباسي سنة 137 هـ / 754 م

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

ينتسب عبد الله بن علي إلى البيت العباسي[1]، وهو عم الخليفة العباسي الأول "أبو العباس" وكذلك الخليفة "المنصور".

والغريب في حركة عبد الله بن علي العباسي – وهو قائد الجيوش العباسية التي قضت على الحكم الأموي وأسقطته - إن الحركة قامت والدولة العباسية لا زالت في دور النشوء والتكوين والأوضاع غير مستقرة بعد، والأخطار محيطة بها من كل جانب، سواء في العراق، والشام ومصر وحتى خراسان قاعدة الحركة العباسية ومنطلقها، ولعل أبرز أسبابها، هو مطالبته بالخلافة حينما استند إلى عهد سابق كان قد منح له، وروى المقدسي أن أبا العباس لما ظهر أمره وضع سيفاً، وقال: ((من تقلد هذا السيف وسار إلى مروان فقاتله فله الخلافة من بعدي فتحاماه الناس، وقام عبد الله بن علي العباسي فتقلده، وسار فقاتل مروان فقتله، فلما مات أبو العباس قام بالخلافة)) [2]، ويؤكد شلبي صحة الرواية غير أنه يقول: ((هذا العهد لم يدعم بسجل كتابي[3]))، في حين يرى د.فاروق أنه من الصعب أن يتيقّن الباحث في صحة ادعاء عبد الله العباسي[4]، وأننا لا نستطيع أن ننص صراحة على صحة ادعاء عبد الله هذا، ولكننا حينما نناقش الرواية من ناحية النقد الخارجي نجد أنها موجودة في مصادر قديمة موثقة كالطبري، واليعقوبي، والمقدسي (المطهر بن طاهر) والمسعودي ... الخ، أما من ناحية النقد الداخلي فنجد أن الرواية لا يستبعد صحتها إذا ما علمنا مقدار حاجة الخلافة في فترة حرجة من عمرها إلى شخصية كفوءة كعبد الله، فليس من المستبعد في أن يستدعي أبو العباس عبد الله، ويعقد له ولاية العهد إذا ما قاتل مروان بالزاب، خاصة وانها المعركة التي ستقرر مصيرهم، ولذا فإن هذه الظروف تدلل لنا نوعَما صحة الرواية السابقة، ومما يزيد احتمال صحتها ما رواه البلاذري[5]، وغيره من المؤرخين من أن عبد الله العباسي زار الخليفة أبا العباس قبل وفاته بالأنبار سنة 135هـ / 753م، إذ أمره الخليفة بقيادة الحملة ضد البيزنطيين في تلك السنة، خاصة وأن البيزنطيين إلى الآن لم توجه لهم ضربة مخيفة من النظام الجديد حينما أخذوا يهاجمون المناطق الثغرية في فترة انشغال العباسيين بأحداث الصراع، فاختيار الخليفة له يبين مدى اعتماده واعترافه بقوة شخصية عبد الله بن علي العباسي، ويعلق د.فاروق على رواية البلاذري بقوله: ((والمهم أن نشير هنا إلى أن رواية البلاذري تظهر أن أبو العباس وكأنه قد وعد عبد الله بن علي العباسي أو لمح له بأن الخلافة صائرة له))[6]، كما يمكن أن يفسر عمل أبي العباس هذا بأنه كان يشعر بطموح عبد الله بن علي العباسي بالخلافة ولذلك أراد أن يبعده عن العاصمة تمهيداً لتدابير أخرى ينوي القيام بها، والتي اتضحت قبيل وفاته متمثلة بتعيين المنصور للخلافة ولعيسى بن موسى من بعده، وفي طريقه إلى الروم، وفي (دلوك) بلغه نبأ وفاة الخليفة أبي العباس، والتي تكشف لنا حقيقتين مهمتين هما أن المنصور الخليفة المرشح أبدى مخاوفه من موقف عبد الله بن علي العباسي، فقد قال المنصور لأبي مسلم الخراساني لما علم نبأ وفاة أبي العباس وهو في طريقه من الحج ((...أخاف شر عبد الله بن علي، فقال أنا أكفيكه وعامة جند أهل خراسان وهم أطوع لي منه...))[7]، ومما يؤكد

صحة الرواية أن عيسى بن موسى أرسل إليه وفداً مهماً بزعامة أبي غسان (يزيد بن زياد) وهو حاجب أبي العباس لأخذ البيعة لأبي جعفر[8]، ومما يعزز شكوى العباسيين بتوقعهم حركة عبد الله أن عيسى بن موسى كتب إلى صالح بن علي وهو على مصر وأخبره الخبر طالباً إليه التوجه إلى الشام فوراً لأخذ البيعة على عبد الله بن علي العباسي[9] بالقوة إذا استدعى الأمر ذلك قبل أن يعلن عبد الله ثورته[10].

ومن كل ما تقدم يتبين لنا أن أبا العباس في أثناء الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الدولة العباسية، قد وعد عبد الله بالخلافة استدلالاً بحراجة الظروف التي كانت تمر بها الخلافة، غير أن تلك الظروف التي أملت على السياسة العباسية ان تسلك ذلك السبيل، عادت فغيرت سياستهم بعد تغييرها وسيرها بصالح العباسيين بعد أن استقر أمرهم ومسكوا بزمام الحكم، ولذلك فلا غرابة في أن يغير الخليفة أبو العباس رأيه في مسألة البيعة لعبد الله بن علي، فروي أن أحد صحابته سعيد بن عمر المخزومي نصحه بألا يحول الخلافة من أبناء محمد بن علي العباسي إلى أعمامهم ولذلك غير الخليفة رأيه وعهد لأخيه أبي جعفر ولابن أخيه عيسى بن موسى من بعده[11]، ويعلق محمد حلمي على ذلك بقوله: ((إن أقطاب العباسيين الذين حاربوا وجاهدوا لإعلان الخلافة العباسية، ثم لتثبيت سلطانها دركوا بعد فترة أنها ستنحصر في فرع معين في البيت العباسي، وأن جهودهم التي بذلوها ستضيع عليهم وسيجني غيرهم في نفس البيت العباسي ثمارها وينعم بخيراتها، وذلك أن أبا العباس ولى أخاه أبا جعفر المنصور عهده من بعده وأعرض عن توليه عميه عبد الله وسليمان ابني علي، ولم يظهر سخطه في هذا إلا عبد الله بن علي))[12]، ولهذا نجد أن أبا العباس غير رأيه بعد سيطرته بشكل تام على الأوضاع إضافة إلى نصيحة سعيد المخزومي بالمبايعة لأخيه، كما أن العهد كان خاصاً لا يعرف به إلا عدد قليل من العباسيين وهو الذي يوضح مخاوفهم من عبد الله بن علي العباسي[13]، كما أنه لم ((يدعم بسجل كتابي))[14]، وأن مخاوف العباسيين اتضحت بعد وفاة أبي العباس مباشرة والمبايعة للمنصور قال اليعقوبي: ((وكره عيسى بن موسى ومن حضر من الأبناء أن يكتبوا لى عبد الله بن علي فكتبوا إلى صالح بن علي وهو بمصر يعرفونه الحادثة في أبي العباس، وما كان عهد به أبو العباس لأبي جعفر ومبايعتهم له واجتماعهم عليه وأمره أن يبايع ويصير إلى الشام فيأخذ البيعة على عبد الله بن علي))[15]، أضف إلى ذلك أن المصادر تنص بصراحة إلى مسألة نقض ابي العباس للعهد: ((وذلك حينما أمر قبل وفاته عيسى بن موسى ولي العهد أن يكتب إلى عبد الله ببيعة أبي جعفر، وذلك بأمر أبي العباس قبل أن يموت حين أمر الناس بالبيعة لأبي جعفر من بعده))[16].

وبعد أن اصبح عبد الله أمام الأمر الواقع استشار يزيد بن زياد الذي أشار إليه قائلاً: ((إنك أولى بالخلافة لأنك عم الخليفة أبي العباس والعم بمنزلة الأب))[17]، ويعلق د.فاروق على هذا الرأي بقوله: ((وهكذا فقد استعمل عبد الله العباسي نفس الحجة التي ادعاها العباسيون في نزاعهم حول الخلافة مع العلويين وغيرهم من أحزاب المعارضة على أن عبد الله العباسي لم يحتج بهذه الحجة علناً وأمام الناس))[18]، فقد ناشد جنده بقوله: ((إن أبا العباس حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان بن محمد دعا بني أبيه، فأرادهم على المسير إلى مروان بن محمد وقال: من انتدب منكم فسار إليه فهو ولي عهدي فلم ينتدب له غيري، فعلى هذه خرجت من عنده وقتلت من قتلت))[19].

أما العامل الآخر الذي شجع عبد الله بن علي العباسي على الحركة، فهو تمكنه من التعرف بشكل جيد على ميول وأهواء سكان الشام والجزيرة وحقيقة عواطفهم وأهدافهم خاصة وأن عناصر المعارضة الأموية العربية ناقمه على الفرس والعباسيين كانت على استعداد تام لتأييد عبد الله، وكان مدركاً لذلك،

فغذت طموحه وشجعته على القيام بالحركة، ونحن نعرف أن بلاد الشام والجزيرة كانت قد أعلنت التمرد والعصيان ضد العباسيين في حركات 132 – 133هـ، وتعتبر حركة عبد الله بن علي العباسي من أعنف حركات المعارضة الأموية بقيادة عباسية ضد المنصور ويصفها د.فاروق بأنها حركة الشام على العباسيين، وأنها حركة سورية ليس في موقعها الجغرافي وولائها فحسب بل كذلك في العناصر التي كونتها، ويظهر أن هناك مصلحة مشتركة بين عبد الله العباسي والسوريين فقد حاول كل منهما ان يستغل الآخر لانجاز اهدافه المباشرة، فبالنسبة لعبد الله كان هدفه الخلافة وبالنسبة للسوريين فقد كان هدفهم الثأر من الخراسانية واستعادة امتيازاتهم المفقودة واسترجاع مكانة سوريا التي فقدتها، ولكن كان عبد الله يدرك بأنه من الخطأ الاعتماد على عناصر ذات ميول أموية مثل أهل الشام لتحقيق مطامع سياسية عباسية[20]، وفي الحقيقة من الصعب الاعتماد على الأمويين لأنهم كانوا قد أذاقهم العباسيون الويلات والدمار، فبالرغم من انضمامهم إلى عبد الله بن علي العباسي إغرائه بهم إلا أنهم لم يكن دخولهم إلى جانبه حباً به ووفاءً له بقدر ما هو البحث عن فرصة للانتقام لما أصابهم على أيدي العباسيين، ولكن لموقفهم هذا أثرٌ بارزٌ في تشجيع عبد الله، إذ أن العضد والحماس له جاء من شيوخ القبائل السورية المعروفين بولائهم لبني أمية [21]، وكان تأييد أهل الشام له تأييداً مطلقاً فقال بكار(*)، أنا سهمك[22].

وفي رواية المدائني أنه دعا شيوخ القبائل الشامية والجزرية فأيدوه في غالبيتهم وكان بعضهم حذراً، فأشار الحكم بن ضبعان قائلاً ((إن كان عهد إليك وعقد لك عند وفاته فقد كفيت وإلا فلست من الأمر على ثقة))[23]، كما أن أبا غسان صدقه وسلم عليه بالخلافة[24].

وقال عثمان بن سراقة الأزدي: ((إن بلاك عند أهل الشام غير جميل فلن ينفعك إلا مثلي ممن لك عنده بلاء حسن وأيادٍ ظاهرة، أو رجل صاحب فطنة يلتمس أن يدرك فيها شرف))[25]، وبذلك فإن التأييد قدم له فرصة سانحة لتحقيق أهدافه ولذلك فإنه (قرب موالي بني أمية وأطعمهم وسد ثغورهم)[26]، كما أنه عين ولاة وقواداً جدداً أغليهم من أهل الشام فعلى دمشق عين والياً هو عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الأزدي وزفر بن عاصم المهلبي على قنسرين، والحكم بن ضبعان على فلسطين وكان منصور الكلبي صاحب الشرطة[27]، ولهذا فإنه جعل عماده الأساسي في حركته أهل الشام من الفرسان والجند الذين عضدوه وبايعه من أهل الشام خلق كثير ودعي له علي منابرها بالخلافة[28]، ولم يكن تأييده مقتصراً على أهل الشام فحسب بل إنه اعتمد على أهل الجزيرة أيضاً قال المقدسي: ((ادعى الخلافة عبد الله بن علي، وبايعه أهل الشام والجزيرة))[29].

أما بالنسبة لموقف أهل خراسان فنجد أنه اعتمد على جزء منهم من الذين كانوا معه أمثال: أبو غانم الطائي (الكندي) وخفاف المروروذي، وكان هؤلاء قد شهدوا له بصحة ما عهده إليه أبو العباس لما خرج لمروان، وكذلك أبو الأصبع وجميع من كان معه من أولئك القواد فيهم حميد بن قحطبة وجياش بن حبيب ومخارق بن غفار وترار خداه وغيرهم[30]، وعارضه بعضهم من الذين ((حذروه من الاختلاف والفتنة))، ويروي المدائني أن عبد الله بن علي العباسي دعا أول الأمر قواد أهل خراسان فبايعوه دون حماس، وحين عارضه الهيثم بن زياد الخزاعي ضرب عنقه قال البلاذري: ((ووعظه الهيثم فقال له ننشدك الله ألاّ تهيج الفتنة وتعرض نفسك وأهل بيتك للمهلكة وزوال النعمة))، وفي رواية أنه ((كذبه الهيثم))، وقال له: ((أشهد أن أبا العباس ولىَّ الخلافة أبا جعفر))[31]، وقال له زفر ((إنكم أهل البيت لم تطعوا في بني أمية حتى اختلفوا فأنا حذرك الاختلاف فإن اجتمع أمرك وأمر من بالأنبار عززتم وإن اختلفتم فهي الفتنة))[32]، ونستطيع أن نضيف سبباً آخر للحركة ألا وهو رغبة عبد الله بن

علي العباسي في السلطان ومحاولته الوصول إليه خاصة وأنه كان رجلاً امتاز بالأعمال العظيمة لخدمة الدعوة والحركة العباسية، إذ كان رجلاً بارزاً من بين الرجال الذين عملوا على تثبيت كيان الدولة العباسية، وذلك حينما تزعم الجيش العباسي في معركة الزاب، ومن ثم احتلاله الجزيرة والشام وتسلمه ولاية الشام في أعقاب قيام الدولة العباسية ((وقد امتاز بطموحه وشجاعته))[33]، ويرى د.فاروق أنه من الطبيعي أن يكون عبد الله طموحاً فهو من أقدر شخصيات البيت العباسي[34].

يمكن أن نختم حديثنا عن أسباب الحركة بقول د. فاروق ((بأن النزاع كان بين سورية والجزيرة من جهة والعراق وخراسان من جهة أخرى))[35].

وعلى هذا فقد اتضحت لنا اسباب قيام عبد الله بثورته اذا ما علمنا انه لم يكن هناك خلاف بين أهل البيت العباسي أثناء الدعوة العباسية وقبيل إعلان الحركة، إذ لم يجد هناك نص تاريخي ما يشير إلى ذلك، وأن هذا يقودنا إلى التساؤل، فيما إذا كان هناك خلاف بين أهل البيت العباسي وخاصة عبد الله بن علي العباسي في خلافة الخليفة الأول أبي العباس، كذلك لا يوجد من النصوص التاريخية ما يشير إلى ذلك، وعلى هذا فإن الدافع الأساسي للحركةهو مطالبته بالخلافة والتي استند فيها على عهد سابق في تأييده لموقفه، أما بالنسبة لأحداث الحركة والتطورات التي مرت بها فيمكن أن نناقشها بالشكل التالي.

فبعد وفاة الخليفة أبي العباس كان المنصور وأبو مسلم في طريق عودته من الحج، وقد لعب عيسى بن موسى دوراً مهماً في أخذ البيعة لأبي جعفر من الهاشميين والقواد في العاصمة وأصبح هو ولي العهد[36]، وكان الذي وافى أبا جعفر بخبر وفاة أخيه محمد بن الحصين العبيدي، إذ بايعه أبو مسلم ومن كان معه [37]، وكان عبد الله بن علي العباسي كما مر بنا في طريقه لمحاربة الروم في أهل الشام والجزيرة والموصل حتى أتى دلوك، ولم يشعر حتى أتاه نبأ وفاة أبي العباس، وكان عيسى بن موسى قد بعث له أبو غسان زياد بن عبد الله، ليعلمه بنبأ مبايعة أبي جعفر[38]، وعلى إثر ذلك أمر عبد الله منادياً فنادى الصلاة جامعة فاجتمع إليه القادة والجند فقرأ عليهم الكتاب بوفاة أبي العباس ودعا الناس إلى نفسه وأخبرهم أن أبا العباس قد عهد إليه من بعده حينما خرج لقتال مروان[39]، فقام أبو غانم الطائي – الكندي – وخفاف المروزي في عدة من قواد أهل خراسان وشهدوا بذلك وبايعوه[40]، فضلاً عن أبي الإصبع وجميع من كان معه من أولئك القادة بما فيهم حميد بن قحطبة، وخفاف الجرجاني، وجياش بن حبيب الطائي، وقصير بن المختصر المزني، ومخارق بن غفار وترار خدا، وغيرهم من أهل خراسان والشام والجزيرة وقد نزل تل محمد[41]، وبعد أن بايعه القادة وشهدوا له، بايعه أكثر أهل الشام وكتب إلى عيسى بن موسى وغيرهم مبايعة من قبله من القادة وأهل الشام له بصحة عهد أبي العباس إليه[42]، وبعد أن فرغ من البيعة أعطاهم الأرزاق[43]، فكان هذا أول إجراء يتخذه عبد الله لتحقيق أهدافه وكان لانسحاب هذا أثره على مجريات الجهاد الإسلامي ضد الروم حينما ترك الجيش الإسلامي الجهاد وتوجه صوب العراق إذا ما علمنا أن عبد الله بن علي العباسي كان ((من أجلد بني العباس وأشجعهم))[44].

اتجه عبد الله من الشام إلى الجزيرة، وكان فيها مقاتل بن حكيم العتكي، إذ استخلفه عليها أبو جعفر الذي كان والياً لأبي العباس[45]، حيث كان يقيم بحران[46]، والتي أصبحت هدفاً لعبد الله بن علي العباسي الذي حاصر موسى بن كعب فيها فعرفه شهادة من أشهد الله أن أبا العباس جعله ولي عهده[47]، فلم يجبه وتحصن منه، وحوصر بها أربعين يوماً حتى استنزله من حصنه واحتل حران سنة 137هـ[48].

ولما وصلت أنباء التحركات العسكرية هذه إلى المنصور أقلقته إذ روي أن الخبر ((قد أهاله))[49] و((أقامه وأقعده))[50]، ويعلل الخضري تخوف المنصور بأنه لما كان لعبد الله بن علي العباسي من نباهة الذكر في بني العباس، وبسبب سعة الجيوش التي تحته[51]، غير أنه تصرف بحكمة ودراية، إذ بعث كتاباً يهدد فيه عبد الله بن علي العباسي كان فيه[52]:

سأجعل نفسي منك حيث جعلتها

وللدهر أيام لهن عواقب

وفكر المنصور في كيفية مجابهة الثور خاصة وأنه كان غير مطمئن لمواقف أبي مسلم الخراساني، ويبدو أنه أصر على إرسال أبي مسلم لمجابهة الحركة لعدم ارتياحه إليه واطمئنانه منه كما أن مقتل أي منهما هو في مصلحته، ثم إنه أراد أن يضرب ((عصفورين بحجر واحد)) فأيهما قتل أبو مسلم أو عبد الله فهو كسب للمنصور[53]، وذلك لأن أبا مسلم كان ينوي عازماً التوجه إلى خراسان ولهذا فإنه امتعض حينما أمره المنصور قائلاً: ((ليس لعبد الله بن علي غيري، وغيرك، فكره أبو مسلم ذلك وقال: يا أمير المؤمنين إن امر عبد الله بن علي بالشام أقل وأذل وأمر خراسان أمر يجل خطبه ((وكان أبو مسلم يبدو غير مقتنع بذهابه إلى الجزيرة وإذا أمعنا النظر في هذه الرواية نجد أنها من ناحية النقد الخارجي لا تثير شكوكاً في صحتها لورودها في مصدر قديم وموثوق كاليعقوبي، أما النقد الداخلي لها فإنها تنسجم مع واقع التاريخ في هذه الأثناء، إذ كان أبو مسلم والمنصور على طرفي نقيض وكان كل منهما يضمر في نفسه عداءً للآخر، كما أن أبا مسلم كان يرى أن قتل المنصور أو عبد الله بن علي العباسي هو انتصار له حينما قال لكاتبه: ((ما أنا وهذان الرجلان)) ثم قال: ((ما الرأي إلا أن نمضي إلى خراسان وأخلي بين هذين الكبشين، فأيهما غلب وإن كتب لنا كتبنا إليه: سمعنا وأطعنا، فرأى أنا قد أنعمنا وعملنا له عملاً..))[54]، غير أن كاتبه نهاه عن ذلك[*].

ولم يكن في نية أبي مسلم أن يزج بنفسه في الخصام بين الخليفة وعمه وكان يعتزم السفر إلى خراسان[55].

ولذلك أخذ أبو مسلم يتحجج على المنصور طالباً إليه سجن عبد الجبار بن عبد الرحمن، وصالح بن الهيثم، وخالد بن برمك بحجة أنهما يعبانه[56]، وأخيراً فاجأه المنصور بقوله: ((إما أن تذهب أنت وإما أنا فسار أبو مسلم))[57]، وأخيراً قرر أبو مسلم الذهاب بعد ذلك إلى مقاتلة عبد الله، إذ قال للخليفة: ((...إن شئت سرت إلى حرب عبد الله بن علي العباسي فأمر بالمسير لحرب عبد الله بن علي العباسي فسار ولم يتخلف عنه أحد))[58] ومهما يكن من أمر فقد رحب أبو مسلم بالسفر إلى الشام باعتباره الطريقة الوحيدة ليبتعد بها عن الخليفة ونفوذه[59]، وخرج معه جميع أهل الدعوة وكان جيشه يتألف من أربعة آلاف مقاتل[60]، وكان الخليفة قد صرف على تجهيز هذا الجيش ما بين 12 مليونا – 18 مليونا درهم، وقد زاد في أعطيات الجند من 60 درهماً إلى 80 درهماً شهرياً، وجعل أبو جعفر مقره في الجاثليق[61]، على دجلة، ويرى العبادي أن تصرف المنصور في معالجة هذا الخطر تصرف حكيم دل على أنه لا يحكم العواطف في المسائل السياسية فحقده على أبي مسلم لم يمنعه من الاستعانة به للقضاء على عمه الذي كان جيشه يضم الخراسانية التي كان المنصور يأمل في أن يستميلهم عن طريق أبي مسلم[62]، ويرى د.فاروق أن إرسال أبي مسلم إلى الشام كسباً للخليفة ذلك لأنه استطاع أن يثنيه عن السفر إلى خراسان مقر حكمه ومصدر قوته ولو لفترة من الزمن[63].

هذا بالنسبة لمواقف الخلافة، اما بالنسبة لموقف عبد الله بن علي العباسي، ونجد انه كان غير

مطمئن لمواقف عدد من القادة الخراسانيين، وكان يشك في حقيقة ولائهم واخلاصهم له، وكان ابرز هؤلاء القادة حميد ابن قحطبة إذ كان من خيرة القادة، والذي يصفه اليعقوبي بأنه ((الغالب على امره))[64]، أي امر عبد الله بن علي العباسي ثم كتب عبد الله لحميد كتاباً وجهه الى حلب وعليها زفر بن عاصم حيث عينه والياً عليها في الظاهر ولكنه امر في الرسالة سراً الى زفر أن يقتل حميداً الطائي الذي لم يكن مطمئناً لما في الكتاب إذ قال: ((ان ذهابي بكتاب ولا أعلم ما فيه لغرر، ففك الطومار فقرأه فلما رأى ما فيه دعا أناساً من خاصته فأخبرهم الخبر، وأفشى اليهم أمره وشاورهم)) ثم اخبرهم من يريد ان ينجوا بالهرب معه، متجهين الى العراق[65]، وتأهب للمسير مع اصحابه وسلك طريقاً على ناحية من الرصافة – رصافة هشام بالشام – وبها يومئذ مولى لعبد الله بن علي العباسي يقال له سعيد البربري فبلغه ان حميد بن قحطبة قد خالف عبد الله بن علي ، فسار في طلبه فيمن معه فلحقه ببعض الطريق محاولاً قتاله غير ان حميداً ناشده السلام وعدم سفك الدماء فتركهم في طريقهم الى العراق[66] .

كما ان عبد الله بن علي العباسي لما أعطى العكي الوالي العباسي اماناً وخرج اليه فيمن كان معه، اقامه معه أياماً يسيره ثم وجهه الى عثمان بن عبد الأعلى بن سراقة الازدي، الى الرقة ومعه إبناه وكتب اليه كتاباً ، فلما قدموا على عثمان قتل العكي وحبس ابنيه[67].

وكان سبب اتخاذ هذه الاجراءات من قبل عبد الله بن علي العباسي هو خشيته من عدم مناصحة أهل خراسان له ، اعتقاداً منه بأنهم يميلون الى أبي جعفر باعتباره خليفة شرعياً، والى ابي مسلم باعتباره شخصية خراسانية فذه، كما أنه كان في جيشه الكثير من موالي أهل خراسان، وقد قال عنهم أبو مسلم للخليفة ((انهم أطوع لي من عبد الله بن علي)) [68]، وان شكه هذا دفعه الى ان قتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً حينما امر صاحب شرطته(*)، فقتلهم خدعة[69]، ويرى شلبي[70]، أن هذا الرقم مبالغ به الى حد كبير ولكنا نرى أن عبد الله بن علي العباسي خشى ان يتركه أهل خراسان بعد ما يروا قدوم رفاقهم في جيش أبي مسلم الخراساني ، فيحتمل أنهم لن ينضموا اليهم تاركين عبد الله بن علي العباسي لذلك تخلص منهم ظناً منه بأن أهل الشام الدعامة الكافية والمخلصة له في مجابهته العسكرية مع الخلافة، وكان لتصرفه هذا اثر سلبي كبير في فقدانه جناح كبير من القوى العسكرية التي كانت تكون جزءاً من جيشه، وأصبح أمله الوحيد أهل الشام والجزيرة في حربه مع العباسيين وأدى عمله هذا من جانب اخر الى زيادة نقمة ابي مسلم وجنده للانتقام لقتلى اهل خراسان وقد قال أبو أيوب الموافي: ((نحن نعلم أن أهل خراسان لا يحبون عبد الله بن علي وقد قتل منهم من قتل))[71] وبعد هذه الاجراءات التي اتخذها عبد الله بن علي العباسي نجد انه اتجه الى مدينة نصيبين حيث اتخذها قاعدة عسكرية له ضد العباسيين .

هذا من جانب ومن جانب آخر نجد أن القوات العباسية بعد اختيار أبي مسلم لقيادتها اتجهت صوب الجزيرة أيضاً، وبعث أبو مسلم على مقدمته مالك بن الهيثم الخزاعي، وكان معه الحسن وحميد ابن قحطبة وكان مع حميد أبو اسحق وأخوه وأبو حميد وأخوه وجماعة من أهل خراسان، وقد استخلف أبو مسلم على خراسان حينما اتجه للجزيرة خالد بن ابراهيم ابا داود[72]، وكان الخليفة قد كتب الى الحسن ابن قحطبة وكان بأرمينية وذلك للانضمام الى أبي مسلم ويسير معه حيث قدم على أبي مسلم وهو بالموصل[73]، كما وزع الخليفة كذلك كتائب من الجند في المناطق الاستراتيجية حينما بعث عيسى بن عقيل الى هيت وعبد العزيز أخو عبد الجبار الى بلد وقال له: ((أن بلغك ان ابن علي انهزم فلا تبرح مكانك ولا تخل مركزك))

ووجه قائداً الى تكريت، وكتب الى موسى بن كعب: ((ان استخلف ابنك عيينه وأقدم وقد أمرت لك بخمس مائة ألف درهم فاقبضها)) [74] .

ويرى د . فاروق بأنه من الواضح أن المنصور كان حذراً من قيام عبد الله بن علي العباسي بحركة عسكرية سريعة يهاجم بها مقر الحكم في العراق بهجوم خاطف ويقضي عليه [75] بالموصل، استأذن مسلم بن المغيرة من الحسن بن قحطبة بالقدوم الى العراق وذلك لمقابلة الخليفة لاخباره بسلوك أبي مسلم بتكليف من الحسن بن قحطبة (*)، فحينما يأتيه كتاب الخليفة ((فيقرؤه، ثم يلوي شدقه، ويرمي بالكتاب الى أبي نصر فيقرؤه ويضحكان، استهزاءً، قلت: نعم قد فهمت، فلقيت أبا أيوب، وأنا أرى أن قد أتيته فضحك وقال ((نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد الله بن علي العباسي، الا إنا نرجو واحدة، نعلم ان اهل خراسان لا يحبون عبد الله بن علي العباسي وقد قتل منهم من قتل)) [76] ، ولو دققنا النظر في هذه الرواية تبين انها من ناحية النقد الخارجي مذكورة في مصدر موثوق وهو الطبري ، ومن ناحية النقد الداخلي فان هذه الرواية تنسجم مع واقع الظروف التاريخية وقتذاك نظراً لوجود الخلاف بين الخليفة وأبي مسلم فلا يستبعد أن يستهزيء أبو مسلم بكتب الخليفة ولا غرابة في قول أبي أيوب ((نحن لأبي مسلم أشد تهمة منا لعبد الله بن علي العباسي ...))، وفي رواية أن المنصور قال: ((انا لنخاف من أبي مسلم أكثر مما نخاف من أبي سلمة الخلال ..))[77]، وفي رواية أن المنصور قال: ((إنا لنخاف من أبي مسلم أكثر مما نخاف من حفص بن سليمان)) [78] .

ولذلك فقد اتخذت القوات العباسية مدينة الموصل [79] قاعدة عسكرية للتجمع العسكري استعداداً لمجابهة الحركة.

اما بالنسبة لعبد الله بن علي العباسي فانه وافى مدينة نصيبين في مائة ألف مقاتل، ومائة ألف من الصناع والفعلة، وحفر خندقاً من جبل نصيبين الى نهرها وجعل فيه ما يحتاج اليه من ((العدة والآلة ونصب المجانيق والعرادات ... وسد الطريق على من يقصده من العراق، وجعل الخصب والقرى وراءه))[80].

ولهذا فان استعداد عبد الله كان منسقاً وجيداً يعكس مدى التخطيط الذي وضعه عبد الله لمجابهة القوات العباسية خاصة في حفرة للخنادق في جبل نصيبين الى نهرها بحيث كان يقيم في قاعدة عسكرية حصينة جداً، كما أنه كان مجهزاً بمختلف الات الحرب والمؤونة الاقتصادية .

وينفرد البلاذري ويؤيده الجهشياري بالاشارة الى وقوع قتال بين عبد الصمد بن علي في بلد بالموصل وأبي مسلم، فكان هذا اول صراع بينهما وأول قتيل قتل بينهما أبو غالب كاتب عبد الله بن علي العباسي[81]، ويروي الازدي أن عبد الله ولي العهد من بعده أخاه عبد الصمد حيث قلده الجزيرة[82]، فمن المحتمل ان يكون هذا الصدام قد جرى فعلاً بين عبد الصمد وأبي مسلم رغم ان مصادرنا الاخرى تلتزم الصمت غير أن رواية الازدي تزيد احتمال قيام مثل هذا الصدام الاولي على اعتبار أن عبد الله عين عبد الصمد بالجزيرة حيث كان يتجول في قواته يهاجم أبا مسلم في أول قدومه الموصل .

وازاء هذه التحصينات المنيعة التي اتخذها عبد الله العباسي، فكرت السلطة العباسية في محاولة لمجابهة عبد الله بن علي العباسي، وذلك باللجوء الى الأساليب الدبلوماسية، كالحيلة والخداع، وما شاكل ذلك ، وحاول الخليفة المنصور الايقاع بعبد الله بن علي العباسي حينما أمر محمد بن صول بالتظاهر بالولاء لعبد الله واللحاق به ليفتك به، وكتب للخليفة بأخباره، فصار معه (*) فكتب ((بعض عيون عبد الله بن علي

العباسي في عسكر المنصور بأمر بن صول صل بابن صول قبل أن يصول بك فقتله بن علي وابنين له))[83].

ثم حاول أبو مسلم اللجوء الى المهادنة والحيلة، حينما رأى مناعة وحصانة عبد الله قال المقدسي: ((وأنه قد غلب الخصب والقرى والميرة والعلوقات، أن لا مقام للعسكر بازائه واحتال في اخراجه)) [84].

فبدأ أبو مسلم بتنفيذ خططه، حينما تظاهر بأنه لم يأت لمحاربة عبد الله بل لتوليه الشام حينما أمر له الخليفة بذلك وقد حمل رسول أبي مسلم رسالة الى عبد الله بن علي العباسي وقال فيها: ((ان الأمير أبا مسلم يقول: علام تقاتلني، وانت تعلم انه لا يقاتلك))[85]، وفي رواية أن أبا مسلم كتب لعبد الله بن علي العباسي: ((اني لم أومر بقتالك ولم أوجه لك، ولكن أمير المؤمنين ولاني الشام وأنا اريدها)) [86]، ولعل أبا مسلم كان ذكياً وحكيماً الى حد ما، إذ أنه هدف الى تحقيق هدفين الأول وهو مراوغة عبد الله بن علي العباسي، وتذويب الحماس الذي كان يشحن به قواته للتصدي للعباسيين، والثاني ايهام أهل الشام الذين مع عبد الله بانه سيتوجه الى الشام وسيعرض أملاكهم وعوائلهم الى النهب والسلب من قبل جيش الخلافة ، والاخرى أن الظروف العسكرية قد اضطرت أبا مسلم الى اللجوء الى هذا الأسلوب بسبب مناعة التحصينات العسكرية التي اقامها عبد الله بن علي العباسي في نصيبين فمحاولة التظاهر بالتوجه الى الشام كانت لكي يجعل ابن علي وجيشه يفكرون بأهل الشام ولأرعاب جند الشام الذين مع ابن علي وتخوفهم على املاكهم وعوائلهم لكي يترك للمقاتلة نصيبين، وبالفعل فقد حقق أبو مسلم ما كان يهدف له، إذ أن أهل الشام ممن كان مع عبد الله بن علي العباسي قالوا له: كيف نقيم معك وهذا يأتي بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا ولكنا نخرج الى بلادنا فنمنعه حرمنا وذرارينا ونقاتله ان قاتلنا)) [87].

وكان عبد الله بن علي العباسي قائداً عسكرياً ذا خبرة وتجربة قد أدرك ما كان يخطط له أبو مسلم حينما قال لأهل الشام: ((والله ما يريد الشام، وما وجه الا لقتالكم ولئن اقمتم ليأتينكم))[88]، وقال: ((انما قصد المكر بنا فأبوا إلا الشام))[89]، ولهذا أصر أهل الشام على التوجه للشام رغم محاولة عبد الله منعهم، وذلك بسبب تأثرهم بخديعة وكلام أبي مسلم الذي قال فيه: ((انما ولاني الشام))، وأصروا على موقفهم، قال الطبري: ((فلم تطب أنفسهم وأبوا الا المسير الى الشام وارتحل عبد الله بن علي في عسكره متوجهاً الى الشام))[90]، وحالما خرج جيش عبد الله العباسي من نصيبين إذ كشفت خططه التي كان قد رسم لها ، ذلك لأنه أقبل فعسكر قريباً منهم وتحول أبو مسلم حتى نزل في معسكر عبد الله بن علي العباسي في موضعه وردم العيون وما كان حوله من المياه والقى فيها الجيف[91] قاطعاً بذلك عن جيش عبد الله الماء وكان يهدف اليه، ولما بلغ عبد الله بن علي العباسي نزول أبي مسلم معسكره الذي كان فيه قال لأصحابه من أهل الشام: ((ألم أقل لكم)) واقبل فوجد أبا مسلم قد سبقه الى معسكره فنزل في موضع عسكر ابي مسلم الذي كان فيه ولذلك فان خروج عبد الله وجيشه من التحصينات التي أقيمت بنصيبين يعتبر اكبر خطأ وقع فيه بضغط من جنده ، وكانت العلامة المؤشرة للفشل في طريق الحركة، وذلك لعدم اتخاذهم اية احتياطات دفاعية اضطرارية في حالة خروجهم او فقدانهم لهذه التحصينات الهامة ،حيث أن عبد الله لم يفكر في مسألة انسحابه من المواقع الحصينة بنصيبين الا في حالة تحقيق انتصارات أو تهيئة الظروف لصالحه، وان خسارة عبد الله للتحصينات المهمة لم تكن تفتقر لجيشه الذي أجبره على ذلك، وخسر عبد الله أيضاً الموارد الاقتصادية التي كانت تحت يده، وأصبح وضعه مرتبكاً فأقبل حتى نزل على اربع فراسخ من نصيبين في موضع ليس فيه ماء إلا ماء الآبار، فبسط الامان للناس

، ولم يستطع القيام بسبب فقدانه للتحصينات العسكرية ، وأصبح جيش عبد الله في حالة مكشوفة حالياً من أية تحصينات عسكرية حيث أقام ((بباب الغادر من أرض نصيبين)) [92] ، وبعد هذه التطورات انتقل أبو مسلم الى مرحلة أخرى من الصراع الا وهو التخطيط للعمليات العسكرية بين كل منهما ، ووقعت الحرب بينهم في نواحي نصيبين في الموضع المعروف ((بدير الأعور)) [93]، كان قادة القوتين من ابرز الرجال العباسيين الذين تولوا العمليات العسكرية لقوات الحركةالعباسية وأوصلوها الى طريق النجاح ، وكان كل منهما يتردد في خوض غمار معركة فاصلة ضد الآخر ولذا فقد ((انقضت عدة شهور في المناورة))[94]، ويعلق شلبي على هذا الوضع بقوله: ((وهكذا تقف وجهاً لوجه قوتان عظيمتان على رأسهما أعظم قائدين في ذلك التاريخ)) [95]، وروى الطبري أنهم اقتتلوا خمسة أشهر أو ستة [96]، إذ كان أهل الشام أكثر فرساناً واكمل عدة [97]، وذلك لانهم كانوا قد ارسلوا للقيام بالجهاد الاسلامي ضد الروم، إذ جهزت الدولة هذا الجيش بأكبر قوة عسكرية حتى نستطيع إذ تثبت للروم مقدرة هذه الدولة الجديدة على مقاومتهم وتحقيق الانتصار عليهم ، وكان على الميمنة عبد الله بن علي العباسي بكار بن مسلم العقيلي ، وعلى ميسرته حبيب بن سويد الاسدي ، وعلى الخيل عبد الصمد بن علي في حين كان على ميمنة أبي مسلم الحسن بن قحطبة وعلى الميسرة ابو نضر خازم بن خزيمة فاقتتلوا شهراً ثم جرت بينهم وقعات عديدة وقتل منهم عدة جماعات وصفها الطبري بأنها ((أيام نحسات))[98]، وقد اعترف ابو مسلم نفسه بقوة المقاتلة من أهل الشام بقوله: ((كل قوم في دولتهم اشد الناس...))[99] ، إذ كادوا أن يهزموا جيش أبي مسلم الذي حاول أن يثبتهم [100] وناشدهم بقوله [101]:

من كان ينوي أهله فلا رجع
فر من الموت وفي الموت وقع

ثم نادى منادي أبي مسلم في أهل خراسان فتراجعوا[102]، وان عنف الصراع راجع الى انه كان يمثل قمة القوى العباسية المتنازعة وليس من السهولة بالامكان الاقتصار على القوة المضادة ، رغم قوة أهل الشام لعب ابو مسلم في القتال دوراً بارزاً فمثلاً في اصراره وتخطيطه لمجابهة اعدائه نجد انه عمل له : ((عريش فكان يجلس عليه اذا التقى الناس فينظر الى القتال)) [103]، كما انه استطاع خلالها ان يتصل في جيش عبد الله الذين بدأوا بالانسحاب عنه شيئاً فشيئاً[104]، ولم يتخل أبو مسلم عن خططه الذكية والمراوغة للقوى المضادة له ويعلق الطبري على سياسته هذه بقوله: ((وقد مكر بهم)) ويقول ابو الفداء: ((واجتهد ابو مسلم بانواع الخداع في قتاله وداموا كذلك)) [105] ، ثم التقوا في سنة سبع وثلاثين ومائة والتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فلما رأى أبو مسلم ذلك مكر بهم بعد ان امر الحسن بن قحطبة وكان على ميمنته بتعرية ميمنته ويضم اكثرها الى المسيرة ، ثم طلب ان يجعل في الميمنة حماة اصحابه واشداءهم فقط، فلما رأى ذلك أهل الشام قاموا بتعرية ميسرتهم وأنضموا الى ميمنتهم بأزاء ميسرة أبي مسلم ثم امر أبو مسلم ان يأمر أهل القلب ليحلموا على من بقى في الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليهم فحطموهم فاضطرب نظام القلب والميمنة وسيطر عليهم أهل خراسان فمني أهل الشام بهزيمة منكرة [106]، وكان لتخطيط ابي مسلم دوره الايجابي الفاعل في الحاق الهزيمة بأهل الشام، ولم يستطيع عبد الله العباسي بعد اختلال توازن قواته ان يفعل شيئاً ، ذلك لأنه بعد الاندحار نادى بأهل الشام بالانسحاب نحو دمشق ، ولم ينتظر عبد الله لجولة أخرى[107]، وذلك لأنه ادرك عدم جدوى الاعتماد على أهل الشام في نزاعه مع الخليفة ، وذلك لأن أهل الشام لا يمكن ان يخلصوا لشخص عباسي مثله [108]، ولم يعد عبد الله يفكر في شيء إلا الهرب ولذلك قال لابن سراقه الازدي: ((يا أبن سراقه

ما ترى ؟ قال أرى والله أن تصبر وتقاتل حتى تموت ، فان الفرار قبيح بمثلك وقبلاً عِبتَهُ على مروان ، فقلت قبح الله مروان اجزع من الموت ففر قال آتي العراق))[109] ، فهرب الى حران ثم الى الرقة وعبر الى جسر الرقة ثم احرقه وسار في البر الى البصرة [110] ، ويبدو وان فشله في اقناع جند الشام بعدم ترك نصيبين قد أفسد عليه خططه المعدة لمجابهة القوات العباسية ضده، وكما ان سبب اسراعه بترك المسير يعود الى عدم اعتياده الهزيمة ذلك لانه لم ينهزم ولا مرة طوال الصراع العسكري وخدماته المكللة بالنجاح في مجال الحركةالعباسية ، ولعدم احتماله لهذه الهزيمة التي مني بها، اضافة الى عدم جدوى مقاتلة ابي مسلم بعد تشتت قواته، وامر أبو مسلم اصحابه بعد هزيمة عبد الله بالكف عن القتل [111] ، حيث امر بعدم اللحاق بعبد الله وهكذا اعطاه فرصة للنجاة والاختفاء مما أزعج الخليفة[112] ، ولعل سبب تركه ربما يعود الى منحه فرصة سانحة املاً في خلق مشاكل للخليفة ، وينفرد نظمي زاده بالاشارة الى ان المنصور كان قد اتهم أبا مسلم بأنه كان يشجع عبد الله بن علي العباسي على المطالبة بالخلافة وشاع الخبر [113] .

واطلق أبو مسلم الاسرى ووهب كل اسير أربعة دراهم ولم يقتل إلا أبا غسان لشهادته وما تشهد به لعبد الله بن علي العباسي، وكتب للخليفة المنصور بعلمه أن أهل الجزيرة والشام بمواضع من الثغور مشحنة الحدود وانها لا تسد الا بهم وساله الصفح عنها، وأشار عليه باستصلاح وجوههم واصطناعهم[114] .

وهكذا انتهت حركةعبد الله بالفشل الذريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه أبو مسلم وكتب بذلك الى المنصور وهرب عبد الله بن علي العباسي واخوه عبد الصمد حيث مرا بالرصافة، فاقام بها عبد الصمد حتى قدمت عليه قوات المنصور وعليها جهور بن مرار العجلي، فاخذه وبعث به أسيراً الى المنصور مع مولاه أبي الخصيب حيث آمنه [115]، اما عبد الله فانه لم يمكث بالرصافة إلا ليلة واتجه مع قواده ومواليه حتى قدم البصرة على سليمان اخيه وهو عاملها ، فآواهم سليمان واكرمهم وأقاموا عنده مختفين [116] لفترة من الزمن وظل مستتراً بالبصرة وكاتب سليمان كاتبه محمد بن ابي حكيمة في ذلك، واستقر الامر على اعطائه الامان وكتب له الامان عبد الله بن المقفع ، فانفذ ابو جعفر سفيان بن معاويه بن يزيد بن المهلب وامره ((بضغطهم والتضييق عليهم ، حتى يشخص بعبد الله بن علي اليه)) [117]، وعلى اثر ذلك عزل سليمان بن علي عن البصرة سنة 139هـ / 756م، فاختفى عبد الله بن علي العباسي واصحابه فكتب المنصور الى سليمان واخيه عيسى بامان عبد الله وقواده فارسلوا وجيء به الى بغداد حيث سجن في القصر[118]، وبقي الى ان قتل في ظروف غامضة[119].

<u>نتائج حركةعبد الله بن علي العباسي :</u>

لقد كشفت الحركةعدداً من الحقائق التاريخية، يمكن أجمالها بما يأتي :

ان الحركة سببت في تعميق الخلاف بين المنصور وابي مسلم وتبلور هذا الخلاف، إذ أصبح ظاهراً بيناً، وذلك لان الحركةتظهر هنا مدى تدهور العلاقة بين الخليفة وابي مسلم [120]، وذلك لان الحسن بن قحطبة كان يكتب للخليفة عن تصرفات ابي مسلم واستهزائه بكتب الخليفة التي تتوارد اليه وبعث كتاباً مع مسلم المغيرة الى ابي ايوب الحوراني يعلمه انه لما يرمي الكتاب الى ابي نصر فيقرأه ويضحكان استهزءً[121] ، كما انه بعث للخليفة يقول: ((يا أمير المؤمنين ان الشيطان الذي كان ينفخ في رأس عبد الله بن علي العباسي قد انتقل الى رأس ابي مسلم والسلام)) [122] .

كما ان الغنائم التي تخلفت عن الحرب ساهمت في تعميق الخلاف بينهما، وذلك لان أبا مسلم استولى على خزائن عبد الله وكانت عظيمة، إذ انها اشتملت على ذخائر بني امية ونعمتهم [123] ، وكانت ثمينة

للغاية ومتنوعة، وقد علم المنصور ان ذخائر جميع بني امية من الاموال والجواهر قد صارت الى عبد الله بن علي العباسي، فغضب لذلك غضباً شديداً [124] ، ويبدو ان أبا مسلم اراد ان يستأثر بها لنفسه ، وكذلك رجاله الذين طلبوا اليه ان يخرج منها الخمس للخليفة محتجين على ما أراد الخليفة ان لا يعتبرها غنيمة قائلين : ((نحن ولينا امر هذا الرجل وغصبناه عسكره فلم يسأل عما في ايدينا انما لأمير المؤمنين من هذا الخمس)) [125] ، ويعلق د . فاروق على موقف القادة هذا بأنه تنازل الخليفة لذلك الموقف عن سهمه ووعدهم ان يضاعف لهم الجزاء ، ويوضح بأن النزاع على الغنيمة كان من بين عوامل الصراع بين المقاتلة العرب والخليفة الاموي، والتي استغلها الدعاة العباسيون، وقد هاجم أبو سلمة وأبو العباس الامويين لتقتيرهم على الجند، وان الحادثة تضيف دليلاً على ان غالبية الجيش الخراساني كانوا من العرب، إذ كان صوتهم نفس صوت المقاتلة العرب الامويين بخراسان حول تقسيم الفيء والغنيمة [126]، وقد ارسل الخليفة رسولاً الى أبو مسلم لاحصاء الغنائم وهو مولاه ابو الخصيب [127]، في حين نستدل من رواية خليفة أن أبا جعفر أرسل اليه وفدا فيهم اسحق بن مسلم العقيلي، ويقطين بن موسى ومحمد بن عمرو التغلبي، ويبدو ان يقطين كان هذا المتحدث بأسمهم جميعاً[128]، وان أبا مسلم اساء استقبال يقطين بن موسى[*]، وذلك حينما سلمه كتاب أبي جعفر اليه والذي كان نصه واحتفظ بما في يدك من الاموال...))[129] الامر الذي اثار ابا مسلم الذي قال: ((...أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الاموال...))[130] ، ثم شتم ابو مسلم ابا جعفر[131]، وقال: ((افعلها ابن سلامه))[132]، وأستخف باسحق بن محمد ومحمد بن عمرو[133]، وفي رواية انه اعتدى على رسول الخليفة ابن الخطيب وهم بقتله[134]، ولهذا فقد أغتر ابو مسلم بنصره هذا ولذلك عزم على التوجه الى خراسان (وهو مجمع على الخلاف)، وخشي الخليفة من تصرف ابي مسلم هذا، إذ بعث اليه كتاباً مع

يقطين بن موسى نصه: ((اني وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان، فوجه الى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين، فان احب لقاءك اثبته مني قريب، فلما أتاه الكتاب غضب، وقال: هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي [135]، وقد عزم ابو مسلم التوجه الى خراسان ، ثم كتب اليه الخليفة وهو بالزاب بالمسير اليه، فكتب اليه أبو مسلم: ((لم يبق لامير المؤمنين اكرمه الله عدواً إلا مكنه الله منه، وكنا نروي عن اهل ساسان انهم قالوا: ((أخوف ما يكون الوزراء اذا سكتت الدعماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت حريون بالسمع وللطاعة غير انها من بعيد، إذ تقارنها السلامة فان ارضاك ذلك فانا كأحسن عبيدك فان ابيت إلا تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسي))[136]، ويعلق د .فاروق على الرسالة بانها تشكل تطوراً جديد في العلاقة بين الخليفة وأبي مسلم الذي يظهر تبرمه بسلطة الخليفة وسياسته تجاه اولئك الذين خدموا الدعوة العباسية حتى أوصلوها للانتصار، علماً بأنها مذكورة في مصدر قديم موثوق كالطبري، كما انه ربما سمح لنفسه، وقد صمم على عودة لا رجعة بعدها الى خراسان واستمر المنصور في محاولته حتى استدرجه ونجح في مسعاه ثم وفد عليه، إذ استجوبه على عدد من القضايا[137]، وبقدر ما يتعلق الامر بموضوعنا، فان المنصور سأله عن سيفين اصابهما لعمه عبد الله بن علي العباسي، وكان أبو مسلم متقلداً احدهما فقال ابو مسلم: ((هذا احدهما فقال المنصور: أرنيه فانتضاه ابو مسلم وناوله اياه))[138]، ثم سأله عن اموال عبد الله بن علي العباسي فاجابه ابو مسلم أنه وزعها على الجند في سبيل عضد الدولة العباسية[139]، وكل ما نقوله ان حركةعبد الله بن علي العباسي قد اسهمت في مساعدة الخليفة في القضاء عليه بعد ان اتضحت له حقيقة مماطلات أبي مسلم

والتي كان الخليفة مطمئناً عليها مسبقاً، إذ كان منذ فترة مبكرة يفكر في ايجاد وسيلة للتخلص منه[140].

ويمكن ان نضيف نتيجة اخرى إلا وهو حدوث انقسام في صفوف البيت العباس لم تكن معروفة مسبقاً هدفها السلطان أولاً وأخيراً، ذلك السلطان الذي سعى اليه عبد الله العباسي وأيده وخاصة اخوه عبد الصمد، اذ انها أول حركةيقوم بها شخص عباسي بذل جهده وحياته في انجاح الدعوة والحركةالعباسية [141]، وكان من نتيجة ذلك فقدان الخلافة العباسية لشخصية مرموقة كشخصية عبد الله، الذي سجن وقتل في ظروف غامضة، فضلاً عن فقدان الخلافة لعدد من رجالها الذين قتلوا في المعارك بين الجيشين وخاصة العكي الذي كان ينوب عن أبي جعفر بالجزيرة، اما بالنسبة لاصحاب عبد الله بن علي العباسي فقد توزعوا بين الحبس والقتل وبعث بعضهم الى أبي داود خالد بن ابراهيم بخراسان فقتلهم بها [142] ، وبالنسبة لاهل الشام فقد ذهب من اشرافهم وفد للاعتذار عما حدث الى الخليفة المنصور ووصفت هذه البعثة حركة عبد الله بن علي العباسي على انها "فتنة" أغرت أهل الشام وأوقعتهم في شباكها ، وقد قبل الخليفة عذرهم واعاد اليهم املاكهم وضياعهم التي كان قد صادرها منهم[143]، يروي الازدي انه في سنة 138هـ / 755م، قدم وفد من أهل الشام وفيهم الحارث بن عبد الرحمن الذي قال : ((أصلح الله أمير المؤمنين انا لسنا وفد مباهاة ولكنا وفد توبة ، وإنا قد ابتلينا بفتنة استفزت كريمنا واستخفت حليمنا ، فنحن بما قدمنا معترفون ، ومما سلف منا متعذرون فان تعاقبنا فيما اجترمنا ، وان تعفو عنا فبفضلك علينا، أصفح عنا اذ ملكت وأمن علينا إذا قدرت، واحسن اذا ظفرت وطالما أحسنت ، فقال ابو جعفر: قد فعلت)) [144] .

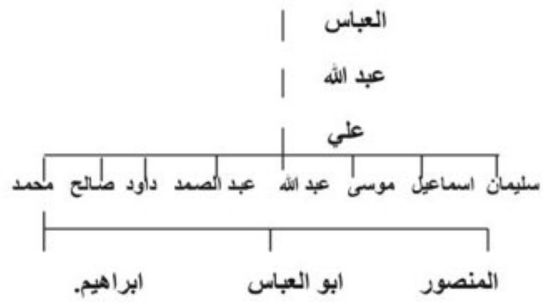
وعفا المنصور عن بعض الشخصيات وكافأ بعضها الاخر فمثلاً مالك بن الهيثم الخزاعي قاتل ضد عبد الله بن علي العباسي، ولكنه كان يشارك أبا مسلم الخراساني في الضحك والاستهزاء بكتب المنصور التي كانت تصل اليهم وهم في مواجهة عبد الله بن علي العباسي، وقد امنه الخليفة واسترضاه بعد أن هرب وألقي القبض عليه ، حينما عزم التوجه الى خراسان، ثم استعمله على الموصل [145] .

وكشفت الحركةمميزات وخصائص تركيب الجيش الخراساني الذي بجهوده قامت الدولة العباسية، ذلك ان الكثير من القادة الخراسانية في كلا العسكرين يحملون اسماء عربية خالصة، كما وان يضم عبد الله بن علي العباسي للمقاتلة من أهل خراسان مع المقاتلة اليمانية في قائمة عطاء واحدة يدل بدون شك على ارتباطهم الوثيق باليمانية، بل انهم في غالبيتهم من القبائل اليمانية [146] ، يقول صاحب الامامة والسياسة: ((ان عبد الله بن علي استنجد بأهل خراسان واغراهم بالمال والجوائز وضمهم في اعطاء الى اليمانية ولكنه عاد وقتلهم)) [147] .

ولكن أهم ما في الحركةانها حركةأهل الشام على العباسيين ويرى د.فاروق أن هذه الميزة الاخرى هي أهم ما فيها ذلك لان أهل الشام في الحقيقة استغلوا عبد الله العباسي ليعبروا عن سخطهم ضد الدولة الجديدة [148] ، ذلك لان الانتصار العباسي هذا قد اعاد الى الاذهان الانتصار الخراساني بالزاب على الامويين ، اذا ما علمنا أن جيش عبد الله بن علي العباسي كان عماده الاساسي هم أهل الشام ، ويقول د . فاروق: ((استطاع أهل خراسان مرة اخرى ان يذيقوا أهل الشام هزيمة منكرة ولكن أبا مسلم أعلن الامان والعفو ولم يتعقب ويضطهد احداً كما وان المدن السورية لم تنهب وتسلب)) [149]، وبذلك منيت المعارضة الاموية مرة اخرى بالفشل، فضلاً عن فشلها في حركات 132 – 133هـ .

الهوامش :

(1) عن ملحق رقم 1، د. فاروق، طبيعة الدعوة العباسية، ص 294



(2) المقدسـي ، البـدء والتـاريخ ، ج 6 ، ص 76 – 77 ؛ والعباسيون الاوائل ، 1 / 88 - 194 .

(3) شلبي ، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، ج 3 (القاهرة ، 1960)،ص 39 - 40 .

(4) المرجـع السـابق ، 1 / 140 ؛ راجـع احمـد ابـراهيم الشـريف ، العـالم الاسـلامي فـي العصـر العباسـي (القاهرة، 1966) ، ص 114 – 115 ، وص 309.

(5) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 30 ب (مخطوطة لندن ، ورقة 577) .

(6) د . فاروق ، المرجع السابق ، 1 / 140 .

(7) ابن خلدون ، المصدر السابق ، 3 / 384 .

(8) الطبري ، تاريخ ، 7 / 474 .

(9) اليعقوبي ، تاريخ ، 2 / 384 .

(10) د . فاروق ، المرجع السابق ، 1 / 140 .

(11) د . فاروق ، المرجع السابق ، 1 / 140 .

(12) محمد حلمي محمد احمد ،الخلافة والدولة في العصر العباسي ، (القاهرة ، 1959) ، ص 68 .

(13) د . فاروق ، المرجع السابق ، 1 / 140 .

(14) شلبي ، المرجع السابق ، 3 / 39 – 40 .

(15) تاريخ ، 2 / 364 .

(16) الطبري ، 7 / 474 .

(17) مجهـول ، غـرر السـير ، ورقـة 161 أ ؛ د . فـاروق، المرجع السابق ، 1 / 140

(18) المرجع السابق ، 1 / 140 .

(19) الطبـري، 7 / 474 ؛ الازدي، تـاريخ الموصـل، ص 163؛ مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 217.

(20) د . فاروق ، المرجع السابق ، 1 / 143 .

(21) ن . م ، 1 / 140 .

(*) ويروي البلاذري أن اسحق بن مسلم العقيلي اخا بكار بعد ان كان مكرماً لدى المنصور وبعد أن ثار عبد الله بن علي وانضم اليه أخوه بكار بن مسلم العقيلي قال ابو جعفر : يا أسحق : ألا تكفينا أخاك قال اكفني عمك حتى أكفيك اخي فضحك المنصور لقوله (البلاذري ، انساب ، ج 4 / 36 أ مخطوطة لندن ، ورقة 604) .

(22) البلاذري ، انساب ، 4 / 31 أ (مخطوطة لندن ، ورقة 577) .

(23) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (مخطوطة لندن ، ورقة 577) .

(24) ن . م ، 4 / 31 أ (مخطوطة لندن، ورقة 577).

(25) ن . م ، 4 / 31 أ (مخطوطة لندن ، ورقة 577).

(26) الامامة والسياسة ، 2 / ص 135 .

(27) د . فاروق ، المرجع السابق ، 1 / 141 .

(28) ابن اعثم الكوفي ، الفتوح ، 2 / ورقة 36 - 37 .

(29) المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج 6 (شالون، 1916) ، ص 76 .

(30) الطبري ، 7 / 474 – 475 ؛ الازدي ، تاريخ الموصل ، ص 163 .

(31) الـبلاذري ، المصـدر السـابق ، 4 / 30 ب – 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 577 – 578) .

(32) الانساب ، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 578) .

(33) ابـن قتيبـة ، المصـدر السـابق ، 2 / 135 ؛ اليعقـوبي ، تاريخ ، 3 / 62 .

(34) العباسيون الاوائل ، 1 / 139 .

(35) ن . م ، 141 .

(36) روى الطبري ابن عيسى بن موسى كان قد اخذ بيوت الاموال والخزائن والدواوين حتى قدم عليه ابو جعفر

بالانبار ، فبايع الناس بالخلافة ثم لعيسى بن موسى من بعده . فسلم عيسى بن موسى الى ابي جعفر الامر وقد كان عيسى بن موسى بعث ابا غسان واسمه يزيد بن زياد وهو صاحب أبي العباس الى عبد الله بن علي لبيعه أبي جعفر ، بأمر من أبي العباس قبل ان يموت ، حين امر الناس بالبيعة لأبي جعفر من بعده ، (الطبري، تاريخ ، 7 / 474).

(37) روي اليعقوبي بأن محمد بن الحصين العبدي ، وافاه الخبر ، فقال المنصور اي موضع هذا ؟ قال: موضع يقال له زكية قال : ((امر يزكى انشاء الله))، وبويع له تاريخ ، 2 / 362 .

(38) روي انه قدم على عبد الله بن علي ابو غسان بافواه الدروب ، متوجهاً يريد الروم فلما قدم عليه ابو غسان بوفاة أبي العباس وقد كان قطع الدرب الى بلاد الروم فرجع حتى سار الى دلوك من ارض جند قنسرين (اليعقوبي، تاريخ ، 2 / 265 ؛ الطبري، 7/ 473).

(39) الطبري ، 7 / 474 ؛ الازدي ، تاريخ الموصل ، 163 ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 317 .

(40) الطبري، 7 / 474؛ ابن اعثم الكوفي، فتوح ورقة 37 – 38؛ مجهول، غرر السير، ورقة 161 أ؛ الازدي، المصدر السابق، 163؛ مجهول، العيون والحدائق، 3 / 317.

(41) البلاذري ، انساب ، 4 / 30 ب (نسخة لندن، ورقة 577) ؛ الطبري ، 7 / 474 – 475 ؛ الازدي ، المصدر السابق ، 163 .

(42) اليعقوبي ، تاريخ ، 2 / 265 .

(43) ابن أعثم الكوفي ، المصدر السابق ، ورقة 37 – 38 ؛ مجهول ، غرر السير ، ورقة 161 أ .

(44) المقدسي، البدء والتاريخ ، 5 / 77 .

(45) خليفة ، تاريخ ، 2 / 464 في حين يرى اليعقوبي ان موسى بن كعب كان عاملاً بحران ، تاريخ ، 2 / 365 .

(46) الطبري ، 7 / 475 .

(47) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ج 2 / 365 ؛ الطبري ، 7 / 475 .

(48) البلاذري ،المصدر السابق، 4 / 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 578) ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، 2 / 365 ؛ الطبري ، 7 / 475 ؛ ابن اعثم الكوفي ، المصدر السابق ، ورقة 37 – 38 ؛ مجهول ، غرر السير ، ورقة 161 أ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، 8 / ورقة 465 أ ؛ الكتبي ، عيون التواريخ ، ج 3 ، ق 1 / ورقة 16 أ .

(49) المقدسي ، المصدر السابق ، 6 / 77 .

(50) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية (بيروت ، 1960)،ص168 .

(51) الخضري ، محاضرات في تاريخ الدولة الاسلامية(القاهرة، 1953)،ص 53 - 54 .

(52) المسعودي ، مروج الذهب ، 3 / 302 .

(53) د . فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص 239 ، والطرق في العصر العباسي (مجلة بين النهرين) ، ص 49 .

(54) اليعقوبي ، المصدر السابق ، 2 / 365 .

(*) فقد قال له كاتبه أعيذك بالله من أن تمكن أهل خراسان الطعن عليك وان يروا انك نقضت أمراً بعد تأكيده ، فقال ويحك انني نظرت ممن قتلت بالسيف كثير جداً سوى من قتل في المعارك فوجدتهم مائة الف من الناس فلا قليل من الله (اليعقوبي ، تاريخ ، 2 / 265) .

(55) د. فاروق، طبيعة الدعوة العباسية، ص239.

(56) وقد قال له الخليفة : ان عبد الجبار على شرطتي وكان قبل على شرطة ابي العباس ، وصالح بن الهيثم اخو أمير المؤمنين في الرضاعة فلم اكن لاحبسهما لظنك بهما، فقال : اتراهما آثر عندك مني فغضب أبو جعفر فقال أبو مسلم لم أرد كل هذا (الطبري، 7 /480 ؛ ابن اعثم ، الفتوح ، 2/ ورقة 39).

(57) الطبري ، 7 / 475 .

(58) وكان ابو مسلم قال للخليفة : ((ان شئت جمعت ثيابي في منطقتي وخدمتك، وان شئت اتيت خراسان فامددتك بالجنود ...)) ، البلاذري ، المصدر السابق،4 / 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 578) ؛ ابن الاثير ، 5/ 465 ؛ ابن طباطبا ، الفخري في الادب السلطانية ، ص 168 .

(59) د . فاروق ، المرجع السابق ، ص 239 .

(60) مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 217 .

(61) قال البلاذري : ((واعطى المنصور الجند الذين ارسلهم مع ابي مسلم اثني عشر الف الف درهم ، ويقال ثمانية عشر الف الف عشر ، وكان ابو العباس قد حط ارزاق الجند في سنة 135 هـ الى ستين الف فصيرها ابو جعفر ثمانين الف وسوغهم عطاءا اعطاهم اياه عيسى بن علي فشكروا ذلك ، انساب ، 4/ 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 579).

(62) العبادي، في التاريخ العباس ، ص 46 - 47.

(63) د . فاروق، المرجع السابق ، ص 239 .

(64) اليعقوبي، المصدر السابق ، 2 / 366 .

(65) البلاذري، المصدر السابق، 4 / 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 578)؛ الطبري، 7 / 475 – 476؛ ابن الجوزي ، منتظم ، 8 / 465 .

(66) ولما رأى حميد سعيد البربري قال له: ((ويحل أما تعرفني والله مالي في قتالي من خير فأرجع، فلا تقتل أصحابي ، وأصحابك فهو خير لك فلما سمع عرف ما قاله له ، فرجع، ومضى حميد ومن كان معه، فقال له صاحب حرسه موسى بن ميمون رأيت بالرصافة جارية، فطلب الى حميد أن يسمح له أن يوصيها ببعض ما يريد فاذن له، ثم أقام عندها وخرج من الرصافة يريد حميد فلقيه سعيد البربري فقتله))، الطبري، 7 /476.

(67) ولما بلغه هزيمة عبد الله بن علي وأهل الشام بنصيبين اخرجهما فضرب اعناقهما ، البلاذري ، 4 / 31 أ (نسخة لندن ،ورقة 578) ، الطبري، 7 / 475.

(68) ابن خلدون ، المصدر السابق ، 3 / 384.

(*) هو جياش بن حبيب الذي قتل منهم خلقاً ، البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 579).

(69) شلبي ، المرجع السابق ، 3 / 38.

(70) الطبري ، 7 / 481 ؛ ابن الاثير ، الكامل ، 5 / 469.

(71) الطبري ، تاريخ ، 625/8.

(72) مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 217.

(73) الطبري ، 7 / 481 ؛ ابن الاثير ، الكامل ، 5 / 469.

(74) البلاذري، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 579).

(75) د . فاروق ، العباسيون الاوائل ، 1 / 142.

(*) فقد قال مسلم بن المغيرة للحسن : ((انتم تشيرون الى القتال وليس بك الي حاجة ، فلو أذنت لي فأتيت العراق فاذن له ثم قال له : أريد أن ألقي اليك شيئاً لتبلغه أبا أيوب ولولا ثقتي بك لم أخبرك، ولولا مكانك من أبي أيوب لم أخبرك ، فأبلغ أبا أيوب اني قد ارتنيت بأبي مسلم قد قدمت عليه ، أنه يأتيه الكتاب من أمير المؤمنين ... فيستهزئي به (الطبري ، 7 / 481 ؛ ابن الاثير ، المصدر السابق ، 5 / 469).

(76) الطبري ، 7 / 481 ؛ ابن الاثير ، المصدر السابق ، 5 / 419.

(77) المقريزي ، المقفي ، ورقة 93 أ نقلاً عن د . فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية ، 239.

(78) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 41 أ (نسخة لندن ، ورقة 627).

(79) الطبري ، 7 / 476 ؛ ابن الاثير ، الكامل ، 5 / 465 - 466.

(80) المقدســـي ، البـــدء والتـــاريخ ، 6 / 77 (غيـــر أن المؤلـف المجهـول ينفـرد بالاشـارة الـى ان عبـد الله بـن علـي أقـام بحـران وجمـع اليـه الجنـود والسـلاح وخنـــدق واعـــد الطعـــام والاعـــلاف ، العيـــون والحدائق ، 3 / 218.

(81) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (نسخة لندن، ورقـة 579)؛ الجهشـياري ، الـوزراء والكتـاب ، ص 103.

(82) تاريخ الموصل ، 114.

(*) وكان أبو جعفر دسه الى عبد الله بن علي فقال لـه أنـي كنت قد سمعت أبا العباس قبل وفاته يقول : أن الخليفـة بعدي عبد الله بن علي فقـال : ((كـذلك انمـا دسك أبـو جعفر وأرسلك الي)) فقدمـه فضرب عنقـه، (الازدي ، تاريخ الموصل ، ص 164).

(83) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (نسخة لندن، ورقـة 579) ؛ د . فـاروق ، العباسـيون الاوائـل ، 1 / 142.

(84) المقدسي ، المصدر السابق ، 6 / 77.

(85) اليعقوبي ، المصدر السابق، 2 / 366 ؛ الكتبي ، عيون التواريخ ، ق 1، ورقة 16 .

(86) الطبري، 7/ 476؛ ابن اعثم الكوفي، فتوح، ورقة 38؛ مجهول ، غرر السير، ورقة 61 ب؛ الذهبي ، المصدر السـابق، 5/ 214؛ ابـن خلـدون، المصـدر السـابق، 3/ 386؛ ابن كثير، المصدر السابق، 61/10 .

(87) الطبـــري ، 7 / 476 – 477 ؛ مجهـــول ، العيـــون والحدائق ، 3 / 218 ؛ الـذهبي، المصدر السابق، 5 / 214 ؛ ابـن كثيـر ، المصـدر السـابق، 10 / 61؛ د. فاروق ، المصدر السابق ، 1 / 142.

(88) الطبري ، 7 / 477.

(89) مجهول ، غرر السير ، ورقـة 161 ب ؛ ابـن خلـدون ، المصدر السابق ، 3 / 386 .

(90) الطبري ، 7 / 477 ؛ مجهول ، العيـون والحـدائق، 3 / 218.

(91) الطبري ، 7 / 477 ؛ مجهول ، غرر السير ، ورقة 16 ب ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 218.

(92) البسوي ، المعرفة والتاريخ ، تحقيق د . اكرم العمري (بغداد ، 1974)،م 1 ، ص 119.

(93) المسعودي ، مروج الذهب ، 3 / 302.

(94) جـون بـاجوت جلـوب ، امبراطوريـة العرب (بيـروت ، 1966) ، ص 466.

(95) شلبي ، المرجع السابق ، 3 / 38.

(96) الطبري ، 7 / 447.

(97) ن . م ، 7 / 447 ؛ الـذهبي ، المصـدر السـابق، 5 / 214.

(98) الطبري ، 7 / 447 ؛ الكتبي ، المصدر السـابق ، ج 3، ق 1 ، ورقـة 16 ب ؛ ابـن خلـدون ، 3 / 386 ؛ ابـن كثير، المصدر السابق ، 10 / 62.

(99) روى أن هشام بن عمر التغلبي ، وكان في عسكر ابي مسلم قائلا: ((تحدث الناس يوماً فقيل أي النـاس اشد فقال : قولوا حتى نسمع ، فقـال رجل أهل خراسـان ، وقـال آخر أهل الشـام ، فقـال ابـو مسلم : كل قوم في دولتهم اشد الناس ، ثم التقينـا فحمل اصحاب عبد الله بن علي فصدمونـا صدمة أزالونا بها عن مواضـعنا ثـم انصرفوا ، وشد علينا عبد الصمد في خيل مجردة فقتل منا ثمانية عشر رجلاً ثم رجع في اصحابه ثـم تجمعوا فرموا بأنفسهم فـازالوا صفنا وجلنـا جولـة فقلت لابي مسلم : لـو حركـة دابتـي حتـى اشرف علـى هذا التـل فأصبح بالنـاس فقد انهزمـوا فقـال : افعل ، قلت وانـت ايضاً فحرك دابتك فقال : ان اهل الحصن لا يعطفون دوابهم على هذه الحـال ، نـاد يـا أهل خراسـان أرجعوا فـان العاقبـة لمـن اتقـى قـال ففعلـت، فتراجـع النـاس)) الطبـري ، 7 / 447 ؛ مجهـول ، غـرر السـير ، ورقـة 162 أ ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، 5 / 214.

(100) الذهبي ، المصدر السابق ، 5 / 214.

(101) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (نسخة لنـدن، ورقة 975) ؛ الطبري ، 7 / 447 ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، 5 / 214.

(102) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 975) ؛ الطبري ، 7 / 477 ؛ الذهبي ، المصدر السابق ، 5 / 214.

(103) وكان أبو مسلم ينظر من خلال عريشه هذا الى القتال فان رأى خللاً في الميمنة او في الميسرة ارسل الى صاحبها انه في ناحيتك انتشار فائق الاتؤتي من قلبك فافعل كذا ، قدم خيلك كذا او تأخر الى موضع كذا، فانما رسله يختلف اليهم برأى حتى ينصرف بعضهم عن بعض ؛ الطبري ، 7 / 478 ؛ مجهول ، غرر السير ، ورقة 163 أ ؛ ابن الاثير ، المصدر السابق ، 5 / 466 ؛ ابن خلدون ، 3 / 386 - 387.

(104) د . فاروق ، العباسيون الاوائل ، 1 / 142.

(105) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج 1 (القاهرة ، لا . ت) ، ص 214.

(106) الطبري ، 7 / 478 ؛ مجهول ، العيون ، 3 / 218 ؛ ابن خلدون ، 3 / 387 ؛ الدوري ، العصر العباس الاول ، ص 70 – 71 .

(107) د . فاروق ، المرجع السابق ، 1 / 143.

(108) د . فاروق ، طبيعة الدعوة ، 239 ؛ مجلة بين النهرين عدد 6 لسنة 1974 ، ص 49.

(109) مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 219.

(110) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / ورقة 31 أ (نسخة لندن ، ورقة 579).

(111) مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 219.

(112) د . فاروق ، العباسيون الاوائل ، 1 / 143.

(113) روي نظمي زاده الى أن أبا مسلم كان يتصل بعم أبو العباس عبد الله بن علي في ربوع الشام وقالوا : ((ان ابا العباس بعد ان قضى على بني امية اوصى أن يكون عمه ولياً للعهد ، ونشر ابو مسلم هذه الاخبار بين أهل الشام حتى وصلت مسامع المنصور فتأثر منها ، وحصلت نفرة بين الطرفين ادت الى التخاصم فيما بينهما ، نظمي ، زاده (نجف ، 1971)، ص 22 - 23.

(114) البلاذري ، انساب ، 4 / 31 أ (نسخة لندن، ورقة 579 – 580).

(115) واخذ عبد الصمد بن علي موثقاً بالحديد فقدم على المنصور الذي دفعه الى عيسى بن موسى وكان ولي العهد فأمنه وأطلقه واكرمه وحياه وكساه ؛ الطبري ، 7 / 478 – 479 ؛ ابن خلدون ، 3 / 287 ؛ ابن كثير، المصدر السابق، 10 / 13 ؛ د . فاروق ، المصدر السابق ، 1 / 143 وروى ان الذي استأمنه اسماعيل بن علي الطبري ، 7 / 479 ؛ مجهول ، العيون والحدائق ، 3 / 219 ؛ ابن خلدون ، 3 / 387.

(116) الطبري ، 7 / 479 ؛ ابن خلدون ، المصدر السابق ، 3 / 387 – 388 ؛ ابن كثير ، المصدر السابق ، 60 / 63.

(117) الجهشياري ، المصدر السابق ، ص 103.

(118) ابن خلدون ، المصدر السابق ، 3 / 394.

(119) راجع الملحق الخاص عن مقتل عبد الله بن علي.

(120) د . فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص 239.

(121)البلاذري ، انساب ، 4 / ورقة 48 أ – ب (نسخة لندن ، ورقة 627) ؛ الطبري ، 7 / 481 ؛ ابن الاثير ، الكامل ، 5 / 469.

(122) ابن اعثم الكوفي ، فتوح ، 35 ؛ مجهول ، غرر السير ، ورقة 163 أ .

(123) الديار البكري ،تاريخ الخمس ،2 / 325 .

(124) الطبري ، 7 / 481 - 482.

(125) الطبري ، 7 / 481 - 482.

(126) د . فاروق ، العباسيون الاوائل ، 1 / 143 - 144.

(127) البلاذري ، المصدر السابق ، 4 / ورقة 41 أ – ب (نسخة لندن ، ورقة 627) ؛ الطبري ، 7 / 478.

(128) خليفة ، تاريخ ، 2 / 336.

(*) روى المسعودي : ((انه لما دخل يقطين على ابي مسلم قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، قال: لا سلم الله عليك يا ابن اللخناء ان أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الاموال ؟ فقال له : وما

أبدى هذا منك أيها الامير ؟ قال : ارسلك صاحبك يقبض ما في يدي من الخزائن فقال له : أمرأتي طالقا ثلاثاً ان كان امير المؤمنين وجهني اليك لغير تهنئتك بالظفر ، فاعتنقه ابو مسلم وأجلسه الى جانبه ، فلما انصرف ، قال لاصحابه : والله اني لأعلم انه قد طلق زوجته ثلاثاً ولكنه وافى لصاحبه ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، 3 / 302.

(129) الطبري ، 7 / 482 ؛ ابن الاثير ، 5 / 469 ؛ الازدي ، 164 - 165.

(130) المسعودي ، مروج الذهب ، 3 / 302.

(131) الطبري ، 7 / 482 ؛ ابن الاثير ، 5 / 469؛ الازدي ، 164 - 165.

(132) البلاذري ، 4 / 41 أ – ب (نسخة لندن ، 627).

(133)إذ انه استخف بهما وشتمهما وتناول أبو جعفر بلسانه حتى ذكر امه .

(134) يروي الطبري ان أبا مسلم اعتدى على رسول الخليفة ابي الخطيب ادهم بقتله ، فكلم فيه ، وقيل انما هو رسول فخلى سبيله ...؛ الطبري ، 482/7، وقال ويلي على ابن سلامة فانصرفوا الى ابي جعفر فاخبروه بخبر فزاد ذلك مما في قلبه (اليعقوبي ، تاريخ ، 2 / 336 ؛ ابن اعثم ، فتوح ، ورقة 32).

(135) الطبري ، 7 / 482 ؛ ابن الاثير ، المصدر السابق ، 5 / 469 ؛ الازدي ، 164 - 165.

(136) الطبري ، 7 / 482 ؛ ابن الاثير ، المصدر السابق ، 5 / 469 ؛ الازدي ، 164 – 165.

(137) راجع د . فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية، 244 – 245 ، العباسيون الاوائل ، 1 / 88 - 94.

(138) المكي ، سمط النجوم العوالي ، 2 / 250.

(139) د . فاروق ، العباسيون ، 1 / 144.

(140) راجع د . فاروق ، طبيعة الدعوة العباسية، الفصل السادس ، 239 – 255 ، العباسيون، 1 / 88 - 94.

(141) د .فاروق ، العباسيون الاوائل ، 1 / 143 - 144.

(142) ابن خلدون ، 3 / 394.

(143) الازدي ، تاريخ الموصل ، ص 167.

(144) الطبري ، 7 / 493 ؛ ابن الاثير ، 5 / 469.

(145) راجع الطبري ، 7 / 493 – 494 ؛ ابن خلدون ، 3 / 392 - 393.

(146) د . فاروق ، العباسيون الاوائل ؛ ابن الاثير، 5 / 469.

(147) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، 2 / 144 - 145.

(148) د . فاروق ، العباسيون الاوائل ، 1 / 87.

(149) ن . م ، 1 / 143 .

الدبلوماسية الإسلامية الخارجية في العهد النبوي

(1هـ/623م – 11هـ/632م)

Islamic Diplomacy Foreign in The Prophetic Era

(1-11 A.H / 623-632 A.D)

الدكتور غسان محمود وشاح
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية في الجامعة الإسلامية بغزة
الأستاذة سمية سلمان أبو معمر
باحثة في تاريخ الدبلوماسية الإسلامية في الجامعة الإسلامية بغزة

ملخص الدراسة

اهتمت الدولة الإسلامية بالدبلوماسية الخارجية في العهد النبوي (1-11هـ/623-632م)، وتطرقت الدراسة إلى دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في إرسال الرسل والسفراء والوفود، وكتابة الرسائل وصياغتها بطريقة غاية في الدبلماسية وإرسالها بطريقة دبلوماسية للأطراف خارج الدولة، ثم ختمت الدراسة بخاتمة اشتملت على أهم النتائج، التي توصلت إليها الدراسة، ثم قائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية

الدبلوماسية-النبي صلى الله عليه وسلم- الرسائل- السفراء

Abstract

Islam was concerned with foreign diplomacy during the Prophet's era (1-11 AH / 623-632 AD), and it was discussed Study to the Prophet's diplomacy in sending messengers, ambassadors, and delegations, and writing and sending diplomatic messages to parties outside the country, then the study concluded with a conclusion that included the most important results، which the study reached, then a list of sources and references key words.

Diplomacy - the Prophet, peace and blessings be upon him - messages - ambassadors

المقدمة

نشأ العمل الدبلوماسي بنشأة الدولة الإسلامية، ومارسه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأسس قواعده منذ تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل الرسل، وكان أول تمثيل دبلوماسي للدولة الإسلامية في السنة السادسة للهجرة عندما أرسل صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى قريش في مكة؛ ليبلغهم هدف الرسول، ومن معه من الصحابة من الزيارة، ولما رفضت قريش

السماح للرسول من دخول مكة لأداء العمرة، أرسلوا رسلهم ليخبروا الرسول ويفاوضوه على الرجوع حتى تم الاتفاق على رجوع الرسول في عامه هذا، ويعود في العام القابل لأداء العمرة، وتوقف الحرب بينهم عشرة أعوام .

وبعد هذه المعاهدة التي توقفت على أثرها الحرب بين المسلمين وقريش العدو الأول للدولة المسلمة، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رسله إلى أمراء العرب وملوك الدول المجاورة، رسلا من أصحابه، وكتب معهم كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية الدراسة من خلال النقاط التالية:

- تُعَد هذه الدراسة كونها واحدة من الدراسات القليلة المهتمة بالحديث عن الدبلوماسية الإسلامية الخارجية في العهد النبوي.

-التعرف على صور السياسة الخارجية التي اتبعها الرسول صلى الله عليه وسلم مع المجتمعات الأخرى.

- قياس مستوى أداء الدولة الإسلامية في مجال الدبلوماسية الإسلامية الخارجية خلال فترة الدراسة إظهار قدرة النبي صلى الله عليه وسلم في اختيار السفراء من حيث الصفات الجسمية، والقدرات والمهارات بما يتناسب مع المهمة المنوطة بكل سفير.

منهج البحث:

اتبعت الباحثة منهج البحث التاريخي.

تقسيمات الدراسة :

قسمت الدراسة إلى مقدمة وست عناوين وخاتمة ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

أولاً- دبلوماسية الرسول صلى الله عليه وسلم في إرسال الرسل والسفراء والوفود

ثانياً-حقوق السفير في الإسلام.

ثالثاً- صفات سفراء النبي صلى الله عليه وسلم.

رابعاً-واجبات الرسل والسفراء.

خامسا: إرسال الرسائل الدبلوماسية للأطراف خارج الدولة .

سادسا: أهم الرسائل الدبلوماسية النبوية.

الدبلوماسية الإسلامية الخارجية في العهد النبوي

أولا: دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في إرسال الرسل والسفراء والوفود

* تعريف الرسول لغة: هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه، وهو اسم من أرسلت، وكذلك يطلق على الرسالة، وأرسل الشيء: بعثه[1]، كما في قوله عز وجل: (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)[2].

أما الرسول في الاصطلاح: له معان عد ففي الدين: إنسان حر ذكر يوحى إليه بشرع ويؤمر بتبليغه[3]. أما السفير في اللغة: من سفر أو أسفر بين القوم إذا أصلح، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي كشفت ما في قلب هذا وقلب هذا لأصلح بينهم، وسفرت المرأة نقابها تسفره سفورا، فهي سافرة[4].

والسفير في الاصطلاح: هو الذي يمشي بين القوم في الصلح أو بين رجلين، وقيل: الرسول المصلح بين القوم والعرب لم تفرق بين الرسول والسفير في علاقاتهما الدبلوماسية مع القبائل والدول الأخرى[5].

نشأ العمل الدبلوماسي بنشأة الدولة الإسلامية، ومارسه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وأسس قواعده منذ تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، فكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يرسل الرسل، وكان أول تمثيل دبلوماسي للدولة الإسلامية في السنة السادسة للهجرة عندما أرسل (صلى الله عليه وسلم) عثمان بن عفان إلى قريش في مكة؛ ليبلغهم هدف الرسول، ومن معه من الصحابة من الزيارة، ولما رفضت قريش السماح للرسول من دخول مكة لأداء العمرة، أرسلوا رسلهم ليخبروا الرسول ويفاوضوه على الرجوع حتى تم الاتفاق على رجوع الرسول في

عامه هذا، ويعود في العام القابل لأداء العمرة، وتوقف الحرب بينهم عشرة أعوام [6].

وبعد هذه المعاهدة التي توقفت على أثرها الحرب بين المسلمين وقريش العدو الأول للدولة المسلمة، أرسل الرسول(صلى الله عليه وسلم) رسله إلى أمراء العرب وملوك الدول المجاورة، رسلا من أصحابه، وكتب معهم كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام [7].

ثانياً: حقوق السفير في الإسلام:

1. الحصانة الشخصية:

أقر الإسلام الحصانة الشخصية، والتزم بالمحافظة على المستأمن حتى يعود إلى مأمنه ولو كان طلبه الأمان لغرض شخصي أو لمصلحة فردية، يقول الله تعالى: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ)[8].

قال القرطبي: وظاهر الآية فيمن يريد سماع القرآن، والنظر في الإسلام فإما الإجارة لغير ذلك فإنما هي لمصلحة المسلمين، والنظر فيما يعود عليهم بالمنفعة، وإذا كان الأمان لمصلحته؛ فالإسلام ألزم بالمحافظة على المستأمن، وعدم التعرض له بسوء[9].

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في حسن معاملته مع الرسل المبعوثين إليه رغم ما تكلموا به من مخالفة عقيدة المسلمين، وبذلك يطبق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لمبدأ حصانة الرسل والمبعوثين وعندما يدخل الرسول حدود دولة الإسلام، وعلم أنهم جاءوا لمهمة رسمية فهم في أمان إلى أن ينهوا مهمتهم [10].

وقال ابن قدامة: فإن دخل بغير أمان سئل، فإن قال جئت رسولا فالقول قوله؛ لأنه يتعذر إقامة البينة على ذلك [11].

ولم تكن الحصانة في الإسلام قاصرة على الرسول فقط، بل شملت زوجته وأولاده وماله، قال الشيباني:" فإذا استأمن الحربي إلى أهل الإسلام فأمنوه فخرج معه بامرأة وأطفال صغار، فقال: هذه امرأتي وهؤلاء ولدي، ولم يكن ذكرهم فالأمان يشملهم استحسانا [12].

واعتبر الإسلام الاعتداء على الرسل والمستأمنين جرما يوجب العقوبة ، وأمرا لا يسكت عليه، بل لابد من اتخاذ عقوبة رادعة، تحفظ هيبة الدولة، وكذلك القوانين والمبادئ العامة التي تحفظ أمن الرسل والسفراء، ومما يدل على ذلك: عندما بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) عثمان بن عفان إلى قريش في عام الحديبية؛ ليبلغهم أن النبي(صلى الله عليه وسلم) لم يأت لقتال إنما جاء ليعتمر ثم يعود، احتبسته قريش، وجاء الخبر أن قريش قد قتلت عثمان بن عفان فغضب عليه الصلاة والسلام، ودعا الصحابة إلى المبايعة على القتال وعدم الفرار، بعد أن قال: لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها [13].

ويمكن تحليل ما سبق أن قتل الرسول دفع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى إعلان الحرب، ومقاتلة كفار قريش، وذلك استوجب من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يعلن حرباً على من اعتدى على أمن رسوله، وما له من حصانة وحماية.

وقد منحت الشريعة الإسلامية الرسل الأمان[14] فأمنتهم على أنفسهم وأموالهم ما داموا مستقرين تحت حكم الإسلام [15].

ومنعت الشريعة دخولهم إلى دار الإسلام بغير أمان، خشية أن يكون دخوله عينا على المسلمين [16].

وقد أعطي الأمان لمن أراد دخول دار الإسلام، وهو كافر ليس بينه وبين المسلمين سلام، وإن كان من الأعداء لحاجة له كتبليغ رسالة أو تجارة أو عمل أو غير ذلك [17].

واهتمت السنة النبوية بمبدأ الأمان اهتماما خاصا، ووضعت ضوابط وأحكاما تشريعية وسياسية في التعامل به يخضع لها جميع الأفراد والمجتمع؛ حماية

ورعاية لحقوق المؤمنين والمستأمنين، ومنها: منح مبدأ الأمان لكل فرد مسلم بالغ عاقل مختار، ذكرا كان أو أنثى، حرا أو عبدا، فعن أم هانئ قالت: " ذهبت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عام الفتح...، فقلت يا رسول الله زعم ابن أميّ علي أنه قاتل رجلا قد أجرته فلان بن هُبيرة، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، قالت أم هانئ، وذلك ضُحَى" [18].

الأمر الذي يعني جواز إجارة المشرك، واحترام أم هانئ، واعطائها حق إعطاء اللجوء السياسي لمن يلجأ إليها، ويتضح في ذلك دبلوماسيته (صلى الله عليه وسلم) الذي اعتبر تصرفها تصرفا صحيحا.

وكان منح مبدأ الأمان قد فتح الطريق لإسلام من رفضوا دعوة الإسلام سابقا وكذبوها، وناصبوها العداء كأبي سفيان، وصفوان بن أمية، وأهل مكة، فعن أبي هريرة قال: قال النبي (صلى الله عليه وسلم): "... من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ..." [19].

ويتبين مما سبق دبلوماسية النبي(صلى الله عليه وسلم) في منحه أمانا عاما لأهل قريش، واستثمار النبي الكريم التركيبة الشخصية لأبي سفيان، فقرر الاستفادة منها في تجنب معركة، لابد أن دماءً كثيرة ستُراق، فلم لا يكسب المطلوب بأقل الخسائر؟ وكان ما كان من أمر أبي سفيان. وخرج المسلمون بنصر عظيم دون خسائر تُذكر، وهكذا هم القادة العظام في المواقف العصيبة.

وللأمان ركنان أساسيان تمثل الركن الأول: المؤمن: وهو الذي يتولى عقد الأمان، وهو الإمام أو نائبه في الأمن العام، لأن عقد الأمان من العقود التي تحتاج نظر واجتهاد، ويترتب عليه وجود مصالح مفاسد، وهذا كله لا يمكن أن يتوافر إلا في الإمام أو نائبه.

ولا خلاف بين الفقهاء في أنه يجوز لكل فرد من أفراد الرعية عقد الأمان الخاص، ولو لم يأذن له الإمام، إذا توافرت فيه الشروط [20].

أما الركن الثاني: المُؤَمَّن وهو المستأمن: وهو في الغالب الإنسان الكافر الذي يدخل الديار الإسلامية على غير نية الإقامة المستمرة بها؛ بل إقامته فيها محددة بمدة معلومة يدخل فيها بعقد يسمى (عقد الأمان) وغالباً ما يكون قصده التجارة، أو العمل في الديار الإسلامية، ولا بد أن إقامته مؤقتة، لأنها إذا كانت مؤبدة وأخذت صفة الدوام، يتحول إلى ذمي، ويصير من رعايا الدولة الإسلامية [21].

2. الحصانة المالية

منح الإسلام السفراء بعض الامتيازات المالية على أساس المعاملة بالمثل؛ فإذا أخذوا من سفراء المسلمين شيئا أخذ من سفرائهم، وإلا فلا، قال أبو يوسف: " ولا يؤخذ من الرسول الذي بعث به ملك الروم، ولا من الذي أعطى أمانا عشر، الا ما كان معهما من متاع التجار، فأما غير ذلك من متاعهم فلا عشر عليهم فيه [22].

وقال الشافعي: ينظر في حاله، فإن كان لرسالة أو نقل ميرة أذن له بغير شيء [23]. وليس للسفراء حق بأن يخرجوا معهم بأسلحة أو بضائع يضر خروجها بالمسلمين، أما ما لا ضرر بخروجه على المسلمين ولا يؤثر على الحركة التجارية في أسواق المسلمين فلا بأس بأن يخرجوا به معهم [24].

يتضح مما سبق دبلوماسية الرسول (صلى الله عليه وسلم) في تحديد الحصانة المالية على أساس المعاملة بالمثل فإن أحسنوا لسفير المسلمين، ومتعوه بالحصانة المالية كان ذلك ميسرا لسفيرهم.

3. حرية التنقل

حظر الإسلام على غير المسلمين بعض المناطق، ومنعهم من الإقامة فيها، وحظر مجرد الدخول

في مناطق أخرى أو المرور فيها وذلك لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا)(25).

قال القرطبي: هذا اللفظ يطلق على جميع الحرم، وهو مذهب عطاء، فيحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع، فإذا جاءنا رسول منهم خرج الإمام إلى الحل ليسمع ما يقول(26).

وقال الماوردي: ليس لجميع من خالف دين الإسلام من ذمي أو معاهد أن يدخل الحرم لا مقيما فيه ولا مارا به، وهذا مذهب الشافعي، وكثير من العلماء(27).

وقال ابن قدامة: وإن كان رسولا إلى إمام بالحرم خرج إليه من يسمع رسالته، ويبلغها إياه، فإن قال: لابد لي من لقاء الإمام وكانت المصلحة في ذلك خرج إليه الامام، ولم يأذن له في الدخول (28).

وأما المناطق التي يحظر الإسلام على غير المسلمين السكن أو الإقامة فيها فهي، الجزيرة العربية، والأصل في حديث ابن عباس قال: "أوصى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند موته بثلاث، أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم" قال القرطبي: جزيرة العرب هي مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها، قال مالك: يخرج من هذه المواضع كل من كان على غير الإسلام، ولا يمنعون من التردد بها مسافرين، إلا أن الشافعي استثنى اليمن (29).

يتبين مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) بالسماح للسفير بحرية التنقل في كل مناطق الجزيرة العربية ما عدا مكة والمدينة لقدسية المكان وتحريمه على غير المسلمين، وهو ما يؤكد أن من حق الخليفة أن يحدد الأماكن التي يجب أن يسكن فيها المستأمن.

4. اعفاؤه من الضرائب:

وإذا أراد المبعوث الدبلوماسي الخروج من الدولة الإسلامية إلى بلده فإن أمتعته تعفى من كل ضريبة، ولا يتعرض له، ويسمح له بإخراج ما يشاء معه، إلا ما يؤدي لتقوية الأعداء على المسلمين كالسلاح، فإذا أراد الرسول أو الذي أعطى الأمان أن يرجع إلى دار الحرب، فإنهم لا يتركون أن يخرجوا معهم بسلاح، ولا كراع، ولا رقيق مما أسر من أهل الحرب، فإن اشتروا من ذلك شيئا يرد على الذي باعه منهم، ورد أولئك الثمن إليه، والعلة من ذلك: لا ينبغي للإمام أن يترك أحدا من أهل الحرب يدخل بأمان، أو رسولا من ملكهم يخرج بشيء من الرقيق والسلاح، أو بشيء مما يكون لهم قوة على المسلمين، فأما الثياب والمتاع، وما أشبهه فلا يمنعون منه (30).

يتضح مما سبق الحصانة الدبلوماسية الإسلامية للمبعوث الذي إذا أراد الخروج من الدولة الإسلامية؛ فإنه لا يفتش متاعه الخاص، ولا ثيابه، ويعفى من الضريبة، ويسمح له بإخراج ما يشاء معه، إلا ما يؤدي إلى تقوية الأعداء على المسلمين كالسلاح.

5. حرية العقيدة والعبادة:

لم يلزم النبي (صلى الله عليه وسلم) الرسل والسفراء باعتناق الدين الإسلامي، بل جعل لهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينية، بشرط عدم تعارضها مع نظام الدولة، وحرية العقيدة لا تمنع من أحقية الدولة بدعوة الرسل والسفراء إلى الإسلام مع ترك الحرية لهم بقبول الدعوة أو رفضها، ولنا في فعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة، فعن أبي رافع القبطي قال: "بعثتني قريش إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: فلما رأيت النبي وقع في قلبي الإسلام، فقلت يا رسول الله لا أرجع إليهم..." (31).

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي لم يجبر سفير قريش على الإسلام، وذلك دليل حرية العقيدة للسفراء.

6. حق التمتع بجميع الحقوق العائلية من الزواج وغيره، بشرط عدم مخالفته النظام العام

للدولة الإسلامية، فليس له أن يتزوج بمسلمة(32).

7. حق التمتع في مزاولة التجارة والصناعة والبيع والشراء: فله سائر المعاملات المالية، مع أهل دار الإسلام، فلا يمنع من التعامل معهم في البيع والشراء، بل هو أمر مباح ما دام هذا التعامل مطابقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، وغير مخالف لها (33).

وفي هذا يقول ابن رشد: "وأما مبايعة أهل الحرب ومتاجرتهم إذا قدموا بأمان فذلك جائز" (34).

ثالثاً: صفات سفراء النبي (صلى الله عليه وسلم):

كان للسفير صفات من الأفضل أن يتحلى بها، وهي صفات جسمية، وأخرى عقلية، واهتم الإسلام بتلك الصفات، وأدرك المسلمون مدى أثرها في إنجاح المهام، وبلوغ الغاية التي لأجلها أرسل الرسول، فحرص النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تتوفر في كل رسول من رسله الصفات المطلوبة من الجسامة والوسامة، وتمام العقل، وحدة الذكاء، وسرعة الفطنة؛ وذلك ليحظى بالمنزلة الرفيعة لدى المرسل إليه (35).

1. حسن الوجه والاسم:

كان (صلى الله عليه وسلم) يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه والاسم، وفي الحديث "إن أبردتم إلى بريدا فليكن حسن الوجه حسن الاسم (36).

وفي صلح الحديبية لما جاء سهيل بن عمرو موفدا من قبل قريش للتفاوض مع النبي (صلى الله عليه وسلم) استبشر وتفاءل بهذا الاسم وقال: لقد سهل الله لكم أمركم (37).

وكان رسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتحلون بالوسامة في الصورة، والجمال في الهيئة، والكمال في المقل، فهذا دحية بن خليفة الكلبي أرسله (صلى الله عليه وسلم) إلى قيصر، وكان رضي الله عنه يضرب به المثل في الجمال وحسن الهيئة (38) وكان جبريل عليه السلام ينزل أحيانا بصورته جاء ذلك في حديث أم سلمة رضي الله عنها (39).

2. الشجاعة في قول الحق:

كان دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه شجاعا لا تأخذه في الحق لومة لائم، يراقب الله فيما يفعل، ويدع من الأعمال، يشهد لذلك أنه لما جاء إلى قيصر حاملا رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر بالسجود لقيصر تعظيما وإكراما، لكنه امتنع رضي الله عنه وقال: ان هذا لا يسمح به ديننا إلا لله وحده(40).

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في اختيار رسله إلى الملوك، وذلك بمن يتحلون بجمال الخلقة والخلق، لما في ذلك من جذب الناس له، ولتأثيره على المرسل إليه، ويتبين حسن تربيته لأصحابه على الشجاعة وأنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم.

3. العلم والمعرفة بأهل البلاد:

رغب الرسول (صلى الله عليه وسلم) في سفرائه أن يكونوا على علم ومعرفة بأهل البلد وطبائعهم وعاداتهم، فقد أرسل عبد الله بن حذافة السهمي (41) إلى كسرى، وفي كتب السير ما يشير إلى أن عبد الله كان قبل أن يبعثه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهذه المهمة يكثر التردد على كسرى، وكان أيضا من المهاجرين إلى الحبشة (42).

الأمر الذي يعني دبلوماسية الرسول (صلى الله عليه وسلم) في اختياره؛ لكثرة أسفاره، وتردداه على كسرى، فلابد أن هذه الأسفار أكسبته خبرة وحنكة ودراية في الأمور، وطبائع الناس خارج الجزيرة العربية.

4. الذكاء وسرعة الفطنة:

أرسل (صلى الله عليه وسلم) حاطب بن أبي بلتعة (43) إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وكان من صفات حاطب رضي الله عنه أنه طويل الجسم جميل خفيف اللحية (44) وكان ذكيا سريع الفطنة جرت بينه وبين المقوقس مناظرة جعلت المقوقس يعجب به

ويشهد له بالحكمة حيث قال: أنت حكيم جاء من عند حكيم [45].

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في اختيار رسله، فكانوا على درجة عالية من الحنكة، والذكاء، وطلاقة اللسان، واللباقة، وحسن الحوار، وظهرت الشخصية الفذة التي استطاعت التأثير في النفس وكانت معبرا صادقا عن شخصية مرسله، حيث اتضح ذلك من رد المقوقس عليه بتصديقه نبوة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فكان رده حكيم جاء من عند حكيم.

5. معرفة لغة من أرسلوا إليهم:

من صفات سفراء النبي (صلى الله عليه وسلم) معرفة لغة من أرسلوا إليه، وإن كان ما يحملون من الرسائل مكتوبا باللغة العربية، إلا أنهم كانوا على علم بلغة القوم الذين أرسلوا إليهم، وأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج على أصحابه فقال لهم: إن الله بعثني رحمة وكافة، فأدوا عني يرحمكم الله، فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم لغة القوم الذين أرسل إليهم [46].

ويمكن تحليل ما سبق أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أراد من رسله أن يعلموا له كثيراً من الأمور، وأن مهمتهم لا تقتصر على مجرد حمل رسالة فقط؛ وإنما تطبيقاً لمقولة من تعلم لغة قوم أمن مكرهم، وهذا ما تقوم به معظم الدول المتقدمة من تمكين سفرائها من لغة الدول التي سيمكثوا فيها.

رابعاً: واجبات الرسل والسفراء:

1. عدم التدخل في شؤون الدولة المعتمد لديها

لقد حفظ المسلمون حقوق الدول الأخرى وشؤونها الداخلية، فلم يتدخل سفراء الدول الإسلامية في شؤون الدول الأخرى، وكانوا مثالا للوفاء بعهدهم[47] مستدلين بقول الله تعالى: (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا)[48].

2. احترام قوانين الدولة المبعوث لديها:

والتزم السفير المسلم بأحكام الشريعة الإسلامية، فلا يحل له الانفلات من حكمها والتزام غيرها، وخصوصا بما تحرمه، ويحلله غيرها من القوانين؛ كشرب الخمرة، وأكل لحم الخنزير، والسفير المسلم لا يلتزم أي قانون، ولا يلبي أي دعوة فيها انتهاك لحرمة الدين، وهو سفير الأمة التي تدعوا لهذا الدين، فإذا ما خالف فعله قوله فقد خان الأمانة التي أول بها، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[49] وقوله تعالى: (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ)[50].

يتضح مما سبق دبلوماسية الإسلام والنبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك لأن من يخالف فعله قوله يفقد ثقة الآخرين به، مما يجعله عرضة للانتقاص، وهذا يؤدي إلى تراجع دور السفير المسلم.

3. عدم التعرض لدين الدولة المبعوث إليها:

وجب على السفراء المبعوثين لدى الدولة المسلمة احترام دينها قولا وعملا، وعدم الاستهزاء والجرح والطعن، وعدم مخالفة أحكام الشريعة؛ لأنها النظام العام للدولة المسلمة، يقول أبو يوسف: " فلا ينبغي أن يبايع الرسول بشيء من الخمر والخنزير، ولا بالربا وما أشبه ذلك؛ لأن حكمه حكم الإسلام وأهله، ولا حل أن يباع في ديار الإسلام ما حرم الله [51].

وكذلك يلتزم السفير غير المسلم في دولة الإسلام، بعدم التعرض لدين الدولة المبعوث لديها بالسخرية والاستهزاء والطعن؛ لأن ذلك مخالف لقوله تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[52].

ولأن المسلم ليس بالسباب ولا بالفاحش البذيء قال(صلى الله عليه وسلم) "المسلم ليس بالسباب وباللعان ولا بالفاحش البذيء" [53].

يتبين مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحث على حسن الأخلاق، وانعدامها يؤدي إلى سوء العلاقات بين البلدين، وهذا خلاف المرجو من مهمة الرسول أو السفير، التي تتمثل في الحفاظ على العادات والتقاليد والمعايير الاجتماعية للدولة ما لم تتعارض مع الشريعة الإسلامية.

خامسا: إرسال الرسائل الدبلوماسية للأطراف خارج الدولة:

تعد رسائل النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الملوك ذات أهمية بارزة في التاريخ الإسلامي، كونها تمثل مرحلة من مراحل الدعوة، وأسلوبا من أساليب التعريف بالإسلام ونشره بين الأمم، فكتب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ملوك عصره يدعوهم إلى الإسلام[54].

وكانت دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الملوك والأمراء تحقيقا لقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)[55]، وقوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ)[56].

فكان صلح الحديبية [57] في السنة السادسة للهجرة[58] إيذانا لبداية المد الإسلامي فقد امتد إلى أطراف الجزيرة العربية، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك من الدعوة الإسلامية، ودولتها في المدينة، وبذلك حققت هذه الرسائل نتائج كثيرة، واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرسائل أن تنتهج نهجا دبلوماسيا سياسيا وعسكريا واضحا ومتميزا [59].

وحين عزم (صلى الله عليه وسلم) على إرسال رسله إلى الملوك والأمراء خرج إلى أصحابه فقال لهم: "إن الله بعثني رحمة وكافة، فأدوا عني يرحمكم الله، ولا تختلفوا علي كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم، قالوا: وكيف يارسول الله كان اختلافهم، قال: دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأما من بعثه مبعثا قريبا فأحب وسلم، وأما من بعد به فكره وأبى، فشكا ذلك عيسى منهم إلى الله ..."[60] .

* وصف الرسائل النبوية:

كتبت الرسائل النبوية بالمداد الأسود على الرق المصقول الناعم، وكتبت بالخط البدائي البسيط الذي كان معروفا لدى العرب آنذاك، وهو الخط المدني والكوفي، وكانت الكتابة واضحة ويمكن قراءتها، وتراوحت عدد الأسطر فيها ما بين ثمانية إلى خمسة عشر [61].

وبدأت جميعها بالبسملة، وانتهت بالخاتم، مكتوب فيها شخصية المرسل، وصفته محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) [62].

وخصصت هذه الرسائل كبار القوم وعظمائهم بالمراسلة؛ لأنهم أقدر الناس على التغيير والتأثير على الرعية مما يملكون من سلطة وقرار، وتحميلهم مسؤولية إرشاد شعوبهم [63] ، وتميزت الرسائل النبوية بالإيجاز الوافي في عرض الدعوة إلى الله، وهذا من بلاغته (صلى الله عليه وسلم) في الترغيب في اعتناق الإسلام، وتضمنت الرسائل التذكير ببعض آيات القرآن، وتبليغهم بالمصير في حالة التولي عن الإيمان بالله، ودعوة أهل الكتاب من خلال الآيات إلى الحوار الديني، وإلى الجامع المشترك بينهم جميعا، وهو توحيد الله وعبادته [64].

* وصف الخاتم النبوي:

كان النقش على الخاتم ثلاثة أسطر، جاء لفظ الله في أعلى الدائرة، وفي الوسط كلمة رسول، وفي الأسفل كلمة محمد، فكأنك تقرؤه من الأسفل إلى الأعلى[65].

وعن أنس بن مالك قال: "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال:" لقد صنعت خاتما فلا ينقش أحد على نقشه" [66].

وكانت الرسائل الدبلوماسية تكتب إلى الملوك على رقع جلدية حمراء مميزة [67]، وكانت تتميز

بقصرها وإيجازها، وفصاحة كلماتها، فلم يكن طولها يتجاوز الشبر، بينما بلغ عرضها أربعة أصابع [68].

أما الخط الذي نسخت به هذه الرسائل فكانت الحروف في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) تخلو من الأعجام النقاط [69].

وظهرت رسائل النبي (صلى الله عليه وسلم) بطابع دبلوماسي عندما اتخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) خاتما يختمها به، خاصة تلك التي كان يوجهها للملوك والزعماء، لما يتضمنه الختم من أساسيات التعامل الدبلوماسي بين الدول، حيث كان الملوك لا يقرؤون كتابا إلا مختوما[70] فاتخذ خاتما من فضة ونقش فيه محمد رسول الله، وختم به الكتب [71].

واهتم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بهذا الخاتم اهتماما كبيرا حينما أوكل عمله إلى أحد أصحابه واسمه معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي[72] الذي عرف بصاحب خاتم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)[73].

سادسا: أهم الرسائل الدبلوماسية النبوية:

أولاً: رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى النجاشي ملك الحبشة:

وهي أولى الرسائل التي أرسلها النبي (صلى الله عليه وسلم)، من المدينة المنورة إلى الملوك والأمراء، يدعوهم فيها إلى الإسلام، فقد أرسلها في آخر سنة (6هـ/627م) مع عمرو بن أمية الضمري فكان أول مبعوث بعد الحديبية [74] وعندما اشتد أذى المشركين اختار النبي (صلى الله عليه وسلم) أرض الحبشة [75] ونصح أصحابه بالهجرة إليها، وقال لهم عن ملكها: أنه ملك لا يظلم عنده أحد، فأحسن وفادتهم[76] وعندما مات النجاشي نعاه النبي (صلى الله عليه وسلم)[77].

وكان رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري [78] وكان سبب إيفاده هو أن النجاشي كان مملوكا من بني ضمرة، وكان عمرو من سادات تلك القبيلة[79].

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في إيفاد للنجاشي شخص من سادات قومه ويعرفه النجاشي، وذلك لتكون الفرصة متاحة أكثر للتأثير على النجاشي من رجل لا يعرفه.

ولما قدم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي حدد له موعداً لمقابلة الملك، فلما سمح له بالدخول عليه، وجد أن الداخلين عليه يمرون بباب صغير لا يتمكنون من الدخول منه إلا وهم منحنون؛ وذلك تعظيما للملك [80] أما عمرو فقد ولى ظهره القهقري[81].

ويتبين مما سبق أن رسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا تنحني هاماتهم إلا لله، وهي عقيدة تربى عليها الصحابة الكرام وبذلك لا يقبلون الدنية في دينهم.

وجاء في الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصم ملك الحبشة فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفر ونفرا معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر، وإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت، ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى" [82].

وهذه الرسالة توضح دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) من خلال استحباب الابتداء باسم الله في بداية خطابه، واتضحت في الكتاب الدعوة وصراحة الخطاب، ويتضح من الأسلوب الذي كتبت فيه الرسالة أنها كتبت لشخص قريب من الإسلام، ويطمع في إسلامه.

ورد النجاشي ملك الحبشة على رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ردا ايجابيا، حيث صدق بالرسول وبايعه وأرسل ابنه الى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) [83] كما قدم النجاشي الهدايا إلى عمرو بن أمية الضمري، واستقبله، وأخذ كتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوضعه على رسول الله [84].

ويذكر ابن سعد أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما أرسل رسوله نزل النجاشي عن سريره تواضعا ثم أسلم، وشهد شهادة الحق، وقال: لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته [85].

وقد نصت رسالة النجاشي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

"إلى محمد رسول الله، من النجاشي الأصم بن أبجر، سلام عليك يا نبي ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هداني إلى الإسلام، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله فما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد ما ذكرت ثفروقا [86]، إنه لكما قلت، وقد عرفنا ما بعثت إليك بابني وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقول حق والسلام عليك ورحمة الله وبركاته" [87].

يتضح مما سبق احتواء رسالة النجاشي على عبارات خاصة بالمسلمين، وتلك دلاله على تأثر النجاشي بالمسلمين المتواجدين عنده، ودخوله في الإسلام، وتأثره به، والاعتراف بألوهية الله وحده لا شريك له.

وقد توفي النجاشي سنة تسعة للهجرة بالحبشة[88]، وأخبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بموته يومها، فخرج بالناس إلى المصلى فصلى عليه، والناس خلفه صفوفا، وكبر عليه أربعا[89].

الأمر الذي يعني ثبوت دخول النجاشي في الإسلام؛ لذلك أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الصحابة بالصلاة عليه كما يصلى على أي مسلم مات على إسلامه، وكانت الصلاة عليه صلاة الغائب [90].

ثانياً: رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى هرقل قيصر الروم

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر، وله الجنة، فقال رجل من القوم: وإن لم يقبل؟ قال: وإن لم يقبل [91].

وأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) دحية بن خليفة الكلبي أن يحمل الرسالة إلى هرقل، فذهب دحية ولقي هرقل في بيت المقدس وسلمه الرسالة ودعاه فيها إلى الإسلام [92].

وجاء فيها "من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فاني أدعوك بدعية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين، (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[93].

وقد ذكر النص في مصادر أخرى بالآتي "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن إثم الأكارين عليك [94].

وتحدث القلقشندي بأن كتابه (صلى الله عليه وسلم) إلى هرقل جاء فيه" من محمد رسول الله إلى صاحب الروم: إني أدعوك إلى الإسلام فإن أسلمت فلك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، وإن لم تدخل في الإسلام، فأعط الجزية [95] فإن الله تعالى يقول: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ)[96].

يتبين مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث استخدم كلمة رسول الله وليس نبي الله، وذلك من أجل أن يفهم هرقل أن محمدا رسول الله يوحى إليه من أجل التبليغ للناس كافة، فهو لم يكن نبيا لقومه خاصة كما الأنبياء الآخرين من قبله، وكما يتبين ختم الرسالة بآية قرآنية؛ وذلك لأن هرقل كان على دين النصارى؛ ولأن عقلاء النصارى كانوا يستطيعون التمييز بين كلام الله وكلام البشر بخبرتهم، ومعرفتهم بالإنجيل، الأمر الذي يعني قوة الرسالة في التأثير النفسي على هرقل ومن عنده، والرسالة فيها الحسم والوضوح في طرح أكثر من قضية بشكل مباشر وصريح، ولم تكن لهجتها عنيفة، بل فيها من الرقة واللطف مع قوة الموقف، وبذلك تتجلى الدبلوماسية الرائعة للنبي (صلى الله عليه وسلم) في مخاطبة من يختلفون معه في دينه، وحرصه الشديد على دينهم الإسلام حتى ينالوا الجنة.

وكان رد هرقل على رسالة النبي الترحيب، فيذكر أن هرقل قبّل كتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وجعله بين فخذيه وخاصرته، وكتب إلى رجل برومية كان يقرأ الكتب يخبره شأنه، فكتب إليه صاحب رومية، أنه النبي الذي كنا ننتظره لاشك فيه فاتبعه وصدقه، فجمع هرقل بطارقة الروم في الدسكرة (97)، وغلقت أبوابها ثم اطلع عليهم من عليه، وخافهم على نفسه، وقال لهم: قد أتاني كتاب هذا الرجل يدعوني إلى دينه، وإنه والله لنبي الذي نجده في كتابنا، فهلم فلنتبعه ونصدقه، فتسلم لنا دنيانا وأخرتنا (98) فنخروا نخرة رجل واحد ثم ابتدروا الأبواب ليخرجوا، فقال: ردوهم علي، وخافهم على نفسه وقال لهم: إنما قلت لكم ما قلت لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، وقد رأيت منكم ما سرني فسجدوا له، وأمر بالأبواب ففتحت لهم وانطلقوا، وقال هرقل لدحية: إني لأعلم أن صاحبكم مرسل، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته (99). وجاء رد هرقل على الرسالة النبوية كالآتي: "إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله نجدك عندنا في الإنجيل، وبشرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت إني عندك فأخدمك، وأغسل قدميك، فلما وصل كتابه إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: يبقى ملكهم ما بقي كتابي عندهم (100).

وأخبر دحية رسول الله صلى الله عليه وسلم) أن قيصر آمن به، وأبت بطارقته أن تؤمن، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ثبت وثبت ملكه(101).

الأمر الذي يعني اعتراف قيصر بعلو مكانة النبي (صلى الله عليه وسلم)، والاعتراف برسول الله الذي بشرهم به عيسى عليه السلام، رغم ذلك إلا أنه فضل ملكه على اتباع محمد، وبذلك تمرد لأجل مصالحه الشخصية.

ثالثاً: رسالة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى كسرى(102) ملك الفرس:

أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) عبد الله بن حذافة السهمي(103) إلى كِسرى، وبعث معه كتاباً مختوماً، وكان نص الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، وإني أدعوك بدعاية الله، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن عليك إثم المجوس (104).

يتبين مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم)، بتذكير الفرس بأن الآخرين لهم انتماءات مشرفة، بل ويبعث منهم رسلا، وأنبياء يعلون عليهم، وجاءت عبارة لأنذر من كان حياً، فالإنسان الحي سيموت يوما ما، وفيها تذكير لكسرى بأنه سيموت كما مات آباؤه وأجداده، وإنه حين يموت لن ينفعه شيء، ثم يبين لكسرى أنه ليس مبعوثاً للعرب وحدهم، ولا لأي أمة أخرى بعينها، بل هو مبعوث للناس جميعاً.

ولقد رد كسرى ملك الفرس على رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) برد دل على حقده، وكراهيته

للعرب والمسلمين، وذلك عندما مزق رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) بغضب، وغطرسة واستكبار، ويذكر أن كسرى لما قرأ الكتاب غضب ومزقه، وقال: يكتب إلي هذا وهو عبدي، فقال (صلى الله عليه وسلم) حين بلغه ذلك: مزق ملكه(105).

رابعا: رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المقوقس(106):

أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) حاطب بن أبي بلتعة حاملا رسالة إلى المقوقس يدعوه إلى الإسلام، وقد رحب المقوقس بالرسالة ومرسلها وحاملها، وقدم الهدايا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)(107) ويقال إن هرقلاً لما بلغه شأن هذه الهدية اتهمه بالميل للإسلام فعزله عن رئاسة القبط(108).

وجاء في الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك إثم القبط(109).

قال تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون"(110).

يتبين مما سبق حكمة الرسول ودبلوماسيته في صياغة الرسالة، حيث كان سمحا فيها، يدعو ولا يهدد، يخاطب الملوك والرؤساء بألقابهم، ويعترف بمكانتهم، ويقرر أن سلطانهم باق لهم في ظل الإسلام، وأن مهمته (صلى الله عليه وسلم) تقضي البلاغ للعالمين بالدعوة للإسلام.

وجاء رد المقوقس على رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) ايجابياً، حيث رحب بالرسالة، وصدق بالإسلام وبالرسول (صلى الله عليه وسلم)، كما قدم الهدايا والجواري للرسول (صلى الله عليه وسلم)، ونصت رسالة المقوقس إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بما يأتي:

"باسمك اللهم، من المقوقس إلى محمد، فقد بلغني كتابك وفهمته، وأنت تقول: إن الله أرسلك رسولا وفضلك تفضيلا، وأنزل عليك قرآنا مبينا فكشفنا عن خبرك فوجدناك أقرب داع إلى الله، وأصدق من تكلم بالصدق، ولولا إني ملكت ملكا عظيما لكنت أول من آمن بك، لعلمي أنك خاتم النبيين وإمام المرسلين والسلام عليك مني إلى يوم الدين"(111).

يتضح مما سبق اعتراف المقوقس بأن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) المبعوث من الله إلى الناس جميعا؛ ليبلغهم دعوة الحق، الأمر الذي يعني إقراراً من الدول المحيطة والمحاذية للدولة الإسلامية بشرعية هذه الدولة، وصلاحية مؤسساتها، وصدق ما تدعوا إليه.

وهذا يؤكد أن المسلمين لم يرغبوا باحتلال البلدان، واستلام موقع الحكم؛ إنما الهدف هو إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

خامساً: رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الحارث بن أبي شمر(112) أمير دمشق:

أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني من أمراء غسان في أطراف الشام ومعه رسالة جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، إني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك"(113).

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في تحقيق هذه الرسالة حملة إعلامية للإسلام، وأنها رسالة شاملة، وليست خاصة بجزيرة العرب وحدها، وهي تعبر عن عالمية الدعوة الإسلامية،

وتخييره البقاء على ملكه ان دخل الاسلام دليل على معرفة النبي لحب النفوس ان تبقى في الحكم وألا ينازعها أحد فيه.

وكان رد الحارث بن أبي شمر الغساني على رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) ردا سلبيا، فعند استلامه لرسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) رمى بها، ورفض الإسلام، وأعلن عن خروجه بجيش لمواجهة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وعندما دخل عليه شجاع ابن وهب على الحارث بن أبي شمر، وكان يضع التاج على رأسه، فدفع اليه بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقرأه ثم رمى به، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن، ثم قال: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره خبر الرسالة، وصادف قيصر بإيلياء وعنده دحية الكلبي وقد بعثه إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فلما قرأ قيصر كتب إليه ألا تسر إليه[114].

سادساً: رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين:

كتب النبي (صلى الله عليه وسلم) رسالة إلى المنذر بن ساوى أمير البحرين[115] مع العلاء بن الحضرمي يدعوه إلى الإسلام، فأسلم واستمر في عمله، ولم يصح خبر وفوده على النبي (صلى الله عليه وسلم)، ومات قبل ردة أهل البحرين، وكان ذلك سنة ست للهجرة[116].

وجاء في الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله إلى المنذربن ساوى، سلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فإن عليه الجزية"[117].

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في معاملة الأمراء حيث بدأ الرسالة بالبسملة، وبين له حقوق من يدخل في الإسلام، وخيره بين الإسلام أو دفع الجزية ان رفض.

وكان رد المنذر بن ساوى رداً إيجابياً، فلما أتاه العلاء بن الحضرمي يدعوه إلى الإسلام أو الجزية، أسلم المنذر وأسلم جميع العرب في البحرين [118].

وكتب رسالة جاء فيها:

"أما بعد يا رسول الله، فإني قد قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس، ويهود، فأحدث لي في ذلك أمرك"[119].

الأمر الذي يعني تأثر أمير البحرين بدعوة الإسلام، وتبشيره بقبول دعوة الإسلام عند أهل البحرين ودخولهم فيه.

سابعاً: رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى هوذه بن علي ملك اليمامة

أرسل النبي إلى هوذه بن علي بن تمامه[120] سليط بن عمرو بن عبد شمس[121] يدعوه للإسلام وجاء في الرسالة:

"من محمد رسول الله إلى هوذه بن علي، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فاسلم تسلم، واجعل لك ما تحت دينك"[122].

وكان رد هوذه بن علي ملك اليمامة على رسالة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رداً مراوغاً حيث أراد من خلاله مساومة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وقد كان نصرانياً[123].

فكتب إلى النبي:

"ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل إليّ بعض الأمر اتبعك، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): لو

سألني سباب (البلحه) من الأرض فما فعلت، باد وباد ما في يديه"[124].

يتضح مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في الحفاظ على مبادئه، وأنه لم يرضَ الدنية في دينه، ولم يقبل بمساومة هوذه، ويلاحظ هنا أن رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) اختلفت عن الرسائل الأخرى، فكان كلام النبي معه حاسما وواضحا، فقال له: "واعلم أن ديني سيظهر" فالنبي (صلى الله عليه وسلم) لديه دراية بطبيعة البشر التي تميل للمراوغة والطمع، ورسالة النبي مع هذا الصنف تعد أعلى درجات الدبلوماسية، ففيها الحسم والقطع والترهيب والترغيب.

ثامناً: رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الجلندي ملكي عمان:

كان جيفر وعبد النبي الجلندي [125] ملكي عمان عند ظهور الإسلام[126]، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعبد البني الجلندي ملكي عمان سنة ثمان للهجرة[127]، برسالة جاء فيها:

"من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد النبي الجلندي: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوكما بدعية الإسلام، أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، وأنكما إن أقررتما بالإسلام ولّيتُكما، وإن أبيتما أن تقرأ بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي في ملككما"[128].

يتبين مما سبق دبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) في معاملة الأمراء والملوك، بدعوتهم للإسلام وإظهار أنه أرسل رحمة للعالمين؛ لينذر الناس كافة، كذلك تخييرهم أن دخلوا في الإسلام أن يبقوا في ولاياتهم، وإن أبوا دخول الإسلام، فبشرهم أن ملكهم سيزول، وسينتصر الإسلام وسيحل خيل وجند الرسول مكانهما.

ولقد كان رد جيفر وعبد النبي الجلندي ملكي عمان على رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) ايجابيا، حيث استجابا للإسلام وصدقا بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، واستفسرا عن الإسلام والصدقات، وأجابهم عمرو على تساؤلاتهم، وصدقا بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وخليا بينه وبين الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم فلم أزل مقيما فيهم حتى بلغه وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) [129].

يلاحظ أن رسائل النبي (صلى الله عليه وسلم) بالنسبة للأمراء العرب تغير فيها الأسلوب وشدة الخطاب، فنجده استعمل أسلوب التهديد، وتحدث من مركز قوة، وأقر من أطاعه في منصبه وحكم ولايته، ومن عصاه بأنه سيحاربه، وينزع منه سلطانه بالقوة، ويمكن تحليل ذلك بأن الروم والفرس في معزل عن المدينة وبينهم مساحات شاسعة يصعب الوصول إليهم، وليس من اليسير حربهم في مثل هذه الظروف، فلو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) شدد عليهم الخطاب، واستفزهم لربما أساءوا إلى رسله وأهانوهم إن لم يقتلوهم، وكذلك بين حدود المدينة وحدود الروم والفرس إمارات عربية خاضعة للروم أو الفرس، ومن السهل عليهم غزو المدينة لو أمروهم أسيادهم، فبذلك تجلت حكمة ودبلوماسية النبي (صلى الله عليه وسلم) فكيف له أن يهددهم بالحرب، ونزع السلطة منهم وهذه ظروفهم؟ وليس من الحكمة إخضاع العدو البعيد قبل العدو القريب، فضلا عن الغرور والعظمة التي كان يشعر بها ملوك الروم والفرس، فهم ما زالوا يتنافسوا على سيادة العالم.

خاتمة

توصلت الدراسة إلى العديد من النتائج، أهمها:

- يعد نظام التمثيل الدبلوماسي الإسلامي، والعمل بـه مـن أقـدم المبـادئ السياسـية التـي عرفتهـا الأمم.
- إن اختيار السفير في الدولة الإسلامية في العهد النبوي يتم وفق معايير محددة تضمن سمات ومهارات.
- أظهـرت الدراسـة أن للسـفير حقوقـاً، وعليـه واجبات.
- يتمتـع الدبلوماسـيون والمبعوثـون والسـفراء بالحصانة والحماية، وتصان شخصيتهم من أي أذى.
- حـرم الإسـلام قتـل الرسـل الوافـدين مـن غيـر المسلمين.
- يتوجـب إعطـاء السـفراء الرعايـة الخاصـة وإكرامهم والإحسان إليهم.
- صـياغة كتـب الرسـول (صلى الله عليـه وسـلم) بمنتهى الحكمة والبراعة، فالرسول فيها يدعو ولا يهدد، يخاطب الملوك والرؤساء بألقابهم، ويعترف بمكانتهم، ويقرر أن سلطانهم في ظل الإسلام بـاق لهـم، وان مهمتـه تقضـي الـبلاغ للعالمين.
- أحدث الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.
- حققت الرسـائل حملـة إعلاميـة للإسـلام، وأنـه رسـالة شـاملة، وليسـت خاصـة بجزيـرة العرب وحـدها، وهـي تعبيـر عـن عالميـة الـدعوة الإسلامية.
- توثيـق الكتـب والمعاهـدات فـي كتـاب مختـوم استخدمه النبي (صلى الله عليه وسلم)

الهوامش :

(1) ابن منظور، لسان العرب، (ج11/283-285).

(2) [مريم: 83].

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج2/92)

(4) ابن منظور، لسان العرب، (ج4/370).

(5) المصدر نفسه، (ص370).

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، (ج1/308-319)؛ ابن سعد، الطبقـات، (ج2/97)؛ ابـن الأثيـر، الكامـل فـي التـاريخ، (ج2/138).

(7) المصدر نفسه، (ج3/607).

(8) [التوبة: 6].

(9) تفسير القرطبي، (ج8/74)؛ أحمد، مشكاة المصابيح (ج2/ 347).

(10) الشيباني، شرح السير الكبير، (ج1/296).

(11) المغني، (ج10/605).

(12) شرح السير الكبير، (ج1/344).

(13) ابن هشام، السيرة النبوية، (ج3/310-315).

(14) الأمـان فـي اللغـة مـن أمـن، والأمـن: ضـد الخـوف، والأمان: إعطاء الأمنة، واستأمن إليه: دخل في أمانه، وقد أمنـه وآمنـه، والأمـن: المستجير ليـأمن علـى نفسـه، ابـن منظور، لسـان العرب، (ج13/22-23)، وعرفه السرخسي بقوله: هو رفع استباحة دم الحربي أو ماله مع استقراره تحت حكم الإسلام، السير الكبير، (ج1/283).

(15) السرخسي، مواهب الجليل، (ج3/36).

(16) ابن قدامة، المغني، (ج8/523).

(17) الشربيني، مغني المحتاج، (ج4/234).

(18) البخاري، صحيح، (ج3/1157).

(19) مسلم، صحيح، (ج3/1405).

(20) السرخسي، شرح السير الكبير، (ج252/1).

(21) ابن قدامة، المغني، (ج396/8).

(22) الخراج، (ص224).

(23) ابن قدامة، المغني، (ج596/10).

(24) أبي يوسف، الخراج، ص204).

(25) [التوبة: 28].

(26) تفسير، (ج104/8).

(27) الأحكام السلطانية، (ص167).

(28) المغني، (ج616/10).

(29) تفسير، (ج104/8).

(30) أبو يوسف، الخراج، (ص188).

(31) ابن حنبل، المسند، (ج230/28).

(32) الكاساني، بدائع الصنائع، (ج106/7).

(33) السرخسي، شرح السير الكبير، (ج1525/4).

(34) المقدمات الممهدات، (ج289/2).

(35) البيهقي، دلائل النبوة، (395/4).

(36) السيوطي، الجامع الصغير، (ج34/1).

(37) ابن القيم، زاد الميعاد، (ج129/2).

(38) ابن سعد، الطبقات، (ج249/4).

(39) مسلم، صحيح، حديث 1676.

(40) الطبري، تاريخ، (ج649/2).

(41) أبو حذافة السهمي: عبد الله بن حذافة بن قيس، ابن عدي، أبو حذافة السهمي، أحد السابقين ونفذه النبي ρ رسولا إلى كسرى، الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج11/2).

(42) السهيل، الروض الأنف، (ج590/26).

(43) حاطب بن أبي بلتعة: وهو ابن عمرو بن عمير بن سلمة، يكنى أبا محمد، حليف بني أسد بن عبد العزى، شهد بدرا، أبي نعيم، معرفة الصحابة، (ج695/2).

(44) ابن سعد، الطبقات، (ج114/3).

(45) البيهقي، دلائل النبوة، (395/4).

(46) ابن هشام، السيرة، (ج78/4)؛ ابن سعد، الطبقات، (ج258/1).

(47) ابن القيم، أحكام أهل الذمة، (ج674/2).

(48) [الإسراء: 34].

(49) [الأنفال: 27].

(50) [الصف: 3].

(51) الخراج، (ص367).

(52) [العنكبوت: 46].

(53) الترمذي، سنن، (ج393/3).

(54) مسلم، صحيح، (ج1397/3).

(55) [الأعراف: 158].

(56) [سبأ: 28].

(57) الحديبية بين موقع الحديبية ومكة المكرمة مرحلة 12كم وهي غرب مكة المكرمة على طريق جدة فيها بئر، ومسجد الشجرة، الحموي، معجم البلدان، (ج229/2).

(58) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج135/2-139).

(59) ابن القيم، زاد الميعاد (688/3).

(60) ابن هشام، السيرة النبوية، (ج188/4).

(61) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج515/5).

(62) انظر نص رسالة النبي إلى النجاشي، الطبري، تاريخ، (ج652/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج346/6)؛ ابن القيم، زاد المعاد، (ج71/1).

(63) انظر نص رسالة النبي إلى هرقل قيصر الروم، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج212/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج362/6).

(64) انظر رسالة النبي إلى هرقل، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج694/2)، والتي ختمت بآية قرآنية" قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر..."، [التوبة: 29].

(65) ابن القيم، زاد المعاد، (ج116/1).

(66) البلاذري، فتوح البلدان، (ص659).

(67) البلاذري، فتوح البلدان، (ج72/1)

(68) ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، (ج307/5).

(69) البخاري، صحيح، (ج37/36/5)؛ ابن حجر، الإصابة، (ج76/5).

(70) ابن سعد، الطبقات، (ج258/1)؛ ابن خلدون، المقدمة، (ج220/1).

(71) البخاري، صحيح، (ج37/5).

(72) معيقب بن ابي فاطمة الدوسي: من المهاجرين ومن حلفاء بني عبد شمس، وكان أمينا على خاتم النبي ρ، الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج491/2).

(73) المقريزي، امتاع الاسماع، (ج338/3).

(74) ابن هشام، السيرة النبوية، (ج6/5)؛ ابن القيم، زاد المعاد، (ج116/1).

(75) الحبشة: هي أثيوبيا اليوم مع ارتيرية، والحبش تعني سود البشرة، أبو خليل، الأطلس النبوي، (ص134).

(76) ابن هشام، الروض الآنف في تفسير السيرة النبوية، (ج116/2).

(77) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج194/4).

(78) وهو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله الكناني الضمري، من أهل الحجاز، شهد مع المشركين بدراً وأحدا، أرسله النبي إلى النجاشي، الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج179/3).

(79) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج4 /180).

(80) ابن هشام، السيرة النبوية، (ج1/ 344).

(81) القهقري: رجع على قفاه من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه، رضا أحمد، معجم متن اللغة، (ج669/4).

(82) الطبري، تاريخ، (ج652/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج346/6)؛ ابن القيم، زاد المعاد، (ج71/1).

(83) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج213/2).

(84) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج45/6).

(85) الطبقات، (ج15/1).

(86) الثفروق: هو العلاقة التى تتعلق بها نواه التمرة إلى قمعها، أبو فهر، أباطيل وأسمار، (ص238).

(87) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج635/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج45/6).

(88) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج122/3).

(89) ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج336/2).

(90) البخاري، صحيح، كتاب الجنائز 23، (305).

(91) ابن القيم، زاد المعاد، (ج87/1).

(92) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج632/6)؛ ابن قيم، زاد الميعاد، (ج71/1).

(93) [آل عمران: 64].

(94) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج649/2)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج212/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج362/6).

(95) صبح الأعشى، (ج363/6).

(96) [التوبة: 29].

(97) الدسكرة: بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهي أو بناء كالقصر حوله بيوت. الفيرز آبادي، القاموس (ج29/2).

(98) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج211/2)؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج650/2)؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج330/2-333).

(99) ابن الجوزي، الوفا بأحوال المصطفى، (ج726/2).

(100) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (ج78/2)؛ الحلبي، السيرة الحلبية، (ج68/3).

(101) البيهقي، دلائل النبوة، (ج85/1).

(102) كسرى اسم ملك الفرس معرب، وهو بالفارسية: خسرو أي واسع الملك عربته العرب، فقالت: كِسرى وكَسرى، ابن منظور، لسان العرب، (ج142/5).

(103) يكنى عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي القرشي، أسلم مع بدء الدعوة، هاجر إلى الحبشة مع الفوج الثاني، شهد غزوة بدر، فأغري وعذب ليدخل في النصرانية فأبى، اختاره النبي (صلى الله عليه وسلم) ليحمل الرسالة إلى كسرى؛ لأنه كان يتردد في أسفاره على بلاد فارس، ابن حجر العسقلاني، الاصابة في تمييز الصحابة، (ج95/6).

(104) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج654/2)؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، (ج282/3)؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، (ج77/2).

(105) ابن سعد، الطبقات، (ج16/1)؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج654/2)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج269/4)؛ ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، (ج73/1).

(106) المقوقس عظيم القبط اسمه جريج بن مينا، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، (ج295/6)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج272/4).

(107) الواقدي، تاريخ، (ج37/2)؛ ابن هشام، السيرة النبوية، (ج352/2)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (ج272/4)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج369/6).

(108) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج330/2).

(109) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج378/6)؛ ابن قيم، زاد المعاد، (ج72/1).

(110) [آل عمران: 64].

(111) القلقشندي، صبح الأعشى، (ج456/6).

(112) الحارث بن أبي شمر الغساني كانت إقامته بغوطة دمشق، وقد أدرك الإسلام فأرسل إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) كتابا مع شجاع بن وهب الاسدي، ومات الحارث في عام الفتح، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج645/2).

(113) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج268/4)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج210/2)؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج330/2).

(114) ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج343/2-344)؛ الحلبي، السيرة الحلبية، (ج287/3)؛ الطبري، تاريخ، (ج652/2-653)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج213/2).

(115) هو المنذر بن ساوى بن الأخنس العبدي من عبد القيس أمير في الجاهلية والإسلام، وكان أمير البحرين، انظر: أبي نعيم، معرفة الصحابة، (ج2518/5).

(116) ابن سعد، الطبقات، (ج19/1)؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج215/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج362/6).

(117) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (ج645/2)؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج33/2).

(118) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج215/2).

(119) ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج339/2).

(120) هوذه بن علي بن تمامه بن عمرو الحنفي من بني حنيفة من بكر بن وائل صاحب اليمامة بنجد وشاعر بني حنيفة وخطيبها قبل الإسلام في العهد النبوي، وهو من أهل حران من قرى اليمامة، وأهل حران أفصح بني حنيفة، ابن القيم، زاد المعاد، (ج74/1).

(121) سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ، قديم الإسلام بمكة، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ثم إلى المدينة، وجهه النبي (صلى الله عليه وسلم) بكتاب إلى هوذة بن علي الحنفي، ابن سعد، الطبقات، (ج203/4).

(122) ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج340/2).

(123) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج18/2).

(124) ابن سعد، الطبقات، (ج18/1)؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج342/2).

([125]) جيفر بن الجلندي: كان رئيس أهل عمان هو وأخوه عبد أسلما على يدي عمرو بن العاص، حين بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) ولم يريا النبي (صلى الله عليه وسلم) هو ولا أخوه، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، (ج545/2).

(126) ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج340/2)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، (ج336/6)؛ ابن القيم، زاد المعاد، (ج73/1).

(127) ابن سعد، الطبقات، (ج18/1).

(128) ابن سيد الناس، عيون الأثر، (ج330/2).

(129) ابن سعد، الطبقات، (ج17/1).

<u>المصادر والمراجع:</u>

- القرآن الكريم

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. (1995م). الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، ط2، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير. (1979م). النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، (د.ط)، بيروت: المكتبة العلمية.

أحمد، أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. (1421-2001م). مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.

ابن إدريس، عبد الله بن عبد العزيز بن إدريس. (1982م). مجتمع المدينة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ط1، مطابع جامعة الملك سعود.

الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي. (1987م). جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، ط1، بيروت: دار العلم للملايين.

ابن إسحاق، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني. (1978م). السير والمغازي، تحقبق سهيل زكار، ط1، بيروت: دار الفكر.

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني. (1974م). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله. (1989م). الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط3، (د.ن).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي. (د.ت). صحيح الجامع المسند الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، (د. م) دار طوق النجاة.

البغدادي، عبد القادر بن عمر البغدادي. (1997م). خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط4، القاهرة: مكتبة الخانجي.

البغدادي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي، صفي الدين. (1412هـ). مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، بيروت: دار الجيل.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري. (1988م). فتوح البلدان، (د.ط)، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي. (1988م). دلائل النبوة، عبد المعطي قلعجي، ط1، (د.م): دار الكتب العلمية.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي. (2003م). السنن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط3، بيروت: دار الكتب العلمية.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي. (1991م). معرفة السنن والآثار، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، ط1، باكستان: جامعة الدراسات الإسلامية.

التبريزي، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي. (1985م). مشكاة المصابيح، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، ط3، بيروت: المكتب الإسلامي.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي. (1406هـ). الصفدية، ط2، مصر: مكتبة ابن تيمية.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي. (1422هـ). زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرازق المهدي، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي.

أبو حاتم، محمد بن إدريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلي الرازي. (د. ت). تفسير، (د. ط)، (د. ن).

ابن حبان، محمد بن حبان البستي أبو حاتم. (1977م). روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، د.ط، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (1973م). الثقات، ط1، آباد الدكن الهند، دار المعارف العثمانية.

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني. (1415هـ). الاصابة في تمييز الصحابة، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي. (1379هـ). فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (د. ط)، بيروت: دار المعرفة.

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري. (1983م). جمهرة أنساب العرب، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

حسن. (1986م). الوجيز في الدبلوماسية المعاصرة، (د. ط)، (د. ن).

الحطاب، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي. (1992م). مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ط3، (د. م): دار الفكر.

الحلبي، علي بن برهان الدين الحلبي. (1400هـ). السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، (د. ط)، بيروت: دار المعرفة.

الحموي، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (1995م). معجم البلدان، ط2، بيروت: دار صادر.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن. (1415هـ)، التأويل في معاني التنزيل، تحقيق محمد علي شاهين، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

الخرشي، محمد بن عبد الله الخرشي المالكي أبو عبد الله. (د.ت). حاشية الخرشي، د.ط، بيروت: دار الفكر للطباعة.

الخطيب الشربيني، شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي. (1994م). مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي. (1988م). تاريخ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب، تحقيق خليل شحادة، ط2، بيروت: دار الفكر.

خلف الله، محمد أحمد (د.ت) محمد والقوى المضادة، (د. ط)، مكتبة الأنجلو المصرية.

أبو خليل، شوقي (2008م). الأطلس النبوي، ط2، (د. م): دار الفكر.

خياط، صلاح (2000م). معجم المصطلحات الدبلوماسية، ط1، الأردن، دار أسامة للنشر.

الدار قطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي. (2004م). سنن الدار قطني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة.

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (د. ت). السنن، (د. ط)، بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني. (د.ت). سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (د. ط)، بيروت، المكتبة العصرية.

الدباغ، ضرغام، (1985م). قوة العمل الدبلوماسي في السياسة، د.ط، بغداد، دار افاق عربية للنشر.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي. (1985). سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤط، ط3، (د. م): مؤسسة الرسالة.

ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي. (1988م). المقدمات الممهدات، تحقيق الدكتور محمد حجي، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

رضا أحمد، أحمد رضا. (1960). معجم متن اللغة، (د. ط)، بيروت: دار مكتبة الحياة.

الرملي، شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة شهاب الدين الرملي. (1984م). نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، (د. ط)، بيروت، دار الفكر.

روبرت دي كانتور. (1989م). السياسة الدولية المعاصرة، ترجمة احمد ظاهر، (د. ط)، عمان، مركز الكتاب الأردني.

الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي. (2002م). الأعلام، ط15، بيروت، دار العلم للملايين.

ابن زنجويه، أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني المعروف بابن زنجويه. (1986م). الأموال، تحقيق الدكتور شاكر ذيب فياض، ط1، السعودية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (1985م). المقاصد الحسنة، تحقيق محمد عثمان الخشت، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي.

سرحان، عبد العزيز. (1974م). قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، (د. ط)، القاهرة، مطبعة عين شمس.

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (1971م). شرح السير الكبير، (د. ط)، الشركة الشرقية للإعلانات.

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (1993م) المبسوط. (د. ط)، بيروت، دار المعرفة.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (1990م). الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط1، بيروت، دار الكتب العلمي.

السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (د.ت). تفسير السمرقندي، (د. ط)، (د. ن).

السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (2000م). الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. (د. ت). الدرر المنثور في التأويل بالمأثور، (د. ط)، بيروت، دار الفكر.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. (د. ت)، الجامع الصغير، (د. ط)، بيروت، دار الفكر.

ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، ابن سيد الناس، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (1993م). عيون الأثر في فنون المغازي، تحقيق إبراهيم محمد رمضان، ط1، بيروت، دار القلم.

الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (1400هـ)، المسند، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.

الشامي، أحمد، (1985م). تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، (د. ط)، القاهرة، دار النهضة العربية.

شمس الحق، العظيم آبادي محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب. (1415هـ). عون المعبود شرح سنن أبي داود، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني. (د. ت). السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، ط1، دار ابن حزم.

الشيباني، أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني (د. ت) السير، تحقيق المصنف محمد بن الحسن الشيباني، (د. ط)، (د. م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني. (1984م). مسند الشاميين، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط1، بيروت، مؤسسة الرسالة.

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني. (د.ت). المعجم الكبير، تحقيق، حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط2، القاهرة، مكتبة ابن تيمية.

الطبرسي، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي. (2005م). مجمع البيان في تفسير القرآن، ط1، لبنان: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري. (1387هـ). تاريخ الرسل والملوط، ط2، بيروت، دار التراث.

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري. (2001م). جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حقيق الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

ابن عباد، إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد المحيط. (د. ت). المحيط في اللغة، (د. ط)، (د. ن).

أبو عبيد، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (د.ت). الأموال، تحقيق خليل محمد هراس، د.ط، بيروت، دار الفكر.

عبيدان، يوسف. (2001م). التمثيل الدبلوماسي والقنصلي في النظرية والتطبيق، ط2، قطر، دار الكتل القطرية.

العدوي، إبراهيم أحمد. (1957م). السفارات الإسلامية في أوروبا في العصور الوسطى، (د. ط)، مصر، دار المعارف.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر. (1995م). تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، (د. ط): دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن أبي عمر، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي الحنبلي، أبو الفرج، شمس الدين. (د.ت). الشرح الكبير، (د. ط)، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.

العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى. (د. ت). عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، (د. ط)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

غالي، بطرس، (1992م). الامم المتحدة، الدبلوماسية الوقائية وضع وحفظ السلم، القاهرة، مجلة السياسة الدولية.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي. (د. ت). د.ط، بيروت، دار المعرفة.

الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي. (2003م). معجم ديوان الأدب، تحقيق دكتور أحمد مختار عمر، (د. ط)، القاهرة، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر.

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين. (د.ت). معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (د. ط)، دار الفكر.

القانع، أبو الحسين عبد الباقي بن قانع بن مرزوق بن واثق الأموي بالولاء البغدادي. (1418هـ). معجم الصحابة، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، ط 1، المدينة المنورة، مكتبة الغرباء الأثرية.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. (1992م). المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط2، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ابن قدامة، بو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي. (1968م). المغني، (د. ط)، مكتبة القاهرة.

القرافي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي. (د. ت). الفروق، (د. ط)، (د. ن).

القرطبي، محمد بن الفرج القرطبي المالكي، أبو عبد الله، ابن الطلاع، ويقال الطلاعي. (1426هـ). أقضية رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ، (د. ط)، بيروت، دار الكتاب العربي.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي. (1964م). الجامع لأحكام القرآن تفسير، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، القاهرة، دار الكتاب المصرية.

القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين. (د.ت). المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، (د. ط)، القاهرة، المكتبة التوفيقية.

القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري. (د. ت). صبح الأعشى، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (1994م). زاد المعاد في هدي خير العباد، ط27، بيروت: مؤسسة الرسالة.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية. (1991م). إعلام الموقعين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

الكاساني، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي. (1986م). بدائع الصنائع، ط2، (د. م): دار الكتب العلمية.

ابن كثير، أبو الحسين عبد الباقي بن قانع بن مرزوق بن واثق الأموي بالولاء البغدادي. (1418هـ). البداية والنهاية، تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، ط 1، المدينة المنورة، مكتبة الغرباء الأثرية.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي. (1419هـ). تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد. (د.ت). السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (د.ت). الأحكام السلطانية، (د. ط)، القاهرة، دار الحديث.

المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى. (د. ت). تحفة الأحوذي، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.

المباركفوري، صفي الرحمن المباركفوري. (د. ت). الرحيق المختوم، ط1، بيروت، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع.

المجذوب، محمد. (1978م). العلاقات الدولية، (د. ط)، بيروت، مكتبة مكاري.

محمصاني، صبحي. (1982م). القانون والعلاقات الدولية في الإسلام، ط2، دار العلم للملايين.

المسعودي، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي. (1409هـ). مروج الذهب، تحقيق، أسعد داغر، (د. ط)، دار الهجرة.

المطرزي، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيدبن علي بن المطرز. (1979م). المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، ط1، حلب، مكتبة أسامة بن زيد.

المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي. (1999م). إمتاع الأسماع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.

المنجد، صلاح الدين. (1983م). النظم الدبلوماسية في الإسلام، (د. ط)، دار الكتاب الجديد.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى. (1989م). لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت.

المودودي أبو الأعلى، (د.ت) الحكومة الإسلامية، ترجمة أحمد ادريس، (د. ط)، المختار الإسلامي للطباعة والنشر.

الموصلي، عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي البلدحي، مجد الدين أبو الفضل الحنفي. (1937م). الاختيار لتعليل المختار، (د. ط)، القاهرة، مطبعة الحلبي.

مونتجمري، وليم منتجمري وات. (1994م). محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات، (د. ط)، بيروت، منشورات المكتبة العصرية.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي. (1986م). سنن النسائي، ط2، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية.

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي. (د. ت). تهذيب الأسماء واللغات، (د. ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.

النويري، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري. (1423هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين. (1955م). السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، ط2، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. (1994م). مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، (د. ط)، القاهرة، مكتبة القدسي.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي. (1415هـ). الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط1، بيروت، دار القلم الدار الشامية.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي. (1989م). المغازي، تحقيق مارسدن جونس، ط3، بيروت، دار الأعلمي.

اليعقوبي، أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي. (د. ت). تاريخ اليعقوبي، (د. ط)، (د. ن).

أبو يوسف، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري. (د. ت). الخراج، (د. ط)، (د. ن).

جهود خطاطي بلاد ما وراء النهر في النهوض بالخط العربي

الأستاذ الدكتور علي عفيفي علي غازي
صحفي وأكاديمي مصري

الملخص

أسهم خطاطو بلاد ما وراء النهر بدور كبير في نهضة وتطور الخط العربي، الذي انتشر في هذه البلاد منذ الفتح العربي الإسلامي لها، إذ يسر دخول أهالي بلاد ما وراء النهر في الإسلام، بالإضافة لما صاحب ذلك من هجرات عربية إلى المناطق التي تتكلم باللغة التركية، دخول اللغة العربية في هذه المناطق، فهي لغة الإسلام، والقرآن الكريم، وبانتشار اللغة العربية انتشر معها الخط العربي، إذ تخلى المسلمون الفرس والترك والتركمان عن خطوطهم القديمة، وأصبحت اللغة العربية لسانهم، ولغة تأليفهم.

انطلاقًا من هذه الرؤية، يتناول البحث التعريف ببلاد ما وراء النهر، قبل الفتح الإسلامي لها، ثم في ظل الإسلام، وحتى اليوم، ثم يتطرق لمراحل الفتح الإسلامي لها، وأثر الإسلام في لسان أهلها، ومن ثم تحول تآليفهم وكتاباتهم إلى اللغة العربية، وما ترتب على ذلك من انتشار للخط العربي، وكيف استطاع أن يحل مكان خطوط كثيرة كانت موجودة في هذه المنطقة؟ ومن ثم تضافرت جهود أهلها على تجويد هذا الفن الجميل، وكيف أسهمت جهودهم في تطوير الخط العربي؟ وكيف كان لرعاية سلاطين وأمراء الدويلات التي حكمت فيها دور كبير في تحقيق نهضة خطية على العمائر الدينية والجنائزية والتعليمية والاجتماعية والخزف، وغير ذلك؟ ومن هم أشهر الخطاطين الذين اهتموا واعتنوا بصناعة الخط، واشتهروا بتجويد الخطوط؟ وكيف أسهموا في غناء وتطوير الخط العربي وفنونه من التذهيب والتزويق والتجليد؟ وما هي أهم الخطوط التي طوروها، واخترعوها؟ وما هي أهم الأعمال التي وصلتنا من كتاباتهم؟

Summary

Calligraphers of *Mā Warā᾽ an-Nahr* (Central Asia) have played a major role in promoting and developing Arabic calligraphy that spread widely in that region after the Islamic Arabic conquest. The embrace of Islam by the people of that region and the concurrent Arab immigration to Turkish-speaking regions made the introduction of Arabic language -being the language of Islam and Holy Quran- into those regions easier. The prevalence of Arabic lead to the spread of Arabic calligraphy, as Persian, Turkish and Turkmen Muslims gave up their old calligraphies and used Arabic to speak and write.

Based on this perspective, the research will touch on *Mā Warā᾽ an-Nahr* (Central Asia) during three phases: before Islamic conquest, under Islam and at the current time. The research will also touch on how Islam influenced their language, how they turned to Arabic as a language they used

in writing, the consequential prevalence of Arabic calligraphy and how it replaced many other calligraphies in that region, how those people united their efforts to improve it. The research will also highlight the significant role of the patronage of sultans and princes of petty states that ruled them in achieving a calligraphic advancement on religious, funeral, educational and social buildings, on ceramic and others. Furthermore, it will shed light on the significant calligraphers who were interested, concerned and well-known for improving calligraphies. It will explain how they helped in enriching and developing Arabic calligraphy and its arts such as gilding, embellishment and binding, what were the most important calligraphies that they developed and invented and what we have received of their significant writings.

المقدمة

تُعرف بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي لها ببلاد "توران"، نسبة إلى "تُورَك" الابن الرابع ليافث بن نوح عليه السلام[1]. وبعد أن فتحها المسلمون في القرن الأول الهجري؛ أطلق عليها الجغرافيون والمؤرخون والرحالة اسم بلاد ما وراء النهر، أي البلاد الواقعة بين نهري جيحون (أموداريا) في الجنوب، وسيحون (سرداريا) في الشمال. ويفصل نهر جيحون بين خراسان وبلاد ما وراء النهر؛ بحيث تقع ترمذ في جانبه الشرقي ضمن أرض ما وراء النهر، ويُقابلها بَلْخ في الجانب الخراساني. يقول ياقوت الحموي: "يُراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يُقال له بلاد الهياطلة، وفي الإسلام سمّوه ما وراء النهر، وما كان في غربيّة فهو خراسان وولاية خوارزم، وخوارزم ليست من خراسان؛ إنما هي إقليم برأسه"[2].

وبلاد ما وراء النهر منطقة شاسعة، عظيمة الاتساع، تمتد من تركيا غربًا حتى الصين شرقًا، وتلامس أطراف الهند الشمالية جنوبًا. وكانت تسكنها القبائل الرُحل من الترك والتُركمان: الأوزبك، التاجيك، القيرغيز، القزاق، الأويغور، المغول، القفجاق، البُلغار[3]. وفيها نبتت أصول الأتراك العثمانيين، وترعرعت فروعهم، واغترفوا من حضارتها وعلومها، وتسلّحوا من مجدها الخالد؛ ما مكنهم من تكوين وحدة قوية، وإقامة دولة فتية، واستقامت حضارتهم؛ لما يزيد عن الأربعة قرون. ويكفي بلاد ما وراء النهر فخرًا أنها أنجبت عباقرة وجهابذة وعظماء في العلوم الإسلامية، واللغة العربية، والحديث النبوي الشريف، ومنهم: الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (194-256هـ/ 810-870م)، الفقيه أبو الليث السمرقندي (333-373هـ/ 944-983م)، الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري (206-261هـ/ 822-875م)، الإمام أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستاني (202-275هـ/ 817-888م)، الإمام علاء الدين الكاساني (ت. 587هـ/ 1191م)، الإمام أبو القاسم محمود الزمخشري (467-538هـ/ 1074-1143م)، الإمام عمر بن محمد النسفي (461- 537هـ/ 1069-1142م)، وغيرهم.

وتمتعت بلاد ما وراء النهر بالاستقلال الكامل والحرية منذ فجر التاريخ، وفي ظل الإسلام، وذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حينما خضعت للاحتلال، وباتت تُعرف منذ انهيار الاتحاد السوفيتي (1411هـ/ 1991م) بمنطقة آسيا الوسطى، وفي الوقت الحالي مقسَّمة إلى قسمين: الأول تركستان الشرقيَّة، التي تخضع للاحتلال الصيني، وتُسميها الصين

"سينكيانج"؛ أي المستعمرة الجديدة، ومعظم سكانها من الأويغور[4]، وهم من أصل عربي ينتسبون إلى العرب المسلمين الفاتحين، الذين قدموا مع القائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي (46-96هـ/ 669- 715م). أما القسم الثاني فهو تركستان الغربيَّة أو تركستان الروسية، وتضمُّ دولًا خمسًا هي: طاجكستان، وتركمانستان، وقرغيزستان، وأوزبكستان، وكازاخستان، تجمعهم لغة واحدة هي اللغة التركية، ويدينون بالإسلام على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه[5].

الفتح الإسلامي

يقوم العرب منذ أن توطدت أقدامهم في إقليم خراسان في عصر الدولة الأموية (41-132هـ/ 661-750م) بغزوات إلى بلاد ما وراء النهر، ثم يعودون إلى مراكزهم في خراسان شتاءً، حيث قام عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان (28-67هـ/ 648-686هـ) في عام 53هـ/ 673م بغزو بخارى[6]. وكان الوالي سَلْم بن زياد (62-63هـ/ 681-682م) أول من عبر نهر جيحون، خلال عملياته العسكرية، وقضى شهور الشتاء هناك[7]. وكانت هذه المحاولات بمثابة التمهيد للفتح الإسلامي المنظَّم لهذه البلاد؛ إذ إن الفتوحات الحقيقيَّة لها كانت في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86-96هـ/ 705-714م)، والذي اشتهر في عهده القائد قتيبة بن مسلم الباهلي[8]، والذي كان، قبل توليه أمر خراسان في عام 86هـ/ 705م، قد عَبَر نهر جيحون في المرحلة الأولى (83-84ه/ 702-703م)، وفتح منطقة طخارستان، ثم بُخارى في المرحلة الثانية (87-89هـ/ 706-707م)، وفي المرحلة الثالثة (90-93هـ/ 708-711م) استطاع أن يرفع راية الإسلام في حوض نهر جيحون، ثم توجَّهت فتوحاته في المرحلة الرابعة (94-96هـ/ 712-715م) إلى ولايات سيحون، ثم دانت له ولايات أوزبكستان وطاجيكستان، وغيرهما من مناطق بلاد ما وراء النهر، ونجح في نشر الدعوة الإسلاميَّة، وثبَّت دعائم الإسلام هناك، وبنى أوَّل مسجد في بُخارى عام 94هـ/ 712م، وواصل مسيرته حتى قارَب حدود الصين[9].

ويسر دخول أهالي بلاد ما وراء النهر في الإسلام، بالإضافة لما صاحب ذلك من هجرات عربية إلى المناطق التي تتكلم باللغة التركية، دخول اللغة العربية في هذه المناطق، فهي لغة الإسلام، والقرآن الكريم، والعبادات، والتعليم. ولم يمض القرن الأول الهجري، إلا وأضحت اللغة العربية لغة التخاطب، والتفاهم بين جميع المسلمين من تخوم الصين شرقًا إلى الأندلس على المحيط الأطلنطي غربًا[10]. ولقد دخل التركستانيون في دين الله أفواجًا، وأقبلوا على تعلّم اللغة العربية، وبرعوا فيها، وجدّوا في تعلمها ونشرها. وبانتشار اللغة العربية انتشر معها الخط العربي، إذ تخلى المسلمون الفرس والترك والتُّركمان عن خطوطهم القديمة، ولم يتوقف استخدام الخط العربي على المسلمين وحدهم؛ بل كتب به أتباع الديانات الأخرى أيضًا، كما فعل الأقباط في مصر، وكانت المدارس عربية، وحلقات الدرس والعلم كلها باللغة العربية، التي أصبحت لغة القبائل التركستانية، الذين فضلوها على لغتهم الأصلية في دلالة على إيمانهم القوي والوثيق بالدين الحق؛ إذ إنهم تحدثوا العربية عن إقناع، وأصبحت لسانهم، ولغة تأليفهم.

تشهد اللغة العربية تراجعًا تدريجيًا منذ فجر القرن الثاني الهجري، إذ إن الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية (132-261هـ/ 750-874م)، لم تكتف بذلك؛ بل أرادت أن تستقل لغويًا، فأسرعت إلى إحياء اللغات القديمة، كالفارسية والتركية والأوزبكية، وذلك بداية من حكم الدولة الخاقانية (126-233هـ/ 744-848م)، وحذت حذوها الدول الأخرى كالسامانية (204-395هـ/ 819-1005م)، والغزنوية (366-582هـ/ 976-1186م)، والسلجوقية (428-590هـ/ 1037-1194م)، والمغولية (602-769هـ/ 1206-

1368م)، والتيمورية (772-912هـ/ 1370-1507م)، والشيبانية (905-1007هـ/ 1500-1598م)، إلا أن القشة التي قصمت ظهر البعير، ومن ثم قضت على اللغة العربية في بلاد ما وراء النهر، كانت على أيدي المحتلين الصينيين والروس، وإن لم يُقض نهائيًا على الحرف العربي، ومن ثم الخط العربي، إذ يظل يُستخدم في التركية العثمانية والتركية الجغتائية حتى مهد القرن العشرين، ولا يزال تُكتب به بعض اللغات كالأردية والفارسية[11].

انتشار الخط العربي

ينتشر الخط العربي في رحلة تطوره الطويلة في كثير من بقاع المعمورة، فقد تلألأ في الجزيرة العربية، وتألقت زهوره في الشام، وملأت عطوره العراق وفارس والسند وخراسان، واستطاع أن يتغلغل إلى أرمينية، والقوقاز، وبلاد ما وراء النهر، وأفريقيا والمغرب العربي والسودان، والأندلس وجنوب فرنسا وصقلية، وكأنه جيشًا من العلماء الداعين لانتشار الحضارة؛ تاركًا آثاره الواضحة على كل مظاهر الحياة[12].

واستطاع الخط العربي أن يحل مكان خطوط كثيرة، كانت موجودة في عدد من الأمصار، وأن يُسيطر عليها، إما بالتغيير، أو بإلغائها نهائيًا، كما سادت اللغة العربية على لغات محلية سابقة لها. ومن إقليم لآخر، كان الشكل الواحد من الخط العربي يأخذ أشكالًا مختلفة من دون أن تنفصل الأشكال الجديدة عن الشكل الأساس الأصل. فمثلًا الخط الكوفي الأندلسي، يختلف قليلًا عن الخط الكوفي القيرواني، كما أنهما يختلفان عن الخط الكوفي، الذي انتشر في دمشق وبغداد وإسطنبول وبُخارى.

وتضافرت جهود الأمم، التي انضوت تحت راية الإسلام، على تجويد هذا الفن الجميل، وكان المساعد الأكبر على ذلك رغبة المسلمين في تجويد كتابة آيات القرآن الكريم بأجود وأحسن الخطوط، إضافة إلى اتخاذهم الخط حلية لمنشآتهم المعمارية، وخاصة المساجد. ومن خلال المتغيرات الحضارية استطاع الفنان المسلم أن يُطوّع المادة، التي يكتب بها خطوطه. ويربط ابن خلدون في مقدمته تطور الخط العربي بتقدم العمران واتساعه، مُشيرًا إلى أنه لم يبلغ الغاية في الإتقان، والإجادة لبداوة العرب، وبُعدهم عن الصنائع، وبعد اتساع رقعة الإسلام، وفتح الأمصار، واحتياج الدولة إلى الكتابة، استعملوا الخط، وطلبوا صناعته وتعلّمه، إلى أن بلغ رتبة من الإتقان والإجادة، ثم يقول: "حتى إذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء، وتراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران؛ نقص حينئذ حال الخط، وفسدت رسومه، وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة، وتناقص العمران". ويُضيف: "وطما بحر العمران والحضارة في الدول الإسلامية في كل قطر، وعظم الملك، ونفقت أسواق العلوم، وانتسخت الكُتب، وأجيد كتبها وتجليدها، ومُلئت بها القصور والخزائن الملوكية؛ بما لا كفاء له، وتنافس أهل الأقطار في ذلك، وتناغوا فيه، ثم لما انحل نظام الدولة الإسلامية وتناقصت؛ تناقص ذلك أجمع، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة بغزو المغول، فانتقل شأنها من الخط والكتابة؛ بل والعلم، إلى مصر والقاهرة... أما الشرق فبحوره زاخرة، وإن كانت قد خربت بغداد والبصرة والكوفة؛ إلا أن الله تعالى قد أحل محلها أمصارًا أعظم، وانتقل كل ذلك منها إلى عراق العجم، والهند، وما وراء النهر من المشرق... وانتقل منها إلى غيرها من الأمصار"[13].

وكان لحركة الفتوح الإسلامية، ودخول غير العرب في الإسلام دور كبير في الارتقاء بالخط العربي، الذي انتشرت صناعته بانتشار الإسلام، وتعددت أشكاله وأنواعه، وهذا ما أسهم في ترك بصمات هذه الشعوب في هذا الفن، فأبدع الفرس الخط الفارسي، وأبدع العثمانيون العديد من الخطوط، كالرقعة والديواني

والطغراء وغيرها[14]، وأبدع أهل المغرب والأندلس خطوطهم المتميزة[15]. وكان العصر العباسي بمثابة العصر الذهبي للخط العربي، إذ ناله ما نال غيره من أصناف الفنون والعلوم من الارتقاء والتقدم، وتنافس الكُتاب في تحسينه وتجويده وتقنينه وتنويعه، فاخترعت الأقلام، وابتدعت الخطوط، وتعددت وتنوعت[16].

ورغم أن قاطني بلاد ما وراء النهر قبل الإسلام كانت غالبيتهم أمية، إلا أن سكان حواضرها كبُخارى وسمرقند كانوا يكتبون بما يُعرف بالقلم الإيغوري، وهو من الأبجديات المتقطعة من القلم الأرامي القديم، أو إنها كتابة فهلوية محورة قليلا، بإضافة حروف تتماشى مع النطق التركي، ثم تعلموا في العصر الإسلامي الكتابة بالخط العربي، كما سنوضح، إلا أنه فيما يبدو ظل القلم الإيغوري قيد الاستعمال عند بعض التُركمان حتى الربع الأخير من القرن الثالث عشر على الأقل[17].

وتطورت فنون الخط العربي في بلاد ما وراء النهر، وتقدمت بسبب تشجيع الحكام والأمراء للخطاطين؛ الأمر الذي جعلها موطن جذب، هاجر إليها الكثير منهم؛ ما جعل الخطاطين الممتازين في تلك الأصقاع من الكثرة، التي دفعت البعض منهم إلى الانخراط في أعمال بعيدة عن ما يقوم به الكتبه العاديون في دواوين الدولة، أو في استنساخ المصاحف، أو في العمل بالوراقه، فعمل بعضهم في مؤسسات ومصانع لا تمت بصلة إلى حرفة الكتابة والخط، وغيرها من المهن المرتبطة بفنون الكتاب، فاتجه الكثير منهم لصناعات التُحف المعدنية، وكذلك للعمل في معامل أو مراكز الخزف، وخاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، أي في عصر الدولة السامانية، ويُعزز تلك الفرضية ما وصلنا من التحف المعدنية والخزفيات المعززة بالنقوش الكتابية، المكتوبة بالخط المبسوط الدارج غير المنقوط، والبعيد عن المظاهر الفنية، ولا تخضع تمامًا لقواعد الخط المنسوب، التي وضعها الوَزِيرَ أَبُو عبد الله مُحَمَّد بنْ مُقْلَة (272-328هـ/ 886-939م)، أو غيره من كبار أساتذة الخط[18]، ومع ذلك تتسم بجمالية ورشاقة أخاذة، فضلًا عن التقنية العالية.

وشجع ما ناله الخطاطون في تلك البلاد من الرعاية والتقدير والتبجيل الكثير من الخطاطين إلى بذل المزيد من الجهد في سبيل ابتداع ضروب جديدة من الخطوط المتميزة؛ بل إن واحدًا من أشهر الخطاطين الإيرانيين، الذي أسهم في تطوير الخط الإيراني المعروف بالشكستة كان واحدًا من خطاطي بلاد ما وراء النهر، وهو درويش عبد المجيد الطالقاني (ت. حوالي 1184هـ/ 1771م)، كما وضع الخطاط الهيراتي مير على التبريزي، قواعد وأسس خط النستعليق؛ مما جعل المؤرخون يُعدّونه مبتكره، كما سنوضح لاحقًا. ولعلنا نلتمس في ذلك إشارة إلى أسباب اهتمام السلاطين العثمانيين بالخط العربي، وبغيره من الفنون الإسلامية، بعدما دانت لهم إمبراطورية مترامية الأطراف، استمرت لأكثر من أربعة قرون، ويُقدم توضيحًا لأسباب حرص السلاطين العثمانيين أنفسهم على تعلّم فنون وقواعد الخط والكتابة[19].

ويُشير المتخصصون إلى أن الخط العربي في العصر الساماني قد لحقت به بعض التطورات أو الظواهر الكتابية الفريدة، فقد ظهرت نقوش كتابية على الكساء الجص للمباني، التي كشفت عنها حفائر البعثات الآثارية، في أواسط القرن العشرين في موقعي سمرقند ونيسابور، كما يُلاحظ استخدام خط النسخ في الوثائق الرسمية للأمراء السامانيين، كما ظهر على النقود، ومنها درهم صُك بمدينة "بلخ"، محفوظ في مجموعة الجمعية الأمريكية للنميات مؤرخ بسنة 292هـ/ 905م، أي عهد الأمير إسماعيل بن أحمد بن أسد (278-294هـ/ 892-907م)، ثاني أمراء الأسرة السامانية، والذي كان معاصرًا للخليفة العباسي المقتدر بالله (295-320هـ/ 908-932م)، إذ نقش الدرهم بالخط الكوفي، باستثناء الاسم المكتوب بخط النسخ، كما نسخ

اسم الأمير نوح بن نصر (332-343هـ/ 943-954م) على دينار ذهبي مضروب بمدينة نيسابور، ومحفوظ ضمن مجموعة الجمعية الأمريكية للنميات[20]. وهو ما يؤكد استخدام قلم النسخ ما قبل إِبْنُ البَوَّابِ (350-413هـ/ 961-1022م) بأكثر من قرن من الزمان، أي منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[21].

يشهد عصر الدولة الغزنوية تشييد الكثير من المباني التذكارية، التي تحمل النقوش الكتابية على عدد من الأضرحة المخصصة لبعض الأولياء والصالحين والدراويش المتصوفين كشيوخ الطريقة الأحمدية أو النقشبندية، والتي تحمل نقوشًا كتابية بالخط الكوفي المشرقي المطور، الذي يجمع بين التوريق والتزهير والمضفور الحروف على نحو لم نعهده من قبل في العراق أو فارس، ومع ذلك يتميز الخط بجماله ودقته، حيث يُظهر النقش التذكاري عناية فائقة بالتنفيذ، ودقة بشكل لم نألفه في المخلفات الخطية على العمائر، التي وصلتنا من العصور السابقة، وعلى الرغم من أن هذا العصر لا يزال مبكرًا بالنسبة إلى تطور الخط الممثل على العمائر العربية والإسلامية عامة، ولكن يُلاحظ أن النقوش الكتابية قد نُفذت بطريقة بارعة في الإخراج الفني العظيم للبناء والنقوش الكتابية؛ ما يؤكد التعاون الوثيق بين الحرفيين، الذين قاموا بوضع الآجر البنائي في أماكنه المناسبة. ومن تلك المشاهد واحد على شكل برج أسطواني يُعرف بقبة "رادكان"، بمدينة رادكان، في شرق إقليم خراسان، والذي أقام صرحه الأمير محمود بن سبكتكين الغزنوي (388-421هـ/ 998-1030م) في سنة 411هـ/ 1020م، والذي يحمل نقوشًا كتابية مضفورة تجمع بين التوريق والتزهير وضفر الحروف، ولاحظ المتخصصون وجود تشابه كبير بين الخطوط المستخدمة على هذا المشهد، والخطوط التذكارية بالجامع الأزهر بالقاهرة بمصر، والمؤرخة بسنة 361هـ/ 972م، والذي لم يسبق هذا المشهد إلا بـ 49 عامًا فقط، إلا أنهم لاحظوا أن تطورًا كبيرًا قد طرأ على الخط الكوفي خلال تلك الفترة الزمنية القصيرة من العصر الغزنوي في بلاد ما وراء النهر[22].

ويعُرف الأمير محمود الغزنوي برعايته للعلماء والأدباء والمفكرين والفنانين عمومًا؛ بما فيهم الخطاطين ونساخي القرآن الكريم، وعمل على نشر العلوم والمعارف، فصارت مدينة "غزنه"، مقرًا لهؤلاء، حيث قصدها أدباء عصره، أمثال الشاعر الفارسي أبو القاسم الفردوسي (328-410هـ/ 940-1020م) صاحب ملحمة "الشاهنامة"، وبلغت "غزنة" في عصر الدولة الغزنوية حدًا لم تصل إليه أي عاصمة من عواصم الشرق في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ومن أهم المخلفات الفنية في موضوع الخط العربي، والتي ترجع إلى العصر الغزنوي، الكتابات المنقوشة على ضريح الأمير محمود الغزنوي في مدينة "غزنة"، والمؤرخة بسنة 421هـ/ 1031م، ويُلاحظ أن جميع الألواح الرخامية، التي يتشكل منها الضريح باستثناء لوح واحد، قد خُط فيها آيات قرآنية، إضافة إلى اسم وألقاب صاحب القبر، ونُقشت بالخط الكوفي المشرقي المطور، واستعان الخطاط بضفر الحروف الممتدة عموديًا كالألف واللام، والحروف المستلقية مثل الكاف، بطريقة كتابية تجمع بين الكوفي المطور، والكوفي المورق والمزهر والمضفور، والتي تمثل النموذج الأول من نوعه، والمعروف خارج المصاحف القرآنية الشريفة[23].

ومن النقوش الكتابية المهمة، التي ترجع إلى العصر الغزنوي، منذنة أو برج مسعود في مدينة "غزنة"، والذي أقام صرحه الأمير علاء الدولة مسعود الثالث (492-508هـ/ 1099-1114م)، والذي يتميز بزخارف هندسية، تُزين أوجهه الثمانية، كما يتميز بالنقوش الكتابية التذكارية، التي رتبت في شريط عريض يُلف حول الجزء الأعلى من البناء، كتب النقش التذكاري بالأجر المنحوت بالقلم الكوفي المورق

والمضفور على مهاد من التفريعات النباتية الدقيقة[24]. ومما لا شك فيه أن الخطاطين والنقاشين في العصر الغزنوي قد لعبوا دورًا عظيمًا في تطوير الخط الكوفي، وإضفاء المزيد من الإبداع والجمالية عليه، ولاسيما المزهر والمضفور على نحو لم نألفه في أي إقليم عربي أو إسلامي آخر، كما شغلوا الفراغات الواقعة بين الحروف الممتدة عموديًا، ولاسيما حرفي الألف واللام بوحدة نباتية شبه هندسية.

وبعد نهاية الأسرة الغزنوية بعقد من الزمان بدأت نهضة جديدة في بلاد ما وراء النهر، وذلك بظهور تيمورلنك، أي تيمور الأعرج (771-807هـ/ 1369-1404م)، والذي كان مُحبًا للفنون والآداب والموسيقى والعلوم عامة، وفنون الخط العربي خاصة، ومن ثم شجع هو وخلفاؤه الفنون عامة، وخاصة فنون الكتاب، فشمل الخط والخطاطين والمصورين والنقاشين ومذهبي المخطوطات بالرعاية والاهتمام والتكريم، واستقطبهم ودعاهم للعيش ومزاولة أعمالهم في العاصمة سمرقند، التي جعل اللون الأزرق لونًا رسميًا لها، فاشتهرت باسم "المدينة الزرقاء"[25]. ولقد عمل تيمورلنك جاهدًا على جعل عاصمته سمرقند عروس المدن الكبرى في الأقاليم المشرقية، ولم يقتصر الأمر على سمرقند؛ بل تحولت في عصره كبريات مدن بلاد ما وراء النهر إلى مراكز رئيسة للحضارة الإسلامية كبخارى وهيرات، وكان أحد المقربين إليه، وهو الصوفي بدر الدين محمود بن عبد العزيز (759-822هـ/ 1358-1420م)، واحدًا من أعلام الخطاطين والرسامين في عصره، فلعب دورًا في تشجيع تيمورلنك على الأخذ بيد الخطاطين والرسامين فضلًا عن المعماريين والموهوبين من أصحاب الحرف[26].

ويُروى أن تيمورلنك عندما دخل مدينة بغداد في 21 شوال 795هـ/ 29 أغسطس 1393م أخذ إلى سمرقند كل أرباب الفضل والصنائع الدقيقة، ومن ثم الخطاطين والفنانين من بغداد، وغيرها من المدن، وتكوّنت منهم مشيخة الخط والفنون الأخرى[27]. وصار على دربه خلفاؤه، فكانوا من أكبر المشجعين للفنانين والخطاطين والأدباء والرسامين؛ بل إن الأميرين إبراهيم ميرزا (946-984هـ/ 1540-1577م) ابن شاه رخ، وبايسنقر ميرزا (802-837هـ/ 1397-1433م) ابن أخ شاه رخ، وحفيدي تيمورلنك كانا من الخطاطين المشهورين، ويؤكد أحد الباحثين أن الأمير بايسنقر كان على دراية تامة بالخطوط الستة، التي وضع قواعدها ياقوت المستعصمي (ت. 676هـ/1277م)، وكان خطاطًا وتعلّم الخط المحقق، وكتب به مصحفًا مؤرخ بسنة 833-837هـ/ 1420-1424م، وصلتنا منه صفحة واحدة فقط[28].

ترتب على ذلك أن خطا الخط العربي في ظل رعاية الدولة التيمورية بخطوات جيدة نحو الأمام. وتُظهر المخلفات المعمارية، التي ترجع لهذا العصر مدى الاهتمام الكبير بهذا الجانب من الفنون في بلاد ما وراء النهر، والتي هي من الكثرة والعظمة والروعة ما يتجاوز حد الوصف، إلا أن أعظم هذه المنشآت المعمارية هو المسجد الجامع، الذي شيده تيمورلنك في عاصمته سمرقند، وذلك بين سنتي (801-808هـ/ 1398-1405م)، حيث زينت الواجهات الخارجية بكتابات بخطي الثلث والكوفي. ومنها المباني الخاصة بضريح الأمير تيمورلنك، والذي شيده في سمرقند سنة 808هـ/ 1405م ولده شاه رخ (807-850هـ/ 1404-1447م)، وقد زينت قبته بكتابات بالخط الكوفي، وبحروف كبيرة بسيطة، وهي تكرار لكلمتي "البقاء لله"، والتي تتداخل معها بخط أصغر كلمتي "الحمد لله"، ما يجعل هذا المشهد من روائع العمارة الإسلامية، ولا شك أن من قام بكتابته كان واحدًا من أكبر الخطاطين في سمرقند، أو ربما في عموم بلاد ما وراء النهر. ويواصل ابنه الأمير أولوغ بيك (850-853هـ/ 1447-1449م) الاهتمام بالخط والخطاطين، حيث جمع حوله كبار الخطاطين والنقاشين

والموسيقيين، وأولى الخط عناية فائقة، وشمل الخطاطين برعايته التامة[29].

تأسست في العصر التيموري ثلاث مدارس فنية معنية بتصوير أو تزويق وتذهيب وزخرفة المخطوطات الثمينة، الأولى مدرسة سمرقند، والثانية مدرسة هيرات، والثالثة مدرسة بخارى، وكان لكل واحدة من هذه المدارس خصائصها الفنية المتميزة في تزويق المخطوطات. كما قام الأمير شاه رخ في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بوضع حجر أساس مدرسة لتحسين الخطوط في مدينة سمرقند، ذاع صيتها في تلك الأنحاء، ودعمها الأمراء الذين خلفوه في الحكم، وربما بسبب هذه المدرسة، وبفضل الرعاية والاهتمام الذي حظي به الخطاطين، أن أنجبت بلاد ما وراء النهر أمهر الخطاطين والمزوقين في الأقاليم المشرقية. ويدعونا هذا إلى القول بأن العصر التيموري يُعدُّ العصر الذهبي في تاريخ تحسين الخطوط في بلاد ما وراء النهر.

أهم المدن

تُعد مدينتي بُخارى، وسمرقند من أهم مدن إقليم ما وراء النهر، وكانتا لفترات طويلة عاصمتين في تبادل الأدوار فيما بينهما لهذا الاقليم. إذ شهدت بُخارى "الشريفة" و"التقية"، كما كانت تُدعى قمة ازدهارها أثناء الحكم الساماني (القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين)، في حين بلغت سمرقند، جوهرة ما وراء النهر، أوج نهضتها أثناء الفترة التيمورية (القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين)، وعُرفت هاتين المدينتين باحتضانهما للأدب والفلسفة والمنطق وعلم الكلام، حتى اعتبرتا من أهم مدن العالم تقدمًا ورقيًا، وقصدها العلماء والفنانون والخطاطون من كل حدب وصوب؛ للاستفادة من احتضان أولو الأمر فيهما لهم، ولما فيهما من مراكز العلوم.

ويرى أكثر الباحثين المختصين بدراسة فنون الخط العربي وتاريخه أنه قد تطور على يد خطاطي مدن بلاد ما وراء النهر، وخاصة مدينتي بُخارى وسمرقند، على نحوٍ عظيمٍ، وجميع ما وصلنا من النقوش الكتابية، والتي تعود إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، سواء كانت معمارية تذكارية أو على اللقى الأثرية المختلفة؛ قد كُتبت باللغة العربية الفُصحى. ويعزى سبب ذلك إلى أن الإسلام قد دخلها مبكرًا مع الموجات الأولى من الفتوحات، وتعلّم أهلها اللغة العربية، ومارس عدد ليس بالقليل من مثقفيها مختلف فنون الأدب والشعر والعلوم، بالإضافة لوجود جالية عربية كبيرة فيهما، ومن بينهم أناس كانوا متعلمين، وكذلك لوجود فرقًا من الجند المقاتلة من العرب، التي كانت تُرابط على نحو دائم، وبالتناوب في الثغور الجنوبية والشرقية؛ لحماية حدود الدولة الإسلامية. ولعل لتأسيس مصانع ورق الكاغد الأول في سمرقند قبل غيرها من مدن العالم الإسلامي؛ قد ساعد على ازدهار المدينة اقتصاديًا وثقافيًا وعلميًا، ومن ثم خطيًا.

وتتبع مدينة بُخارى حاليًا جمهورية أوزبكستان، وكانت، ولا تزال، حاضرة إقليم بلاد ما وراء النهر، منذ عهد السامانيين، وبمثابة عاصمته الدينية، وتذكرها كتب الجغرافيين المسلمين بأنها من أعظم مدن العالم الإسلامي، ويصفها الأصطخري بأنها أول الكور في بلاد ما وراء النهر "فمن كان بها فخراسان أمامه، وما وراء النهر وراءه"[30]. ويذهب أحد الباحثين إلى أن اسمها اشتق من "بخار" بمعنى "العلم"؛ لكثرة ما أنجبت من العلماء والمحدثين[31]، ويقول آخر بأن اسمها مشتق من السنسكريتية من لفظة "دهار"، والتي تعني الصومعة أو الدير، ويؤكد على صدق تحليله أنه كان في موضعها معبد بوذي، منه جاء هذا الاسم[32]. وكانت بُخارى ملتقى طلاب العلم من جميع الجهات، وكانت بها الكثير من المدارس العليا

(الجامعات) والمتوسطة، ويدرس طلابها باللغة العربية العلوم المتداولة، وتتحمل طعامهم ومصاريفهم الأوقاف. واهتم حكامها بالمكتبات، التي بلغت إحدى عشر مكتبة عامة؛ يستفيد المطالعين منها، بلغ مجموع ما بها من كتب 266700 كتابًا[33]. ولهذا لقبت بخارى بـ "قبة الإسلام" عند المؤرخين، إذ كانت منبع العلوم الإسلامية، ومنبت الأئمة المجتهدين.

تقع سمرقند حاليًا في جمهورية أوزبكستان على نهر "الصغد" القديم، ويعني اسمها "قلعة الأرض". ويقول البعض إن أول من أسسها هو "كيكاوس بن كيقباذ"، بينما يقول آخرون أن "الإسكندر المقدوني (356- 323 ق. م.) هو الذي بنى هذه المدينة[34]. وقال الأزهري بناها "شمر أبو كرب"، فسُميت "شمركنت" وعُربت فقيل سمرقند[35]. وتمتعت بأهمية كبيرة إذ ظلت العاصمة السياسية لبلاد ما وراء النهر حتى نقل إسماعيل بن أحمد الساماني (261-295هـ/ 874-907م) العاصمة إلى بُخارى[36]. حيث ازدهرت سمرقند وشهدت تطورًا عمرانيًا كبيرًا، إلا أن الغزو المغولي لها في عام 616هـ/ 1220م، بقيادة جنكيز خان، خان إمبراطورية المغول (602-624هـ/ 1206-1227م)، دمر المدينة وأحرقها ونكل بأهلها. إلا أن دخول المغول في الإسلام أفواجًا، قد أعاد للمدينة ازدهارها، إذ شيدوا المساجد والقصور والمعالم العمرانية، التي تُصنف ضمن فن العمارة الإسلامية. حيث اتخذ منها تيمورلنك، القائد الأوزبكي، عاصمة له؛ مما ساعد على نهضتها فنيًا وعمرانيًا وثقافيًا. وقد قال عنها الرحالة ابن بطوطة: "من أكبر المدن وأحسنها، وأتمها جمالاً، مبنية على شاطئ وادٍ يُعرف بوادي القصارين، عليه النواعير؛ تسقي البساتين. وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر؛ للنزهة والتفرج، ولهم عليه مصاطب ومجالس يقعدون عليها، ودكاكين تُباع بها الفاكهة وسائر المأكولات، وكانت على شاطئه قصور عظيمة، وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها"[37].

وتشتهر ساحة ريجستان بمدينة سمرقند بكثرة القصور والمدارس، التي أبدع الصناع المهرة في تزيين واجهاتها بكتابات بالخط العربي، تجمع ما بين آيات من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، وبعض الأقوال المأثورة.

تميزت كذلك مدينة نيسابور بكونها مركزًا لصناعة الخزفيات، وكانت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تجذب العلماء والخطاطين، وإن كانت قد سايرت سمرقند في النقوش الكتابية على الأوان الخزفية التي كانت تُصنع فيها، إذ جعلها الخطاطون ضمن إطار يُحيط بباطن الإناء، إلا أن خطاطي نيسابور لم يكتفوا بذلك؛ بل شغلوا وسط الإناء بعناصر وتعبيرات زخرفية أخرى، ومن أمثلة ذلك صحن يعود إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي محفوظ بمجموعة متحف فرير بواشنطن يقرأ النقش الكتابي الذي كتب عليه بالخط الكوفي عبارات "يُقال قد خاطر من استقل برأيه، بركة لصاحبه"، ولم يكتف الخطاط بذلك بل شغل الفراغ بين الشريط الكتابي والعنصر الزخرفي، الذي يحتل وسط الصحن بعدد من الأزهار الصغيرة المتناثرة، كما أنه ترك نهايات الحروف الممتدة أفقيًا معلقة من دون أن ترتبط تمامًا بالحروف التي تليها، وفيما يبدو أن ذلك من إبداعات خطاطي نيسابور الملحقين بمراكز الخزف، الذين أرادوا التفوق على خطاطي سمرقند[38].

<u>أشهر الخطاطين</u>

تُغفل المصادر التاريخية ذكر خطاطي بلاد ما وراء النهر، الذين اشتهروا بتجويد الخطوط، حيث تركوا في مساجد وأضرحة عظمائهم كتابات لها شأن عظيم، إلا أن العثمانيين ورثوا الاهتمام بهذا الفن الإسلامي الأصيل، وصار لهم القدح المعلى في هذا الشأن، واشتهر منهم شيخ الخطاطين العثمانيين، حمد الله الآماسي (833- 926ه/ 1429-1520م)، الذي نهل الخط من منهله العربي الأصيل، وتربى على يديه الكثير

من التلاميذ، الذين شكلوا مدرسة فريدة، وجيلًا ممتازًا من الخطاطين المجودين[39].

ويُلاحظ أن خطاطي بلاد ما وراء النهر اهتموا وعنوا بصناعة الخط العربي، ووصف جُلهم بإتقانه، فقيل عن بعضهم "حسن الخط"، أو "مليح الخط"، ومنهم من صنف في علم الخط وما يتعلق به، وبلغت عناية الملوك والأمراء بالخط أن تعلّم أكثرهم فنونه وتجويده، وظهر خطاطون مشهورون عديدون، نسخوا المصحف الشريف، وكتبوا وخطوا الكتب المتنوعة، وجعلوا من الخط مهنة لهم، وبرز من هؤلاء من كان يكتب خطًا حسنًا وهو مستلقٍ على ظهره، ومن كان يكتب بيمينه ويسراه، أو بفمه وأصابع قدميه.

أما الخطاطون الذين استطعت الوقوف على أسمائهم فمنهم:

أبو الحسن الجرجاني: القاضي الخطاط، شُبه خطه بخط ابن مقلة، وتوفي في سنة 392هـ/ 1001م.

أبو الحسن بن الحسين الوراق: أحد شعراء الفارسية، ومن كبار الخطاطين، توفي في سنة 325هـ/ 936م[40].

أبو بكر أحمد بن عبد الله الغزنوي: يحتفظ متحف طوب قابي بإستانبول بآخر المصاحف الغزنوية، والتي نسخها أبو بكر الغزنوي، مؤرخة بسنة 573هـ/ 1177م، أي إنها نسخت في عهد آخر الأمراء الغزنويين، وهو تاج الدولة خسرو ملك (555-582هـ/ 1160-1182م) كتب متنها على خلفية من التفريعات النباتية المزهرة؛ مما يجعها تبدو وكأنها تقليد للنقوش الكتابية التذكارية على العمارات العامة كالمساجد وغيرها.

أبو بكر بن محمد بن رافع الوراق: وصلتنا رسالة غير مؤرخة عنوانها "خلق النبي والخلق"، تحمل اسمه كناسخ لها، والتي نسخها خصيصًا للأمير الغزنوي أبي بكر عز الدولة عبد الرشيد، أمير الدولة الغزنوية (440-444هـ/ 1048-1052م)؛ مما يوحي أنه قد تمّ نسخها خلال تلك السنوات الأربع.

إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي: واحدًا من أشهر خطاطي بلاد ما وراء النهر، كان يُعلّم الخط بنيسابور، بالإضافة لكونه عالم في اللغة العربية، إذ ألف كتاب "الصحاح"، والذي يُعدُّ أقدم معجم وصلنا، والذي لا يستغني عنه اللغوين. ولد بمدينة "فاراب"، ولكنه أمضى الجزء الأخير من حياته في نيسابور، وقد كتب بشأن خطه ياقوت الحموي يقول: "يُضرب به المثل في الجودة، لا يكاد يُفرّق بينه وبين خط أبي عبد الله بن مقلة... ثم سار إلى نيسابور فلم يزل مقيمًا فيها على التدريس، وتعليم الخط، وكتابة المصاحف حتى مضى في سبيله"[41]. توفي في سنة 393هـ/ 1002م.

زين الدين واصفي: خطاطًا مميزًا وشاعرًا في هيرات أثناء حكم سلطان حسين ميرزا (891-912هـ/ 1486-1506م)، كتب بخط يده كتابه "بدائع الوقائع" باللغة الفارسية بأحرف عربية، وقد نُشر في طهران مطبوعًا بالخط العربي في عام 1972، ويصف الكتاب الاضطرابات، التي شهدها البيت التيموري، وعلاقة ذلك باستيلاء الهان الشيباني على هيرات.

سلطان علي مشهدي: بلغ درجة الكمال في خط التعليق، عمل في بلاط السلطان التيموري حسين بايقرا (842-912هـ/ 1438-1506م)، ومُنح لقب سلطان الخطاطين، وله رسالة ومنظومات في الخط، وقام بكتابة جميع الخطوط في عمارات ومنازل جهاز آرا، التي يُطلق عليها حديقة مراد، وظل يكتب إلى أن بلغ الثالثة والستين من العمر، ولم يصب خطه أي خلل أو زلل، وتوفي في سنة 919هـ/ 1513م، ودفن بمدينة "مشهد". وتتلمذ ابنه سلطان محمد نور على يديه، وكان يُطلق عليه أيضًا نور الدين بن سلطان علي[42].

شفيعا: من خطاطي هيرات، تعلّم فنون الخط على يدي "ميرزا أبي تراب"، و"ميرزا فصيحي"،

اخترع خط النكات، أي الخط الدقيق، واخترع كذلك خط الشكستة، وابتدع بعض الرموز الخاصة به. درس العلوم والفنون بأنواعها، فكان أستاذًا في الرسم والتصوير والتذهيب؛ بالإضافة للخط، ولكنه ساح في بلاد الهند، وعاد مرة أخرى إلى هيرات، مختارًا العزلة، ودفن بالمشهد الرضوي(43).

علي بن شعبان الرازي: كتب واحدًا من أقدم المصاحف الكريمة، والتي كتبت على ورق الكاغد، والمؤرخ بسنة 361هـ/ 791م، أي إنه يسبق مصحف ابن البواب بنحو ثلاثين عامًا، ومحفوظ بمكتبة الجامعة بإستانبول.

علي بن شدهان الرازي البياع: خط بيده أقدم مصحف وصلنا مكتوبًا بالخط الكوفي المشرقي، وكتب على صفحته الأخيرة أن الذي نسخه هو علي بن شدهان الرازي البياع في شهور سنة 361هـ/ 972م، ربما في سمرقند أو في بُخارى، والمصحف محفوظ في مكتبة الإمام علي بن موسى في مدينة "مشهد" الإيرانية. وتأتي أهمية هذا المصحف من كونه أول مصحف يصلنا مكتوب على ورق الكاغد، حيث إن جميع المصاحف التي تسبقه تم نسخها على الرق أو البردي أو الجلود.

عمر أغتا: خط بالخط المحقق في سمرقند، في ما بين عامي (803-808هـ/ 1400- 1405م)، أكبر نسخة من القرآن الكريم حجمًا في بلاد ما وراء النهر، وذلك من خلال تحضير أكبر ورقة، ولا تزال محفوظة في مجموعة ديفيد في كوبنهاجن العاصمة الدنمركية. وكرسها إلى القائد الأوزبكي تيمور الفاتح (737-808هـ/ 1336-1405م)، مؤسس الدولة التيمورية.

كمال الدين بهزاد: مصور منمنمات وخطاط، ولد في مدينة هيرات عام 854هـ/ 1450م، درس الفن على يد بير سيد أحمد التبريزي، ثم برز كمصور منمنمات مهمًا في هيرات، ما أهله ليحظى برعاية السلطان حسين ميرزا، ولما سقطت هيرات في يد الشاه إسماعيل الصفوي في سنة 918هـ/ 1512م أخذ معه بهزاد إلى مدينة تبريز، حيث لقي حظوة عنده وعند خليفته طهماسب الأول، شاه الدولة الصفوية (930-984هـ/ 1524-1576م). طور بهزاد فن تصوير المنمنات في اتجاه واقعي، مع الاحتفاظ بمبدأ المنظور الشرقي، أي ترتيب المشاهد بحسب بعدها باتجاه شاقولي فوق بعضها. وعمر طويلا، ولا يُعرف بالتحديد تاريخ وفاته، ولكن يُقال أنها كانت بين عامي (939-944هـ/ 1533-1537م)(44).

محمد بن عبد الواحد: وصلنا من عصر تاج الدولة خسرو ملك، الأمير الغزنوي (555-582هـ/ 1160-1182م)، قِدرًا أو سطلا من البرونز المطبق بالفضة والنحاس من صناعة مدينة هيرات، والمحفوظ في متحف "الهرمتاج" بمدينة سانت بطرسبورج، والمؤرخ بسنة 559هـ/ 1192م، ويحمل اسم صانعه محمد بن عبد الواحد، وهذا الإناء يحمل ثلاثة أنواع من الخطوط: النسخ البسيط، الثلث القديم، الكوفي المضفور، وتنتهي هامات الحروف الصاعدة برؤوس أدمية، فضلا عن رؤوس بعض الحيوانات، التي يصعب التعرف على نوعها.

محمد عباس: قام بخط الكتابات على مدرسة "شير دار"، التي أمر بإنشائها الأمير يلن توش بهادر، حاكم مدينة سمرقند (1038-1043هـ/ 1628-1633م)، حيث أتقن الخط الكوفي المربع الهندسي.

محمود النيسابوري: واحدًا من أبرز الخطاطين في عهدي الشاه إسماعيل الصفوي (892-930هـ/ 1487-1524م)، والشاه طهماسب الأول، والخطاط المفضل عندهما. وهو الذي كتب نسخة "المنظومات الخمسة" بين عامي (945- 950هـ/ 1539- 1543م)، والمحفوظة بالمتحف البريطاني. وكتب في شيراز مصحف يجمع بين النسخ والمحقق، ومصحف بخط النستعليق بعد الاستحداثات والحسينات

المهمة، التي أُدخلت عليه في العصر الصفوي الأول، مذيلة بتوقيعه مؤرخه في محرم 945هـ/ مايو 1538م، ويذكر أنه كتب هذا المصحف بأمر من الشاه طهماسب الأول؛ ليودع في خزانة كتبه، أو في مشهد والده الشاه إسماعيل، ومحفوظ في متحف جامعة إستانبول، وتوفي في سنة 972هـ/ 1564م[45].

محمود بن محمد الجمالي: أشهر الخطاطين في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، عاش في شيراز، ويُعدُّ واحدًا من أساتذة المدرسة التيمورية، ووصلتنا بعض كتاباته بخط النستعليق.

مير علي التبريزي: الوزير والشاعر، الملقب بقدوة الكُتاب، والذي كان من أبرز خطاطي هيرات وبخارى في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي. وأدخل التحسينات على الخط الريحاني، وإليه تُنسب قواعد خط "النستعليق"، وتذكر الروايات أنه أخذ خط التعليق عن الخطاطين العراقيين فحسّنه وطوره وأصلحه وجود خط متطور عنه سُمي النستعليق، واشتهر به، فهو من ابتكاره[46]. ويمتاز بالتناغم الجميل بين الرقة والغلظ في كتابة حروفه ومدّاته، ووضع له نسبًا خاصة. وقد اشتهر باسم الخط الفارسي. ولد في هيرات عام 881هـ/ 1476م، ثم انتقل إلى بلاط الأوزبك في بخارى، حيث عمل على استمرار التقاليد، التي أرستها مدرسة هيرات في فنون الخط، ومن أبدع أعماله وأقدمها نسخة من قصة غرام "هماي وهمايون" لخواجه كرماني المحفوظة بالمتحف البريطاني، ويحتفظ متحف المتروبوليتان بمخطوطة بخطه لقصة "يوسف وزليخا" للشاعر جامي. وتوفي في عام 951هـ/ 1544م، ودفن في بخارى[47]. وله رسالة فارسية في أصول الخط، أودعها قواعد لا تزال مرعية في الخطوط، ومقبولة لدى الخطاطين من أصحاب "النستعليق"[48].

مير علي الهروي: أخذ الخط عن خطاطي بغداد، وتمكن به في هيرات، وهو من ساداتها، ويُلقب بالكاتب السلطاني، ويوقع باسم مير علي السلطاني، وحيد عصره في الخط والكتابة. أسس في عهد تيمورلنك مدرسة في بخارى لتعليم فنون الخط، تعلّم فيها عدد من كبار الخطاطين، وربما كانت أول مدرسة لتحسين الخطوط في شرق العالم الإسلامي؛ فكان مثار حسد وغبطة. وله خطوطًا كثيرة، ومصحفًا شريفًا، ولما هاجم عبيد خان أزبك مدينة هيرات في سنة 935هـ/ 1528م أجبره على أن يرحل إلى بُخارى، وقيل إن خواجة ناصر الدين عبد الله هو من استقدمه قهرًا مع جمع غفير من فضلاء وعلماء وكبار هيرات على إثر اضطراب وقع في زمن السلطان سعيد كوركان. وتوفي فيها سنة 966هـ/ 1558م[49].

نظام الدين سلطان علي بن محمد المشهدي: أخذ الخط عن مير علي التبريزي، ولقب بقدوة الكتاب وقبلة الكتاب، ولد في مدينة مشهد سنة 841هـ/ 1437م، وأخذ عنه الكثير من الخطاطين التالين، وكان في بلاط السلطان أبي سعيد كوركان في هيرات بداية من سنة 865هـ/ 1460م، وبعد وفاته انتقل لبلاط السلطان حسين بايقرا إلى أن توفي في سنة 912هـ/ 1506م، فذهب إلى المشهد الرضوي، وتوفي فيه سنة 926هـ/ 1519م.

أهم الخطوط

لقد أسهمت بلاد ما وراء النهر مع غيرها من البلاد العربية والإسلامية في إثراء وإغناء وتطوير الخط العربي وفنونه من التذهيب والتذويق والتجليد، وأغنت المكتبات بأعداد هائلة من المخطوطات، التي تناولت مختلف العلوم والآداب والفنون، والتي حظيت بعناية خاصة في خطها، وتذهيبها، وتزويقها، وزخرفتها، ثم تغليفها، ولا تزال الكثير من المخطوطات، التي خُطت في بلاد ما وراء النهر محفوظة في مكتبات الجوامع، والمكتبات العامة والخاصة، والتي تتنوع ما

بين المصاحف القرآنية، ومؤلفات أخرى متنوعة كتبت بخط النسخ أو الرقعة أو الكوفي، وأحيانًا يشترك في النسخة الواحدة أكثر من خطاط، وقد نجد أكثر من مجلد للمخطوطة الواحدة، لكل منها ناسخ مستقل، ويشيع في أغلب المخطوطات، التي كُتبت في بلاد ما وراء النهر استخدام الحبر الأسود والأحمر.

وقام الخط الكوفي بدور مهم ومؤثر في زخرفة العديد من العمائر والفنون التطبيقية المختلفة في بلاد ما وراء النهر، وأرجع المتخصصون ذلك؛ لكونه مناسبًا للأغراض الزخرفية، وخاصة ما يتعلق بهامات الحروف القائمة والمستلقية المتصلة بخط قاعدة أفقي، ويُفترض قابليتها للتشكيل الزخرفي، ومن ثم يتوافق هذا الخط مع سطح يُمكن زخرفته بسهولة، ولهذا نال اهتمامًا كبيرًا من المهتمين بالفنون المختلفة في تلك المنطقة، وذلك نظرًا لتنوع أشكاله، فضلًا عن تنوع مضامينه، كما أنه يُمثل في كثير من الأحيان العنصر الزخرفي الوحيد على تلك التحف. وقد تنوعت أشكال الخط الكوفي المكتوب به في بلاد ما وراء النهر ما بين البسيط والمورق والمزهر والمضفور والهندسي.

الخط الكوفي البسيط: كانت بدايات ظهوره على العمائر في بلاد ما وراء النهر، على نقش تأسيسي على مئذنة أمر بإنشائها الأمير أبو العباس مأمون خوارزم شاه، زوج أخت السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، بمدينة "أور جنش" بجنوب أوزبكستان، مؤرخة بسنة 401هـ/ 1010م.

الخط الكوفي المورق: يُمثل المرحلة الثانية لتطور الخط الكوفي في بلاد ما وراء النهر، وأول نقش كتب به نفذ على تابوت أبو منصور ناصر الدين سبكتكين، مؤسس الدولة الغزنوية، بمدينة "غزنة"، إحدى مدن أفغانستان حاليًا، والمؤرخ بسنة 378هـ/ 997م، وفيه تُشكِّل معظم الحروف أفرع نباتية، وتنتهي بأوراق نباتية.

الخط الكوفي المزهر: يتشابه مع الكوفي المورق، إلا أنه يشتمل على عناصر زخرفية أخرى مزهرة، ولفائف تنبثق منها هامات وسط الحروف، وقد تنبثق من الإطار العلوي للنقش الكتابي، وكانت بدايات ظهور هذا النوع من الخط في بلاد ما وراء النهر أسبق من بقية أنواع الخط الكوفي الأخرى، حيث ظهر على قبة دفن "عرب عطا"، والتي شيدت في عصر أبو القاسم نوح بن منصور الساماني (365-387هـ/ 975-997م)، بقرية "تيم" قرب نهر زرافشان، والمؤرخة بسنة 367هـ/ 977م، والتي تُعدُّ أقدم العمائر الجنائزية التي ترجع للدولة القراخانية (225-431هـ/ 840-1040م)، أول دولة تركية إسلامية أسسها أتراك الشرق في بلاد ما وراء النهر، حيث يشغل الواجهة شريط مستطيل الشكل يمتد في وضع رأسي على جانبي كتلة المدخل يتضمن نقشًا كتابيًا منفذًا بالخط الكوفي بالحفر البارز، وقد ألحقت بهامات الحروف عناصر زخرفية نباتية عبارة عن فروع نباتية تنبثق منها أوراق صغيرة مسننة تتخلل قوائم الحروف، وتمتد لتعلو النص الكتابي المحصور داخل الشريط المستطيل. ويتضح من هذا النقش مدى تجويد خطاطي بلاد ما وراء النهر لهذا النوع من الخط. ويكفي بلاد ما وراء النهر فخرًا أن العلماء المتخصصين في الفنون الإسلامية؛ قد اعتبروا أن الفضل الأول في ابتداع الخط الكوفي المزهر لا يعود إلى العراق ولا إلى مصر؛ بل إلى بلاد ما وراء النهر، حيث إن أقدم اكتشاف لهذا الخط على شاهد قبر حجري أو نصب حجري مؤرخ من سنة 230هـ/ 844م، محفوظ في طشقند عاصمة جمهورية تركستان، وإن كانت هناك دراسات أخرى قام بها بعض علماء آخرون خلاصتها أن هذا النصب ربما يكون نسخة مستنسخة عن نموذج أقدم عهدًا وأن الناسخ استعان بالكوفي المزهر في هذه النسخة الجديدة من النقش مع الاحتفاظ بالتاريخ القديم.

الخط الكوفي المضفور: بدأ هذا الخط في بلاد ما وراء النهر أولًا على العملة، من خلال درهم ضرب مدينة "الشاش" يحمل تاريخ سنة 330هـ/ 941م، وظهر هذا الأسلوب كذلك على دينار ساماني من ضرب مدينة "المحمدية" يحمل تاريخ 324هـ/ 935م. وأرجع البعض ظهور هذا النوع من الخط الكوفي إلى تأثر خطاطي بلاد ما وراء النهر بالخطوط والأختام الصينية. ويبرز هذا النوع من الخط الكوفي على عمائر مدينة ترمذ بأوزبكستان، والمؤرخة بسنة 423هـ/ 1023م. وبنهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بلغ الخط الكوفي المضفور درجة كبيرة من التطور، ويتضح ذلك في برج مسعود الثالث (492-508هـ/ 1099-1114م) بمدينة "غزنة"، حيث تتميز نقوشه بأن الضفر لم يقتصر على الحروف المتجاورة كالألفات واللامات، وإنما تعداها إلى طوالع الحروف. ومن أمثلة الكوفي المضفور الذي يجمع بين التزهير والضفر، صحن من خزف سمرقند يرجع إلى القرن الثالث الهجري/ العاشر الميلادي محفوظ بمتحف المتروبوليتان بنيويورك يُقرأ نقشه "العلم زين للفتى، والعقل تاج من ذهب، البركة واليُمن". وصحن آخر يرجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي محفوظ ضمن مجموعة خاصة في أوروبا يقرأ النقش "الخط يُعلِّمك كلام الناس".

الخط الكوفي ذو الأرضية النباتية: تقوم الكتابات في هذا النوع من الخط على أرضية نباتية، قوامها وحدات متكررة من الأفرع النباتية، التي تنبثق منها أوراق ووريدات تعلوها النقوش الكتابية. وظهر هذا النوع من الخط متأخرًا على العمائر في بلاد ما وراء النهر، إذ ترجع بداية ظهوره إلى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ويتضح ذلك من خلال النقش الكتابي المنفذ على العقد الذي يؤطر كتلة مدخل رباط ملك، والذي شيده شمس الملوك نصر بن إبراهيم، سلطان القراخانيين (460-472هـ/ 1068-1080م)، وزوج ابنة ألب أرسلان، سلطان السلاجقة (455-465هـ/ 1063-1072م)، والذي جمع فيه الخطاط ما بين الكوفي المزهر وذي الأرضية النباتية، ثم ظهر بعد ذلك على برج مسعود الثالث بمدينة غزنة، حيث جمع الخطاط ما بين الكوفي المضفور المنفذ على أرضية نباتية من فروع وأوراق متداخلة تتخلل النقش الكتابي.

الخط الكوفي ذو الإطار الزخرفي: ظهر هذا النوع من الكتابة بقبة دفن "أوزند"، ويتميز بتحوير هامات الحروف الطالعة، ومدها بعد ضفرها حتى تتقابل بإطار الإفريز العلوي للنقش الكتابي، وتنتهي تلك الامتدادات بهيئات زخرفية على شكل مراوح نخيلية متدابرة؛ لتُشكِّل إطارًا زخرفيًا، وقد استمر استخدام هذا النوع من الخط في العصر التيموري، إذ يغلب عليه البساطة في الشكل، وأحيانًا أخرى التعقيد من حيث إضافة عناصر زخرفية نباتية، فضلًا عن التنوع في ضفر قوائم الحروف، مثال ذلك واجهة قبة دفن "أمير زادة"، بتجمع شاه زنده، وترجع لعام 788هـ/ 1386م. كما استخدم هذا النوع من الخطوط في تزيين كنار السجاجيد التيمورية.

الخط الكوفي المربع الهندسي: يقوم هذا النوع من الخط على الكتابة الكوفية قائمة الزوايا، والتي تتميز بشدة استقامة حروفها، واستقامة القوائم والسيقان الخطية والزوايا القائمة، ويرجع ظهور هذا النوع من الخط في بلاد ما وراء النهر إلى النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وبنهاية هذا القرن ظهر هذا النوع من الخطوط على المنشآت في بلاد ما وراء النهر، وتعد مئذنة علاء الدولة مسعود الثالث الغزنوي (492-508هـ/ 1099-1114م) النموذج الأول له، وبحلول النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي عاد الخط الكوفي الهندسي للظهور مرة أخرى، وكان ذلك بداية انطلاقة أو ظاهرة فنية سرعان

ما انتشرت في زخرفة العديد من الوحدات والعناصر المعمارية على منشآت تلك الفترة، وخاصة العمائر الدينية والجنائزية. واستمر مُستخدمًا حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، ومثال ذلك الكتابات على مدرسة "شير دار"، التي أمر بإنشائها الأمير يلن توش بهادر، حاكم مدينة سمرقند (1038-1043هـ/ 1628-1633م)، وقام بخطه محمد عباس[50].

خط كوفي المصاحف: كتب بهذا الخط على الكثير من الخزفيات المصنوعة في سمرقند أو نيسابور، ومنها صحن يرجع إلى الربع الأخير من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي محفوظ ضمن مجموعة متحف فرير للفنون بواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، مكتوب عليه نقش "الجود من أخلاق أهل الجنة"، إلا أن النقوش الكتابية على معظم خزف سمرقند، والقليل منها على خزف نيسابور، هي بالخط الكوفي، الذي يتخذ أشكالًا مميزة ليس من السهولة إدراجها تحت أي نوع من أنواع الخطوط الكوفية المعروفة، كما أنها لا تخضع تمامًا لقواعد الخط المنسوب، التي وضعها الوزير ابن مقلة أو غيره من كبار أساتذة الخط، ومع ذلك فإنها تتسم بجمالية وبرشاقة أخاذة، وبالإبداع وقوة التعبير والجمال الزخرفي بحسن التوزيع ورشاقة الرسم، وإفادة من التقوسات والدوائر، فضلًا عن جعل النهاية العليا لأصابع الحروف تشبه قطة قلم البوص حين يقطع عرضًا في بريه، ومعظمها يقتصر على العبارات الدعائية المألوفة، وتجاوز القليل منها ذلك إلى تدوين أبيات من الشعر الرقيق، الذي يضم الحكم رائعة المعاني، ومن أمثلة ذلك صحن من الخزف من صناعة سمرقند، يرجع إلى أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، محفوظ في متحف اللوفر بباريس، يحمل بيتًا من الشعر في الحكمه، يتخذ شكلًا دائريًا يُحيط بالصحن من جهته الداخلية القريبة من حاشية الصحن، ومكتوب بالخط الكوفي المنقوط والموزون: "الحلم أوله مر مذاقته، لكن آخره أحلى من العمل، السلامة"[51].

إن الخط الذي كتب به خطاطي بلاد ما وراء النهر على الخزفيات، ضرب من الخطوط الكوفية ذات المظهر الخاص، الذي يختلف تمامًا عن الخط الذي كانت له السيادة في العراق وإيران في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، حيث إن الخط المكتوب به على الأواني الخزفية التي ترجع إلى سمرقند يُعدُّ تطورًا طبيعيًا للخط الكوفي الموجود على الخزف العراقي أو الفارسي، إذ يتسم بجمال حروفه الممشوقة، كما أنه يتميز بالدقة المتناهية، والتطابق في رسم جميع حروفه، ثم إن نقاط الإعجام لا تظهر في جميع كلماته، كما أن علامات الإعجام رُسمت فوق الحروف وتحتها على نحو غير ظاهر تمامًا، فتبدو كخطوط دقيقة وقصيرة جدًا، إذ أراد الخطاط ألا يجعل للإعجام تأثيرًا سلبيًا على جمالية الخط، ومن أمثلته صحن يعود إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، محفوظ ضمن مجموعة متحف بركلين في نيويورك، يُلاحظ فيه أن التنقيط الخاص بالإعجام دقيقًا، وقد حاول الخطاط ألا يجعله ظاهرًا جدًا؛ كي لا يكون نشازًا، ويقرأ النقش: "إن السلامة ما صمت، وإنما بيدي بطانة ذي العيوب كلامه"[52].

أهم الأعمال

ترجع تقاليد إقامة المكتبات العامة والخاصة، وجمع المخطوطات والمحافظة عليها في بلاد ما وراء النهر، كغيرها من أمصار العالم الإسلامي، وتمتد بجذورها إلى فجر الإسلام، إذ شهدت المنطقة حضارة إسلامية مزدهرة، حيث تركت الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكمها، المكتبات الغنية في المدن العريقة؛ كبخارى الشريفة، ومرو، وسمرقند، وغزنه، وهيرات، وغيرها من الحواضر الإسلامية، ثم شهدت الفترة التي امتدت ما بين القرون (11-13هـ/ 17-19م) على إثر تفكك الدولة الشيبانية إلى دويلات منفصلة شبه مستقلة

فـي أواخـر القـرن العاشـر الهجـري/ السـادس عشـر الميلادي تشـكل ثـلاث خانيـات أوزبكيـة، إحـداها فـي بخارى، واستعملت اللسان الفارسي، والثانيـة في خيوة واستعملت اللسان التركي، والثالثة في خوقند وجمعت بـين اللسـانين[53]، وقـد اهتمـت هـذه الـدويلات بجمـع المخطوطات في مكتبات القصور والمدارس، ومكتبات العلمـاء والمهتمـين كمجموعـات خاصـة، وتضـم مخطوطات قيّمة ونادرة، منها نسخة من كتاب "جامع التـواريخ" لرشـيد الـدين فضـل الله الهمـداني (672-717هـ/ 1274-1318م)، و"ظفر نامة" لشرف الدين علـي يـزدي (ت. 858هـ/ 1454م). وقـد ظلـت المـدن الكبـرى فـي بـلاد مـا وراء النهـر طـوال هـذه العصـور، تواصل تقدمها ورقيهـا، ودورهـا فـي استقبال العلمـاء والأدبـاء والفنـانين والخطـاطين، فعلـى مـا يبـدو أن تبـدل الأسـر الحاكمـة لـم يكـن لـه تـأثير علـى مسيرة الفنـون والآداب والعلوم في مدن بلاد ما وراء النهر الرئيسة.

وقـد نالـت المصـاحف الشـريفة وبعـض الكتـب حظوة خاصة من بين المخطوطات التي كُتبت في بلاد ما وراء النهر، وأعطاها المذهبون في النقاش خانـة الكثير مـن الاهتمـام، واعتنـوا بتـذهيبها وزخرفتهـا، وخاصـة صـفحاتها الأولـى، واسـتخدموا الحليـات الذهبيـة فـي زخرفـة بعضـها. كمـا بلغـوا كـذلك فـي تزويـق الكتـب بالصـور والرسـوم شـأوًا بعيـدًا، واتخـذوها وسـائل توضيحيه لكثير من الأحداث والموضوعات، التي يدور حولهـا الكتـاب. واشـتهر فنـانون ومزوقـون عديـدون؛ وردت الإشارة لهم في كتب التاريخ؛ لتشجيعهم هذا الفن ولعنـايتهم بـه، إلا أن الفـتن والقلاقـل والحـروب، التـي شهدتها بلاد ما وراء النهر، قد أتت على الكثير من تلك المخطوطات، التي أتلفتها أيدي العابثين والمتعصبين.

ومن أهم مخطوطات المصاحف في جمهوريـة أوزبكسـتان، النسـخة الوحيـدة والأصـلية مـن مصـحف عثمـان بـن عفـان، رضـي الله عنـه، ثالـث الخلفـاء الراشدين (23-35هـ/ 644- 656م)، والتـي ترجع إلـى القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، والمحفوظة في طشـقند، وهـي نسـخة كبيـرة الحجـم، مكتوبـة بـالخط الكـوفي علـى "رق الغـزال"، وكـان هـذا المصـحف موجودًا في سمرقند، ومحفوظًا في صومعة مخصصة لـه فـي مدرسـة "ديـوان بيغـي"، بـالقرب مـن مسـجد "خوجـة أحـرار"، الـذي كـان أحـد كبـار الشخصـيات الصوفية فـي القـرن التاسـع الهجـري/ الخـامس عشـر المـيلادي، ومـن أتبـاع طريقـة بهـاء الـدين النقشـبندي (710-791هـ/ 1311-1389م)، وتُفيـد الروايـات بأنـه كان يُجرى عرض هذا المصحف في المواسم، وبمناسبة الأحداث المشـهودة، حيث كـان يُشـاهده النـاس مُعتبـرين أنه المصحف الذي استشهد عثمان بن عفـان، رضـي الله عنه،أثناء قراءته فيه.

ويحتفظ متحف المتروبوليتان بنيويورك بخمسة أوراق مـن مصـحف كُتب فـي العصـر التيمـوري، يرجـع إلى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أو مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، تحمـل آيـات مـن سـورة القصـص، كُتبت بخـط المحقـق، الذي شاع في كتابة المصاحف الثمينة في تلك الفترة في مصر والعراق وفارس.

وتحـتفظ مكتبـة معهـد أبـي ريحـان البيرونـي للاستشراق (تأسس في عـام 1943)، والتـابع لأكاديميـة العلـوم بجمهوريـة أوزبكسـتان، بنفـائس التـراث العلمـي والأدبي المكتوب بلغات الشعوب الإسلامية، والتـي تبلـغ نحـو 70 ألـف مخطوطًـا كُتبـت باللغـات الفارسـية والأوزبكيـة وغيرهـا، وللمعهـد الفضـل الكبيـر فـي جمـع وحفـظ ودراسـة المخطوطـات النفيسـة، التـي كانـت تعـج بهـا المكتبـات الخاصـة، ومكتبـات المـدارس الإسـلامية المنتشـرة فـي مـدن وقـرى بـلاد مـا وراء النهـر؛ قبـل اجتيـاح الجيـوش القيصـرية الروسـية للـدول التـي كانـت قائمة آنذاك[54]. ومن المخطوطات النـادرة المحفوظة في المعهد اليوم نسخة أصلية من "تـاريخ الطبـري"، لأبـي جعفر بن جرير الطبري (ت. 310هـ/ 922م)، ونسـخة

من كتاب "تجارب الأمم" لابن مسكويه (ت. 420هـ/ 1030م)، و"الكامل في التاريخ" لابن الأثير (ت. 350هـ/ 1232م)، و"جامع التواريخ" لرشيد الدين بن عماد الدولة (ت. 718هـ/ 1218م)، و"تاريخ بخارى" لأبو بكر محمد بن جعفر النارشاهي (286-348هـ/ 899-959م)، والنسخة الأصلية من مخطوط "مهمان نامة بخارى"، لفضل الله بن روزبهان (ت. 927هـ/ 1521م)، كما تحتوي مكتبة المعهد على العديد من المخطوطات في الأدب للفردوسي، سعدي، دهلوي، جلال الدين الرومي، عمر الخيام، محمد بن سليمان فضولي البغدادي، الزمخشري، وفي العلوم نسخ من مخطوطات أبو بكر الرازي، وأبو نصر الفارابي، وأبو ريحان البيروني، وابن سينا، وياقوت الحموي، وغيرهم[55].

كما تحتفظ مكتبة "خاست إمام" بحوالي ثلاثة آلاف مخطوط تتناول التاريخ، وعلوم الفلك والطب، والقانون، والقرآن الكريم والعلوم الإسلامية الأخرى.

أما عن الخطوط المنقوشة على العمارة الجنائزية، فمنها خطوط وكتابات ونقوش وزخارف في تجمع شاه زنده الجنائزي، الذي يُنسب للفترة بين القرنين 6-9هـ/ 12-15م، وقبة دفن خواجة أحمد (741هـ/ 1340م)، قبة دفن قثم بن العباس (753هـ/ 1352م)، قبة دفن ألجي شاد ملك أقا (773هـ/ 1375م)، قبة دفن تنسب لأستاذ علي نسفي، ترجع إلى الربع الأخير من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وقبة دفن شيرين بيك أقا (767هـ/ 1385م)، قبة دفن أمير زاده (788هـ/ 1385م)، قبة دفن تومان أقا (807-808هـ/ 1404-1405م)، مجمع كور أمير (807-808هـ/ 1404-1405م)، قبة دفن برهان الدين صاغرجي (روح آباد) (802-807هـ/ 1399-1404م)، دخمة شيباني خان، والتي ترجع للقرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

وتوجد خطوط ونقوش على العمارة الدينية في مسجد بيبي خانم (801-806هـ/ 1399-1403م)، ومسجد تومان أقا، الذي يُرجعه المؤرخون إلى النصف الأول من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ونقوش على العمارة التعليمية، في مدرسة ميرزا ألغ بيك (820-822هـ/ 1417-1419م)، ومدرسة شيردار (1029-1042هـ/ 1641-1660م)، ومدرسة تيلاكاري (1051-1071هـ/ 1641-1660م)، وتتنوع الخطوط التي كتبت بها هذه النقوش ما بين الخط الكوفي، والخط الثلث، والخط الفارسي (النستعليق)، وهذه النقوش عبارة عن آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وعبارات دينية؛ كألفاظ الجلالة والتوحيد، وأسماء الله الحسنى، بالإضافة لنصوص تسجيلية لتواريخ تأسيس هذه العمائر المختلفة، سواء أكانت قباب دفن أو مساجد أو مدارس، فضلًا عن اسم المنشئ وألقابه، وتواريخ البدء في البناء والفراغ منه[56]. كما تُغطى مدرسة أولوغ بيك ابن شاه رخ، ومسجدها بزخارف كثيفة تتنوع ما بين الزخارف الهندسية والكتابية، والتي استخدم في تنفيذها بلاطات خزفية مزججة، ومن المؤكد أن أولوغ بيك قد اختار أفضل الخطاطين في بلاطه ليكتب بأعلى مدخل المدرسة الحديث النبوي الشريف "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"[57].

الزخرفة والتذهيب والرسم

لم يترك الفنان في بلاد ما وراء النهر أي جانب من جوانب صناعة الكتاب إلا واهتم به، ومسته أنامله السحرية، ولهذا نال فن تجليد المصاحف الشريفة والمخطوطات عناية خاصة، فجاءت أعمالهم تحفًا فنية رائعة تنطق بتفوقهم في هذا الميدان، وما وصلنا من هذه النماذج المتميزة كثير، ولا يزال محفوظ في المكتبات العامة والخاصة. ويتبين مما وصلنا أنهم استخدموا جلود الحيوانات بعد دبغها، وإكسابها مظهرًا

جميلا، وتفننوا في تجليد الأغلفة بالرسوم الهندسية والزخارف النباتية، وغيرها.

ولم تقتصر النجاحات الفنية على مجال الخطوط، رغم أنها بقيت لفترات طويلة الممارسة الجذابة والمحببة لدى الكثير من الخطاطين في بلاد ما وراء النهر، خاصة أنهم قاموا بدمج مفردة الخط مع الكثير من النماذج المعمارية، كالمساجد، والمدارس ومباني الأضرحة، التي أولى لها الخطاطون والمزخرفون اهتمامًا خاصًا في سمرقند إبان الفترة التيمورية، كما سبق الذكر.

والملاحظ في كتابات خطاطي بلاد ما وراء النهر هو ضفر الحروف الممتدة أفقيًا في الخط الكوفي، والذي امتد للكتابة على الزخرف المصنوع في سمرقند، وكذلك النقوش الكتابية الرسمية، مثل النقود السامانية، ومن ذلك الدينار المضروب في "المحمدية"، والذي يحمل اسم الأمير الساماني نصر بن أحمد مؤرخ بسنة 324هـ/ 935م، والمحفوظ ضمن مجموعة جمعية النميات الأمريكية بنيويورك، ويلاحظ عليه بوضوح كيف أن حرف الدال من كلمة محمد تمّ ضفره ثلاث مرات، وضفر هذا النوع من الخط الكوفي أمر لم يُعهد من قبل في الخط العربي، والذي يختلف اختلافًا واضحًا عن كوفي المصاحف، الذي كان شائعًا في العالم الإسلامي طوال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ومن المؤكد أن هذا النوع من الخط تمت الاستعانة به في كتابة بعض المصاحف والمخطوطات المهمة أو الثمينة، وقد أطلق عليه بعض الباحثين شبيه الكوفي أو الكوفي اللين أو الكوفي المكسور.

ثمة نجاحات ملموسة ومميزة طالت كذلك أعمال وإنتاج "المنمنمات"، التى انتشر استخدامها ورسمها في إقليم بلاد ما وراء النهر، وخاصة في الفترة التيمورية، التى أنتجت مدرسة خاصة في تشكيل المنمنمات، حيث كان يعمل على إنتاج المنمنمة، فنانون محترفون ذوي أهلية فنية عالية بصورة جماعية، ويقود هذا الفريق، الذي يتكون من مهنيين مختصين بصناعة الورق، وخطاطين ومزوقين، ورسامين ومجلدي الكتب، فنان يكون مسؤولًا عنها، وتكون بعهدته مهام إخراج وتصميم، وتحديد تكوين المنمنمة، وتشكيل عناصرها، ويُسهم في رسمها، وتحديد أسلوب ذلك الرسم.

ووصلت إلينا الكثير من المخطوطات، التي كتبت في مدينتي بخارى وسمرقند، والمعززة بالمنمنمات، وهي صور توضيحية على درجة عالية من الاتقان من الناحية الفنية والتقنية، ومنها منمنمة تعود إلى حوالي عام 707هـ/ 1307م، محفوظة الآن في جامعة أدنبرة ببريطانيا، ومنقولة من كتاب "جامع التواريخ" لمؤلفه رشيد الدين الهمداني (645-718هـ/ 1247-1318م)، حيث يظهر السلطان منصور الساماني (350-365هـ/ 961-975م)، أثناء حفلة تتويجه في مدينة بخارى. وتبين خطوط رسم الشخصيات وملابسهم المشغولة بحذق ظاهر وبكثافة من الاختصار التشكيلي، على براعة فنية استطاع الرسام أن ينقل مزاج الحدث "الوثائقي" الذي يسجله.

وفي منمنة أخرى كُتبت في بخارى؛ باسم "سحب يوسف من الجُب"، تعود إلى حوالي عام 968هـ/ 1560م، من مقتنيات متحف مجموعة ديفيد في كوبنهاجن بالدنمرك، تظهر هذه المنمنمة قصة يوسف عليه السلام، ومأخوذة من أنطولوجيا "العروش السبعة" لنور الدين عبد الرحمن جامي (817-898هـ/ 1414-1492م)، الذي يُعدُّ ثالث شاعر في إيران بعد الفردوسي والنظامي، والذي عمل في بلاط السلطان التيموري حسين بايقرا، حيث قام فنان المنمنمة بتقسيم سطحها إلى قسمين، القسم الأسفل، وهو القسم الأهم، حيث يصور واقعة سحب يوسف عليه السلام من الجب، الذي رماه فيه إخوته، وهو يخرج سالمًا، ويجرّ إلى الأعلى من قبل التاجر المنقذ. في حين يُدلل القسم الأعلى على لحظة صفاء لاجتماع أصدقاء التاجر

المنقذ، وهم يستريحون من وعثاء السفر، ويتندرون بحديث يبدو مشوقًا عن ما جرى لهذا الشخص، الذي أنقذ توًا من البئر. وثمة ناقة، في أعلى جزء من المنمنمة تلتهم عشبًا، وبجوارها ناقة أخرى باركة، تمضغ بسلام ما التهمته سابقًا[58].

الخاتمة

يتضح من الدراسة النتائج التالية:

- ترك الخط العربي تأثيره في كافة الفنون الأسيوية، سواء في بلاد آسيا الوسطى أو الصين أو روسيا وغيرها، إذ تأثر فنانو تلك المناطق بالخط العربي، الذي يجمع ما بين الروعة الفنية، والحكمة الإنسانية، ومن ثم نلحظ الكثير من الكتابات والنقوش والزخرفات على المباني المعمارية التي وصلتنا، والتي تتنوع ما بين القبور والمعابد والقصور وغيرها.
- استطاع الخط العربي خلال رحلته في بلاد ما وراء النهر أن يحل محل خطوطها القديمة، وأن تكون له السيادة بداية من القرن الثاني الهجري، واستمر كذلك حتى انهيار الدول الإسلامية فيها، وخضوعها للاحتلال الصيني والروسي.
- ضرب خطاطو بلاد ما وراء النهر بسهم وافر في تطور الخط العربي، وكانت لهم مدرستهم المميزة والفريدة، التي نجحت في أن تخلق ملامح مختلفة وخصائص مميزة، ونجحت في إبداع أساليب طبعت عصرها بطابعها، وكان لهم فضلًا كبيرًا في اختراع عدد من الخطوط وتطوير أخرى، كما أنهم تركوا آثارًا خطية كثيرة على العمارة الجنائزية والدينية والتعليمية والخزف، وكانت لهم بصمتهم الخاصة في كتابة المصاحف وغيرها من المخطوطات، وكان لهم دورهم في ازدهار الخط العربي في كافة حواضر بلاد ما وراء النهر عامة، وسمرقند وبخارى ونيسابور وهيرات وغزنة خاصة.
- حظي خطاطو بلاد ما وراء النهر برعاية الحكام والأمراء، الذي حكموا في تلك المنطقة، إذ اهتموا بالخط العربي وأولوه عناية فائقة لارتباطه بكتابة القرآن الكريم، وكان للخطاطين عندهم الحظوة، ما جعلهم يُبدعون أعمالا خطية فريدة على منشآتهم، وخاصة مقابرهم، وما وفر لهم سبل الحياة الكريمة التي تساعد على الإبداع والابتكار، ومن ثم أبدعو وأبتكروا وطورا في أنواع الخط العربي، فكان لهم دورًا مهمًا وبارزًا لا يمكن إغفاله.
- أقبل الخطاطون والفنانون والمذهبون والنقاشون في بلاد ما وراء النهر على تجويد فنون الخط العربي، والابتكار في أنواعه أدواته وطرق صناعته، وتفننوا كذلك في فنون الكتاب كالتصوير والتذهيب والتجليد، فصار لهم مدرستهم الخاصة التي تحمل طابعًا فنيًا متقنًا خاصًا بين مدارس فنون الكتاب الإسلامية.

تعددت الصيغ والعبارات المكتوبة على عمائر ومباني وأواني بلاد ما وراء النهر ما بين آيات من القرآن الكريم، وأحاديث نبوية شريفة، وبعض الأقوال والحكم المأثورة، بالإضافة للدعوات، كما تعددت كذلك أنواع الخطوط ما بين النسخ والثلث والنستعليق والكوفي البسيط والهندسي والمضفور وغيره.

الهوامش:

---

(1) السيد عبد المؤمن السيد أكرم: أضواء على تاريخ توران (تركستان)، أحمد جمال الدين (تقديم)، (مكة المكرمة: مطبعة رابطة العالم الإسلامي، 1395هـ)، ص 17. ويذهب البعض إلى أن كلمة "تورك" اسم لقبيلة مستقلة، أو على الأرجح اسم لأسرة حاكمة، ويُحتمل أن يكون معناها "القوة"، وقد وردت في نقوش "أورخون" بمعنى "قوم". بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، أحمد السعيد سليمان (ترجمة)، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996)، ص 44.

(2) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، 5ج، (بيروت: دار صادر، 1977)، ج5، ص 45. وأطلق المقدسي كذلك على بلاد ما وراء النهر "بلاد الهياطلة". أبي عبد الله محمد بن أحمد

البشاري المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991)، ص 371. والهياطلة دولة تركية حكمت تركستان الشرقية (484-566م). عبد العزيز جنكيز خان: تركستان قبل آسيا، (طشقند: الجمعية الخيرية التركستانية، د. ت.)، ص 24.

(3) فاسيلي فلاديمير وفتش بارتولد: تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي، صلاح الدين عثمان هاشم (ترجمة)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981)، ص 145.

(4) يرجع أصل العثمانيون إلى الأيغور، والتي تعني بالتركية الاتحاد، أي إتحاد القبائل التركية، التي يبلغ عددها 21 قبيلة تحت قيادة موحدة.

(5) أكرم: أضواء على تاريخ توران، ص 9.

(6) محمود محمد خلف: بلاد ما وراء النهر في العصر العباسي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014)، ص 7.

(7) محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، (الرياض وبيروت: دار الأندلس الخضراء ودار ابن حزم، 1998)، ص 149-152.

(8) محمود محمد السيد علي خلف: "رحلة فقهاء بلاد ما وراء النهر إلى مصر خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة"، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الخامس، (يناير 2018)، ص 96.

(9) حسن أحمد محمود: الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972)، ص 145 وما بعدها.

(10) عصام الدين عبد الرءوف الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1999)، ص 307.

(11) سلمان بن سالم بن رجاء السحيمي: "أثر العربية في أهم اللغات في آسيا"، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر، العدد 27، (2007)، ص 1797-1868.

(12) علي عفيفي علي غازي: "نشأة وتطور الخط العربي في الإسلام"، المجلة العربية، العدد 405، (شوال 1431هـ/ سبتمبر 2010م)، ص 21-23.

(13) عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1900)، ص 419-421.

(14) علي عفيفي علي غازي: "خطوط ابتكرها العثمانيون"، مجلة سمرقند، العدد 55، (كانون الثاني/ يناير 2020)، ص 14-19.

(15) عمر أفا (وآخر): الخط المغربي تاريخ وواقع وآفاق، (الدار البيضاء: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007).

(16) سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، (بغداد: منشورات المكتبة الأهلية، 1962)، ص 67، 68.

(17) عبد العزيز حميد صالح: تاريخ الخط العربي عبر العصورالمتعاقبة، ج3، إيران بلاد مابين النهرين بلاد الأناضول شبه القارة الهندية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2017)، ج3، ص 122.

(18) هلال ناجي: ابن مقلة خطاطًا وأديبًا وإنسانًا، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991)، ص 28-33، 99-110.

(19) علي عفيفي علي غازي: "اهتمام السلاطين العثمانيين بالخط العربي والفنون الإسلامية"، بحث ألقي بمهرجان الثقافة والكتاب العربي الدولي الرابع، المقام في إسطنبول - تركيا، في الفترة بين 22 شباط/ فبراير - 3 آذار/ مارس 2019، ونشر بمجلة ASEAD CİLT، العدد السادس، (2019)، ص 191-210؛ علي عفيفي علي غازي: "السلاطين الخطاطون"، مجلة سمرقند، العدد 54، (كانون الأول/ ديسمبر 2019)، ص 16-19.

(20) صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 157، 158.

(21) محمد بن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن البصيص: شرح قصيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب، يوسف ذنون (تحقيق)، (بيروت: دار النوادر، 2008)، ص 6، 7.

[22] صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 164، 165.

[23] صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 168، 169.

[24] صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 175-177.

[25]السيد فرج: القائد الرهيب تيمورلنك، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت.)، ص 46.

[26] زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، (بيروت: دار الرائد العربي، 1981)، ص 71.

[27] عباس العزاوي: "الخط العربي في تركيا"، مجلة سومر، الجزء الأول والثاني، المجلد 32، (1976)، ص 396.

[28] صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 203؛ حبيب أفندي بيدابش: الخط والخطاطون، سامية محمد جمال (ترجمة)، الصفصافي أحمد القطوري (مراجعة)، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010)، ص 141، 142، 254؛ صلاح الدين المنجد: ياقوت المستعصمي، (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1985)، ص 7-11.

[29] صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 201، 202.

[30] الأصطخري: مسالك الممالك، (ليدن: مطابع بريل ، 1927)، ص 315.

[31] السيد أكرم: أضواء على تاريخ توران، ص 36.

[32] خالد عزب: بخارى الشريفة تاريخها وتراثها الحضاري، (القاهرة: مكتبة مدبولي، د. ت.)، ص 10.

[33] السيد أكرم: أضواء على تاريخ توران، ص 46.

[34] فلاديمير وبارتولد: تركستان، ص 171.

[35] الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 45.

[36] أرمنيوس فامبري: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، أحمد محمود الساداتي (ترجمة)، يحيى الخشاب (مراجعة وتقديم)، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1987)، ص 27.

[37] ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (بيروت:دار الكتاب البناني، د. ت.)، ص 251.

[38] صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 152-155.

[39] علي عفيفي علي غازي: "العصر العثماني العصر الذهبي للخط العربي"، مجلة سمرقند، العدد 53، (تشرين الثاني/ نوفمبر 2019)، ص 16-19؛ علي عفيفي علي غازي: "شيخ الخطاطين العثمانيين حمد الله الآماسي"، مجلة سمرقند، العدد 56، (شباط/ فبراير 2020)، ص 14-19.

[40] إحسان ذنون الثامري: الحياة العلمية زمن السامانيين، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2001)، ص 138.

[41] الحموي: معجم البلدان، ج5، ص 153؛ بيدابش: الخط والخطاطون، ص 128.

[42] بيدابش: الخط والخطاطون، ص 267، 268، 293.

[43] بيدابش: الخط والخطاطون، ص 270.

[44] محمد مصطفى: صور من مدرسة بهزاد في المجموعات الفنية بالقاهرة، (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ت.)، ص 5-10؛

Ebadollah Bahari: Bihzad Master of Persian Panting, Annemarie Schimmel (foreword), (London: I. B. TAURIS & CO. Ltd., 1996), p. 38.

[45] صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 111؛ زكي محمد حسن: التصوير في الإسلام عند الفرس، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012)، ص 91.

[46] محمود شكر الجبوري: بحوث ومقالات في الخط العربي، (بغداد: دار الشرق للطباعة والنشر، 2005)، ص 251.

[47] وليد سيد حسنين محمد: فن الخط العربي؛ المدرسة العثمانية ، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2015)، ص 84؛ أحمد صبري محمود زايد: تاريخ الخط

العربي وأعلام الخطاطين، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 1998)، ص 74، 75.

(48) عباس العزاوي: "الخط العربي في إير ان"، مجلة سومر، الجز الأول والثاني، المجلد 25، (1969)، ص 183.

(49) بيدابش: الخط والخطاطون، ص 277-280.

(50) شبل إبراهيم عبيد: "الخط الكوفي على العمائر في آسيا الوسطى: النشأة والتطور"، مجلة أبجديات، العدد السابع (2012)، ص 62-80.

(51) صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 140، 141.

(52) صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 142، 143.

(53) بارتولد: تاريخ الترك، ص 16، 265-269.

(54) محمد البخاري وتيمور مختاروف: صور عربية من تاريخ العرب في ما وراء النهر، نعمة الله إبراهيموف وحسن محمد النابودة (مراجعة)، (أبو ظبي: مركز زايد للتراث والتاريخ ، 2002)، ص 115، 116.

(55) البخاري ومختاروف: صور عربية، ص 127، 128.

(56) شبل إبراهيم عبيد: ديوان الخط العربي في سمرقند، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2012)، ص 21، 79، 93، 110، 134، 168، 180-183.

(57) صالح: تاريخ الخط العربي، ج3، ص 127، 128.

(58) خالد السلطاني: "خطوط ومنمنمات إقليم بلاد ما وراء النهر"، صحيفة إيلاف، (9 يوليو 2017).

(59)

المصادر والمراجع

أولا: باللغة العربية

1. ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، (بيروت:دار الكتاب البناني، د. ت.).
2. أبي عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1991).
3. إحسان ذنون الثامري: الحياة العلمية زمن السامانيين، (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 2001).
4. أحمد صبري محمود زايد: تاريخ الخط العربي وأعلام الخطاطين، (القاهرة: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، 1998).
5. أرمنيوس فامبري: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، أحمد محمود الساداتي (ترجمة)، يحيى الخشاب (مراجعة وتقديم)، (القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، 1987).
6. الأصطخري: مسالك الممالك، (ليدن: مطابع بريل ، 1927).
7. السيد عبد المؤمن السيد أكرم: أضواء علة تاريخ توران (تركستان)، أحمد جمال الدين (تقديم)، (مكة المكرمة: مطبعة رابطة العالم الإسلامي، 1395هـ).
8. السيد فرج: القائد الرهيب تيمورلنك، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت.).
9. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، أحمد السعيد سليمان (ترجمة)، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996).
10. حبيب أفندي بيدابش: الخط والخطاطون، سامية محمد جمال (ترجمة)، الصفصافي أحمد القطوري (مراجعة)، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010).

11. حسن أحمد محمود: الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972).

12. خالد عزب: بخارى الشريفة تاريخها وتراثها الحضاري، (القاهرة: مكتبة مدبولي، د. ت.).

13. زكي محمد حسن: التصوير في الإسلام عند الفرس، (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012).

14. زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، (بيروت: دار الرائد العربي، 1981).

15. سهيلة ياسين الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، (بغداد: منشورات المكتبة الأهلية، 1962).

16. شبل إبراهيم عبيد: ديوان الخط العربي في سمرقند، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، 2012).

17. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، 5ج، (بيروت: دار صادر، 1977).

18. صلاح الدين المنجد: ياقوت المستعصمي، (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1985).

19. عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، (بيروت: المطبعة الأدبية، 1900).

20. عبد العزيز جنكيز خان: تركستان قبل آسيا، (طشقند: الجمعية الخيرية التركستانية، د. ت.).

21. عبد العزيز حميد صالح: تاريخ الخط العربي عبر العصورالمتعاقبة، ج3، إيران بلاد مابين النهرين بلاد الأناضول شبه القارة الهندية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2017).

22. عصام الدين عبد الرءوف الفقي: الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1999).

23. عمر أفا (وآخر): الخط المغربي تاريخ وواقع وآفاق، (الدار البيضاء: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007).

24. فاسيلي فلاديمير وفتش بارتولد: تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي، صلاح الدين عثمان هاشم (ترجمة)، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981).

25. محمد البخاري وتيمور مختاروف: صور عربية من تاريخ العرب في ما وراء النهر، نعمة الله إبراهيموف وحسسن محمد النابودة (مراجعة)، (أبو ظبي: مركز زايد للتراث والتاريخ ، 2002).

26. محمد بن موسى بن علي الشافعي المعروف بابن البصيص: شرح قصيدة ابن البواب في علم صناعة الكتاب، يوسف ذنون (تحقيق)، (بيروت: دار النوادر، 2008).

27. محمد مصطفى: صور من مدرسة بهزاد في المجموعات الفنية بالقاهرة، (القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د. ت.).

28. محمود شكر الجبوري: بحوث ومقالات في الخط العربي، (بغداد: دار الشرق للطباعة والنشر، 2005).

29. محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، (الرياض وبيروت: دار الأندلس الخضراء ودار ابن حزم، 1998).

30. محمود محمد خلف: بلاد ما وراء النهر في العصر العباسي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2014).

31. هلال ناجي: ابن مقلة خطاطًا وأديبًا وإنسانًا، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، 1991).

32. وليد سيد حسنين محمد: فن الخط العربي، المدرسة العثمانية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015).

ثانيًا: مقالات في دوريات

33. خالد السلطاني: "خطوط ومنمنمات إقليم بلاد ما وراء النهر"، صحيفة إيلاف، (9 يوليو 2017).

34. سلمان بن سالم بن رجاء السحيمي: "أثر العربية في أهم اللغات في آسيا"، مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق جامعة الأزهر، العدد 27، (2007).

35. شبل إبراهيم عبيد: "الخط الكوفي على العمائر في آسيا الوسطى: النشأة والتطور"، مجلة أبجديات، العدد السابع (2012).

36. عباس العزاوي: "الخط العربي في تركيا"، مجلة سومر، الجزء الأول والثاني، المجلد 32، (1976).

37. عباس العزاوي: "الخط العربي في إير ان"، مجلة سومر، الجزء الأول والثاني، المجلد 25، (1969).

38. علي عفيفي علي غازي: "العصر العثماني العصر الذهبي للخط العربي"، مجلة سمرقند، العدد 53، (تشرين الثاني/ نوفمبر 2019).

39. علي عفيفي علي غازي: "السلاطين الخطاطون"، مجلة سمرقند، العدد 54، (كانون الأول/ ديسمبر 2019).

40. علي عفيفي علي غازي: "خطوط ابتكرها العثمانيون"، مجلة سمرقند، العدد 55، (كانون الثاني/ يناير 2020).

41. علي عفيفي علي غازي: "شيخ الخطاطين العثمانيين حمد الله الآماسي"، مجلة سمرقند، العدد 56، (شباط/ فبراير 2020).

42. علي عفيفي علي غازي: "نشأة وتطور الخط العربي في الإسلام"، المجلة العربية، العدد 405، (شوال 1431هـ/ سبتمبر 2010م).

43. محمود محمد السيد علي خلف: "رحلة فقهاء بلاد ما وراء النهر إلى مصر خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة"، مجلة رواق التاريخ والتراث، العدد الخامس، (يناير 2028).

ثالثًا: باللغات الأجنبية

44. Ebadollah Bahari: Bihzad Master of Persian Panting, Annemarie Schimmel (foreword), (London: I. B. TAURIS & CO. Ltd., 1996).

مظاهر عناية سلاطين دولة المماليك بالمرافق العامة والخدمات بالمدينة المنورة 648-923هـ\1250-1517م "دراسة تاريخية حضارية"

الأستاذة الدكتورة عائشة بنت مرشود حميد الحربي

أستاذ التاريخ الوسيط كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بجامعة طيبة – السعودية

الملخص:

يعتبر عصر دولة المماليك (648-923هـ\1250-1517م) من العصور العظيمة، والمزدهرة حضاريا؛ لذا مازالت بعض آثارها المادية باقية في الوقت الحالي، وساعدهم في ذلك استقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية في مصر، بجانب سلاطينها الأقوياء مثل الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والناصر محمد قلاوون، والأشرف قايتباي، وبرقوق الشركسي، والأشرف برسباي وغيرهم؛ ولذا قاموا بأعمال العمارة في المدينة المنورة، وأوقفوا الأوقاف للصرف عليها، وكان ريع هذه الأوقاف يصرف على أعمال العمارة الدينية، والعاملين بالمسجد النبوي، هذا بجانب صرفها للعناية بالخدمات العامة الدائمة، مثل البيمارستانات، والمدارس، والأربطة، والمكتبات، وحفر العيون والآبار، مع الحرص المستمر على القيام بأعمال الإصلاح والترميم، وفي حقيقة الأمر أن كل هذه الأعمال ستضفي على دولتهم البعد الديني والشرعي. وهدف هذا البحث إلى عرض نماذج متنوعة لتلك المرافق والخدمات، مع الكشف عن النواحي التي تم فيها الدعم والرعاية، وذلك من خلال ما سطرته لنا المصادر التاريخية من أعمال سلاطين دولة المماليك في المرافق العامة والخدمات.

الكلمات المفتاحية:

المرافق العامة، الخدمات، دولة المماليك، المدينة المنورة، الأوقاف.

Summary :

The era of the Mamluk state (648-923 AH / 1250-1517 AD) is considered one of the great and culturally prosperous eras, so some of its material traces still remain at the present time, and they were helped in this by the stability of the political and economic conditions in Egypt, along with its powerful sultans such as Al-Zahir Baybars, Al-Mansur Qalawun, and Al-Nasir Muhammad. Qalawun, Al-Ashraf Qaitbay, Barquq Al-Circassian, Al-Ashraf Barsbay, and others. Therefore, they carried out architectural work in Medina, and endowed endowments to be spent on them. The proceeds from these endowments were spent on religious architecture works and the workers in the Prophet's Mosque, in addition to spending them on taking care of permanent public services such as mosques, schools, libraries, digging springs and wells, with constant care to carry out repair and

restoration work, In fact, all of these actions will give their state a religious and legal dimension. The aim of this research is to present various models of these facilities and services, while revealing the aspects in which support and care were provided. This is through what historical sources have recorded for us about the actions of the Mamluk Sultans in public facilities and services.

key words :

Public facilities, services, Mamluk state, Medina, Endowments.

المقدمة

عندما قامت دولة المماليك في مصر عام 648هـ\ 1250م فكرت بالسيطرة على مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ نظرا لوجود الأماكن المقدسة بها، فضلا عن الأهمية الدينية والتاريخية لها عند المسلمين كافة، ومن الجانب السياسي حتى تضفي الصبغة الشرعية على دولة المماليك، خاصة أنها من أقوى الدول الإسلامية آنذاك، كما أن الخليفة العباسي قد رفض الاعتراف بدولتهم في بداية الأمر؛ لأنهم مماليك الأصل "عبيد"، ولذا اعتقد المماليك أن من ينجح في السيطرة على الحرمين، سوف يسيطر على العالم الإسلامي كله، بل ويكسب عطفه وتأييده.

واتضح من خلال المصادر التاريخية المتنوعة مدى اهتمام المماليك بالمرافق العامة والخدمات بالمدينة المنورة، كما حرص سلاطين دولة المماليك على وقف الأوقاف على عمارة المرافق العامة، كالمساجد، والمكتبات، والأسواق، كما تصدقوا في مواسم الحج على أهل الحرمين، مما دعم خدمات توفير الطعام. واستمدت الدراسة أهميتها من المكانة العظيمة للمدينة المنورة في نفوس المسلمين فهي العاصمة الأولى للدولة الإسلامية، كما أن البحث قد اهتم بتسليط الضوء على فترة تاريخية مهمة من تاريخ المدينة وهي فترة سلاطين دولة المماليك، وأعمالهم، وخدماتهم المجيدة فيها.

ويهدف البحث إلى:

- إلقاء الضوء على مظاهر عناية سلاطين دولة المماليك بالمرافق والخدمات.
- توضيح أهم الخدمات التي شملتها رعاية سلاطين دولة المماليك.
- إبراز النتائج المترتبة على أعمال سلاطين دولة المماليك الحضارية بالمدينة المنورة.
- الكشف عن كيفية تغطية سلاطين دولة المماليك لنفقات العمارة والترميم.
- رسم صورة حضارية مشرقة عن المدينة المنورة في العصر المملوكي.

وسار البحث على المنهج التاريخي القائم على رصد وتتبع الأحداث التاريخية، وذلك من خلال جمع المادة العلمية من مظانها الأصلية والفرعية، ومن ثم إخضاعها للفحص، والتحليل، والاستنتاج، مع مراعاة الالتزام التام بالموضوعية؛ من أجل تحقيق الأهداف المنشودة من الدراسة، واقتضت طبيعة المقرر تقسيمه إلى مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

شملت المقدمة الموضوع وأهميته وأهدافه ومنهج الدراسة وتقسيماتها. تناول المبحث الأول المرافق العامة، والتي تشمل المساجد، والمكتبات، والأسواق. وجاء المبحث الثاني ليتحدث عن الخدمات التي تمثلت في توفير المياه، والأطعمة، والإسكان، والخدمات الصحية والاجتماعية. ثم الخاتمة التي لخصت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها مع التوصيات، وذيلت البحث بقائمة من المصادر والمراجع.

أولا: المرافق العامة:

1- المساجد:

ساهم سلاطين دولة المماليك بخدمة المساجد؛ لأنها من المرافق الرئيسة في المدينة، وتقدم للمجتمع خدمات دينية وتعليمية. ومن أمثلة ذلك:

- **مسجد قباء:**

هو أول مسجد أسس على التقوى، وقد أسسه الرسول ε حين قدم مهاجراً من مكة[1]. وقام عدد من الخلفاء بتوسعته، ومنهم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، إذ بناه بالحجارة والجص، وأقام فيه الأساطين من الحجارة بينها عواميد الحديد والرصاص، ونقشه بالفسيفساء، وعمل له منارة، وسقفه بالساج، وجعله أروقة، وفي وسطه رحبة، وتهدم[2] على طول الزمان حتى جدد عمارته جمال الدين الأصفهاني وزير بني زنكي في سنة خمس وخمسين وخمسمائة للهجرة[3].

وطوله ثمانية وستون ذراعاً، وعرضه كذلك، وارتفاعه في السماء عشرون ذراعاً، وطول منارته من وسطه اثنان وعشرون ذراعاً، وعلى رأسها قبة نحو العشرة أذرع في المسجد، تسع وثلاثون بين كل أسطوانتين، سبعة أذرع راجحة في جدرانه، طاقات من كل جانب ثمان إلا الجانب الشامي، فإن الثانية سدت بالمنارة، ومنارته مربع وهو على يمين المصلي[4].

أما عن المسجد في القرن التاسع الهجري فبناؤه يتكون من ثلاث صفوف جهة القبلة، بكل صف سبعة أساطين بين المشرق والمغرب، وجهة الشمال صفان بكل صف سبعة أساطين، وفيما يلي الرحبة من المغرب أسطوانتان[5].

وفي عام (671هـ / 1272م)، جدد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس[6] بناء المسجد، وتوالى اهتمام سلاطين دولة المماليك بمسجد قباء ففي عام (733هـ / 13321م)، جدده السلطان الناصر محمد بن قلاوون[7]، وفي عام(840هـ / 1436م)، جدد غالب سقفه الأشرف قايتباي، فضلاً عن ذلك أعيد بناء الأسقف عندما سقطت المئذنة عام (877هـ / 1472م)، فأجريت الإصلاحات عام (881هـ / 1476م)، في السقف، وفي السور الخارجي الغربي من جهة المئذنة حتى الباب الغربي، وعملت المئذنة مربعة المسقط، وقد سدت النوافذ الثلاثة مما يلي المئذنة في الحائط الغربي، بالإضافة إلى نافذة واحدة بجوار المئذنة بالحائط الشمالي[8].

- **مسجد الفتح:**

يقع على قطعة من جبل سلع[9] من جهة الغرب، وغربيه وادي بطحان[10]، وتحت الوادي عين تجري، ويعرف الموضع بالسيح[11]. يصعد إلى المسجد من درجتين شماليه وشرقيه، وكانت فيه ثلاث أسطوانات، لكن هذا البناء قد تهدم[12]، فجدد في سنة خمس وسبعين وخمسمائة، كما جدد أيضاً عام (876هـ / 1471م[13]).

– **مسجد القبلتين:**

سمي بمسجد القبلتين لأن رسول الله -ε- صلى بأصحابه في مسجد القبلتين الظهر، فلما صلى ركعتين أمره الله أن يتوجه إلى الكعبة، فاستدار رسول الله إلى الكعبة[14]. وفي العصر المملوكي عام (893هـ / 1487م)، تم تجديد سقف هذا المسجد وإصلاحه في عهد السلطان الأشرف قايتباي، وكان شيخ الخدام الشجاعي شاهين الجمالي[15].

- **مسجد بني قريظة:**

يقع بالعوالي[16] شرقي مسجد الفضيخ[17]، وطوله نحو عشرين ذراعاً، وعرضه كذلك[18]، وفيه ست عشرة أسطوانة قد سقط بعضها، وهو بلا سقف، وحيطانه مهدومة، وقد كان مبنياً على شكل مسجد قباء، وحوله بساتين ومزارع، ومشربة أم إبراهيم بن النبي- ε[19] -. وفي العصر المملوكي جدد بناء المسجد مرتين، الأولى عام (710هـ / 1301م)، والثانية عام (893هـ / 1487م)، على يد شيخ الخدام بالحرم النبوي الشجاعي شاهين الجمالي[20].

- **مسجد الجمعة:**

هو الذي أدرك فيه رسول الله- ε- صلاة الجمعة بعد أن أسس مسجد قباء، وهو قادم إلى المدينة ويقع شمال مسجد قباء[21]، ويشبه المسجد النبوي في طريقة بنائه، حيث بني بالحجر والطوب اللبن، وسقفه جهة القبلة محمول على أعمدة من خشب النخيل، وفي العصر المملوكي في نهاية القرن التاسع الهجري تهدم السقف فتم عمارته[22].

- **مسجد الراية (ذباب):**

هو بالجبل الصغير الأسود المواجه لثنية الوداع، بشمال المدينة المنورة، وهو مبني من الحجارة المطابقة في القرن الثامن الهجري، وقد تهدم مع مرور الزمن وفي عام (845هـ / 1441م)، تم تجديد بنائه أثناء حكم الظاهر جقمق، وقبته مجوفة متقنة، ويقال أن رسول الله - ε - ضرب قبة على ذباب في غزوة الخندق[23].

- **مسجد ذي الحليفة:**

محرم الحجاج وميقات أهل المدينة[24]. يعرف أيضاً بمسجد الشجرة لأن الرسول- ε- عند خروجه إلى مكة يصلي تحت شجرة مثمرة، وقد جدد في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، ثم تهدم معظمه، ولم يبق منه إلا بعض الجدران، وحجارة متراكمة. وفي العهد المملوكي تم تجديده عام (861هـ / 1457م)، حيث جددت حوائطه.

وجعل له ثلاثة درجات في الشرق والغرب والشمال، وعمل له محراباً في حائط القبلة، ولم يوجد لمحرابه الأول أثر لانهدامه، واتخذ أيضاً الدرج التي للأبار التي هناك ينزل عليها من يريد الاستقاء[25]. وطول هذا المسجد من القبلة إلى الشمال اثنان وخمسون ذراعاً، ومن المشرق إلى المغرب مثل ذلك[26].

- **مسجد علي بن أبي طالب:**

يقع جنوب شرق مسجد سلمان الفارسي، ويقال إنه مصلى لعلي بن أبي طالب- τ -. وقد تم تجديده في عهد السلطان الأشرف قايتباي عام (876هـ / 1476م)، وجعل له سقفاً من الخشب، وفتح الواجهة الشمالية للرواق على الرحبة أمامه عن طريق عقدين في الغالب، حيث جعل له أسطوانة واحدة، وطوله من الشمال إلى الجنوب ثلاثة عشر ذراعاً، ومن الشرق إلى الغرب ستة عشر ذراعاً[27].

- **مسجد السقيا:**

نسبة إلى سقيا سعد بن أبي وقاص، بئر كانت بحرة المدينة المنورة، ولم يكن المسجد معروفاً، بل كان تردد الناس على البئر، وفي القرن التاسع الهجري أي في العصر المملوكي تمت عمارة هذا المسجد إذ قام السمهودي بعمارته على حسابه الخاص، والذي قد صلى فيه الرسول- ε- حين عرض جيش غزوة بدر[28].

2 - المكتبات:

اهتم سلاطين دولة المماليك بالمكتبات كثيراً لأنها تخدم فكر وثقافة المجتمع، وقد وجدت مكتبات في المساجد والمدارس والأربطة، فضلاً عن مكتبات خاصة بالعلماء، ومن ذلك نورد على سبيل المثال لا الحصر:

المسجد النبوي يحتوي على مكتبات تضم نفائس الكتب في العلوم المختلفة، وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى ذلك أثناء وصفه للمسجد النبوي إذ قال:

"وبإزاء المقصورة إلى جهة الشرق، خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك"[29].

وقد أورد لنا السمهودي عند حديثه عن الحريق الأول للمسجد النبوي عام (654هـ / 1256م)، أن الحريق أدى إلى احتراق المصاحف والكتب فقال:

"وتلف جميع ما احتوى عليه المسجد الشريف من المنبر النبوي، والأبواب، والخزائن، والشبابيك،

والمقاصير، والصناديق، وما اشتملت عليه من كتب، وكسوة الحجرة، وكان عليها إحدى عشرة ستارة"[30].

وذكر في حوادث عام (886هـ / 1481م)، أن مؤلفاته احترقت، "وحمل بعض خزائن الكتب من تحت سقف المسجد إلى صحنه فأصابها الشرر فأحرقها، وقد استولى الحريق على جميع سقف المسجد، وحواصله، وأبوابه، وما فيه من خزائن الكتب، والربعات، والمصاحف، وكنت قد تركت كتبي بالخلوة التي أقيم بها في مؤخر المسجد، فكتب إلي باحتراقها، ومنها أصل هذا التأليف وغيره من التآليف والكتب النفيسة نحو ثلاثمائة مجلد"[31].

ولما توجه السمهودي إلى مصر لزيارة والدته وأهله حرص أثناء عودته للمدينة أن يحضر نفائس الكتب من مصر: "ثم من الله تعالى علي بالعودة إلى المدينة الشريفة بعد تعويض ما تدعو الحاجة إليه من الكتب المحروقة"[32].

وفي عام (888هـ / 1483م)، أرسل الأشرف قايتباي المصاحف والكتب للمسجد النبوي بعد الانتهاء من عمارته[33]. كما احتوت المدارس والأربطة على مكتبات زاخرة بالكتب، فمن ذلك ما ذكره السخاوي عن المدرسة الشهابية: "وقد ضمت هذه المدرسة مكتبة وقفية كبيرة احتوت على عدد كبير من الكتب التي قدمها بعض المحسنين"[34].

ومن أشهرهم الشيخ محيي الدين الحوراني، حيث أوقف مكتبة بالمدرسة الشهابية[35]، كما ذكر السمهودي أن المدرسة الأشرفية والرباط تحتوي أيضاً على مكتبة وكان يوقف الأشرف الكتب على هذه المدرسة[36].

كما أن العلماء كانوا يوقفون مكتباتهم الخاصة، كما ذكر ابن فرحون عن رشيد الدين السعيدي: "كان متفقهاً متديناً متعبداً، يصحب العلماء، ويشتغل عليهم، ويشتري كتب العلم، ويوقفها عليهم، وله خزانة جيدة كان فيها كتب غريبة أعرفها"[37]. ومن العلماء أيضاً إبراهيم بن رجب السلماني كانت له كتب نفيسة وقفها بالمسجد النبوي[38].

3 - الأسواق:

من أهم الأسواق بالمدينة سوق الصواغين لبيع الذهب ويقع بالقرب من باب الرحمة، وهو من أبواب المسجد النبوي، وسوق العطارين القريب من سوق الصواغ، وبالقرب منهما سوق الفاكهة، أما سوق الحطابين فهو بالجبانة[39] إلى الشمال من المدينة[40].

ومن عاداتهم في الشراء من الأعــراب الذين يجلبون اللبن، والجبن، والسمــن، والغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب الساكنون بالمدينــة وأطرافها، فيدخلونه الأســواق ويشتري منهم أهل المدينة[41]، وأهم صنف يتجرون فيه التمر الذي خصت المدينة من أصنافه بما لم يخص به غيرها[42].

<u>ثانياً: خدمات توفير المياه:</u>

تعتبر الآبار من المرافق الرئيسية في المدينة المنورة، وحرصاً من سلاطين دولة المماليك على توفير خدمات المياه فإنهم قاموا بحفر الآبار، وتعمير العيون، وإقامة السقايات ومن ذلك نذكر:

1 - الآبار:

- **بئر حاء:**

تقع شمال سور المدينة وسط حديقة صغيرة جداً، فيها نخيلات، ويزرع حولها، وعندها بيت مبني على علو من الأرض، وماؤها عذب حلو، أما عن ذرعتها، فطولها عشرون ذراعاً، منها أحد عشر ذراعاً ونصف ماء، والباقي بنيان، وعرضها ثلاثة أذرع وشبر، وهي مقابلة للمسجد النبوي[43].

وفي القرن الثامن آلت إلى نساء من النويريين من مكة، فأصبحت تعرف ببئر النويرية، وأوقفت على الفقراء، والمساكين، والواردين، والصادرين، لزيارة سيد

المرسلين[44]. وظلت البئر مفتوحة للناس إلى أوائل القرن التاسع الهجري[45].

- بئر أريس:

هذه البئر مقابلة مسجد قباء وعندها مزارع ويستقى منها، وماؤها عذب، قال: "وذرعتها فكان طولها أربعة عشرة ذراعاً وشبراً، منها ذراعان ونصف ماء، وعرضها خمسة أذرع، والبئر تحت أطم عال خراب من حجارة"[46]، وفي عام(714هـ / 1314م)، جُدد لها درجٌ يُنزل إليها منه[47].

- بئر بضاعة:

قال عنها ابن النجار: "وماؤها عذب طيب، ولونه صاف أبيض، وريحه كذلك، ويُستقى منها كثيراً. قال: وذرعتها فكان طولها أحد عشر ذراعاً وشبرا، منها ذراعان راجحة ماء، والباقي في بناء، وعرضها ستة أذرع"[48]. وهـــي غربي بئر حـــاء[49]، وكانت البئر خـــلال القرنين السابـــع والثامن الهجري عامـــرة، وقد دخلــت ضمن حديقـة أو بستان، ثم أصبـــحت في القـــرن التاســـع في منطقة تنتشـــر فيهـــا المزارع والحقول[50].

- بئر غرس:

تقع شرقي قباء إلى جهة الشمال، وهي بين النخيل، وذرعتها طولها سبعة أذرع، منها ذراعان ماء، وعرضها عشرة أذرع[51]، وهي كثيرة الماء، وجددت بعد السبعمائة، ثم خربت للمرة الثانية فابتاعها الخواجا الحسين بن أحمد[52]، فعمرها وأحاطها بحديقة، وجعل لها درجة ينزل إليها من داخـــل الحديقـــة وخارجهـــا وأوقفهـــا عـــام(882هـ / 1477م)، فأصبحت تخدم أهل المدينة والقادمين إليها[53].

- بئر البصة:

تقع بالقرب من البقيع على يسار الطريق إلى قباء وهي بين نخيل[54]، وقد أعيد حفرها في أواخر القرن السابع لخدمة الفقراء والزائرين للمدينة، وطولها أحد عشرة ذراعاً منها ذراعان ماء وعرضها تسعة عشر ذراعاً، وهي مبنية بالحجارة، ولون مائها صافٍ، وطعمه حلو، وأهل المدينة كانوا يستقون منها قبل أن يطمها السيل[55].

- بئر رومة:

تقع شمالي غربي المدين المنور، اشتراها عثمان بن عفان - ؓ -، وتصدق بها للمسلمين، طولها ثمانية عشر ذراعاً، منها ذراعان ماء وباقيها مطموم بالرمل، وعرضها ثمانية أذرع، وماؤها صاف. وقـد تهـدمت مـع مـــرور الزمـن، وفـي العصـــر المملوكـي عـام (750هـ / 1349م)، تـــم تجديـــد عمارتها[56].

2- العيون:

- عين النبي صلى الله عليه وسلم:

تقع هذه العين في ظاهر المدينة، وعليها بناء، وهي مقابلة المصلى، وقد ذكرها ابن جبير بقوله: "عليها حلقاً عظيماً مستطيلاً، ومنبع العين وسط ذلك الحلق كأنه الحوض المستطيل، وتحته سقايتان مستطيلتان باستطالة الحلق"[57]، وهذا يدل أن العين كانت عامرة خلال القرن السابع الهجري[58].

- عين الخيف:

تقع في عوالي المدينة وتسقي ما حول المساجد من الزرع والنخيل، وهي في حديقة نخل، يعرف بالغنيمية، ثم عرف بعد ذلك بالنقيبية، في بطن وادي بطحان غربي جبل سلع[59].

- عين الأزرق(العين الزرقاء):

أجراها مروان بن الحكم بأمر معاوية بن أبي سفيان، وهو واليه، وأصلها من قباء من بئر كبيرة غربي مسجد قباء في حديقة نخل، والقبة مقسومة نصفين يخرج الماء منها من وجهين مدرجين وجه قبلي والآخر يغتسل فيهما وينتفع بهما، وتخرج العين من القبلة من جهة المشرق، ثم تأخذ إلى جهة الشمال[60]، وفي عام (886هـ / 1481م)، أجرى الأشرف

قايتباي عين الأزرق على يد الخواجا شمس الدين بن الزمن[61]. وتسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة، وصوابه عين الأزرق، لأن مروان الذي أجراها لمعاوية كان أزرق العينين فلقب بالأزرق[62].

- عين الشهداء:

أجراها مروان بن الحكم بأمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وقد اندثرت هذه العين، فقام نور الدين زنكي[63] بإجراء عين أخرى تحت جبل أحد، عرفت أيضاً بعين الشهداء، ظلت قائمة حتى أوائل القرن العاشر الهجري[64].

ثالثا: خدمات توفير الطعام:

حرص سلاطين دولة المماليك على توفير خدمات الأطعمة لأهل المدينة المنورة، ويتم ذلك إما بإسقاط المكوس على ما يباع من الأطعمة أو إمدادهم بالأموال والطعام، خاصة في المواسم ووقت حدوث القحط والمجاعات، والأمثلة على ذلك كثيرة وخاصة في صدقات سلاطين دولة المماليك.

ففي عام (667هـ / 1268م)، عزم السلطان الظاهر بيبرس على أداء فريضة الحج دون أن يحس به أحد. فتوجه إلى الكرك بصحبة أمرائه الخاصة، فسار إلى أن وصل إلى المدينة المنورة في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وهناك تصدق على الفقراء والمساكين، كما أمر بعدم جباية المكوس بالحجاز [65]، فضلاً عن ذلك أمر الظاهر بأن يحمل إلى المدينة في كل سنة مائتين أردب غلة[66].

في عام (703هـ / 1303م)، قدم للحج نائب السلطنة بمصر الأمير سلار[67]، ومعه مراكبه المشحونة بالغلال والمؤن تقدر بعشرة آلاف أردب قمح، فرقها على أهالي الحرمين[68]. وفي عام (712هـ / 1312م)، قدم للحج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون -حجته الأولى- ووزع هباته على أهل الحرمين الشريفين[69]. وفي عام (716هـ / 1316م)، كان أمير الحاج سيف الدين أراغون (الدوادر) الناصري، نائب السلطنة المعظمة بالقاهرة، وتصدق بصدقات كثيرة[70] بمكة والمدينة.

وفي عام (719هـ / 1319م)، قدم للحج السلطان الناصر محمد بن قلاوون – حجته الثانية – وجهز ركب الحج بكل ما يحتاج إليه السلطان في حجته من الأفران والخبازين، كما جهز جميع الأطعمة من دقيق وأشربة، فضلا عن أربعين جملاً تحمل الفواكه والحلوى، بالإضافة إلى مائة وثلاثين ألف أردب قمح. فوزع الهبات على أهل الحرمين، ووزع على أهل المدينة عشرين ألف دينار، وأبطل المكوس بمكة والمدينة، وعوض صاحب مكة والمدينة بإقطاعات في مصر والشام[71].

وفي عام (732هـ / 1332م)، حج الملك الناصر محمد بن قلاوون -حجته الثالثة - وقد وزع صدقاته على أهل الحرمين، كما أمدهم بالغلال[72].

أما في عام (739هـ / 1339م)، حج الأمير سيف الدين يشبك – أحد أمراء السلطان الناصر قلاوون- ووزع الأموال والغلال على أهل مكة والمدينة[73]. وعام (793هـ / 1392م)، أمر السلطان برقوق بإرسال ثلاثة آلاف أردب قمح تفرق على أهل الحرمين[74]. وفي عام (829هـ / 1425م)، بعث الأشرف برسباي مركباً فيه قمح صدقة على أهل الحرمين، ففرق على أهل المدينة المنورة خمسمائة أردب قمح[75].

عام (881هـ / 1476م)، توجه الأشرف قايتباي إلى مكة للحج، فزار المدينة وفرق بها ستة الآلف دينار، كما رفع المكوس عن أهلها، وعوض أميرها بالمال[76]. وعام (885هـ / 1480م)، اجتمع الأشرف قايتباي برجال دولته، وأبلغهم أنه لما حج في العام الماضي سنة (884هـ / 1479م)، وزار المدينة ووجد أن أهل المدينة يعانون من النقص الشديد في الأقوات؛ لذا قرر أن يشتري من ماله الخاص بلاداً من ضياع بالقاهرة، ليكون

ريعها مصروفاً على الفقراء، وفعلاً نفذ ذلك، فكان ريع هذه الضياع نحو سبعة آلاف وخمسمائة أردب قمح من كل سنة لعمل دشيشة[77] وخبز للفقراء[78].

أما عام (787هـ / 1472م)، حمل الأمير جركس الخليلي[79] قمحاً كثيراً إلى مكة والمدينة؛ ليعمل منه كل يوم بمكة خمسمائة رغيف، وبالمدينة في كل يوم خمسمائة رغيف[80]. وعام (889هـ / 1484م)، أرسل الأشرف قايتباي الركب للمدينة، بأحمال من كتب العلوم الشرعية، وأيضاً أحمال كثيرة من الحب والدقيق، ووزعت على أهل المدينة بمعاييرها السلطانية[81].

رابعا: خدمات الإسكان:

ساهم المماليك في دعم خدمات الإسكان، وذلك من خلال الأربطة والدور الملحقة بالمدارس، والتي قد بناها السلاطين، أو العلماء، أو الخدام، أو الأغنياء، وقامت المدارس والأربطة بدور تعليمي واجتماعي في آن واحد، وسنوضح ذلك وفقاً لما يلي:

- رباط الأصبهاني ويعرف برباط العجم؛ لأن الجواد وزير بني زنكي قد أوقفه على فقراء العجم[82]. وكان برباط الأصبهاني جماعة أولهم وأولاهم بالذكر عز الدين يوسف بن الحسن الزرندي المحدث، سكن رباط الأصبهاني، وكان شيخ الربط كلها يتفقدها ويعمرها، سكن حجرة الرباط فما كان يعرف الرباط إلا به[83].

- ورباطي الشيخ صفي الدين السلامي، قال ابن فرحون: "وبني له رباطان أحدهما مجاور للميضأة موقوف على الرجال والنساء، والآخر موقوف على الرجال، واشترى الدار التي كان يسكنها وهي في ظهر رباطه الموقوف على الرجال، وكان الرباط حوشاً لهذه الدار، فأفرده للرجال وسد الباب الذي بينهما، وأوقف الدار المذكورة على الفقراء المجردين إن لم يكن سلاميون، فإن كان منهم في المدينة سكنها وهو أولى من غيره[84].

- ورباط البطالين لسكنى البطالين من الخدام به، ورباط البغلة، والجبرتي وهو اثنان، أحدهما مختص بالعزاب، والآخر للنساء[85].

- ورباط دكالة، ويقال له رباط المغاربة، لسكناهم به، وهو اثنان للرجال والنساء[86]، ومن أشهر من سكنه أبو الغمر الطنجي[87].

- ورباط السبيل وأشهر من سكن فيه الشيخ سليمان الونشريسي[88] والشيخ الحسين الزيري. ورباط الششتري بالقرب من المسجد الشريف، هو عش الصالحين - نفع الله به-[89].

وكان من أهل الرباط المذكور: السيد أحمد الخراساني، وعمر الكازروني، والفيروز آبادي[90]، والحسين الشيرازي[91]. ومن الأربطة الأخرى: الرومي، والزيالع، والزيني، والسميني، والصادر والوارد، والظاهري، والعبيد، وكرباجة، وقريش، المشهد، كمرسو، والمساسعة، والمغاربة، والمكناسي، والهندي، ابن وهبان، وابن لحي، ومراغة[92]، وأشهر من سكن الرباط الأخير الشيخ محمد البلاسي[93].

ولم يكن دور هذه الأربطة مقتصراً على السكنى فقط، فلقد كان يقطنها أناس من أفاضل العلماء في ذلك الوقت، وطلبة العلم وبخاصة الذين أتوا مكة والمدينة للمجاورة، وطلب العلم، فلقد كانت تجمع بينهم السكنى والألفة والمحبة، والأخوة الإسلامية، مما جعل هناك نوعاً من الترابط الاجتماعي، نتيجة للتكافل الاجتماعي الذي أدى إلى بناء مثل هذه الأربطة من قبل الملوك والأمراء والتجار والأغنياء؛ طلباً للثواب من الله سبحانه، وتشجيعاً للعلم والعلماء، وتهيئة للسبل أمامهم لنيل العلم، والاستفادة من علماء العالم الإسلامي، الذين كانوا يجتمعون سنوياً في موسم الحج[94].

وقد تم توفير الماء الصالح للشرب في هذه الأربطة، فضلاً عن تقديم الطعام والفاكهة لكل هذه الأربطة [95].

أما المدارس فأهمها الشهابية، وأشهر من سكنها من الشيوخ الكبار: عليا الواسطي، والشيخ أبو الربيع سليمان الغماري، والشيخ أبو عبد الله محمد بن سالم المكي، والشيخ العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري، والشيخ أبو عبد الله القصري [96]، والشيخ يعقوب الشريف [97]، والفقيه العالم النبيه تاج الدين عبد الواحد[98].

خامساً: الخدمات الصحية:

اهتم المماليك بالخدمات الصحية، وكان بالمدينة بيمارستان من إنشاء الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة (627هـ[99] / 1228م).

(عام 658هـ / 1259م)، أرسل السلطان الظاهر بيبرس لهذا البيمارستان الأدوية والمعاجين والأكحال والمراهم والأشربة وسكر، لأجل من يعتريه من الجماعة مرض، كما بعث إليه طبيباً من مصر[100]. وقد ذكر ابن فهد المكي في ترجمته لمحمد بن محمد بن محمد بن علي ألب أرسلان السلجوقي بأنه: "مات مبطوناً في يوم الأربعاء ثاني عشري ربيع الأخر، سنة إحدى وأربعين وثمانمائة بالبيمارستان بالمدينة الشريفة، وكانت إقامته بالبيمارستان يوماً وليلة"[101].

وهذا يدل أن بيمارستان المدينة ظل عامراً فترة طويلـــة في العصر المملوكي، كما أن خدام المسجـد النبوي ساهمـوا بتوفيـر الخدمات الصحية ومنهم دينـــار المعزي البدري حيث قال عنه السخاوي: "كان من خدام المسجد النبوي، غاية في الإحسان والخير، وجعل في منزله مارستاناً للمرضى، ويعدُّ القيام بحالهم عليه حتماً فرضاً، ولا يسمع بمريض من الخدام والمجاورين، والفقراء والمسافرين، إلا وتبادر في الحين إلى عيادته، ويحمل إليه من الأشربة والأغذية المُلوكية حسب شهوة المريض وإرادته، وإذا وصف لمريض دواء مفقود، بذل في تحصيله النقود، ولا يبقي في ذلك شيئاً من المجهود، وأما ما هو سهل الوجدان، كالسكر والشرابات فهي مبذولة لكل سائل، محمولة إلى منازل المرضى المنقطعة الوسائل، يبذل بذل الملوك، ويعطي عطاء السلاطين، وإذا تحقق مريضاً داوم في بيته على الأغذية اللطيفة، العطرة الفائقة، والأدوية المناسبة اللائقة، ويحملها بنفسه، ويحضرها عنده"[102].

وكان من له خبرة يساهم في خدمة المرضى منهم أبو العباس أحمد التلمساني، كان يعالج الطرحاء في مكانهم ويطوف على المرضى بالمدينة فيتفقدهم أينما كانوا بالطعام والدواء، ويشهيهم فيعمل لهم ما يشتهون[103].

سادسا: الخدمات الاجتماعية:

تمثلت الخدمات الاجتماعية في عدة نواحي: كالأوقاف، والمدارس، والأربطة، والحمامات، والمطاهر "المواضئ"، فضلاً عن بناء الأسوار للحفاظ على الأمن الداخلي للمدينة.

تنقسم أوقاف سلاطين دولة المماليك إلى الأقسام التالية:

- أوقاف يستغل ريعها للصرف المباشر على عمارة وموظفي الحرم والعاملين به.

- أوقاف يستغل ريعها في الخدمات العامة في المدينة.

- أوقاف يستغل ريعها لإصلاح الطـــرق التـــي يسلكهـــا الحجـــاج وتأمينهـــا من اللصـــوص وقطاع الطرق[104].

من التصنيف السابق لصرف موارد الأوقاف يدل أنها تستخدم للصرف على الخدمات والمرافق الاجتماعية، كما كان للسلاطين دولة المماليك دورهم في الأوقاف ومن أشهر ذلك:

وقف السلطان الأشرف قايتباي لأهل المدينة:" فقد أبرز بعد وصوله ستين ألف دينار ليشتري بها أماكن تكون أوقافاً يحمل ريعها إلى الحضرة الشريفة، وأوقف أماكن كثيرة يتحصل منها نحو سبعة الألف وخمسمائة إردب من الحب، ليصرف من ذلك كفاية أرباب البيوت بالمدينة الشريفة(105). كما كان لخدام الحرم النبوي الشريف دورهم في الأوقاف إذ كانت غالب أوقافهم غالباً دوراً أو نخيل .

وقد أورد لنا السخاوي وابن فرحون العديد من الأمثلة لذلك ولعلنا هنا نذكر شيئاً منها – على سبيل المثال لا الحصر-:

- دينار، العز الحبشي الشهابي: فقد أوقف أملاكاً، ما بين نخيل ودور(106).
- خالص، أمين الدين البهائي: كان فيه من السكون والخير المنون ما لا مزيد عليه، حتى أوقف الأوقاف، وله رباط بباب البقيع(107).
- شمس الدين صواب الجمداري: اشترى في أواخر عمره نخلاً وأوقفه(108).
- شهاب الدين رشيد بن عبد الله السعيدي: له رباط ودور وقفها بعد أن تعب من عمارتها وإنشائها(109).
- ريحان الهندي: من الخدام الذين لهم مآثر حسنة، ووقف رباطين حسنين، عم النفع بهما، ونخيلاً جيدة، وسقاية للماء، ودارين(110).
- عنبر الموصلي: من قدماء الخدماء بنى داراً وأوقفها(111).
- الطواشي صندل: كثير الصدقة بالبر والخير، وأوقف وأعتق(112).
- نجيب النظامي: له أوقاف من الدور والنخيل(113).
- الشيخ إبراهيم العريان: اشترى نخلاً وأوقفه(114).

وهذه مجرد أمثلة للأوقاف والتي كان لها بالغ الأثر في الحياة الاجتماعية، وتحسين مستوى المعيشة. ومن الملاحظ أن سبب كثرة الأوقاف على الحرمين في العصر المملوكي يرجع إلى حرص سلاطين دولة المماليك على بسط سيطرتهم وسيادتهم على الحجاز، وهذا يؤكد زعامتهم للعالم الإسلامي لكونهم حماة الحرمين الشريفين(115).

ومن الخدمات الاجتماعية خدمات الصرف الصحي للمياه والبلاط، حيث ذكرها السمهودي بقوله:

"وللبلاط أسراب ثلاثة تصب فيها مياه المطر، فواحد بالمصلى عند دار إبراهيم بن هشام، وآخر على باب الزوراء عند دار العباس بن عبد المطلب بالسوق، ثم يخرج ذلك الماء إلى ربيع في الجبانة عند الحطابين، وآخر عند دار أنس بن مالك في بني جديلة عند دار بنت الحارث". وهذه الأسراب الثلاثة لا يعرف منها شيء اليوم"(116).

وقد علا الكبس على كثير من البلاط، ولم يبق ظاهراً منه إلا ما حول المسجد النبوي وشيء من جهة بيوت الأشراف ولاة المدينة، وله بلاليع يجتمع الماء فيها، فإذا كثرت الأمطار تجتمع حول المسجد لامتلاء تلك البلاليع، فيصير أمام أبواب المسجد كالغُدران الكبار، خصوصاً في شرقي المسجد.

فيما سبق عرضه من رواية السمهودي دلالة واضحة على أن عدم وجود تصريف للمياه يسبب الضرر للمسجد النبوي والمنازل والأسواق المجاورة؛ ولذا اهتم الأشرف قايتباي بهذه المشكلة، فأوكلها إلى متولي العمارة في عصره ابن الزمن، الذي قام بحل المشكلة. "ثم إن متولي العمارة حفر سرباً لتلك البلاليع التي عند أبواب المسجد، وأوصلها بالسرب الذي يسير فيه وسخ العين، فحصل بذلك غاية النفع، وصار الماء لا يقف بعد ذلك بـأبواب المسجد"(117).

كما قام الأشرف قايتباي عام (887هـ / 1482م)، بعمارة رباط، حمام عام، وفرن، وطاحون حيث أوضحها السمهودي: "وشرعوا أيضاً في عمارة رباط آخر بدل رباط الحصن العتيق، وفي حمام قبالة الرباط، ولم يكن بالمدينة الشريفة حمام قبل ذلك من مدة مديدة، وشرعوا أيضاً في عمارة سبيل، وفرن، وطاحون، ومطبخ للدشيشة، ووكالة ذات حواصل، ولم يكن بالمدينة طاحون، وإنما يستعملون الأرحاء التي تدار بالأيدي"[118].

وبنى السبيل والبركة المقابلين لمسجد قباء في المغرب بالحديقة المعروفة بالسراج العيني[119]. ومن المنشآت التي تخدم المجتمع بناء المطاهر في عصري المنصور قلاوون والأشرف قايتباي كما يلي:

في سنة (686هـ / 1287م)، تم إنشاء ميضأة عند باب السلام، وأخرى شامي المسجد من المغرب (غرب المسجد من ناحية الباب الشامي)، ولها باب منه، وثالثة شرقية، ورابعة في رباط الأشرف قايتباي، لسكان الرباط وغيرهم[120].

ومن الخدمات التي قدمت للمجتمع الحفاظ على أمن المدينة باتخاذ الأسوار المدعومة بالأبواب حيث قال السمهودي: "ولم يزل الملوك يهتمون بعمارة سور المدينة، ويصلحون ما وهن منه"[121]. وكان الهدف من اتخاذ السور هو الحفاظ على أمن المدينة: "ولما طرق المدينة الشريفة الخراب في أطرافها جعلوا لها سوراً "[122].

واتخذ لهذا السور الأبواب: "ولسور المدينة اليوم أربعة أبواب، غير باب حصن أمير المدينة المعروفة بباب السر، وهو باب عظيم كله من الحديد، وأما الأبواب الأربعة:

فأحدها: الباب الذي غربي المدينة، ويعرف بدرب المصلى، وثانيها: الباب الذي في جهة المغرب ويعرف بالدرب الصغير، وثالثها: الباب المعروف بالدرب الكبير، وبالدرب الشامي، رابعها: الباب المعروف بدرب البقيع في شرقي المدينة، ويعرف بدرب الجمعة"[123].

كما تم الاهتمام بالخدمات التعليمية فقد قامت العديد من المدارس بالمدينة وسنورد أمثلة لذلك منها:

- **المدرسة الجوبانية:**

تأسست عام (724هـ/1323م)، وتقع في الناحية القبلية من الحصن العتيق عند باب الرحمة[124].

- **المدرسة الشيرازية:**

القائم بأمرها الشيخ إبراهيم العريان، إذ أقام بها مدة خمسين سنة، وقام بترميم المدرسة، كما اشترى نخلاً أوقفه عليها[125].

- **المدرسة البنجالية:**

أنشئت عام (813هـ / 1410م)، في مكان يقال له الحصن العتيق عند باب السلام[126].

- **المدرسة الأشرفية:**

أسسها السلطان المملوكي الأشرف قايتباي عام (886هـ / 1481م)، وكانت ما بين السلام وباب الرحمة، وفي عام (889هـ / 1484م)، أرسل إليها السلطان خزانة كبيرة وكتباً، وجعلها موقوفة على طلبة العلم، وأرسل مصاحف كثيرة، كما أوقف قرى بمصر تحمل غلالها لها إلى المجاورين والطلاب، فتفرق عليها[127].

الخاتمة

توصلت من خلال هذا البحث إلى جملة من النتائج والتوصيات، ومنها:

- كان للحرمين الشريفين وبلاد الحجاز أهمية كبرى لدى سلاطين دولة المماليك، مثل حكام العالم الإسلامي، وخاصة لنيل البعد الديني والشرعي أمام العالم الإسلامي.
- شيد سلاطين دولة المماليك الكتاتيب والمدارس والأربطة في المدينة المنورة، بجانب البيمارستانات، والمواضي.
- أوضح البحث الأوقاف التي كان سلاطين دولة المماليك يوقفونها للصرف على المرافق والخدمات بالمدينة المنورة.
- أولى سلاطين دولة المماليك عظيم عنايتهم بالمساجد القائمة بالمدينة المنورة؛ لما لها من دور كبير في مجال الدين والتعليم.
- أدى ثراء سلاطين دولة المماليك إلى دعمهم للعديد من أعمال العمارة والترميم للمساجد في فترات مختلفة، واهتموا بالحرم النبوي حيث عمروا ما خرب وتهدم بسبب الحرائق أو الأمطار، كما زودوا مكتبة الحرم النبوي بالمصاحف والكتب النفيسة.
- حرص سلاطين دولة المماليك على الإنفاق على أهل المدينة، وتوفير الأطعمة لهم، وخاصة في صدقاتهم وفي مواسم الحج.
- بذل سلاطين دولة المماليك جهودهم في توفير خدمات المياه من خلال حفر الأبار، وإقامة السقايات، وتعمير العيون.
- أعطى إسهام سلاطين دولة المماليك في دعم المرافق والخدمات بالمدينة المنورة الدلالة الواضحة على مدى قوة دولتهم وثرائها مع اتساع نفوذها.

يوصي البحث بالقراءة الجيدة للمصادر التاريخية بوجه عام، والمملوكية بوجه خاص، وسبر أغوارها؛ لأنها تحمل بين طياتها العديد من النماذج المشرقة لسلاطين دولة المماليك، ومدى عنايتهم بالأماكن المقدسة والمرافق والخدمات الخاصة بها.

الهوامش:

---

(1)السمهودي: نور الدين علي، **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**، بيروت، ط1، مؤسسة التاريخ العربي، 2009م، 25/3.

(2)ابن النجار: محمد بن محمود، **الدرة الثمينة في أخبار المدينة**، تحقيق صلاح الدين شكر، المدينة، ط1، مركز بحوث ودراسات المدينة، 2006، ص 344 ؛ الحنفي :قطب الدين بن أحمد بن محمد، **تاريخ المدينة**، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ص 133 – 134.

(3) جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وزير الزنكيين، كان كريماً نبيلاً، مات سنة 559هـ. انظر ؛ ابن الجوزي :جمال الدين أبو الفرج، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، دراسة وتحقيق محمد عطا وآخرون،حيدر آباد، الهند، 1359هـ، 209/10 ؛ ابن كثير :إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1985م، 248/12. وعنه بالتفصيل انظر: جودة،صادق أحمد، **الجواد الأصفهاني وزير الموصل والشام**، بيروت، ط1، مؤسسة الرسالة،1985م.

(4) ابن النجار، **الدرة**، ص 345.

(5) السمهودي، **وفاء الوفا**، 27/3.

(6) السمهودي، **وفاء الوفا**، 26/2.

(7) السمهودي، **وفاء الوفا**، 26/3.

(8) السمهودي، **وفاء الوفا**، 26/3.

([9]) سلع: جبل بسوق المدينة، انظر: الحموي :ياقوت بن عبد الله، **معجم البلدان**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 58/3.

([10]) وادي بطحان: وادي بالمدينة، وهو أحد أوديتها الثلاثة، الحموي، **معجم البلدان**، 352/1.

([11]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 40/3 ؛ الخوارزمي :محمد بن إسحاق، **إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق**، تحقيق مصطفى محمد، الرياض، ط2، مكتبة الباز، ص 361.

([12]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 45/3 ؛ الإسفراييني :سعد الله عمر بن علي، **زبدة الأعمال**، الرياض، ط1، مكتبة الباز، 1997م، ص 214.

([13]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 45/3.

([14]) ابن النجار، **الدرة**، ص 350 ؛ السخاوي :محمد بن عبدالرحمن، **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، المدينة، ط1، مركز بحوث ودراسات المدينة، 2008م، 125/1.

([15]) المراغي :أبو بكر بن الحسين، **تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، تحقيق سعيد عبد الفتاح، مكة، ط1، مكتبة الباز، 1997م، ص 181 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 49/3.

([16]) العوالي: ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال، انظر الحموي، **معجم البلدان**، 361/3.

([17]) الفضيخ: يعرف اليوم بمسجد الشمس، وهو شرقي مسجد قباء على شفير الوادي، وهو مسجد صغير، السمهودي، **وفاء الوفا**، 34/3.

([18]) ابن النجار، **الدرة**، ص 353.

([19]) ابن النجار، **الدرة**، ص 353.

([20]) المطري :محمد بن أحمد، **التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة**، تحقيق محمد الخيال، المدينة المنورة، منشورات الحسيني، 1372هـ، ص 48 – 49 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 3/ 36 – 37.

([21]) الحنفي، **تاريخ المدينة**، ص 138 ؛ السخاوي، **التحفة**، 119/1 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 3/ 33 – 34 ؛ مجهول: مؤرخ، **في أحوال الحرمين الشريفين**، الرياض، ط1، مكتبة الباز، 1997م، ص 99.

([22]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 34/3.

([23]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 3/ 51 – 52 ؛ السخاوي، **التحفة**، 120/1 ؛ مجهول، **في أحوال**، ص 101.

([24]) المرجاني :عبد الله بن عبد الملك، **بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة النبي المختار**، الرياض، ط1، مكتبة الباز، 254/2.

([25]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 161/3.

([26]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 161/3.

([27]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 3/ 45 – 46 ؛ الإسفراييني، **زبدة الأعمال**، ص 214.

([28]) السخاوي، **التحفة**، 121/1 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 3/ 49 – 50.

([29])ابن جبير : محمد بن أحمد، **رحلة ابن جبير "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"**، بيروت، مكتبة الهلال، 1986م، ص 153.

([30]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 151/2 ؛ ابن الفوطي،عبد الرزاق أحمد، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**،تحقيق مهدي النجم، بيروت، دار الفكر، 1987م، ص 152.

([31]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 175/2.

([32]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 179/2.

([33]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 181/2.

([34]) السخاوي، **التحفة**، 111/1.

([35]) ابن فرحون :عبد الله بن محمد، **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق علي عمر، القاهرة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، 2006م، ص 100 – 101.

([36]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 182/2 – 183.

([37]) ابن فرحون، **نصيحة**، ص 51 – 52.

([38]) السخاوي، **التحفة**، 202/1 – 203، ولمعرفة المزيد عن المكتبات وتطورها في العصر المملوكي انظر اليحيى : عماد صالح، **"المكتبات في مكة والمدينة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي570 – 923هـ / 1174 – 1517"**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القصيم، 2010م.

([39]) الجبانة: أصله المقبرة، وهو موضع شامي بالمدينة، السمهودي،**وفاء الوفا**، 52/3.

([40]) المديرس :عبد الرحمن مديرس، **المدينة المنورة في العصر المملوكي**، الرياض، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2001م، ص 108.

([41]) العياشي :عبدالله بن محمد، **الرحلة العياشية**، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، الإمارات العربية، دار السويدي، (د.ت)، 455/1.

([42])باشا: إبراهيم رفعت، **رحلة مرآة الحرمين**، اختيار وتهذيب محمد الشريف، جدة، ط1، دار الأندلس الخضراء، 200م، 712/2.

([43]) ابن النجار،**الدرة**، ص 166 ؛ الحنفي، **تاريخ المدينة**، ص 61 ؛ ابن زبالة :محمد بن الحسن، **أخبار المدينة**، جمع وتوثيق صلاح سلامة، المدينة، ط1، مركز بحوث ودراسات المدينة، 2003م، ص 214.

([44]) المطري،**التعريف**، ص 59.

([45])الفيروز آبادي :محمد بن يعقوب، **المغانم المطابة في معالم طابة**، الرياض، دار اليمامة، 1969م، ص 38.

([46]) ابن النجار،**الدرة**، ص 169 – 170 ؛ ابن زبالة، **أخبار المدينة**، ص 211 ؛ ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص 156.

([47]) الحنفي، **تاريخ المدينة**، ص 62 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 949/3. وللمزيد عن بئر أريس انظر الرميح، منيرة عبد الرحمن،**"بئر أريس من خلال كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي "**، تاريخ وحضارة المدينة عبر العصور، تحرير: عبد الله الزيدان وآخرين،الرياض، منشورات الجمعية التاريخية،(2010م)، ج1.ص ص 145- 160 م.

([48]) ابن النجار، **الدرة الثمينة**، ص 174.

([49]) الإسفراييني، **زبدة الأعمال**، ص 218.

([50]) المراغي، **تحقيق النصرة**، ص 212.

([51]) ابن النجار،**الدرة**، ص 176 ؛ المطري، **التعريف**، ص 57.

([52]) الحسين بن أحمد بن محمد بن أحمد، البدر بن الخواجا الشهاب الكيلاني، ولد سنة 842هـ / 1348م بكيلان، تردد إلى المدينة وجاور بها، توفي عام 889هـ / 1484م بمكة، انظر، السخاوي، **التحفة**، 337/2.

([53]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 145/3.

([54]) ابن النجار، **الدرة**، ص 178 ؛ العياشي، **الرحلة**، 413/1.

([55]) ابن النجار، **الدرة**، ص 181 ؛ المراغي، **تحقيق النصرة**، ص 210 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 128/3.

([56]) ابن النجار، **الدرة**، ص 180 ؛ المراغي، **تحقيق النصرة**، ص 214 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 139/3.

([57]) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص 157.

([58]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 148/3.

([59]) المطري، **التعريف**، ص 61 ؛ المراغي، **تحقيق النصرة**، ص 218.

([60]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 150/3 ؛ المطري، **التعريف**، ص 61 ؛ المراغي، **تحقيق النصرة**، ص 215 – 216.

([61]) هو الخواجا شمس الدين محمد بن عمر، واشتهر وعرف في زمنه بالشمس ابن الزمن، واشتغل بالتجارة كأبيه، وأقبل على السفر لعمله بالتجارة، وكان السلطان قايتباي أرسله إلى مكة ليعاطى له تجارة، وليعمر جانباً من الحرم الشريف ومن الحجر الشريف، ومن جوف الكعبة، وهو الذي أمر بعمارة المسجد الشريف النبوي بعد الحريق المشهور الواقع في سنة 888هـ، 1483م. انظر، النهرواني: محمد بن أحمد، **كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، تحقيق هشام عطا، مكة، ط1، المكتبة التجارية، 1996م، ص 140.

([62]) العياشي، **الرحلة**، ص 410.

([63]) الملك العادل نور الدين، أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر التركي، قد تولى حلب وغيرها، وفتح غيرها من البلاد، كانت وفاته سنة 541هـ. لمعرفة المزيد عن هذا الملك وأعماله الخالدة انظر الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك، **تحفة ذوي الألباب**، تحقيق إحسان سعيد وزهير حميدان، دار صادر، ط2، بيروت، 1999م، ص 379 ؛ أبو شامة :عبد الرحمن بن إسماعيل، **الروضتين في أخبار الدولتين**، دار الجيل، بيروت، ص 49 – 52 ؛ ابن القلانسي :حمزة بن أسد، **ذيل تاريخ دمشق**، القاهرة، مكتبة المتنبي، ص 288 – 189 ؛ ابن واصل :محمد بن سالم، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، د (ط،ت)، ص 124 – 131.

(64) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 286 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 150/3.

(65)ابن عبد الظاهر :عبدالله بن رشيد، **الروض الزاهر في سير الملك الظاهر**، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م، ص 355 ؛ المقريزي: أحمد بن علي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عطا، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1997م، 61/2؛ ابن دقماق: إبراهيم بن محمد **النفحة المسكية في الدولة التركية**، تحقيق عمر تدمري، بيروت، ط1، المكتبة العصرية، 1999م، ص 61 ؛ السيوطي :جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998م، 260/2 ؛ ابن الصباغ،محمد بن أحمد: **تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام**، مكة، ط2، مكتبة الأسدي، 833/2.

(66) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص 352.

(67) سلار، الأمير سلار بن عبد الله المنصوري، نائباً للسلطنة بالديار المصرية، قتل بالسجن عام 710هـ / 1310م ، انظر ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف :**الدليل الشافي على المنهل الصافي**، تحقيق فهيم شلتوت، مكة، مركز البحث العلمي، 1983م، 314/1.

(68) الجزيري :عبدالقادر بن محمد، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق محمد إسماعيل، مكة، ط2، مكتبة الباز، 2002م، 387/1 ؛ ابن تغري بردي،جمال الدين أبو المحاسن يوسف، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1992م، 16/9.

(69) الجزيري، **الدرر الفرائد**، 389/1؛ ابن إياس :محمد بن أحمد: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، القاهرة، الهيئة المصرية العام للكتاب، 1982م، 443/1 ؛ ابن إياس: **جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك**، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة، ط1، الدار الثقافية، 2006م، ص 167.

(70) الجزيري، **الدرر الفرائد**، 390/1.

(71) الجزيري، **الدرر الفرائد**، 392/1 ؛ ابن تغري بردي، **النجوم**، 51/9 ؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، 450/1 ؛ ابن دقماق، **النفحة المسكية**، ص 126 ؛ أبو الفدا، إسماعيل بن علي، **المختصر في أخبار البشر**، بيروت، ط1، المكتبة العلمية، 1997م، 432/2 ؛سرور :محمد جمال الدين، **دولة بني قلاوون في مصر**، القاهرة، دار الفكر العربي، د(ت)، ص 127.

(72) الجزيري، **الدرر الفرائد**، 400/1، ابن إياس، **بدائع الزهور**، 462/1 – 463.

(73)ابن الوردي،زين الدين عمر بن مظفر، **تاريخ ابن الوردي**، بيروت، ط1، دار الكتب العلمية، 1996م، 316/2 ؛ المقريزي، **السلوك**، 263/3 ؛ أبو الفدا: **المختصر**، 490/2.

(74) ابن الجزري، **الدرر الفرائد**، 424/1 ؛ ابن تغري بردي، **النجوم**، 109/2.

(75)ابن فهد،نجم الدين عمر، **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق فهيم شلتوت، 1984م، 634/3.

(76) القرماني :أحمد بن يوسف، **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ**، القاهرة، مكتبة المتنبي، ص 217 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 181/2 ؛ السيوطي،جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **تاريخ الخلفاء**، القاهرة، 1969م، ص515 ؛ النهرواني، **الإعلام**، ص 250.

(77) الدشيشة: طعام دقيق من قمح مدقوق، انظر مصطفى: إبراهيم وآخرون، **المعجم الوسيط**، تركيا، دار الدعوة، 284/1.

(78) ابن إياس، **بدائع الزهور**، 160/1 ؛ القرماني، **أخبار الدول**، ص 217 ؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 229/2 ؛الطبري : علي بن عبد القادر، **الأرج المسكي في التاريخ المكي**، تحقيق أشرف الجمال، مكة، ط1، المكتبة التجارية، 1996م، 280/5.

(79) جركس الخليلي، تركماني الأصل، وتقدم عند الظاهر برقوق، كان كثير الصدقة على الفقراء بمكة والمدينة، توفي 791هـ /1389م.انظر ؛العسقلاني : أحمد بن علي ابن حجر، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، 1969م، 285/1.

(80) المقريزي، **السلوك**، 178/5.

(81) السمهودي، **وفاء الوفا**، 181/2 – 182 ؛ابن إياس، **بدائع الزهور**، 199/3.

([82]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 212/2.

([83]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 11 – 112.

([84]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 123.

([85]) السخاوي، **التحفة**، 112/1.

([86]) السخاوي، **التحفة**، 113/1.

([87]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 140.

([88]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 131.

([89]) السخاوي، **التحفة**، 356/2؛ ابن فرحون، **نصيحة المشاور**،ص121.

([90]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 121 – 122.

([91]) السخاوي، **التحفة**، 356/2.

([92]) السخاوي، **التحفة**، 113/1.

([93]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 149.

([94]) بكري :محمد طه صلاح، **"الحجاز 859 – 923هـ / 1454 / 1517م "**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1990م، ص 214 – 215.

([95]) الزيدان :يسري أحمد، **"عمران المدينة المنورة في عصر سلاطين دولة المماليك"**،تاريخ وحضارة المدينة المنورة عبر العصور،تحرير:عبد الله الزيدان وآخرين، الرياض، الجمعية التاريخية السعودية، (2010م)، 34/2.

([96]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 84 – 88.

([97]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 97.

([98]) ابن فرحون،**نصيحة المشاور**، ص 129.

([99]) السخاوي، **التحفة**، 113/1.

([100]) ابن شداد :محمد بن علي، **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق أحمد حطيط، ط1983م، ص 300 ؛النويري : أحمد بن علي، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق محمد عبد الهادي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، 115/3 – 116 ؛ عيسى،أحمد، **تاريخ البيمارستان في الإسلام**، المطبعة الهاشمية،دمشق، 1939م، ص 265.

([101])ابن فهد :نجم الدين عمر، **الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق عبد الملك دهيش، ط2، مكتبة الأسدي، 2004م، 360/1.

([102]) السخاوي، **التحفة**، 476/1 – 478 ؛ ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 57.

([103]) السخاوي، **نصيحة المشاور**، ص 82.

([104]) المديرس: **المدينة**، ص 313.

([105]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 229/2، ولمعرفة المزيد عن أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي انظر بدرشيني : أحمد هاشم، **أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي**، المدينة، ط1، مركز بحوث ودراسات المدينة، 2005م.

([106]) السخاوي، **التحفة**، 472/2.

([107])ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 63 ؛ السخاوي، **التحفة**، 240/2،.

([108]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 59.

([109]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 51.

([110]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 62.

([111]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 63.

([112]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 64.

([113]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 65.

([114]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 130.

([115]) بدرشيني :أحمد هاشم، **مكة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين**، المدينة، ط1، مركز أبحاث ودراسات المدينة، 2008م، ص321.

([116]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 245/2.

([117]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 247/2.

([118]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 181/2.

([119]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 26/3.

([120]) السخاوي، **التحفة**، 113/1.

([121]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 269/2.

([122]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 265/2.

([123]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 268/2.

([124]) الجزيري، **الدرر الفرائد**، 395/1؛ السخاوي، **التحفة**، 225/2 – 226؛ ابن تغري بردي، **النجوم**، 197/9.

([125]) ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ص 130 – 131؛ السخاوي، **التحفة**، 279/1 – 281.

([126]) السخاوي، **التحفة**، 192/1؛ السمهودي، **وفاء الوفا**، 221/2.

([127]) السمهودي، **وفاء الوفا**، 2/180 – 181.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

- الإسفراييني : سعد الله عمر بن علي المكي، ت 786هـ/ 1384م.
  - زبدة الأعمال: الرياض، ط1، مكتبة الباز، 1997م.
- ابن إياس: محمد بن أحمد، ت 930هـ/1523م.
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور: القاهرة، الهيئة العامة للكتاب،1982م.
  - جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك: تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة،ط1، الدار الثقافية،2006م.
- ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت 874هـ/1469م.
  - الدليل الشافي على المنهل الصافي: تحقيق فهيم شلتوت، مكة، مركز البحث العلمي،1983هـ.
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: بيروت، ط1، دار الكتب العلمية،1992م.
- ابن جبير: أبو الحسن محمد احمد الأندلسي، ت614هـ/ 1217م.
  - رحلة ابن جبير: رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك، بيروت، مكتبة الهلال،1986م.
- الجزيري: عبد القادر محمد بن عبد القادر، ت 977هـ/ 1569م.
  - الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة: تحقيق محمد إسماعيل، ط2، الرياض، مكتبة الباز،2002م.
- ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج، ت 597هـ\ 1201م
  - المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، دراسة وتحقيق محمد عطا وآخرون حيدر آباد، الهند، 1359ه
- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، ت 852هـ/ 1448م.
  - إنباء الغمر بأبناء العمر: تحقيق حسن حبشي، القاهرة،1969م.
- الحموي: ياقوت بن عبد الله، ت626هـ/ 1228م.
  - معجم البلدان: بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الحنفي: قطب الدين، ت 988هـ/ 1581م.
  - تاريخ المدينة: تحقيق محمد شلتوت، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.
- الخوارزمي: محمد بن إسحاق، ت 827هـ/ 1424م.
  - إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة والبيت العتيق: تحقيق مصطفى محمد، الرياض،ط2، مكتبة الباز.
- ابن دقماق: صارم الدين إبراهيم بن محمد، ت809هـ/ 1406م.
  - النفحة المسكية في الدولة التركية: تحقيق عمر تدمري، بيروت، ط 1، المكتبة العصرية،1999م.
- ابن زبالة: محمد بن الحسن،ت 199هـ/791 م.
  - أخبار المدينة: جمع وتوثيق صلاح سلامة، المدينة، ط1، مركز بحوث ودراسات المدينة، 2003م.
- السخاوي: محمد بن عبد الرحمن،ت 902هـ/ 1369م.
  - التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: المدينة، ط1، مركز وبحوث دراسات المدينة، 2008م.

- السمهودي: نور الدين علي بن أحمد،ت 911هـ/ 1505م.
  - وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: بيروت، ط1، مؤسسة التاريخ العربي،2009م.
- السيوطي: جلال الدين بن عبد الرحمن،ت 911هـ/ 1505م.
  - تاريخ الخلفاء: القاهرة،1969م.
  - حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: القاهرة، دار الفكر العربي، 1998م.
- أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل،ت 665هـ/ 1266م.
  - الروضتين في أخبار الدولتين: بيروت، دار الجيل.
- ابن شداد: عز الدين محمد، ت684هـ/ 1285م.
  - تاريخ الملك الظاهر: تحقيق أحمد حطيط، دار النشر فرانز شتاينر، ڤيسبادن، 1983م.
- ابن الصباغ: محمد بن أحمد المكي، ت 1321هـ/ 1926م.
  - تحصيل المرام في أخبار البلد الحرام: مكة، ط2، مكتبة الأسدي.
- الصفدي: صلاح الدين خليل، ت764هـ/ 1362م.
  - تحفة ذوي الألباب: تحقيق إحسان سعيد، زهير حميدان، بيروت، ط2، دار صادر،1999م.
- الطبري: علي عبد القادر، ت 1070هـ/ 1670م.
  - الأرج المسكي في التاريخ المكي: تحقيق أشرف الجمال، مكة، ط1، المكتبة التجارية،1996م.
- ابن عبد الظاهر: محي الدين عبد الله رشيد، ت692هـ/ 1298م.
  - الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر: تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1976م.
- العياشي: أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر، ت1090هـ/ 1679م.
  - الرحلة العياشية: تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، الإمارات، دار السويدي.
- أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، ت 723هـ/ 1331م.
  - المختصر في أخبار البشر: بيروت، ط1، المكتبة العصرية،1997م.
- ابن فرحون: عبد الله بن محمد، ت799هـ/ 1396م.
  - نصيحة المشاور وتسلية المجاور: تحقيق علي عمر، القاهرة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية،2006م.
- ابن فهد: نجم الدين عمر بن فهد، ت 885هـ/ 1480م.
  - إتحاف الورى بأخبار أم القرى: تحقيق فهيم شلتوت،1984م.
  - الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: تحقيق عبد الملك دهيش، مكة، ط2، مكتبة الأسدي، 2004م.
- - ابن الفوطي : عبد الرزاق أحمد،ت 723هـ\ 1331م
  - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة،تحقيق مهدي النجم، بيروت، دار الفكر،1987م .
- الفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن الطاهر يعقوب، ت817هـ/ 1414م.
  - المغانم المطابة في معالم طابة: الرياض، دار اليمامة،1969م.
- القرماني: أحمد بن يوسف، ت1019هـ/ 1619م.
  - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ: القاهرة، مكتبة المتنبي.
- ابن القلانسي: حمزة بن أسد، ت 555هـ/ 1160م.
  - ذيل تاريخ دمشق: القاهرة، مكتبة المتنبي.

- ابـن كثيـر: عمـاد الـدين أبـو الفـدا إسـماعيل بـن عمـر الحافظ،ت 774هـ/ 1372م.

- البدايـة والنهايـة: تحقيـق أحمـد أبـو ملحـم وآخـرون، بيـروت، ط1، دار الكتـب العلمية،1985م.

- مجهول، مؤرخ

- في أحوال الحرمين الشريفين: الرياض، ط1، مكتبة الباز،1997م.

- المراغي: زين الدين أبي بكر بن الحسين، ت816هـ/ 1413م.

- تحقيـق النصـرة بتلخيص معـالم دار الهجـرة: تحقيـق سـعيد عبـد الفتـاح، مكـة، 1، مكتبـة الباز،1997م.

- المرجاني: عبد الله محمد عبد الملك، ت769هـ/ 1366م.

- بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة النبي المختار: الرياض، ط1، مكتبة الباز.

- المطري: محمد بن أحمد، ت741هـ/ 1340م.

- التعريـف بمـا أنسـت الهجـرة مـن معـالم دار الهجـرة: تحقيـق محمـد الخيـال، المدينـة، منشورات الحسيني،1372م.

- المقريزي: أحمد بن علي، ت845هـ/ 1441م.

- السلوك لمعرفـة دول الملـوك: تحقيـق محمـد عطـا، بيـروت، ط1، دار الكتـب العلمية،1997م.

- ابن النجار: محمد بن محمود، ت647هـ/ 1249م.

- الدرة الثمينة في أخبار المدينـة: تحقيق صـلاح الـدين شـكر، المدينـة، ط1، مركـز بحـوث ودراسات المدينة.

- النهروانـي: محمـد بـن أحمـد بـن محمـد، ت990هـ/ 1582م.

- كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: تحقيق هشـام عطـا، مكـة، ط1، المكتبـة التجارية،1996م.

- النـويري: شـهاب الـدين أحمـد بـن علـي،ت 733هـ/ 1332م.

- نهاية الأرب في فنون الأدب: تحقيق، محمد عبد الهادي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.

- ابـن واصـل: جمـال الـدين محمـد بـن سـالم،ت 697هـ/ 1298م.

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب: تحقيق، جمال الدين الشيال، د.ت.

- ابـن الـوردي: زيـن الـدين عمـر بـن مظفـر، ت749هـ/ 1348م.

- تاريخ ابن الوردي: بيروت، ط1، دار الكتب العلمية،1996م.

ثانيا: المراجع العربية:

- باشا، رفعت إبراهيم: رحلة مرآة الحرمين، اختيار وتهذيب محمد الشريف في المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، جدة، ط1، دار الأندلس الخضراء،2000م.

- بدرشيني،أحمد هاشم: أوقاف الحرمين الشريفين في العصـر المملـوكي، المدينـة، ط1، مركـز بحـوث ودراسات المدينة، 2005م.

- مكة والمدينة في القرنين السابع والثامن الهجريين: المدينـة، ط1، مركـز بحـوث ودراسـات المدينـة، 2008م.

- بكري، محمد طه صلاح: " الحجاز 859-923هـ/ 1454-1517م "، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة،1990م.

- -جودة، صادق أحمد: الجواد الأصفهاني، بيروت، ط1، مؤسسة الرسالة،1985م.
- الرميح، منيرة عبد الرحمن: " بئر أريس من خلال كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي "، تاريخ وحضارة المدينة المنورة عبر العصور، تحرير عبد الله الزيدان وآخرين، الرياض، منشورات الجمعية التاريخية السعودية،ج1، 2010م.
- الزيدان، يسري أحمد: "عمران المدينة المنورة في عصر سلاطين دولة المماليك"، تاريخ وحضارة المدينة المنورة عبر العصور، تحرير عبد الله الزيدان وآخرين، الرياض، منشورات الجمعية التاريخية السعودية، ج 2،2010م.
- سرور، محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.
- عيسى، أحمد: تاريخ البيمارستنات في الإسلام، المطبعة الهاشمية،دمشق، 1939م.
- المديرس، عبد الرحمن مديرس: المدينة المنورة في العصر المملوكي، الرياض، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، 2001م.
- مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، تركيا، دار الدعوة.
- اليحيى، عماد صالح: " المكتبات في مكة والمدينة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي (570-923هـ /1174- 1517م)"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القصيم، القصيم، 2010م.

زهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

الأستاذ الدكتور أنس محمد جاسم المشهداني

الجامعة العراقية

المقدمة

الحمد لله الذي أسبغ علينا جلابيب النعم، وارتفعت بعظمته السماوات، وذلت لسلطانه كل المخلوقات، وامتلأت بفيض عطائه الأرض بالخيرات، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة سيدنا محمد رسول الله وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه إلى يوم الدين.

أما بعد:

كان الزُّهد في سيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام العطرة مَعْلَماً بارزاً من معالم شخصيته وسمة مميزة زينه الله تعالى بها، كان إماماً في الزهد، ذا علم ومعرفة بعلم الظاهر والباطن، معروفاً بالورع وَالتقشف والعفة والقناعة وانقطاعه عن الدنيا؛ فقد عكف عنها وعن ملذاتها وزخرفها رغبة في الآخرة لينال رضا الله عز وجل، نظر إِلَى الدُّنْيَا بِعَين النَّقْص والإعراض عَنْهَا، وكيف لا يزهد وقد تربى في حجر أزهد الزاهدين سيدنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ إذ نشأ وترعرع في ظل أخلاقه السامية فاقتبس من زهده؛ ووقف على معنى الزهد الحقيقي في هذه الحياة الفانية لأن إسلامه على الفطرة ولم يسجد لصنم قط.

كان سيدنا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يأكل خبز الشعير اليابس، ما شبع من طعام قط حرصاً على أن لا يدخل بطنه إلا طيباً من كد يده، لا شبهة فيه، والإمام كان أخشن الناس مأكلاً وملبساً يلبس الثوب المرقوع زهداً في المال والسلطان، وهو خليفة المسلمين، كنوز الدولة الإسلاميّة كلّها كانت بيده فقد رفض أن يسكن القصر الذي كان معدّاً له في الكوفة حِرْصاً منه على التأسّي بالمساكين؛ فعاش عيشة المساكين في بيت متواضع لا يختلف عمّا يسكنه الفقراء من الأمة، كان يفرق المال على المستحقين من المسلمين من العطايا من بيت المال ويأمر بكنس بيت المال ويُصلّي فيه ركعتين رجاء أن يشهد له يوم القيامة.

ولا شك أن زهد أمير المؤمنين علي عليه السلام قد أثر فيمن حوله، وحياته عليه السلام مليئة بالشواهد الدالة على ذلك.

هذه بضاعتي أعرضها عليكم، فإن وفقت في عملي هذا من الله وحده سبحانه فلهُ الحمد والمنة، وهو ما كنت أبغيه وأسعى إليه، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان وأستغفر الله وأتوب إليه.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل من الأعمال التي لا ينقطع ثوابها بعد الموت، خالصة لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

زهد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

الأمثلة والشواهد

لقد كان الزهد[1] من الصفات البارزة في شخصية وحياة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقد ضرب لنا أروع الأمثلة والشواهد في الزهد.

قُدرّ للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنْ يعيش منذ نعومة أظافره في كنف سيدنا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذ نشأ وترعرع في ظل أخلاقه السامية، ونهل ينابع مودته وحنانه ورباه صلى الله عليه وآله وسلم على نهج القرآن والسنة المطهرة ولم يفارقه منذ صغره، ولم يسجد لصنم قط، ولم يشرك بالله طرف عين[2].

إذ تربّى وتأدّب بخلق القرآن فانعكس هذا الخلق القرآني على شخصيته عليه السلام فقد نشأ في بيت الإسلام وتعرف إلى أسراره في مرحلة مبكرة من حياته وذلك قبل أن تتخطى الدعوة حدود البيت[3].

عاش الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وتربّى في أحضان النبوة التي نالها من جانب النبي صلى الله عليه وآله وسلم واطلع على أسباب نزول الوحي ونشأ مع نشوء الإسلام فأخذ الإسلام على يقين ومرأى ومسمع فنهل العلم حتى صار وعاء له وانتعش في قلبه حتى أصبح ملكة عنده يصدر منه دون تكلّف وكما أنه اكتسب خلق النبوة والرسالة فزهد في حياته[4].

كان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يستوحش من الدنيا وزهرتها عاكفاً على عبادة الله جل وعلا ويستأنس بالليل وظلمته في عبادة ربه وكان يحاسب نفسه على كل شيء وكان يصلي ليله ولا يهجع إلاّ يسيراً ويقبض على لحيته ويتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين حتى يصبح[5].

فكان الإمام عليه السلام من الزاهدين في هذه الدنيا، وهذه بعض المواقف لزهده عليه السلام.

ويروى أنّ ضرار بن ضمرة الكناني[6] قال: أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغابت نجومه، قابضًا على لحيته وهو يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غري غيري إلي تعرضت أم لي تشوقت هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك كثير ومجلسك حقير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

ولقد أحسن من قال في المعنى:

عَتَبْتُ على الدنيا وقلْتُ إلى متى
أكابدُ دهراً همَهُ ليس ينجلي
فقالتْ أجل يا ابن الرسول رميتم
بسهم عنادٍ حين طلقني علي[7]

ودخل الأشتر النخعي[8] على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو قائم يصلي بالليل، فقال له: يا أمير المؤمنين، صوم في النهار وسهر بالليل وتعب فيما بين ذلك؟ فلما فرغ الإمام علي عليه السلام من صلاته قال له: ((سفر الآخرة طويل، فيحتاج إلى قطعه بسير الليل))[9].

عن ابن نعجة[10] عاتب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في لبوسه فقال الإمام علي عليه السلام: ما لك ولبوسي؟ إن لبوسي أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدي بي المسلم[11].

وعن سويد بن غفلة[12] أنّه قال: دخلت على علي بن أبي طالب عليه السلام يومًا وليس في داره سوى حصير رث[13] وهو جالس عليه

فقلت يـا أمير المؤمنين أنت ملك المسلمين والحاكم عليهم وعلى بيت المال وتأتيك الوفود وليس في بيتك سوى هذا الحصير، فبكى وقال: يا سويد، إنَّ البيت لا يتأثث في دار النقلة وأمامنا دار المقامة وقد نقلنا إليها متاعًا ونحن منقلبون إليها عن قريب فأبكاني والله كلامه[14].

وجاء أيضًا عن سويد بن غفلة أنه قال: دخلت على علي أمير المؤمنين في قصر الإمارة في الكوفة وبين يديه رغيف[15] من شعير وقدح من اللبن والرغيف يابس تارة يكسره بيديه وأخرى بركبته فشق علي ذلك فقلت لجارية له يقال لها فقة[16]: ألا ترحمين هذا الشيخ وتنخلين له هذا الشعير أما ترين نشارته على وجهه وما يعاني منه، فقالت: أيؤجر هو ونأثم نحن؟ أنّه عهد إلينا أنْ لا ننخل له طعامًا قط، فقال سويد: فالتفت إلى أمير المؤمنين، وقال: ما تقول لها يا ابن غفلة؟ فأخبرته وقلت: ارفق بنفسك يا أمير المؤمنين. فقال: ويحك يا سويد ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز ثلاثاً تباعاً حتى لقي الله، ولا نخل له طعام قط[17].

وكان عليه السلام يحذّر أصحابه من حبّ الدنيا والغرور بها وكان هو ينصح ويوجّه أصحابه أنْ يكون من أهل الآخرة فيقول عليه السلام: ما نلت من دنياك فلا تكثرن به فرحًا، وما فاتك منها فلا تيأس عليه حزنًا وليكن همك فيما بعد الموت[18].

وكان عليه السلام يقول: لم يرضَ الحق تعالى من أهل القرآن الادهان في دينه والسكوت على معاصيه[19].

وكان ينشد ويقول:

حقيقٌ بالتواضعِ من يموتُ
ويكفي المرءَ من دُنياهُ قُوتُ
فما للمرءِ يصبحُ ذا همومٍ
وحرصٍ ليس تدركُهُ النعوتُ
فيا هذا سترحلُ عن قريبٍ
إلى قومٍ كلامهمُ السكوتُ[20]

وعن علي بن ربيعة الوالبي[21] عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: جاءه ابن التياح[22] فقال يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء فقال: الله أكبر فقام متوكئًا على ابن التياح حتى قام على بيت مال المسلمين فقال: هذا جناي وخياره فيه وكان جان يده إلى فيه يا ابن التياح علي بأشياخ الكوفة[23]: قال: فنودي في الناس فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ها وها حتى ما بقى منه دينار ولا درهم ثم أمره بنضحة وصلى فيه ركعتين[24].

وعن هارون بن عنترة[25] عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب عليه السلام بالخورنق[26] وهو يرعد[27] تحت سمل[28] قطيف[29]، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله تعالى قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال نصيبًا وأنت تصنع بنفسك ما تصنع! فقال: وأما ما أرزؤكم من مالكم شيئًا وإنها لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي أو قال من المدينة[30].

عن عمرو بن قيس[31] أنَّ عليًا عليه السلام رُئي عليه إزار[32] مرقوع فعوتب في لبوسه فقال: ((يقتدي بي المؤمنون، ويخشع له القلب))[33].

وفي رواية عن زيد بن وهب الجهني[34] قال: خرج علينا علي بن أبي طالب عليه السلام ذات يوم وعليه بردان متزر بأحدهما مرتد بالآخر قد أرخى جانب إزاره ورفع جانباً قد رفع إزاره

بخرقة فمر به أعرابي فقال: أيها الإنسان، البس من هذه الثياب فإنك ميت أو مقتول فقال: أيها الأعرابي إنما البس هذين الثوبين ليكونا أبعد لي من الزهو[35] وخير لي في صلاتي وسنة للمؤمنين[36].

وعن علي بن الأقمر[37] عن أبيه قال: رأيت عليًا عليه السلام وهو يبيع سيفًا له في السوق ويقول من يشتري مني هذا السيف؟ فوالذي فلق الحبة لطالما كشفت به الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو كان عندي ثمن إزار ما بعته[38].

وما روي عن صالح بن أبي الأسود[39] عمن حدثه أنه رأى عليًا قد ركب حمارًا ودلى رجليه إلى موضع واحد ثم قال: أنا الذي أهنت الدنيا[40].

عن عبد الله بن زرير[41] قال: دخلت على علي بن أبي طالب عليه السلام فقرب إلينا خزيرة[42]، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط فإن الله عز وجل قد أكثر الخير فقال: يا ابن زرير إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يحل للخليفة من مال الله إلا قطعتان قطعة يأكلها هو وأهله وقطعة يضعها بين يدي الناس))[43].

عن عبد الله بن شريك[44] عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه أتى بالفالوذج[45] فوضع قدامه بين يديه فقال: "إنك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم لكن أكره أنْ أعوّد نفسي ما لم تعتده، ولم يأكله"[46].

عن أبي مطر عمر بن عبد الله الجهمي[47] قال: رأيت عليا عليه السلام متزراً بإزار مرتدياً برداء ومعه الدرة[48] كأنه أعرابي بدوي يدور حتى بلغ أسواق الكرابيس[49]، فقال: يا شيخ، أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم، فلما عرفه لم يشترِ منه شيئا.

ثم أتى آخر فلما عرفه لم يشترِ منه شيئا فأتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصا بثلاثة دراهم ثم جاء أبو الغلام فأخبره فأخذ أبوه درهما ثم جاء به فقال: هذا الدرهم يا أمير المؤمنين، قال: ما شأن هذا الدرهم؟ قال: كان قميصاً ثمنه درهمين، قال: باعني رضاي وأخذ رضاه[50].

عن أبي سعيد الأزدي[51] وكان إماما من أئمة الأزد[52] قال: رأيت عليا عليه السلام أتى السوق وقال من عنده قميص صالح بثلاثة دراهم؟ فقال: رجل عندي فجاء به فأعجبه قال: لعله خير من ذلك قال: لا، ذاك ثمنه، قال: فرأيت علياً عليه السلام يقرض رباط الدراهم من ثوبه فأعطاه فلبسه فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه فأمر به فقطع ما فضل عن أطراف أصابعه[53].

وكان يأكل من كد يده وكان قوته وكسوته يجيئه من المدينة ولم يأكل من طعام العراق إلاّ قليلاً وكان عليه السلام يبرد في الشتاء حتى ترعد[54] أعضاؤه من البرد فقيل له ألا تأخذ لك كساء من بيت المال فإنّه واسع فقال: عليه السلام لا أنقص المسلمين من بيت مالهم شيئًا لي[55].

ما روي عن الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام عندما استشهد الإمام علي عليه السلام قام وخطب في الناس وقال: "لقد فارقكم رجل بالأمس لم يسبقه الأولون ولا يدركه الآخرون بعلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه فيعطيه الراية فلا يرتد حتى يفتح الله عز وجل عليه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ما ترك صفراء ولا بيضاء إلاّ سبعمائة فضلت من

عطائه أراد أنْ يشتري بها خادمًا"[56].

روي عن الإمام علي عليه السلام وولديه الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام سمعوا قائلاً يقول في جوف الليل:

يا مَن يُجيبُ دُعا المُضطَرِ في الظُلَمِ
يا كاشفَ الضرِّ والبلوى مع السَّقَمِ
قد نامَ وفدُك حولَ البيتِ وانتبهوا
وعينُ جودِك يا قيّومُ لم تَنَمِ
هبْ لي بجودِك فضلَ العفوِ عن زللٍ
يا مَن إليه رَجاءُ الخلقِ في الحرمِ
إنْ كان عفوُك لا يرجُوه ذو خَطأ
فمن يَجودُ على العاصينَ بالنعمِ

فقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لولده: اطلب لي هذا القائل فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين فأقبل يجر شقه حتى وقف بين يديه فقال له الإمام علي عليه السلام: قد سمعت خطابك، فما قصتك؟ فقال: إني كنت رجلًا مشغولًا بالطرب والعصيان، وكان والدي يعظني ويقول: إنّ لله سطوات ونقمات وما هي من الظالمين ببعيد، فلما ألح في الموعظة ضربته فحلف ليدعون عليّ ويأتي مكة مستغيثًا إلى الله ففعل ودعى فلم يتم دعاءه حتى جف شقي الأيمن فندمت على ما كان مني وداريته إلى أنْ ضمن لي أنّه يدعو لي حيث دعا عليّ فقدمت إليه ناقة فأركبته فنفرت الناقة ورمت به بين صخرتين فمات فقال الإمام علي عليه السلام: رضي الله عنك إنْ كان أبوك رضي عنك، فقال الله كذلك، فقام الإمام علي عليه السلام وصلى ركعات ودعى بدعوات أسرّها إلى الله عز وجل ثم قال: يا مبارك قم فقام ومشى وعاد إلى الصحة كما كان ثم قال: "لولا إنك حلفت أنّ أباك رضي عنك ما دعوت لك"[57].

عن مجاهد[58] قال: خرج علينا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يوماً معتجراً[59] فقال: جعت مرة بالمدينة جوعاً شديداً فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدراً تريد بله فأتيتها فقاطعتها كل ذنوب[60] على تمرة فمددت ستة عشر ذنوباً حتى مجلت[61] يداي ثم أتيت الماء فأصبت منه ثم أتيتها فقلت بكفي هكذا فعدت لي ستة عشر تمرة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأكل معي منها ودعا لي[62].

الخاتمة

زَهد الإمام علي (عليه السلام) بالدنيا وزخرفها زهداً تاماً وصادقاً عن كل ملذات الحياة وزينتها، كان الزُّهد في سيرته سمة مميزة، زينه الله تعالى بها في شخصه، فكان الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) سيّد الزاهدين، ما شبع من طعام قط، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً؛ إذ نشأ وترعرع في ظل بيت النبوة، ونهل من ينابيع مودته وحنانه ورباه (صلى الله عليه وآله سلم) على نهج القرآن والسنة المطهرة ولم يفارقه منذ صغره، ولم يشرك بالله فاقتبس من زهده، ووقف على معنى الزهد الحقيقي في هذه الحياة الفانية.

كان إماماً وقدوة في الزهد فقد ترفع عن زينة الدنيا وملذاتها لا يصرف ساعة من عمره إلى غير طاعة الله، وأقبل على الآخرة بقلب صادق ورفض مَا كَانَ فِيها مِنْ أسباب الرخاء والثراء والسلطة وهو خليفة المسلمين بيده خزائن الدنيا ونعيمها، كان يوزع الأموال لجميع المسلمين، ويكنس بيت المال بيده ويُصلّي فيه ركعتين رجاء أن يشهد له ذلك يوم القيامة، لبس الثوب المرقوع والخشن وعاش في بيت متواضع لا يختلف عمّا يسكنه الفقراء، فأكل خبز الشعير الذي طحنته امرأته أو كان يطحنه بنفسه قبل خلافته وبعدها

حِرْصاً منه على التأسي بالمساكين، وترك ألوان الطَّعَام مجتهدًا في العبادة يطلب الحلال ويقتات من أجرة من عمل يده حرصاً على أن لا يدخل بطنه إلا طيباً، لا شبهة فيه، ما شبع من طعام قط، ولم يخرج عن طبيعته من التقشف والتقلّل في المأكل والمشرب والملبس والمسكن، إلى غير ذلكً إذ لم يكن هو داعية للزهد فحسب، بل زاهداً في كل شيء فكان يضرب بزهده المثل، فابتغى مرضاة الله بزهده وهذا هو خلق ومنهج أهل البيت عليهم السلام.

وإني سائلاً المولى القدير أن يتقبل مني هذا اليسير عن زهد سيدنا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، فإن أصبت فبفضل الله ومنته، وإن أخطأت فأساله تعالى أن يلهمني رشدي ويقيني شر نفسي، وصلى الله على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله الطيبين الطاهرين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

(1) الزهد في اللغة: ترك الميل إلى الشيء والرغبة عنه.

أما اصطلاحاً: بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: ترك راحة الدنيا لنعيم الآخرة.

ينظر: التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت، 816هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1405هـ)، ج153/1.

سبل السلام، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (ت، 852هـ)، تحقيق: محمد عبد العزيز الخولي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1379هـ)، ج170/4.

(2) أهل الكساء عليهم السلام فضلهم ومكانتهم في الإسلام، السيد أنس محمد جاسم حمادي الحسيني المشهداني، أطروحة دكتوراه غير منشورة (جمهورية العراق، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، 1429هـ/2008م)، ص29.

(3) سيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الأستاذ الدكتور أنس محمد جاسم الحسيني المشهداني، (بغداد، مطبعة أنوار دجلة، ط1، 1437هـ/2016م)، ص23.

(4) آل مصطفى، توفيق شافي حسين، المرويات التاريخية للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من تفسير الطبري والقرطبي، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، ص17.

(5) الطبقات الكبرى المسمات بلواقح الأنوار في طبقات الأخبار، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراني من أعيان علماء القرن العاشر الهجري، (مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1373هـ/ 1954م)، ص20.

(6) لم أقف على ترجمته فيما اطلعت عليه من مصادر.

(7)جامع الأنوار في مناقب الأخيار تراجم الوجوة والأعيان المدفونين في بغداد وما جاورها من البلاد، عيسى صفاء الدين القادري البندنيجي (ت، 1283هـ)، تحقيق: أسامة ناصر النقشبندي ومهدي عبد الحسين النجم، (بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط1، 1422هـ/2002م)، ص45.

(8) الأشتر النخعي هو مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي، الملقب بالأشتر شهد صفين والجمل مع الإمام علي عليه السلام والمشاهد كلها وكاد أن يهزم معاوية، أدرك الجاهلية وكان من شيعة علي عليه السلام وفقعت عينه يوم اليرموك، روى عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وأبي ذر الغفاري رضي الله عنهم روى عنه ابنه إبراهيم وعبد الرحمن بن يزيد ولاه الإمام علي عليه السلام على مصر، فمات في الطريق مسمومًا فقيل إن عبدًا عارضه فسم له عسلاً سنة 37 قبل أن يدخل مصر.

ينظر ترجمته: الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت، 230هـ)، تحقيق: زياد محمد منصور، (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط2، 1408هـ)، ج213/6، معرفة الثقات، أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح الكوفي العجلي (ت،261هـ)، تحقيق: عبد العليم عبد العظيم البستوي، (المدنية المنورة، مكتبة الدار ط1، 1405هـ/ 1985م)، ج259/2، الثقات، أبو حاتم محمد

بن حبان البستي (ت، 354 هـ)، تحقيق: شرف الدين أحمد، (بيروت، دار الفكر، ط1، 1395 هـ/1975م)، ج389/5، تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الشافعي (ت، 852هـ)، تحقيق: محمد عوامة (سوريا، دار الرشيد، ط1، 1406هـ/1986م)، ج516/1.

(9) أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره، علي محمد محمد الصلابي، (دمشق، دار ابن كثير، ط1، طبعة جديدة مصححة ومنقحة، 1425هـ/2004م)، ص269-270.

(10) أبو نعجة: صالح بن شرحبيل بن أبي رماج النمري.

ينظر ترجمته: تكملة الإكمال، أبو بكر محمد بن عبد الغني البغدادي (ت، 629هـ)، تحقيق: د.عبد القيوم عبد ريب النبي، (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 1410هـ)، ج337/1.

(11) حلية الأولياء، أحمد بن عبد الله بن أحمد أبو نعيم الأصبهاني (ت،430 هـ)، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1405هـ)، ج83/1.

(12) سويد بن غفلة بن عويسجة بن عامر بن وادع أبو أمية الكوفي، ولد عام الفيل أو بعده بسنتين، وفد المدينة حين نفضت الأيدي من دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد فتح اليرموك وشهد مع الإمام علي عليه السلام صفين وكان موصوفاً بالزهد، والتواضع، زاهدا، عابدا، قانعا باليسير، كبير الشأن، وكان ثقةً، نبيلًا، روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وبلال وأبي بن كعب وأبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهم وغيرهم روى عنه أبو ليلى سنان والشعبي وإبراهيم النخعي وكان يؤم قومه قائمًا وهو بالمئة وعشرين سنة مات سنة 80هـ.

ينظر ترجمته: مشاهير علماء الأمصار، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت، 354هـ)، تحقيق: م. فلا يشهمر، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1959م)، ج100/1، رجال مسلم، أبو بكر أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني (ت،428هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي (بيروت، دار المعرفة، ط1، 1407هـ)، ج289/1، طبقات المحدثين، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748هـ)، تحقيق: د.همام عبد الرحيم سعيد، (عمان، دار الفرقان، 1404هـ)، ج33/1، طبقات الحفاظ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت، 911هـ)، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ)، ج24/1.

(13) حصير رث: أي قديمة والرثة أي رديء المتاع.

ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت، 711 هـ)، (بيروت، دار صادر، ط1، ، بلا)، ج151/2.

(14) سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني (بيروت، دار القلم، ط2، 1398هـ/1978م)، ج313/1.

(15) رغيف: الرغفان جمع رغيف وهو خلاف الرقيق من الخبز.

ينظر: المغرب في ترتيب المعرب، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز (ت،610 هـ)، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد المختار (حلب، مكتب أسامة بن زيد، ط1، 1979م)، ج336/1.

(16) لم أقف على ترجمتها فيما اطلعت عليه من مصادر.

(17) سيرة الأئمة الاثني عشر، الحسني، ج330/1-331.

(18) الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، الشعراني، ص20-21.

(19) المصدر نفسه.

(20)الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، الشعراني، ص20-21.

(21) علي بن ربيعة بن نضلة الوالبي الأسدي الكوفي كنيته أبو المغيرة، ووالبه من أسد من خذيمة، من العلماء الإثبات، روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام والمغيرة بن شعبة وسلمان وبن عمرو وأسماء ابن الحكم الغزاري وسمرة بن جندب ومحمد بن قيس الأسدي، وثقة يحيى بن معين.

ينظر ترجمته:

الكنى والأسماء، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت،261هـ)، تحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد

القشـقري، (المدينـة المنـورة، الجامعـة الإسـلامية، ط1، 1404هـ)، ج261/1، ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدار قطني (ت، 385هـ)، تحقيق: بوران الضناوي وكمال يوسف الحوت، (بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1985م)، ج249/1، سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748 هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤط – محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت مؤسسة الرسالة، ط9، 1413هـ)، ج489/4، رواة الآثار، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي(ت، 852هـ)، تحقيق: سيد كسوري حسن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ)، ج141/1.

(22) يزيد بن حميد الضبحي أبو التياح، من صالحي البصرة سمع منه شعبة وحماد بن يزيد حديثه في البصريين وقال عنه أحمد بن حنبل: ثقة، ثبت، مات سنة 128هـ.

تنظر ترجمته: الأسامي والكنى، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد (ت، 241هـ)، تحقيق: عبد الله بن يوسف الجديع، (الكويت، دار الأقصى، ط1، 1406هـ/1985م)، ج73/1، الكنى للبخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله الجعفي البخاري (ت، 256هـ)، تحقيق: السيد هاشم الندوي (بيروت، دار الفكر، بلا)، ج85/1، مشتبه أسامي المحدثين، عبيد الله بن عبد الله بن أحمد أبو الفضل الهروي (ت، 405 هـ)، تحقيق: نظر محمد الفارابي (الرياض، مكتبة الرشيد، ط1، 1411هـ)، ج156/1، بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الصالحي جمال الدين بن المِبْرَد الحنبلي (ت، 909هـ)، تحقيق وتعليق: روحية عبد الرحمن السويفي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/ 1992م)، ج1/ 175.

(23) الكوفة: بالضم، المصر المشهور بأرض بابل من سواد العراق ويسميها قوم: خد العذراء، واختلف في سبب تسميتها قيل: لاستدارتها، وقيل: لاجتماع الناس بها، وقيل: إنها قطعة من البلاد، وقيل: لأن جبل ساتيدما يحيط بها كالكفاف عليها، وقال ابن الكلبي" سميت بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان وعليه اختطت مهرة موضعها وكان هذا الجبل مرتفعًا عليها فسميت به فهذا في اشتقاقها، وأما تمصيرها وأوليته فكانت في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ينظر: معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت، 626هـ)، (بيروت، دار الفكر، بلا)، ج490/4-491.

(24) أخرج هذه الرواية: أبو نعيم الأصبهاني في كتابه حلية الأولياء، ج81/1.

وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت، 597هـ)، صفوة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري، محمد رواس قلعه جي، (بيروت، دار المعرفة، ط2، 1399هـ /1979م)، ج314/1-315.

(25) هارون بن عنترة بن عبد الرحمن الشيباني الكوفي كنيته أبو عمرو، وهو الذي يقال له هارون بن وكيع، يروي عن أبيه، روى عنه الثوري، ويعقوب القمي، قال أحمد بن حنبل هو ثقة، مات سنة 142هـ.

تنظر ترجمته: الكنى والأسماء، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت،261هـ)، تحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، (المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط1، 1404هـ)، ج565/1، المجروحين، محمد بن حبان البستي أبو حاتم (ت، 354هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، (جلب، دار الوعي، بلا)، ج93/3، مولد العلماء ووفياتهم، محمد ابن عبد الله بن أحمد بن سليمان بن زبر الربعي (ت، 397 هـ)، تحقيق: د.عبد الله أحمد سليمان الحمد، (الرياض، دار العاصمة، ط1، 1410هـ)، ج333/1، لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل الشافعي (ت، 852هـ)، تحقيق: دائرة المعرفة النظامية – الهند، (بيروت، مؤسسة الإعلام للمطبوعات، ط3، 1406هـ/ 1986م)، ج416/7.

(26) الخورنق: موضع في الكوفة.

ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ج401/2.

(27) أي من شدة البرد.

ينظر: غريب الحديث، أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي أبو سليمان الخطابي (ت، 388هـ)، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم

الغرباوي (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 1402هـ)، ج337/2.

(28) السمل: أي الثوب الخلق والسملة الخلق من الثياب أي ثوب قديم.

ينظر: العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت، 175هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي- د.إبراهيم السامرائي، (بيروت، دار ومكتبة الهلال، بلا)، ج266/7.

(29) قطيف: القطيفة دثار مخمل والجمع قطائف.

ينظر: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت، 666هـ)، تحقيق: محمود فاخر، (بيروت، مكتبة لبنان ، 1415هـ/ 1995م)، ج227/1.

(30) صفوة الصفوة، ابن الجوزي، ج317/1.

(31) عمرو بن قيس الملائي الكوفي أبو عبد الله من كبار الكوفيين متعبد متقن قال أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائي ثقة وقال ابن زرعة ثقة مأمون وقال العجلي ثقة من كبار الكوفيين وكان الثوري يتبرك به.

تنظر ترجمته: معرفة الثقات، العجلي، ج182/2، ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم، الدار قطني، ج177/2، تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت، 405هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، دار البناء، ط1، 1407هـ)، ج190/1، رجال مسلم، أبو بكر أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني (ت،428هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي، (بيروت، دار المعرفة، ط1، 1407هـ)، ج77/2، تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت، 852هـ)، (بيروت، دار الفكر، ط1، 1404هـ/ 1984م)، ج81/8.

(32) إزار: هو الذي يوضع في القميص، قال ابن شميل: الزر العروة التي تجعل الحبة فيها.

ينظر: لسان العرب، لابن منظور، ج4/ 321، مادة (زرر).

(33) صفوة الصفوة، ابن الجوزي، ج317/1.

(34) زيد بن وهب الجهني أبو سليمان الكوفي، مخضرم قدم المدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأيام، سمع عمر وعثمان وعليًا وابن مسعود وأبا ذر وحذيفة رضي الله عنهم وجماعة، روى عنه حصين وعبد العزيز بن رفيع والأعمش وإسماعيل بن أبي خالد وغيره، وكان ثقة كثير العلم، مات قريبا من سنة 84هـ.

تنظر ترجمته: تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت، 748هـ)، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1374هـ)، ج66/1-67.

(35) الزهو: أي الكبر والفخر وقد زهي الرجل فهو مزهو أي تكبر.

ينظر: الرازي، مختار الصحاح، ج117/1.

(36) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت، 774 هـ)، (بيروت، مكتبة المعارف، بلا)، ج8 /3-4.

(37) علي بن الأقمر بن عمرو بن الحارث الوداعي الهمداني الكوفي أبو الوزاع أخو كلثوم بن الأقمر، سمع أبا جحيفة روى عنه منصور ومسعر في الأطعمة وشعبة وسفيان الثوري والحسن بن صالح وآخرون وثقة جماعة.

تنظر ترجمته: التاريخ الكبير، أبو عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت، 256 هـ)، تحقيق: السيد هاشم الندوي (بيروت، دار الفكر، بلا)، ج261/6، رجال صحيح البخاري، أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسين النجاري الكلاباوي (ت،398 هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي، (بيروت، دار المعرفة، ط1، 1407هـ)، ج525/2، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبي الحجاج يوسف المزي (ت، 742هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1400هـ/1980م)، ج323/2، الكاشف، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748 هـ)، تحقيق: محمد عوامة، (جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، 1413هـ/ 1992م)، ج35/2.

(38) أخرج هذه الرواية: أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج83/1، صفوة الصفوة، لابن الجوزي،

ج119/1، وأخرجه محب الدين الطبري، أحمد بن عبد الله بن محمد (ت، 694هـ) الرياض النضرة في مناقب العشرة، دار الكتب العلمية، ط2 (بيروت، بلا)، ج220/3.

(39) صالح بن أبي الأسود الكوفي الخياط، قال ابن عدي: أحاديثه ليست بالمستقيمة وليس بالمعروف، وروى عن الأعمش وغيره.

تنظر ترجمته: الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد بن عدي الجرجاني (ت، 365هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود– علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ/ 1997م)، ج66/4، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748هـ)، تحقيق: علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1995م)، ج396/3، لسان الميزان، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت، 852هـ)، تحقيق: دائرة المعرفة النظامية، الهند، (بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط3، 1406هـ/ 1986م)، ج166/3.

(40) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت، 774هـ)، (بيروت، مكتبة المعارف، بلا)، ج5/8، مختصر تأريخ دمشق، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الإفريقي (ت، 711هـ)، تحقيق: روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع، (دار الفكر، دمشق، ط1، 1402هـ/ 1984م)، ج64/18.

(41) عبد الله بن زرير الغافقي المصري يكنى أبا رزين وقيل أبو وزير تابعي ثقة عداده في أهل مصر، روى عن الإمام علي عليه السلام روى عنه أبو الخير اليزني وأبو أفلح الهمداني وأبو علي الهمداني وبكر بن سوادة الجذامي وعبد الله بن الحارث له أحاديث شهد مع الإمام علي عليه السلام صفين مات في سنة إحدى وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان وكان من شيعة الإمام علي عليه السلام.

تنظر ترجمته: الطبقات الكبرى، ابن سعد، ج510/7؛ التاريخ الكبير، البخاري، ج5 /94؛ معرفة الثقات، أبو الحسن العجلي، ج29/2؛ لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ج463/7؛ تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ج190/5.

(42) خزيرة: لحم يقطع صغارًا ويصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

ينظر: غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ابن الجوزي (ت، 597هـ)، تحقيق: د.عبد المعطي أمين قلعجي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1985م)، ج275/1.

(43) أخرج هذه الرواية: أخرجها بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل بن هلال ابن أسد (ت، 241هـ) في مسنده، (مصر، مؤسسة قرطبة، بلا)، ج78/1.

وأخرجها أبو شجاع، شيرويه بن شهرويه بن فناخرو الديلمي الهمداني (ت، 509هـ)، الفردوس بمأثور الخطاب، تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1986م)، ج109/5.

وأخرجها الهيثمي، أبو الحسن علي بن أبي بكر (ت،807 هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (القاهرة، دار الريان للتراث، 1407هـ)، ج231/5.

(44) عبد الله بن شريك العامري كوفي مختاري من أصحاب المختار يروي عن جماعة من التابعين روى عنه أهل الكوفة وقال الإمام أحمد عنه: ما أعلم به بأسا.

ينظر ترجمته:العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت، 241هـ)، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، (بيروت – الرياض، المكتب الإسلامي – دار الخاني، ط1، 1408هـ/ 1988م)، ج484/2، التاريخ الكبير، البخاري، ج115/5، ضعفاء العقيلي، أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي (ت، 322هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ/1984م)، ج266/2،الثقات، لابن حبان، ج41/7، المجروحين، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت، 354هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، (حلب، دار الوعي، بلا)، ج26/2.

(45) الفالوذج: وهي حلوة يخلط بها العسل والسمن جميعا.

ينظر: بغية الطلب في تاريخ حلب، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي كمال الدين ابن العديم (ت، 660هـ)، تحقيق: د. سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر، ط1، 1988م)، ج1216/3.

(46) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، ج81/1؛ الطبقات الكبرى المسمات بلوقح الأنوار في طبقات الأخيار، الشعراني، ص20.

(47) لم أقف على ترجمته.

(48) الدرة: أي السوط.

ينظر: المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت، 770هـ)، (بيروت، المكتبة العلمية، بلا)، ج192/1.

(49) الكرابيس: وهو الذي يكون مشرفًا على سطح بقناة إلى الأرض فإذا كان أسفل فليس بكرباس، سمي به لما يعلق به من الأقذار= =وتتكرس ككرس الدمن، والتكريس: ضم الشيء بعضه إلى بعض ويجوز أن يكون من كرس الدمنة حيث تقف الدواب.

ينظر: النهاية في غريب الأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت، 606هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، (بيروت، المكتبة العلمية، 1399هـ/ 1979م)، ج163/4.

(50) وأخرج هذه الرواية: ابن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، (ت، 241هـ)، فضائل الصحابة، تحقيق: د.وصي الله محمد عباس، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ/ 1983م)، ج528/1؛ وأخرجها ابن الجوزي في صفوة الصفوة، ج317/1.

(51) أبو سعيد الأزدي قارئ الأزد رأى علياً عليه السلام وروى عنه قتادة وإسماعيل بن سالم، حديثه في الكوفيين، وثقة ابن حبان.

ينظر ترجمته: المقتنى في سرد الكنى، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي (ت، 748هـ)، تحقيق: محمد صلاح عبد العزيز المراد، (المدينة المنورة، مطابع الجامعة الإسلامية، 1408هـ)، ج276/1.

لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ج466/7، تعجيل المنفعة، أحمد بن علي بن حجر الشافعي العسقلاني أبو الفضل (ت، 852هـ)، تحقيق: د.أكرم الله إمداد الحق، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، بلا)، ج488/1.

(52) الأزد: وهي قبيلة عربية تقع في اليمن، ونسب هذه القبيلة إلى الأزد ابن الغوث بن قرن بن مالك وافترقت الأزد إلى عدة قبائل، ويقال إن اسمها الأصلي دراء.

ينظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري، ج43/1؛ الإنباه على القبائل الرواة، أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت، 463هـ)، (النجف، المكتبة الحيدرية، 1386هـ/ 1966م)، ص112.

(53) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، ج83/1.

(54) ترعد: أي ترجف.

ينظر: النهاية في غريب الحدث، الجزري، ج234/2.

(55) الطبقات الكبرى المسماة بالواقح الأنوار في طبقات الأخيار، الشعراني، ص20.

(56) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، ج65/1.

(57) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت، 771هـ)، (بيروت، دار المعرفة، ط2، أعيد طبعه بالاوفسيت، بلا)، ج68/2-69.

(58) تقدمت ترجمته.

(59) أي قد لف العمامة على رأسه ورد طرفها على وجهه.

ينظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، ج72/2، النهاية في غريب الحديث، لابن الجزري، ج185/3.

(60) الذنوب: والجمع أذنبة وذناب والذنوب: الدلو فيها الماء وقال ابن السكيت: التي فيها ماء قريب من المملوء وتؤنث وتذكر ولا يقال لها وهي فارغة ذنوب. ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج392/1، مختار الصحاح، الرازي، ج94/1.

(61) مجلت اليد: أي صلبت على العمل.

ينظر: لسان العرب، ابن منظور،ج58/3.

(62) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، ج71/1.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر:

1. الإنباه على قبائل الرواة، أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (ت، 463هـ)، (النجف، المكتبة الحيدرية، 1386هـ / 1966م).

2. بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم، يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن بن عبد الهادي الصالحي جمال الدين ابن المِبْرَد الحنبلي (ت، 909هـ)، تحقيق وتعليق: الدكتورة روحية عبد الرحمن السويفي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ/ 1992م).

3. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت، 774هـ)، (بيروت، مكتبة المعارف، بلا).

4. بغية الطلب في تاريخ حلب، عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جرادة العقيلي كمال الدين بن العديم (ت، 660هـ)، تحقيق: د.سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر، ط1، 1988م).

5. التاريخ الكبير، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت، 256هـ)، تحقيق: السيد هاشم الندوي (بيروت، دار الفكر، بلا).

6. تذكرة الحفاظ، أبو عبد الله شمس الدين محمد ابن أحمد الذهبي (ت، 748هـ)، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1374هـ).

7. تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت، 405هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، (بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، دار البناء، ط1، 1407هـ).

8. تعجيل المنفعة، أحمد بن علي بن حجر الشافعي العسقلاني أبو الفضل (ت، 852هـ)، تحقيق: د. أكرم الله إمداد الحق، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، بلا).

9. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني (ت، 816هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط1 ، 1405هـ).

10. تقريب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر الشافعي (ت، 852هـ)، تحقيق: محمد عوامة (سوريا، دار الرشيد، ط1، 1406هـ / 1986م).

11. تكملة الإكمال، أبو بكر محمد بن عبد الغني البغدادي (ت، 629هـ)، تحقيق: د.عبد القيوم عبد رب النبي، (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 1410هـ).

12. تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت، 852هـ)، (بيروت، دار الفكر، ط1، 1404هـ/ 1984م).

13. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي (ت، 742هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1400هـ/ 1980م).

14. الثقات، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت، 354هـ)، تحقيق: شرف الدين أحمد، (بيروت، دار الفكر، ط1، 1395هـ/1975م).

15. جامع الأنوار في مناقب الأخيار تراجم الوجوة والأعيان المدفونين في بغداد وما جاورها من البلاد، عيسى صفاء الدين القادري البندنيجي (ت، 1283هـ)، تحقيق: أسامة ناصر النقشبندي ومهدي عبد الحسين النجم، (بيروت، الدار العربية للموسوعات، ط1، 1422هـ / 2002م).

16. حلية الأولياء، أحمد بن عبد الله بن أحمد أبو نعيم الأصبهاني (ت، 430هـ)، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط2، 1405هـ).

17. ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدار قطني (ت، 385هـ)، تحقيق: بوران الضناوي وكمال يوسف الحوت (بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1985م).

18. رجال صحيح البخاري، أبو نصر أحمد بن محمد بن الحسين البخاري الكلاباذي (ت، 398هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي، (بيروت، دار المعرفة، ط1، 1407هـ).

19. رجال مسلم، أبو بكر أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني (ت، 428هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي (بيروت،

دار المعرفة، ط1، 1407هـ).

20. رواة الآثار، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت، 852هـ)، تحقيق: سيد كسوري حسن، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ).

21. الرياض النضرة في مناقب العشرة، محب الدين الطبري، أحمد بن عبد الله بن محمد (ت، 694هـ)، دار الكتب العلمية، ط2 (بيروت، بلا)، ج220/3.

22. سبل السلام، محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني (ت، 852هـ)، تحقيق: محمد عبد العزيز الخولي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1379هـ).

23. سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748هـ)، تحقيق: شعيب الأرناوؤط – محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت مؤسسة الرسالة، ط9، 1413هـ).

24. صفوة الصفوة، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي (ت، 597هـ)، تحقيق: محمود فاخوري، محمد رواس قلعه جي، (بيروت، دار المعرفة، ط2، 1399هـ / 1979م).

25. ضعفاء العقيلي، أبو جعفر محمد بن عمر بن موسى العقيلي (ت، 322هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1404هـ/ 1984م).

26. طبقات الحفاظ، أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت، 911هـ)، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ).

27. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت، 771هـ)، (بيروت، دار المعرفة، ط2، أعيد طبعه بالأوفسيت، بلا).

28. الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي (ت، 230هـ)، تحقيق: زياد محمد منصور، (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط2، 1408هـ).

29. الطبقات الكبرى المسمات بلواقح الأنوار في طبقات الأخبار، أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري الشافعي المصري المعروف بالشعراني من أعيان علماء القرن العاشر الهجري، (مصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط1، 1373هـ/ 1954م).

30. طبقات المحدثين، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي (ت، 748هـ)، تحقيق: د.همام عبد الرحيم سعيد، (عمان، دار الفرقان، 1404هـ).

31. العلل ومعرفة الرجال، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت، 241هـ)، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس، (بيروت – الرياض، المكتب الإسلامي- دار الخاني، ط1، 1408هـ/ 1988م).

32. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت، 175هـ)، تحقيق: د.مهدي المخزومي. د.إبراهيم السامرائي، (بيروت، دار ومكتبة الهلال، بلا).

33. غريب الحديث، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي (ت، 597هـ)،تحقيق:د.عبد المعطي أمين قلعجي،(بيروت، دار الكتب العلمية،ط1، 1985م).

34. فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت، 241هـ)، تحقيق: د.وصي الله محمد عباس، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1403هـ/ 1983م).

35. الكاشف، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748 هـ)، تحقيق: محمد عوامة، (جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، 1413هـ/ 1992م).

36. الكامل في ضعفاء الرجال، أبو أحمد بن عدي الجرجاني (ت، 365هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود – علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1418هـ/ 1997م).

37. الكنى والأسماء، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (ت،261هـ)، تحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، (المدينة المنورة، الجامعة الإسلامية، ط1، 1404هـ).

38. الكنى للبخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله الجعفي البخاري (ت، 256هـ)، تحقيق: السيد هاشم الندوي (بيروت، دار الفكر، بلا).

39. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت، 711هـ)، (بيروت، دار صادر، ط1، بلا).

40. لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني أبو الفضل الشافعي (ت، 852هـ)، تحقيق: دائرة المعرفة النظامية – الهند، (بيروت، مؤسسة الإعلام للمطبوعات، ط3، 1406هـ/ 1986م).

41. المجروحين، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت، 354هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، (حلب، دار الوعي، بلا).

42. مختصر تأريخ دمشق، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الإفريقي (ت، 711هـ)، تحقيق: روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع، دار الفكر، ط1، (دمشق، 1402هـ/ 1984م)، ج64/18.

43. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي (ت،807هـ)، (القاهرة، دار الريان للتراث، 1407هـ).

44. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت، 666هـ)، تحقيق: محمود فاخر، (بيروت، مكتبة لبنان 1415هـ/ 1995م).

45. مسند ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد (ت، 241هـ)، (مصر، مؤسسة قرطبة، بلا).

46. مشاهير علماء الأمصار، أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت، 354هـ) تحقيق: م. فلا يشهمر، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1959م).

47. مشتبه أسامي المحدثين، عبيد الله بن عبد الله بن أحمد أبو الفضل الهروي (ت، 405هـ)، تحقيق: نظر محمد الفارابي (الرياض، مكتبة الرشيد، ط1، 1411هـ).

48. المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت، 770هـ)، (بيروت، المكتبة العلمية، بلا).

49. معجم البلدان، ياقوت الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت،626 هـ)، (بيروت، دار الفكر، بلا).

50. المغرب في ترتيب المعرب، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز (ت، 610هـ)، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد المختار، (حلب، مكتب أسامة بن زيد، ط1، 1979م).

51. المقتنى في سرد الكنى، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748هـ) تحقيق: محمد صلاح عبد العزيز المراد، (المدينة المنورة، مطابع الجامعة الإسلامية، 1408هـ).

52. مولد العلماء ووفياتهم، محمد بن عبد الله بن أحمد بن سليمان بن زبر الربعي (ت، 397هـ)، تحقيق: د.عبد الله أحمد سليمان الحمد، (الرياض، دار العاصمة، ط1، 1410هـ).

53. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت، 748هـ)، تحقيق: علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط1، (بيروت، دار الكتب العلمية، 1995م).

ثانيا : المراجع:

54. أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره، علي محمد محمد الصلابي، (دمشق، دار ابن كثير، ط1، طبعة جديدة مصححة ومنقحة، 1425 هـ/2004م).

55. سيرة الأئمة الاثني عشر، هاشم معروف الحسني (بيروت، دار القلم، ط2، 1398هـ/1978م).

56. سيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، الأستاذ الدكتور أنس محمد جاسم الحسيني المشهداني، (بغداد، مطبعة أنوار دجلة، ط1، 1437هـ/2016م).

ثالثًا: الرسائل العلمية :

57. أهل الكساء عليهم السلام فضلهم ومكانتهم في الإسلام، السيد أنس محمد جاسم حمادي المشهداني الحسيني، أطروحة دكتوراه غير منشورة (جمهورية العراق - معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، 1429هـ/2008م).

رحلات البصريين في طلب العلم
في القرنين الثاني والثالث الهجريين

الأستاذ المساعد الدكتور عبد الرحمن رشك المياحي

الجامعة المستنصرية / كلية التربية الأساسية / قسم التاريخ

ملخص البحث:

تُعدُّ البصرة من المدن العربية الإسلامية، المزدهرة العريقة، ذات الحضارة الرفيعة، إذ برز من علمائها الكثير لينهلوا من العلم الغزير الوفير، فكانوا رجالاً عِظام، سيّما رحلاتهم العلمية، إذ أعطوا العلم وأخذوا منه بكل ثقة وأمانة وأدب.

حقيقة أن مدينة البصرة عريقة وعظيمة، ذات ماضٍ حضاري تليد جاوزت به الأرض العربية وشعّت أضواؤه الفكرية في المشرق والمغرب والواقف على آثار البصرة في الفقه والفلسفة والأدب والعلم، إنما يقف إزاء تراث ضخم ورجال عِظام.

المقدِّمــــة

حقيقةً أن مدينة البصرة عريقة وعظيمة، ذات ماضٍ حضاري تليد، جاوزت به الأرض العربية وشعت أضوائه الفكرية في المشرق والمغرب .

والواقف على آثار البصرة في الفقه والفلسفة والأدب والعلم، إنما يقف إزاء تراث ضخم ورجال عِظام.

قسّم هذا البحث إلى مبحثين، فكان المبحث الأول، معنى وجغرافية البصرة، إذ تطرقت فيه إلى معنى البصرة التي تطلق على الحجارة الرّخوة، التي فيها بياض، وكذلك إلى لغات البصرة، وكما تطرقت إلى جغرافية البصرة، التي تتمتع بموقع حيوي مهم، إذ تعد الميناء العراقي الرئيس لتجارة العراق مع عُمان والبحرين وبلاد فارس والهند والصين. وفيه أشرت إلى المعاجم اللغوية والبلدانية لتوضيح ذلك.

أما المبحث الثاني: تناولت فيه رحلة العلماء البصريين الأفذاذ إلى مناطق عديدة، لينهلوا من العلم الغزير، فجاء عليهم بالخير الوفير، فقام الباحث باختيار النخبة المشهورة منهم ، مثال على ذلك مسلم بن يسار البصري (ت 100هـ) ، وعبد الرحمن بن مطعم البُناني (ت 106هـ) ، والحسنُ البصري (ت 110هـ) ، وعبد الرحمن بن مهدي البصري (ت 198هـ) ، ورَوْح بن عُبَادة (ت 205هـ) ، وسليمان بن حرب بن بجيل الواشجي البصري (ت 224هـ) ، وقَتادة بن دِعامة السَّدُوسي ، وغيرهم كثير .

المبحث الأول: معنى وجغرافية البصـــرة

أولاً: معنى البصرة:

تطلق كلمة البصرة عند العرب على الحجارة الرِّخْوَة، التي فيها بياض، وهو الكَذَّانُ، فالبَصْرَةُ والكَذَّانُ كلاهما الحجارة التي ليست بِصُلْبَة [1]. وفي البصرة ثلاث لغات: البَصْرَةُ، والبَصَرَةُ، والبِصرةُ، وهي الأرض التي حجارتها جِصٌّ، وبها سميت البَصْرَةُ [2].

وأشار ياقوت الحموي إلى "أن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى فقالوا: إن هذه أرضٌ بَصْرَةٌ، يعنون حَصْبَة ، فسميت بذلك"(3). و"سُميت البَصْرَة، لأنَّ أرضها التي بين العقيق وأعلى المِرْبَد حِجارةٌ رَخْوَة، وهو الموضع الذي يُسَمَى الحَزيز" (4).

وأما لفظة البصرتان فيقصد بها البصرة والكوفة (*) (5).

وتُعدُّ الأُبُلَّةُ (**) التي هي أقدم من البصرة، أهم مركز مأهول في هذه المنطقة، إذ كانت الميناء العراقي الرئيسي للتجارة مع الهند، إذ عرفت هذه المنطقة عند العرب باسم أرض الهند أو فرج الهند (6).

ثانياً: جغرافية البصرة

تتمتع البصرة بموقع حيوي مهم، إذ تعد الميناء العراقي الرئيسي لتجارة العراق مع عُمان والبحرين وبلاد فارس والهند والصين (7).

وعندما فتح عتبة بن غزوان الأُبَلَّة القريبة من البصرة، كتب إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، إذ قال: "أما بعد فإن الله ولهُ الحمد فتح علينا الأُبَلَّة وهي مَرْقى سفن البحر من عُمان، والبحرين وفارس والهند والصين"(8).

إنَّ شط العرب عبارة عن نهر تكوّن من التقاء نهري دجلة والفرات، الذي يجري في أرض العراق. وعند الفتح الإسلامي ذكر الجغرافيون العرب على أن مدينة الأُبُلَّة كانت تقع على الضفة اليمنى لهذا النهر. وأشار ابن خُرْداذْبَة إلى ذلك قائلاً: "والبصرة ولها النهران"(9).

وتطرق المقدسي إلى ذلك قائلاً: "قد شُقَّ إليها من دجلة نهران نهر الأُبُلَّة ونهر مَعْقِل فإذا اجتمعا مدًّا عليها وتشعَّب إليها أنهار إلى ناحية عبَّادان وناحية المَذَارُ" (***) (10)، وفي شرق البصرة توجد مياه أنهار كثيرة مفترشة(11).

هذا يدلُّ على أن مدينة البصرة تتمتع بموقع مائي مهم ، وذلك لوقوعها على شط العرب المتصل بالخليج العربي، الذي أدى إلى ازدهار النشاط التجاري لهذه المدينة .

تقع البصرة بين بلاد فارس وشمال العراق، وفي مكان متوسط بين المدينة مركز الخلافة الإسلامية وبلاد فارس. وقد ذكر عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، هذه الميزة في الكتاب الذي وجهه إلى عتبة بن غزوان، إذ قال: "لقد فتح الله جلَّ وعزَّ على إخوانكم في الحيرة وما حولها ... ولست آمن أن يمدهم إخوانهم من أهل فارس، فإني أُريد أن أوجهك إلى أرض الهند لتمنع أهل تلك الجيزة من إمداد إخوانهم على إخوانكم"(12).

المبحث الثاني: الرحلـــة في طلب العلـــم

إنَّ العلماء البصريين قد رحلوا إلى مناطق عديدة، لينهلوا من العلم الغزير، فجاء عليهم بالخير الوفير .

1- مسلم بن يسار البصري: أبو عبد الله القدوة الفقيه، الزاهد، مولى بني أُمية، وقيل مولى بني تَيْم من موالي طلحة رضي الله عنه. كان ثقة، فاضلاً، عابداً، ورعاً، يقال له مسلم سُكَّرة، ومسلم المُصْبِح. رحل إلى مكة وساهم في نقل الأحاديث وروايتها، فاستمع منه المكيون الكثير من الأحاديث. توفى سنة مائة للهجرة (13).

2- عبد الرحمن بن مطعم البُناني: هو أبو المنهال البصري، كان ثقة، نزل مكة، وحدّث فيها، إذ كان له أثر واضح في حديث المكيين، وفي نقل الأحاديث وروايتها. توفى سنة ست ومائة للهجرة(14).

3- الحسنُ البَصْريّ: أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن بن يسار. مولى زَيْد بن ثابت. وكانت أمُّ الحسن مولاة لأُمّ سلمة أمّ المؤمنين المخزومية. وكان سيّدَ أهل زمانه عِلْماً وعملاً، ثقة فقيه، عظيم القدر، تام الشكل، مليح الصورة بهياً، من الشجعان المعروفين، واعلم الناس بالحلال والحرام. توفى سنة عشر ومائة، وله تسعون سنة [15].

4- عبد الرحمن بن مهدي البصري: رجل بين فترة وأخرى إلى مكة، والتقى بعلمائها في الحديث. إذ روى عنهم، ورووا عنه. توفى سنة ثمان وتسعون ومائة للهجرة[16].

5- سليمان بن حرب بن بجيل الواشجيُّ البصريُّ: أبو أيوب الواشجيُّ الأزديُّ البصري، من حفاظ البصرة المشهورين، رحل إلى مكة، وتولّى القضاء فيها، وحدَّث. إذ نشر فيها حديث أهل البصرة. كان لا يُدلِّس، ويتكلم في الرجال ، وفي الفقه، ثقة ثبت، قلَّ من يرضى من المشايخ، فإذا رأيتهُ قد روى عن شيخ، فاعلم أنه ثقة حضر مجلسه المأمون من وراء ستر . ولد في سنة أربعين ومائة للهجرة، وتوفى سنة أربع وعشرون ومائتين للهجرة[17].

6- قَتَادة بن دِعامَة السَّدُوسي: أبو الخطاب الضرير المُفسِّر، أحد علماء البصرة وحفاظها. وكان يقول: ما سمعت شيئاً فنسيته، وما في القرآن آية إلاّ وقد سمعتُ فيها شيئاً[18]. رحل إلى المدينة المنوّرة، وذهب إلى سعيد بن المُسيّب(****) فمكث عنده أياماً يسأله فيجمع من ذلك علماً غزيراً ويعود إلى البصرة [19]. توفى سنة سبع عشرة ومائة للهجرة [20].

7- رَوْح بن عُبَادة: أبو محمد بن العلاء بن حسّان بن عَمْرو القَيْسي البصري الحافظ الثقة الصدوق. رحل إلى مالك بن أنس (*****) بالمدينة، إذ سمع منه، وقرأ عليه، وروى عنه[21]. وقدم بغداد، وحدَّثَ بها مدة طويلة، ثم رجع إلى البصرة فمات بها، وكان كثير الحديث، صنَّف الكُتُبَ في السُّنن والأحكام، وجمع التَّفسير[22]. توفى سنة خمس ومائتين[23].

8- عبد الله بن مسلمة القعنبي: أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعنبي الحارثي المدني . كان مجاب الدعوة ثقةً حُجَّةً [24]. رحل إلى المدينة المنوّرة واختلف إلى مالك بن أنس ثلاثين سنة، وسمع منه الحديث مراراً في المُوَطَّأ [25].

9- شُعْبَة بن الحَجَّاج: ابن الورد أبو بسطام العتكي، الواسطي الأزدي، الإمام الثقة، شيخ أهل البصرة[26]. رحل إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية، وحدّث فيها، وكان يجتمع مع العلماء، ليتحدث ويتذاكر معهم[27].

10- عبد الوهاب بن عَطاء: أبو نصر عبد الوهاب بن عَطاء البصري الخفاف، الصدوق المحدّث[28]. كان كثير الحديث من الحفاظ، قدِم بغداد وسكنها، ولزم السوق بالكرخ حتى مات، توفى سنة أربع ومائتين للهجرة [29].

11- سليمان بن داود الزَّهْراني: أبو الربيع سليمان بن داود الأزدي العتكي الزَّهْراني البصري[30]. كان حافظاً، ثقة، صدوقاً، سمع من مالك بن أنس. رحل إلى بغداد وحدّث فيها. توفى سنة أربع وثلاثين ومائتين للهجرة[31].

12- عبد الله بن عَمْرو المنقري: أبو معمر عبد الله بن عمرو المنقري البصري. كان حافظاً ، ثقةً، ثبتاً [32]. قَدِم بغداد وحدّث فيها. توفى سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة [33].

13- زَيدُ بنُ أَخْزَم : أبو طالب زيدُ بن أَخْزَم الطائي النبهاني البصري [34]. كان حافظاً ثقةً ، قَدِمَ بغداد وحدّث فيها . توفى سنة سبع وخمسين ومائتين للهجرة[35].

14- إبراهيم بن عبد الله : أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله بن مسلم بن ماعز بن مهاجر الكَجيّ البصري[36]. كان من الحفاظ ، شيخ المُحَدِّثين، مصنف "السُنن" [37]. قَدِم بغداد وازدحموا عليه. مات ببغداد في سنة اثنتين وتسعين ومائتين للهجرة، فنقل إلى البصرة ودُفِنَ بها [38].

15- علي بن محمد المدائني: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله المدائني البصري[39]. كان من الحفاظ الإخباريين ، وعجباً في معرفة السير والمغازي والأنساب وأيام العرب، مُصدَّقاً ، عالي الإسناد . توفى سنة أربع وعشرين ومائتين للهجرة[40]. سار إلى المدائن، ثم إلى بغداد، فلم يزل بها حتى توفي[41].

16- خالد بن خداش بن عجلان: أبو الهيثم خالد بن خداش بن عجلان المهلبي البصري[42]. كان صادقاً، نزل بغداد، وحدّث بها. توفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين للهجرة [43]. إنَّ العلماء العرب المسلمين شغوفين بالرحلة إلى بغداد، ولا سيّما علماء البصرة، إذ كانت رحلاتهم إلى بغداد كثيرة وزاخرة، وذلك نظراً لأهمية مركز بغداد، وزهوها العلمي وإشعاعها الحِضاري.

17- عبد الله بن زيد: أبو قِلابة عبد الله بن زيد بن عمرو أو عامر بن ناتِل بن مالك الجَرْمي البصري[44]. كان من الفقهاء، طلب للقضاء فهرب منه، فنزل الشام، إذ كان رأساً في العلم والعمل. توفى سنة أربع ومائة للهجرة[45].

18- أحمد بن عمرو البَزَّارُ : أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البَزَّارُ البصري [46]. كان من الحفاظ صاحب " المسند " الكبير[47]. رحل إلى الشام ومصر لنشر العلم بها ، توفى سنة اثنين وتسعين ومائتين للهجرة [48].

19- بَكَّارُ بن قتيبة بن أسد: أبو بَكرة بَكَّارُ بن قتيبة بن أسد بن عُبَيدُ الله بن بشير بن أبي بردعة الثقفي البكراوي البصري[49]. القاضي الكبير، العلاّمة المحدث، قاضي القضاة بمصر، إذ عَني بالحديث وكتب الكثير، وبرع في الفروع وصنّف واشتغل[50]. رحل إلى مصر، وحدّث عنه خلق كثير من أهل مصر[51]. توفى سنة إحدى وسبعين ومائتين للهجرة[52].

20- عيسى بن شاذان القطان : كان من العلماء البصريين المعروفين، ثقة حافظ، رحل إلى مصر، ثم عاد إلى البصرة، إذ مات في سن الكهولة بعد سنة أربعين ومائتين للهجرة[53].

21- قُبَيْطَة : الحافظ الفقيه البصري، أبو علي الحسن بن سليمان. كان حافظاً ثقةً، رحل إلى مصر، توفي سنة إحدى وستين ومائتين للهجرة [54].

22- يزيد بن سنان: هو يزيد بن سنان بن يزيد بن الذيال أبو خالد القرشي القزاز البصري. كان حافظاً ثقةً، رحل إلى مصر وسكن فيها. توفى سنة أربع وستين ومائتين للهجرة[55].

23- أسباط بن اليسع: أبو طاهر أسباط بن اليسع بن أنس بن مَعْمَر الذُّهْلي البصري، رحل إلى بخارى، ونزل فيها [56].

24- عبيدة بن بلال: هو عبيدة بن بلال العَمّي البصري، رحل إلى بخارى ونزل فيها. توفى سنة ستين ومائة للهجرة[57].

25- النضر بن شميل: أبو الحسن النضر بن شميل بن حرشة المازني البصري النحوي، شيخ أهل مَرْو [58]. كان ثقةً ثبتاً، رحل إلى خراسان وحدّث فيها[59]. توفى سنة أربع ومائتين للهجرة [60].

26- محمد بن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري، كاتب الواقدي[61]. إذ استفاد ابن سعد من ملازمته لشيخه الواقدي الذي اقترن اسمه به وبأنه كاتبه [62]. كان كثير العلم غزير الحديث والرواية، إذ كتب الحديث والفقه[63]. رحل إلى بغداد والمدينة لينهل من علمهم الغزير[64]. توفى سنة ثلاثين ومائتين للهجرة [65].

27- سليمان بن داود: أبو داود سليمان بن داود الطيالسي، الجارود الفارسي الأسدي الزبيري الحافظ البصري[66]. رحل إلى أصبهان وحدّث فيها، إذ كان يعقد لهم مجالس ويملي عليهم ما عنده من الحديث[67]. توفى سنة أربع ومائتين للهجرة[68].

28- إياس بن معاوية: إياس بن معاوية بن قرة بن إياس، أبو وائلة المزني الليثي البصري[69]. كان قاضياً، ثقة مشهور بالذكاء[70]. رحل إلى واسط وتحاور معهم في مسائلٍ كثيرة[71]. توفى سنة اثنان وعشرون ومائة للهجرة[72].

29- زياد بن أبي زياد: أبو محمد زياد بن أبي زياد الجصاص البصري، نزيل واسط [73].

30- محمد بن عثمان : محمد بن عثمان بن سيار البصري، نزيل واسط [74].

31- عبد العزيز بن المغيرة: أبو عبد الرحمن الصفَّار عبد العزيز بن المغيرة بن أُمَيّ المِنقَري البصري، كان صدوقاً رحل إلى الرَّي[75].

32- الحسن بن عمر: أبو علي البصري الحسن بن عمر بن شقيق الجَرْمي، كان صدوقاً، رحل إلى الرَّي، توفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين تقريباً [76].

33- عَلِيُّ بنُ المَدينيّ: أبو الحسن عَلِيُّ بن عبد الله بن جعفر بن نجيح بن بكر بن سَعْد السَّعْدي البصري[77]. ولد بالبصرة في سنة إحدى وستين ومائة[78]. رحل إلى اليمن، وكانت رحلته طويلة، إذ روى فيها وحدّث[79]. مات بسامراء سنة أربع وثلاثين ومائتين، وله نحو من مائتي مصنف. هذا يدلُّ على أن ابن المديني كانت له رحلة إلى سامراء فحدّث فيها ونهل[80].

34- عكرمة بن عمّار: أبو عمار اليمامي عكرمة بن عمار العجلي، كان صدوقاً، رحل إلى اليمن فنزلها واتخذها مسكناً له. توفي قبيل سنة ستين للهجرة[81].

35- معمر بن راشد: أبو عروة معمر بن راشد الأزدي البصري. ثقة ثبت من الفضلاء، رحل إلى اليمن واتخذها مسكناً له[82]. توفى سنة أربع وخمسين ومائة للهجرة[83].

36- مُعاذ بن هِشام: معاذ بن هِشام بن أبي عبد الله سَنبَر الدستوائي البصري. كان من المحدثين الثقة الصدوق(84). رحل إلى اليمن فنزلها واتخذها مسكناً له(85). توفى سنة مائتين للهجرة(86).

الخاتمـــة

تُعدُّ البصرة من المدن العربية الإسلامية، المزدهرة العريقة، ذات الحضارة الرفيعة، إذ برز من علمائها الكثير لينهلوا من العلم الغزير الوفير، فكانوا رجالاً عِظام، ولاسيّما رحلاتهم العلمية، إذ أعطوا العلم وأخذوا منه بكل ثقة وأمانة وأدب.

كانت في البصرة نهضة علمية واسعة من خلال الاهتمام بعلم الحديث، إذ كان له الدور الأكبر من جهود علماء البصرة .

اشتهرت البصرة بكثرة حفاظها، إذ كان لها النصيب الأكبر من الحفاظ، وهذا يدلُّ على تطورها وتقدّمها في مجال العلم .

رحل علماء البصرة إلى الكثير من الأمصار الإسلامية طلباً للحديث أو نشراً لما يملكون من العلم، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على إنَّ علماء البصرة قدّموا جهوداً علمية واسعة فاقت جهود كثير من علماء الأقطار الأُخرى . إذ كانوا فطاحِل في الحديث وعلومه لكثير من علماء الأمصار الأُخرى، مثل بغداد والكوفة. مثال ذلك شعبة بن الحجاج، وعلي بن المديني وغيرهم كثير.

الهوامش :

(1) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرّومي البغدادي، (ت 626هـ/ 1228م)، مُعجم البُلدان، دار صادر، ط2، (بيروت، 1995م)، مج1 ص 430؛ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، (ت 711هـ/1311م)، لسان العرب المحيط، دار صادر، ط7، (بيروت، 2011م)، مج2 ص 95.

(2) ابن منظور، مج2 ص 95.

(3) معجم البلدان، مج1 ص 430.

(4) أبو عُبيد البكري ، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب الأندلسي، (ت 487هـ/ 1094م)، مُعْجَمُ ما استُعْجم من أسماء البلاد والمواضع ، تحقيق: د. جمال طلبه، دار الكتب العلمية ، ط1، (بيروت، 1998م) ، ج1 ص 234.

(*) الكُوفَة: تعني الرَّمْلَة الحَمْراء ، وبها سُمّيَت الكُوفَة. يُنظر: الرازي، حمد بن أبي بكر بن عبد القادر، (ت 666هـ/1267م)، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي ، ط1، (بيروت ، 1967م)، ص 583.

(5) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج1 ص 430؛ الحميري، محمد بن عبد المنعم ، (ت 727هـ/ 1326م)، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) ، تحقيق: د. إحسان عباس ، دار السراج ، ط2،(بيروت ، 1980م) ، ص 105-106.

(**) الأُبُلَّةُ: هي بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة . يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج1 ص 77.

(6) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، (ت 279هـ/ 892م)، فتوح البلدان، نشره: د.صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، (القاهرة ، 1957م)، القسم الثاني ص 419؛ ياقوت الحموي، المصدر نفسه، مج1 ص 77، 432؛ العلي، صالح أحمد، الدكتور، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، دار الطليعة، ط2، (بيروت، 1969م)، ص 33؛ العيسى، علاء

لازم، المجمل في تاريخ البصرة ، دار الشؤون الثقافية ، ط1، (بغداد ، 2010م) ، ص 14.

(7) البلاذري، فتوح البلدان، القسم الثاني، ص 419؛ العلي، التنظيمات، ص 33.

(8) الدِّينَوَرِيّ: أبي حنيفة أحمد بن داود ، (ت 281هـ/895م)، الأخبار الطِّوال ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، (بغداد ، د.ت)، ص 112؛ الأنصاري ، القاضي أحمد نور، النصرة في أخبار البصرة، تقرير قدّمه سنة (1277هـ/1860م) إلى منيب باشا والي البصرة، تحقيق: د. يوسف عز الدين، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، (بغداد، 1969م) ، ص 3 .

(9) أبو القاسم عبد الله بن عبد الله، (ت، 300هـ/ 912م)، المسالك والممالك، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه: د. محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، ط1، (بيروت، 1988م)، ص 147.

(***) المَذَارُ : تقع على نهر دجلة في ميسان بين واسط والبصرة ، وهي قصبة ميسان ، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام ، فتحها عتبة بن غزوان في أيام عمر بن الخطاب بعد البصرة . يُنظر : اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح، (ت 284هـ/897م) ، البُلدان، وضع حَوَاشِيَهُ : محمد أمين الضنّاوي ، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت ، 2002م) ، ص 159 ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان، مج5 ص 88.

(10) شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ، (ت 380هـ/990م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، وضع حواشيهُ : محمد أمين الضنّاوي ، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت ، 2003م) ، ص 108.

(11) الإصطخري، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد، (ت 346هـ/957م) ، مسالك الممالك، مطبعة بريل، (ليدن ، 1927م) ، ص 80 ؛ ابن حوقل ، أبي القاسم محمد بن علي ، (ت 367هـ/977م) ، صورة الأرض ، مطبعة دار مكتبة الحياة ، (بيروت، د.ت)، القسم الأول ص 212.

(12) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ، (ت 310هـ/922م) ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، (القاهرة، 1963م)، مج2 ص590؛ القضاة، أمين، الدكتور، مدرسة الحديث في البصرة حتى القرن الثالث الهجري، دار ابن حزم، ط1، (بيروت، 1998م) ، ص 45.

(13) الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، (ت 748هـ/1347م)، تهذيب سير أعلام النبلا ، تحقيق : شُعَيْب الأَرنَؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، (بيروت، 1999م)، ج1 ص 16؛ الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام ، تحقيق : مُصطفى بن علي عَوَض، ربيع أبو بكر عبد الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، (بيروت ، 1993م)، مج1 ص 62؛ الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط1، (حلب ، 1963م)، القسم: 4، ص 107؛ ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي، (ت 852هـ/1448م)، تقريب التهذيب، قدّم لها دراسة وافية : محمد عوّانة، دار ابن حزم، ط1، (بيروت ، 1999م) ، ص 617 ؛ ابن العماد الحنبلي ، أبي الفلاح عبد الحي ، (ت 1089هـ/1678م) ، شَذَرَاتُ الذَّهب في أخبارِ مَنْ ذَهَب ، دار الكتب العلمية،(بيروت ، د.ت) ، ج1 ص 119 ؛ القضاة ، مدرسة الحديث في البصرة ، ص420.

(14) ابن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ، ص 411؛ القضاة ، مدرسة الحديث في البصرة، ص 420 .

(15) الخطيب البغدادي ، أحمد بن ثابت ، (ت 463هـ/1070م)، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق: نور الدين عتر، دار الكتب العلمية، (بيروت ، د.ت) ،ص 343 ؛ الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 166-167 ؛ الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام ، مج1 ص 66؛ الذهبي

ميزان الاعتدال ، القسم الأول ص 527؛ الذهبي، دول الإسلام، تحقيق : حسن إسماعيل مروة ، دار صادر ، ط2، (بيروت ، 2006م)، ج1 ص 99؛ الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ، د.ت)، ج1 ص 71-72؛ ابن حجر، تقريب التهذيب، ص 194؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج1 ص 136-138.

(16) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة، (القاهرة، د.ت)، ج8 ص 444؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ ، ج1 ص 329.

(17) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ، ج9 ص 33؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 373؛ الذهبي ، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 150 ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج1 ص 194 ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ص 54 .

(18) ابن قتيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم الكوفي المَرْوَزيّ، الدِّينَوَرِيّ، (ت 276هـ/889م)، المعارف، تحقيق : د. ثروت عكاشة ، دار المعارف، ط1، (القاهرة، 1969م) ، ص 462؛ الذهبي، الإعلام بوفيَّات الأعلام ، مج1 ص 70؛ الذهبي، دول الإسلام ، ج1 ص 105.

(****) سعيد بن المُسيِّب : أبو محمد سعيد بن المُسيِّب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عِمْران بن مخزوم المخزومي . الإمام العلم ، عالم وفقيه أهل المدينة ، جمع بين الحديث والتفسير والفقه والورع والعبادة . توفي سنة أربع وتسعون للهجرة . يُنظر: الذهبي ، الإعلام بوفيَّات الأعلام ، مج1 ص 57 ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ج1 ص 102-103.

(19) ابن سعد، محمد بن مسعد (ت 230هـ/844م)، الطبقات الكبرى ، دار صادر، (بيروت ، د.ت)، ج7 ص 230 ؛ الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 143.

(20) ابن سعد ، المصدر نفسه ، ج7 ص 230؛ الذهبي، المصدر نفسه ، ج1 ص 193؛ الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام ، ص 70؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1ص 153.

(*****) مالك بن أنس: أبو عبد الله بن مالك بن أبي عامر بن عَمْرو الأصْبَحي الحميري المدني، إمام دار الهجرة، كان فقيهاً، رأس المتقنين ، كبير المتثبتين، صاحب كتاب (المُوَطَّأ). توفي سنة تسع وسبعين ومائة للهجرة. يُنظر: الذهبي: الإعلام بوفيَّات الأعلام ، مج1 ص 113؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص 161؛ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص 601؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج1 ص 289 .

(21) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج8 ص 405 ؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 336؛ الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام ، مج1 ص 135؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، القسم 2 ص 58؛ الذهبي، دول الإسلام ، ج1 ص 180؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج2 ص 13.

(22) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 336 ، ابن العماد الحنبلي ، المصدر نفسه ، ج2 ص 13.

(23) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 336؛ الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام، ج1 ص 135؛ الذهبي، ميزان الاعتدال ، القسم 2 ص 60؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص 180؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج2 ص 13.

(24) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 524 ؛ ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت 681هـ/1282م) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، ط5، (بيروت، 2009م)، مج1 ص 40؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 369؛ الذهبي ، الإعلام بوفيّات الأعلام ، مج1 ص 148؛ الذهبي، دول الإسلام ، ج1 ص 191؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج2 ص 49.

(25) الخطيب البغدادي ، الكفاية في علم الرواية ، مطبعة السعادة ، (د.م، د.ت) ، ص 410.

(26) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 501 ؛ الذهبي ، الأعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 101؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص 149؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج1 ص237.

(27) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج9 ص 24.

(28) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ط1 ص 342 ؛ الذهبي ، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 135.

(29) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج11 ص 22 ؛ الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 342؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج2 ص 13.

(30) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ج9 ص 39؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج1 ص204.

(31) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ج9 ص 39 ؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 409؛ الذهبي، الأعلام بوفيّات الأعلام، ج1 ص 161.

(32) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج10 ص 24؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج2 ص 54.

(33) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج10 ص 24؛ ابن العماد الحنبلي، المصدر نفسه، ج2 ص 54.

(34) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد، ج8 ص 446؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 464؛ الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 182.

(35) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج8 ص 646؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج2 ص 136.

(36) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 541؛ الذهبي ، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 205؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج1 ص 264.

(37) الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 205؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص264؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت 911هـ/1505م)، طبقات الحفاظ، مطبعة الاستقلال الكبرى، ط1، (د.م ، 1972م)، ص 273 ؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ، ج2 ص 210.

(38) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 541؛ السيوطي ، المصدر نفسه ، ص273 ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ص 210.

(39) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 380؛ الذهبي ، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص150؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج1 ص 194 ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ص 54.

(40) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج12 ص 55 ؛ الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 380؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ص54.

(41) الخطيب البغدادي، المصدر نفسه، ج12، ص 55.

(42) الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 389؛ الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 149؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، القسم الأول ص 629.

(43) أبو يَعلى، محمد بن أبي يَعلى، (ت 526هـ/1131م)، طبقات الحنابلة، دار الاعتدال، (دمشق، 1931م)، ج1 ص 153-154 ؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 389.

(44) الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 64؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص94.

(45) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج7 ص 183؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 158؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج1 ص 94 ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب، ج1 ص 126.

(46) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 554؛ الذهبي ، الإعلام بوفيّات الأعلام ، مج1 ص 205؛ الذهبي، دول الإسلام ، ج1 ص 263.

(47) الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام ، مج1 ص 205.

(48) الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 454؛ الذهبي، دول الإسلام ، ج1 ص63؛ الذهبي، ميزان

الاعتدال، القسم الأول ص 124؛ السيوطي، طبقات الحفاظ ، ص 285.

(49) الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 493؛ الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام، ج1 ص 192.

(50) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 493.

(51) المصدر نفسه ، ج1 ص 493.

(52) الذهبي، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 192.

(53) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص 501؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، مطبعة الهند، (حيدر آباد، 1326هـ)، ج8 ص 213.

(54) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 484؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج2 ص572؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص 253؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج1، ص 142.

(55) الذهبي ، الإعلام بوفيّات الأعلام، مج1 ص 188؛ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص 697.

(56) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه، ص 125.

(57) المصدر نفسه، ص 443.

(58) الذهبي ، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 134؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، القسم الرابع، ص 258؛ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص 652.

(59) الذهبي، ميزان الاعتدال، القسم الرابع ص 258؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه، ص 652.

(60) الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام ، مج1 ص 134؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه، ص 652.

(61) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4 ص 351؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 407؛ الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 157.

(62) ابن خلكان، المصدر نفسه، مج4 ص 351.

(63) المصدر نفسه ، مج4 ص 351-352؛ الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، (ت 764هـ/1362م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: دير رنغ، (دمشق، 1953م) ، ج3 ص 88.

(64) ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص 559.

(65) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج4 ص 352 ؛ الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 407.

(66) الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 134؛ الذهبي ، تذكرة الحفاظ، ج1 ص351.

(67) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج9 ص 26-27؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1 ص352.

(68) الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 134؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص179؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1 ص 352؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، القسم الثاني ص 204؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج2 ص 12.

(69) الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 74؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص110؛ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص 146؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج1 ص 160.

(70) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه، ص 146.

(71) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج7 ص 234.

(72) الذهبي ، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 74؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص110؛ ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، ص 146؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج1 ص 160 .

(73) الذهبي ، ميزان الاعتدال ، القسم الثاني ص 89 ؛ ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه، ص 262.

(74) ابن حجر العسقلاني، المصدر نفسه، ص 578.

(75) المصدر نفسه ، ص 421.

(76) المصدر نفسه ، ص 198.

(77) الذهبي، تهذيب سير أعلام النبلاء، ج1 ص 415 ؛ الذهبي، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 161؛ الذهبي، دول الإسلام، ج1 ص

205؛ الذهبي، تذكرة الحفاظ ، ج2 ص 428؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ص 81.

(78) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 415.

(79) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج11 ص 462.

(80) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 415 ؛ الذهبي ، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 161 ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج1 ص 205 ؛ الذهبي ، تذكرة الحفاظ، ج2 ص 428 ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج2 ص 81.

(81) ابن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ، ص 462.

(82) المصدر نفسه ، ص 629.

(83) المصدر نفسه ، ص 629.

(84) الذهبي ، تهذيب سير الأعلام النبلاء ، ج1 ص 333 ؛ الذهبي ، الإعلام بوفيات الأعلام، مج1 ص 131 ؛ ابن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ، ص 623؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ص 359.

(85) ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه ، ص 623.

(86) الذهبي ، تهذيب سير أعلام النبلاء ، ج1 ص 333؛ الذهبي ، الإعلام بوفيات الأعلام ، مج1 ص 131 ؛ ابن حجر العسقلاني ، المصدر نفسه ، 623؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج1 ص 359.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر :

* الاصطخري ، أبي إسحاق إبراهيم بن محمد، (ت 346هـ/957م) .

-1 مسالك الممالك ، مطبعة بريل ، (ليدن ، 1927م) .

* البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، (ت 279هـ/892م) .

-2 فتوح البلدان ، نشره : د. صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي، (القاهرة ، 1956م) .

* ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد بن علي ، (ت 852هـ/1448م).

-3 تقريب التهذيب ، قدّم لها دراسة وافية : محمد عَوَّامَة ، دار ابن حزم ، ط1، (بيروت، 1999م) .

-4 تهذيب التهذيب ، مطبعة الهند ، (حيدر آباد ، 1326هـ) .

* الحميري ، محمد بن عبد المنعم ، (ت 727هـ/1326م) .

-5 كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، (معجم جغرافي) ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار السراج ، ط2 ، (بيروت ، 1980م).

* ابن حوقل ، أبي القاسم محمد بن علي ، (ت 367هـ/977م) .

-6 صورة الأرض ، مطبعة دار مكتبة الحياة ، (بيروت ، د.ت) .

* ابن خرداذبة ، أبي القاسم عبد الله بن عبد الله ، (ت 300هـ/912م) .

-7 المسالك والممالك ، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه : د. محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي ، ط1، (بيروت، 1988م) .

* الخطيب البغدادي ، أحمد بن ثابت ، (463هـ/1070م) .

-8 تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، (القاهرة ، د.ت) .

-9 الرحلة في طلب الحديث ، تحقيق : د. نور الدين عتر ، دار الكتب العلمية، (بيروت ، د.ت).

-10 الكفاية في علم الرواية ، مطبعة السعادة ، (د.م، د.ت) .

* ابن خلكان ، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، (ت 681هـ/1282م) .

-11 وفياتُ الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : د. إحسان عباس، دار صادر، ط5، (بيروت، 2009م) .

* الـدِّيْنَوَرِيُّ ، أبـي حنيفة أحمد بن داود ، (ت 281هـ/895م) .

-12 الأخبار الطِّوال ، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي ، (بغداد ، د.ت) .

* الـذهبي ، شمس الـدين محمد بن أحمد بن عثمان ، (ت 748هـ/1347م) .

-13 الإعـلام بوفيّات الأعْـلام ، تحقيق : مُصطفى بن عَوَض، ربيع أبو بكر عبد الباقي ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط1 ، (بيروت ، 1993م) .

-14 تـذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت).

-15 تهذيب سير أعلام النبلاء، تحقيق: شُعَيْب الأرنَـؤوط، مؤسسة الرسالة، ط3، (بيروت، 1999م) .

-16 دول الإسلام، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، دار صادر، ط2، (بيروت، 2006م).

-17 ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، (حلب ، 1963م) .

* الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ، (ت 666هـ/1267م) .

-18 مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي ، ط1 ، (بيروت ، 1967م) .

* ابن سعد ، محمد بن سعد ، (ت 230هـ/844م) .

-19 الطبقات الكبرى ، دار صادر ، (بيروت ، د.ت) .

* السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت 911هـ/1505م) .

-20 طبقات الحفاظ ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، ط1 ، (د.م ، 1972م) .

* الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، (ت 764هـ/1362م) .

-21 الوافي بالوفيات ، تحقيق : دي رنغ ، (دمشق، 1953م) .

* الطبري ، أبي جعفر محمد بن جرير ، (ت310هـ/922م) .

-22 تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (القاهرة، 1963م)

* أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب الأندلسي، (ت 487هـ/1094م) .

-23 مُعْجَمُ ما اسْتُعْجَم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: د. جمال طلبه، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت، 1998م).

* ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي، (ت 1089هـ/1678م) .

-24 شَذَرَاتُ الذَّهب في أخبارِ مَنْ ذَهَب، دار الكتب العلمية، (بيروت، د.ت).

* ابن قُتَيبة، أبي محمد عبد الله بن مسلم الكوفي المَرْوَزِيّ الدِّيْنَوَرِيّ، (ت 276هـ/ 889م) .

-25 المعارف ، تحقيق: د. ثروت عكاشة ، دار المعارف، ط1، (القاهرة ، 1969م) .

* المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، (ت 380هـ/990م).

-26 أحسنُ التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع حَوَاشِيَهُ: محمد أمين الضنَّاوي، دار الكتب العلمية، ط1، (بيروت ، 2003م) .

* ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، (ت 711هـ/ 1311م) .

-27 لسان العرب المحيط، دار صادر، ط7، (بيروت ، 2011م) .

* ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرّومي البغدادي، (ت 626هـ/ 1228م) .

-28 مُعْجم البُلدان، دار صادر، ط2، (بيروت، 1995م).

* اليعقـوبي، أحمـد بـن أبـي يعقـوب إسـحاق بـن جعفـر بـن وهـب بـن واضـح، (ت 284هـ/ 897م) .
-29 البلـدان، وضـع حَوَاشِـيَهُ: محمـد أمـين الضـنَّاوي، دار الكتـب العلميـة، ط1، (بيـروت، 2002م) .
* أبـو يَعلـى، محمـد بـن أبـي يَعلـى، (ت 526هـ/ 1131م) .
-30 طبقـات الحنابلـة، دار الاعتـدال، (دمشـق، 1931م) .
ثانياً: المراجـع
* الأنصاري ، القاضي أحمد نور .
-31 النصـرة فـي أخبـار البصـرة ، تقريـر قدّمـه سـنة (1277هـ/1860م) إلـى منيـب باشـا والـي البصـرة، تحقيـق: د. يوسـف عـز الـدين، مطبعـة المجمع العلمي العراقي .
* العلي ، صالح أحمد ، الدكتور .
-32 التنظيمـات الاجتماعيـة والاقتصـادية فـي البصـرة فـي القـرن الأول الهجـري ، دار الطليعة، ط2 ، (بيروت ، 1969م) .
* العيسى، علاء لازم.
-33 المجمل في تـاريخ البصرة، دار الشؤون الثقافيـة، ط1، (بغداد ، 2010م) .
* القضاة ، أمين ، الدكتور .
-34 مدرسـة الحـديث فـي البصـرة حتـى القـرن الثالـث الهجري، دار ابن حزم ، ط1، (بيروت ، 1998م).

المكتبات وخزائن الكتب في العصر العباسي

د. فينوس ميثم علي
الجامعة المستنصرية/ كلية التربية الأساسية

الملخص:

تعد المكتبات من الأركان الأساسية والمهمة في الدولة العربية الإسلامية ونشأة وتطورت نتيجة الحاجات الماسة للمجتمع الإسلامي، التي أحس بها المسلمون بعد أن استوطنوا البلاد المحررة وبعد ان انتشر العلم والتعلم والتعليم في أرجاء البلاد الأسلامية، والواقع إن النهضة العلمية التي بدأها الأسلام وتبناها المسلمون كانت سبباً من الأسباب الهامة التي دفعت المسلمين للإهتمام بالكتاب والمكتبة، فالكتب كانت مثار اهتمام المسلمين واحترامهم لأنها اوعية للمعرفة، ومصدر الاهتمام بها نابع من حض الاسلام على العلم والتعلم.

يهدف البحث الى دراسة المكتبات العامة وخزائن الكتب وتضمن محاور مهمة وهي المكتبات العامة (دور العلم) ودار علم الشريف الرضى ثم المكتبات الخاصة ثم المكتبات في الشام ثم المكتبات في مصر ثم المكتبات في الاندلس ثم الخاتمة والمصادر والمراجع.

Abstract

The libraries are the main and important pillars in the Islamic Arab state and have evolved as a result of the urgent needs of the Muslim community ، which was felt by the Muslims after they settled in the liberated country and after the spread of science، learning and education throughout the Islamic countries. Indeed، the scientific renaissance started by Islam and adopted by Muslims The important reasons that led the Muslims to take care of the book and the library، book were the interest of Muslims and respect for the vessels of knowledge، and the sources of interest stems from the promotion of Islam to science and learning.

The research aims to study public libraries and book cabinets and includes important axes، namely public libraries (the role of science) ، Dar al-Sharif، satisfaction، private libraries، libraries in the Levant، libraries in Egypt and libraries in Andalusia. Conclusion، sources and references.

المقدمة:

المكتبات الاسلامية وليدة الحاجات المحلية للمجتمع الاسلامي، التي احس بها المسلمون بعد ان استوطنوا البلاد المحررة وبعد ان انتشر العلم والتعلم والتعليم قي طول البلاد الاسلامية وعرضها، والواقع ان النهضة العلمية التي بدأها الاسلام وتبناها المسلمون كانت سبباً من الاسباب المهمة التي دفعت المسلمين للإهتمام بالكتاب والمكتبة، فالكتب كانت مثار اهتمام المسلمين واحترامهم لأنها أوعية للمعرفة، ومصدر الاهتمام بِها نابع من حض الأسلام على العلم والتعلم.

تعتبر المكتبات المنظمة الغنية بمحتوياتها الدعائم الأساسية التي تشاد عليها صروح العلم والثقافة والحضارة والمعرفة والينابيع التي تغذي تقدم الأمم العلمي والحضاري بماء الحياة والبقاء، ويقاس رقي الأمم أو تأخرها بكثرة المكتبات وما تلقاه من عناية ورعاية او ندرتها وإهمالها واعتبارها شيئاً ذا أهمية، الملاحظ ان المسلمين الأوائل اعتنوا بالمكتبات عناية فائقة وأنفقوا عليها الكثير الكثير، وان حركة النقل من اللغات الأجنبية اليونانية والفارسية والهندية والسريانية استمرت وتسارعت وتيرتها ووجدت العناية الكبيرة من الخلفاء وخاصة قي فترة حكم العباسيين، وقد بلغ ذروته زمن الخليفة المأمون. اما سيف الدين محمد بن عروة الموصلي المنسوب اليه مشهد ابن عروة بالجامع الاموي لأنه اول من فتحه وقد كان مشحوناً بالحواصل الجامعية وبنى فيه البركة ووقف فيه على الحديث درسا ووقف خزائن كتب فيه وكان مقيماً بالقدس الشريف ولكنه كان من خواص اصحاب الملك المعظم فانتقل إلى دمشق حين خرب سور بيت المقدس إلى أن توفي بها(1).

كذلك نشطت حركة التدوين والتأليف وحفل العالم الاسلامي بالعلماء والبحاثة والمؤلفين الذين يكتبون ويؤلفون وينقلون وكثرت المكتبات بشكل هائل وتنوعت اغراضها ووظائفها وزخر العالم الاسلامي بهواة جمع الكتب ومحبيها.

ومما ساعد على تطور وازدهار هذه الحركة اختراع الورق وظهر الوراقين وفتحت دكاكين بيع الكتب ونسخها وازدهرت تجارة الكتب وظهرت طبقة من الكتاب الذين اطلق عليهم النساخ واصبحت مهنتهم نسخ المخطوطات وبيعها.

لقد وجدت البذرة الطيبة هذه ارضاً خصبة فأثمرت وأينعت وآتت اكلها حضارة رائعة أفاضت على العالمين خيراً كثيراً، هذا الحب الشديد للعلم والحض عليه نتج عنه حب الكتب والوله بها فأكثر المسلمين احبوا الكتب حباً ملك عليهم ألبابهم ومشاعرهم وأنساهم الاهل والولد، ولعل اشهر من احب الكتب ودافع عنها ومدحها هو الجاحظ، والدليل على ذلك ما ورد بكتابه (الحيوان) حيث مدح الكتب مظهراً محاسنها ومميزاتها ومن اقواله في ذلك (هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك والمستميح الذي لا يشتريك والجار الذي لا يستطيبك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر). وقال في موضع آخر (نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس والعدة، ونعم العشرة والنزهة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم الوزير والنزيل).

والكتاب هو الذي إذا نظرت فيه أطال متاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجودّ بنانك وفخّم الفاضل وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وعرفت به قي شهر مالا تعرفه من افواه الرجال في دهر..

لا أعتقد أن كتاباً وصف الكتاب وبالغ في وصفه ودافع عنه وبين محاسنه ومزاياه بمثل هذه القوة.

وقال المتنبي مادحاً الكتاب: -

أعز مكان في الدنا سرج سابح

وخير جليس في الأنام كتاب

وتغنى الشعراء بالكتب ومحبتها فقال أحدهم:

نعم الأنيس إذا خلوت كتاب

تلهو به إن ملّك الأحباب

لا مفشياً سراً إذا استودعته

وتفادُ منه حكمة وصواب.

وقال آخر:-

ولكل صاحب لذة متنزه أبداً

ونزهة عالم في كتبه.

مع امتداد الفتوحات الإسلامية اطلع العرب والمسلمون على حضارات الأمم السابقة وترجموا ما استطاعوا إليه سبيلاً فألفوا وأبدعوا حتى انتجوا للعالم أجمع حضارة لا يزال العلم الحديث يرتكز على قواعدها والمبادئ التي سارت عليها.

وكانت نتيجة ذلك ازدهار حركة التأليف والترجمة وانشاء المكتبات في مختلف أرجاء العالم الاسلامي لأغراض مختلفة، واصبحت المكتبات تحوي عشرات الآلاف من المجلدات والمخطوطات، وفي هذا الصدد تقول ظهرت المكتبات الكبيرة في طول البلاد الاسلامية وعرضها، وكان عدد مجلداتها يحصى بالآلاف. ففي عام (277هـ /891م) كان عدد المكتبات العامة في بغداد يقدر بأكثر من مائة مكتبة[2]، اضافة الى اضعاف ذلك من المكتبات الخاصة التي كانت هي الاخرى تضم الآلاف من المجلدات كمكتبة ابراهيم بن اسحق الحربي المتوفى سنه 285هـ والتي كانت تضم اثني عشر الف مجلد في اللغة والغريب[3].

ويشير ابن كثير إلى أنه في سنة عشر وخمسمائة فيها وقع حريق ببغداد احترقت فيه دوراً كثيرة منها دار نور الهدى الزينبي ورباط نهر زور ودار كتب النظامية [4].

أ – المكتبات العامة (دور العلم)

لقد كانت الكتب في الأيام الغابرة موضع رعاية الخلفاء والوزراء والعلماء فكان يحتفل باستنساخها واهدائها ودراستها وحفظها، وكانت تشيد لها المكتبات الضخمة اعتزاز بها ولصيانتها من العبث ومن أهمها:

1- بيت الحكمة:

وهي التي انشأت في بغداد عاصمة الدولة العباسية وفي زمن الخليفة الرشيد في سنة (185هـ / 801م) وتضم هذه المكتبة الرسمية للدولة العباسية الآلاف من الكتب التي جمعها الخليفة المنصور والمهدي والرشيد الذي كان واسع الثقافة شغوف بالعلم والادب والمعرفة، فأعطى لبيت الحكمة عناية خاصة فقد صارت في عهده داراً للترجمة والانتاج الفكري فجمع كبار المترجمين النصارى والصابئة[5] التي اشرف عليها يوحنا بن ماسيويه وكان الخليفة الرشيد قد قلده وظيفة امين الترجمة فيها[6]، يسلعده فيها عدد من المترجمين المعروفين الذين اتقنوا اللغات اليونانية والسريانية والهندية اضافة الى العربية وقد ضمت بيت الحكمة كتباً كثيرة نقل معظمها عن لغات اجنبية عديدة كاليونانية والفرسية والهندية والقبطية والآرمية وغيرها[7]، وقد اتبع المأمون سياسة ابيه الرشيد في الحصول على الكتب من بلاد الروم وقبرص وصقلية حتى اصبحت بيت الحكمة من اشهر المكتبات في ذلك العصر وكانت مثالاً يحتذى به من قبل الخلفاء والامراء بعد ذلك فحاولوا تأسيس خزائن للكتب في مختلف العواصم العربية.

فإذا انتقلنا الى عصر المأمون نجده تم ما بدأه جده المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همته وقوة نفسه فداخل ملوك الروم واتحفهم بالهدايا وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، وقد سار على سياسة والده في توجيه الفتوحات نحو المدن التي تحتوي خزائن المخطوطات للحصول عليها، كما انه لجأ الى مراسلة ملوك الروم في القسطنطينية وصقلية وقبرص وغيرها من المدن طالباً تزويده بما لديهم من مخطوطات وكلف امهر المترجمين ليترجموها فترجمت وحض الناس على قراءتها ورغبهم في ذلك ونفقت سوق العلم في زمانه. وقامت بيت الحكمة في عصره وتنافس اولو النباهة في العلوم كما وجدوا اهتمامه وعطاياه، فكان يجالس العلماء ويأنس بمناظرتهم ويتلذذ بمذاكرتهم، فينالون عطاياه وهذه سيرته مع العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين اهل اللغة والاخبار والمعرفة حتى اصبحت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية ايام اكتمالها وزمان اجتماع شملها.

وكان المأمون يجد لذة في البحث والدرس والمناظرة والجدل العلمي والتأليف والنقل فكان يجمع العلماء ويطلب اليهم اجراء المناظرة بين يديه ويشارك بها. والمأمون اول من فحص علوم الحكمة وحصلّ كتبها وأمر بنقلها الى العربية. وقد اجتمع لدى المأمون في بيت الحكمة عدد من العلماء والباحثين امثال سهل بن هارون وسعيد بن هارون وسلم والحجاج بن مطر وابن البطريق ويوحنا بن ماسويه، وعهد المأمون الى حنين بن اسحاق بمراقبة النقل من اليونانية الى العربية. وقد ظلت هذه الدار تؤدي رسالتها العلمية والثقافية في القرنين الخامس والسادس الهجريين لطالبي العلم والمعرفة، حتى استولى التتر على بغداد فألقيت كتبها في نهر دجلة وذهبت معالمها وعفت آثارها[8]، حيث قام الغزاة المغول بإحراق كتب العلم وسائر العلوم والفنون اذ (انهم بنو اسطبلات الخيول والطولات والمعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن[9]، وقال ابن خلدون (انهم القوا كتب العلم في دجلة) [10].

2- <u>دار علم الشريف الرضي</u>

وقد انشئ مكتبة للكتب اسماها دار العلم وقد ضمت بين جدرانها طلبته الملازمين له والذين ينفق عليهم من ماله الخاص وخزانة الكتب التي اشتملت على الكثير من المؤلفات وتنظمت تنظيماً دقيقاً وحفلت بأمهات الكتب في فنون العلم والمعرفة[11].

3- <u>دار سابور</u>

التي آنشأها ببغداد بجانب الكرخ الوزير ابو نصر سابور بن آردشير وقد وقف عليها الوقوف ونقل كتباً كثيرة مما ابتاعه وجمعه، وعمل فهرست له، وقدرت المصادر التاريخية محتويات هذه الدار من الكتب الكثيرة بأكثر من عشرة آلاف مجلد[12]، ولقد نقل اليها الوزير كتباً كثيرة ووقفها على الفقهاء وسماها دار العلم وأظن إن هذه أول مدرسة وقفت على الفقهاء وكانت قبل النظامية بمدة طويلة[13]. وزخرت هذه الدار بمؤلفات كبار العلماء الذين يهبون كتبهم لها، ومن امثال ذلك كتاب الكافي والكتاب الكبير الذي اوقفه الطبيب جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع (ت، 396هـ/ 1005م)[14]، وكان الشاعر ابو العلاء المعري احد روادها، حيث قال فيها:

غنت لنا في دار سابور قينة

من الورق مطراب الاصائل مهاب [15].

وكانت نهاية هذه الدار الحرق والنهب والاهمال والاتلاف بعد السيطرة السلجوقية على بغداد سنة 447 هـ / 1505 م [16].

4- <u>دار كتاب غرس النعمة الصابيء:</u>

حيث انشأها محمد بن هلال بن ابراهيم الصابيء وقد اختلفت المصادر التاريخية في عدد محتوياتها من الكتب، فمن المؤرخين من يجعلها

اربعمائة مجلد في فنون العلوم والادب [17]، ومنهم من يرفعها الى الف كتاب في حين يرى ابن كثير ان فيها اربعة آلاف مجلد [18].

5- دار علم ابن المارستانية:

انشأها ابو بكر ابن ابي الفرج المعروف بأبن المارستانية سنة 583هـ / 1187م في الجانب الشرقي من بغداد وقال عنها ابن النجار بنيت دار بدرب الشاكرية وسماها دار العلم وجعل فيها خزانة كتب اوقفها على طلاب العلم [19]، ولم تستمر دار العلم هذه طويلاً نظراً لما قيل عن سوء سيرة صاحبها الذي قبض عليه وحبس حيث بيعت دار العلم وما فيها [20].

اما خزائن الكتب فهي:

1. الخزانة الحيدرية في النجف الاشرف:

لعب وجود مرقد الأمام علي (ع) دوراً بارزاً في نشوء هذه الخزانة، وقد كانت أمهات المراجع والمصادر الشيعية فيها، وكان لعضد الدولة البويهي اليد الطولى في انشائها، وفيها من الكتب النادرة الوجود والمخطوطات الثمينة، ما لا يوجد في غيرها[21].

2. خزانة دار العلم بالموصل:

أنشأها أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي وهو واحد من فقهاء الشافعية وجعل فيها خزانة كتبت من جميع العلوم ولجميع الطلاب، لا يمنع احد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب العلم، وكان معسراً اعطاه ورقاً وورقاً[22].

3.خزانة الوقف بالبصرة :

أنشأها ابو علي بن سوار الكاتب، احد رجال المئة الرابعة للهجرة، كانت مكتبته عامرة بالكتب والمصادر النادرة، ويرتادها طلاب العلم، وقد ذكرها الحريري في مقاماته/ المقامة الحلوانية / وهي اول دار كتب عملت في الاسلام[23].

4.خزانة كتب مشهد ابي حنيفة:

لا زال هذا المشهد قائماً ببغداد في الأعظمية شملت خزانة هذا المشهد على أنفس الكتب والمجلدات الفقهية والتاريخية وعلوم اللغة وغيرها، وأوقفت هذه الخزانة على طلبة العلم، وفيها نسخة من كتاب التفسير الكبير للقزويني وغيره[24].

5.خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي:

مسجد الزيدي يقع في درب دينار الصغير ببغداد الرصافة، وخزانة هذا المسجد أوقفها الشريف الزيدي0"أبو الحسن علي بن احمد بن محمد الزيدي" وكان هذا الرجل احد الأعلام الذين جمعوا بين علو النسب وحسن العلم، وقد أوقف الكثير من العلماء كتبهم في هذه الخزانة من امثال: ابو الخطيب العليمي الدمشقي، والعلامة الرحالة والمؤرخ الاديب ياقوت الحموي، وغيره من العلماء والادباء[25].

6.خزانة الرباط الخاتوني السلجوقي:

هذه الخزانة أوقفها الخليفة الناصر لدين الله العباسي، في تربة سلجوقة خاتون، بباب البصرة "محلة الكرخ" وأوكل الناصر إلى بشر بن احمد الحاسب، المعروف بالبرهان مهمة اختيار الكتب، كما أن نجم الدولة، كان قد أوقف كتب له فيها بلغت نحو 500 مجلدة [26].

7.خزانة كتب الرباط بالحريم الطاهري:

ذكرها ابن الاثير في حوادث سنة 589هـ واشار الى ان الناصر لدين الله نقل اليها كتباً كثيرة من احسن الكتب[27].

8.خزانة جامع قمرية بغداد:

مازال هذا الجامع قائماً الى اليوم. ان لم تكن الحرب قد دمرته. ويقع في منطقة الرصافة على دجلة، بواجهة السراي، فتح هذا الجامع في رمضان سنة 626هـ/ 1228م، وجعل فيه الكتب هدايا وتبرعات من الخلافة والعلماء[28].

ب – المكتبات الخاصة

خزائن الكتب الخاصة وهي المكتبات التي انشأها العلماء والادباء ورجال من صدور القوم يمتلكون مكتبات خاصة بهم، وهذا النوع من المكتبات لايمكن تحديد مناحيه ولم اطرافه، وذلك لكثرة هذا الصنف من الخزائن وانتشارها ولأن بيت اي عالم او اديب لا يخلو من خزانة كتب كبيرة او صغيرة ومن اشهر هذه المكتبات قي القرنين الخامس والسادس الهجريين في بغداد هي:

1. مكتبة ابي بكر الوراق

هو محمد بن الحسن المعروف بابن الخفاف (ت 418ه / 1027م) كان يعمل وراقاً في سوق باب الطاق، وقد ساعده ذلك حيازته الكثير من الكتب والاسفار، قال الخطيب البغدادي: قال لي ابن الخفاف(احترق مرة سوق باب الطاق فاحترقت من كتبي ألفاً وثمانون كلها سماعي)[29].

إذن كان مصير كتب الوراق الحرق بعد احتراق السوق الذي يعمل فيه.

2. مكتبة ابي بكر البرقائي

هو احمد بن محمد بن غالب (ت، 425هـ/ 1033م) صنف كتباً كثيرة فتجمعت لديه خزانة عامرة بالكتب التي ذكرها الخطيب البغدادي بقوله (انتقل ابو بكر البرقائي من الكرخ الى قرب باب الشعير فسألني ان اشرف على حمالي كتبه وقال، (ان سئلت عنها قي الكرخ فعرفهم انها دفاتر لئلا يظن انها ابريسم، وكانت ثلاثة وستين سفطاً وصندوقين مملوء كتباً)[30].

3. مكتبة الخليفة القادر بالله

صنف هذا الخليفة الكتب في فنون العلم والأدب[31]. واحتوت مكتبته على المؤلفات والكتب النفيسة، منها كتاب الرد على الباطنية الذي صنف له الشيخ علي بن سعيد الاصطخري المتوفي 404ه/ 1013م، وأجرى عليه الخليفة جراية سخية انتقلت بعد وفاته إلى ابنته، وكتاب التعبير القادري للعلامة ابي سعد نصر بن يعقوب ت 410ه/1019م، وقد تضمن طبقات المفسرين[32]. وصنف لها الماوردي، كتاب الإقناع في الفقه الشافعي[33] .

4. مكتبة الشريف المرتضى

هو علي بن الحسين بن موسى بن محمد الموسوي ت346ه/ 957م، احتوت خزائنه على ثمانين الف مجلد على مصنفاته ومخطوطاته[34]، وقد قيمت مكتبته بمبلغ قدره ثلاثون الف دينار بعد أن أهدى إلى الوزراء والرؤساء الكثير.

5.مكتبة الخطيب البغدادي ت 463ه/ 1070م

كان احد الأئمة المشهورين والحفاظ المبرزين، صنف وكتب الكثير في علوم الفقه والحديث والتاريخ[35]، قال عنه ابن الجوزي (وقف كتبه على المسلمين وسلمها إلى أبي الفضل فكان يعزها ثم صارت إلى ابنه الفضل فأحترقت في داره[36] .

6.مكتبة الخليفة القائم بأمر الله

احتوت مكتبته على نفائس الاسفار وامهات الكتب منها كتاب رسوم الخلافة لأبي الحسن هلال بن المحسن الصابي ت 448ه/ 1056م، الذي اهداه اليه الخليفة القائم[37]، وصنف له ايضاً كتاب تحفة الامراء في تاريخ الوزراء[38].

7.مكتبة الخليفة المقتدى بالله

هو ابو العباس القائم بأمر الله (ت، 487هـ/ 1094م) كانت له خزانة كتب عامرة ضمت الكثير من امهات الكتب ونفائس المخطوطات في مختلف نواحي العلوم والآداب اذ صنف الطبيب يحيى بن عيسى بن جزلة البغدادي ت463ه/ 1099م كتاب تقويم الابدان قي تدبير الانسان للخليفة المقتدى[39].

8.مكتبة ابي المظفر القاضي

انشأها ابو الوفاء بن يحيى بن المظفر، احتوت مكتبته على الكثير من كتب الفلسفة والطب وقد احترقت كتبه بعد مقتله سنة 555ه/ 1160م [40].

9.مكتبة ابن التلميذ

أسسها أمين الدولة أبو الحسن بن هبة الله التلميذ البغدادي (ت 560ه/ 1164م)[41]، وقد احتوت خزانته الموجودة قي داره المجاورة للمدرسة النظامية احتوت على الكتب النفيسة، وقد ترك بعد موته مكتبة عظيمة لا نعرف عدد كتبها، وقد ورثها ابنه، وفي يوم من الايام عثر على ابنه مخنوقاً في دهليز داره وقد نقلت كتبه على اثني عشر بعيراً[42].

10. مكتبة الحازمي

أنشأها أبو موسى بن عثمان الحازمي الشافعي المتوفى سنة 584هـ/ 1188م، صاحب التصانيف منها العجالة في النسب والناسخ والمنسوخ وغيرها[43]، ويذكر المترجمون بحياته انه فرق كتبه على اصحاب الحديث ببغداد[44].

11.مكتبة المستنصر بالله

ويأسف مؤلف عمدة الطالب على المكتبة التي شيدها الخليفة العباسي المستنصر بالله، قي مدرستها المستنصرية والتي وضع فيها ثمانين ألف مجلد، فيقول انه لم يبق على زمانه(أي بعد حوالي مائة سنة) شيء من هذه الكتب، والله الباقي[45].

12. مكتبة الخليفة المستعصم بالله

اسس مكتبة فخمة في الجهة الشمالية من دار الخلافة تتكون من قسمين متقابلين بينهما دهليز وجعل كل منهما في غاية الجمال ونقل اليها نفائس الكتب من سائر العلوم[46]. الا ان نهايتها كانت على يد الغزو التتري.

<u>اما خزائن الكتب فهي:</u>

1.خزانة ابو عمرو بن العلاء:

هو علامة المدرسة البصرية وشيخها بلا منازع، قال عنه أبو عبيدة: (كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر)، وقال معاصروه: كانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له، قريب من السقف، ثم إنه تقرأ. أي تنسك. فأخرجها كلها، فلما رجع الى علمه الأول، لم يكن عنده إلا ماحفظه بقلبه[47].

2.خزانة سفيان الثوري:

هو شيخ الإسلام، الإمام الحافظ سفيان بن سعيد بن مسروق أصله من الكوة، ومات بالبصرة مستترإ من الخليفة. المهدي العباسي. أوصى إلى عمار بن سيف في كتبه، فمحاها هذا الأخير وأحرقها، خوفاً منها[48].

3. خزانة الواقدي:

هو أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي، تولى القضاء للمأمون، كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح، واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار، قال الخطيب البغدادي: (انتقل الواقدي من الجانب الغربي/ الكرخ/ الى الجانب الشرقي/ الرصافة/ فحمل كتبه على 120 وقر). وقال ابن نديم: (قرأت بخط عيتق قال: خلَف الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر كتباً، كل قمطر منها حمل رجلين، وكان له غلامان مملوكان يكتبان بالليل والنهار) [49].

4. خزانة الأصمعي:

هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب، أشهر علماء اللغة والأدب قي المائة الثانية للهجرة، ناهزت مؤلفاته على50 كتاباً، كان له خزانة كتب كبيرة فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني، أن الأصمعي قال لما خرجنا مع الرشيد الى الرقة قال لي: هل حلمت شيئاً من كتبك؟ فقلت: نعم حملت منها ما خف حمله، فقال: كم؟ نقلت:

ثمانية عشر صندوقاً، فقال: (هذا لما خففت، فلو ثقلت كم كنت تحمل؟ فقلت: أضعافها. قال، فجعل يعجب)[50].

5. خزانة إسحق بن إبراهيم الموصلي:

كان أعلم أهل زمانه في الغناء،إضافة الى كونه شاعراً وأديباً وإخبارياً مشهوراً في علوم كثيرة كانت مؤلفاته قد بلغت نحو 40 كتاباً، وكانت له خزانة كتب حافلة ذكرتها المصادر[51].

6. خزانة الإمام أحمد بن حنبل:

هو الإمام صاحب المذهب الحنبلي المعروف وواحد من أعلام الفكر الإسلامي، وأحد الأئمة الأربعة و"مسندة" أحد المراجع الأساسية في كتب الشريعة والفقه، كانت خزانته واحدة من الخزانات المشهورة بعلوم الفقه والأحاديث والتفسير[52].

7. خزانة أبي حسان الزيادي:

هو الحسن بن عثمان الزيادي، ولي القضاء للمتوكل، كانت له معرفة بأيام الناس وعملت الكتب له، وله تاريخ حسن، وكان كريماً واسعاً مفضالاً، وكانت خزانة كتبه، حسنة وكبيرة كما يقول ابن النديم[53].

8. خزانة أبي كريب بالكوفة:

هو محمد بن العلا بن كريب الحمداني الكوفي، محدث الكوفة المشهور، ومن الحفاظ المعدودين، كانت له خزانة كتب عامرة، أوصى أن تدفن معه، فدفنت سنة 248هـ[54].

9. خزانة الكندي الفيلسوف:

هو يعقوب بن إسحق الكندي، فيلسوف العرب والمسلمين كانت خزانة كتب قيمة، ذكر "ابن الداية"، أن أبناء شاكر. في أيام المتوكل. كانا يكيدان لكللامن ذكر بالتقدم قي المعرفة، فدبرا على الكندي، حتى ضربه المتوكل ووجها إلى داره فأخذت كتبه بأسرها، وأفردت في خزانة خاصة سميت "الكندية" وذكر ابن أبي أصيبعة أن مكتبته ردت إليه فيما بعد، بعد أن آل أمر أبناء شاكر إلى زوال النعمة[55].

10. خزانة الجاحظ :

غني عن التعريف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كان إمام الأدب والبلاغة، ومتقدم الأوائل والأواخر،لم يعرف أحد من العرب أو العجم أولع منه بمطالعة الكتب حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر، كانت له خزانة كتب واسعة وكبيرة، وقد كان يستخدم الوراقين لمساعدته في استنساخ كتبه وكتب غيره[56].

11. خزانة أبي حاتم السجستاني:

هو سهل بن محمد بن عثمان، من سكنة البصرة، كان إماماً في علوم القرآن واللغة والشعر وكان أعلم الناس بالعروض، كان له عدة مؤلفات وكان جماعاً للكتب ويتجر فيها[57] فأي مكتبة ستكون لمثل هذا العالم الوراق!

12. خزانة حنين بن إسحاق:

علم من أعلام الترجمة والطب في عصر المأمون، تخصص في ترجمة كتب الحكمة من السرياني إلى العربي، ورحل إلى البصرة، وتتلمذ على الخليل بن أحمد الفراهيدي كان أميناً على الترجمة، ومشرفاً على المترجمين، ونقل وألف الكثير جاوز مائة وثلاثين كتاباً بالعربية إضافة الى جملة من المؤلفات صنفها بالآرامية، كانت خزانته واحدة من النوادر، حيث إنه جال بلاد الفرس والروم والإغريق لتحصيل العلوم، صودرت كتبه أثناء محنته مع المتوكل، وقد كان يعمل لديه وراقان هما، الأزرق والأحوال[58].

13. خزانة إسحاق بن سليمان الهاشمي:

هو واحد من أشهر الولاة قي المئة الثالثة للهجرة، كان قد أحرز خزانة كتب جليلة بهرت الجاحظ بما تحتويه من كتب ورفوف وأسفاط[59].

14. خزانة العصفري:

واحد من ثقات المحدثين الكبار ببغداد، ذكرت المصادر أن كتبه أحترقت قديماً وبقيت له منها بقية، وكان يتحدث بما بقي له من كتبه[60].

15. خزانة علي بن يحيى المنجم:

واحد من كبار المثقفين في عصره، نادم المتوكل، ومن جاء بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد على الله، وكان شاعراً وراوية علامة وإخبارياً موصوفاً، عمل له خزانة حكمة، وأفرد لها ضيعة كانت له في منطقة كركر بنواحي القفص من نواحي بغداد. وكان الناس يقصدونها من كل بلد، فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم،وقد ملأت شهرتها الآفاق[61].

16. خزانة إسماعيل بن إسحاق الأزدي:

أحد قضاة بغداد المشهورين، كان عالماً، وصنف الكتب الكثيرة في علوم القرآن، جمع في داره خزانة كتب، قال عنه أبن هفان: مادخلت عليه إلا رايته ينظر في كتاب، أو يقلب كتباً أو ينفضها[62].

17. خزانة إبراهيم بن إسحق الحربي:

كان إمامنا في العلم، ورأساً في الزهد، وعالماً بالفقه، وبصيراً بالأحكام، وحافظاً للحديث ومميزاً لعلله، قيماً بالأدب: جماعاً للغة، وصنف الكتب الكثيرة، أزرت به الأيام، وأحوجته الضائقة المالية إلى عرض كتبه للبيع، ورفض أن يأخذ من رسول المعتضد عشرة آلاف درهم كان قد بعث بها إليه، قائلاً:" هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه، فلا نشغلها بتفرقته". كانت خزانة كتبه قد نافت على 12 ألف مجلد وكتاب[63].

18.خزانة شاردي الأسقف:

كان هذا أسقفاً في الكرخ، حريصاً على طلب الكتب، متقرباً إلى قلوب نقلتها، فحصل على أشياء كثيرة منها، وصنف له قوم من الأطباء النصارى كتبا لها قدر وجعلوها بأسمه[64].

19. خزانة بني موسى بن شاكر المنجم:

كان هؤلاء أخوة ثلاثة هم: محمد وأحمد والحسن، ممن تناهوا في طلب العلم والعلوم القديمة، وأتعبوا فيها أنفسهم، وقد أسسوا مكتبة ضخمة عظيمة الشأن لأنهم كانوا يدفعون الأموال الضخمة لشرائها وترجمتها[65].

المكتبات في الشام

في بلاد الشام كانت مكتبة بني عمار في طرابلس في أكبر مكتبات في الدولة العربية بل أنها اعتبرت من أروع مكتبة في العالم[66] كانت تحتوي على خمسين ألف نسخة من المصاحب الشريفة وثمانين ألف نسخة من كتب التفسير[67]، وقد أختلف المؤرخون قي عدد كتبها فكانوا بين مكثر ومقل إلا إن الكثير أتفقوا على إن عدد الكتب في هذه المكتبة يبلغ ملايين كتاب[68]، إما مكتبة الصاحب أبن الحسن بن غزال وزير الملك الصالح إسماعيل بدمشق فيقول أبن أبي اصيبعة أنها كانت تضم أكثر من عشرين ألف مجلد وكانت مكتبة الطبيب موفق الدين اسعد بن المطران طبيب صلاح الدين تضم عشرة ألاف مجلد بيعت بعد وفاته[69]. وترك الوزير ألمهلبي عند وفاته عام 963ه مجموعة من 206000 كتاب، وجمع أحد قضاته بنكبة قي ممتلكاته ومنها أربعة ألاف مجلد كان فقدها سبباً لحزنه وألمه طوال عمره[70].

المكتبات في مصر

في مصر والقاهرة والمدن الأخرى تزخر بالمكتبات التي تحتوي على عشرات الآلاف من الكتب، ففي مستشفى قلاون مكتبة تضم حوالي مائة ألف مجلد[71] وكانت المكتبة التي أسسها القاضي الفاضل وزير صلاح الدين بمصر تضم مئة ألف أخرى من المجلدات[72].

وقد تحدثت المصادر التاريخية إن في مصر سوق رائجة لبيع الكتب قد ترك لنا أحد الأطباء بعد أن

باع معظم كتبه ما يزيد على عشرين ألف مجلد وهي ماتبقى بعد البيع[73].

أما ما جمعه الخفاء الفاطميون من الكتب في قصورهم فهو مايوق الوصف ويقول أبو شامة عن خزائن الكتب التي قصورهم أنها (كانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر[74].

فبالإضافة الى خزائن القصر الداخلية التي كان الإطلاع عليها محضوراً على العامة هناك خزائن القصر الخارجية وعددها أربعون خزانة فيها مايحتوي على أكثر من مائة ألف مجلد في سائر العلوم[75].

إمـا مجمـوع الكتـب فـي قصـور الخلفـاء الفـاطميين فيقـدرها المقريـزي بمليـون وسـتمائة ألـف مجلد بينما يقدرها أبو شامة بمليوني كتاب[76].

وفي تونس كانت مكتبة أبي زكريا يحيى الحفصي مؤسس الدولة الحفصية سنة 634هـ تحتوي على 36 ألف مجلد، وكانت مكتبة ابن الجزار القيرواني، وفي المغرب مكتبة السلاطين.

المكتبات في الأندلس

إما في الأندلس فقد كانت مكتبة الحكم الثاني وهو المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر، المتوفي 366ه، من المكتبات العظيمة التي تفخر بها بلاد الأندلس وقد بلغ عدد كتبها أربعمائة ألف مجلد[77] ومثل ذلك كان الوزير أبو جعفر بن عباس من مدينة المرية بالأندلس يمتلك مكتبة تحتوي أربعمائة ألف مجلد.

وقد أوردت المصادر التاريخية عدد كتب لمكتبات بالأحمال التي يحملها الجمال على ظهورها من الكتب.

فالصاحب بن عباد كانت مكتبته تقدر على سبعمائة بعير ولو فترضنا حسب معاييرنا إن كل واحد بعير من المفترض إن يحمل مئة كيلو غرام، فعند استدعاء فخر الدولة بن بويه ليوليه الوزارة فتعذر بأعذار منها أنه قال: أني رجل طويل الذيل وأن كتبي تحتاج الى سبعمائة بعير لنقلها[78].

وروى ابن بشكوال ابن سليمة بن سعيد قدم إلى بلاد الشرق، وعند رجوعه إلى الأندلس ارجع معه ثمانية عشر جملاً من الكتب جمع فيها من كل علم وفن ولم يتم له ذلك الا بمال كثير حمله معه إلى الشرق[79].

كما كانت الكتب وتقاس بالقناطير والقماطر والكارات فابن الجزار القيرواني ترك بعد وفاته خمسة وعشرين قنطار 1 من الكتب الطبية وغير الطبية[80].

وترك عبد الله الواقدي مؤلف كتاب فتوح الشام بعد وفاته سنة 207ه من الكتب ما يعادل ستمائة قمطر كل قمطر منها يحمل رجلان (القمطر هو صوان لكتب)[81].

ويروى الخطيب البغدادي إن المحدث الكوفي أبا العباس احمد بن عقدة أراد إن ينتقل من حل إلى أخر فاستأجر من يحمل كتبه وشارط الحمالين إن يدفع لكل واحد منهم دانقا لكل كارة من الكتب (الدانق سدس الدرهم) فكانت أجرتهم مائة درهم[82].

والكارة هي اكبر حمل يستطيع أن يحمله الرجل على كتفه مضموماً في فوطة أونحوها.

أثر المكتبات على وعي المجتمع

لقد كان لهذه المكتبات أثره الحضاري الرائع في عموم الخلافة العباسية، أمصاراً وشعوباً، حيث وجدت ظاهرة الوراقة، وتنافس الناس في طلب العلم والاستزادة منه،وسهلت هذه المكتبات طرق التعاطي مع العلوم المختلفة نظراً لما توافره من كتب ومحاضرات ومناظرات كانت تعقد فيها، وكان العلماء يسدون النصائح لطلابهم ولرواد المكتبات بشكل عام، فانتشر التعليم في بغداد وبقية الأمصار، وأقبل الأعاجم

على تعلم اللغة العربية، وقد كان للخلفاء دور هام في إكرام العلماء.

وسعى العلماء بدورهم الى بث المعرفة بين الناس، تقرباً لله، وإكراماً للإنسانية، فهذا الفراء ينزع نحو إملاء شرح القرآن على التلاميذ في المسجد مجاناً، ثم أملى عليهم الدود في ذلك نتيجة كون أصحاب الكسائي صاروا إليه، وسألوه أن يملي عليهم أبيات النحو ففعل، ودام على ذلك ست عشرة سنة[83].

وسرى طغيان المعرفة على كامل هيكل الدولة العباسية تقريباً، واستقدم الخلفاء الأساتذة والمربين لأولادهم، وصار ذلك تقليداً عندهم[84]، وغدا سوق الوراقين، محط أنظار العلماء والأدباء وغيرهم من الناس[85].

لقد كانت المكتبات دلالة حضارية لتلك العصور، وشاهداً تاريخياً، ما زال يذكر بذلك العصر الذهبي الخالد، ومن جهة أخرى كانت المكتبات، سمواً معرفياً خطت به بغداد بكل ظواهرها الحضارية خطوة نحو تخليد الإنسان من خلال المعرفة.

الهوامش:

---

(1) ابن الاثير، الكامل، 13 / 101.

(2) زنغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت، 1979، ص 385.

(3) شهاب الدين بن عبد الله، ياقوت الحموي، معجم الادباء، القاهرة، 1936، ج 1، ص37.

(4) الكامل في التاريخ ، 12 / 179.

(5) القفطي ، تاريخ العلماء، ص168، ص169.

(6) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، ج 2، ص 124.

(7) ابن النديم، ابو الفرج محمد ابن يعقوب (ت 385هـ)، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1971، ص304.

(8) القلقشندي، صبح الاعشى ، ج 1، ص 466.

(9) ابن الساعي، تاج الدين ابو طالب علي بن انجب البغدادي، مختصر اخبار الخلفاء، المطبعة الاميرية، بولاق، مصر، 1309هـ، ص127.

(10) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ج 5، ص1150.

(11) كوركيس عواد، خزائن الكتب القديمة، مطبعة المعارف، ط2، 1984، ص231؛ احمد شلبي ، تاريخ التربية الاسلامية، مكتبة الانجلو المصرية، 1960، ص170.

(12) ابن الجوزي، المنتظم ، ج8، ص22؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، مجلد 9/ ص350.

(13) ابن كثير ، البداية والنهاية، 11/ 312.

(14) القفطي، تاريخ العلماء، ص150 ، ص151.

(15) ابو العلاء المعري، الرسائل، ج 2، ص32.

(16) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مج 1، ص534.

(17) ابن كثير ، البداية والنهاية، 11 / 313.

(18) ابن كثير البداية والنهاية، ج 12، ص124.

(19) ابن النجار، التاريخ المجدد لمدينة السلام ، ج10، ق2، ص100.

(20) كوركيس عواد ، خزائن الكتب القديمة ، ص259.

(21) الشيخ جعفر آل محبوبة النجفي. ماضي النجف وحاضرها/29. 64. مطبعة العرفان. صيدا 1353هـ.

(22) الفهرست، ص213؛ ومعجم الادباء ، 7/ 192.

(23) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مطبعة ليدن، 1909، ص413؛مقامات الحريري،المطبعة الحسينية بمصر، 1348هـ/ 1929م،ص20؛ كوركيس عواد، المصدر السابق، ص138.

[24] ابن الجوزي/ صيد الخاطر/ ص36. 367. وكوركيس عواد، ص151والمنتظم119/9

[25] معجم البلدان 1/ 534- مادة " بين " والمنتظم7/ 172 وكوركيس عواد/ ص140.

[26] يراجع بصدد هذه المدرسة والمكتبة المصادر التالية: الذهبي. تذكرة الحفاظ 4 /1428، وشذرات الذهب5/ 227، والبداية والنهاية 13/ 169، والكامل . ابن الاثير 10/ 523 وغيرها.

[27] الكامل في التاريخ، 104/12.

[28] ابن الفوطي، الحوادث الجامعية / ص4؛ وكوركيس عواد، ص162.

[29] ابو بكراحمد بن علي، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، القاهرة، 1936، مج 2، ص250؛ ابن كثير ، البداية والنهاية، 23/12.

[30] المصدر نفسه، مج 4، ص375.

[31] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1943، ج 4،ص272.

[32] حاجي خليفة، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، مج 1، ط3، طهران، 1947، ص417.

[33] الماوردي، الاقناع، ص6 مقدمة المحقق.

[34] ابن كثير ، البداية والنهاية، 31/12؛ ابن عنبة، عمدة الطالب،ص169.

[35] ابن كثير، البداية والنهاية، 35/12.

[36] المصدر نفسه، 35/12.

[37] الصابي، رسوم دار الخلافة، ص3.

[38] الصابي، الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1958، ص9-10.

[39] ابن جزلة، يحيى بن عيسى البغدادي، ت493ه/ 1099م ، مخطوط منهاج البيان فيما يستعمله الانسان ، الدار الوطنية للمخطوطات، رقم 39891، ورقة 1.

[40] القزويني، ابو عبد الله، عجائب المخلوقات، طبع ليبسك، 1948، ص124.

[41] ابن كثير، البداية والنهاية، ج 12، ص512.

[42] ابن آب اصيبعة، طبقات الأطباء، ج1، ص262.

[43] ابن كثير ، البداية والنهاية، ج، ص192.

[44] ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص421.

[45] ابن عنبة، جمال الدين احمد بن علي الحسني، عمدة الطالب في انساب ابي طالب، النجف، 1961، ص206.

[46] الملك الاشرف الغساني، العسجر المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر عبد المنعم، 1975، ص516.

[47] وفيات الأعيان 466/3 وكوركيس عواد/ص191.

[48] ابن النديم. الفهرست/ ص314. 315.

[49] تاريخ بغداد 5/3. 6 والفهرست/ص 144 وأعيان الشيعة 33/10. طبعة بيروت 1983م.

[50] الأغاني302/5 . طبعة الدار المصرية. والفهرست/ ص82 ووفيات الأعيان3/ 176.

[51] الفهرست/ ص202 ومعجم الأدباء 5/6 وتاريخ بغداد 6/ 338 وكوركيس عواد/ ص 195.

[52] الذهبي. سير أعلام النبلاء 11/ 186، ووفيات الأعيان 63/1.

[53] الفهرست/ ص160، وتاريخ بغداد 358/7.

[54] الذهبي- تذكرة الحفاظ 2/ 497- طبعة حيدر آباد 1376هـ/ 1956م.

[55] الفهرست/ ص357، وطبقات الأطباء/ ص285. 293، وكتاب المكافأة وحسن العقبى لأبن الداية/ ص 130.

(56) الفهرست/ ص 169، ومعجم الأدباء 16/ 75 وكوركيس عواد/ ص199.

(57) السيوطي. بغية الوعاة/ ص265.

(58) القفطـي/ أخبـار الحكمـاء/ ص118. 119، وطبقـات الأطباء/ ص263. 271 والفهرست/ ص117.

(59) الـولاة والقضـاة الكنـدي./ ص136. الطبعـة اليسـوعية. بيروت 1908م. والحيوان. للجاحظ1/ 61 . 62.

(60) ابن الجوزي/ المنتظم 5/ 67. 68 والسمعاني. الإنسان8/ 468 باب العيرة والصاد.

(61) يـاقوت معجـم الأدبـاء 15/ 144 والفهرسـت/ ص205 وكوركيس عواد/ ص 206.

(62) تاريخ بغداد6/ 284، والفهرست/ ص 169.

(63) الأنساب 4/ 99، وتاريخ بغداد 6/ 30 وكوركيس عواد/ ص 208.

(64) طبقات الأطباء/ ص 283.

(65) الفهرسـت/ ص 378. 379، والقفطـي. أخبـار الحكمـاء/ ص 208.

(66) سـتيفن رنيسـمان، تـاريخ الحـروب الصـليبية، ترجمـة الدكتور السيد العريني، بيروت، ج2، ص380.

(67) محمـد مـاهر حمـادة، المكتبـات فـي الأسـلام، بيـروت، 1981، ص118.

(68) قد ذكـر جرجـي زيـدان أنهـا كانـت تحتـوي وتضـم ثلاثـة ملايين كتاب.

(69) ابـن أبـي اصيبعة، موفق الـدين احمد الخزرجي، عيـون الإنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار صادر، 1956.، ج3، ص 292.

(70) زنغريـد هونكـة شـمس العـرب تسـطع علـى الغـرب، بيروت،1979، ص387.

(71) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص 146.

(72) الملك الأشرف الغساني، العسجر المسبوك ص357.

(73) ابن أبي اصيبعة، عون الإنبـاء في طبقات الأطبـاء، ج3، ص174.

(74) أبـو شـامة، عبـد الـرحمن بـن إسـماعيل المقدسـي، كتـاب الروضتين في أخبار الدولتين، القاهرة،ج1.

(75) ابـن تغـري بـردي، النجـوم الزاهـرة فـي ملـوك مصـر والقـاهرة، دار الكتـب المصـرية، القـاهرة،1943،ج4، ص101.

(76) تقـي الـدين المقريـزي، الخطـط المقريزيـة، مكتبـة إحيـاء العلوم، لبنان.ج1، ص1200.

(77) احمد بن محمد التلمساني، نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيـب، تحقيـق أحسـان عبـاس، بيـروت، دار صادر،1968،ج1، ص394.

(78) ابـن عنبـة، عمـدة الطالـب فـي انسـاب أل أبـي طالـب، ص206.

(79) ابن كثير، البدايـة والنهايـة، 312/12 أبـو القاسم خلفين عبد الملـك، الصلـة فـي تـاريخ الأئمـة، تحقيـق عزة العطـار الحسيني، القاهرة، 1955، ج2، ص 220.

(80) سليمان بن حسان الاندلسي، طبقات الأطبـاء والحكمـاء، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة، 1955، ص90.

(81) ابن كثير، البداية والنهاية، 39/4.

(82) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد،ص 18.

(83) الفهرست/ ص99.

(84) تاريخ بغداد 9/ 278.

(85) اليعقوبي/ البلدان/ ص245، وتاريخ بغداد 11/اليعقوبي/ البلدان/ ص245، وتاريخ بغداد 11/ 399.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت630ه/ 1232م).

1. الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية (بيروت- 1998م).

الأصفهاني، أبي الفرج، (ت، 356هـ/ 966م).

2. الاغاني، مطبعة الدار الكتب المصرية، القاهرة، 1357ه 1938م

ابن أبي اصيبعة، موفق الدين احمد الخزرجي، (ت، 685هـ/ 1286م)

3. عيون الإنباء في طبقات الأطباء، بيروت، دار صادر، 1956.

ابن جلجل، سليمان بن حسان الأندلسي، (440هـ/ 1048م)

4. طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، القاهرة، 1955.

ابن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت، 874هـ/ 1470م)

5. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1943.

التلمساني، أحمد بن محمد التلمساني، (ت،1041هـ/ 1631م).

6. نفخ الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق أحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.

الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر (ت، 255هـ/ 869م).

7. الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مصطفى البابى الحلبي،1384ه، 1965م.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي(597ه/ 1201م)

8. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية، بيروت،1992.

9. ـــ صيد الخاطر، تحقيق علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دار المنارة، القاهرة، 1960.

ابن جزلة، يحيى بن عيسى البغدادي، ت 493ه/1099م.

10. مخطوط منهاج البيان فيما يستعمله الأنسان، الدار الوطنية للمخطوطات رقم 39891، ورقة 1.

الحريري أبو القاسم ابن علي، ت446ه/ 1054م.

11. مقامات الحريري، المطبعة الحسينية بمصر1348هـ/1929م.

الحنبلي، أبي فلاح عبد الحي أبن العماد (ت 1089هـ/1687م).

12. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت 1976م.

ابن خلكان، ابي العباس شمس الدين(ت، 681هـ/1283م).

13. وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تحقيق أحسان عباس، دار صادر، بيروت،1968.

الخطيب البغدادي، أحمد بن علي (ت463هـ/1071م).

14. تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا.

ابن الداية، احمد بن يوسف الكاتب(ت، 340هـ/951م).

15. المكافأة وحسن العقبى، تحقيق أحمد محمود شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت 1986.

ابن خلدون، محمد بن عبد الرحمن(ت 808ه/1406م).

16. العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت 748هـ/1347م)

17. تذكرة الحفاظ، طبعة حيدر آباد 1376هـ/ 1956م

18. ـــــ، سير اعلام النبلاء، اعتنى به محمد عباري بن عبد الحليم، دار البيان الحديث، ط1، القاهرة، 2003م.

ابن الساعي، ابو طالب علي بن انجب، (ت 674هـ/ 1276م)

19. مختصر اخبار الخلفاء، المطبعة الاميرية، بولاق، مصر 1309هـ.

السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت562هـ)

20. الانساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، 1382هـ/ 1962م

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بك(ت 911هـ/ 1505م)

21. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الفكر، القاهرة، 1979.

ابو شامه، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت665هـ/ 1267م)

22. كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، القاهرة، بلا

الصابي، الهلال بن المحسن (ت، 448هـ)

23. الوزراء او تحفة الامراء في تاريخ الوزراء، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، 1958.

ابن عنبة، جمال الدين احمد بن علي الحسني(ت 828ه/ 1424م)

24. عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب، النجف، 1961.

الغساني، الملك الاشرف الغساني(ت711هـ/1311م)

25. العسجر المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق: شاكر عبد المنعم، 1975.

ابن الفوطي، كمال الدين ابي الفضل عبد الرزاق بن احمد الشيباني (ت 723هـ/ 1323م)

26. الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مهدي النجم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

أبو القاسم خلفين عبد الملك (ت.686هـ/ 1190م) .

27. الصلة في تاريخ الأئمة، تحقيق عزة العطار الحسيني، القاهرة، 1955.

القزويني، ابو عبد الله (ت.682هـ/ 1283م).

28. عجائب المخلوقات، طبع ليبسك، 1948.

القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت.646هـ/ 1249م).

29. أخبار العلماء بأخيار الحكماء، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،1426هـ 2005م.

القلقشندي، أحمد بن علي(ت.821هـ/1418م).

30. صبحي الأعشى في صناعة الانشاء، المطبعة الأميرية،القاهرة، 1915 .

أبن كثير، ابو الفدا اسماعيل بن عمر (ت774هـ/ 1373م).

31. البداية والنهاية، مكتبة المعارف (بيروت، 1975).

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب،(ت، 450ه/1058م).

32. الإقناع في الفقه الشافعي، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، 1982.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت845ه/ 1441م).

33. الخطط المقريزية، مكتبة احياء العلوم، لبنان، بلا

المقدسي، حمد بن احمد المعروف البشاري(ت380هـ/ 990م)

34. أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، طبعة ليدن، 1909م

الكندي، ابو عمر محمد بن يوسف، (ت 961هـ/ 1553م)

35. الـولاة والقضـاة، الطبعـة اليسـوعية، بيـروت، 1908م

المعري، ابو العلاء المعري(ت449هـ)

36. رسالة الغفران، تصحيح: ابراهيم اليازجي، مطبعة هندية، مصر، 1907.

ابن النديم،ابو الفرج محمد بن يعقوب(385هـ/995م)

37. الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طهران، 1971.

ابـن النجـار، محـب الـدين ابـي عبـد الله محمـد (ت643هــ/ 1246م)

38. التـاريخ المجـدد لمدينـة السـلام، دائـرة المعـارف العثمانيـة- تصـوير، دار الكتـاب العربـي، بيـروت، بلا.

يـاقوت الحمـوي، شـهاب الـدين بـن عبـد الله (ت 626هــ/ 1228م)

39. معجم الادباء، القاهرة، 1936

40. معجم البلدان، القاهرة، 1957

اليعقـوبي، احمـد بـن اسـحاق بـن واضـح (ت بعـد 292هــ/ 904م)

41. البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422.

المراجع

الامين، محسن

42. أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1983م.

أحمد شلبي

43. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مج1، ط3، طهران.

زنغرد هونكة،

44. شمس العرب تسطع على الغرب، بيروت، 1979.

ستيفن رنيسمان،

45. تـاريخ الحـروب الصـليبية، ترجمـة الـدكتور السـيد العريني، بيروت، 1971.

كوركيس عواد،

46. خـزائن الكتـب القديمــة، مطبعـة المعـارف، ط2، بغداد، 1984.

47. آل محبوبة الشيخ جعفر النجفي.

48. ماضي النجف وحاضرها، مطبعة العرفان. صيدا 1353هـ.

محمد ماهر حمادة

49. المكتبات في الإسلام، بيروت،1981.

موارد السيوطي في كتابه كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام

(849 -911هـ/1445- 1505م)

الدكتور عبد العزيز خضر عباس الجاسم

جامعة الأنبار/مدير قسم التخطيط والمتابعة

الأستاذ المساعد الدكتورقاسم جواد خلف الجيزاني

الجامعة المستنصرية / كلية التربية

المقدمة:

لا يخفى على الباحثين كثير من المواضيع التي لا زالت محطة للغوص في البحث العلمي والبحث عن الحقيقية في تراث أمتنا الخالد، ليكون تراثاً حياً نعتز به لنسلمه الى الأبناء لنرسم لهم الصورة التاريخية الناصعة التي تمثل تاريخ الأمة ونحن اليوم بحاجة إلى دراسة شخصية تاريخية مشهورة ، ونتكلم في هذا البحث عن (موارد السيوطي في كتابه كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب صلى الله عليه وعلى أله وسلم) وماهي الموارد التي أعتمد عليها السيوطي في كتابه "الخصائص الكبرى "ومن خلال المصادر اتبعنا منهج عدد الروايات والتي تخص ذكر خصائص الحبيب نذكر عدد منها لأنها كثيرة وواسعة، وهي من الموضوعات المهمة في الدراسات التاريخية، وعندما تكون الدراسة عن شخصية تاريخية مهمة مثل أبي بكر السيوطي"ت911هـ/1505م" تستحق البحث والجهد للوصول إلى حقيقية النتاج العلمي الواضح المعالم وبذلك رسمنا خطة البحث بتناول سيرته الشخصية وأسلوبه وموارده في تدوين السيرة النبوية العطرة وخصائص ومعجزات الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ويعد السيوطي يعد من أهم المصادر التاريخية البارزة والمشهورة في التاريخ الإسلامي، وهو متعدد الإنجازات العلمية، فضلاً عن كتابه "الخصائص الكبرى" ويعد من الكتب المهمة التي دون السيرة ومعجزات الرسول صلى الله عليه وآله .

قسم البحث إلى مبحثين شمل المقدمة وخاتمة وأهم ما توصل إليه البحث .

المبحث الأول: اسمه، مولده، حياته العلمية، رأي العلماء فيه، وفاته .

أما المبحث الثاني: موارد السيوطي التي اعتمد عليها في تدوين الروايات من كل مصدر والخاتمة والاستنتاجات.

Introduction:

Researchers are aware of many topics that are still a station for iving into scientific research and searching for the truth in the eternal heritage of our nation, so that it would be a living heritage that the children would cherish so that we could paint for them the bright historical picture that represents

Characteristics", it is considered one of the important books that record the biography and the miracles of the Messenger, may God bless him and his family.

The research was divided into two topics, including the introduction, conclusion, and the most important findings of the research

The first topic: his name, birth, scientific life, scholars' opinion of him, and his death

As for the second topic: the resources on which Al-Suyuti relied in recording information, with narrations being mentioned in every source that was relied upon, the conclusion and then the conclusions.

the nation's history, and today we need to study a famous historical figure, and we talk about this Searching for (the resources of al-Suyuti in his book The Adequacy of the Most Loving Student in the Characteristics of the Beloved, may God's prayers and peace be upon him and his family and peace) and what are the resources that Al-Suyuti relied on in his book "The Great Characteristics." Through the sources, we followed the methodology of the number of narratives that relate to mentioning the characteristics of the beloved. We mention a number of them because they are many and wide It is one of the important topics in historical studies, and when the study is about an important historical figure such as Abu Bakr Al-Suyuti "d. 911 AH / 1505 AD" that deserves research and effort to reach the truth of the clear scientific output, and thus we drew up the research plan by dealing with his personal biography, style and resources in codifying the fragrant Prophet's biography And the characteristics and miracles of the Holy Prophet Muhammad, may God's prayers and peace be upon him and his family and companions. Al-Suyuti is considered one of the most prominent and famous historical sources in Islamic history. In addition to his book "The Great

المبحث الأول: حياة جلال الدين السيوطي

أولاً: اسمه: الجلال السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناظر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الأسيوطي[1] وجلال الدين إمام حافظ ومؤرخ أديب (849-911هـ/1445-1505م)[2] وهو الطولوني المصري الشافعي جلال الدين، أبو الفضل[3] ويذكر عن سيرة والده "والدي الإمام العلامة كمال الدين أبو المناقب أبو بكر بن محمد بن سابق الدين أبي بكر الخضيري السيوطي(804-855 هـ /1402-1451م) ولد رحمه الله بسيوط، واشتغل ببلده وتولى بها القضاء قبل قدومه إلى القاهرة وأجازه بالتدريس في سنة تسع وعشرين، وأفتى ودرس سنين كثيرة وناب في الحكم بالقاهرة عن جماعة، بسيرة حميدة، وعفة ونزاهة، وولي درس الفقه، وكان يخطب من إنشائه خطبة، بل كان شيخ قاضي القضاة شرف الدين المناوي في أوقات الحوادث يسأله في إنشاء خطبة تليق بذلك ليخطب بها في القلعة"[4] وله مؤلفاته منها "حاشية على أدب القضاء للغزي" وكتاب في "التصريف" و "حاشية على شرح الألفية لابن المصنف" لم يتمها[5] وجمع" وأخرى على "العضد" وكتب رسالة في "نصب ضَبّة في قول صاحب المنهاج" وكتاباً في الصرف وآخر في التوقيع وأجاب عن اعتراضات ابن المعرّي على "الحاوي" وله كتاب في الوثائق و"حاشية على أدب القضاء" وناب في الحكم، وذكره ولده في "طبقات النحاة" و"حسن المحاضرة"[6]

ثانياً: ولادته: ولد العلامة جلال الدين السيوطي بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة 849هـ/1445م بالقاهرة وكان يلقب بابن الكتب لأن أباهُ كان من أهل العلم واحتاج إلى مطالعة كتاب فأمر أمه أن تأتيه بالكتاب من بين كتبه فذهبت لتأتي به فجاءها المخاض وهي بين الكتب فوضعته ثم سمّاهُ والده بعد الأسبوع عبد الرحمن ولقبه جلال الدين[7]

ثالثاً: نشأته وحياته العلمية: وهو من خيرة العلماء الأفاضل المجتهدين، ومن المصنفين المكثرين، ونشأ يتيما فحفظ القرآن، والعمدة، والمنهاج الفرعي، وألفية النحوي أخذ السيوطي العلم عن خيرة علماء عصره، وأخذ من كل فنّ، وسافر إلى الفيوم ودمياط، والمحلة الكبرى، وغير ذلك، وأجاز له أكابر علماء عصره من سائر الأمصار، وبرز في جميع الفنون وفاق الأقران، واشتهر ذكره، وبعد صيته، وصنف التصانيف المفيدة النافعة فقد استفاد بمصنفاته من عاصره، ومن جاء بعده إلى عصرنا الحاضر، وعملت حوله الرسائل العلمية التي يمكن الاستفادة منها، كتب السيوطي لنفسه ترجمة في مؤلفه (حسن المحاضرة) في تاريخ مصر والقاهرة، أثناء حديثه عن الكلام على من كان بمصر من الأئمة المجتهدين فقال: وإنما ذكرت ترجمتي في هذا الكتاب اقتداء بالمحدثين قبلي، فقل أن ألّف أحد منهم تاريخا إلا ذكر ترجمته فيه، وممن وقع له ذلك الإمام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور وياقوت الحموي في معجم الأدباء، وغيرهم[8] وأجاز له أكابر علماء عصره من سائر الأمصار، وبرز في جميع الفنون، وفاق الأقران واشتهر ذكره وبعد صيته وصنف التصانيف المفيدة النافعة فقد استفاد بمصنفاته من عاصره، ومن جاء بعده إلى عصرنا الحاضر، وعملت حوله الرسائل العلمية في الماجستير والدكتوراه[9]

وأجيز بتدريس العربية بعد سنتين، وبالتدريس والإفتاء سنة 876هـ/1471م وشرع في التصنيف في سنة 866هـ/1462م وسافر إلى الحجاز والشام واليمن والهند والمغرب وحينما تقدم به العمر، اعتزل الناس، وخلا بنفسه في منزله في روضة المقياس تقع على النيل منزويا عن أصحابه جميعا، متباعدا عن ذوي الجاه والسلطان، وتجرد

للعبادة والتصنيف وكان الأغنياء والأمراء والوزراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها وروي أن السلطان الغوري طلبه مرارا فلم يحضر إليه، فأرسل إليه هدايا فردها[10] ويذكر أنه عالم مشارك في أنواع من العلوم وقرأ على جماعة من العلماء ، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا بنفسه في روضة المقياس على النيل منزويا عن أصحابه جميعا فألف اكثر كتبه[11] وانتشرت في حياة السيوطي وبعده، وعمرت بها المدارس والمعاهد ودور الكتب، وكاتبه المستفتون في شتى الجهات، مما أثار عليه فريقًا من أقرانه ومعاصريه من العلماء، وتحاملوا عليه، ورموه بما هو منه براء؛ وكان من أشد الناس خصومة عليه، وكثرهم تجريجًا وتشهيرًا، المؤرخ شمس الدين السخاوي، صاحب كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، فقد ترجم له في هذا الكتاب ونال من علمه وخلقه مما يقع مثله بين النظراء والأنداد وانتصر السيوطي لنفسه في مقامة اسمها الكاوي على تاريخ السخاوي، كما انتصر له فريق من تلاميذه وفريق من العلماء ممن جاء بعده، منهم الشوكاني صاحب البدر الطالع، قال في ترجمته للسيوطي بعد أن لخص مطاعن السخاوي فيه ورد هذه المطاعن عنه "على كل حال فهو غير مقبول عليه لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل، بعدم قبول قول الأقران بعضهم في بعض؛ مع ظهور أدنى منافسة؛ فكيف لمثل هذه المنافسة بين هذين الرجلين التي أفضت إلى تأليف بعضهم في بعض فإن أقل من هذا يوجب عدم القبول والسخاوي رحمه الله وإن كان إمامًا غير مدفوع، لكنه كثير التحامل على أكابر أقرانه"[12]

مؤلفاته: ومن خلال الاطلاع على المصادر نجد، ما كتبه فقد أحصى السيوطي منها في كتابه نحوًا من ثلاثمائة، في التفسير وتعليقاته والقراءات، والحديث وتعليقاته، والفقه وتعليقاته، وفن العربية وتعليقاته، وفن الأصول والبيان والتصوف، وفن التاريخ والأدب، والأجزاء المفردة، ما بين كبير في مجلد أو مجلدات، وصغير في كراريس أو أوراق. وذكر تلميذه الداودي المالكي أنها أنافت على خمسمائة مؤلف، وقال ابن إياس في تاريخه "حوادث911" إنها بلغت ستمائة مؤلف، وتقع هذه الكتب في مجلد أو مجلدات، كالمزهر والإتقان والأشباه والنظائر وبغية الوعاة والدر المنثور في التفسير بالمأثور، والجامع الصغير والجامع الكبير وأمثالها، أو في أوارق أو صفحات؛ كهذه الرسائل التي طبعت باسم الحاوي في الفتاوي، في مجلد يحوي ثمانية وسبعين كتابًا في معظم الفنون، وقد تدارس العلماء هذه الكتب في كل مكان[13]

رابعاً: وفاته: وفي يوم الجمعة وقت العصر تاسع عشر جُمادى الأولى سنة 911هـ/ 1505م توفي الشيخ العلامة الحافظ أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبن كمال الدين أبو بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد ابن الشيخ الهمام الخضيري السيوطي المصري الشافعي وصلي عليه بجامع الأفاريقي تحت القلعة ودفن بشرقي باب القرافة ومرض ثلاثة أيام والخضيري نسبة إلى محلة الخضيرية ببغداد ووجد بخطه رحمه الله أنه سمع ممن يثق به أنه سمع والده يذكر أن جده الأعلى كان أعجمياً أو من المشرق فلا يبعد أن النسبة إلى المحلة المذكورة وأمه أم ولد تركية[14] ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة من مؤلفاته الكثيرة الدر المنثور في التفسير المأثور المزهر في اللغة، الجامع الصغير في الحديث، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة[15]

المبحث الثاني: موارد السيوطي التي اعتمد عليها في تدوين الروايات

ومن خلال دراسة سيرة العالم الجليل السيوطي نجد في موارده التي اعتمد عليها في تدوين المعلومات مع ذكر الروايات في كل مصدر تم

الاعتماد عليه، يتبين لنا من خلال الاطلاع على المصادر التاريخية وخاصة كتاب الخصائص وهو الأهم في بحثنا نجد ممن ورد ذكره عند السيوطي في كتابة الموارد أبرزهم:

باب خصوصية النبي صلى الله عليه وسلم[16]

1. الحارث بن عبد الله الجهنيّ[17] لم نتعرف على وفاته وروى عنه السيوطي رواية واحدة فقط نصها (وعن الحارث بن عبد الله الجهني قال بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ولو أظن أنه يموت لم أفارقه فأتاني الحبر فقال إن محمدا قد مات فقلت له متى قال اليوم فلو أن عندي سلاحا لقاتلته فلم أمكث إلا يسيرا حتى أتى كتاب من أبي بكر بذلك فدعوت الحبر فقلت من أين تعلم ذلك فقال أنه نبي نجده في الكتاب إنّه يموت يوم كذا وكذا قلت وكيف نكون بعده فقال تستدير رحالكُم إلى خمس وثلاثين سنة ما زاد يوما)[18]

وأورد لنا السيوطي رواية أخرى (مسند الحارث بن عبد الله البجلى ويقال الجهنى رضي الله عنه) (عن الحارث بن عبد الله الجهنيّ قال بعثني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، ولو أوقن أنهُ يموت لم أفارِقهُ، فأتاني قائل بخبر أنّ مُحمدا قد مات، قلت: متى؟ قال: اليوم، فلو أن عندي سلاحا لقاتلته، فلم ألبث إلا يسيرا حتى أتاني آتٍ من أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى، فبايع الناسُ خليفتهُ من بعده، فبايع من قبلك، قلت لرجل الذى أخبرنى: من أين علمت ذلك؟ قال: إن في الكتاب الأول أنهُ يموت نبي في هذا اليوم، قُلت: وكيف يكونُ بعده؟ قال: تَستديرُ رَحاهُم إلى خمس وثلاثين سنةً)[19]

2. الحارث الدّوسي (000ــ نحو50هـ/000ــ نحو670م) الحارث بن عبد الله بن وهب الأزدي النمري الدوسي، صحابي من العقلاء ذوي الرأي[20] وشهد مع خالد معركة اليرموك، ثم شهد صفين مع معاوية و ولاه معاوية على البصرة سنة 45هـ/665م فشكا أهلها ضعفا فيه فاستعفى، ولم تطل مدة إمارته[21]، روى عنه السيوطي(11) رواية بعبار(وأخرج الحارث بن أبي أسامة)[22] وذكرها (وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن مجاهد قال أعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة بضع وأربعين رجلا كل رجل من أهل الجنة)[23] (وأخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده والبيهقي وأبو نعيم عن زياده بن الحارث الصدائي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر فَنزل حين طلع الفجر فتبرز ثمّ انصرف إلي فقال هل من ماء يا أخا صداء فقلت لا إلّا شيء قليل لا يكفيك فقال اجعلهُ في إناء ثمّ ائتني به ففعلت فوضع كفه في الماء فرأيت بين إصبعين من أصابعه عينا تفُور فقال ناد في أصحابي من كان لهُ حاجة في الماء فناديت فيهم فأخذ من أراد منهم فقلنا يا رسول الله إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وسعنا مائها واجتمعنا عليها وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه حولنا وقد أسلمنا وكل من حولنا لنا عدو فادع الله لنا في بئرنا أن يسعنا ماؤها فنجتمع عليها ولا نتفرق فدعا بسبع حصيات فعركهن في يده ودعا فيهنّ ثمّ قال (اذهبو بهذه الحصيات فإذا أتيتم البئر فالقوا واحدة واحدة واذكرُوا اسم الله) قال الصدائي ففعلنا ما قال لنا فما استطعنا أن ننظر إلى قعرها يعني البئر)[24]

1. أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي الإمام الأعظم المتوفى سنة 150 هـ/ 767م[25] في باب صلاته على الغائب (وخالف أبو حنيفة)[26](ذهب أبو حنيفة إلى أن الصلاة على الغائب من خصائصه صلى الله عليه وسلم وحمل على ذلك صلاته على النجاشي وقال أنه لا يجوز لغيره باب صلاته بالناس جالسا)[27] وذهب أبو حنيفة إلى أن الصلاة على الغائب من خصائصه صلى الله عليه وسلم وحمل على ذلك صلاته على النّجاشي وقال أنه لا يجوز لغيره[28]

2. ابن إسحاق (ت151هـ/768م) محمد بن إسحاق بن يسار بن خيارٍ، وقيل ابن كوثان العلامة الحافظ الأخبارِي المدني، صاحب (السيرة النبوية) وكان جدّه يسار من سبي عين التمر[29] "قال ابن إسحاق عرضت عليه خديجة ان يخرج في مالها تاجرا إلى الشام فخرج ومعه غلامها ميسرة حتّى قدم الشام فنزل في ظلّ شجرة قريبة من صومعة راهب فاطلع الراهب الى ميسرة فقال من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة قال هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال لهُ الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة قطّ إلا نبي وكان ميسرة فيما يزعمون إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس وهو يسير على بعيره فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف وحدثها ميسرة من قول الراهب وما رأى من إظلال الملكين فرغبت في زواجه"[30]

3. وهب بن منبه الحافظ (34-114هـ/654-732م) أبو عبد الله الصنعاني عالم أهل اليمن ولد سنة أربع وثلاثين روى عن أبي هريرة يسيرا وعن عبد الله بن عمر وابن عباس وأبي سعيد وجابر بن عبد الله وغيرهم[31] وروى السيوطي عنه "عن وهب بن مُنبه قال أوحى الله إلى اشعياء اني باعث نبيا أمّيا افتح به آذانا صمّا وقلوبا غلفا وأعينا عميا مولده بمكة ومهاجره بطيبة ..."[32] وواحدة برواية (طريق وهب بن مُنبه)[33] وسبعة برواية(عن وهب بن مُنبه)[34]

4. الطيالسي (ت 204هـ/ 819 م) مسند أبي داود الطيالسي[35]، روى عنه السيوطي(13) واحدة منها برواية (أخرج الطيالسي)[36] و(11) برواية (وأخرج الطيالسي)[37] رواية وأخرج الطيالسي عن علي بن أبي طالب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالقصير ولا بالطويل ضخم الرأس واللحية شثن الكفّين والقدمين ضخم الكراديس مشربا وجهه حمرة طويلة المسربة اذا مشى تكفأ تكفأ كأنما ينحط من صبب لم أر قبله ولا بعده مثله الكراديس رؤوس العظام كالمشاش وأخرج الطيالسي وأحمد والبيهقي عن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شج الذراعين بعيد ما بين المنكبين أهدب أشفار العينين لم يكن صخابا في الأسواق ولا فحاشا ولا متفحشا كان يقبل جميعا ويدبر جميعا[38] و(عن عليّ قال (كان رسول الله صلى اللهُ عليه وسلّم ليس بالقصير ولا بالطويل، ضخم الرأس واللحية، شثن الكفّين والقدمين، ضخم الكراديسِ مُشربا وجهه حُمرةً، طويل المسرُبة إذا مشى، تكفأ تكفؤا كأنّما يتقلعُ من صخر لم أر قبلهُ، ولا بعدهُ مثله صلى اللهُ عليه وسلم)[39]

وأخرج الطيالسي وابن سعد والطبراني وابن عساكر عن أم هانئ قالت ما رأيت بطن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ذكرت القراطيس المثنى بعضها على بعض[40] وأخرج الطيالسي والبيهقي وأبو نعيم عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ان زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل خرجا يلتمسان الدين حتى انتهيا إلى راهب بالموصل فقال لزيد من أين أقبلت قال من بنية إبراهيم عليه السلام قال وما تلتمس قال ألتمس الدين قال ارجع فإنهُ يوشك ان يظهر الذي تطلب في أرضك.[41]

5. الواقدي: (130—207هـ/822—748م) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي المدني نزيل بغداد [42]روى عنه السيوطي (100) رواية ومشيرا إليها بـ(33) برواية (وأخرج الواقديّ)[43] و25برواية (من طريق الواقديّ) وبرواية (أنبأنا الواقديّ) [44]و8 برواية (أنا الواقديّ) [45] و7 برواية (قال الواقديّ)[46] ورواية واحدة(في سير الواقديّ)[47] وبرواية واحدة (وقال أنا الواقديّ) [48]ورواية (كان الواقديّ) [49]ورواية(وكذا أخرجه الواقديّ)[50] و(15) برواية (عن الواقديّ)[51] وبروايتين (ثنا الواقديّ)[52] ونذكر من الاحاديث الشريفة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصبا

رأسه فصعد المنبر فقال (والّذي نفسي بيده إنّي لقائم على الحوض الساعة ثمّ قال إن عبدا من عباد الله خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر وقال بل نفديك بآبائنا وأُمّهاتنا وأنفسنا وأموالنا)[53] وورد في المصنف بصيغة (والذي نَفسي بيده ، إني لقائم على الحوض الساعة)[54]

6. ابن سعد(168-230 هـ /784-845م) محمد بن سعد بن منيع الزهري، مولاهم، أبو عبد الله مؤرخ ثقة من حفاظ الحديث ولد في البصرة، وسكن بغداد، فتوفي فيها[55] روى عنه السيوطي (340) رواية منها (225)رواية "وأخرج ابن سعد"[56] وبرواية "قال ابن سعد"[57] (9) وتسع روايات، وخصوصية الرسول الكريم "في حديث بعض قالوا أسرِي برسُول الله صلى الله عليه وسلم ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة من شعب أبي طالب إلى بيت المقدّس"[58]

7. البُخاري(194-256 هـ /810-870 م) أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم، صاحب (الجامع الصحيح) المعروف بصحيح البخاري، ولد في بخارى[59] محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري أبو عبد الله الجعفي، ورد بنيسابور على كبر سنه، وأقام به خمس سنين، إلى أن وقعت، مات محمد بن إسماعيل رحمه الله عندنا ليلة الفطر أول ليلة من شوال سنة ست وخمسين ومائتين، وكان بلغ عمره اثنين وستين إلا عشر ليلة، وكان مولده في شهر شوال من سنة أربع وتسعين ومائة[60] روى عنه السيوطي(130) رواية مشيراً الى (83) برواية (وأخرج البخاري) و(36) برواية (أخرج البخاري)[61] وخمس روايات بعبارة (شرح البخاري)[62] وروايتان بعبارة (وأخرجه البخاري)[63]

8. احمد بن حنبل(ت 241هـ /855 م) الإمام أحمد ابن حنبل أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني المروزي، الإمام الشهير، والسيد الكبير توفي سنة إحدى وأربعين ومائتي [64] روى عنه السيوطي(39) رواية مشيراً إليها

(أخرج احمد)[65] (30) رواية وكانت الرواية الأولى "ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير جبرئيل في صورته إلّا مرّتين"[66] وجاءت رواية أخرى " قال بينما أنا في الحطيم وربما قال قتادة في الحجر مُضطجعا إذ أتاني آت فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة فأتاني فشق ما بين هذه إلى هذه يعني من ثغرة نحره إلى شعرته فاستخرج قلبي فَأتيت بطست من ذهب مملوءة إيمانا وحكمة فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد..."[67] وتسعة برواية "وأحمد"[68] وذكر منها في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم " قيل يا رسول الله ما كان بدؤ أمرك قال دعوة أبي ابراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت انه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام"[69] وفي رواية " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شج الذراعين بعيد ما بين المنكبين أهدب أشفار العينين لم يكن صخابا في الأسواق ولا فحاشا ولا متفحشا كان يقبل جميعا ويُدبر جميعا"[70].

9. عَبد بن حميد(000-249 هـ/000-863م) أبو محمد، عبد بن حميد بن نصر الكسي، من حفاظ الحديث قيل اسمه عبد الحميد، وخفف نسبته إلى كس من بلاد السند[71] روى عنه السيوطي روايتين مشيراً أليها واخرج عبد بن حميد في مُسنده والبيهقي عن يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم قال اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين قبضة من الأرض فرمى بها في وجوه المشركين وقال ارجعوا شاهت الوجوه فما أحد يلقاه اخوه إلا وهُو يشكو قذى في عينيه ويمسح عينيه[72] والرواية الثانية وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (مثل أصحابي مثل النجُوم يهتَدي بها فأيهم أخذتُم بقوله أهتديتم)[73]

10. الزبير بن بكار الأسدي (ت256هـ /869م) أبو عبد الله الزبير بن بكار القرشي الزبيري، كان من أعيان العلماء، وكتابه في أنساب قريش يدل على فضله وتطلعه، وكذا غيره من مصنفاته، روى عن ابن عيينة ومن في طبقته، وروى عنه ابن ماجه القزويني، وابن أبي الدنيا وغيرهما، وولي قضاء مكة مدة، ومات بها على القضاء سنة ست وخمسين ومائتين عن أربع وثمانين سنة[74]روى عنه السيوطي (23رواية) ثلاث روايات مشيراً أليها (أخرج الزبير بن بكار)[75] وروى (17) برواية (وأخرج الزبير بن بكار)[76] بروايتين(عن الزبير بن بكار)[77] وروايتين (طريق الزبير بن بكار)[78] برواية واحد (عن الزبير بن بكار)[79]

11. ابن ماجة محمد بن يزيد، مولى ربيعة، الحافظ أبو عبد الله ابن ماجة القزويني(ت280ه/893م) مصنّف السنن والتفسير والتاريخ[80] روى عنه السيوطي(33) رواية و(26) برواية (واخرج ابن ماجة)[81] (وما أخرجه ابن ماجة)[82].

12. ابن أبي داود (ت 275هـ/888م) ابن أبي داوُد (230-316هـ /844-929م) عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني، أبو بكر بن أبي داود، ولد بسجستان، وهو من كبار حفاظ الحديث، ورحل مع أبيه رحلة طويلة، وشاركه في شيوخه بمصر والشام وغيرهما، وله تصانيف كان إمام أهل العراق، وعمي في آخر عمره واستقر وتوفي ببغداد من كتبه "المصاحف" و" المسند " و" السنن " و" التفسير" و" القرآت" و" لناسخ والمنسوخ ".[83] روى عنه السيوطي (14) رواية مشيرا أليها وبرواية واحدة (أخرجه أبو داود)[84] عن ابن عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أبالي ما أتيت إن أنا شربت ترياقا أو تعلّقت تميمة أو قلت الشعر من قبل نفسي[85] و(26) برواية (اخرج ابن أبي داود)[86] وست روايات برواية (أخرج أبو داود)[87].

13. الترمذي(ت 279هـ/892م) محمد بن إسماعيل بن يوسف، أبو إسماعيل السلمي الترمذي، ثم البغدادي رحل وطوف وجمع وصنف([88]) روى عنه السيوطي(33)رواية ومنها رواية واحده (وأخرجه الترمذيّ)[89] وروايتين (اخرُج الحكيم الترمذيّ)[90] و(19) برواية(وأخرج الترمذيّ)[91] عن جابر بن سمرة قال رأيت خاتم النبوة بين كتفيه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده وأخرجه الترمذي بلفظ غُدَّة حمراء مثل بيضة الحمامة[92] وأخرجه الترمذي بلفظ كان في ظهره بضعة ناشزة وأخرجه احمد بلفظ لحم ناشز بين كتفيه[93] وجاءت الرواية الأولى (اخرج الترمذي وابن ماجة وأبُو نعيم عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني أرى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون أطت السّماء وحقّ لها ان تنط ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله)[94]

14. ابن أبي الدنيا (ت 281-244هـ/894م) أبو بكر، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي، المعروف بابن أبي الدنيا مولى بني أمية ولد سنة ثمان ومائتين وفاته في سنة أربع وأربعين ومائتين[95] روى عنه السيوطي (18) و(15) برواية (وأخرج ابن ابي الدّنيا)[96] وبروايتين(اخرج ابن أبي الدنيا)[97] وبرواية واحدة (وأخرجه من طريق ابن أبي الدنيا)[98]

15. البزار(ت292هـ /904م) أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار البصري قدم علينا مرتين، المرة الثانية سنة ست وثمانين ومائتين، وكان أحد حُفّاظ الدّنيا رأسا فيه، حكي أنه لم يكن بعد علي بن المديني أعلم بالحديث منه، اجتمع عليه حفاظ أهل بغداد، فتبركوا من يديه، وَكتبوا عنه، وبقي بمكة أشهرا فولي الحسبة فيما ذكر، ثم خرج ومات بالرّملة سنة اثنين وتسعين، وغرائب

حديثــه[99] روى عنــه الســيوطي (67) روايــة ومنهــا(51) بروايــة(واخرج البــزار)[100] وتســع روايات(أخرج البزار)[101].

16. النسائي (215-303هـ/830-915م) أحمد بن شُعيب بن علي بن سنان بن بحر الإمام الجليل الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي مصنف السنن وغيرها من التصانيف وأحد الأعلام ولد سنة خمس عشرة ومائتين وسمع الكثير وأخذ عن يونُس بن عبد الأعلى وكان أفقه مشايخ مصر وأعلمهم بالحديث وكان كثير التهجد والعبادة يصوم يوما ويفطر يوما قال الدارقطني أبو عبد الرحمن مقدم على من يذكر بهذا العلم من أهل عصره قال القاضي تاج الدين السبكي سألت شيخنا الذهبي أيهما أحفظ مُسلم ابن الحجاج أو النسائي فقال النسائي ثمَ ذكرت ذلك لوالدي فوافق عليه توفي بفلسطين في صفر وقيل في شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة عقب محنة حصلت له وهو من نظراء أهل الطبقة الثانية لكن تأخرت وفاته[102] روى عنه السيوطي ثمانية روايات وواحدة(لما أخرجه النسائي)[103] وسبعة برواية(وأخرج النسائي)[104] ومنها وأخرج النسائي من طريق يزيد بن مالك عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل خطوها عند مُنتهى طرفها فركبت ومعي جبرئيل فسرت فقال انزل فصل ففعلت فقال أتدري أين صليت صليت بطيبة وإليها المهاجر ثم قال انزل فصل ففعلت فقال اتدري أين صليت صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى ثم قال انزل فصل ففعلت فقال أتدري أين صليت صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى ثم دخلت بيت المقدس فجمع لي الأنبياء فقدمني جبرئيل حتى أممتهم ثم صعد بي الى السماء الدنيا فإذا فيها آدم ثم صعد بي إلى السماء الثانية فاذا فيها إبنا الخالة عيسى ويحيى ثم صعد بي الى السماء الثالثة فاذا فيها يوسف ثم صعد بي إلى السماء الرابعة فإذا فيها موسى ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاذا فيها إبراهيم عليه السلام ثم صعد بي فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى فغشيتني ضبابة خررت ساجدا فقيل لي اني يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى امتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك فرجعت الى موسى عليه السلام فقال ما فرض ربك عليك وعلى امتك قلت خمسين صلاة قال انك لا تستطيع ان تقوم بها أنت ولا أمتك فأنهُ فرض على بني إسرائيل صلاتين فما قاموا بهما فارجع إلى رَبك فأساله التخفيف فرجعت فخفف عني عشرا ثم عشرا حتى قال هن خمس بخمسين فعرفت أنها من الله تبارك وتعالى صرى أي حتم فلم أرجع[105]

17. ابن جرير(310 هـ/922م) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري نزل بغداد، وهو صاحب التاريخ والمصنفات الكثيرة، روى عنه السيوطي (29) ستة برواية(أخرج ابن جرير)[106] وواحدة برواية(من طريق ابن جرير) [107] ورواية واحدة (إلى ما أخرجه ابن جرير)[108] و20برواية (وأخرج ابن جرير)[109] .

18. الخرائطي (240-327هـ/854-939م) أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل، السامري، فاضل من حفاظ الحديث من أهل السامرة بفلسطين، ووفاته في مدينة يافا من كتبه (مكارم الأخلاق) و(مساوئ الأخلاق) و (اعتلال القلوب) في أخبار العشاق، و(هواتف الجان وعجائب ما يحكى عن الكهان) و(فضيلة الشكر)[110] روى عنه السيوطي (10) (وأخرج الخرائطي)[111] بسبع روايات وبرواية واحدة فقط (أخرجه الخرائطي)[112]

19. الجرجاني (ت 368هـ / 978م) عبد الله بن إبراهيم بن يوسف، أبو القاسم الجُرجاني الآبندوني الحافظ[113] روى عنه السيوطي رواية واحدة (قال الجرجانيّ)[114] (وحكى الجرجانيّ)[115]

20. الدارمي، صدقة بن على بن محمد بن المؤمَّل أبو القاسم التميمى(ت370هـ/982م)[116] ولد في الموصل وهو الموصلي قاضي نصيبين[117] روى

عنه السيوطي (25) منها(22) رواية بعبارة(واخرج الدارميّ)[118] ورواية بعبارة (أخرج الدارميّ)[119]

21. ابن شاهين (ت 385هـ/995م) أبو حفص ابن شاهين عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب البغدادي، المعروف بأبي حفص ابن شاهين، الحافظ المفسر الواعظ صاحب التصانيف، منها "التفسير الكبير" في ألف جزء، و "المسند" ألف وثلاث مائة جزء، و"التاريخ" مائة وخمسون جزءا، كان ثقة مأمونا حدث عن الباغندي، والبغوي، ومحمد ابن المجدّر وغيرهم، وروى عنه ابنه عبيد الله، والبرقاني، والعتيقي وغيرهم وكان إماما حافظا ثقة مأمونا، بلغت تصانيفه ثلاث مائة وثلاثون مصنفا توفي سنة خمس وثمانين وثلاث مائة[120]روى عنه السيوطي(9) روايات، وكانت الرواية الأولى (فأخرجهُ ابن شاهين)[121] وخمس رواية(وأخرج ابن شاهين)[122] وروايتين بعبارة(اخرُج ابن شاهين)[123]

22. الطبراني، أبو احمد، عبد اللّه بن أبي بكر بن محمد بن الحسين بن محمد، وقدم بغداد في سنة(349-399هـ/ 959-1009م) وكتب عن شيوخها، وحدث بها في ذلك الوقت وعاد إلى الشام فاستوطن موضعا يعرف بالأكواخ عند بانياس، وأقام هناك يتعبد إلى حين وفاته في أكواخ بانياس يوم الأحد، ودفن يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة تسع وتسعين وثلاث مائة أبو القاسم الطبراني[124] وروى السيوطي عنه (183) رواية (149) برواية (وأخرج الطبرانيّ)[125] و(22) برواية (أخرج الطبرانيّ)[126] وبرواية واحد (قال الطبرانيّ)[127] (8) وبرواية (وأخرجه الطبرانيّ)[128].

23. الحاكم النيسابوري (ت 405هـ/ 1014م)محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم أبو عبد الله الحاكم الحافظ) ، ذكر له السيوطي (173) و(52) برواية(وأخرج الحاكم وصححهُ)[129] أربع برواية (قال الحاكم)[130] وروايتين (وأخرج الحاكم في تاريخ نيسابور)[131] وثلاثة برواية (وأخرج الحاكم في المُستدرك)[132] عن وهب بن مُنبّه قال لم يبعث الله نبيا إلا وقد كانت عليه شامة النبوة في يده اليمنى إلّا نبينا صلى الله عليه وسلم فإن شامة النبوة كانت بين فيهِ)[133]) باب المعجزة والخصائص في عينيه الشريفتين[134] ورواية واحدة (وأخرج الحاكم في مُستدركه)[135] و(18) برواية (اخرُج الحاكم وصححهُ)[136]

24. الأصبهاني، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، الإمام الحافظ، الثقة العلامة، شيخ الإسلام، أبو نعيم، المهرانيّ، الأصبهانيّ، الصّوفيّ، الأحول، سبط الزاهد محمد بن يوسف البناء، وصاحب "الحلية" (336-430هـ/947-1039م) ولد سنة ست وثلاثين وثلاث مائة[137]روى عنه السيوطي (284) برواية (وَأخرج أبُو نعيم)[138]

25. ابن مردويه (ت 410هـ / 1019م) الشيخ الإمام المحدث العالم، أبو بكر احمد بن محمد ابن الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه بن فورك بن موسى الأصبهاني، ولد سنة 409هـ/ [139] روى عنه السيوطي (16) رواية بـ (وأخرج ابن مردويه)[140] وواحدة فقط برواية (ولفظ ابن مردويه)[141] (14) برواية (وأخرج ابن مردويه)[142] وبرواية واحد (ابن مردويه)[143] وبرواية واحد (وأخرج احمد ابن مردويه)[144]

26. البيهقي(ت 458هـ/1065م) أبو بكر، احمد بن الحسين بن علي بن موسى، روى روايات عديدة،[145] ومجموع رواياته (679) رواية لا يمكن حصرها في هذا البحث.

27. الخطيب البغدادي (ت 463هـ /1070م) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الشافعي الحافظ [146]روى عنه السيوطي (17) ومنها (11) برواية (واخرج

الخطيب)[147]وثلاثة برواية (قال الخطيب)[148] وواحدة برواية (أخرجه الخطيب)[149].

28. النووي (ت676هـ/1277م) أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، روى عنه السيوطي(13) رواية مشيراً أليها ورواية واحدة (وحكى النوويّ)[150] وثلاثة برواية (قال النوويّ)[151] ورواية (وتعقبه النوويّ)[152] (وجزم النوويّ في أصل الروضه وابن القاضي في التلخيص[153] باب اختصاصه صلى الله عليه وسلم بتحريم الصلاة على من عليه دين) [154] ورواية واحدة (ذكره النوويّ)[155] ورواية واحدة(صحح النوويّ)[156] ورواية واحدة (ورجح النوويّ)[157] ورواية واحدة (رجح النوويّ خِلافه)[158] ورواية واحدة (كما قاله النوويّ)[159] ورواية واحدة(وحكاهُ النوويّ)[160]

الخاتمة:

بعد الانتهاء من دراسة ما قدر لنا الله سبحانه وتعالى من كتاب (موارد السيوطي في كتابه الطالب اللبيب في معرفة خصائص الحبيب) فقد توصلنا إلى جملة من الحقائق العلمية .والتي من أهمها :-

أولاً: يتبن لنا من خلال هذا البحث أن الإمام السيوطي اعتمد على موارده في كتابة الخصائص على المحدثين وبذلك دون لنا بعض الاحاديث النبوية الشريفة إضافة الى أهميته أعتنى بتوثيق خصائص النبي الكريم محمد صلى الله عليه وعلى اله وسلم من صفات وما أختصه الله سبحانه وتعالى عن سائر الأنبياء.

ثانياً: يتبن لنا أن السيوطي أحتل مكانة علمية خلال الفترة التي عاشها بين القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجري وعلى الرغم من التجاذبات السياسية والفوضى التي عمت تلك الفترة بقي على المنهج العلمي في توثيق ما تتبعه من الأحاديث النبوية الشريفة والروايات التي نقلها ممن سبقه في علم الحديث النبوي الشريف.

ثالثاً: ومن خلال الاطلاع على المصادر التي وقعت في أيدنا يبدو أن السيوطي اصبح مصدرا مهما في كتب التاريخ والتفسير والفقه ولذلك يعتبر موسوعي في العلوم والمعارف.

رابعاً: يمكن لنا القول أن السيوطي أصبح مرجعا يعتد به في الدراسات التاريخية التي يمكن لنا الوصول الى الحقائق التاريخية .

خامساً: يعد هذا البحث بتقديرنا من حيث الجمع التقصي في كتاب الخصائص جهداً نوعيا للوصل الى الموارد التي اعتمد عيها السيوطي من حيث التتبع وجمع الروايات التي تجاوزت المئات من حيث المورد والتحقيق لذلك لا يمكن لنا إلا أن نقول هذه بداية البحث ليكون فيه الإحصاء العددي الذي يدخل في الكتابات التاريخية ومن الله التوفيق والسداد .

الهوامش:

---

(1)السيوطي، أبي بكر، عبد الرحمن بن ، جلال الدين، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط1، 1967، 335/1.

(2)الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (ت 1976م) الأعلام، دار العلم للملايين،ط5، 2002م، 301/3.

(3)عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار أحياء التراث العربي، بيروت، بلا،ت،5/ 128.

(4)السيوطي، حسن المحاضرة،441/1.

(5)الزركلي،الأعلام،69/2.

(6) القسطنطيني، مصطفى بن عبد الله العثماني، سلم الوصول إلى طبقات الفحول (ت1067هـ/1657م) تح، محمود عبد القادر الأرناؤوط وأخرون، مكتبة إرسيكا، إستانبول، تركيا،2010م،87/1.

(7)العيدروس، محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت 1038هـ/1629م) النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية ، ط5، بيروت، ط1، 1،1405/51.

(8)محمد محمد محمد سالم محيسن (ت 2001م) معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ،ط1، دار الجيل، بيروت، 1992م، 124/2.

(9) محمد محمد محمد ، معجم حفاظ القرآن،124/2.

(10)عادل نويهض، معجم المفسرين، تقديم، حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1988م،264/1.

(11)عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار أحياء التراث العربي، بيروت، بلا، ت،128/5.

(12))السيوطي، حسن المحاضرة، المقدمة، ص8.

(13)السيوطي، حسن المحاضرة،المقدمة،ص7.

(14)العيدروس، النور السافر،51/1.

(15)عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين،5/ 128.

(16)السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت 911هـ/1505) الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا، ت،7/1.

(17)الخصائص،481/2.

(18)الخصائص،481/2.

(19)السيوطي، جمع الجوامع المعروف بـ "الجامع الكبير" تح، مختار إبراهيم الهائج وآخرون، ط2،الأزهر الشريف، القاهرة، مصر، 2005م، 768/19.

(20)الزركلي، الأعلام،156/2.

(21)الزركلي، الأعلام،156/2.

(22)الخصائص (120/1، 423،168، وفي الجزء465/2،447،353،348،223،209،193،69)

(23)الخصائص،120/1.

(24)الخصائص،69/2.

(25)مراد العمري، عصام الدين عثمان بن علي(1134-1184 هـ/ 1722- 1770م) الروض النضر في ترجمة أدباء العصر، تح، سليم النعيمي، نشر المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1975م، 108/1.

(26)الخصائص،403/2.

(27)الخصائص،417/2.

(28)الخصائص،417/2.

(29) الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ/1347م) سير أعلام النبلاء، دار الحديث، ط1، القاهرة،2006م، 492/6.

(30)الخصائص،154/1.

(31)الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت 748هـ/1347م) تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1998،1م،77/1.

(32)الخصائص،23/1.

(33)الخصائص،441/1.

(34)الخصائص، 23/1، 26، 103، 114، 183، 368/2،317.

(35)ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ/1201م) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح، محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا الناشر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992م،104/1.

(36)الخصائص،237/2.

(37)الخصائص، 125/1،42، 165،126 ،290/2،231،177،99.

(38)الخصائص،125/1.

(39)أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت241هـ/855م) مسند أحمد مخرجا، تح، شعيب الأرنؤوط ،عادل مرشد، وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة ، 2001 م،312/2.

(40)الخصائص،126/1.

(41)الخصائص،42/1.

(42) ابن سعد، أبوعبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت 230هـ/845م) الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، تح، زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط2، 1988م، ص51.

(43)الخصائص، 45/1، 140، 183، 185، 186، 187، 299، 302، 305، 332، 337، 338، 339، 356، 360، 375، 377، 409، 421، 426، 430، 455، 456 ،2 /19 ، 105، 118، 471.

(44)الخصائص،297/1.

(45)الخصـــــــــائص،2/1،442،370،356،120،119،71/ 47،48.

(46)الخصائص،2/1،391،352،346،295،73،72/22.

(47)الخصائص،91/1.

(48)الخصائص،120/1.

(49)الخصائص،347/1.

(50)الخصائص،350/1.

(51)الخصـــــائص، 144/1 ،343 ، 361 ،364 ،387 ،404 ،441 ،456 ،23/2 ،116 ،480 ،491 .

(52)الخصائص،2/1،295/31.

(53)الخصائص،471/2.

(54)ابن أبي شيبة، المصنف،306/6.

(55)الزركلي، الأعلام ،136/6.

(56)الخصائص،8/1.

(57)الخصائص،295/1.

(58)الخصائص،295/1.

(59)الزركلي،الأعلام،34/6.

(60) ابـن البيـع، أبـو عبـد الله الحـاكم محمـد بـن عبـد الله بـن محمـد بـن حمدويـه بـن نُعيم بـن الحكـم الضـبي الطهمـاني النيسابوري،(ت 405هـ/) تلخيص تـاريخ نيسابور،الناشر: كتابخانة ابن سينا – طهران، عرّبـه عن الفرسية: د/ بهمن كريمي ـ طهران،ص29.

(61)الخصـــــــــائص،112/1 ،137،119 ،170 ،225 ،243 ،365 ،368 ،390 ،14/2 ،35 ،67 ،126 ،138 ،144 ،153 ،183 ،186 ،188 ،190 ،226 ،287 ، 289 ،290 ،300 ،346 ،416،407 ،421 ،431 ،443 ،443 ،473 ،480.

(62)الخصائص،156/1، 91 ،458،417،328.

(63) الخصائص،405/1،172.

(64)الحضرمي، أبـو محمـد الطيـب بـن عبـد الله بـن أحمـد بـن علـي بامخرمـة الهجرانـي الشـافعي (870 - 947 هـ/) قـلادة النحـر فـي وفيـات أعيـان الـدهر، عُنـي بـه، بـو جمعـة مكـــري، خالـــد زواري، دار المنهـــاج،ط1، ط1، 2008 م، 518/2.

(65) الخصـــــــائص الكبـــــــرى، 122/1 ، 119 ، 137 ، 225،170 ، 243 ، 365 ، 365 ، 368 ، 390 ، 2 /14 ، 35 ، 67 ، 126 ، 138 ، 144 ، 153 ، 183 ، 144 ، 153 ، 183 ، 186 ، 188 ، 190 ، 287،226 ، 289 ، 300،290 ، 346 ، 407 ، 416 ، 421 ، 431 ، 443 ، 473 ، 480.

(66)الخصائص، 200/1.

(67)الخصائص، 273/1.

(68)الخصائص، 40/1.

(69)الخصائص، 78/1.

(70)الخصائص، 125/1.

(71)الزركلي، الأعلام، 269/3.

(72)الخصائص،446/1.

(73)الخصائص،467/2.

(74)الحضرمي، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر،2/560.

(75)الخصائص،2/1،451،321/143.

(76)الخصـــائص، 31/1،20 ،87 ،308 ،312 ،320 ،322 ،2،416/ 128 ،139 ،203 ،268 ،424 ،473 ،489 ،490.

(77)الخصائص،2/1،251/292

(78)الخصائص،2/1،397/180.

(79)الخصائص،292/2.

(80) الـذهبي، شـمس الـدين أبـو عبـد الله محمـد بـن أحمـد بـن عثمان بن قايماز الذهبي (ت 748هـ/ 1347م) تاريخ الإسلام ووفيـات المشـاهير والأعـلام المؤلـف، تـح، بشـار عـوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط2003،1م،625/6.

(81)الخصـــائص،113/1 ،223 ،259 ،323 ،194/2 ،195 ،228،207 ،242 ،251 ،266،260 ،272 ،277 ،303 ،353 ،363 ،366 ،393 ،424 ،425 ،446 ،454 ،464 ،454 ،466 ،482.

(82)الخصائص، 344/2.

(83)الزركلي،الأعلام،91/4.

(84)الخصائص،409/2.

(85)الخصائص،409/2.

(86)الخصائص،198/1.

(87)الخصائص،322/1.

(88)الذهبي، تاريخ الإسلام ،603/6.

(89)الخصائص،101/1.

(90)الخصائص،122/1،116.

(91)الخصـــــائص، 1/ 31، 65، 102، 124، 126، 270، 317، 364، 2/ 139، 157، 201، 280، 286، 348، 350، 394، 454، 456، 466.

(92)الخصائص،101/1.

(93)الخصائص،101/1.

(94)الخصائص،113/1.

(95)ابن الجوزي، المنتظم، 341/12.

(96)الخصـــائص، 50/1 ، 339، 320، 364، 459، 42/2، 156،112، 158، 159، 178، 281، 495، 498، 499.

(97)الخصائص،2/1،55/205.

(98)الخصائص،308/1.

(99)الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبي الشيخ (ت 369ه/979م) طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها المؤلف، تح، عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي، مؤسسة الرسالة،ط2، بيروت،1992، 386/3.

(100)الخصائص،8/1.

(101)الخصـائص، 1/ 14، 117، 271، 59/2، 124، 147، 147، 323، 346، 479.

(102)ابن شهبه، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (ت 851هـ/1447م) طبقات الشافعية، تح، الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت الطبعة،ط1، 1987م،88/1.

(103)الخصائص ،436/2.

(104)الخصـــــائص ، 247/1، 255، 357، 161/2، 176، 357، 425.

(105)الخصائص،255/1.

(106)الخصائص،2/1،283،276،463/16،411،350.

(107)الخصائص،207/1.

(108)الخصائص،214/1.

(109) الخصائص، 226/1، 229، 258، 331، 349، 386، 2،149/396، 317، 322، 337، 340، 359، 461، 365، 367، 368، 391، 429، 433.

(110)الزركلي، الأعلام،70/6.

(111)الخصـــــائص، 1/، 88، 49، 89، 185، 180، 413، 109/2.

(112) الخصائص ،14/1.

(113)الذهبي، تاريخ الإسلام ،289/8.

(114)الخصائص،308/2.

(115)الخصائص،404/2.

(116)ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر(ت571هـ/1175م) تاريخ دمشق، تح، عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995م ،29/24.

(117)ابن عساكر، تاريخ دمشق،29/24.

(118)الخصـــــائص، 19/1، 20، 55، 106، 111، 114، 115، 116، 123، 124، 165، 426، 61/2، 70، 105، 126، 127، 303، 377،370، 387.

(119)الخصائص،60/2.

(120) الحضـــرمي، قـــلادة النحـــر فـــي وفيـــات أعيـــان الدهر،262/3.

(121)الخصائص،172/1.

(122)الخصائص ،174/1، 2،155/460،141،89.

(123)الخصائص ،2/1،57/224.

(124)الخطيب ،أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي (ت 463هـ/) تاريخ بغداد، تح، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،2002 ،79/11.

(125)الخصـــائص،8/1، 14 ، 26 ، 38 ، 54 ،56، 63، 91، 102، 103، 105، 105، 106، 107، 108، 120، 126، 127، 132، 150، 141، 164، 168، 177، 199، 200، 202، 230، 231، 232، 239، 242، 243، 266، 267، 282، 291، 292، 321، 323، 343، 355، 357، 360، 396، 419، 439، 406، 2/ 66، 70، 71، 78، 79، 82، 83، 84، 88، 89، 90، 101، 106، 117، 110، 122، 130، 137، 138، 139، 141، 146، 156، 159، 164، 165، 179، 181، 185، 196، 198، 204، 205، 206، 207، 208، 209، 211، 219، 228، 230، 231، 232، 234، 235، 249، 251، 252، 258، 266، 264، 263، 271، 270، 267، 272، 282، 281، 280، 301، 323، 332، 333، 336، 338، 339، 346، 349، 351، 353، 356، 363، 372 ، 373، 376، 382، 384، 385، 394، 390، 386، 409، 407، 405، 397، 395،

470، 466،468 ،453،456 ،441،442، 425،436، 476، 497، 483، 491 .

([126])الخصـــــائص،1 /48 ، 90، 120 ،215، 263، 267، 275 ، 52/4522 ،96، 89، 101 ،107، 224، 254، 253، 254، 279، 284، 304، 397، 419، 451.

([127])الخصائص ،152/1.

([128])الخصـــائص، 160/1 ، 173، 324، 44، 52/2، 126، 148، 477.

([129])الخصائص،14/1.

([130])الخصائص، 2/1، 291،121،98/90.

([131])الخصائص ،360/2،113.

([132]) الخصائص ،291/1،103،56.

([133])الخصائص ،103/1.

([134])الخصائص،104/1.

([135])الخصائص،56/1.

([136])الخصائص،300/1.

([137]) الذهبي، سير أعلام ،155/13.

([138])الخصائص،8/1. ولا يمكن حصرها في هذا البحث.

([139])الذهبي ، سير أعلام النبلاء، 204/14.

([140])الخصـــــائص، 66/1، 259، 261، 266، 267، 268، 272، 290،280، 291 ، 137/2، 322 ، 339، 340.

([141])الخصائص،261/1.

([142])الخصــــــائص، 66/1، 259، 261، 266، 268،267، 268،272، 291،290،280، 137/2، 322، 339، 340.

([143])الخصائص،261/1.

([144])الخصائص،290/1.

([145])الصريفِيني، تقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر بن أحمد بن محمد العراقي، الحنبلي (ت 641هـ/ 1243) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، تح، خالد حيدر، دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع، 1993م،ص108.

([146]) بن غيهب، بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (ت 2008) طبقات النسابين، دار الرشد، الرياض، ط1987،1م، ص 101.

([147])الخصـــــــــــــائص، 115/1، 147، 361، 454، 66/2،50،41، 181، 299، 370، 491.

([148])الخصائص ،2/1،147/492،468.

([149])الخصائص،207/1.

([150])الخصائص،384/1.

([151])الخصائص،461/2،444،358.

([152])الخصائص،408/2.

([153])الخصائص،411/2.

([154])الخصائص،412/2.

([155])الخصائص،422/2.

([156])الخصائص،430/2.

([157])الخصائص،437/2.

([158])الخصائص.444/2.

([159])الخصائص451/2.

([160])الخصائص404/2.

قائمة المصادر:

1. أحمد بن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت241هـ/855م) مسند أحمد مخرجا، تح، شعيب الأرنؤوط ،عادل مرشد، وآخرون، ط1، مؤسسة الرسالة ،2001م.

2. الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبي الشيخ (ت 369ه/979م) طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها المؤلف، تح، عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1992.

3. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ/1201م) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح، محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا الناشر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992م.

4. الحضرمي، أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن علي بامخرمة الهجراني الشافعي (ت947 هـ/1540م) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، عُني به، بو جمعة مكري، خالد زواري، دار المنهاج، ط1، 2008م.

5. الخطيب ،أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي البغدادي (ت 463هـ/1071م) تاريخ بغداد، تح، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1،2001.

6. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت748هـ/1347م) سير أعلام النبلاء، دار الحديث، ط1، القاهرة،2006م.

7. الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام المؤلف، تح، بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط2003م،1،6/.625.

8. الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1998،1م.

9. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (ت 1976م)الأعلام، دار العلم للملايين، ط5، 2002م.

10. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت 911هـ/1505) الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا، ت.

11. السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، 1967.

12. السيوطي، جمع الجوامع المعروف بـ "الجامع الكبير" تح، مختار إبراهيم الهائج وآخرون، ط2،الأزهر الشريف، القاهرة، مصر، 2005م.

13. ابن سعد، أبوعبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت230هـ/845م) الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، تح، زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط2، 1988م.

14. ابن شهبه، تقي الدين أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي، ابن قاضي شهبة (ت 851ه/1447م) طبقات الشافعية، تح، الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت الطبعة، ط1، 1987م،

15. الصريفيني، تقي الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن الأزهر بن أحمد بن محمد العراقي، الحنبلي (ت 641هـ/1243) المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، تح، خالد حيدر، دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع،1993م.

16. عادل نويهض، معجم المفسرين، تقديم، حسن خالد، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، بيروت، لبنان، ط1988،3م.

17. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر(ت571هـ/1175م) تاريخ دمشق، تح، عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995م.

18. عمر رضا كحاله، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، دار أحياء التراث العربي، بيروت، بلا، ت.

19. العيدروس، محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت 1038هـ/1629م) النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية ،ط5، بيروت، ط1، 1985م.

20. بن غيهب، بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (ت 2008) طبقات النسابين، دار الرشد، الرياض، ط1، 1987م.

21. القسطنطيني، مصطفى بن عبد الله العثماني، سلم الوصول إلى طبقات الفحول (ت1067هـ/1657م) تح، محمود عبد

القـادر الأرنـاؤوط وأخـرون، مكتبـة إرسـيكا، إسـتانبول، تركيا،2010م.

22. ابن البيع، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بـن حمدويـه بـن نُعـيم بـن الحكـم الضـبي الطهمـاني النيسابوري(ت 405هـ/1014م) تلخيص تاريخ نيسابور، الناشر كتابخانة ابن سينا، طهران، تعريب، بهمن كريمي، طهران.بلا،ت.

23. محمد محمد محمد سالم محيسن، معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ،ط1، دار الجيل، بيروت، 1992م.

24. مراد العمري، عصام الدين عثمان بن علي(1134- 1184 هـ/ 1722- 1770م) الـروض النضـر فـي ترجمـة أدبـاء العصر، تح، سليم النعيمي، نشر المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1975م.

بحوث التاريخ الحديث والمعاصر

"التلغراف في الفلوجة في العصر العثماني من خلال أرشيف الدولة العثمانية"

الأستاذ الدكتور حسام الدين عباس الحزوري

أستاذ التاريخ الإسلامي - قسم التاريخ - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

مكة المكرمة – المملكة العربية السعودية

المستخلص

اهتمت الدولة العثمانية بتنظيم شؤون ولاياتها، وعملت على إدخال وسائل الاتصالات الحديثة إليها لمتابعة شؤونها، ومن تلك الوسائل كان التلغراف" البرق"، وقد عَمِل على تذليل الصعاب في متابعة شؤون الولايات وسرعة إيصال القرارات والأوامر من مركز الدولة في إستانبول ومركز الولايات.

وكانت ولاية بغداد واحدة من تلك الولايات التي دخلتها هذه الخدمة، ومن النواحي التابعة لولاية بغداد والتي دخلتها هذه الخدمة كانت ناحية الفلوجة.

يسلط البحث التالي الضوء على إدخال خدمة التلغراف إلى ناحية الفلوجة في العصر العثماني وما واجهته هذه الخدمة من صعاب نتيجة عمليات التخريب لخطوط التلغراف، وما عانته ناحية الفلوجة من مظالم مالية لإصلاح التخريب الذي لحق بخطوط التلغراف.

كلمات مفتاحية: التلغراف-البرق-ولاية بغداد-ناحية الفلوجة-الدولة العثمانية.

المقـــــــدمة

عملت الدولة العثمانية على تقوية نفوذها في البلاد التي سيطرت عليها من خلال إحكام السيطرة التامة على شؤونها السياسية والعسكرية والاقتصادية والإدارية.

وسخَّرت من أجل ذلك العديد من الوسائل سواءً عن طريق الفيلق السادس المتواجد في المنطقة العربية ومنها العراق، أو الولاة الذين كانت تعينهم لضبط شؤون الولايات، وكبار الموظفين في الولايات، والاستخبارات، والتحالفات مع شيوخ القبائل وغير ذلك.

وفي أواخر أيام الدولة العثمانية عمدت الدولة العثمانية إلى استخدام وسائل التقنية الحديثة للتواصل مع ولاياتها ومراسلتها ومعرفة أحوالها ومن تلك الوسائل كان التلغراف (البرق).

وقد حظيت ولاية بغداد باهتمام السلطة العثمانية وقامت بمد خطوط التلغراف إليها سنة (1277هـ/ 1861م)، وكانت لناحية الفلوجة نصيباً من خطوط التلغراف التي نُصبت على أراضيها.

وتحاول هذه الدراسة إلقاء الضوء على مد خطوط التلغراف في الفلوجة والصعوبات والمشاكل التي واجهتها، والطرق التي تغلبت عليها الدولة العثمانية، وما رافقها من عقوبات ومراقبة لخطوط التلغراف، معتمدين على وثائق أرشيف الدولة العثمانية في إستانبول. حيث عثرنا على عدد قليل من الوثائق عددها (4) تناولت هذا الموضوع.

أولاً: السيطرة العثمانية على العراق:

تمكنت الدولة العثمانية من السيطرة المباشرة على بغداد وإنهاء حكم المماليك فيها سنة (1247هـ/

1813م) على يد السلطان محمود الثاني حيث كلف والي على حلب علي رضا اللاظ بهذا الأمر، الذي استفاد من أمرين هما:

1- انتشار الطاعون في المدينة.
2- الفيضان الذي شهدته المدينة جراء فيضان نهر دجلة.

حيث قام علي اللاظ وقواته بحصار المدينة واستسلام واليها داود باشا آخر ولاة المماليك فيها، ناهياً بذلك حكم المماليك شبه المستقل في بغداد[1].

وكانت الفلوجة إحدى النواحي التي كانت تتبع لقضاء الدليم الذي يتبع بدوره لولاية بغداد وبقيت على ذلك النحو حتى سقوط الدولة العثمانية، وقد عُدَت الفلوجة آنذاك من نواحي الدرجة الثانية[2]. وقد ترأس هذه الناحية مدير الناحية الذي يعد رأس الجهاز الإداري فيها[3].

عقب سيطرة الدولة العثمانية على ولاية بغداد عملت على استحداث القوانين والإجراءات ووضعت القوانين التي تسهل استخدام الوسائل الحديثة وتعمل على سهولة الاتصال المباشر بالولاية وأقضيتها ونواحيها وتَتبع أخبارها وأوضاعها. ومن ضمن ذلك كان إدخال خدمات التلغراف (البرق) تماشياً مع التطور والحداثة التي شهدها العالم آنذاك.

ثانياً: دخول خدمات التلغراف (البرق) إلى ولاية بغداد:

التلغراف (البرق) عبارة عن جهاز يعمل بواسطة ترميز الحروف بشحنات كهربائية ويرسلها عبر الأسلاك إلى آخر يقوم بدوره بطباعة تلك النبضات لإرسال البرقيات والنصوص بين مناطق متعددة[4].

فقد تمكن كلاً من (تشارلز ويت ستون) و(وليم كوك) و (ماركوني) من اختراع جهاز التلغراف، وذلك في العام(1264هـ / 1848م).

وجاء من بعدهم العالم الأمريكي (صامويل موريس) بتطوير جهاز التلغراف معتمداً على جهاز يتمثل في شكل دائرة كهربائية تغذيها بطارية بسيطة، ويتم فتح الدائرة وإغلاقها عن طريق مفتاح، وعندما تكون مغلقة يمر التيار وينتشر في الأسلاك، وفي الطرف الآخر من السلك هناك نظام متابعة، يدل القائل على الجهاز على مرور التيار. وتم لموريس مد أول خط للتلغراف بين واشنطن وبالتمور، وعدت طريقتها هذه هي الأفضل على حساب باقي الطرق التي كانت قبله. وفي سنة (1270هـ/ 1850م) تمّ أول اتصال لاسلكي بين فرنسا وإنجلترا[5].

وقامت الدولة العثمانية باعتماد نظام التلغراف (البرق) عقب انتشاره واستخدامه في أمريكا وأوروبا في ولاياتها حيث صدرت الأوامر في العام (1274هـ/ 1859م) بتنظيم المراسلات بين الولايات والعاصمة إستانبول بالإضافة إلى تحسين كفاءتها في أداء الأعمال المناطة بها، وإحكام قبضة الدولة على ولاياتها واستخدامه مع دول العالم في أوروبا وغيرها[6].

فصدر نظام التلغراف في (27ربيع الأول 1276هـ/ 24ت1859م)، ونص هذا النظام على منح الأولوية لمراسلات الدولة التي تتم عن طريق البرق، ومن ثم لمراسلات السفارات الأجنبية، ومن بعدها مراسلات التجار، وأكدَ على الحفاظ على سرية المخابرات [7].

ففي عام (1277هـ/ 1861م) صدر أمراً من السلطان عبد المجيد بمد خط التلغراف إلى ولاية بغداد، حيث أوكل الأمر للبريطانيين باتفاق مع الدولة العثمانية لمد خطاً برقياً قادماً من جهة الهند عن طريق البصرة، ومن ثم إلى بغداد ممتداً في قاع دجلة، وتم أول اتصال بين ولاية بغداد والعاصمة إستانبول يوم 27جزيران 1861م.

وأسست في بغداد وآنذاك دائرة للبرق، واستمرت عملية إيصال الأسلاك البرقية من مركز الولاية ببغداد إلى بقية مناطق الولاية ومن ضمنها كانت الفلوجة وكان ذلك في العام 1875م [8].

وقد أولى شعراء بغداد آنذاك هذا الحدث العظيم اهتمامهم البالغ وكان في مقدمتهم الشاعر عبد الباقي العمري الذي سجل انطباعاته في أرجوزته التي وصف بها هذا الاختراع وأثنى على السلطان العثماني، ومما جاء في هذه الأرجوزة قوله:

نظمتها في نعت من أمدنا		بما به كل بعيد قد دنا
من مدد مسلسل الأمداد		يلوح مرفوعاً على أعواد
تهتف فوقها هواتف الثنا		على أمير المؤمنين علنا
من بعض تسهيلاته الجزئية		وهي لعمر جده كلية
صدور أمره الشريف العالي		للحظة الزورا بلا امهال
في مد خط التلغراف المستوي		على قواعد بإحكام قوي

وقال في وصف خط التلغراف:

لخط التلغراف حروف جر — يجيء من الغور البعيد
ويلفظها بغير فم ولكن — بألسنة حداد من حديد

وأوجد بناء على ذلك في ناحية الفلوجة مديرية للبرق والبريد [9].

ثالثاً: التلغراف في الفلوجة من خلال أرشيف الدولة العثمانية:

كانت ناحية الفلوجة واحدة من نواحي ولاية بغداد التي دخلها التلغراف وكانت لها مديرية خاصة بها كما أشرنا سابقاً.

وعلى الرغم من الفائدة الكبيرة التي قدمتها هذه الخدمة للناس إلّا أنها تعرضت للكثير من التخريب، جرّت الكثير من الويلات على سكان الفلوجة من خلال الرسائل التي كانت ترسل من العاصمة إستانبول لمراقبة الناس وتحركاتهم وفرض الغرامات والضرائب على السكان لمد خطوط التلغراف وإصلاحه.

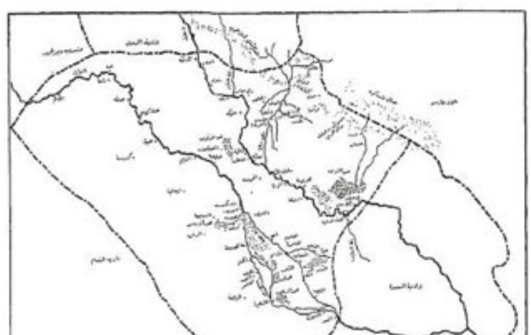
وتحدثنا الوثيقة المؤرخة في(20جمادى الآخرة 1323هـ/ 4أب1905م) والمرسلة من دائرة الأركان الحربية العامة عن قيام عشائر عنزة أثناء عبورها من ناحية شايه[10]، إلى الجزيرة، حيث قامت بقطع جسر الفلوجة، وحدث نزاع من عشائر الظفير حول العودة إلى قضاء شايه، لذلك تم اتخاذ التدابير اللازمة لكي لا تحدث مثل هذه الحوادث مرة أخرى، ويفهم من التحقيقات أن العشائر المذكورة خرجت من حدود مقاطعة خوانية[11]، وأبو غريب[12]، ومرّت من الساحل الأيمن لنهر الفرات، لذلك من الضروري إرسال مفرزة عسكرية إلى هناك، وقد أُرسل تلغراف إلى قائد الجيش السادس الهمايوني، والأمر لمن له الأمر[13]. ومن خلال هذه الوثيقة نستنتج أن التلغراف عَمِلَ عَمل الاستخبارات لضبط الأمن ومنع حدوث القتال بين العشائر في منطقة الفلوجة.

وقد تعرضت خطوط التلغراف لعمليات التخريب من قبل العشائر والقبائل البدوية، وعملت الدولة العثمانية على متابعة هذه العمليات والأمر بإصلاحها، فالوثيقة التي عثرنا عليها تثبت صحة ما أشرنا إليه حيث وردت برقية من ولاية بغداد إلى وزارة الداخلية الجليلة أنه قد تم تخريب خطوط التلغراف في الولاية، وأشارت أنه من قام بعملية التخريب هم العشائر والقبائل البدوية الجماعات الرُحل، وطالبت باتخاذ الإجراءات والتدابير العاجلة من أجل صيانة خطوط التلغراف المذكورة، حيث عُرض الأمر على مجلس إدارة الولاية وحررت الوثيقة بتاريخ (12 رجب 1322هـ/ 9أيلول 1875م) [14].

وقد تمكنت الدولة العثمانية من مراقبة ما يدخل من سلاح على الولاية في بغداد ومتصرفياتها، وتشير إحدى الوثائق الواردة من ولاية بغداد إلى الباب

العالي، دائرة الصدارة العظمى [15]، قلم الرسائل ، بشكل تلغراف سري أنه تم التأكد من الخبر القادم بشكل سري إلى متصرفية كربلاء [16]. بأنه تم إرسال ستة آلاف بندقية من نوع مارتين إلى غضبان رئيس عشيرة (بني لام) [17] من عشائر العمارة [18]، عن طريق فلاحيه التابعة إلى محمرة حويزة [19]، لذلك أرسل إلى البصرة للتحقق من ذلك، وبذل السعي في الحصول على تلك الأسلحة المذكورة سريعاً، ثم العرض علينا بنتيجة التحقيقات، والأمر إليكم [20].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل تابعت العشائر عملية التخريب لأعمدة خطوط التلغراف مستخدمين هذه المرة آلات قاطعة، وقد لاحظت السلطات في ولاية بغداد ذلك، ووصل الأمر إلى وزير البريد في الدولة العثمانية حيث قامت بمراسلة وزارة الداخلية العثمانية تخبرها أن "خطوط التلغراف الموجودة بين بابا عتيق و بين أشاميون حدث له علامات قطع بآلات قاطعة، و تبين أن من قام بذلك هو



خارطة ولاية بغداد الطبيعية
الجبال والمرتفعات، الأنهار، الأهوار والمستنقعات
جبال ومرتفعات
أهوار ومستنقعات
مقياس الرسم ١/١,٧٥٠,٠٠٠
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠ ٧٠ كم

ديمتري أوغلي المناس[21] من قرية أبو للى[22]، وتم إخبار الولاية من أجل تنفيذ العقوبة، وتبين كذلك أثناء عبور عشيرة عنزة بجوار خط التلغراف الموجود بين الرمادي[23] والفلوجة حدث كسر في 6أعمدة هناك، وحدث تلف في بعض الخطوط على مسافة 300متر، وقد تم إخبار مديرية بغداد بذلك لأن هذه الأعطال سوف تؤثر على الخطوط باستمرار وتوسع من دائرتها مما يضر بالخزينة السلطانية، وأن سرعة التحقيق في ذلك وإصلاح الأعطال يمثل درجة الوجوب ،ويجب مخاطبة رؤساء القرى الموجودة بجوار التخريبات ونشر ورقة عن ذلك وتعميمها على كل القرى المجاورة هناك، وأن من قام بمثل هذه التخريبات أو سرق شيئاً من الأسلاك سيتم معاقبته بشدة ودفع بدل السرقات مضاعف، ومن أجل منع مثل هذه التجاوزات مرة أخرى سيتم تصليح الأعطال من أموال أهالي القرى المجاورة[24].

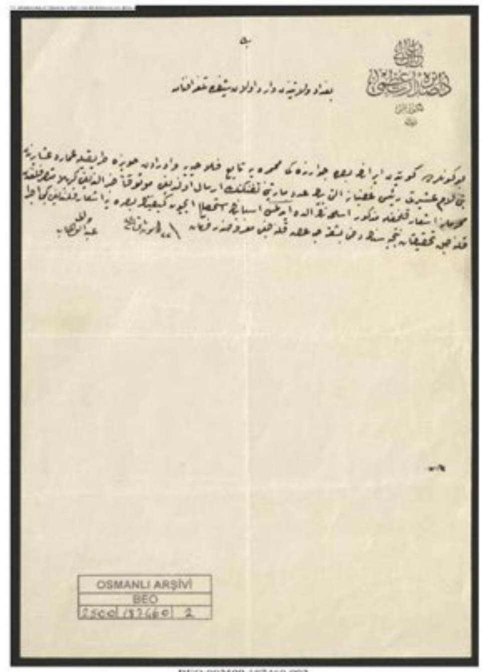
الخـــاتمـــة

بعد هذا العرض للتطورات التي شهدتها ولاية بغداد وناحية الفلوجة من خلال مد خطوط التلغراف والدور الذي قام به هذا الاختراع، حيث انعكس هذا الاختراع على الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية في بغداد ومن ضمنها الفلوجـــة من خلال التواصل المباشر بين ولاية بغداد ومقر العاصمة في إستانبول.

ومما لا شك فيه أن خدمة التلغراف (البرق) كانت إحدى الخدمات المتعددة والمتميزة التي أدخلتها الدولة العثمانية إلى ولاية هـامة من ولاياتها في البلاد العربية (بغـــداد). وكان لناحية الفلوجة نصيب من هذه الخدمة، وهذه الخدمة على الرغم من أهميتها إلا أنها جرّت على الفلوجة بعض التبعات التي لا يحمد عقباها من جمع للأموال من السكان لتسديد الغرامات التي فرضتها الدولة العثمانية لإصلاح التخريبات التي لحقت بخطوط التلغراف نتيجة عمليات التخريب.

الملاحق

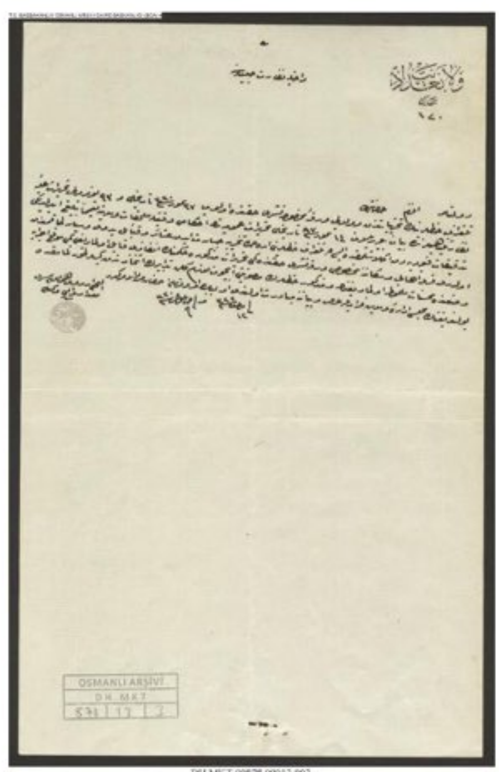
الوثائق العثمانية المستخدمة في البحث و تظهر أرقامها في أسفل كل وثيقة



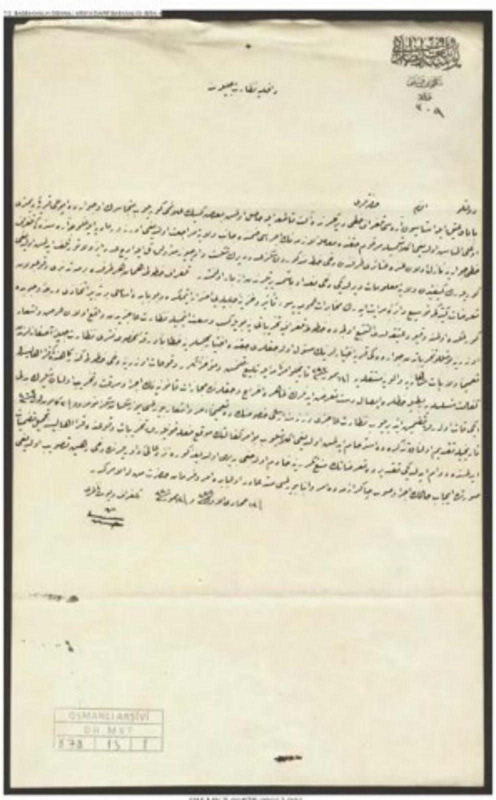
BEO.002500.187460.002



DH.MKT.00878.00013.001



DH.MKT.00878.00013.003



DH.MKT.00878.00013.001

الهوامش:

---

(1) نوار، عبدالعزيز سليمان، داود باشا والي بغداد، القاهرة 1968م، ص258-259 .

(2) النجار، جميل موسى، الإدارة العثمانية لبغداد، مكتبة مدبولي ، ط6، القاهرة، 1991م، ص138-139.

(3) الدستور، ترجمه من اللغة التركية نوفل أفندي نعمة الله نوفل، بمراجعة وتدقيق خليل أفندي الخوري مدير مطبوعات ولاية سورية، م1، المطبعة النورية، بيروت، 1301هـ/ المادة الثانية، ص397.

(4) .httb://mail.marefa.orglindex.php

(5) الموسوي، موسى، أدب التلغراف في العراق، وزارة الثقافة والإعلام، س1، ع2، بغداد، 1965م، ص116.

(6) شافعي، حسين، البريد والبرق (التلغراف) بمدن الحجاز إبان العهد العثماني، 932- 1334-1915م من خلال الوثائق العثمانية، مجلة جامعة السودان المفتوحة، الخرطوم، ع5، 2015م، ص90-91.

(7) الدستور، م2، ص303.

(8) النجار، الإدارة العثمانية، ص437.

(9) النجار، الإدارة العثمانية، ص440.

(10) لم أقف لها على ترجمة.

(11) لم أقف لها على ترجمة.

(12) قضاء يقع غربي محافظة بغداد وأغلب أراضيه زراعية خضراء، تعتمد عليه بغداد في غذاءها، تحده الفلوجة من جهته الغربية، من معالمه وجود آثار عكركوف ونهر أبي غريب. السامرائي، أحمد غازي، أبو غريب تاريخ و ذكريات ، دار الحكمة ،بغداد ،ط2، 2019،ص 10-20 .

(13) وثيقة رقم DH.TNIK.M00204, 00045,001.محفوظة في أرشيف الدولة العثمانية، استانبول.

(14) وثيقة رقم DH.TMIK.T.00878. 00013.003. محفوظة في أرشيف الدولة العثمانية، استانبول.

(15) الصدارة العظمى: (باب آصفي) في الباب العالي، وكان تشكيلها على تشكيل النظارات (الوزارات) يضم ثلاث أقسام هي، دائرة الحريم، ودائرة السلاملك، ودائرة القلم، بكر، عصمت عبدالمجيد، المدخل لدراسة النظام القانون في العهد العثماني والجمهوري التركي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص34.

(16) سنجق كربلاء، وتألف من عدة أقضية ونواح هي: قضاء مركز السنجق، وهي تتبع ناحيتا المسيب وشقاثه ، 2- قضاء الهندية، وتتبعه ناحية الكفل، 3- قضاء النجف، وتتبعه نواحي الكوفة والرحبه وهو الدخن، 4- الرزازة، وكان يرأس السنجق المتصرف وهو رأس الجهاز الإداري في كل سنجق من سناجق الولاية، النجار، الإدارة العثمانية، ص202.

(17) عشيرة بني لام هاجرت إلى العراق في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، وكان اتجاه هذه العشيرة نحو العراق الجنوبي الأوسط، فامتد سلطانها من القرنة حتى أطراف بغداد. العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، 1959، ص242-243.

(18) من أهم العشائر العربية في منطقة العمارة البو محمد وبني لام وربيعة و زبيد وشمر، وطوقة، جمال، وميض، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، بيروت، 1984، ص38.

(19) تقع على مسافة (32)كيلو متر من البصرة، جنوباً، وفيها تنساب مياه شط العرب الآتية من هويرة الحويزة، النجار، الإدارة العثمانية، ص72.

(20) وثيقة رقم BEO.002500.187460.002 محفوظة في أرشيف الدولة العثمانية، استانبول.

(21) لم أقف لها على ترجمة.

(22) لم أعثر لها على ترجمة.

(23) مدينة الرمادي: ظهرت إلى الوجود عندما اختارها الوالي العثماني "مدحت باشا"في المدة "1869-1872" كمركز حضاري، ابتغى من خلاله توفير الأمن و الاستقرار على طريق القوافل التجارية، حيث بنى فيها مشفى و دائرة للجمارك، و مد خطأ للتلغراف بين بغداد و الرمادي لترغيب القوافل التجارية بالمرور عبرها.عبد الله، عذراء:مراحل النمو العمراني و اتجاهاته في مدينة الرمادي، مجلة البحث العلمي،كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، العدد16،ج5، 2015،ص4-5

(24) وثيقة رقم DH.MKT.00878.0013.001 محفوظة في أرشيف الدولة العثمانية، استانبول.

قائمة المصادر والمراجع المستخدمة

1- الدستور، ترجمه من اللغة التركية نوفل أفندي نعمة الله نوفل، بمراجعة وتدقيق خليل أفندي الخوري مدير مطبوعات ولاية سورية، م1، المطبعة النورية، بيروت، 1301هـ.

2- جمال، وميض، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية في العراق، بيروت، 1984.

3- السامرائي، أحمد غازي، أبو غريب تاريخ و ذكريات ، دار الحكمة ،بغداد ،ط2، 2019

4- شافعي، حسين، البريد والبرق (التلغراف) بمدن الحجاز إبان العهد العثماني، 932- 1334-1915م من خلال الوثائق العثمانية، مجلة جامعة السودان المفتوحة، الخرطوم، ع5، 2015م.

5- عبد الله، عذراء: مراحل النمو العمراني و اتجاهاته في مدينة الرمادي، مجلة البحث العلمي،كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، العدد16،ج5، 2015.

6- العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، 1959

7- عصمت عبدالمجيد، المدخل لدراسة النظام القانون في العهد العثماني والجمهوري التركي، دار الكتب العلمية، بيروت.

8- الموسوي، موسى، أدب التلغراف في العراق، وزارة الثقافة والإعلام، س1، ع2، بغداد، 1965م.

9- النجار، جميل موسى، الإدارة العثمانية لبغداد، مكتبة مدبولي ، ط6، القاهرة، 1991م.

10- نوار، عبدالعزيز سليمان، داود باشا والي بغداد، القاهرة 1968م .

11- وثيقة رقم DH.TNIK.M00204, 00045,001.محفوظة في أرشيف الدولة العثمانية، استانبول.

12- وثيقة رقم BEO.002500.187460.002 محفوظة في أرشيف الدولة العثمانية، استانبول.

13- وثيقة رقم DH.TMIK.T.00878. 00013.003. محفوظة في أرشيف الدولة العثمانية، استانبول.

حماية الإرث الوطني في القانون الدولي العام: (العراق-لبنان-وسوريا نموذجا)

الأستاذ الدكتور كمال حَماد

عميد ومستشار سابق لرئيس الجامعة اللبنانية

المقدمة

الإرث أو التراث الثقافي هو ما تتوارثه دولة ما من ممتلكات ثقافية ،تاريخية وحضارية، والتي تعتبر شاهدة على حقبة معينة تاريخية ، تعكس المستوى الحضاري والفكري والعلمي والفني لأجدادنا او لحضارات اخرى مرت في هذه الارض، وخلفت ورائها القلاع او القصور او غيرها من الاثار التاريخية، والتي تعتبر ارثا وطنيا يجب حمايته للأجيال الحالية والقادمة .

وقد خَلفت الحربين العالميتين اضرارا فادحة بحق الممتلكات الثقافية والتراث الوطني والعالمي، مما دفع بالمجتمع الدولي للبحث عن اطار قانوني دولي لحمايته والحفاظ عليه في وقت المنازعات المسلحة وفي ايام السلم، كما ان القانون الدولي الانساني قد لحظ في نظام روما التي انشأت المحكمة الجنائية الدولية ، مسؤولية قانونية دولية بحق الافراد المتهمين ، بالأضرار بالإرث الثقافي ، كما ان هناك مسؤولية للدول التي تخالف القوانين المرعية الاجراء المعنية بالممتلكات الثقافية ، تأخذ طابع التعويض او اعادة الشيء الى موطنه الاصلي.

المبحث الأول: الإرث الوطني: تعريفه وأنواعه

المطلب الأول: تعريف القانون الدولي الإنساني.

عُرف القانون الدولي الانساني بأنه "فرع من فروع القانون الدولي العام تهدف قواعده العرفية والاتفاقية الى حماية الاشخاص المتضررين في حالة نزاع مسلح كما تهدف الى حماية الاموال التي ليست لها علاقة مباشرة بالعمليات العسكرية.

كما عرّف بأنه "مجموعة القواعد القانونية الآمرة التي أقرها المجتمع الدولي (ذات الطابع الانساني) التي يتضمنها القانون الدولي العام والتي تهدف الى حماية الاشخاص والاعيان من جراء العمليات العسكرية والتي تجد مصدرها في المعاهدات الدولية والعرف الدولي"[(1)].

الفرع الاول تعريف الحرب والنزاع المسلح

هي نزاع عن طريق استخدام القوة المسلحة بين الدول او اشخاص القانون الدولي العام بهدف التغلب بعضها على بعض. اما قانون الحرب (Jus in bello) فقد وصفه (مارتس.ف) بأنه مجمل المبادىء القانونية التي تحدد العمليات العسكرية لدولة ما في وقت الحرب، اما (تاوبي.م) فقال بأن قانون الحرب هو في المبدأ نظام القوة.

اذن الحرب هي تحكيم القوة بدل القانون، والحرب ظاهرة اجتماعية يجب بقدر المستطاع تنظيمها وتخفيف

ويلاتها. ولهذا فان وجود قانون ينظم كل ذلك يعتبر ضرورة انسانية لخير البشرية جمعاء. وقد اقرت مبادىء القانون الدولي ومنذ القدم باختلاف بين قانون الحرب وما بين قانونية الحرب، اما مصطلح النزاع المسلح فيستعمل بصورة ظاهرة في الوثائق الدولية المعاصرة، وخاصة بعد عقد المؤتمرات المتعلقة بالنزاعات المسلحة ومنها اتفاقيات جينف لعام 1949 والبروتوكول الاول لعام 1977 الملحق باتفاقيات جينف، واتفاقية لاهاي لعام 1954 والخاصة بحماية الممتلكات الثقافية في وقت النزاع المسلح، مع البروتوكول الاول والثاني ودليل سان ريمو بشأن القانون الدولي المطبق في النزاعات المسلحة في البحار لعام 1994، بالاضافة الى اتفاقية حظر استحداث تقنيات تغير البيئة لاغراض عسكرية أو لأي أغراض عدائية اخرى لعام 1976.[2]

اما قانون النزاعات المسلحة الدولية أو المحلية، فهي تحدد الحقوق والواجبات للاطراف المتنازعة، كما تحدد العلاقات مع بعضها البعض، كما مع الدول المحايدة، كما تنظم تلك القوانين حدود استعمال القوة أثناء النزاعات المسلحة، كما تضمن حماية حقوق السكان المدنيين او العسكريين الذين كفوا عن القتال، بالاضافة الى حماية الاعيان والممتلكات الثقافية والمستشفيات وبعض المواقع الاستراتيجية والمنشآت الضرورية لحياة وبقاء السكان. كما أقرت تلك المبادئ والقوانين مسؤولية قانونية.[3]

<u>الفرع الثاني: تعريف الارث الثقافي.</u>

الارث لغويا : تعني كلمة الارث وجمعها ايراثُ (ومرادفها تراث، تركة، ميراث) وهو ما يتوارثه الناس عن ابآءهم من تراث ويقال " كل امة تعتز بإرثها الحضاري.

والارث أو التراث الوطني او العالمي هو ميراث الماضي الذي نتمتع به اليوم وننقله إلى الأجيال القادمة ، وهو يعني البشرية جمعاء.

<u>الفرع الثالث: انواع الارث الثقافي</u>

ما يُميّز مفهوم التراث العالمي هو مدلوله الذي يشمل العالم بأسره. فمواقع التراث العالمي هي ملك لجميع شعوب العالم، بغض النظر عن المكان الذي تقع فيه. وتشجع اليونسكو العمل على تحديد وحماية وصون التراث الثقافي والطبيعي في كل أنحاء العالم عندما يتسم هذا التراث بقيمة استثنائية بالنسبة للبشرية. وقد تجسدت تلك الرؤية في معاهدة دولية عنوانها الاتفاقية الخاصة بحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي التي اعتمدتها اليونسكو في عام 1972.

تسعى اليونسكو إلى تأمين أفضل حماية ممكنة للتنوّع الثقافي، ولذا تركز أنشطتها على المواقع التي تُعبّر عن ذاتيات ثقافية متعددة، والمواقع التي تمثل تراثاً ثقافياً للأقليات، والمواقع التي تتمتع بقيمة تأسيسية أو المعرّضة بوجه خاص للاندثار. وتُنفذ هذه الأنشطة بالتعاون الوثيق مع مركز التراث العالمي.

<u>أولا : تراث مادي</u>

*وتشمل الممتلكات الثابتة او المنقولة التي لها اهمية كبرى لتراث الشعوب الثقافي،

*الاماكن الاثرية

*مجموعة المباني ذات القيمة التاريخية او الفنية

*التحف الفنية

*المخطوطات والكتب ذات القيمة الفنية التاريخية او الاثرية ،

*المباني التي خصصت لحماية الممتلكات المشار اليها اعلاه

ثانيا: التراث غير المادي

يُقصد بعبارة "التراث الثقافي غير المادي"، وفقاً للتعريف الوارد في اتفاقية صون التراث الثقافي غير المادي، مجمل الإبداعات الثقافية، التقليدية والشعبية، المنبثقة عن جماعة ما والمنقولة عبر التقاليد، ومنها مثلاً اللغات والقصص والحكايات والموسيقى والرقص وفنون الرياضة القتالية والمهرجانات والطب وحتى فن الطهي.

ثالثا: التراث الوثائقي

يعكس هذا التراث تنوّع اللغات والشعوب والثقافات، وهو مرآة العالم وذاكرته. ولكن هذه الذاكرة هشة. وفي كل لحظة، تزول منها بصورة نهائية أجزاء لا تعوض. وقد استهلت اليونسكو برنامج ذاكرة العالم بغية تفادي فقدان الذاكرة الجماعي وتعزيز صون مقتنيات دور المحفوظات والمكتبات في كل أنحاء العالم وتأمين نشرها على أوسع نطاق. وبات جزء متزايد من الموارد الثقافية والتعليمية في العالم بأسره يُنتج ويُوزع ويُطلع عليه في شكل رقمي لا في الشكل الورقي المعتاد.

لذلك فإن التراث الذي يصدر أصلاً في شكل رقمي، كالنشرات الإعلامية وقواعد بيانات المتاحة بالاتصال الإلكتروني المباشر وصفحات الويب، يشكل إذن جزءاً لا يتجزأ من تراث البشرية. غير أن المعلومات الرقمية مهددة لأسباب تقنية بالتقادم السريع أو بالاندثار. و"ميثاق اليونسكو بشأن صون التراث الرقمي" يعالج هذه المسائل.

تسعى اليونسكو من خلال برنامجها الإنسان والمحيط الحيوي ، لأن توفر، في إطار العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، الوسائل التي تضمن صون التنوّع البيولوجي واستخدامه بصورة مستدامة، وتحسين علاقة الأفراد ببيئتهم على الصعيد العالمي.وذلك من خلال:

أ-إعداد قائمة مؤقتة يُضمّنها أهم المواقع الثقافية والطبيعية الواقعة داخل أراضيه. ولكي يمكن إدراج المواقع في قائمة التراث العالمي، يجب أن تتسم هذه المواقع بقيمة عالمية استثنائية وأن تفي بواحد على الأقل من معايير الاختيار.

المطلب الثاني -القانون الدولي الانساني وحماية الارث الثقافي.

الفرع الأول: مبادئ عامة لنطاق حماية الارث الثقافي.

- حماية الممتلكات الثقافية واحترامها، وفقا للمادة 2 من اتفاقية 1954كما ان المادة 3 تتحدث عن الوقاية المطلوبة في ايام الحرب والسلم،
- عدم تعريض الممتلكات الثقافية للهجمات اثناء النزاعات المسلحة،
- حماية الممتلكات الثقافية اثناء فترة الاحتلال،
- تمييز الممتلكات الثقافية بعلامات مميزة ، لابعاد الحجج بان المتقاتلين لم يميزوها،
- عدم استخدام الممتلكات الثقافية لاغراض ومواقع عسكرية.

تركز الحماية التي تشمل الممتلكات الثقافية في النزاعات المسلحة على مبدأ منصوص عليه في اتفاقية لاهاي لعام 1954 فحواه أن الأضرار التي تلحق بممتلكات ثقافية يملكها أي شعب "تمس التراث الثقافي الذي تملكه الإنسانية جمعاء."

وتتمتع الممتلكات الثقافية بالحماية خلال الحرب على مستويين؛ إذ، من ناحية، تنطبق عليها الأحكام العامة للقانون الإنساني التي تمنح الحماية للممتلكات المدنية بحكم أنها ممتلكات غالباً ما تكون مدنية بطبيعتها.

ومـن ناحيـة أخـرى، تُكـرّس اتفاقيـة لاهـاي لعـام 1954 بشـأن حمايـة الملكيـة الثقافيـة فـي حالـة نـزاع مسلح، حماية خاصة تعترف بالتراث الثقافي لكل شعب. وتـم تعزيـز هـذه الاتفاقيـة ببروتوكـولين إضـافيين عـام 1977 وأصبحت جزءاً من القانون الدولي العرفي.[4].

ويبيّن الواقع المحزن على مرّ التاريخ أن الحروب تـؤدي إلـى فقـدان العديـد مـن الأعمـال الفنيـة وتخريـب مواقـع ثقافيـة أو تـدميرها. ورغـم ضـروب الحمايـة الممارسـة حسـب الأعـراف منـذ العصـور الأولـى للحضارة، دفع الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الثانية المجتمـع الـدولي إلـى اتخـاذ التـدابير اللازمـة ووضـع قواعد قانونية تمنح حماية خاصة

وهكذا، جاءت اتفاقية لاهاي لعام 1954 لتلزم كل دولة باتخاذ إجراءات في سبيل صيانة ممتلكاتها الثقافية الخاصـة مـن الهجمـات المسـلحة. ويـتم ذلـك مـثلاً عـن طريق نقل تلك الممتلكات بعيداً عن العمليات العسكرية المحتملـة أو الـدائرة، أو تفـادي إقامـة أهـداف عسـكرية بالقرب منها في حالة المواقع التاريخية.

ولا يجـوز للأطـراف المشـاركة فـي النزاعـات المسـلحة توجيـه العمليـات العدائيـة ضـد الممتلكـات الثقافيـة وعليهـا تفـادي وقـوع أضـرار عرضـية ضـد تلـك الممتلكـات. كمـا يحظـر القـانون اسـتعمال الممتلكـات الثقافية لأغراض عسكرية.

إلا أن اتفاقيـة لاهـاي تعتـرف بحـالات يكـون فيهـا الهجوم على الممتلكات الثقافية مشروعاً خاصة إذا تم تحويل تلك الممتلكات إلى هدف عسكري يكون الهجوم عليـه إجـراءً ضـروريا بحكـم "الضـرورة العسـكرية الملحة."

وعلى قوات الاحتلال أن تحمي الممتلكات الثقافيـة التـي تقـع تحـت سـيطرتها مـن السـرقة أو النهـب أو الاخـتلاس. وفـي حـال تـم إبعـاد الممتلكـات الثقافيـة مـن الأراضـي المحتلـة لضـمان حمايتهـا، يجـب إعادتهـا عنـد انتهاء العمليات العدائية.

واستجابة للأحداث التـي جرت فـي الحـرب العالميـة الثانيـة، تحظـر أحكـام القـانون الـدولي أيضـا تـدمير الممتلكـات الثقافيـة كوسـيلة لبـثّ الرعـب بـين سـكان الأراضي المحتلة أو كأسلوب للانتقام.

وتتحمل الدول الأطراف في اتفاقية لاهاي مسؤولية تنفيذ الأحكام التي تنص عليها وإدماج حمايـة الممتلكـات الثقافيـة فـي تشـريعاتها الوطنيـة. وتكـون ملزمـة أيضـا بإنفاذ أحكام الاتفاقيـة في حالـة انتهاكهـا. وعلـى الصعيد الدولي، تضطلع منظمة اليونيسكو بمسؤولية خاصة في رصـد الامتثـال للاتفاقيـة وتقـديم المسـاعدة لحمايـة الممتلكات الثقافية وصيانتها.

وقد حدّدت اتفاقية لاهاي إطاراً قانونيا واضحا منذ أن وُضعت قبل أكثر من خمسين سنة. وتعزّزت بفضل البروتوكـولين الإضـافيين إلـى اتفاقيـات جنيـف لعـام 1977، والنظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية لعام 1998، والبروتوكـول الإضـافي الـذي ألحـق بالاتفاقيـة ذاتها عام 1999.

يشتمل البروتوكـول الاول لعـام 1954 علـى أحكـام تفصـيلية حـول منـع تصـدير الممتلكـات الثقافيـة مـن الاراضي الواقعة تحت الاحتلال، وحول حراسـة وعودة أي ممتلكـات ثقافيـة تـم تصـديرها. وعـلاوة علـى ذلـك، ينص البروتوكول الاول على عودة الممتلكات الثقافيـة التي تـم ايداعها لـدى دول اخـرى لحمايتهـا مـن اخطـار نزاع مسلح.

ان عدم تضمين هذه الاحكام في الاتفاقية يرجع الى عدم رغبـة كثيـر مـن الـدول الالتـزام بمحتـوى الاحكـام الواردة اعلاه. وهناك 3 تعهدات اساسية مفروضـة علـى اطـراف الاتفاقيـة. تتعهـد الـدول الاطـراف للبروتوكـول الاول بمنع تصدير الممتلكات الثقافية من الاراضي التي احتلتها.

وإذا تم نقل هذه الممتلكات من الاراضي الواقعة تحت الاحتلال الى اراضي دولة طرف اخرى، تتعهد هذه الدولة بحراسة هذه الممتلكات وفقاً للمادة الاولى (الفقرة1 أو الفقرة2). وعند انتهاء العمليات الحربية تتعهد الدول الاطراف بتسليم الممتلكات الثقافية التي كانت قد استوردت اليها بما يخالف البروتوكول (المادة الاولى الفقرة الثالثة).

ويكشف تطور ممارسات الدول منذ عام 1954 عن اربعة مجالات اساسية ثبت خلالها ان حماية الممتلكات الثقافية بموجب اتفاقية لاهاي لعام 1954 أمر غير كافٍ. فقد تحدت حرب الخليج الثانية والنزاعات المسلحة في يوغوسلافيا السابقة والحرب الاميركية - البريطانية على العراق فاعلية نظام اتفاقية لاهاي لعام 1954، لجهة التدمير الكبير الذي لحق بالاثار والممتلكات الثقافية والتي أصبحت هدفاً مباشراً للهجمات. وهناك نقطة أخرى تتسم باهمية كبيرة وهي عدم معاقبة مرتكبي تلك الهجمات. وتعتبر المجالات الاكثر تحدياً هي :

أ- كفاءة الحماية القانونية للمواقع الثقافية.

ب- مفهوم الضرورة العسكرية وصعوبة التأكد منها أو تبريرها من قبل الاطراف المتنازعة.

ج- وأخيراً قضية حماية الممتلكات الثقافية في النزاعات المسلحة غير الدولية.

ولقد ادت هذه النواقص الى تبني المؤتمر الدبلوماسي الذي عقد في لاهاي بين 15-26 اذار 1999، البروتوكول الثاني لاتفاقية لاهاي لعام 1954 لحماية الممتلكات الثقافية .(5)

<u>الفرع الثاني</u> - شريط بالانتهاكات للإرث الثقافي في العراق، لبنان وسوريا.

ترى الباحثة السورية بغداد عبد المنعم أن الحرب في أحد جوانبها جدل بين القوة العسكرية والمعرفة، وأن الحرب الأهلية الملازمة لفترات الانعطاف في التاريخ هي أكثر خطورة على التراث المخطوط وإن كانت كل أشكال الحروب تعرض المخطوطات لخطر الإغراق أو الحرق، مثلا قضت الحملات الصليبية ما بين (1096-1291) على عشرات الألوف من المخطوطات في مجالات العلوم والفلسفة والأدب والتي كانت في خزائن القدس ودمشق وحلب وطرابلس، وحين اجتاح المغول بغداد عام 1258 أغرقوا مخطوطاتها في نهر دجلة، وبعد سقوط الأندلس عام 1492 جرى "إحراق مليون مخطوطة عربية وغير عربية من خزائن قرطبة وغرناطة" أمام الملكين فرديناند الثاني وإيزابيلا، وتقول إن مشهد إحراق المخطوطات بدا لفرديناند الثاني وإيزابيلا "وكأنه جيش إزاء جيشهم فتعاملوا معه بطريقة عسكرية تماما" وكان من يضبط محتفظا بالمخطوطات العربية يتعرض للمحاكمة.(6)

<u>أولا: العدوان الاسرائيلي على الارث الثقافي في لبنان:</u>

قامت اسرائيل خلال عدوانها واحتلالها للبنان منذ 1978 ولغاية 2000 بالانتهاكات التالية والمتعلقة فقط باللارث الثقافي.

- نهب منظم لاثار صور التاريخية وخاصة موقع الملك احيرام

- نهب بعض الاثار المتعلقة ب6 قطع حجر منقوش من غرفة ما قبل التاريخ في المتحف الوطني ، وكذلك بعض المقتنيات الاثرية من قصر بيت الدين .

- سرقة مدافع تاريخية كانت تزنر نوافذ قلعة صيدا البرية وتعود لعصور الرومان والصليبيين والعرب، كما اقدمت على سرقة التماثيل والاعمدة الفينيقية وحطمت بعضها.

- سرقة الزوارق الحربية الفينيقية وبعض المدافع والتماثيل التي تعود للعصر الصليبي من القلعة البحرية في صيدا.

- تم سرقة هيكل اشمون(الـه صيدا القديمـة) ويعود للقرن الخامس قبل الميلاد، وايضا هيكل صيدون ومعبد مار الياس الذي كان معبدا لعبدة الشمس .

- كما نهبت مكتشفات محلة شرحبيل بن حسنة في صيدا ومحتويات مغارة في بلدة الهلالية الاثرية والتي تحتوي على نواويس برونزية تحمل صور لملكة فينيقيا ويعود تاريخها للحقبة الفينيقية، بالاضافة الى نهب لفخاريات ونـواويس مـن بلـدة الحنيـة، تعـود للعصـر الامـوي والعثماني .

وفـي قـرى منطقـة صـور سـرقت اسـرائيل تماثيـل رخامية لالهة من عصر الملك احيرام وعلى تمثال ذهبي لاحد ابنائه ،وعلى كنوز من الاواني الخزفية والنحاسية اضافة الى 3 نواويس رخامية

ومـن قانـا سرقت اسرائيل مقتنيات نـواويس تعود الى اواخر العهد الروماني، بالاضافة نـواويس فينيقيـة ، واجرانا وتماثيل تعود الى عصور البيزنطيين والامويين والعباسيين.

كمـا حطمـت عـام 1984 بعـض مـن اثـار صـور والاستيلاء على قطع من الاوانـي الخزفيـة عائـدة لعصر الرومان واليونان كما قامت بجرف بعض المعالم الاثرية بحجة اقامة تحصينات دفاعية لجنودها

كما استولت من منطقة جب ملكي غرب عين عطا، ومن قصر عين حرشي على مجوهرات واثـار تعود الى العهـد الرومـانـي ، بالاضـافة الـى تماثيـل لملـوك والهـة ومجسمات لحيوانـات مفترسـة مصنوعة مـن الالمـاس والفيروز.[7]

ثانيا : انتهاكات الولايات المتحدة وحلفائها في العراق

خـلال العـدوان والاحـتلال الاميركـي للعـراق عـام 2003 ومـا بعـده قامـت القـوات الاميركيـة والمتحالفـة معهـا بتحطـيم تمثـال حمـورابي واضـع اول شـريعة متكاملة، وتمثـال كوديـا اول مهندس معمـاري معروف، كما نهبت كنوز سبعة الاف سنة ودمرت ، 80 الف من الالـواح المسـامرية سـرقت ومعظمهـا لـم يتـرجم بعـد، وفقـدت تماثيـل مـن مدينـة الحضـر فـي شـمال العـراق والتـي ادرجت علـى لائحـة التـراث العـالمي، احرقت كل الاحكـام الاسـلامية منـذ القـرن 16، كمـا احرقـت مكتبـة القـرآن الكـريم، والمكتبـة الوطنيـة، ونهبـت الكنـوز المودعة في المصرف المركزي.

لا يـزال مصـير 40 الـف مخطوطـة قديمـة ومنمنمات تعود الى القرون الاولى للاسلام مجهولا وقد نهبت من دار صدام في حي حيفا .

اما مدينة بابل الاثرية وغيرها من المنـاطق الاثريـة في العراق فكانت مسرحا لنهب منظم وبشكل محترف.

امـا المتحـف فـي بغـداد والمكتبـة الوطنيـة فكانـت شاهدتين على غزو همجي وتحطيم ل 5000 سنة من الحضارة .

امـا الاثـار الاشـورية فـي القصـر الملكـي فـي خرس اباد، فقد الكثير منها وايضا الاقراط الذهبيـة التي دفنت مع الاميرات السومارية منذ (4500) سنة، كمـا تحطم حجر اثري عمره اكثر من 40 الف سنة.[8]

ثالثـا: تـدمير "داعـش" لـلارث الثقـافي فـي العـراق وسوريا

وايضا في العراق تم القضاء على جداريات ضخمة ثلاثية الأبعاد. وعلى الثيران المجنحـة، كشخصيات من الميثولوجيـا، وهـي بمثابـة وجـه إنسـان وجسـد ثـور وأجنحة طـائر، وكانـت مهمتها حمايـة القصـور ومداخل المعابد وهو ما اشتهرت به الحضارة الآشورية.

خسر العالم قسماً مهماً من تـاريخ البشرية بمحو داعش حضـارة من أساسها، بعد جرف مدينـة نمرود، وتفريغهـا مـن شـعوبها الأصـليين. إنهـا خسـارة

للآشوريين، ونهايتهم، لأنهم يربطون جذورهم بهذه الحضارة..

لقد نفذ التنظيم الارهابي إبادة ثقافية،، فيما خسر العالم إرثاً ثقافيا.

والخاسر الأكبر هم الآشوريون كمجموعة والعراق كدولة والبشرية جمعاء لان تلك الحضارة هي ملك الانسانية جمعاء.[9]

ومن جهة اخرى وصف استاذ علم الاثار "هيلغا سيدن" ما جرى في سوريا بان "هذه الخسارة توضع في نفس السياق مع تفجيرات تاج محل او تدمير مبنى الاكروبول في اثينا، انها كارثة من حيث التراث، وهذا اسوأ ما رأيته يحصل في سوريا"، ومع ان منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو) قد ادرجت مجموعة من المواقع الاثرية السورية ضمن قائمة المواقع المهددة، الا ان التحرك الدولي بهدف منع تدمير الاثار او حمايتها او منعها من السرقة، او ضمان عدم استخدامها كجزء من المعارك او المواقع المستهدفة في الصراع، ما زال ضعيفا للغاية، فيما تم تدمير العديد من المواقع ذات الاهمية الكبرى (اسواق حلب القديمة، قلعة الحصن، تدمر)، اضافة الى تعرض العشرات من المدن الاثرية او التي تحتوي على اثار الى القصف او الاشتباكات العسكرية العنيفة في سوريا فقد طالت الحرب المستمرة منذ اربع سنوات نحو 300 موقع اثري دمر بعضها ولحقت اضرار ببعضها الاخر في كارثة ثقافية انسانية لا تعوض، وتعتبر سوريا التي مرت عليها حضارات مختلفة من الكنعانيين الى العثمانيين اقامت في مدنها التي تعتبر بين الاقدم في العالم، متحفا مفتوحا لما تحويه من اثار تعود الى حقبات الرومان والبيزنطيين والمماليك وغيرها، اضافة الى عشرات الكنائس والمساجد والقصور التاريخية، وقد تعرضت مدينة حلب التي يعود تاريخ السكن فيها الى سبعة الاف سنة ودمشق وقلعة الحصن والرقة وتدمر الى اضرار كبيرة .كما تعرضت 18 منطقة في سوريا ، فيها 290 موقعا اثريا مختلفا، الى اضرار التالية ، اذ تعرض 24 منها للتدمير و104 لاضرار جسيمة و85 لاضرار متوسطة و77 لاضرار مختلفة.

وقال مدير برنامج "يونوسات" اينار بيوجر "انه امر محزن بالنسبة الى سوريا وبالنسبة الى العالم، الانسانية تخسر الاف السنين من ارثها، ومن بين اكثر المواقع رمزية، والمدرجة على لائحة التراث العالمي لمنظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (يونيسكو)، المدن القديمة في حلب وبصرى الشام (جنوب) دمشق، وتظهر الصور الصادمة بشكل واضح الاضرار التي لحقت بأربعة من هذه المواقع، ففي حلب، دمرت المئذنة السلجوقية للجامع الاموي الكبير الذي يعود تاريخ بنائه الى القرن الحادي عشر، كما دمرت قلعة حلب التاريخية.[10]

ودمر تنظيم الدولة الاسلامية في الحسكة (شمال شرق) تماثيل اشورية، بحسب علي، كما ان اثار الصالحية المعروفة باسم دورا اوروبوس قرب دير الزور في شرق البلاد "لم يعد بالامكان التعرف عليها بسبب اعمال النهب فيها"، وفقا للمعهد اذ سرقت منها تماثيل وادوات من الفخار واحجار بيزنطية

- تعرضت ايضا مدينة افاميا التاريخية في وسط سوريا للنهب، وقد جرى حفر نحو 14 الف موقع فيها بشكل عشوائي، علما ان 18 قطعة فسيفساء تعود الى هذه المدينة عثر عليها في لبنان، وقد طالت اعمال الحفر العشوائية هذه كذلك مملكة ماري (تل الحريري) في جنوب شرق سوريا، ودمرت في قلعة الحصن قرب حمص بعض الاسقف والواجهات بعدما تحولت هذه القلعة الى معقل عسكري، ما جعلها هدفا للقصف ،وجرى في موازاة ذلك حفر انفاق في.موقع ابلا (شمال غرب)، احد اقدم الممالك في سوريا.

<u>الفرع الثالث:</u> مسؤولية القادة والافراد عن انتهاكات القانون الدولي الانساني لجهة الاضرار بالإرث الثقافي.

إن التطور الذي حصل بالقانون الدولي الانساني نتج عنه اقامة المحكمة الجنائية الدولية والتي اصبحت نافذة منذ تموز 2002، والتي عقدت العزم على وضع حد لافلات مرتكبي أشد الجرائم خطورة من العقاب وبالتالي في منع هذه الجرائم.

علماً انه من الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة والمتعلقة بموضوعنا هي :

<u>-جرائم الحرب.</u>

وحيث ان تعمد توجيه هجمات ضد التراث تعتبر من جرائم الحرب وفقاً لما جاء بالمادة الثامنة الفقرة 4 و 9 من النظام الاساسي للمحكمة الجنائية الدولية فأن مرتكبها وبغض النظر عن الوظيفة التي يشغلها، يتعرض للمساءلة القانونية الدولية.

اما الدول التي تنتهك اتفاقيات الارث الثقافي فعليها اما اعادة المسروقات الى موطنها الاصلي ، او دفع التعويض المناسب . مع انه لا شيء يمكن ان يعوض تلك الخسارة والمتمثلة بابعادها الحضارية والتاريخية والمعنوية، والتي تعتبر ليست فقط خسارة وطنية بل للانسانية جمعاء.

<u>الهوامش:</u>

---

(1) دراسات في القانون الدولي الانساني، القاهرة، 2000، صفحة 24

(2) انظر: كمال حماد، النزاع المسلح والقانون الدولي العام، مجد، بيروت 1998، ص 19

(3) المرجع السابق

(4) انظر: اتفاقية لاهاي لعام 1954 ، لحماية الممتلكات الثقافية،

(5) د.هايك سبيكر، حماية الاعيان الثقافية ..، دراسات في القانون الدولي الانساني، القاهرة، 2000، صفحة 214-217

(6) السورية نتAlsouria.net | انظر بغداد عبد المنعم تاريخ الدخول 15 كانون الثاني 2020

(7) انظر كمال حماد ،الممتلكات الثقافية في لبنان بين العدوان الاسرائيلي واحكام القانون الدولي، صادر عن الحركة الثقافية في لبنان ، بيروت 2000، ص6-14

(8) تدمير الأعيان الثقافية أو احتلال التاريخ - مجلة الإنساني | مجلة. انظر ايضا › blogs.icrc.org .. alinsani › 2019/04/06

(9) انظر ايضا محاضرة الدكتور كمال حماد في مؤتمر القانون الدولي الانساني الذي اعدته جامعة الجنان في بيروت عام 2017

(10) العالم يخسر في الحرب السورية إرثا عمره الاف السنين http://www.naharnet.com/stories/ar/160291 - 2014/12/

الجذور التاريخية
ومكانة اللّغة العربية من الهويّة القوميّة
في الوطن العربي

الأستاذ الدكتور صالح زهر الدين
أستاذ التاريخ – كلية العلوم التوحيدية في عبيه / لبنان

- ليس من المستغرب أن تتعدّد الآراء وتتشعّب بشأن اللغة العربية ومكانتها من الهوية القومية... إذ من الطبيعي أن تعدّد الآراء واختلافها في هذه المسألة هو بحدّ ذاته نتيجة، ولكل نتيجة سبب أو مجموعة أسباب، منها ما هو ذاتي شخصاني، أو ما هو موضوعي، أو الإثنين معاً...
- ولكن، مهما يكن من أمر، ولولا أهمية المكانة التي تحتلها اللغة في حياة الشعوب والأمم، لما كانت هذه الإشكالية بشأنها.
- على هذا الأساس، يجدر بنا كأبناء هذه الأمة، وأبناء هذه اللغة (لغة الضاد)، أن نشير إلى تاريخية وحضارية هذه الأهمية، وإلى هذه الإشكالية، في ضوء الموقع الذي تشغله اللغة العربية إزاء الهوية القومية، وآراء كبار مفكرينا في هذا الموضوع، وذلك عبر النقاط التالية:

أولاً: التأكيد على نقطة جوهرية مفادها أن لغتنا العربية هي جزء من هويتنا القومية، ذلك لأن اللغة هي قوام الأمة، وقوام كيانيتها التاريخية والحضاريّة والقوميّة... وليست أداة تخاطب إجتماعي فحسب، ولا مستودع أفكار ورموز وقيم جمالية فحسب، بل إنها – فوق ذلك – المستقبل... والحقيقة أن مَنْ لا لغة له، أو من أضاعها في لجّة الإستلاب وأودعها في المتحف، يصنع الآخرون مستقبله... والمستقبل العربي لا يُبنى إلا بلسان أبناء العرب ولغتهم، وليس بلسان الآخرين، حيث أن اللغة هي المستقبل نفسه...

ثانياً: أثبتت اللغة العربية في أكثر عهود تاريخها أنها «مُسْتَهْدَفَة» دائماً، (كقطب من محور، وجزء من كُلّ) لا سيّما في مراحل الغزو والإحتلال والإستعمار، وتعرّضت إلى محاولات «المحو» و«الإذابة» باعتبارها معياراً أساسياً لتحديد الذات والهوية القومية... ولعلّ في المطالبات الدائمة بضرورة تعميم استخدام اللغة العربية ما هو إلا وجه من وجوه التحرر الوطني، والتخلّص من الرواسب الاستعمارية الباقية في عقليات بعض العناصر المشكوك في انتمائها الوطني... وهكذا تبدو اللغة، في الواقع، مطلباً شعبياً...

ثالثاً: من هذا المنطلق يتوضّح أن اللغة هي أهم وأخطر بكثير من أن تكون مجرّد أصوات وأدوات للتفاهم أو وسيلة تبليغ عن فكرة معينة. فهي على مستوى الماضي، الذاكرة الجماعية للأمة المحافظة على خلاصة تجربتها في التاريخ، وحصيلة ما أسّست لنفسها من أساليب النظر والفكر والتقويم والإكتشاف. وهي على مستوى

الحاضر خير معبّر عن الهوية القومية للأمة، وما انتهت إليه من درجات النضج والنموّ...

رابعاً: التأكيد على أننا كعرب ومثقفين من هذه الأمة، لسنا ضدّ اللغات الأجنبية، بل ضد إذابة لغتنا العربية ومحوها لحساب اللغات الأخرى، بمعنى إبعادها عن الموقع الطبيعي والأساسي لها كلغة قومية، لأنّها جزء من الشخصية الوطنية... وهنا يبرز الخطر الكامن في عملية «غزو العقول»، الأشدّ فتكاً مرات عدّة من «الغزو العسكري»... ذلك لأنّ اللغة القومية هي جزء من السيادة، وان التنازل عنها هو تنازل عن السيادة نفسها...

خامساً: الإشارة إلى أبرز العلماء والمفكرين والمؤرّخين واللغويّين الذين أولوا موضوع اللغة العربية الأهمية التي تستحق بدءاً من الرسول الكريم (ص) مروراً بـ ابن خلدون وجمال الدين الأفغاني وعبد العزيز الثعالبي ومحمد جميل بيهم، وصالح أحمد العلي وساطع الحصري ومحمد محمد حسين وأحمد محمد الضبيب... وغيرهم.

سادساً: محاولات الدول الاستعمارية ووزارات مستعمراتها وخارجياتها وأجهزة مخابراتها وشركاتها (ذات الطابع الإستعماري)، تأسيس مدارس ومعاهد وكراسي في جامعاتها ومؤسساتها (ذات الطابع الأكاديمي)، وإرسال البعثات الإرسالية والاستشراقية.... والهدف منها يتمحور حول إفساد وتخريب وتشويه اللغة العربية والحطّ من قيمتها بهدف القضاء عليها كلغة موحِّدة وموحَّدة... بكل ما تحمله هذه المحاولات من إساءة للقرآن الكريم والأمة العربية جمعاء. فضلاً عن الدور الخطير الذي قام به الاستشراق السياسي والعسكري في المنطقة كعيون وآذان للاستعمار فيها...

سابعاً: الإشارة إلى أننا نحن العرب والمسلمون مقصّرون أيضاً إزاء لغتنا والدرع الحصين لها المتمثّل بالقرآن، باعتبار أن هذا الكتاب يخاطب العالم بأسره، متخطياً الزمان والمكان، ويمكن أن يستفيد منه كل الآدميين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم، لا سيّما أولئك الذين يريدون التخصص في اللغة العربية وآدابها... وهنا نتساءل: لماذا لا تدرّس جامعاتنا مادة إسمها «القرآن» باعتباره الأصل والأساس والمرجع في ذلك؟ مع العلم أن القرآن كان الدرع الحصين للغتنا في وجه المحاولات الإستعمارية المتعددة للقضاء على «العربية»، وكان حافظاً لها من النسيان والضياع، بفضل إعجازه الذي لا يضاهيه أي إبداع آخر.

ثامناً: هذا، وبالمقارنة مع ما يجري حالياً في الوطن العربي من ثورات وانتفاضات، وبمعزل عن التسميات المختلفة لهذه الثورات (وأكثرها تسمّى «الربيع العربي») التي هي «عربية»، ولا شك، في مادتها البشرية ولغتها وشعاراتها ومطالبها وآمالها، فقد أكدت بروز «الهوية العربية العابرة للحدود» بين البلدان العربية (تونس ومصر واليمن وليبيا وسوريا والبحرين والأردن والمغرب...)، ومؤكدة في الوقت نفسه أن الهوية العربية هذه تعيد تشكيل السياسات بعد انتصار الثورة، فضلاً عن أن التضامن العربي المفقود على مستوى الأنظمة بدا قوياً على مستوى الشعوب... إضافة إلى أن الهوية العربية في إطار الديمقراطية تفرض نفسها وتفرض التحوّل السياسي في العلاقات الخارجية. ولا شيء ينقذ العالم العربي ويقدّم الدعم للإنتفاضات في كل بلد سوى إعادة الإعتبار إلى العروبة كهوية حضارية جامعة، وروحها اللّغة العربية نفسها...

تاسعاً: خلاصة عامة: الضرورة ماسة رسمياً وشعبياً على جعل اللغة العربية لغة الوحدة الوطنية، ولغة البناء الحضاري، ولغة التحرّر والبناء الذاتي في الوطن العربي... وجعلها سيّدة في بلاد العرب، وإعطاء الفرصة لهذه اللغة الوطنية والقومية حتى تقوم بدورها الطبيعي...

باعتبار أن عدم التصدّي لمحاولات النيل من لغتنا القومية الأم، واعتبارها معركة مصيرية، هو بحدّ ذاته مشاركة في وأد اللغة العربية عبر مسخها ومسحها من الوجود... وعبر ذلك نكون قد قدّمنا خدمة هائلة لأعدائنا الذين عملوا ولا زالوا يعملون للقضاء على لغتنا وروح قوميتنا وعروبتنا الأصيلة...

يجمع الكثيرون من المفكرين واللغويين على ريادة المكانة التي تحتلها «اللغة» في حياة الشعوب والأوطان، وكذلك الدور الذي تلعبه في المسيرة البشرية نحو العلم والتقدم والحضارة.

على هذا الأساس، تعتبر عملية «غزو العقول» أشد فتكاً وأخطر مرات عدّة، من «الغزو العسكري» المسلح بأحدث آلات الفتك والتدمير المتطورة. ولم ينجُ العرب أنفسهم من مختلف حالات «الغزو»، القديمة منها والحديثة، كما لم تكن لغتهم بمعزل عن هذا الاتجاه، وإنما كانت هدفاً مركزياً على جدول الغزاة.

ومن الطبيعي، أنه «لا يوجد رجل كالجزيرة، قائم بذاته، كل رجل هو جزء من القارة، جزء من الأصل» على حد تعبير «دون» الشهير. وفي اللحظة التي نولد فيها يتناولنا العالم ويحولنا من مجرد وحدات بيولوجية إلى وحدات اجتماعية. إن كل كائن بشري في كل مرحلة من مراحل التاريخ أو ما قبل التاريخ قد ولد في مجتمع أخذ في قولبته منذ سنواته المبكرة. وأن اللغة التي ينطق بها ليست إرثاً فردياً، وإنما هي اكتساب اجتماعي من الجماعة التي يترعرع بينها. فاللغة والبيئة كلاهما يساعدان في تحديد ماهية فكره، أما أفكاره المبكرة فتأتيه من الآخرين[1].

في ضوء ذلك، ليس من المستغرب أن تتعرض لغة شعب من الشعوب في مرحلة الغزو والاحتلال إلى محاولات «الإذابة» و«المحو» باعتبارها معياراً أساسياً لتحديد الذات والهوية القومية. فهي شريان الأمة، وأقنوم الحضارة، وقبلة الفخر والولاء - كما يقول جمال الدين الأفغاني - ولو أضاعت أمّة لسانها، لفقدت بالطبع تاريخها وحضارتها.[2] وعلى أساس ذلك يقول «همبولت Humboldt» بأن «لسان أمة هو جزء من عقليتها، وأن لغة شعب ما هي إلا روحه، كما أن روح الشعب هي لغته»[3]. وأي كائن يفقد روحه، فإنه يفقد بالتالي حياته.

«فاللغة هي مستودع تراث الأمم»[4]، وقلّما تعرضت لغة أمة من أمم الأرض إلى ما تعرّضت إليه اللّغة العربية وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب والأبعاد الكامنة وراء ذلك.

لقد بيّن الرسول العربي، زارع أول بذرة قومية، منزلة اللّغة من القومية، عندما ناشد قومه قائلاً: «أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللّسان، فمن يتكلم بالعربية فهو عربي»[5].

ولأن اللّغة من أقوى عوامل الوحدة والتضامن بين أبناء الأمة الواحدة، فهي القادرة في كل أحوالها على تحويل الإنسان إلى كائن اجتماعي يتحسس الواقع، ويستشرف الخصائص المميّزة التي تكمن في كل إشارة من إشاراتها ودلالة من دلالاتها... وهي بالتالي تجعل من الأمّة الناطقة بها كلاً متماسكاً ومتراصاً تحكمه قواعدها وأصولها، وتوحّد تفكيرهم أساليبها وطرائقها. ومن هنا أصبحت اللّغة بمثابة الرابطة الحقيقية التي توحد بين رغبات أفراد الأمّة ومطامحهم، وتعيش في أذهانهم فكراً وأملاً وحياة.. وقد وجد فيها العرب منذ أقدم العصور، صفة الملازمة للفرد في حياته وتسربها إلى أعماقه حساً ووجداناً وتوغلها في تضاعيف نفسه لتعبر عن أدق خطراته ورغباته[6].

وفي هذا الإطار، كتب الدكتور صالح أحمد العلي (رئيس المجمع العلمي العراقي)،

مؤكداً بأن «اللغة أداة التفاهم واكتساب المعرفة وإنماء الفكر. وهي بوجهتها السليمة أمتن رابط يشدّ الأفراد ويكوّن من مجموعهم أمة متميزة قادرة على البقاء والنمو. وللعربية مكانة متميزة بين لغات الأمم، لا لأنها من أقدم اللغات الحية فقط، وإنما لأن تكوينها وخصائصها يسّرا لها القدرة على التعبير عن مختلف الأشياء المادية وأدق الأفكار المجردة. ويكفيها فخراً أن القرآن الكريم نزل بها، وأكد أن من معجزاته أنه بلسان عربي مبين، وكان - وهو كتاب الله المنزل، والمعين الصافي السليم - المرجع المعتمد للغة، والأداة المكينة في نشرها بين الشعوب الكثيرة التي آمنت بالإسلام واتخذته معتقداً وموجهاً للحياة...» ويضيف د. العلي قائلاً بأن «اللغة العربية هي أبرز ما يتميز به العرب، وأقوى رابط يشدّهم إلى تاريخهم القديم ويظهر استمراريتهم وبقاءهم ويجمعهم اليوم بالرغم مما بينهم من اختلافات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية...»[7].

وعندما أكد المفكر والمؤرخ محمد جميل بيهم بأن «اللغة القومية الأم هي الأساس الرئيس لوحدة الأمة»[8]، فقد كانت اللغة العربية ليست مجرد رموز ولا مجرد أداة للتفاهم، ولكنها صورة تاريخنا ووعاء تراثنا ومرسم حضارتنا أيضاً - حسب تعبير د. مازن المبارك[9] -. وفوق ذلك كله، فهي لغة الملايين من المتحدثين بها في الوطن العربي أو الناطقين بها في العالم الإسلامي وبعض أرجاء المعمورة الأخرى. وهي لغة موغلة في القدم لا يعرف أحد نشأتها الأولى... وقد جاء عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) أن «أول من كتب بالعربية إسماعيل»... وكتاب الله أصدق كتاب في تصوير اللغة العربية، فقد نزل بلسان عربي مبين على أمّة فصيحة بليغة فبهرها وجعل بعض من لم يهدهم الله يفرّون منه لئلّا يقع في الآذان والقلوب موقعاً حسناً فيدفعهم إلى اعتناق الرسالة الخالدة والسير في سبيل الهداية والنور. ويمثل كتاب الله أرفع كلام عربي وأسماه. وروعة القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته وأسلوبه تدلّ على أن العربية قديمة... وهو يحمل سمات الأصالة ويتحدى الزمان. فالعربية لغة متواصلة، وهذا التواصل من أهمّ خصائصها. وقد شهد العالم لغات كثيرة وعرف لها أدباً وعلماً ولكنها أصبحت تاريخاً يذكر بعد أن بادت أممها، وظلّت العربيّة تواصل سيرها ومعها الأمّة العربية وهي تبني حضارة وتنقل العالم من الظلمات إلى النور[10].

هذا، وقد أكد المفكر العربي الكبير ساطع الحصري «أن كل أمة من الأمم تحتاج إلى لغة «موحدة» تزيدها تجاوباً وتماسكاً وتكون «موحَدة»»[11]. كما ركز في تحديده لمقومات القومية العربية على الأساس الموضوعي الذي «هو في نهاية الأمر، وقبل كل شيء، اللغة»[12]. ويضيف الحصري قائلاً: «...كل من ينتسب إلى البلاد العربية، ويتكلم اللغة العربية، هو عربي، مهما كان إسم الدولة التي يحمل جنسيتها بصورة رسمية. ومهما كانت الديانة التي يدين بها، والمذهب الذي ينتمي إليه، ومهما كان أصله ونسبه وتاريخ حياة أسرته... فهو عربي، والعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية. ولا مختصة بالمسلمين وحدهم، بل إنها تشمل كل من ينتسب إلى البلاد العربية، ويتكلم باللغة العربية، سواء كان مصرياً أو كويتياً، أو مراكشياً، وسواء كان مسلماً أو مسيحياً، وسواء كان سنياً أو جعفرياً «شيعياً» أو درزياً. وسواء كان كاثوليكياً أو أرثوذكسياً أو بروتستانتياً، فهو من أبناء العروبة ما دام ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم العربية»[13].

وهل هناك لغة موحَّدة وموحِّدة في الوقت ذاته أكثر من اللغة العربية؟ طبعاً لا. ألمْ يقل الشاعر العربي في معرض ذلك:

إن فرّق الإيمان بين جموعنا

فلساننا العربي خير موحِّد

ألم يتساءل أيضاً محمد محمد حسين في هذا الإطار قائلاً: «إذا لم يكن الدين أعظم جامعة لسكان الأقطار العربية، فأية جامعة هناك تقام مقامه؟ أي قوة تستطيع أن تضم هذه الأقطار، وتؤلف في كل منها وحدة قومية؟ ويجيب: هناك قوة واحدة تستطيع ذلك، هي اللغة»[14].

فاللغة العربية إذن هي لغة موحَّدة وموحِّدة، ولأنها كذلك، فقد عرفت ما عرفته على مرّ تاريخها من هجمات ومحاولات متواصلة ومستمرة للنيل منها والقضاء عليها. ولعلّ خير دليل على ذلك هو قدميّتها بين لغات العالم من جهة، وتواصلها الذي يعتبر من أهم خصائصها من جهة ثانية، وهاتان السمتان (القدمية والتواصل) دعامتان أساسيتان يضيفان عليها صفة الخلود بين لغات الأرض نظراً لارتباطها بالقرآن الكريم. وقد أثبتت على مرّ الزمن جدارتها بهذه الصفة. ومن هذا المنطلق كتب د. أحمد محمد الضبيب (الأستاذ في جامعة الرياض والأمين العام لمؤسسة الملك فيصل) يقول: «... وعندما نزل القرآن الكريم باللغة الفصحى ازدادت اللغة العربية رسوخاً في أذهان الناس واحتراماً في نفوسهم، فعاشت بين العرب والمسلمين تتردد في مختلف العصور والبيئات، لغة للثقافة والعلم والأدب، وسفيراً بين الأجيال يربط حاضرها بماضيها، ووسيلة رائعة من وسائل الإتصال بين العرب في مختلف بيئاتهم وأماكنهم، حيث يتكلم كل منهم لهجته المحلية. وقد أدّت الفصحى وظيفتها على أحسن وجه، فكانت ظاهرة فذّة بين اللّغات في قدرتها على الاستمرار واحتفاظ الناس بها، وفهمهم لها في مختلف البيئات والعصور. وما ذلك إلا لأنها ارتبطت بالقرآن الكريم فخلدت بخلوده. ولولاه لانحلت عراها وذابت في لهجاتها المحلية، كما حدث للغات أخرى مماثلة»[15].

وانطلاقاً من كون اللغة العربية، لغة موحَّدة وموحِّدة، فقد كانت - ولا تزال - عرضة لكل أساليب الحروب التي عرفتها البشرية على مر تاريخها، وكل ما تميزت به الحروب من فنون وخطط وخداع، كان للأمة العربية نصيب وافر منها، ولم تكن لغة هذه الأمّة إلا أحد أهم الأهداف التي وضعت على رأس الأولويات في استراتيجيات الشعوبيين القدامى والجدد. وكان الهدف تقويض الكيان العربي بالنيل من لغته أولاً والقضاء على وحدته المتمثلة في هذه اللغة. وقد خاب أملهم وبقيت اللغة العربية الفصيحة لغة الكتابة الأدبية المشتركة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تبع ذلك موجة «الصليبية» القادمة من أقاصي الغرب لتعلم الشرقيين - والعرب منهم في الصميم - أن «الإنجيل المقدس» هو الكتاب الأوحد لأمم الأرض قاطبة، وليس للقرآن الكريم ولغته العربية مكان في هذا القاموس الوجودي.

ثم كانت موجة «التتريك» العثمانية، والتي تلطّت بلباس إسلامي، مع أن العرب (ولغتهم وحضارتهم) كانوا من كبار ضحاياها، وكانت اللّغة التركية هي لغة التدريس في بلاد الشام، وكانت اللّغة العربية نفسها تدرس باللغة التركية، وكتب نحوها وصرفها تؤلف باللّغة التركية.. ولهذا نرى عبد الرحمن الكواكبي في صيحته القومية، ودعوته إلى الوحدة الوطنية، يتجاوز أستاذه الأفغاني، ويناشد العرب في انتزاع السلطة من الأتراك، وإعطاء الخلافة إلى قرشي، يعرف اللّغة العربية وعلومها[16]، وذلك لأن «لغة قريش كانت أفصح اللّغات العربية وأصرحها» على حد قول العلامة ابن خلدون[17]، وبها نزل القرآن الكريم.

وعندما هزم العثمانيون-التتريكيون في نهاية الحرب العالمية الأولى، شهدت المنطقة العربية موجه استعمارية حديثة كمقدمة للـ«صهينة» وإلحاق البلاد العربية بإمبراطوريات الإغريق والرومان.

وقد وجد أعداء العرب والعروبة أن تغذية اللهجات العامية وحقنها بالمورفين الاستعماري تعتبر من أنجح الأساليب لإحداث الخلل والاهتزاز في بنيان اللغة العربية والأمة العربية على طريق هدم مداميكها من الأساس من خلال هذه «الأسافين» الفتاكة. ولم يتورّعوا مطلقاً عن استخدامها عبر مدارسهم الاستعمارية، التي أنشئت خصيصاً لدراسة اللّهجات العربية المحلية. وفي جامعاتهم أيضاً، بمساعدة الشرقيين الذين كانوا يتواجدون في هذه الدول الأم، وبالمستشرقين الذين أبلوا بلاء حسناً في هذا المضمار. وبرزت نماذج من هذا الأسلوب في شرقي الجزيرة العربية، والمغرب العربي (وخصوصاً الجزائر) ومصر ولبنان» لندرك بالتالي جدّية الاهتمام الاستعماري في مسخ اللغة العربية وتشويهها.

لم يكن اهتمام الدول الاستعمارية باللّهجات العربية العامية من أجل البحث العلمي كما كانت تدّعي، ولا في سبيل إغناء اللغة العربية وتقويتها، ولا من أجل حاجتها إلى المعرفة، بل كان ذلك من أجل هدف مركزي يتمحور حول القضاء على العربية الفصيحة وإحلال العامية محلها ليتسنى لها التفاهم بها في مستعمراتها واستغلالها في التجسّس والاتصال بعامّة الشعب. ولكي تتخذ هذه الناحية الصفة والأكاديمية»، فقد عمدت الدول الاستعمارية إلى تأسيس المدارس والمعاهد الخاصة بتدريس اللّهجات العربية المحلية فيها.

- ففي إيطاليا مثلاً درست العامية في مدرسة نابولي للدروس الشرقية التي أنشئت سنة 1727.
- وفي النمسا أنشئت مدرسة القناصل في فيينا سنة 1754 لأنها كانت تعلم القناصل لغات الشرق، ومنها العربية، مهتمة بلهجاتها العامية. ثم أسّست سنة 1851 مدرسة للهجات الشرقية. وهكذا يبدو بأنها عملية تجهيز للكوادر المؤهلة بتأدية دور مهم على هذا الصعيد.
- وفي فرنسا درست اللهجات العربية العامة في مدرسة باريس للغات الشرقية الحية التي أنشئت سنة 1759.
- وفي روسيا أنشئت مدرسة لازاروف للّغات الشرقية في مدينة موسكو سنة 1814، وكانت تدرس العربية ولغات الشرق الأخرى. وفي سنة 1909، خصّصت فرعاً لها لتدريس العربية ولهجاتها العامية.
- وفي ألمانيا أنشئ مكتب كبير في برلين لتدريس اللّغات الشرقية ومنها العربية ولهجاتها المحلية.
- وفي المجر أنشئت سنة 1891 الكلية الملكية لعلوم الاقتصاد الشرقية وتدريس اللهجات ومنها العربية.
- وفي بريطانيا أنشأت جامعة لندن في أوائل القرن التاسع عشر فرعاً فيها لتدريس العربية الفصيحة والعامية. وقليل من العرب من لا يعرف عن «لورنس» الجاسوس البريطاني في المنطقة العربية والذي كان يتقن لهجات القبائل العربية إتقاناً جيداً. وهو بالتالي خريج هذه المدرسة البريطانية الاستشراقية وأحد أبرز كوادرها المشهورين.

ونتيجة لهذا الاهتمام الكبير. كان لا بد من نتيجة، وقد توضحت هذه النتيجة في كثرة المؤلفات الخاصة باللّهجات العامية على أيدي خريجي هذه المدارس والجامعات من المستشرقين

الذين لمعت أسماؤهم في سماء بلادهم نتيجة هذه الخدمة الجلّى. وكان من بينها على سبيل المثال:

1- لهجة بغداد العامية، للمستشرق «ماسينيون».
2- لغة بيروت العامية، للمستشرق «أمانويل ماتسون».
3- لغة مراكش العامية وقواعدها ل، «ابن سميل».
4- قواعد العامية الشرقية والمغربية لـ«كوسان دوبرسفال».
5- عامية دمشق لـ«براغستراسر» + «أطلس لهجات سورية وفلسطين» 1915.
6- قواعد العربية العامية في مصر لـ«ولهلم سبيتا» .
7- اللّهجة العربية الحديثة في مصر لـ«كارل فولرس» .
8- العربية المحكية في مصر لـ«سلدن ولمور».
9- المقتضب في عربية مصر لـ«فيلوت وباول»[18].

إزاء هذا الوضع، لم يعد أمامنا سوى العودة التاريخية إلى دراسة اللّهجات عند العرب، وكيف استغلها الاستعمار في النفاذ إلى غاياته وأهدافه الرخيصة.

لقد سجل علماؤنا القدماء، في الواقع، قدراً كبيراً من ظواهر اللّهجات العربية القديمة، وتطرّقوا إليها في بحوثهم اللّغوية، وكانت دراساتهم حولها داخلة ضمن دراسة اللّغة الفصحى، وتحدثنا المصادر أن أقدم المؤلفات العربية التي اختصت اللهجات بالذكر هو مؤلف يونس بن حبيب، واسمه «كتاب اللغات». وتبع هذا الكتاب عدّة كتب بنفس الاسم منسوبة إلى أبي زياد الفراء، وأبي عبيدة معمر بن المثنى، وأبي زيد الأنصاري، وينسب إليه أيضاً كتاب في لغات القرآن.

ومن تلك الكتب أيضاً «كتاب اللغات» للأصمعي، و«اللغات» لابن دريد، و«ما ورد في القرآن من لغات القبائل» لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، و«كتاب اللغات» لابن بري... ونجد ذكراً للهجات في معظم المعاجم العربية، ويمكن أن يعد «الجمهرة» لابن دريد مصدراً مهماً من مصادر دراسة اللّهجة اليمنية. كما نجد عند سيبويه في «الكتاب» اهتماماً بهذه اللّهجات، فهو يذكر بعض الاستعمالات ويشير إلى موافقة بعضها للقياس على مذهب المدرسة البصرية.

هذا، ويبدو أن كثيراً مما سجله القدماء من مواد اللهجات العربية قد دخل ضمن دائرة الفصحى التي حدّدوها لها، ومعروف أن جل المواد اللغوية الفصحى قد جمعت من قبائل معينة. رضي عنها اللغويون العرب القدماء واستفصحوها، ولهذا فقد أغفلت دراسات العلماء القدماء كثيراً من اللّهجات العربية الأخرى، لأنها في نظرهم لم تكن فصيحة، وبهذا لم تكتمل الصورة التي كانت عليها حال اللغة العربية إبان عصر الجمع والتدوين. ويبين الفارابي في كتاب «الألفاظ والحروف» القبائل التي أخذت عنها اللّغة واستفصحها العلماء، فيقول: «والذين عنهم نقلت اللّغة العربية وبهم أقتدي وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد... ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم»[19].

هذا على صعيد العرب القدماء، أما على صعيد دراسة اللهجات العربية في العصر الحديث، فقد بدأت على أيدي المستشرفين وذلك ضمن النشاط الكبير الذي قام به هؤلاء للبحث في أحوال أمم الشرق وتراثها وحضارتها.. وقد أخذ عدد من المستشرقين منذ القرن التاسع عشر يسجلون ويدرسون نماذج للهجات العربي الحديثة في مناطق مختلفة من الوطن العربي، وقد حظيت أقطار الشمال الأفريقي، وسوريا وفلسطين، والعراق، بالجهد الأكبر من هذه الدراسات، وذلك لسهولة وصول الباحثين إليها وتكاثرهم فيها.

وجاءت هذه الدراسات اللّهجية في أنماط مختلفة. فكان منها كتب المعاجم، ومنها الدراسات الوصفية، ومنها كتب تعليم اللّغة للأجانب وكتب النصوص. ولعلّ أول أطلس لغوي ظهر عن لهجات الوطن العربي هو ذلك الذي ألّفه «براغستراسر» (Bergstrasser) بعنوان «أطلس لهجات سوريا وفلسطين» نشر في «لايبزيغ Leipzig» سنة 1915. كما أن من أهم العلماء الذين درسوا اللّهجة العربية في منطقة سوريا والأردن كان المستشرق الفرنسي «كانتينو Cantineau»، حيث بدأ دراساته عن هذه المنطقة سنة 1934 بكتابه عن اللّهجة العربية في تدمر:

«Dialecte arabe de Palmyre, Beyrouth 1934»

ومن أهم أعماله أيضاً كتابه عن لهجة حوران ملحقاً به أطلساً من ستين خريطة:

«Les Parles arabes du Horan, Paris 1946»

ويعد المستشرق فالين Wallin من الرواد الأوائل الذين درسوا لهجات الجزيرة العربية وذلك سنة 1848، حيث أصدر مجموعة من النصوص نشرت في مجلة المستشرقين الالمانية ZDMG عامي 1851-1852. كما أن المستشرق الهولندي «سنوك هرجرونيه Snouch Hurgronic» من أهم المستشرقين الرحالة الذين زاروا بلاد العرب في القرن التاسع عشر وقد سجل أثناء إقامته في مكة بعض الأمثال والألغاز المكية.

ومن المستشرقين الأوائل الذين اهتموا بلهجة حضرموت وجنوب الجزيرة العربية «كارلو لاندبرج Carlo Landberg» الذي أصدر فيما بين عامي 1901 - 1913 كتابه الضخم عن لهجتي حضرموت ودثينة، وله مؤلفات أخرى عن قبيلة عنزة، ومعجم لألفاظ هذه القبيلة. كما أن من أشهر العلماء الذين درسوا لهجة عدن وحضرموت العالِم الإيطالي «روسي Rossi» وقد كتب منذ سنة 1937 عدّة مقالات عن اللّهجة العربية في تلك الأصقاع. ومن المستشرقين الذين اهتموا بهذه المنطقة أيضاً «رودو كاناكس Rhodoo Kanakis» وقد كتب عن لهجة ظفار الدارجة كتاباً صدر فيما بين عامي 1908 - 1911 .

لقد كانت معظم أعمال المستشرقين القدماء تقوم على جمع المادة ودراستها بطريقة تقليدية، وكانت في معظمها تتميز بالخلط وكثرة الأخطاء. أما الآن وفي كثير من الجامعات الأوروبية والأميركية دراسات متطوّرة للهجات البلاد العربية، وتحظى الجزيرة العربية بقسط كبير من هذه الدراسات لما في لهجاتها من اتصال وثيق بالعربية الأم[20].

وانطلاقاً من أن الخليج العربي - ولعدّة قرون - مثّل منطقة ذات أهمية تجارية عظيمة وذلك بسبب موقعه على واحد من أعظم الطرق التجارية بين الشرق والغرب، فقد كان ذا أهمية اقتصادية أكثر للأمم التجارية في العالم، حتى أن كثيراً قد كتب عن أقطار الخليج من وجهة نظر هذه الأمم، أكثر مما كتب من وجهة نظر سكانه، نظراً لارتباط تاريخه بالتدخلات الأجنبية.

وعندما تفجّرت أرض الخليج العربي «بالذهب الأسود». كان لا بد من وجود الشركات البترولية. والغريب في الأمر، أن تهتم شركات البترول بنشر الكتب المدرسية عن لهجات شرقي الجزيرة العربية، وقد أعدّت - حسب المزاعم - بواسطة شركات الزيت خدمة لموظفيها. لذلك نشرت شركة نفط الكويت كتاباً مدرسياً في طبعتين سنة 1951 وهو « A Handbook of Kuwaiti Arabic» كما نشرت الشركة المشهورة «أرامكو» كتباً مماثلة منها:

Spoken Arabic (Dhahran, 1957) Basic Arabic (Dhahran, 1957) and

Conversational Arabic (Beirut, n. d.),

وأخرجت شركة بترول البحرين كتابا بعنوان:

A Handbook of the Spoken Arabic of Bahrain (n. d. or place)

وفي قطر أصدرت الحكومة كتاباً مدرسياً صغيراً:

Spoken Arabic of Qatar (K. Dajani, Beirut 1956)

وقد أصدر أحد أعضاء البعثة الأميركية في الكويت كتاباً مدرسياً هو:

Spoken Arabic of the Arabian Gulf (E. de Jong, Beirut 1958)

وأكثر هذه الكتب علمية، على حد قول «جونستون»[21]، هو دليل شركة نفط الكويت. وفي الطبعة الثانية - مع ذلك - بسطت فيه. لسوء الحظ، الرموز الصوتية الدولية المعدّلة التي استعملت من أجل كتابة الحروف العربية باللاتينية، ولذلك لم يكن هناك تفريق بين الحاء والهاء ولا بين الصاد والسين، ولا بين الظاء والذال، ولا بين الطاء والتاء.

أما في الحقل المعجمي فقد أصدرت شركة أرامكو كتابها الذي ألف باللغة العامية. English – Arabic Word List (Beirut 1958) وكذلك الحال بالنسبة للمستشرق «موير J. Muir» في «بعض الاصطلاحات الملاحية في لهجة الكويت العربية». والمستشرق فالين Wallin، وفتزشتاين Wetzstein، وسوسين Socin، وكتاب «مايتسنر Meiszner» وهو عبارة عن دراسة قيمة - حسب تعبير جونستون - للهجة الريف في جنوب العراق. أما أكثر المواد أهمية لهذه المنطقة على وجه الإطلاق هي ما جمعه المستشرق الفرنسي كانتينو Cantineau في بحوثه

«Etudes sur quelques parlers de nomades arabes d'orient»

وقد طبع مرتين الأولى سنة 1936 والثانية سنة 1937.

والكتاب الذي نشره «هيس Hess» يعطي أمثلة على الملامح الصوتية والصيغ النحوية في لهجة عتيبة. وأن أكثر الدراسات أهمية في اللهجة العمانية، والتي ليست من نفس مجموعة لهجات شرقي الجزيرة، ولكنها مهمّة من الناحية المعجمية للهجات الساحل المعاهد، هي دراسة «راينهاردت Reinhardt» والتي طبعت في برلين سنة 1894، وكذلك معجم جاياكار Jayakar سنة 1889[22].

* * *

هذا على صعيد شرقي الجزيرة العربية. أما على صعيد المغرب العربي ومصر وبلاد الشام، والتي استأسدت فيها القوى الاستعمارية لطمس الشخصية العربية وزعزعة أركانها عبر إحدى المقومات الأساسية لها والمتمثلة في «اللغة»، فقد برزت الدعوات المشبوهة التي تعد من أهم «الأسافين» الاستعمارية في بناء اللغة العربية، وكان من بينها:

- الدعوة الفرعونية في مصر.
- الفينيقية في بلاد الشام / خاصة في لبنان.
- البربرية في المغرب / خاصة في الجزائر.

يضاف إلى ذلك «عبرنة» فلسطين العربية من خلال المخطط الصهيوني الهادف إلى طمس وإذابة كل ما يمت إلى العرب بصلة.

والواقع أن عملية المجاهرة بدعوات انعزالية من هذا النوع ليست مجرد آراء فردية، ولا طفرة حدثت عن طريق الصدفة، وإنما كانت تندرج ضمن مخطط شامل وبرنامج أرسى جذوره فكر استعماري، وأمده بكل الإمكانيات ليساعده على التغلغل والنمو والانتشار. وكانت أولى

خطوات هذا البرنامج تستهدف الإسلام واللغة العربية باعتبارهما عاملين أساسيين من عوامل وحدة الأمة العربية وانصهار أبنائها في بوتقة واحدة. وهكذا بذلت محاولات منذ أواخر القرن التاسع عشر لتحويل اللهجات العامية إلى لغات مستقلة، قائمة بذاتها ومنفصلة تمام الانفصال عن اللغة العربية. وكان دعاة هذا الاتجاه يعلنون بصراحة ودون مواربة، عدم وجود أي رابط بين الشعوب التي تسكن المنطقة العربية وبالتالي فهم يطالبون بضرورة تحرير كل شعب من هذه الشعوب عن طريق ثورة أدبية شعبية، من اللغة العربية، بحيث تكون هناك لغة مصرية يعبر بها شعب مصر عن شخصيته المصرية الخاصة، ولغة سوريه يعبر بها شعب سوريا عن شخصيته الخاصة أيضاً. الخ...

وتتبّع الجذور التاريخية لهذه الدعوات يقودنا إلى حقيقة واضحة هي أنها ولدت وتم الترويج لها على يد الاستعمار وعملائه من الاطارات المحلية وبعض المستشرقين الذين زرعوا في الوطن العربي لخدمة الأهداف الاستعمارية وتحقيق أطماع الغزاة في الأرض العربية. (23)

ولعل أول كتاب ظهر في هذا المجال هو كتاب المستشرق الالماني «ولهلم سبيتا»، وكان يعمل في مصر في أواخر القرن الماضي مديراً لدار الكتب المصرية. وقد أصدر هذا المستشرق كتابه سنة 1880، وسماه باسم «قواعد العربية في مصر» وقد كتبه باللغة الالمانية. وفي سبيل الوصول إلى قواعد اللغة العامية في مصر، عاش هذا المستشرق في حي شعبي، لكي يستقي اللغة العامية من منابعها الأصلية، وأخذ يدوّن ما يسمعه بأذنه على كم قميصه خوفاً من أن يلاحظه أحد المتكلمين فيفقد طبيعته وحريته في الكلام. (24) وأن هذا الأسلوب في الواقع هو أسلوب تجسّسي مخابراتي، ولا يستبعد أن يكون «ولهلم سبيتا» أحد كبار الجواسيس الألمان المكلفين بمهمات من هذا النوع في مصر.

وقد أعلن «ولهلم سبيتا» هدفه من كتابه بقوله: «وسأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني طيلة مدّة جمع مادة هذا الكتاب، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها، ويمس أمراً بالنسبة إليها وإلى شعبها يكاد يكون مسألة حياة أو موت؛ فكل من عاش فترة طويلة في بلاد تتكلم العربية، يعرف إلى أي حدّ تتأثر كل نواحي النشاط فيها بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة». ويواصل المستشرق «سبيتا» هجومه على اللغة العربية الفصحى فيقول بأن «هذه اللغة لا يمكن أن ينمو معها أدب حقيقي ويتطور، كما أن هذه اللغة الفصحى عبء خطير على رجل الشعب العادي لأنه إذا احتاج إلى كتابة خطاب أو تنفيذ وثيقة فإن عليه أن يضع نفسه وهو مغمض العينين تحت يدي كاتب محترف». ثم يتساءل «ولهلم سبيتا» بعد ذلك: لماذا لا يمكن تغيير هذه الحالة المؤسفة؟ ويجيب: «ببساطة لأن هناك خوفاً من تهمة التعدي على حرمة الدين، إذا تركنا لغة القرآن». ثم يقترح اقتراحاً عملياً وهو أن تبقى اللغة العربية الفصحى «لغة الصلاة والطقوس الدينية فقط»(25).

ومهما ظهر للعيان من خلافات ظاهرية بين دول الغرب، فإن هناك اتفاقاً واضحاً بينها على إفساد وتخريب وتشويه اللغة العربية، من هنا ندرك بعمق وجود مستشرق إنكليزي بعد «ولهلم سبيتا» الألماني، وهو «وليم ويلكوكس» الذي شن حرباً شعواء على اللغة العربية، وقام بمحاولة واسعة لتشكيك المصريين فيها. واعتبر أن المصدر الأساسي لتخلف المصريين هو اللغة العربية الفصحى. وقال إن اللغة المصرية لا علاقة لها باللغة العربية ولكنها على علاقة باللغة (البونية) التي هي أساس لغة الحديث في مصر، وهي لغة

دخلت مصر قبل أن تدخلها العربية الفصحى بألفي سنة، وأنها انحدرت إلى المصريين من «الهكسوس» الذين أقاموا في مصر نحو خمسمئة سنة. أما اللغة العربية الفصحى فهي في رأي «ويلكوكس» لغة مصطنعة، يتعلمها المصري كلغة أجنبية ثقيلة في كل شيء، إن وصلت إلى الرأس فهي لا تصل إلى القلب أبداً، وهي لغة تقف عقبة في سبيل تقدم المصريين، ودراستها نوع من السخرية العقلية، حالت بين المصريين وبين الابتكار وقضت على الطلبة النابهين من المصريين والذين كان يرجى منهم نفع كثير...

ثم يقول «ويلكوكس»: «إنَ دراسة العربية مضيعة للوقت وموتها محقق كما ماتت اللاتينية». ويمضي في تقديم النصائح إلى المصريين قائلاً: «ليمض المصريون عشر سنوات في التعليم باللغة التي يتحدثون بها، وعندئذ سيبزغ فجر جديد في حياتهم، وستتخلص الطبقات المثقفة من السخرة العقلية التي دامت أربعة آلاف سنة... كما سيتيح ذلك لمصر أن تأخذ مكانها بين أمم العالم المتقدمة في الأعمال وفي التجارة وفي المهن»[26].

لقد ظلت هذه الآراء تتردّد منذ أواخر القرن التاسع عشر، وطوال فترة الاحتلال الانكليزي لمصر الذي زرع مجموعة من صنائعه وعملائه ومكنهم من السيطرة على أجهزة التعليم والثقافة والمؤسسات التربوية لكي يمهد سبل الذيوع والانتشار لمثل هذه الدعوات الانعزالية الاقليمية السامة وليقوموا بتربية جيل كامل من المصريين وإعدادهم ليكونوا حماة هذه الدعوة ومبشريها.

وفي الوقت الذي كانت ترتفع فيه صيحة «الفرعونية» في مصر، كانت أختها «الفينيقية» في لبنان تغترف من نفس المنبع، وإلى نفس المصب تعود. وأصبح لهذه الدعوة رموزها في لبنان، يزعمون أن حضارتهم لا تمت إلى الحضارة العربية بصلة، وإنما هي حضارة غربية في المذهب كما في المعتقدات والميول وأساليب العيش مما يجعل منهم (على حد زعمهم) نوعاً من الجالية الغربية وسط شرق متخلّف، ارتباطهم بالغرب وليس بالأمة العربية. وقد أكد ذلك المنظّر الكبير لحزب الكتائب، أمين ناجي عندما يقول: «وَهِمَ المسلمون عندما اعتقدوا أن تخلّي المسيحيين عن الحماية الغربية هو تخلٍ عن الحضارة الغربية، وعن أسباب الاتصال الوجودي بالغرب. هذا التخلي الذي يعني تنكراً لذاتها»[27].

أليس بهذا القول صرح هرتزل وماكس نوردو وغيرهما من زعماء الحركة الصهيونية عندما اعتبرا بأن الحضارة اليهودية هي امتداد للحضارة الغربية في الشرق العربي المتخلف؟ كما أكّدا بأن «الصهيونية هي رائدة المدنية الغربية، والرسول الأمين لنشر الثقافة والمدنية والحضارة الأوروبية في الشرق»[28].

إضافة لذلك، فقد عمد رفائيل نخلة إلى إصدار كتاب باللغة العامية هو «قواعد اللهجة اللبنانية السورية». وكذلك شكري الخوري الذي ألف كتاباً بلغة لبنان العامية يسمّى «التحفة العامية في قصة فنيانوس». هذا فضلاً عن الدعوة إلى ما يسمى بـ«القومية اللبنانية» و«القومية المارونية» و«التعدّدية» التي نظر لها الدكتور شارل مالك، والدكتور كمال يوسف الحاج، والدكتور فؤاد افرام البستاني، والنائب اللبناني أدوار حنين، ورينيه حبشي وغيرهم...

وكما كان هذا حال لبنان، كذلك عرفت سوريا خلال فترة الانتداب الفرنسي نشاطاً ملحوظاً للمستشرقين والمفكرين الذين عملوا في خدمة السياسة الاستعمارية، وفي مجال اللغة أيضاً.

في هذا المجال، يذكر زكي الأرسوزي أن مستشرقاً فرنسياً ألقى محاضرة بدمشق عام 1925، أدلى في نهايتها بالنصيحة التالية: «إذا كنتم أنتم السوريون ترغبون في تحسين أحوالكم ونيل الاستقلال فعليكم أن تبرهنوا لفرنسا بأنكم لستم عرباً. وأنتم تبرهنون لها عن ذلك إذا حوّلتم لهجتكم العامية إلى لغة الأدب والكتابة بدلاً من الفصحى ودوّنتموها بالأحرف اللاتينية. وعلى قدر تقدمكم في هذا المضمار تنالون من الاستقلال»[29].

أما على صعيد النزعة البربرية في المغرب، خصوصاً في الجزائر، فإننا نشير إلى قول جان بول سارتر بأن الوضع الاستعماري يولد مستعمرين، كما يؤدي إلى وجود مستعمرين[30]. وفي هذا الإطار أيضاً أشار شارل العاشر (1757 - 1836) قائلاً: بالنسبة لاحتلال الجزائر لم آخذ بالاعتبار سوى كرامة فرنسا، ولكن للحفاظ عليها فإنني لم استشر سوى مصلحتها[31].

من هذا المنطلق كانت أولى توصيات الحاكم الفرنسي لجيشه الزاحف إلى الجزائر: «علّموا لغتنا وانشروها حتى تحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة». وليست توصية هذا الحاكم الفرنسي إلا ترجمة لتوصية سلفه المستعمر الفرنسي نابوليون الذي قال لبعثته الوافدة إلى مصر «علّموا الفرنسية ففي ذلك خدمة حقيقية للوطن»[32].

حاول الاستعمار الفرنسي اقتلاع الإنسان الجزائري من جذوره، عبر حرب صليبية جديدة ومتطوّرة في القرن التاسع عشر. ولهذا فقد عاش الجزائريون - ككل العرب - خلال الاستعمار أزمتهم الكبرى مع لغتهم ضمن سياسة «فَرْنَسَةٌ» الثقافة الجزائرية وإبادتها وجعل لغة المحتل لغة البلاد.

لم يرحم الاحتلال خزائن الثقافة، فنهب جنوده الكثيّر من المخطوطات العربية القيمة، وأتلف بعضها، وذلك بشهادة رحّالة ألماني هو «موريس فاغنر Maurice Wagner» الذي أقام في الجزائر مدّة طويلة وذلك بعد احتلالها بست سنوات، وشارك في الحملة على مدينة قسنطينة[33].

إنتهج الفرنسيون سياسة تخريب الإرث الثقافي في الجزائر، بغية خلخلة النفوس، وزعزعة الثوابت فيها، وتحويلها إلى عالم من التفتّت والضياع. ولم تكتف فرنسا بتعليم الجزائريين لغتها وترسيخ ثقافتها في ذهنهم ونفسهم، بل علمتهم أيضاً أنه ليس هناك شيء خارج هذه الثقافة، وأن تاريخ الجزائر يبدأ سنة 1830 (أي عام احتلالها). ويذكر أن كلمة «عربي» كانت مذكورة في كتب التاريخ عندهم مرة واحدة وذلك عند ذكر هزيمة العرب في معركة «بواتييه» على يد «شارل مارتل»[34].

ولعل تغريب الجزائريين عن اللغة العربية كان من أمضى أسلحة الاستعمار وأخطرها، حيث في أواخر القرن الماضي، وبالتحديد سنة 1893، زار الشاعر المصري أحمد شوقي، الجزائر، وعندما عاد إلى القاهرة تناقلت الصحف قوله المشهور: «ولا عيب فيها (أي الجزائر) غير أنها قد مسخت مسخاً. فقد عهدت مسّاح الأحذية يستنكف النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسية»[35].

أما بالنسبة للقبائل البربرية، فقد حاول الاستعمار الفرنسي انتزاع البربر من الإسلام وضمهم إلى فرنسا، بتدابير متعدّدة الأوجه. من توعيتهم ومحاولة تنصيرهم، وتمييز أصلهم، وتثبيت قانونهم المحلي الذي كانوا يعتبرونه تقليداً من تقاليدهم، واحتفظوا منه بما لا يتناقض والشريعة الإسلامية، ومنها أيضاً تقوية لغتهم ومحاولة إحيائها بالكتابة والنشر، لجعلها حاجزاً بين البربري والعربي. بينما أن البربرية في الغالب

هي لغة شفهية، وليست لغة ذات قواعد وأسس ثابتة، بل مجموعة لهجات مختلف بعضها عن بعضها الآخر، اختلافاً جذرياً. ولم يكن هناك لغة بربرية أم، تتفرع منها اللهجات كما هي الحال في اللاتينية.

ونظراً لأهمية الموضوع البربري عند الاستعمار الفرنسي، فقد بدأت محاولات التعليم في بلاد القبائل البربرية قبل سائر المناطق في الجزائر. وأسس فيها الآباء والراهبات البيض ما بين 1873 - 1880 مدارس متعدّدة، قامت وراء توعية البربر محاولة لفصلهم عن العرب ولإضعاف الجبهة المحلية. وكانت محاولات تنصيرهم بقيادة الكاردينال «لافيجري Lavigerie» إحدى وسائل تقريبهم من محيط الأوروبيين والمستوطنين. وأخذ المبشرون المسيحيّون يوزعون في بلاد القبائل البربرية الأناجيل باللغة البربرية المكتوبة بالحروف اللاتينية وذلك سنة 1930.

ومن محاولات الفرنسيين أيضاً أنهم أقدموا على كتابة اللهجات البربرية كما ألفوا كتاباً في تاريخ آداب اللغة البربرية بحروف لاتينية. هذا فضلاً عن محاولات إبعاد البربر عن اللغة العربية، ثم عن اللغة البربرية نفسها لفرنسة بلاد القبائل نهائياً.

وقامت ردّات فعل مختلفة في وجه هذه المحاولات كان أبرزها تصدي الشيخ محمد البشير الابراهيمي لقضية اللغة البربرية ومحاولة تقويتها في الجزائر بمختلف الوسائل، قائلا: «إن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرأونه بالعربية، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلاً»[36].

وفي هذا الإطار، يذكر الشاعر القبائلي المعاصر مالك أوري، أنه أرسل إلى المدرسة لينسى لغته وليتعلم الفرنسية قبل كل شيء. ثم يقول إنّهم كانوا يدرسونه، فضلاً عن الفرنسية، اللاتينية واليونانية، ولم يدرسوه لغته.[37]

ومما لا شك فيه أن العلماء والمشايخ والجوامع لعبوا دوراً مهماً في الحفاظ على اللغة العربية وثروتها، والتصدي لمحاولات مسخها ونسفها، إضافة إلى المثقفين الوطنيين والمفكرين، تحت راية «المقاومة الثقافية»، كرد طبيعي ومشروع على محاولات «الفرنسَة» والتغريب.

أما في فلسطين المحتلة، فطبيعي أن لا تخرج القوانين الصهيونية حيال العرب هناك عن الطابع الاستعماري الوقح، باعتبار أن الحركة الصهيونية هي حركة سياسية عنصريه توسعية استعمارية استيطانية. وتنحصر مهمتها المركزية في سلخ الأجيال العربية الصاعدة عن تراثها وتاريخها وآدابها وإحساسها الوطني والقومي.

إضافة لذلك، يذكر الصحفي الفلسطيني حبيب قهوجي[38] أنه في المناطق المحتلة عام 1967، فقد أطلقت سلطات الاحتلال العسكري منذ الأيام الأولى للاحتلال، يدها في مناهج التعليم العربية، تغيرها وتشوهها وتملؤها بالمغالطات التاريخية التي تخدم أهدافها التوسعية والعدوانية. وقد زحفت سلطات الاحتلال في الإجراءات التي اتخذتها، على المناهج والكتب والمعلمين والطلاب والأبنية المدرسية بشكل تدريجي تعبث فيها فساداً وتخريباً، وتسوم المعلمين والطلاب أنواع الاضطهاد والملاحقة والاعتقال الإداري والسجن والطرد خارج الوطن. وأفرغت المناهج المدرسية من محتواها الوطني والقومي بحجة وجود «مواد تحريضية، ومعادية لإسرائيل».

ويضيف حبيب قهوجي قائلاً: وقد تعرضت مدينة القدس لأبشع هجمة تخريبية استهدفت الحياة الثقافية، والتعليم بخاصة، فيها بعد إعلان سلطات الاحتلال عن ضم المدينة نهائياً إلى «إسرائيل». وقد ألغيت نهائياً مناهج التعليم

العربية التي كانت تدرس في مدارس القدس، وتم استبدالها بمناهج جديدة تخدم أهداف المخطط الصهيوني لتهويدها، وثبت لدى الطلبة الذين يتلقون هذه المناهج روح العدمية القومية والخنوع والاستسلام للأمر الواقع. ويصف الكاتب الفلسطيني أيضا «سلمان ناطور» الوضع الذي يعانيه المثقف الفلسطيني في ظل السلطات الصهيونية فيقول: «إننا ما زلنا نعيش واقع حصار مستمر. نحن نكتب بين أسوار سجن كبير، والحرية المعطاة لنا هي حرية التنقل من زنزانة إلى زنزانة. إن الحديث عن حرية التنقل بين الزنازين على مسامع السجناء هو أقرب إلى النفس، ويبدو واقعياً. خصوصاً إذا كانت فترة الاعتقال غير محدودة زمنياً، ويعلن عنها أنها إلى ما لانهاية. والحديث عن حرية التنقل خارج أسوار السجن يبدو بعيداً عن الواقع، وأحيانا يسمع كأنه الهذيان والمستحيل والطوباوية»[39]. فلولا الدخلاء والغاصبين لما كان هناك لغة دخيلة أو ألفاظ دخيلة على اللغة الأم. وعندها، سواء دخلت هذه الألفاظ أو هذه اللغة على اللغة القومية بواسطة الدخلاء الأجانب أو عبر «الطابور المحلي»، فلا فرق، لأن الهدف واحد في النهاية.

وعلى هذا الأساس، كان لمجامع اللغة العربية، وللمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية، دورها المهم على هذا الصعيد، والتي تعد، بكل صدق، بمثابة شموع مضيئة في ليلنا العربي الأسود. وهي طليعة المؤسسات في الوطن العربي التي عملت على تأمين سلامة اللغة وتيسيرها لتكون أداة ربط الأمة بماضيها، والسير بها في طريق النمو والتقدم، عبر سبل التعبير السليم، والتفاهم البناء، والترابط الوثيق، لترسيخ كينونة الأمة ووحدتها ومناعة عزتها وحضارتها وتراثها.

من خلال ذلك، يجب أن لا يُفهم أننا ضد اللغات الأجنبية كلغات. فليس للعلم لغة واحدة، وليس حكراً على أمّة دون أخرى. وأن إتقان لغة أجنبية واجب لا بد منه لمتابعة التقدم العلمي. ولكن شتان ما بين إتقان اللغة الأجنبية وبين استخدامها بديلاً عن اللغة القومية. إن في إتقان اللغة الأجنبية رفداً للثقافة ودعماً لها في كل ميدان من ميادين العلم، وأما استخدامها بديلاً فعزل للغة القومية ووأد لها. [40]

ورغم كل المحاولات، أثبتت اللغة العربية مناعتها ووجودها، ولولا ذلك لما اضطر المستشرقون في مؤتمر لهم عقد في بلاد اليونان مؤخراً إلى إصدار قرار منصف يحمل كثيراً من الدلالات والأبعاد، جاء فيه: «إن اللغة العربية الفصحى هي اللغة التي تصلح للبلاد الإسلامية والعربية للتخاطب والكتابة والتأليف، وأن من واجب الحكومات في هذه البلاد أن تعنى بنشرها بين الطبقات الشعبية لتقضي على اللهجات العامية التي لا تصلح لغة أساسية لأمم تجمعها جامعة الدين والعادات والأخلاق»[41].

بعد هذا العرض، نستطيع القول إن جميع المحاولات التي استهدفت - ولا تزال - اللغة العربية للنيل منها والحط من قيمتها بهدف القضاء عليها كلغة موحَدة وموحِدة، هي بحد ذاتها محاولات شعوبية بثوب جديد، تسعى للإساءة إلى القرآن الكريم، والإساءة إلى الأمة العربية بقصد إحداث الهزات في كيانها بغية هدمها والقضاء على كل ما تحمله من تراث وقيم وحضارة وتاريخ، عبر أحد أبرز مقومات القومية والتي تتمثل في «اللغة».

وإن كانت هذه المحاولات شعوبية الاتجاه والأسلوب، فإنها أيضاً «تتريكية» الهدف، واستعمارية القصد والنتيجة، وكلها وجوه لعملة واحدة هدفها زعزعة الشخصية العربية وتسميم

وعـي الناشـئة وعقولهـا وتضـييعها لكـي تسـهل السيطرة عليهـا وتوجهها فـي الاتجاه الـذي تريده قوى الأعداء.

زيادة على ذلك، فإن هذه المحاولات هي أيضاً ضربة للتراث والحضارة والقيم العربية التي صمدت آلاف السنين في وجه كثير من الهزات والخضات المتتالية، وبرهنت بما لا يقبل الشك أن تشويه اللغة وإدخال السموم إليها هو بمثابة المقدمة للقضاء على الجسم العربي كله. إذ إن هذه التشويهات والسموم ليست «فيتاميناً» مقوياً لهذا الجسم، بل على العكس هي سرطان خبيث يبغي إضعافه وشلّه تمهيداً لإتلافه وموته. ولم نسمع مرة أن سرطاناً دخل جسماً من الأجسام وكان عاملاً في مناعة هذا الجسم وتقويته وتحدّيه للأمراض. وبما أنه يصعب على جسم بشرى أن يعيش بدون دم ودورة دموية، فإن اللغة العربية الفصيحة هي ذلك الدم وتلك الدورة الدموية التي تضمن للجسم العربي استمراريته وديمومة عطائه. كما أن أصحاب هذه المحاولات، إن كانوا ينتمون إلى بلاد العرب أم إلى الأجانب، ليسوا إلا أدوات وأبواقاً لخدمة سياسة معادية للعرب والعروبة والأمة العربية والقومية العربية، وكل ما يمتّ إليها من لغة وعادات وتقاليد وقيم وتراث وحضارة وتاريخ ومصير. ولا هدف لهذه المحاولات سوى تكريس مفاهيم التجزئة والتشتت والانعزال بغية تقزيم الأمة العربية، التي أثبتت عظمتها عبر التاريخ، وهدم أحلامها. فمهمة أصحاب هذه المحاولات شبيهة بمهمة «أطباء التخدير»، إلا أن هدفهم ومصلحتهم تختلف في كثير من الأحيان عن أولئك الذين يقومون بعملية تخديرية لجسد مريض بهدف إشفائه وتخليصه من أدران وأمراض تسلّلت إليه لإهلاكه. بيد أن مهمة هؤلاء تأخذ الطريقة العكسية باعتبارها عملية حقن الجسد بإبر مورفينية وتخديره بغية القضاء عليه وإفنائه، وليس بقصد شفائه. وهذا ما يعتبر جريمة كبرى عندما تتعلق القضية بحياة شخص. فكيف إذا كانت الحال متعلقة بحياة أمّة بكاملها؟ ويبقى «ظلم ذوي القربى أشد فظاظة» في النهاية.

فاللغة العربية هي حصن منيع يختزن الكنز المقدس، أو «بنك المعلومات» الواجب حراسته بيقظة وحذر وتحسب من كل طارئ. ونستطيع القول بأنها وطن ذو حدود لها صفة القدسية، وكل لفظة أجنبية تدخلها هي بمثابة «جاسوس» له مهمة واضحة دقيقة ومحددة، وليس أقلها تهديد سلامة الوطن وبالتالي الأمة، وزعزعة الأركان واهتزاز الأسس. وبقدر ما يكون عنصر الحماية يقظاً، بقدر ما يبقى البنيان متماسكاً، صلباً وبعيداً عن كل هزة وعاصفة، حيث يمثل هذا العنصر دوراً طليعياً، كما أنه لا يقتصر على فئة من الناس دون غيرها، إلا أن للمفكرين والمثقفين مسؤولية ريادية في هذا المضمار.

إن اللغة العربية هي جوهرة صافية، لا يؤثر عليها غبار المارقين ولا مثالب الأعداء، إذا أحيطت بالعناية الفائقة، ولا يمكن أن يعتريها الصدأ والشوائب القاتلة.

ولكن الجدير ذكره هنا، فليس أخطر على أمّة من الأمم أن تجد نفسها وقد نخرت من الداخل، وما أسلوب التسلل والتخريب والاستيلاء على العقول والأفكار والعواطف وإعادة صياغتها وتشكيلها من جديد، بحيث تصبح مهيأة تماماً لاستقبال وتبنّي المبادئ والمثل التي تحقق أهداف القوى المعادية، في هدوء وبلا نقطة دم واحدة، إلا أحد الأساليب الخبيثة التي عمدت إليها قوى الاعداء التاريخية للنيل من وحدة الأمة العربية وتراثها وأصالتها.

وعندما فشلت في تحقيق الهدف عبر سلاحها العسكري، ثم الاقتصادي، ونجحت نوعاً ما في المجال الديني، فلم تدخر جهداً لإشهار سلاح هادئ في ميدان الفكر والثقافة، ولم تكن معركة «اللغة

العربيـة» إلا أبـرز جـولات هذه المعركـة وأخطرهـا مصيرياً.

وإذا كانت «المعركة العسكرية» تستأهل الاستنفار والاستعداد والحشـد، فكـذلك هـي حـال «المعركـة الفكريـة» (واللغـة عمودهـا الفقري) فإنـهـا تستأهل الاستنفار والاستعداد والحشد إضافة إلى «عنصر الهجوم» أيضاً، حيث يعتبر «عنصر الدفاع» في معركـة كهذه، عـاملاً مقصـراً، وربمـا غيـر فاعل مطلقاً وناف لصفته أيضاً.

فلـنكن علـى مسـتوى المواجهـة والتحـدي لكـي لا نخسر أصالتنا ووجودنـا ومصيرنا، لأن الأمـة التـي تهمـل لغتهـا هـي أمـة تحتقر نفسـها وتفرض علـى نفسـها التبعيـة الثقافيـة. وإيماننـا نحـن المثقفـين العرب بأن تعلم اللغة العربية وتعليمها بشكل سليم ليسـت مهنـة أو قضـيّة تعليميـة فحسـب، بـل هـي رسالة وقضيّة وطنيّة وقومية أيضاً.

وإن عدم التصدي لمحاولات النيل من لغتنا القوميـة الأم، واعتبارهـا معركـة مصـيرية، هـو بحـد ذاتـه مشاركة مباشرة في وأد اللغة العربية عبر مسـخها ومسحها من الوجود.

الهوامش:

---

(1) ـ أدوارد هاليت كار «ما هو التاريخ» ترجمة بيار عمل وماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، كانون أول 1976، ص 27.

(2) ـ د. منذر معاليقي «القومية العربية والطوائف الدينية في عصر النهضة»، مجلة «الفكر العربي» (تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت) عدد 39 - 40 يونيو / حزيران. اكتوبر/ تشرين الأول 1985، ص277.

(3) ـ د. مازن المبارك «اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي»، دار النفائس – مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الثانية 1981. ص62.

(4) ـ د. محمد مندور في مقدمته لكتاب «منهج البحث في الأدب واللغة» تأليف الأستاذين «لانسون» و«مابيه»، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية/ فبراير/ شباط 1982، ص 15.

(5) ـ د. محمد عمارة «الإسلام والوحدة القومية» المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1979، ص 160.

(6) ـ نوري حمودي القيسي في كلمته الإفتتاحية للندوة الفكرية حول «اللغة العربية والوعي القومي»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، إبريل/ نيسان 1984، ص 21.

(7) ـ د. صالح أحمد العلي «اللغة العربية والوعي القومي»، المرجع السابق، ص 18 و166.

(8) ـ محمد جميل بيهم «عروبة لبنان»، دار الريحاني، بيروت 1969، ص 73.

(9) ـ د. مازن المبارك «اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي»، ص 11.

(10) ـ د. أحمد مطلوب «من خصائص اللغة العربية» (بحث في الندوة الفكرية الخاصة ب «اللغة العربية والوعي القومي»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1، 1984، ص 115 - 117.

(11) ـ ساطع الحصري «في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية»، مركز دراسات الوحدة العربية (سلسلة الأعمال الكاملة رقم 11)، بيروت، ص 20.

(12) ـ ألبرت حوراني «الفكر العربي في عصر النهضة»، دار النهار للنشر، بيروت 1977، ص 373.

(13) ـ د. أحمد أبو مطر «أفكار حول مواجهة النزعة الانعزالية في الأدب». مجلة «الفصول الأربعة» (تصدر عن رابطة الأدباء والكتاب والفنانين بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية)، العدد 28 مارس/ أذار 1985، ص 246.

(14) ـ محمد محمد حسين «الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، دار العلم للملايين، بيروت 1970، ص 119.

(15) ـ من مقدمة د. أحمد محمد الضبيب لكتاب ت. م. جونستون «دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية»، الدار العربية للموسوعات، بيروت، الطبعة الثانية، 1983، ص 5.

(16) ـ سليمان موسى «الحركة العربية»، دار النهار للنشر. بيروت سنة 1977، ص 23.

(17) ـ أبو زيد عبد الرحمن محمد بن خلدون «المقدمة»، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956. ص 1046.

(18) ـ حاتم صالح الضامن في مقالة بعنوان «العامية والفصيحة» من الندوة الفكرية الخاصة بـ«اللغة العربية والوعي القومي»، مركز دراسات الوحدة العربية. ص 222.

(19) - د. أحمد محمد الضبيب في مقدمته لكتاب جونستون «دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية»، ص 10.

(20) - المرجع نفسه، ص 12 – 18

(21) - جونستون «دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية»، ص 37.

(22) - المرجع نفسه. ص 38 - 40.

(23) - فوزي البشتي «الإنعزالية والإقليمية كما ظهرت في الأدب العربي المعاصر»، مجلة «الفصول الأربعة»، العدد 8، مارس/ اذار 1985، ص 194.

(24) - المرجع نفسه، نقلاً عن رجاء النقاش «الإنعزاليون في مصر»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1981.

(25) - فوزي البشتي، المرجع نفسه، ص 195.

(26) - يراجع في هذا الموضوع الكتاب القيّم للدكتورة نفوسة زكريا «الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر»، القاهرة، دار المعارف 1964. وكذلك كتاب رجاء النقاش «الإنعزاليون في مصر»، المطبوع في بيروت سنة 1981.

(27) - أمين ناجي «شرعة من أجل ميثاق وطني جديد»، المطبعة الحديثة بيروت، 1979، ص 93.

(28) - أكرم زعيتر «القضية الفلسطينية» القاهرة 1955، ص 44.

(29) - زكي ارسوزي «المؤلفات الكاملة»، المجلد الثالث، دمشق 1974، ص 41.

(30) - Tayeb belloula «Les Algéricns en France», (Editions Nationales algéricnnes) Alger 1950. PP. 18.

وكذلك مقدمة جان بول سارتر لكتاب:

Frantz fanon «les damnés de la terre» (éditions maspéro) paris 1961, PP.9-26

(31) - Colette et Francis Jeanson «l'algérie hors la loi» (éditions du seuil). Paris 1955. P.P. 29

(32) - د. مازن المبارك «اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي»، دار النفائس، مؤسسة الرسالة، بيروت 1981، ص11.

(33) - الدكتورة نور سلمان «الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير»، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى 1981، ص 53.

(34) - Ahmed Taleb Ibrahimi «De la décolonisation à la révolution culturelle» (société nationale d'édition ct de diffusion) alger 1973. PP. 12- 13

راجع أيضاً: محاضرات الندوة اللبنانية رقم 4 سنة 1967 حول «التربية والثقافة في الجزائر» لأحمد طالب، ص 9-23.

(35) - صالح خرفي «شعراء من الجزائر»، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1969. ص 10 - 11. وقد علق على هذا القول بعد سنوات الإمام عبد الحميد بن باديس في خطبته التأبينية للشاعر حافظ ابراهيم وأحمد شوقي، وذلك في مهرجان أقيم بهذه المناسبة في نادي الترقي في فبراير/ شباط 1944.

(36) - محمد البشير الإبراهيمي «عيون البصائر»، القاهرة، دار المعارف سنة 1963. من مقالة عنوانها «اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضَرّة»، ص 214 - 215.

(37) - Malek ouary «poèmes et chants de kabylie» (librairie saint- germain - des-prés), paris 1972, PP. 13

كما يعتبر كتاب الدكتورة نور سلمان «الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير» مرجعاً مهما في هذا الموضوع.

(38) - حبيب قهوجي في مقالة عن «الإجراءات الإسرائيلية ضد الثقافة العربية في فلسطين»، مجلة «الوحدة» العدد 21 ، حزيران (يونيو) 1986 ، ص 84-76.

(39) - المرجع نفسه ص80 نقلاً عن كلمة ألقيت في ندوة حول «القصة القصيرة والرواية» نظمتها لجنة الطلاب العرب في جامعة القدس بتاريخ 31 /5/ 1984 نشرتها صحيفة الإتحاد 1984/6/22.

(40) - د. مازن المبارك، «اللغة العربية»... مرجع سابق، ص 34.

(41) - حاتم صالح الضامن «العامية والفصيحة»، مرجع سابق، ص 224.

جامعة الدول العربية والحركات التحررية في المغرب العربي
من خلال تقارير الأمانة العامة

League of Arab States and Liberal Movements
in the Maghreb throuogh the reports of the Secretariat

الأستاذ الدكتور محمد لحسن زغيدي
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

ملخص:

تتناول الدراسة الدور الذي قامت به جامعة الدول العربية في دعم حركات التحرير في بلدان المغرب العربي منذ تأسيسها في سنة 1945م، بتبني الدفاع عن حق الجزائري بعد المجازر التي قامت بها فرنسا في 08 ماي 1945م إلى العمل من أجل تبني قضيته إلى جانب قضيتي تونس ومراكش بعد إعلان ثورتيهما في 1952م، وهو ما تبنته تقارير دورات الأمانة العامة لجامعة الدول العربية فيما بين 17 مارس 1949م و 28 مارس 1953م، والدور الذي قامت به بالأمم المتحدة من أجل استصدار ما يضمن حقوق شعوب المنطقة، وهو ما تطرقت إليه الدراسة بالعرض والتحرير.

الكلمات الدالة: جامعة الدول العربية؛ الجزائر؛ تونس؛ مراكش؛ حركات التحرير؛ تقارير الأمانة العامة؛ الأمم المتحدة؛ الدول العربية الآسيوية؛، القارتان الآسيوية والإفريقية؛ حق تقرير المصير.

مقدمة:

احتلت قضايا المغرب العربي التحريرية جانبا هاما في تقارير أعمال الأمانة العامة لجامعة الدول العربية في المدة بين الدورات العاشرة والثامنة عشرة، حول مسألة المغرب العربي، وعن الإجراءات التي اتخذت لتنفيذ قرارات المجلس حولها، وذلك من 17 من مارس 1949 و 28 مارس 1953). عدة قرارات وتوصيات وإجراءات تتعلق بقضايا المغرب العربي وكفاحها ضد الإستعمار الفرنسي.

لقد اهتمت جامعة الدول العربية بقضايا المغرب العربي وما عانته دوله من جراء السياسات الفرنسية العنصرية الاستعمارية اللا إنسانية، (غراندميزن، 2008) (آجرون، 2007) منذ تأسيسها، حيث جابهتها وهي في بداياتها سنة 1945 ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، المجازر الرهيبة التي شهدتها الجزائر يوم 08 ماي 1945 في سطيف وقالمة وخراطة، (سعد الله، 2005) (آيت أحمد، 2007) (Planche, 2006) وغيرهم من المدن الجزائرية التي ذهب ضحيتها أكثر من 45 ألف شهيد أعزل. فكانت تلك الأحداث هي بدايات نشاطها الدبلوماسي احتجاجا على تلك المجازر.

وفي مطلع الخمسينيات من القرن العشرين واجهت منطقة المغرب العربي عدة أحداث لاسيما فيما بعد 1952 من ثورات تحرير هزت المنطقة في كل من ونس ومراكش جعلا الجامعة العربية تتحرك على أصعدة متعددة للقيام بواجبها القومي لمناصرة تلك الشعوب في تقرير

مصيرها بنفسها، (إدريسي، 1985) وهو ما كان له أثره الإيجابي اتجاه الشعب الجزائري في دفع الفكر الثوري إلى عمل ميداني واقعي.

دور الجامعة العربية: لعبت جامعة الدول العربية دورا هاما في بعث قضايا المغرب العربي على الساحة الدولية خاصة الأمم المتحدة، جاء في التقارير المشار إليها أعلاه حول قضيتي الدولتين المغاربيتين تونس والمغرب فيما يتعلق بنضالها من أجل الاستقلال ما نصه:

"احتلت القضية التونسية مقاما بارزا بين أعمال الأمم المتحدة في هذه الدورة (الثامنة) واستأثرت بعناية أوساط الأمم المتحدة والمقامات السياسية في أمريكا، وقد أثارت الحوادث التي تجري في تونس (بورقيبة، 1982) اهتمام وفود الدول الأعضاء على اختلاف مذاهبهم السياسية وجعلت لها الصحف العالمية نصيبا وافرا من النشر والتعليق وكذلك كان نصيب القضية المراكشية". (الفاسي، 2003) (بلقاسم، 2013) (تاج الدين، 2009)

"والواقع أن هاتين القضيتين قد ظفرتا باهتمام دولي كبير قل أن كانت له سابقة في تاريخ قضايا التحرر فقد اختصت هاتين القضيتين كتلة كبيرة تتألف من ثلاث عشرة دولة ليس لها ما يجمع بيها دم أو لغة أو عقيدة وإنما اجتمعت على نصرة قضية الحرية والحق والعدل، وكانت هاتان القضيتان سببا في استمرار اجتماع الكتلة الاسيوية الافريقية منذ العام الماضي....ولكن متابعة قضيتي تونس ومراكش قد استدعى انعقاد الكتلة في القضيتين العزيزتين. ولا ريب أن من حق دول الجامعة العربية وهي نواة هذه الكتلة أن تعتز بهذا التأييد السياسي الكريم لقطرين عربيين شقيقين تحرص الجامعة العربية على بلوغهما الحرية الكاملة والسيادة التامة". (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1949-1953)

- مجازر 8 ماي 1945 جاءت نتيجة قمع الاستعمار الفرنسي للمتظاهرين السلميين الجزائريين والتي ركزت على المدن الثلاثة في الشرق الجزائري وشملت كل الوطن الجزائري ذهب ضحيتها 45 ألف جزائري خلال أسبوعين واعتقال أكثر من 100 ألف ذنبهم أنهم رفعوا العلم الجزائري.

ويضيف التقرير حول حصول التأييد الدولي ما نصه:

"ومما ضاعف شعور العطف على هاتين القضيتين ما أوضحته وفود الدول العربية الآسيوية أثناء خطبها في اللجنة السياسية عن استعداد كل من تونس ومراكش للاستقلال والحرية بعد مقارنتهما بكثير من الدول المستقلة في الأمم المتحدة وما إنتهى إليه نظام الحماية من فشل ذريع بعد سبعين عاما في تونس وأربعين عاما في مراكش ".

"إن النزاع حول هاتين القضيتين ...نزاع على الحرية الإنسانية التي دعا إليها ميثاق الأمم المتحدة وأجدر أن يتمتع بهذه الحرية شعبان أصيلان في الحضارة ساهما في الحربين الماضيتين بقسط وافر في الدفاع عن أوروبا واستبسلا في رد الحرية إلى فرنسا بكل ما يملكان من تضحيات غالية على الأنفس والموارد والأموال". (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1949-1953)

هكذا كانت القضيتان التونسية والمغربية تتصدران اهتمام الجامعة العربية، فأوصلتهما إلى هيئة الأمم المتحدة، وأصبحتا من قضايا الساعة، وتمت مناقشتهما على الشكل الآتي:

1/- تونس:

عقدت اللجنة السياسية الأولى عشر جلسات لبحث القضية التونسية، فتولت وفود الكتلة الآسيوية الإفريقية الدفاع عن هذه القضية بإسهاب مستفيض، واستعرضت مراحل العلاقات بين فرنسا

وتونس والظروف التي أدت إلى فرض الحماية الفرنسية على البلاد. (الفاسي، 2003)

إن الوفود العربية وإلى جانبها وفود الكتلة الآسيوية الإفريقية قد بسطت القضية التونسية بسطا وافيا تناول كافة نواحيها التاريخية والسياسية والقانونية، وقد أيدهم في ذلك وفود بعض الدول الأجنبية وفي مقدمتها الوفود الروسية.

وكانت الكتلة الآسيوية الإفريقية تواصل اجتماعها لبحث تطور القضية التونسية مرحلة بعد مرحلة وقد خصصت كثيرا من جلساتها لوضع مشروع قرار يؤيد وجهة النظر العربية إلى أقصى حد ممكن.

وفي الأخير استقر رأي الكتلة الآسيوية الإفريقية على مشروع قرار وضع بعد درس طويل رعيت فيه المطالب التونسية والإمكانيات السياسية في الأمم المتحدة، وقد أشار المشروع إليه نصا في نقاط نذكر منها:

"- ما أعلنه الميثاق من مساواة الشعوب كبيرها وصغيرها وأنّا من مقاصد الأمم المتحدة إنماء علاقات الصداقة بين الشعوب على أساس احترام مبدأ المساواة في الحقوق وحرية تقرير المصير.

- إن استمرار الحالة الحاضرة في تونس يجحف بتلك الحقوق والمقاصد ويهدد الأمن والسلم الدوليين.

- إن الجمعية العامة تستحث فرنسا لإيجاد الحالة العادية والحريات المدنية العادية في تونس.

- وأن تدرج القضية التونسية على جدول أعمال الجمعية العامة لدورتها الثامنة. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية 1953)

2/- مراكش:

توجد بين قضيتي مراكش وتونس أوجه شبه كثيرة من الناحية السياسية والواقعية. وإن الجوانب العادية التي جرى بحثها في قضية تونس، تنطبق على قضية مراكش سواء بسواء.

وكانت قضية مراكش كما جاء في تقرير جامعة الدول العربية من أبرز القضايا الدولية التي استأثرت باهتمام الأمم المتحدة في دورتها السادسة التي انعقدت بباريس، ورغم أن القضية المراكشية لم تدرج على جدول الأعمال، غير أن النقاش الذي جرى حولها في مسألة الإدراج وعدمه سواء في اللجنة العامة أو في الجمعية العامة، قد بسط كثيرا من جوانب القضية المراكشية. (المنار، 1951)

وكانت باريس قرابة ثلاثة أسابيع منبرا عالميا تعاقب عليه عدد غير قليل من وفود الدول الأعضاء يلحون في طلب الحرية والاستقلال لهذا القطر الشقيق.

ويضيف التقرير أنه في السابع عشر من شهر أكتوبر 1952 أحالت الجمعية العامة القضية المراكشية على اللجنة السياسية بعد أن أقرت إضافتها إلى جدول الأعمال.

وقد عقدت اللجنة سبع جلسات لقيت خلالها القضية المراكشية كل العناية والاهتمام.

وفي 15 ديسمبر سنة 1952 قدم مندوبو الكتلة الآسيوية والأفريقية إلى اللجنة مشروع قرار بموجبه ترجو الجمعية العامة فرنسا وسلطات المغرب الدخول في مفاوضات. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية 1953)

وفي 16 ديسمبر 1952 قدم أحد عشر مندوبا من الكتلة اللاتينية (وهم أصحاب المشروع التونسي) مشروع قرار في ثلاث نقاط نذكر منها:

- مناشدة الفرقاء أن يسيروا في علاقاتهم في جو من حسن النية والثقة والاحترام المتبادلين وأن يحسموا خلافاتهم بموجب روح الميثاق وأن يمتنعوا عن أية أعمال أو إجراءات قد تؤدي إلى زيادة التوتر الحالي.

كما يشير التقرير الصادر في 19 ديسمبر أن الجمعية العامة نظرت في قرار اللجنة المتعلق بالقضية المراكشية، وبعد مناقشة عامة، وضح فيها وفود الدول مواقفهم المختلفة، مما أدى إلى فوز قرار اللجنة، بصيغة مماثلة للقرار الذي صدر في القضية التونسية. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية 1953)

وإن الهدف من هذه الدراسة الخاصة بعرض القضيتين التونسية والمراكشية بالأمم المتحدة وموقف الدول الشقيقة تحت تأطير جامعة الدول العربية، والدول الصديقة في القارتين الآسيوية والإفريقية، لنبين به الدور الذي لعبته جامعة الدول العربية في التجنيد الدولي حول القضيتين، وتأثير ذلك الدور من خلال صداه الإعلامي في نفسية الشعوب العربية عامة وشعوب المنطقة وطليعتها الثورية خاصة، والتي كانت تسعى للحاق بالركب التحرري على المستوى الدولي، ليشمل كامل منطقة المغرب العربي، (محساس، 1984) وليشجع الحركة الوطنية الجزائرية بوجود الداعم المساند المتمثل في الجامعة العربية كما هو حال جارتيها، ليبقى العمل الميداني هو تفجير الثورة.

<u>حق تقرير المصير:</u>

يعتبر حق تقرير المصير (بجاوي، 2005) (سعد الله، 2007) (زغيدي، 2013) الهدف الذي ناضلت من أجله الشعوب التي خاضت الثورات والحروب من أجل تحقيقه خاصة التي كانت تعاني من الاحتلال المباشر والمسيطر وبصفة أخص تلك التي كانت تعاني الاحتلال الاستيطاني كالاحتلال الفرنسي الذي منيت به الجزائر والذي عمل على الدمج والإلحاق بسن القوانين ووضع التشريعات والمشاريع الميدانية بالترحيل والغزو والإلحاق رغم اختلاف الطبيعة واللغة والدين والتقاليد والعادات، فعمل على محول الأصيل وتمكين الدخيل. وكان الميز العنصري هو المعيار في سن القوانين. (غرندميزون، 2004)

لذلك كانت الحركة الوطنية منذ نشأتها تعمل على الوصول جاهدة في نشر ثقافة وطنية ثورية من أجل تربية الجيل على العمل بكل الوسائل من أجل تحقيق تقرير المصير واسترجاع السيادة وهو ما كانت تعاني منه العديد من الشعوب العربية التي كانت مازالت تحت الاحتلال. (سعد الله، 2005) ذلك المبدأ الذي تبنته جامعة الدول العربية وجعلته نهجا تسير من أجل الوصول إليه لينالـه طالبوه من أبناء الأمة العربية.

هذا ما يبينه التقرير الذي بين أيدينا والذي يلخص نضال جامعة الدول العربية عبر مندوبيها وممثلي الدول الأعضاء فيها من أجل تحقيقه وجعله في متناول طالبه من الشعوب المكافحة والمناضلة من أجل الحرية والاستقلال فجاء في التقرير حول هذا الشأن ما يأتي:

أولا: بالنسبة لمراحل استصدار القرار:

"في الوقت الذي كانت تكافح فيه الوفود العربية أمام اللجنة السياسية واللجنة الخاصة في قضايا فلسطين وتونس ومراكش كانت الوفود العربية تناضل نضالا باسلا أمام اللجنة الثالثة لاستصدار توصيات حازمة تؤيد حق جميع الشعوب في تقرير المصير.

"وكانت الجمعية العامة في دورتها السادسة قد قررت أن تضع في ميثاق حقوق الإنسان نصوصا معينة تكفل احترام مبدأ تقرير المصير وعدت إلى لجنة حقوق الإنسان أن تتقدم إلى الجمعية العامة في دورتها السابعة بتوصيات تدعو المنظمة الدولية إلى التقيد بهذا المبدأ.

"وقد أجازت لجنة حقوق الانسان ما عهد إليها ووضعت بين يدي الجمعية العامة مشروعي قرارين يعالجان مسألة تقرير المصير.

"وقد نظرت اللجنة الثالثة في هذين المشروعين بصورة مستفيضة ودارت مناقشات ذات أهمية بصدد تقرير المصير، من حيث تاريخه ومصدره والمراحل التي مر بها والمدى الذي يجب أن يطبق فيه، وكان واضحا أن أكثر الدول الأعضاء وخاصة أولئك الذي ظفروا بحريتهم منذ عهد قريب كانوا يريدون أن يتوسعوا في تطبيق هذا المبدأ ويهيئوا له جميع الضمانات الدولية التي تكفل تطبيقه لصالح جميع الشعوب على حين أن دولا أخرى وخاصة أولئك الذين أنتهت إليهم إدارة بعض الأقاليم كانوا يريدون أن يدخل هذا المبدأ في مكانه من الميثاق دون أن يقترن بقرارات تفصل تطبيقه وتنص على وسائل تنفيذه. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1949-1953)

ثانيا: بالنسبة لدور الوفود العربية في استصدار القرار ينص التقرير:

"وكانت للوفود العربية يد طولى في إدارة المناقشات وتوجيهها وكانت خطبهم مدعاة للاحترام والاهتمام وساهموا في تقديم التعديلات على صيغ شتا ووقعت بينهم وبين بعض الدول الكبرى مناقشة حادة لم تخل من القسوة في بعض المناسبات.

"وتجمعت دول كثيرة من آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية وبعض دول أوروبا في معسكر واحد للدفاع عن مبدأ تقرير المصير حتى انتهت اللجنة إلى إصدار قرارين أشاد الأول في ديباجته بمبدأ تقرير المصير ومقامه في ميثاق الأمم المتحدة. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1949-1953)

وبالنسبة لتطبيقه في حق الشعوب الخاضعة للاحتلال: "دعي في الفقرات اللاحقة إلى رعايته واحترامه وألزم صورة خاصة الدول الأعضاء أن ينفذوا هذا الحق في مصلحة شعوب الأقاليم الواقعة تحت وصايتهم أو إدارتهم وأن يسهلوا لهم ممارسة هذا الحق بموجب أحكام الميثاق ورغبات السكان في كل إقليم كما تتجلى هذه الرغبة في استفتاء عام أو اية وسيلة ديمقراطية أخرى وتحت إشراف الأمم المتحدة على الأفضل.

"ودعا القرار هذه الدول انتظار تنفيذ تقرير المصير إلى إشراك السكان في السلطات الإدارية والتشريعية وتهيئتهم للحكم الذاتي الكامل، أما القرار الثاني فقد أهاب بالدول التي تقوم بالوصاية على هذه الأقاليم أو إدارتها أن تقدم بيانا على مدى ممارسة حق تقرير المصير والوسائل التي تتبع لتمكين الانتفاع بهذا المبدأ تحقيقا للأماني السياسية لهذه الأقاليم وإطراد تقدم منظماتها السياسية الحرة. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1949-1953)

ويضيف التقرير: "وهذان – بلا شك – قراران خطيران فيهما انتصار كبير للشعوب المستضعفة وتوكيد على جانب عظيم من الأهمية لمبدأ تقرير المصير أصبحت معه اللجنة الثالثة تملك نصيبا وافرا من الاختصاص في مراقبة تصرفات الدول الأعضاء فيما هو واقع تحت وصايتها أو إدارتها من أقاليم وبهذين القرارين بات ممكنا – في غير الظروف الخطيرة- أن تناقش اللجنة الثالثة قضايا هذه الأقاليم كما لو كانت اللجنة السياسية الأولى من غير عناء طلب إدراج هذه القضايا على جدول الأعمال وما سيتتبعه ذلك من جدول ومناقشة. ويلاحظ في هذا الشأن بعد صدور القرارين أن شؤون بعض البلاد العربية التي لاتزال تكافح من أجل حريتها يصح أن تعالج أمام اللجنة الثالثة إذا لم تكن الحاجة ملحة لعرضها على اللجنة السياسية. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1949-1953)

نظرا لأهمية هذا المبدأ كما تمت الإشارة إليه أعلاه في العلاقات الدولية خاصة بين الغالب

والمغلوب، والذي كانت الدول تسعى من أجل تحقيقه قبل نهاية الحرب العالمية الثانية لما كان وعدا تعهدت به البلدان الأطلسية في إعلان ميثاقها وإفرادها بندا له على مساعدة الدول والشعوب الضعيفة التي تقف إلى جانبهما ضد النازية في تحقيق مصيرها بنفسها.

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية وتكونت هيئة الأمم المتحدة وإعلان ميثاقها ودخول الدول المستقلة حديثا في عضويتها وإعلانها البيان العالمي لحقوق الإنسان، وأصبحت منبرا عالميا لتحقيق ذلك المطلب، وهو ما ناضلت جامعة الدول العربي والدول الصديقة الأخرى من أجل تجسيد هذا المبدأ وتحريره من هيمنة الدول الكبرى، وهو ما جعل الحركة الوطنية الثورية الجزائرية تستبشر به وتضعه في حساباتها المستقبلية. (كيوان، 2007)

3- الجزائر:

لقيت القضية الجزائرية الاهتمام الكبير من طرف جامعة الدول العربية في كونها أول قضية تحتل الصدارة في دبلوماسيتها على بداية عهدها وذلك إثر مجازر 8 ماي 1945، وما قامت به من اتصالات مع الدول الغربية في هذا الشأن خلال شهر جوان 1945. (الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 1949-1953) (مجلة الذاكرة، 1994)

وبعدما رأينا الموقف الذي قامت به جامعة الدول العربية في تبني الدفاع عن القضيتين التونسية والمراكشية وكيفية تجنيد الرأي العام العربي والدولي حول القضيتين، ودورها والمجموعات الدولية خاصة الآسيوية والإفريقية في الدفاع عن مطالب البلدين واستصدار قرارات أمنية خاصة بهما لاسيما في اللجنة السياسية ولجنة حقوق الإنسان.

ونظرا لكون الثورة الجزائرية ما تزال في مرحلة الإعداد والنضال السري خاصة بعد الأزمة التي لحقت بها في اكتشاف أمر المنظمة الخاصة (OS) (يوسفي، 1985) (زغيدي، 2016) (زغيدي، 1994) التي تأسست سنة 1947 والأزمة التي لحقت الحزب الوطني المتزعم للتيار الثوري " حركة الانتصار للحريات الديمقراطية " فيما بين القيادة حول الزعامة والريادة. (مهري، 2001)

وهو الشيء الذي أجل اندلاع الثورة الجزائرية عن أختيها التونسية والمراكشية، لكن ظروف المنطقة كانت واحدة لكون المستعمر واحد وقمعه كان شاملا للمنطقة بكاملها فكان لابد من التعرض للقضية الجزائرية في المحافل والهيئات الدولية.

وجاء حول هذا الموضوع في تقرير الأمانة العامة لجامعة الدول العربية ما نصه:

"في 19 أفريل عام 1952 أصدر مجلس الجامعة قرارا بموافقته على قرار اللجنة السياسية حول قضاء شمال إفريقيا تضمن الفقرة التالية:

"أما فيما يتعلق بالجزائر فتوصي اللجنة بأن يثار هذا الموضوع أمام اللجنة الثالثة للأمم المتحدة في دورتها المقبلة، وتكليف الأمانة بإعداد دراسة وافية عن مختلف الشؤون في الجزائر لتكون بين أيدي الوفود العربية عند إثارة هذه القضية. وتوصي اللجنة بأن تبذل المساعي منذ الآن لدى لجنة حقوق الإنسان تمهيدا لبحث هذه القضية لتتمكن من إثارتها أمام اللجنة الثالثة.

ويضيف التقرير: "أنه تبين من بحث الإدارات المختصة في الأمانة العامة أن الجزائر ليست (محمية) لأنه لا يوجد ما يربطها بفرنسا في معاهدة حماية أو ميثاق أو إتفاق. إنما هي بلد محتل من فرنسا، ولم تقم هذه بما يجب عليها القيام به من حيث السير بالشعب الجزائري تدريجيا نحو حكم نفسه بنفسه مما كان سببا في

حدوث لقاءات دامية بين السلطة الفرنسية المحتلة وقوى الشعب المطالبة بحقها.

"وأنهت هذه الدراسة في الأمانة العامة إلى ضرورة العمل على بحث القضية الجزائرية أمام الأمم المتحدة بشتى الوسائل، ولهذا دأبت على متابعة الموضوع وبذلت المساعي الكبيرة والكثيرة لإدراج هذه القضية في جدول أعمال الأمم المتحدة ". (الدالي، 1964)

يتضح من ذلك أن جامعة الدول العربية لم تهمل القضية الجزائرية، قبل أن تعلن الجزائر عن ثورتها، وعملت على التعريف بها لكونها قضية تصفية الاستعمار (كيوان، 2007) ومعاناة شعب يعيش تحت وطئة الاحتلال، وهو ما زاد في تحفيز قادة الثورة ودفعهم إلى الأمام بكون المساعد والمؤيد بالنسبة للدعم الدولي موجود كما ورد نصا في بيان أول نوفمبر 1954. (زغيدي، 2014)

وهو ما وقع بالفعل حيث أن المملكة العربية السعودية أرسلت إلى الأمانة العامة بجامعة الدول العربية في 14 جوان 1954 أي قبل اندلاع الثورة الجزائرية بخمسة أشهر، تبدي فيها استعدادها لعرض القضية الجزائرية على الأمم المتحدة.

وبعد مشاورات مع الدول الأعضاء، رؤي التريث إلى الوقت المناسب. (الرفاعي، 1971)

وهذا ربما يرجع إلى أن القضيتين التونسية والمراكشية كانت تحظيان بالأولوية لسابق طرحهما وأخذهما أبعدا دولية متقدمة، وأن المفاوضات والاتصالات بشأنهما بدأت تجري مع فرنسا لأن سنة 1954 شهدت تطورا ملموسا بالنسبة لهما في هذا المجال.

وفي الوقت نفسه كانت الساحة الجزائرية تشهد في هذه الأثناء تطورا كبيرا في اتجاه التحضير المادي للثورة التحريرية، والذي كان قد بدأ التفكير فيه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية لاسيما بعد مجازر 8 ماي 1945 التي ارتكبتها فرنسا في حق الجزائريين العزل والتي ذهب ضحيتها أكثر من 45 ألف شهيد، فقد انطلق العمل التحضيري الجاد للثورة في سنة 1947 إثر تأسيس المنظمة الخاصة (OS) من طرف حركة الانتصار للحريات الديمقراطية في مؤتمرها الأول خصيصا لذلك الغرض، (زغيدي، 2016) إلا أنها وبعد المجهود الكبير الذي قامت به والنتائج المحققة، توقفت عن العمل بعد اكتشاف أمرها في مارس 1950 وتفرق أعضائها بالاعتقال والملاحقة الاستعمارية. (سعداوي، 2009)

لتعود في مطلع سنة 1954 لتجدد وجودها وتشرع في مواصلة عملها واستكماله لإيصاله إلى منتهاه في أول نوفمبر 1954.

وبذلك تبدأ جامعة الدول العربية عملا جديدا في دبلوماسيتها مع الثورة التحريرية، بالموازاة مع أختيها في تونس والمغرب، ولتتفرغ نهائيا للثورة الجزائرية بدأ من أفريل 1956 حتى نيل الجزائر استقلالها في 5 جويلية 1962، وذلك بعد نيل كل من تونس والمغرب استقلالهما في مارس 1956، (زغيدي: النضال الوحدوي لبلدان المغرب العربي (2018

الخاتمة:

مما سبق ذكره نستنتج الآتي:

- أن جامعة الدول العربية قامت بواجبها اتجاه قضايا المغرب العربي التحريرية، ويتضح ذلك بما قامت به في شهر جوان 1945م من التنديد بالجرائم التي ارتكبتها فرنسا في الشعب الجزائري في الثامن مايو من نفس العام.

- إن الاتصال بين الجامعة وحركات التحرير بالمغرب العربي كانت إيجابية لا سيما بعد إنشاء مكتب المغرب العربي بالقاهرة في 1947م، والذي مكن الجامعة من الاطلاع والمتابعة لما كان يجري بالمنطقة وسياسات الاحتلال اللا إنسانية بها.

- ناضلت حركات التحرير بالمنطقة ضد الاحتلال الفرنسي في إطار حق الشعوب في تقرير المصير لا سيما وأنها ساهمت مع الشعوب الأوربية في حربها ضد النازية التزاما بما وعد به قادة الحلفاء بشمولية حق الشعوب في السلم والحرية واحترام خياراتها السيادية.

- تبنت الجامعة العربية قضيتي تونس ومراكش بالدفاع عنهما بحقهما في تقرير المصير منذ إعلان ثورتيهما في 1952م ونرفع قضيتهما إلى الهيئات الدولية منها الأمم المتحدة.

- جندت لهذه القضية الدول الصديقة في كل من القارتين الآسيوية والإفريقية للضغط على الإدارة الفرنسية من أجل الاعتراف بحق هذه الدول في تقرير المصير.

- اهتمت تقارير الأمانة العامة للجامعة بكل المراحل التي كانت تعيشها المنطقة في إطار نضالها ضد الاحتلال. حيث نددت بما لحق بسكانها من إبادة كما حدث بالجزائر سنة 1945 ومن اعتقالات كما حدث بتونس في 1952 وبالمغرب في 1953 لا سيما المس برموزها المتمثلة في سجن الحكومة التونسية ونفي الملك المغربي الشرعي.

- طرحت القضيتين في الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في إطار تصفية الاستعمار في اللجنة الرابعة ونجحت في إيصال ما تعانيه المنطقة للرأي العام الدولي.

المراجع:

1- آجرون شارل روبير وآخرون، 2007، الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919، ج1، دار الرائد للكتاب، الجزائر.

2- إدريسي الرشيد الرشيد، 1985، ذكريات عن مكتب المغرب العربي بالقاهرة، الدار العربية للكتاب، تونس.

3- آيت أحمد حسين، 1994، روح الاستقلال، مذكرات مكافح، 1942-1952، ترجمة سعيد جعفري، منشورات البرزخ.

4- بجاوي محمد، 2005، الثورة الجزائرية والقانون 1960-1961، دار الرائد للكتاب، الجزائر.

5- بلقاسم محمد، 2013، وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا، الاتجاه الوحدوي في المغربي 1910-1954، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر.

6- بورقيبة الحبيب، 1982، بين تونس وفرنسا، كفاح مرير طيلة ربع قرن في سبيل التعاون الحر، مطبعة تونس قرطاج.

7- تابليت علي، 2008، 8 ماي 1945، منشورات تالة، الجزائر.

8- تاج الدين عبد القادر، 2009، مسيرة وطني أصيل، منشورات مؤسسة محمد الزرقطوني للثقافة والأبحاث، الدار البيضاء.

9- جامعة الدول العربية، 17 مارس 1949 إلى 28 مارس 1953، الأمانة العامة، دارة السكرتارية، تقرير أعمال الأمانة العامة في المدة بين الدورات العاشرة و الثامنة عشرة، قسم المحفوظات، مكتبة جامعة الدول العربية، القاهرة.

10- جريدة البن2صائر، 1951، الجزائر، ع 117، 17 ديسمبر 1951، ص 03.

11- جريدة المنار، 1951، الجزائر، العدد 10، في 22 أكتوبر 1951. العدد 12، 21 ديسمبر 1951. وكذلك عدد فبراير 1952.

12- الدالي وحيد، 1964، "أسرار الجامعة العربية وعبد الرمان عزام"، روز اليوسف- مكتبة روز اليوسف، مكتبة جامعة الدول العربية تحت رقم: جع 2412 /34 دال.

13- الرفاعي محمد علي، 1971، "الجامعة العربية وقضايا التحرر"، الطبعة الأولى.

14- زغيدي محمد لحسن، 1994، التحضيرات السرية للثورة التحريرية، مجلة الذاكرة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، ع1، الجزائر.

15- زغيدي محمد لحسن، 2013، مقال في مجلة الدراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، ع22.

16- زغيدي محمد لحسن، 2014، العلم الوطني الجزائري، دلالات رمزية ومسيرة نضالية، دار هومة، الجزائر.

17- زغيدي محمد لحسن، 2014، نشأة جيش التحرير 1947-1954، دار الهدى، الجزائر.

18- زغيدي محمد لحسن، 2014، بيان أول نوفمبر وأبعاده، مجلة الدراسات التاريخية، ع14، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2.

19- زغيدي محمد لحسن، 2016، مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الجزائرية 1956-1962، ط4، دار هومة، الجزائر.

20- سعد الله أبو القاسم، 2005، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1945، ط5، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

21- سعد الله عمر، 2007، القانون الدولي الإنساني والاحتلال الفرنسي للجزائر، دار هومة، الجزائر.

22- سعداوي مصطفى، 2009، المنظمة الخاصة ودورها في الإعداد لثورة أول نوفمبر 1954، متيجة للطباعة، الجزائر.

23- غراندميزون أوليفيي لوكور، 2008، الاستعمار الإبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، دار الرائد للكتاب، الجزائر.

24- غولدزيغر أني راي، 2005، جذور حرب الجزائر 1940-1945، دار القصبة، الجزائر.

25- الفاسي علال، 2003، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مؤسسة علال الفاسي، الدار البيضاء.

26- قداش محفوظ، 2011، تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، دار الأمة، الجزائر.

27- كيوان عبد الرحمن، 2007، المصادر الأولية لثورة أول نوفمبر 1954، ثلاث نصوص أساسية لحزب الشعب الجزائري حركة الانتصار، منشورات دحلب.

28- مجلة الذاكرة، 1994، مذكرة حزب الشعب الجزائري لجامعة الدول العربية، ع 2، المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر.

29- مجموعة من الباحثين، 1964، موجز تاريخ الحركة الوطنية التونسية، 1881-1964، المعهد الأعلى للحركة الوطنية، جامعة منوبة، ص .102

30- محساس أحمد، 1984، الحركة الثورية في الجزائر، 1914-1954، دار المعرفة، الجزائر.

31- مهري عبد الحميد، 2001، مسألة الانتقال إلى الكفاح المسلح، أعمال ملتقى مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر.

32- يوسفي امحمد، 1985، الجزائر في ظل المسيرة النضالية المنظمة الخاصة، ترجمة محمد الشريف بن دالي ، منشورات وزارة المجاهدين.

33- Planche Jean Louis, 2006, *Sétif 1945 Histoire d'un massacre annoncé*, Ed Chihab; Alger.

زيارة الملك البريطاني جورج السادس لاتحاد جنوب إفريقيا سنة 1947
(قراءة في أبعادها السياسية من منظور الخارجية البريطانية والمصرية)

الأستاذ الدكتور أحمد عبد الدايم محمد حسين
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ورئيس قسم التاريخ
كلية الدراسات الإفريقية العليا- جامعة القاهرة/ مصر

حظي اتحاد جنوب فريقيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بمكانة خاصة لدى المسئولين البريطانيين. حيث كان التطرف في الجزع من قبل العناصر البيضاء، الأفريكانرية والإنجليزية، قد دفع بالخلافات بينهما إلى حافة الهاوية. فلم يكن التفاوت بين العناصر المسيطرة على الاتحاد، قد فرض تقسيماته الحزبية والأيديولوجية بطريقة فجة إلا مع نهاية سنة 1946 وبداية سنة 1947. وساعد على هذا موقف السلطة المحلية بقيادة الجنرال سمتس، الذى كان لا يعير إهتمامًا للممارسات التى تجرى على الأرض، وتنذر بكارثة بين الطرفين. فكان لا يقيم وزنًا لواقع الخلافات التى تدفع بتلك العناصر للتصادم فيما بينها، اعتقادا فى مكانته الدولية التى وصل إليها، واستنادًا على السلطات البريطانية المؤيدة لتوجهاته. لذا كانت زيارة العائلة المالكة البريطانية، بقيادة الملك جورج السادس وزوجته وابنتيه، إلى جنوب افريقيا وبقائهم هناك لأكثر من شهرين، منذ 17 فبراير وحتى 24 ابريل سنة 1947، ضرورية ومهمة لرأب الصدع الذى حدث بين العناصر البيضاء، واستعادة مكانة الأسرة البريطانية فى قلوب رعاياها من الطرفين، والحفاظ على مكانتها لدى بقية العناصر التى تقطن الجنوب الافريقى البريطانى ككل. فالزيارة الملكية لم تقتصر على اتحاد جنوب افريقيا فقط، بل امتدت لزيارة محميات الباسوتولاند وسوزيلاند وبتشوانالاند وروديسيا الشمالية والجنوبية.

وتنبع أهمية هذا الموضوع من ثلاث اعتبارات رئيسة: أولها، أن زيارة الملك جورج السادس وعائلته، قد تمت فى ظروف محلية واقليمية ودولية صعبة للغاية. وهو الأمر الذى لفت نظر القنصلية الملكية المصرية بكيب تاون بجنوب افريقيا، الى توقيت الزيارة وأهدافها، فأرسلت لمسئوليها فى القاهرة تقاريرًا بشأنها، لتخبرهم بطبيعتها وبرنامجها، وتعامل القائمين عليها. ثانيها، أن الزيارة الملكية لجنوب افريقيا كانت ضرورية ومهمة فى هذا التوقيت لرأب الصدع الذى حدث بين العناصر البيضاء من ناحية، وبين العناصر غير البيضاء والسلطة الحاكمة من ناحية اخرى. فقد كانت منطقة الجنوب افريقى ككل، تئن بالخلافات والصراعات، وتسودها أجواء ما بعد الحرب العالمية الثانية الرافضة للحكم البريطانى فى كل المستعمرات. ثالثها، أن اهتمام الخارجية البريطانية بالزيارة كان طبيعيا، بحكم تبعية جنوب افريقيا لبريطانيا، وبحكم شخصية الزائر وعائلته، ومردود الزيارة على بريطانيا نفسها. أما الأمر الغريب والمدهش، فيتمثل فى متابعة الخارجية المصرية لها. فيبدو أن طريقة تعامل الأسرة المالكة البريطانية مع الخلافات القائمة بين العناصر البيضاء هناك، وإدارتها لملف الأمن الاستعمارى فى منطقة الجنوب الافريقى

بطريقة مميزة، قد فرض على القنصلية المصرية بكيب تاون ضرورة تسليط الضوء على طريقة جديدة وناعمة فى ادارة الخلافات، وكيفية ادارتها فى مصر نفسها. والقاء الضوء أيضًا على طريقة التعامل البريطانية مع خلافاتها الاستعمارية بعد استعداد الهند للاستقلال، وقيام مصر برفع قضيتها أمام الامم المتحدة، وتصعيد مطالبها فى الاستقلال ووحدة وادى النيل. وبالتالى فإن سنة 1947 تحتاج لفهم خاص بالظروف المحيطة ببريطانيا فى كل مستعمراتها، وداخل بريطانيا نفسها.

لكم هو مدهش أن تعتمد فى الدراسة على أكثر من أرشيف وثائقى، لكن الأكثر دهشة هو التناقض المحير الذى يجده الباحث خلالها. صحيح أن المعلومات الواردة عبر تلك الأرشيفات تبنى المادة العلمية بشكل قوى وممتاز، لكن الصحيح أيضًا أن هذه التناقضات قد تجعل الباحث أكثر حيرة فى التفسير والتحليل. حيث تعتمد الدراسة على وثائق الخارجية البريطانية والمصرية بصفة رئيسية، تلك الوثائق التى تتبعت الزيارة منذ الإعلان عنها سنة 1946 وحتى نهايتها فى أبريل 1947. ناهيك عن الأرشيف البصرى، ممثلًا فى الصور والأفلام التى تم تسجيلها خلال الزيارة، وأرشيف الطوابع والعملات التى تم صكها خصيصًا للاحتفاء بالزائرين. لكن تأتى دراستنا للموضوع عبر مراسلات الخارجية البريطانية والمصرية، لأنها لم تكن بهدف تسجيل الزيارة وبرنامجها فحسب، بل كانت قراءة مميزة لمفهوم الأمن الاستعمارى أيضًا. لذا فإن طريقة تعامل الأسرة المالكة مع الخلافات القائمة بين العناصر البيضاء هناك، وإدارتها لملف الأمن الاستعمارى فى منطقة الجنوب الافريقى، استوجب منا مزيد من الدراسة والفحص والتمحيص. وعلى هذا سنقوم بتقسيم الدراسة إلى ثمانية محاور رئيسية: أولها- علاقة اتحاد جنوب افريقيا ببريطانيا قبل سنة 1947.ثانيها- الإعلان عن الزيارة الملكية ودوافعها الأستراتيجية والسياسية .ثالثها- تأمين الملك جورج السادس والعائلة الملكية.رابعها- برنامج الزيارة وابعاده السياسية. خامسها- الموقف السياسى من الزيارة وانعكاساته على الأمن الاستعمارى . سادسها- زيارة الملك جورج السادس الى المحميات البريطانية وأبعادها السياسية .سابعها- موقف الصحافة الجنوب افريقية من الزيارة. ثامنها – أثر الزيارة على الأمن الاستعمارى.

المحور الأول- علاقة إتحاد جنوب افريقيا ببريطانيا قبل عام 1947:-

لكي نتعرف على زيارة الملك البريطانى جورج السادس♥ وزوجته اليزابيث♥ وابنتيه؛ الأميرة اليزابيث♥، والأميرة مارجريت♥، فلابد أن نتعرف فى البداية على العلاقة التى تربط جنوب افريقيا ببريطانيا، والسياق السياسى الذى تمت فيه الزيارة. وفى هذا الاطار وجب علينا النظر فى أربعة أمور: الأمر الأول، نشأة العلاقة بين جنوب افريقيا وبريطانيا قبل تكوين الاتحاد سنة 1910. فمنذ الاحتلال الهولندى للكيب سنة 1652، ومرورًا بالاحتلال البريطانى الأول لرأس الرجاء الصالح سنة 1795، ثم خروجها منه عام 1803، لم تثبت أقدام بريطانيا فى مستعمرة الكيب إلا بعد استرجاعها سنة 1806. لكن ظل الاحتلال يمثل أبعادًا استراتيجية فقط، للحفاظ على خطوط مواصلاتها مع الهند، أكثر منه استغلالًا للمنطقة، وطمعًا فى خيراتها. ولم تتغير تلك النظرة إلا في عام 1820، حينما قررت الحكومة البريطانية إرسال 5000 بريطاني للاستيطان هناك، فحينها بدأ التوسع فى نواحى جنوب افريقيا ككل (1). وانتهى الأمر بعد هجرة البوير إلى المناطق الشمالية منها، إلى إنقسام جنوب افريقيا فى خمسينيات القرن 19 إلى أربع مستعمرات رئيسية: اثنتان للبوير، هما الترنسفال والاورنج الحرة. واثنتان للانجليز، مستعمرة الرأس وناتال. وتطور الأمر بعد اكتشاف الذهب سنة 1867، إلى السيطرة البريطانية الكاملة على كافة أنحاء جنوب افريقيا بعد حرب البوير. تلك الحرب التى استمرت بين البريطانيين والأفريكانرز

منذ سنة 1899 وحتى سنة 1902. وكانت هزيمة البوير خلالها قد دفعت ببريطانيا المنتصرة، للسير في طريق إتحاد جنوب افريقيا منذ سنة 1905، ليعلن رسميًا سنة 1910. هذا الاتحاد الذى ظل قائمًا حتى سنة 1961، حينما استقلت جنوب افريقيا عن بريطانيا، وأصبحت جمهورية مستقلة (2).

الأمر الثانى، أن رابطة الكمنولث البريطانى هى التى تحكم العلاقة بين الطرفين منذ سنة 1910وحتى سنة 1961. حيث كانت رابطة الكمنولث هى التى تحكم العلاقة بين بريطانيا واتحاد جنوب افريقيا منذ تكوين الاتحاد سنة 1910، وحتى توقيت الزيارة الملكية سنة 1947، بل استمرت حتى سنة 1961، عندما انفصلت جنوب افريقيا عن الكمنولث وأصبحت جمهورية مستقلة. وإذا تتبعنا تطور العلاقة الدستورية بين البلدين بعد إنشاء الاتحاد، فسنجد أن أول دار لصك العملة قد تأسست فى الاتحاد سنة 1925، تبعها تقديم مشروع قانون للبرلمان لإيجاد علم وجنسية خاصة بجنوب افريقيا فى 25 مايو 1926. ثم صدر قرار بإحالة جميع المسائل المتعلقة بعلاقات الاتحاد مع بريطانيا إلى لجنة يرأسها اللورد بلفور. تلك اللجنة التى نص بيانها فى اكتوبر سنة 1926 على أن علاقة بريطانيا بدول الدمينون هى علاقة بين مجتمعات مستقلة داخل الامبراطورية البريطانية. وأنها متساوية فى الوضع، ولا يخضع أى منها للآخر. وبالتالى أعطى إعلان بلفور الضوء الأخضر لإنشاء إدارة جنوب افريقيا للشئون الخارجية، تلك التى تولى أمرها هيرتزوج فى الأول من يونيو سنة 1927. وتبع ذلك تعيين السفراء، وتأسيس شبكة من المكاتب التجارية فى أوروبا وشمال افريقيا. وفى نفس السياق جاء المؤتمر الملكى لسنة 1930 مقدمة لصدور قانون ويسستمنستر سنة 1931 ، ذلك المؤتمر الذى أعطى السلطة المطلقة لدول الدمينون فى الدخول فى إتفاقيات مع الدول الأجنبية، وأعطى مزيدًا من الاستقلال لاتحاد جنوب افريقيا فيما بعد (3).

وعلى هذا، فإن الملك البريطانى كان هو الرئيس الأعلى لاتحاد جنوب افريقيا♥. وبالتالى ظلت قيادة البحرية والقوات المسلحة تأتمر بأمر الملك أو ممثله. هذا بالاضافة إلى تبعية برلمان الاتحاد بمجلسيه، الشيوخ والنواب، للملك. وبالتالى وجب عليه المشاركة فى افتتاحه، وهو لم يحدث حتى سنة 1947. حيث سيطلب من الملك خلال الزيارة الملكية فى تلك السنة افتتاح البرلمان لأول مرة فى تاريخ الاتحاد. وكان صدور قانون المهام التنفيذية الملكية والأختام فى سنة 1934، قد جعل الملك يستمر فى ممارسة سلطاته التنفيذية عبر الاتحاد، لكنه ظل يتصرف بناء على مشورة وزراء اتحاد جنوب افريقيا. حيث أصبح تعيين الحاكم العام يتم بمشورة بين الملك ووزراء الاتحاد، بعد أن كان يتم بمشورة بين الملك ومجلس وزراء بريطانيا، وليس الإتحاد. وبناء عليه أختير لأول مرة مواطن من جنوب افريقيا، وهو باتريك دنكان، ليكون حاكمًا عامًا. وعند وفاته سنة 1942 عين جيدون براند فان زيل♥ حاكمًا عامًا، وهو من مواليد جنوب افريقيا ويتحدث الأفريكانية. وبالتالى صار الحاكم العام لا يمثل الملك فقط، ولكن يمثل حكومة الإتحاد أيضًا (4).

من هنا، فإنه عند إندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939 وقفت دولة اتحاد جنوب إفريقيا إلى جانب بريطانيا تطبيقاً لنظام "الدومنيون" وقانون وستمنستر، بالرغم من معارضة بعض السياسيين الذين فضلوا أن تبقى بلادهم على الحياد. فحارب الاتحاد ضد ألمانيا النازية وإيطاليا واليابان، وشاركت قواته البرية والجوية في المعارك التي دارت في إيطاليا والبلقان ومدغشقر وشرق إفريقيا وشمالها، بما فيها معركة العلمين.

الأمر الثالث، أن الحكومات التى حكمت الإتحاد منذ تأسيسه، وحتى زيارة الملك جورج السادس، كانت أفريكانرية متعاونة مع الانجليز. فحين نجحت العناصر البريطانية فى السيطرة على مقدرات جنوب افريقيا، وتوحيد مستعمرات جنوب افريقيا الهولندية، الترانسفال

والاورونج الحرة، والبريطانية، الرأس وناتال، تحت مسمى إتحاد جنوب افريقيا سنة 1910، تركت للعناصر الافريكانرية لتدير الشئون السياسية للإتحاد، فى حين هيمنت العناصر البريطانية على النواحى الاقتصادية تماما [5]. وعلى هذا، فإنه منذ تولى حزب جنوب افريقيا السلطة سنة 1910، ومرورًا بحكومة الميثاق فى الفترة من 1924-1934، لم تكن هناك رغبة فى الانفصال عن بريطانيا إلا من خلال مجموعات صغيرة، ظهرت أثناء فترة التمرد الأفريكانرى فى بداية الحرب العالمية الأولى، ثم خلال الحرب العالمية الثانية. لكن تعهدت حكومة الميثاق منذ وصولها للحكم سنة 1924 بمواجهة الرأسمالية الاحتكارية من قبل المستوطنين البريطانيين. ثم راحت حكومة الحزب المتحد برئاسة هيرتزوج تمضى قدمًا فى تلك المواجهة بعد إنتخابات سنة 1933. غير أن الصراع بين الناطقين بالأفريكانرية والناطقين بالإنجليزية بات على أشده خلال تلك الفترة. حيث واجهت تلك الحكومة مشكلتين: أولهما، أن الأفريكانرز اعتبروا أن تصاعد الاتجاهات الاشتراكية والنازية والفاشية في مناطق عديدة من العالم، حلًا بديلًا لمشاكلهم مع المستوطنين البريطانيين، فمالوا إلى النازى عند إندلاع الحرب العالمية الثانية. وهو الأمر الذى دعا حكومة الجنرال سمتس♥، التى تولت زمام الأمور خلال فترة الحرب، بأن تنحاز لبريطانيا وتشاركها فى جبهات القتال، وفى نفس الوقت حاولت الانصهار مع القوى الافريكانرية المحلية فى بناء هوية ثقافية أفريكانرية للاتحاد. ثانيهما، تسبب تقارب العناصر غير البيضاء، فى تصعيد المواجهة مع البيض عقب انتهاء الحرب، وعودة المشاركين فيها من تلك العناصر [6].

الأمر الرابع، أن غالبية الذى يسكنون جنوب افريقيا يدينون بالولاء للتاج البريطانى. فالإتحاد متعدد العناصر، يسكنه البيض الناطقين بالانجليزية، وهؤلاء جاءوا مع الاحتلال البريطانى للكيب سنة 1806. ويسكنه البيض الناطقين بالافريكانرية، وهؤلاء هم خليط من الهولنديين والفرنسيين والألمان والبلجيك [7]. وهناك الأفريقيون، وهم أصحاب الأرض الأصليين. وهناك الملونون، وهؤلاء كانوا من نتاج إختلاط الأوروبيين بكل من الهوتنتوت والبوشمن والأندونسيين والملاويين المنفيين ورقيق غرب أفريقيا المهجرين للمستعمرة الهولندية منذ احتلالها سنة 1652. وشكل هؤلاء المخلطين عنصرًا سكانيًا متميزًا عن الافريقيين والأفريكانرز [8]. وهناك الآسيويون، وهم اندونسيين وملاويين[9]، وفدوا لجنوب افريقيا فى عصر المستعمرة الهولندية ، إلى أن قام الأنجليز بجلب الهنود عام 1860، لزراعة القطن وقصب السكر فى ناتال، ثم انتشروا فيما بعد فى كافة أنحاء جنوب افريقيا بعد إتحادها سنة 1910 [10]. وإذا نظرنا لموقف هؤلاء من بريطانيا وجدنا أن غالبيتهم يدينون بالولاء للتاج البريطانى، وبالتالى ستدرك كيف كان ترحيب غالبية هؤلاء بالزيارة الملكية وحماسهم لها.

المحور الثانى- الإعلان عن الزيارة الملكية ودوافعها الاستراتيجية والسياسية:-

من المؤكد أنه لا يمكن فهم الزيارة إلا بفهم سياقها الزمنى والمكانى. لذا فإن فهم ظروف المستعمرات الجنوب افريقية، والحاجة إلى تأمينها لصالح بريطانيا، واستقرار أوضاع البيض هناك، لهو أمر فى غاية الأهمية. وفى هذا الاطار تعد رسالة السير بارينج تحت عنوان "الزيارة الملكية للاتحاد"، إلى الفيكونت أديسون فى21 مارس 1946، بمثابة أول وثيقة رسمية وقعت بين أيدينا، تتحدث عن إعتزام الملك جورج السادس زيارة اتحاد جنوب افريقيا بصحبة عائلته فى بداية سنة 1947. وباعتبارها أول وثيقة تتحدث عن الزيارة، فلا يمكن أن نأخذ منها معلومة الإعلان عن الزيارة فقط. بل وجب علينا أن نرى من خلالها تأثير هذا الاعلان على سكان جنوب افريقيا. فقد أشادت بحماسة أنصار الحكومة في جميع أنحاء الاتحاد لهذا الاعلان. واعتبرته أنه جاء فى التوقيت المناسب،

في وقت يواجه فيه الإتحاد مشاكل دولية ومحلية شغلت اهتمام جنوب افريقيا كثيرًا. وقالت " بأن هذا الاعلان يأتى فى إطار الدعم البريطانى لجنوب افريقيا البريطانية، وأن الزيارة سمتنح الاتحاد الشرف العظيم، وأن يشعر سكان الاتحاد بهذا، لذا فإنهم يتطلعون بسرور للزيارة ويترقبونها، لإبراز المحبة لجميع أفراد العائلة المالكة، وإظهار الترحيب العفوى والصادق لها. وأنهم سيعبرون عن تفانيهم وولائهم للأسرة الحاكمة، خاصة وأنهم معجبون بالعمل الذي قاموا به في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية". وأضافت الوثيقة "بأن الصحف المؤيدة للحكومة قد أعلنت بأن الاستعدادات قد بدأت بالفعل في عدد من المدن، لجعل إقامة أصحاب الجلالة سعيدة، وبأنهم يرحبون بمرافقة الأميرات لوالديهم فى الرحلة. وأن العديد من الصحف والجماهير قد أعربوا عن أملهم في قيام صاحب الجلالة بافتتاح الدورة البرلمانية لعام **1947**، وأن يقوم رئيس الوزراء بطرح تلك الرغبة في مجلس النواب يوم **22** مارس، وبأنهم سيدعون الملك لافتتاح البرلمان" [(11)]. وعلى هذا بدا وكأن جنوب افريقيا على قلب رجل واحد فى الترحيب بالملك وعائلته، وأنهم يتمنون أن يأتى هذا اليوم الموعود للزيارة، ليعبروا عن هذا الترحيب.

بيد أن هذا الترحيب يظهر نقيضه تمامًا فى ختام الرسالة السابقة، حيث أخبرتنا بوجود جبهات رافضة لتلك الزيارة أيضًا. فذكرت بأن الوطنيين الافريكانرز راحوا يعبرون من خلال صحافتهم عن نيتهم بالترحيب بالأسرة الحاكمة ومجاملتها، باعتباره تقليدًا للناطقين بالأفريكانية، ولكنهم طالبوا أتباعهم بأن يكون هذا الترحيب دون حماس. وقالت بأنه على الرغم من أنهم يعتبرون الملك كرمز للرابطة الإمبراطورية التي تعهدوا بكسرها، إلا أنهم يتمنون له طيب الإقامة في جنوب أفريقيا، وبأنهم لا ينون إظهار أي إثارة خلال الزيارة. لكن الرسالة قدمت لنا أسباب رفض تلك الجبهة للزيارة، وأنها سياسية. فقالت " بأنهم يعتبرون غريمهم الجنرال سمتس هو الذى رتب للزيارة في بداية سنة **1947**، كخطوة سياسية لصالحه، بحيث لا تكون البلاد بعيدة عن الانتخابات العامة المقبلة. على أمل أن يمكنه هذا من بناء شعور بريطاني للناطقين بالانجليزية، يوجههم لصالحه فى الانتخابات القادمة" [(12)]. وعلى هذا نحن أمام زيارة مسيسة فى نظر هؤلاء المعارضين منذ البداية، وهو الأمر الذى يوجب علينا النظر فى دوافعها وأهدافها. لكن السؤال الذى يطرح نفسه: هل اقتصرت دوافع الزيارة على الأسباب السياسية فقط؟ أم أن هناك أسبابًا اقتصادية واجتماعية وثقافية قد دفعت إليها؟

من المؤكد أن درجة التوتر بين المجتمعات التى تعيش فى إتحاد جنوب افريقيا قد بلغت مداها، لذا لم تكن الزيارة الملكية لإتحاد جنوب افريقيا مجرد زيارة ترفيهيه عادية، بل كان غرضها سياسى من الدرجة الأولى. فكان لا ينفع معها أى تدخلات محلية لإنقاذ الموقف، خصوصًا وأن وتيرة المشاكل التى كانت تواجه بريطانيا فى الشرق الأوسط والهند فى سنة **1946** أجبرتها على وجوب الاحتفاظ بجنوب افريقيا بكل الطرق. صحيح أن رئيس الوزراء سمتس كان يدفع بإتجاه الزيارة، إلا أن الملكية البريطانية كانت تهدف من ورائها إلى تلطيف الأجواء بين العناصر البيضاء وضمان ولائها. وحتى نتبين مفهوم الأمن الاستعمارى للزيارة سنتعرف على طبيعة التوتر بين تلك المجتمعات لحظة الزيارة، ونتتبع دوافع الزيارة وأهدافها، لنرى كيف حاولت بريطانيا من خلالها تحقيق أمنها الاستعمارى بشتى الطرق، ونختزلها فى دوافع ستة:

<u>الدافع الأول</u>، تأمين بقاء سمتس فى السلطة. كان التصور البريطانى بأن بقاء هذا الرجل فى السلطة سيضمن لهم البقاء فى جنوب افريقيا. وربما يكون تعبير الرافضين لها والمطالبين بالانفصال عنها، قد ظهر فى كراهيتهم لإعادة انتخاب سمتس المؤيد لبريطانيا. وإذا ما نظرنا إلى الوثيقة المؤرخة بـ **21** مارس **1946** لوجدنا أن المعارضين للرجل يرددون نغمة وقوف بريطانيا بجوار رجلها فى جنوب افريقيا ،

وأن سمتس نفسه هو الذى رتب للزيارة الملكية لتكون فى سنة 1947، أى قريبة من إنتخابات سنة 1948، ليضمن وقوف الناطقين بالإنجليزية معه، وتأييده فى تلك الإنتخابات (13). وفى نفس السياق أوضحت لنا إحدى وثائق القنصلية المصرية بتاريخ 6 مارس 1947، هذا الأمر وأكدته. فحين قالت " كل هذا يدعونا إلى التفكير فى أن المرشال سمتس رمى من دعوته للعائلة المالكة لزيارة جنوب افريقيا تدعيم مركزة الشخصى، وتعريف الشعب بالعائلة المالكة، وما قد يكتسبه من الالتفاف حول العرش، وما قد تجنيه جنوب افريقيا من الإرتكاز على سند الإمبراطورية البريطانية ومبلغ قوتها"، فهذا يعنى أن الرجل هو الذى خطط للزيارة لتحقيق مصالحه الشخصية. وربما كان قولها بأنه "سعى إلى إقناع الأفريكانرز المتعصبين ضد الانجليز بأنهم مخطئين فى وجهة نظرهم"، يعنى أنه رتب مع الزوار الملكيين لتحقيق هذا الهدف. لكنها حين تقول " بأنه إذا أخذنا هذا كمقياس لما قد تتمخض عنه الانتخابات القادمة، فإن مركز المارشال سمتس يأخذ فى الانحدار " (14)، فإنها تقطع بأن تعضيد الملكية للرجل فى الانتخابات كان هدفًا بريطانيًا رئيسيًا. وربما كان الاعتقاد بأن الملك وعائلته قد ذهبوا إلى جنوب أفريقيا سنة 1947، لدعم رئيس وزراء إتحاد جنوب أفريقيا فى الإنتخابات، حيث كان يأمل في تحقيق مكاسب سياسية من ورائها، هو السبب الرئيسى فى إتخاذ موقف من الزيارة. فما قيل من أن حكومة جنوب أفريقيا قد طلبت من الملك بمصافحة البيض فقط، لا يشير ببيان اختلافات المعارضة مع الرجل حول حقوق سيعطيها لصالح الافريقيين، بل لاقترابه من الانجليز وإيمانه برابطة الكمنولث.

وجدير بالذكر أن إحدى تقارير القنصلية الملكية المصرية بمدينة الكيب تورد لنا بتاريخ 12 فبراير 1947 أسبابًا أخرى، فتقول " بأن مشكلة التفرقة العنصرية قد تسببت فى وجود مشكلات داخلية اجتماعية واجهت حكومة سمتس. مما تسبب فى قيام الحكومة بوضع عدد من اللوائح والقوانين، حيث وضعت لكل مقاطعة نظمًا تلائم حالتها، من حيث عدد الفئات التى تعيش فيها، فالحال فى الترانسفال غيره فى الكيب غيره فى الناتال، غيره فى مقاطعة الاورونج الحرة، وهو الأمر الذى أثار احتجاجات مستمرة" (15). ولعل تعليق إحدى وثائقها " بأن الرأى العام يرى أن حزب سمتس سيلقى لطمة قوية، ربما لن يحتملها، وربما انضمت بعض العناصر الانجليزية من الذين يحنقون على اليهود للاحزاب المعارضة"، يشير بأن المعارضة المنظمة ضد المارشال آخذه فى القوة فى وقت يواجه فيه الرجل مشاكل داخلية وخارجية عديدة. ففى الوقت الذى يعمل فيه على الارتباط بعجلة الامبراطورية البريطانية، يود منافسوه الانفصال عنها فى أول فرصة. ولذلك يخشون من تكاثر هجرة العناصر الانجليزية الى هذه الديار. بل تعتمد الوثيقة على تحليل مالان، رئيس الحزب الوطنى المتطهر وزعيم المعارضة الرئيسى، لشخصية سمتس. حيث ذكر بأن الانجليز هم الذين على رفع شأن سمتس زمن الحرب العالمية الثانية، لكنه فقد كثيرًا من مكانته الدولية بعد إختفاء تشرشل ورزفلت". مضيفةً " بأنه يعتمد فى الداخل على حزب لا يؤلف بين أعضائه سوى المصالح الشخصية، وهو مؤلف من عناصر غريبة عن بعضها لا يوجد تماسك بينها" (16).

ولا تتركنا القنصلية المصرية دون فهم لأسباب التعضيد البريطانى للجنرال سمتس، لكنها تركز على بعدها الداخلى، فتقول " بأن تعضيده للعنصر اليهودى، حتى قيل أن قوانين الهجرة وضعت بشكل يلائمهم، قد جعلت الألسنة تلوك بإشاعات مغرضة ضد المارشال، وأن هذا سيكون له أثره فى الانتخابات بالتاكيد". وهذا يعنى أن الرجل كان مستهدفًا بالشائعات التى تؤثر على مستقبله السياسى فى الحكم. لكن إضافتها " بأن تخبط الحكومة فى سياستها حيال الملونين والهنود، وعدم استقرارها فى سياسة مراقبة الأسعار، وتحديد الاستهلاك بالبطاقات، وأنها كانت

مهزلة مكشوفة ساعدت الحزب المعارض على تسديد سهام طعنه"، يعنى أن أسبابًا أخرى ستقلل من شعبية سمتس لصالح الداعين للانفصال عن بريطانيا وتكوين جمهورية مستقلة. ولعل تناولها لقصة البطاقات التموينية وما حدث فيها، يشرح المشاكل التى كانت تواجه الرجل. فحين تقول " بأن قصة البطاقات تتلخص فى أن الحكومة أنشات مصلحة على رأسها مدير عام للمواد الغذائية، سافر بين مقاطعة وأخرى، وجاب آفاق البلاد، وأدلى بكثير من المعلومات، فتمخض مجهوده عن الشروع فى توزيع بطاقات لتحديد الاستهلاك فى بعض مواد غذائية لم يفصح عنها، وبعد مضى عام قاموا بتوزيع هذه البطاقات على جميع أفراد الشعب، ولكننا لا نزال نترقب معرفة المواد المراد تحديد استهلاكها، وما قد يقدر لكل شخص، ومتى يتم تطبيق ذلك" (17)، يعنى أن الأحوال الداخلية لم تكن فى صالح الرجل تمامًا.

وربما كانت إضافتها " والمعتقد أن هذه السياسة قد أفلست ومن الصعب تطبيقها اليوم، إذ لم تأت بنتيجة سوى قيام مصلحة جديدة، وصرف مهايا ومرتبات أغدقت على المتولين لأمرها، وإذا أعتبرنا أن مثل هذه الأمور كنقاط ضعف ضد الحكومة القائمة، وهى فى الواقع مما لا تخلوا منها أية حكومة فى الوقت الحاضر، فإن كثيرًا من الناس يتوقعون انتصارًا للحزب الأفريكانى فى المعركة الإنتخابية القادمة"، فهذا يعنى أن كل التوقعات قبل الزيارة كانت لا تصب فى مصلحة الرجل. ولعل تفسيرها " إذا قدرنا أن حزب سمتس ما هو إلا مجموع أفراد اتفقت بين أغلبهم المصالح المادية، ولا يسود بينهم توافق روحى بخلاف الحزب الافريكانى القائم على مثل أعلى مهم"، فهذا يعنى أن فرص فوز الحزب الوطنى المتطهر بالإنتخابات كانت واضحة. لكن حين تقول " بأن كل هذا حدى بكثير من المموليين اليهود إلى إتخاذ الحيطة من الآن لدفع غائلة الاضطهاد الذى قد ينزل بهم إذا ما قدر للحزب الأفريكانى النجاح، فعمدوا إلى توطيد مراكز مالية لهم فى المستعمرات البريطانية المجاورة مثل أوغندا وروديسيا وكينيا، وعلينا أن نقدر حساب بعد النظر لليهود، والذين يشتمون رائحة الانقلابات السياسية من مدى بعيد، ورغم كل هذه الوقائع وما يستنبطونه منها، فإننا لا نساير هذا الرأى بدون تحفظ "، يعنى أن أنصار الرجل قد بدأوا يفكرون فى الهروب من الميدان إلى جهات أخرى. وعلى هذا، فإنها حين تقول " ونعتقد أن الحزب الافريكانى ولاشك سيصادف نجاحًا نسبيًا فى الإنتخابات القادمة، يكسب مقاعد إضافية فى البرلمان لن تتعدى الأغلبية لحزب المارشال، إلا إذا حدث ما ليس فى الحسبان بإختفاء المارشال نفسه من الميدان لأى سبب طارئ، وتفكك حزبه لعدم التماسك بين أجزائه، إذ أنه مرتكز على شخصية المرشال الفذة وكفاءته الممتازة، وليس لخلفه المستر هوفماير قوة الزعامة" (18)، فإن هذا يعد قطعًا منها بأن هذه الفرص الموجودة لسمتس كانت تحتاج لدعم خارجي يستغل تلك الأبعاد، ويرجح فوز الرجل فى إنتخابات سنة **1948**.

ففى الأشهر السابقة على تحرك الأسرة الحاكمة إليها، كان هناك تراجع مؤسف فى مكانة الجنرال سمتس، تللك التى كان يتمتع بها كحليف شجاع وجندى من جنود الدولة. حيث تم إختبار هذا الأمر ليس فقط فى الحرب العالمية الأولى والثانية، ولكن فى مقاومته للمتمردين ايضا. فسمتس حصل على إحترام دولى بإعتباره واحدًا من المهندسين المؤسسين لعصبة الأمم المتحدة. غير أن شكوى حكومة الهند إلى الأمم المتحدة ضد معاملة الهنود في الإتحاد، والمهارة التي بدت فى متابعة الشكوى في الجمعية، قد ركزت الاهتمام على الصعيد الاجتماعي والأحوال العنصرية في جنوب أفريقيا، وجعلت هذا المجتمع الدولى ينظر للفيلد مارشال سمتس بإعتباره مجرمًا في قفص الإتهام. حيث أعتبر هو وحكومته كدعاة للتمييز العنصري ضد الأمم التي حاربت من أجل الرأى الحر، وكان هذا يلقى تنديدًا داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها. حيث فشل سمتس فى منع اعتماد توصية سلبية من قبل الجمعية

العامـة للامـم المتحـدة، علـى الـرغم مـن دعـم الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والمملكـة المتحـدة، ممـا أثـر علـى سمعته في جنوب افريقيا وخارجها. وعلى إثر ذلك، كان لا يـزال خـائر القـوى رغـم النجاحـات التـى حققهـا. فبالاستماع إلى مساجلات بعض أعضاء الوفد الهندي فى الجمعية العامة للامم المتحدة، ورؤية العيون للصور الانسانية المنشورة عن الزنوج الذى يعانون من سوء التغذية في الأحياء الفقيرة في جوهانسبرج، نزلت مكانة الرجلة إلى الحضيض[19]، وبالتالى كان المطلوب ترتيب زيارة بريطانية لدعم رجلها محليًا ودوليًا.

الدافع الثانى، تخفيف حدة التوتر بين الأحزاب البيضـاء. فمنـذ أن رُفعت ورقـة القوميـة المتطرفـة فـى جنـوب افريقيـا سـنـة 1940، بهـدف إعـادة إحيـاء الجمهورية الأفريكانريـة التى سعوا لتحقيقها منذ قيام الاتحـاد[20]، قامت جماعات أفريكانرية شبه عسكرية، كاصـحاب القمصـان الرماديـة Greyshirts، فحظيت على دعم ضمني من بعض أعضاء الحكومة. بل هاجمت تلك الجماعات الشيوعيين واليساريين، وكـانوا يسعون لإقامـة الجبهـة الشـعبية البيضـاء[21]. وكانـت منظمـة الأوسيوا براندواج♥ Ossewa Brandwag، والتى يتزعمها الدكتور فان رينزبرج أمين سر وزارة العدل سـابقًا والمـدير السـابق لأقلـيم الأورنـج، مـن أكثـر المنظمـات تطرفًا [22]. فى حين تشكلت رابطـة الأخوة الأفريكـانرز التـى انشـغلت بمسـألة الفقـراء البيض [23]. وفـى هـذا الإطـار، يشـير تقريـر القنصـلية المصـرية المـؤرخ بـ 29 يوليـو 1946 بـأن جنـوب افريقيـا تعـج بحركـات وهيئـات تعود فى تكوينهـا إلـى النازيـة. وخير مثال لذلك قيام الحكومة بمنع حركة القمصان الرمادية مـن التظـاهر أمـام دار البلديـة، مسـتندة إلـى قـانون المظـاهرات، ونفـس الأمـر تـم مـع منظمـة الأوسـيوا براندواج. حيث كان حزب الأفريكارز، وهو غير حزب الوطنيين، يصر على إنشاء نظام جديد. فتكاتفت جميع هـذه المنظمـات مـع الحـزب الـوطنى لإسـقاط حكومـة سمتس فـى الانتخابـات القادمـة. وذلـك مـن أجل إقامـة حكومة لديها مُثل سياسية عليا، وربما لإعلان الانفصال عن انجلترا. وأوضح مثـال لـذلك حركـة الجمهـوريين، الذين يؤمنون بتلك الفكرة، لكن كانت تنقصهم الحنكة السياسـية، وعـدم اتسـاع الأفـق فـى نظـرتهم الدوليـة، وتغلـــب روح التعصـــب الـــدينى والعنصـــرى فـــى برامجهم[24].

ووصــل الصــراع بــين الحــزب الــوطنى♥ والحـزب الإتحـادى♥ إلـى مـداه بعـد الحـرب العالميـة الثانية. حيث استغل الحزب الوطنى المتطهر أن 41% مـن الأفريكـانرز كـانوا مـن أصـحاب الياقـات الزرقـاء Blue Collar [25]، وأن هـذا الإرتفـاع فـى أعـداد الفقـراء محصـور فـى الافريكـانرز فقـط، وأن مشـكلة ارتفاع أسعار المساكن، ونقص بعض السلع مثل السكر والصــابون وإرتفــاع تكــاليف المعيشــة، مستشــرية بينـهم[26]. وبالتـالى كـان تـرك الصـراعات تنتشـر فـى جنـوب افريقيـا، يعنـى أن بريطانيا ستفقد جنوب افريقيا فـى الـدخول معهـا فـى أى ترتيبـات تتعلـق بالـدفاع عن الشـرق الأوسـط، بعـد أن أصـبح القاعـدة الرئيسـية للبريطانيين ضد تمدد الاتحاد السوفيتى إلى مستعمراتها الافريقية[27]. وكـان هذا التدافع والصدام يعرض الأمن الاستعمارى فى جنـوب افريقيـا إلـى الخطـر. وكـان مـن الطبيعـى أن تحـدث تـدخلات خارجيـة لإنقـاذ الموقـف، فكانت الزيارة الملكية.

وخطاب القنصل العام االمصرى بمدينـة الكيب إلى وكيل وزارة الخارجية فى 30 مايو 1946 يشير إلى اختلالـف الاحـزاب البيضـاء حـول كـل شيئ فـى جنـوب افريقيا. وهذا يدلل على جو التوتر الذى كان سائدًا قبل الزيـارة. فـالحزب الـوطنى كـان يختلـف مـع الحـزب الاتحادى مع حزب الدمنيون مع حزب العمال [28]. بل شـهدت الفتـرة مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة حركـة حزبيـة أسـفرت عن زيـادة حدة الصـراع السياسـى بين الأحزاب، خصوصًا ما بين الحزب الإتحادى الحاكم وبين الحـزب الـوطنى [29]. فقـد بـدأت بـوادر انشـقاق الحـزب الإتحادى نفسه منذ سنة 1943، كما حدث إنخفاض فى

شعبيته. وكان هذا يعكس لبريطانيا شعورًا بعدم الإطمئنان [30]. وبالتالى كان لابد من التحرك.

وكان توجس البيض فى الزيادة السكانية لغير البيض قد فرض اللجوء لسياسة الهجرة. حيث يشير تقرير 29 يوليو 1946 " بأن حكومة الإتحاد شرعت فى توجيه الدعوة الى انجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا والدانمرك والنرويج واليونان لإختيار عدد من الايتام للاقامة فى جنوب افريقيا، وربما يصل عددهم الى 5 آلاف نسمة. وأنهم سيحددون لكل دولة عددًا معينًا، ولأهالى الإتحاد البيض أن يثبتوا ما يشاءون من الأطفال إذا وافقت دولهم الأصلية على ذلك. وعينت لجنة للسفر لتلك البلدان لإنتقاء الأطفال، والتأكد من سلامتهم عقليًا وجسمانيًا" [31]. ويؤكد هذا ما ذكره تقرير القنصل العام االمصرى بتاريخ 5 أبريل 1947، بأنه حينما نشر إحصاء سنة 1946 تبين أن عدد سكان الإتحاد قد بلغ 11258858، منهم 2335460 أوروبيا، و 7735809 افريقيا و282539 آسيويا، و905050 ملونًا، فحدثت ضجة كبيرة فى جنوب افريقيا. فلجأت الحكومة لتشجيع هجرة الأوربيين إليها، وذلك لأن الإجراءات المحلية بتشجيع الإكثار من النسل بتحقيق ضمانات اجتماعية واقتصادية للمتزوج ودفع إعانات إضافية للمعيل، لم تؤت أوكلها. لهذا نشرت الحكومة سنة 1947 دعاية كبيرة لتشجيع الهجرة، وأوفدت لجانًا فى مختلف أنحاء أوروبا لإنتقاء نوع المهاجرين المرغوب فى جلبهم. غير أن التقرير يفيدنا بأن الأفريكانرز كانوا لا يرغبون فى سياسة الهجرة التى دعت لها الحكومة. لأنها ستساعد على مجئ عناصر انجليزية جديدة، أو عناصر أخرى أقرب الى التفاهم مع العنصر الإنجليزى، كاليونانيين والإيطاليين، ممن يعززون حزب المرشال سمتس. ولذلك سعوا إلى استدراج عددًا من الهولنديين، وهو ما كان يصعب تحقيقه فى تلك الفترة، نظرًا لحاجة هولندا الماسة لأيدى أبنائها العاملة. ناهيك عن خشيتهم من قدوم اليهود، فقاموا بمظاهرات ضد هذا الأمر. ورغم الاختلافات الموجودة بين الأحزاب البيضاء إلا أنهم كانوا لا يتفقون على جلب أكبر عدد ممكن من المهاجرين البيض للسيطرة على العناصر الأخرى من الهنود والملونيين[32].

وتشير إحدى الوثائق المصرية بأن الانتخابات البرلمانية لسنة 1943 كانت كسبًا للحزب المعارض، حيث كانت سيطرة اليهود الناطقين بالانجليزية على اقتصاديات البلاد، قد جعلت الشعب يميل إلى التخلص من حكم سمتس والمجيئ بحكم مالان. وفى هذا الإطار، فإن الإشارة "بأن إنضمام السيد هافنجا، رئيس حزب الافريكانرز، مع الدكتور مالان رئيس الحزب الوطنى ورئيس المعارضة فى البرلمان، لمعارضة سمتس ودخول الانتخابات جنبًا إلى جنب"، كان نقطة الخطر الحقيقية فى الموضوع، فهافنجا شخصية مهمة، فإنضمامة إلى جانب مالان يعنى تمدد الانفرط فى المنظومة القائمة. ففى نفس السياق تشير الوثيقة بأن الرجلين، مالان وهافنجا، قد أرسلا الدعوات الى الاحزاب المعارضة للانضمام اليهم لإسقاط الحكم القائم. وهذه الأحزاب هى الأوسيوا براندواج والعهد الجديد، وكلها من العناصر الافريكانية، وتميل إلى توجهات نازية، ولا تخفى من أغراضها شيئًا، حيث تدعو إلى الجمهورية صراحة. وهى أحزاب قومية غير ممثلة فى البرلمان، وكانت موضع ريبة وضغط شديد فى زمن الحرب [33]. وهذا يعنى أن تدخلًا خارجيًا يجب أن يتم فى تلك اللحظة، فكانت الزيارة الملكية جزءا من الحل.

<u>الدافع الثالث</u>، التخفيف من توترات الافريقيين وضمان ولائهم. حينما أتيحت الفرصة للبرجوازية الافريقية بنهاية الحرب العالمية الأولى، لأن يكون لها وجود نسبي وصوت سياسي في المناطق الحضرية الكبرى في جنوب أفريقيا، وحصل أعضائها على هامش من الثروة والمكانة، راحوا يلعبون دورا مهما فى ترويض المقاومة الافريقية وتهدأتها. وظل الامر هكذا حتى نجح الحزب الشيوعي فى اكتساب شعبية بين الافريقيين، خصوصًا فى فترة الكساد العظيم من 1929-

1933. وفى هذا الإطار لعبت الجبهة غير الأوروبية المتحدة، والمكونة من تحالف الأفارقة مع الملونين والهنود سنة 1939 دورًا مهمًا فى تنشيط حركة التحرير الوطني. فنشأت رابطة شباب المؤتمر الوطني الافريقي في أبريل سنة 1944. ولما كان معظم المنتمين لها من المدرسين والكتبة والطبقة المهنية، وكلهم تحت سن الـ 40، لذا فقد شكلوا تحالفات مع المنظمات الأفريقية غير الرسمية، فكانت لهم اتصالات مع الفلاحين والعمال. حيث سعى مُنظِّرها، أنتون ليمبيدى، حتى وفاته في عام 1947، لتطهير الحركة القومية الأفريقية من أى عناصر أخرى، والاعتماد الثقافي على الذات. وبالتالى كانت حملات المقاومة الشعبية خلال الأربعينيات، مثل مقاطعة الحافلات التي نظمها سكان مدينة الكسندرا بين عامي 1944 و1945، للمطالبة بحرية التملك، والاضربات العمالية سنة 1946، وأيضًا حركة الحقوق في ضواحى جوهانسبرج فى الفترة من 1944 - 1947 [34]، قد جعلت الوضع مشتعلًا بين الافريقيين. فكان لابد من الزيارة الملكية للتخفيف من حدة توترات هؤلاء الافريقية . فضلًا عن طمأنة الافريقين الموجودين تحت الحماية، فى سوزازلاند وباسوتولاند وبتشوانالاند، بعدم ضمهم لإتحاد جنوب افريقيا، وبقاء علاقتهم مع بريطانيا فقط.

الدافع الرابع، تهدأة توترات الآسيويين والملونيين. فقد كان قانون حيازة أراضي الآسيويين، وقانون تمثيل الهنود لعام 1946، من أهم قوانين التمييز العنصري التي أشعلت حملة المقاومة السلبية الهندية فى الأربعينيات. أما بالنسبة للملونين وهم يشكلون نسبة 10٪ من إجمالي سكان جنوب افريقيا، فقد كان سلوكهم حاسمًا في تحديد سياسة الحكومة، بل كانوا فى كثير من الأحيان يشكلون المعارضة لهذه السياسة. وحين حدث تقارب قبل انتخابات سنة 1943، وأعلن عن إقامة إدارة منفصلة لشؤون الملونين داخل وزارة الداخلية، حيث كانت تدار كجزء لا يتجزأ من سلطات البلديات والمقاطعات، أنشأوا جهبة للدفاع عن الملونيين فى مايو 1943. وهى التى ساهمت مع الحزب الشيوعي والجبهة غير الأوروبية المتحدة، والنقابات العمالية ورابطة المعلمين ، فى إشعال حركة المقاومة ضد الحكومة البيضاء. ووصلت التوترات إلى مداها فى يونيو 1946 لذا صدر قانون الجمعيات المثيرة للشغب، فتم حظر أى تجمع سلمى تزيد تحركاته عن أربعمائة متر، مما جعل الجمعية العامة للأمم المتحدة تطالب فى أكتوبر سنة 1946 بالإفراج عن حوالي 750 معتقلًا، لكنها فشلت فى أن تقود حملة إدانة دولية ضدها [35]. وفى هذا الإطار، كانت الزيارة الملكية مهمة للغاية، وتحتاجها جنوب افريقيا وبريطانيا نفسها.

الدافع الخامس، دافع اقتصادى. فإذا كانت بريطانيا قد قاتلت فى القرن 19 من أجل السيطرة على الماس والذهب، لذا فإن الرغبة فى استمرار السيطرة ظلت موجودة وقائمة. لكن الجديد بعد الحرب العالمية الثانية هو الرغبة البريطانية فى مساهمة جنوب افريقيا فى علاج مشكلات بريطانيا الداخلية. ولعل المساعدات التى جُمعت على هامش الزيارة فى كيب تاون وجوهانسبرج، لمساعدة بريطانيا فى محنتها[36]، تؤيد تلك الرغبة وتشرحها. ناهيك عن الرغبة فى بقاء الميزان التجارى فى صالح بريطانيا، كما هو الحال منذ سنة 1925. فضلًا عن الرغبة فى قيام جنوب افريقيا بمساعدتها فى حل أزمة الأرصدة الأسترلينية بعد الحرب العالمية الثانية. فضلًا عن الرغبة فى استمرار شركات المملكة المتحدة فى ممارسة أعمالها التجارية في جنوب أفريقيا [37].

الدافع السادس، رسم استراتيجية جديدة للكمنولث البريطانى. فتحت عنوان " زيارة العائلة الملكية إلى جنوب أفريقيا فى الصحافة الأمريكية"، يشير التقرير الذى أرسله اللورد إنفيرشيبل Inverchapel من واشنطن إلى بيفنBevin فى 24 يونيو 1947، بأن الغرض الرئيسى للزيارة الملكية، هو التوصل الى استراتيجية جديدة للكومنولث البريطانية. حيث ناقشها التقرير عبر مقالين مهمين نشرتهما

الصحف الامريكية: الأول، فقد أشار ستيوارت ألسوب Stewart Alsop لهذه الأطروحة، عبر مقال نشرته صحيفة الواشنطن بوست يوم 7 يونيو بعنوان "الفول السوداني والإمبراطورية Peanuts and the Empire". حيث كتب يقول: "ما حدث هو أن أفريقيا قد حلت محل الهند والشرق الأقصى، كنقطة اتصال بين الإمبراطورية البريطانية. فمنذ أن تم إغلاق خط الحياة في الشرق الأوسط في معظم فترات الحرب العالمية الأخيرة، وحدث تطوير للطائرة بعيدة المدى، فضلًا عن الأسلحة الجديدة، وحلت افريقيا ببطء لتأخذ مكانها، حدث هناك اعتراف بريطاني بأنهم لن يحتفظوا في القريب بإمبراطوريتهم في الشرق الأقصى، وفي هذا الاطار سيعتمدون على أساس استراتيجي رئيسي من نقطتين: تطوير شرق أفريقيا، عبر مشروع زراعة الفول السوداني. ومن خلال دفع اقتراح الإمبراطورية الجديدة، بأن تلعب افريقيا قاعدة الحماية الرئيسية للاستراتيجية البريطانية والحفاظ على نفط الشرق الأوسط. وفي المقال الذى نشره هانسون بولدوين Hanson Baldwin، المراسل العسكري لصحيفة النيويورك تايمز، يوم 15 مايو، أشار فيه إلى خطوة أبعد في الاهتمام الأمريكى بالزيارة، حيث ذكر بأن: "الزيارة الملكية إلى افريقيا...لم تكن مجرد جولة عادية .. فالجزر البريطانية هى عاصمة العالم في العصر الذري وعصر الصواريخ، وقاعدته في مجال الطاقة. أما جنوب أفريقيا، فهى بعيده جدًا من الناحية الجغرافية، لكنها تملك قوة مادية واقتصادية تحتاجها أمريكا، شأنها شأن كندا وأستراليا، فهى تقدم موقعًا مثاليًا كعاصمة بديلة لدول الكومنولث البريطاني، حيث يشكل طريق رأس الرجاء الصالح مجالًا مفتوحًا بدرجة معقولة أمام البحرية البريطانية والقوة الجوية البريطانية إذا اعتمدت على جنوب أفريقيا. علاوة على ذلك، فإن افريقيا قارة هائلة وغير مستغلة الثروة، ولديها احتياطي كبير من المعادن الغنية، بما في ذلك اليورانيوم. واستغلال هذا المعدن الأخير سيعيد القوة التاريخية للجنية البريطاني، بإعتباره متحكم في مصير العالم. ولم يستغل شيئ من إمكانيات القارة المظلمة، سواء كقاعدة عسكرية، أو كرأس مال سياسي، وخزان اقتصادي، يمكن أن تفقده بريطانيا؛ حيث كانت جنوب افريقيا تزرع، وكينيا تتطور. وتختم الوثيقة لتقول " انتهت الزيارة الملكية لتكون بداية عهد جديد، يكون فيه التحول في مركز قوة العالم، بعيدًا عن أوروبا ونحو أفريقيا "[38].

وفى نفس التقرير السابق، وفى السياق نفسه، أعاد والتر ليبمان Walter Lippmann فى 18 مايو إلى الأذهان خطاب الفيلد مارشال سمتس فى يونيو 1946. والذي قسم فيه العالم إلى مجموعتين كبيرتين تقع بريطانيا بينهما، وبأن كل مجموعة تحتاج للأخرى فى منع الحرب. حيث ذكر بأن خطاب سمتس قد بشر بعقيدة مخالفة لعقيدة التضامن الأنجلو أمريكي التى أعلنها السيد تشرشل في فولتون، وجاء الكلام ضمنًا في عقيدة ترومان. فقال بأن هذا الكلام يحوز أرضًا فى الواقع:" فالزيارة الملكية إلى جنوب أفريقيا، ضمنت لبريطانيا الجنرال سمتس كرئيس للوزراء، فى الوقت الذى تراجع فيه دورها فى اليونان وتركيا ومصر وفلسطين. فضلًا عن اتفاقها الاقتصادي مع بولندا، ومفاوضاتها مع الاتحاد السوفيتي". وأيضًا يشير إلى دفاع خطاب تشرشل عن أوروبا المتحدة، بقوله "سنكون نحن الأوروبيين". وطلب من الدمينون البريطانى والولايات المتحدة إعطاء مباركتهم لدور بريطانيا الجديد،" بلعب دور كامل لها كعضو في الأسرة الأوروبية ". وأنه لا يمكن تجاهل هذا الأمر إلا بعد فهم ما يجري في العالم. وفى هذا الاطار ينتهى التقرير إلى نتيجة مهمة، فحين يقول " لم تذهب العائلة الملكية إلى جنوب أفريقيا من أجل الهروب من الطقس البارد في انجلترا، ولكن لتعزيز التغيير الذى يجرى في الإمبراطورية، وللتأكيد على استراتيجية الثورة في الاستراتيجية الامبراطورية، حيث وجدت بريطانيا في جنوب أفريقيا أرضًا غنية وبيئة صالحة للخروج من

مــأزق الانســحاب مــن الهنــد، لتكــون قريبــة مــن الإمبراطوريــات الشــرقية، وقــوة كبيــرة مســتقلة فــي العالم"، يعنى أنها احتفظت بجنوب افريقيا لجانبها. وإذا كان الأمر من تلك التعليقات يبدو جليًا، فإن الأميركيين قد حدث لهم تشويش حول أهمية الزيارة، ولا يوجد شك فى أنهم ينظرون إليها على أنها حققت نجاحًا منقطع النظير، وآثارها لا تقتصر على اتحاد جنوب أفريقيا أو على الكمنولث البريطانى فقط [39]. إذًا، كانت الزيارة لها أبعاد استراتيجية وأمنية عليا رصدتها الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن ترصدها بريطانيا نفسها.

<u>المحور الثالث- تأمين الملك جورج السادس والعائلة الملكية:</u>

لا يمكن القول بأن خطة تأمين الملك جورج السادس وأسرته خلال زيارته لجنوب افريقيا، قد بدأت مع حلولهم بإتحاد جنوب افريقيا. فعلى الأرجح أن الاستعدادات التأمينية قد بدأت مع إعلان الخبر فى الإتحاد فى 21 مارس 1946، أى قبل الزيارة بعام، فقد كان كل شيئ مرتبًا بعناية تقريبًا. أيضًا نعرف من رسالة السير إيفلين بارينج للورد أديسون فى 10 مارس 1947، بأن شعب جنوب افريقيا ومسئوليه كانوا يتابعون الزيارة منذ أن بدأت فى 31 يناير 1947. فمن خلال تقارير الحياة اليومية المرسلة من داخل السفينة فانجارد Vanquard التى تقل العائلة الحاكمة، وكذا من خلال المقالات الصحفية عن الحياة الخاصة للعائلة المالكة وموظفيهم، عرفوا الكثير عن تفاصيل الزيارة وتأمينها داخل المحيط الأطلنطى. ثم تنقلنا الرسالة مباشرة للاستعدادات التى جرت فى كيب تاون طيلة الأسبوع الذى سبق الزيارة، فتقول بأنه " فى مساء يوم الأحد 16 فبراير، كان الناس يتجمعون في الشوارع ليتفحصوا الأماكن التى سيشاهدون من خلالها الموكب الملكى في صباح اليوم التالي" [40]. وفى نفس السياق يشير خطاب القنصل العام المصرى بأنه " قبل وصول العائلة الملكية بشهر، قامت فى المدينة حركة واسعة فى التنظيف والتزيين، وحين وصلت العائلة احتشد جمع غفير من الناس على اختلاف طبقاتهم فى طريق الركب الملكى" [41]. وهذا يعنى أن كل شيئ كان معدًا بعناية، وبشكل جيد. فالزائرون سيحتكون بجماهير مختلفة الأشكال والألوان ومتباينة سياسيًا وثقافيًا؛ فيها المؤيد للزيارة، وفيها المعارض لها والناقم عليها، ومن الطبيعى أن يتم الترتيب بين الإدارة البريطانية والإدارة الجنوب افريقية حول سُبل تأمين الملك وعائلته. ويمكن تلخيص طبيعة هذا التأمين فى أربعة أشكال رئيسية:

الشكل الأول، عبر السفينة فانجارد. أعتقد أن تأمين العائلة الملكية قد بدأ مع بداية الرحلة من بريطانيا، فالرجل سيزور أكبر مستعمرة فى افريقيا وأغناها، وبها مشاكل لا حصر لها، لهذا فإن اختيار السفينة فانجارد، بإعتبارها أكبر سفينة بحرية بريطانية، كان لحاجة فى نفس بريطانيا. فمن يتابع السفينة، وحجم القوات التى عليها، والتسليح المصاحب للزيارة، يستشعر تلك القوة الرهيبة التى جاءت تحمى الملك وترهب أى قوى تحاول المساس به. واعتقد أن وصول البارجة قبالة كيب تاون في الفجر، ثم اقترابها من رصيف دنكان Duncan Dock ، ونزول الملك وعائلته في الساعة التاسعة والنصف صباحًا، والراية الملكية ترفرف على صاري السفينة الرئيسي، وعلم البحرية الأبيض الرسمى، يشعرك بأن الأمر ما هو إلا رسالة ترهيب مهمة للقوى المسيطرة على جنوب افريقيا إذا ما حدث شيئ يعكر صفو الأسرة المالكة. ولعل مجيئ رئيس هيئة الأركان العامة، ورئيس أركان جنوب المحيط الأطلسي، فى مقدمة الأشخاص الذين حضروا مناسبة استقبال الملك فى ميناء دنكان، يعنى أن هناك قوة بريطانية موجودة داخل الاتحاد مهمتها الحفاظ على حياة الرجل وأسرته. بل كان هناك ارتياح من حكومة الإتحاد وموافقة، على الاعتراف بالدور الذى لعبته البحرية الملكية في إحضار الأسرة الملكية لشواطئ هذا البلد [42]. وعلى هذا فإن التأمين الشخصى للملك وأسرته لا يوجد به مشاكل تقريبًا.

فالاستعراض البريطانى للقوة بدأ مع إبراز رهبة السفينة الحربية فانجارد، حين فتحت للجمهور منذ 22 فبراير 1947. حيث زارها أكثر من 17،000 شخصًا، وظل المئات فى إنتظار الذهاب على متنها قبل أن ترحل بعيدًا. حيث شاهدوا عرض مشاة البحرية الملكية على متنها فى 25 فبراير، حضره حشد كبير للغاية [43]. وهذا يعنى أن الامبراطورية استطاعت أن تفرض هيبتها فى أول نزول للملك فى جنوب افريقيا. فكان وصول الملك على ظهر باخرة تعتبر من أكبر قطع الأسطول، ودعوة جميع أفراد الشعب لزيارتها يومى السبت والأحد ، وإقامة حفلة الشاى على ظهرها، دعوا إليه بضعة مئات من علية القوم [44]، يعنى أن الإدارة البريطانية قد أوصلت رسالة لمعارضيها، فهمها الأفريكانرز فى الداخل بشكل قوى.

الشكل الثانى، التأمين خلال عملية الانتقال. فنتعرف من إحدى الوثائق البريطانية فى16 مايو 1947، أنه تم وضع ترتيبات خاصة من قبل سكك حديد جنوب أفريقيا، حيث برز وجود شرطة جنوب أفريقيا قويًا رغم غيابها فى كثير من الحوادث المؤسفة. وتم الترتيب مع هيئة إذاعة جنوب أفريقيا لتغطية الزيارة الملكية فى كافة الأماكن التى تزورها والطرق التى تسير فيها. ورتبت محطات السكك الحديدية الكبيرة أمنيًا لتمكين الأسرة الحاكمة من التقرب للجمهور، كما هو الحال حينما كانوا يلتقون مع أناس عاديين أو فلاحين. وعلى هذا تم الترتيب لتكون تحركات الأسرة عبر القطار، ليكون كقاعدة رئيسية ينطلقون منها. فعبر وقوفه المتكرر في محطات الطريق، رتبت الأمور على أن تكون مفيدة للغاية [45]. وفى هذا الإطار، اشترى اتحاد جنوب افريقيا القطار الأبيض خصيصًا لتلك المناسبة، وهو قطار عدد عرباته 15 عربة، تتوفر فيه جميع سُبل الراحة والمتعة، غادرت من خلاله العائلة المالكة الكاب فى يوم الجمعة 21 فبراير 1947 لتزور كافة نواحى جنوب افريقيا والمناطق المجاورة لها [46]. وحينما ذهبت العائلة الملكية عبره إلى شلالات فيكتوريا، وضعت خطط جيدة لحسن سير هذه الجولة، من إعادة تخزين المياه، وإعداد مرافق الإذاعة والتلغراف وغسل الملابس وغيرها من الأمور [47].

الشكل الثالث، تخصيص قوة خاصة بالتأمين. فقد وضعت ترتيبات الزيارة الملكية فى منتهى الدقة والنظام، حتى لا يحدث أى شيئ يكدر صفو الأمن. حيث وضعت الحكومة الاتحادية نظمًا أمنية تحافظ على الأسرة المالكة بين التجمعات المرحبة، وأقلها يبدأ بـ 50 الف جنديًا، وأكبرها يصل لـ 250 الف جنديًا [48]. وهذا يطابق ما أشارت له القنصلية المصرية، " بأن حجم القوة المخصصة لتأمين الزيارة فى الكيب يقدر بنحو خمسين الف شخص، على خلاف ما أذاعه راديو لندن بربع مليون نسمة" [49]. وكان إمتناع غالبية الافريكانرز عن الترحيب بالزيارة يتطلب تغييرًا فى استراتجية تأمين الأسرة الملكية، كما هو الحال مع تزايد أعداد المرحبين فى المناطق الافريقية داخل الإتحاد [50]. بل تشير إحدى التقارير بأن شرطة جنوب أفريقيا هى التى كانت تتولى حراسة الملك طوال فترة الزيارة ، حيث استعرض الملك بنفسه بعض قواته المؤمِنة لزيارته [51].

الشكل الرابع، قوة افريقية خفيفة عند زيارة المحميات البريطانية. مع أن التقارير لم تذكر لنا حجم القوة المخصصة لتأمين الزيارة، لكننا نستشعر من حديث الوثائق عن الترتيبات الدقيقة الموضوعة فى شلالات فيكتوريا وبتشوانالاند وروديسيا الجنوبية [52]، بأنها كانت مرتبة بطريقة صارمة، غير أنها كانت قليلة العدد للغاية. ففى سوازيلاند، ورغم أن خبرة المفوض المقيم، بيتهامBeetham ، لم تتعد ستة أشهر، إلا أنه لقى نجاحًا ملحوظًا في التغلب على كافة الصعوبات، سواء المادية أو البشرية. فقد حرص على ألا تكون هناك أي عقبة في الإجراءات أو أي صعوبات مع السوازي، لأنه ليس من السهل السيطرة على القبيلة أو تنظيمها فى مثل تلك المناسبات. وبمقارنة عدد الشرطة المخصصة لتأمين زيارة السوازى بتلك التى كانت في

زولولاند، لوجدنا فى الأخيرة عدد كبير من الشرطة الأوروبية، أما فى سوازيلاند فلم يكن هناك سوى نحو عشرين شرطيًا في أرض الندابا. بل لم يسمح للمحاربين في زولولاند بحمل الرماح، وحاول الأوروبيون أيضًا تنظيم رقصة الزولو، وهو الأمر الذى جعل الزولو يفقدون حماسهم خلال الزيارة [53]. وهذا يعد نوعًا من التمييز بين الافريقيين القابلين بالزيارة فى المحميات، وأولئك الذين يثيرون القلاقل للحكومة المحلية داخل اتحاد جنوب افريقيا.

وفى باسوتولاند، وفى بيتسو تحديدا، كان هناك 22 من رجال الشرطة يقومون بأداء واجبهم. وكان الحشد بما يقرب من 100،000من الباسوتو منظم وبشكل هادئ تمامًا. وكان عدد أفراد الشرطة المستخدمين في باسوتولاند وفى سوازيلاند، في تناقض صارخ مع عدد الحاضرين في احتفالات مماثلة في ترانسكاي وزولولاند. واعتقد أن ما يقرب من 1000 رجل شرطة كانوا حاضرين فى كليهما. بل إن الترتيبات التي وضعتها الإدارة طوال فترة الزيارة للتعامل مع الحشود الكبيرة فى الباسوتو كانت تلقى الإعجاب. ومن بين العديد الذين استحقوا هذا الإعجاب عدد من الموظفين الإداريين وضباط الشرطة [54]. وتم نفس الأمر فى محمية بتشوانالاند، فقد كان عدد القوات المؤمنة صغيرًا. حيث قدم مجموعة صغيرة من الحراس، تحت قيادة الكابتن لانجليLangley ، التحية الملكية [55]. ونخلص مما سبق أمرين: الأول، أن تامين الزيارة الملكية كان قويًا وكبيرًا عبر أنحاء إتحاد جنوب افريقيا، وكان قليلًا جدًا فى المحميات البريطانية. الثانى، أن شكل التأمين يعكس القلاقل الموجودة ويعكس عملية الرفض والقبول للزيارة. فالأماكن المرحبة، وخارج الإتحاد، كان التأمين فيها خفيفًا، فالناس كانت تعلن الولاء وتعبر عنه بكافة الأشكال والألوان. أما المناطق الرافضة للحكم الأبيض فكان التأمين قويًا، لكنه لا يعكس كراهية للملك وأسرته بقدر ما يعكس خشية على حياة الأسرة إذا حدث شيئ يعكر صفو الزيارة.

<u>المحور الرابع- برنامج الزيارة وأبعاده السياسية :-</u>

إذا كانت الزيارة الملكية لاتحاد جنوب افريقيا فى ظاهرها ترفيهى، فإن تتبعها يكشف لنا طبيعتها السياسية فى المقام الأول. ولهذا وجب علينا قراءة كافة التقارير والوثائق الرسمية المتعلقة بهذا الأمر. وإذا تتبعنا برنامج الزيارة والأماكن التى زارتها العائلة المالكة طيلة الفترة من 17 فبراير 1947 وحتى 24 ابريل 1947 لوجدنا بأن الأمر يحتاج إلى قراءة أكثر من أرشيف حولها. فلم يكن الأرشيف المصرى هو الوحيد الذى سجل الزيارة، بل هناك الأرشيف البريطانى، والأرشيف الجنوب افريقى وغيرهما، وفى هذا الإطار سنتابع برنامج الزيارة عبر أرشيفات ثلاث: أولها، الأرشيف البصرى. فهناك ميداليات من البرونز والفضة والذهب توثق للزيارة، وهناك عملات معدنية وورقية وطوابع بريدية تؤرخ للزيارة وتوثقها [56]. وهناك وثائق تحمل توقيعات الزوار الملكيين أنفسهم، مثل كتاب الزوار لسلاح المهندسين فى الترانسفال، ودفتر تشريفات الكنيسة الانجليكانية فى الترنسفال، ومتحف الترانسفال للفوج الاسكتلندي. وهناك كتاب زوار كينجز فى ديربان، وهناك البرنامج التذكارى للزيارة الملكية لإيست لندن، وهناك صور وكتب تذكارية تسجل للزيارة وتشرحها. وهناك صور وأفلام للقطار الملكى الذى نقل الزائرين الى كل ركن تقريبًا فى جنوب أفريقيا [57]. بل هناك أفلام وثائقية كثيرة تم تسجيلها خلال فترة الزيارة، وتتبعت برنامجها خطوة بخطوة. فعلى سبيل المثال هناك فيلم من جزئين: يسجل أحدهما مغادرة العائلة المالكة لبريطانيا من قصر باكنجهام في 31 يناير 1947 مصحوبة بهتاف الحشود البريطانية، ثم ركوبهم القطار من محطة واترلو للذهاب لميناء بورتسموث، ثم ركوبهم للسفينة فانجارد ووصولهم إلى كيب تاون في 17 فبراير 1947. أما الآخر فيسجل الزيارة الملكية لمضمار سباق الخيول فى

كينيلورث قرب كيب تاون، ثم افتتاح الملك للبرلمان الاتحادى التاسع، ثم زيارتهم لبورت اليزابيث، وينتهى بمشهد رقص أفريقي احتفالى[58].

وهناك عدد كبير من الأفلام توثق للزيارة فى كل ركن ذهبت إليه العائلة المالكة عبر منطقة الجنوب الافريقى ككل. وإذا ما نظرنا إلى عدد من تلك الأفلام التى وثقت للزيارة وسجلتها، وهى منشورة على شبكة المعلومات الدولية، سنجد أن الملك جورج السادس ترافقه الملكة وأبنتيه الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت إلى اتحاد جنوب افريقيا، بإعتبارها المرة الأولى التى يخرج فيها الملك مع عائلته فى جولة خارجية [59]. فإحدى هذه الأفلام تتبع الزيارة عبر السفينة خلال السبعة يومًا التى قضوها فى مياه المحيط الاطلنطى، فى الفترة من 31 يناير إلى 17 فبراير 1947 وتوثق لنا مشاهد من تدريب الأميرتين على إطلاق النار على سطح السفينة، ثم الألعاب التى شاركوا فيها شباب الضباط على السفينة. ومشاهد من عمامة الملكة البيضاء، ثم إرتدائها لملابس تنكرية خلال احدى حفلات السفينة بمناسبة إقترابها من ميناء كيب تاون. ومشاهد من صعود فان زيل، الحاكم العام وزوجته، وجان سمتس رئيس الوزراء وزوجته، ثم مصافحتهم الملك جورج السادس وأسرته على سطح السفينة، ثم نزولهم إلى رصيف الميناء، ثم إنطلاقهم إلى مقر الحكومة. بعدها ينتقل لمشاهد من هتافات الحشود للأسرة الحاكمة التى تسير فى سيارة مكشوفة عبر الشوارع المزينة بالرايات والشعارات الترحيبية. ثم ينتقل لمشاهد من حفل استقبال بلدية الكيب لهم [60].

وتتبع إحدى هذه الأفلام الزيارة منذ مغادرة السيارات الملكية لقصر باكنجهام فى 31 يناير 1947، ثم تنقل لنا بعض التفاصيل التى سجلها الفيلم السابق، لكنها توثق لنا جلوس الأسرة المالكة على سطح السفينة، وتعطينا صورة أوضح للعبة التاج "tag"، وهى لعبة يطارد فيها الشخص شخصًا آخر، لعبتها الأميرتان مع شباب الضباط. ثم وصولهم إلى كيب تاون فى 17 فبراير، ثم تستعرض بعض الشخصيات المحلية، وتنقل لنا مشهد الالعاب النارية عبر الشوارع المرحبة بالزائرين. ثم تنقلنا لمشهد وصول الاسرة الملكية إلى مقر مجلس الشيوخ لافتتاح البرلمان. وجلوس الملك والملكة داخل البرلمان في ثوب الاحتفال بجلوسه على العرش، فى حين جلست الأميرتان فى شرفة تطل على القاعة، ثم مغادرة مجلس الشيوخ بصحبة المارشال سمتس. ثم تنقلنا لمشهد ركوب العائلة المالكة القطار الأبيض للتجول عبر جنوب أفريقيا، ثم مشهد زيارة مزرعة النعام في أوتشورن، واعجاب الأسرة بالنعام وصغاره. ثم ينقلنا الفيلم الى زيارة الأميرة اليزابيث إلى إيست لندن وتلقيها هدية من الماس.ثم ينقلنا إلى مشهد الزيارة لشاطئ بونزا Bonza، والالتقاء مع الحشود. ثم ينقلنا لمشهد زيارة محمية باسوتولاند، والذهاب لرؤية إحدى القري ثم العاصمة ماسيرو ومشاهدتهم لمئات من الفرسان ومواكب الشيوخ والزعماء. ثم ينقلنا إلى مشهد وصولهم إلى ديربان فى 20 مارس، حيث استقبلتهم الحشود عبر الشوارع بقيادة رئيس البلدية ومسيرة من الجنود السابقين، ثم ذهابهم لأرض الزولو ووصولهم إلى عاصمتهم إيشوى Eshowe ، حيث كان فى انتظارهم تجمع كبير من القبائل فى استقبالهم، وجرى تقديم عرض فولكلورى، ورقصوا رقصة نجوما ايمكوسى. ثم توجهوا لزيارة الباروتس Barotse فقدموا رقصاتهم وموسيقاهم. وذهبوا بعدها فى رحلة عبر نهر الزمبيزى في روديسيا الشمالية. وشاهدوا المراكب الملكية تجري عبر النهر، ثم قاموا بزيارة لقبر سيسيل رودس فى 15 أبريل. ثم عادوا مرة أخرى لكيب تاون، فشكر الملك والملكة موظفي القطار الأبيض. ثم ينقلنا الفيلم لمشهد الاحتفال بعيد ميلاد الأميرة اليزابيث الـ21 فى 21 أبريل. ثم قيامهم برحلة إلى قمة جبل تيبل، ثم يختم بمشهد مجئ سمتس ووزراءه لتوديع العائلة المالكة لحظة مغارتها جنوب افريقيا يوم 24 أبريل، ثم صعود الأسرة لسطح السفينة فانجارد، حيث حياهم قائدها الكابتن أجنيو، ثم التلويح

للحشود الموجودة على الشاطئ، ثم تحرك السفينة عائدة بهم إلى بريطانيا (61).

وقدم لنا أحد الأفلام مشاهد مهمة لزيارة الأميرة الشابة إليزابيث إلى إيست لندن ثم الاحتفال بعيد ميلادها الـ21 في 21 أبريل 1947، ثم إلقائها كلمة عبر راديو كيب تاون. وسجل لنا حفلتي ايست لندن♥؛ في ساحة المدينة وفي مقر الحكومة. وكان هذا أول ظهور علني منفرد للأميرة (62). حيث أعطيت قلادة وسوار كهدية من حكومة إتحاد جنوب أفريقيا، عبارة عن سلسلة طويلة من الماس 21 قيراط على شكل الرغيف الفرنسي. وتختلف هذه الهدية عن القطعة الأخرى التي أهداها لها السير أرنست أوبنهايمر، رئيس مجلس إدارة شركة دي بيرز، عندما زارت مناجم كيمبرلي مع والديها في 18 ابريل 1947 (63). خلاصة القول أن الأفلام الوثائقية التى سجلت الزيارة تفصيلًا، قدمت لنا ما لم تقدمه الوثائق الرسمية من تفاصيل، وأكدت لنا على بعض المعلومات الواردة خلال تلك الوثائق. فعرفنا من خلالها ما إذا كان وصف الاستقبالات صحيحًا أو مغاليًا أم مجافيًا للحقيقة. وبالتالى فإن أى مؤرخ لا يرى هذا الأرشيف البصرى المهم، فقد غاب عنه الكثير من التفاصيل والمعلومات.

ثانيها، الأرشيف المصرى، قدمت لنا القنصلية المصرية فى الكيب تفسيرًا لاهتمامها بالزيارة الملكية للإتحاد، وهو كثرة الدعوات التى جاءت لقنصلها العام، بإعتباره عميدًا للهيئة الدبلوماسية فى جنوب افريقيا. صحيح أنه لم يدع فى أول يوم للزيارة، لكنه منذ اليوم الثانى وبالتحديد منذ حفلة حديقة دار الحاكم العام لم تتجاهل إدارة كيب تاون دعوته وزملائه من الدبلوماسيين. فتمت دعوته فى اجتماع البرلمان، وحضر يوم الأثنين 24 فبراير 1947 حفلة الشاى على ظهر السفينة فانجارد. وفى هذا الإطار شرح لنا أسباب هذا الحضور والدعوات، وأن تدخله بوصفه عميدًا للهيئة القنصلية قد غير موقف الحكومة الجنوب الافريقية التى كانت تتجاهل دعوتهم. ولعل قوله " ولقد كان من المعهود فى السنين الأخيرة أن يهمل القناصل حتى مثل هذه الدعوات، حتى أنهم لم يحضروا فى العام الماضى حفل الشاى التى أقامها الحاكم العام بحديقة داره الواسعة، والتى دعوا إليها كل من هب ودب من سكان الكيب، وعندما تولى القنصل عمادة القناصل كان هذا الأمر أول ما اهتم له حضرات زملاءه، فعمل على تحقيق رغبتهم، فكان للقناصل أو لعميدهم قسط وافر فى الدعوات التى أقيمت لجلالة الملك، وهو مايعتبره الزملاء فوزًا لهم" (64)، يعنى أن تحركاته لمطالبة الحكومة بتوجيه الدعوة له ولزملائه هى التى جعلته يقف على تفاصيل كثيرة للرحلة، ويرسلها للخارجية المصرية.

وفى هذا الإطار، يقدم لنا خطاب القنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية فى 6 مارس 1947 معلومات مهمة عن برنامج الزيارة، لكنه لم يتابع كل تفاصيل الرحلة. فيركز على بعض المناطق ويتجاهل بعضها، ربما لعدم أهميتها للخارجية المصرية، أو ربما لعدم قدرة القنصلية على أن يكون لها آذان أو أسماع فى كل الأماكن التى زارتها الأسرة الملكية. فحين يقول " بأن جلالة ملك الأنجليز جورج السادس وجلالة الملكة وسموة ولية عهده وشقيقتها الأميرة مارجريت، قد وصلوا إلى الكيب يوم الاثنين 17 فبراير 1947 على ظهر الباخرة الحربية فان جارد، وكان فى شرف استقبالهم الحاكم العام وزوجته، والمرشال سمطس والوزراء ورجال السلك السياسى، ولم يدع أحد من رجال السلك القنصلى، ونزل الملك ضيفًا على الحاكم العام فى دار الحكومة، وعند وصوله إلى الدار كان فى استقباله أعضاء مجلس النواب والشيوخ، لتقديم تحية الترحيب بالعائلة الملكية، وألقى جلالة الملك كلمة شكر أجاب عليها رئيس مجلس الشيوخ" (65)، فهذا يعنى أن القنصلية رغم عدم دعوة قنصلها لتلك الاستقبالات إلا أنها سجلت تفاصيله بدقة وعناية. بل إن مرفق الرسالة السابقة، وهو عبارة عن ترحيب أعضاء مجلس الشيوخ بالملك وعائلته فى 18 فبراير 1947، وتسجيل لخطاب رئيس مجلس الشيوخ،

وبأنه سعيد لأنها المرة الأولى فى تاريخ الكمنولث لأن يتكون برلمان جنوب افريقيا من الملك وأعضاء مجلس النواب والشيوخ، وأن يفتتحه الملك شخصيًا، وأنهم يصلون من أجل ذلك اليوم، ثم إجابة الملك بشكره لأعضاء المجلسين، وشكره لكل خطابات الترحيب التى قيلت، وشكره للجنرال ستمس ودوره وتقليده لوسام الشرف، ثم قيام الجنرال سمتس بشكر الملك والملكة وسط حالة من التصفيق الكبير[66]، يقطع بأن التقارير المصرية لم تدع تلك اللقطات تمر عليها فى تلك الاحتفالات. حيث أعطتنا من خلال جريدة الكيب أرجوس إضاءات مهمة حول الدور الذى لعبته الأسرة المالكة فى تعضيد الجنرال سمتس، وأن ابقاء الوشائج البريطانية الجنوب افريقية قائمة كان واضحًا فى تحركات الزيارة ومقاصدها. وأن الأمن الاستعمارى كان فى نظر الزائرين أمرًا مهما وقاطعًا. وما أرشارت إليه الوثيقة المؤرخة بـ 6 مارس عما حدث داخل البرلمان " وقيام الملك بتقليد وسام الاستحقاق إلى المرشال سمتس بين تصفيق الحضور، وإمتناع رئيس المعارضة، الحزب الأفريكانى، وهو مالان واحد عشر عضوًا برلمانيًا من حزبه، عن حضور حفلة الترحيب، بينما اشترك أعضاء الحزب البرلمانيون الباقون، ولم يحضر أى عضو من شيوخ المعارضة"[67]، يؤكد لنا الدور الذى لعبته الزيارة فى الوقوف الى جانب سمتس وتعضيده. وأن هذه الموازة كانت سببًا فى نفور أعضاء الحزب الوطنى المتطهر، وإمتناعهم عن حضور فعاليات الزيارة وتقديم واجب الترحيب بالزائرين.

وينتقل بنا الأرشيف المصرى للحديث عما جرى فى مساء يوم 18 فبراير 1947 وعن حفل العشاء الكبير الذى أقيم على شرف العائلة فى دار البلدية، فتحدث عن الخطبة التى ألقاها الملك وأجاب عليها المارشال سمس [68]، وأرفق لنا الخطبة والرد. ومن خلال هذا أمكننا التعرف على خطاب الملك كاملًا، فنتبين منه شكر الملك للجنرال سمتس، مثنيًا على الترحيب الذى لقيته الملكة وبناته وشخصه من سكان جنوب افريقيا. مشيرًا بأن كلماتهم الرقيقة لمست الأوتار بعمق، وأنه تعرف على ولاء السكان للعائلة المالكة بشكل كبير خلال ساعات قليلة من وصولهم، وأنه لا شيئ يمكن أن يزول من ذاكرتهم. ذكرًا الجهد الذى بذلته جنوب افريقيا خلال الحرب العالمية الذنية التى انتصروا فيها سويًا، وأن الحرية هى التى دفعتهم لزيارة دول الكمنولث، وشكرهم على مشاركتهم فى الحرب، مركزًا على الدور الذى لعبه الجنرل سمتس فى لأم الجروح التى نتجت عن الحرب العالمية الثانية، كون كل حرب ينتج عنها مشاكل عويصة صعبة الحل، متمنيًا أن يقضى بينهم رحلة موفقة، وأن يكررها ثانية. وفى نفس الوقت نتعرف من خلالها على خطبة الجنرال سمتس التى رحب فيها بالملك وأسرته معلنًا الولاء للعرش البريطانى، مشيدًا بأنها أول زيارة ملكية، وأنها ستقوى علاقات العائلة الكبرى وصلاتها بشعوب الكمنولث. مذكرًا بالحرب وسنوات الخطر وكيف عاشت جنوب افريقيا وبريطانيا جنبًا إلى جنب، داعيًا للأسرة المالكة بالتمتع بجو جنوب افريقيا والاستمتاع بجمالها. خاتمًا خطبته "بأن هذه فرصة لشعب جنوب افريقيا للرجال والنساء والاطفال وأجناس جنوب افريقيا لتحية الأسرة المالكة وتقديم الولاء للملك والملكة، وأن يعتبروا الزيارة ليست زيارة عادية، بل قوة فعالة لمنظماتهم وذاكرتهم فى المستقبل" [69]. ونستنتج مما سبق أمرين: الأول، أن الزيارة تؤكد وقوف الملكية البريطانية بجانب سمتس كونه الرجل الذى يحافظ على ابقاء جنوب افريقيا موالية لبريطانيا. الثانى، أن تفصيلات الوثائق المصرية مهمة للغاية فى رصد تفاصيل لا يمكن التقاطها عبر الأفلام الوثائقية والصحافة الورقية.

وتستمر القنصلية المصرية فى رصدها لبرنامج الزيارة فتقول فى إحدى وثائقها " بأنه فى اليوم الثانى للزيارة دُعى 6000 شخص لحفل شاى فى حديقة دار الحاكم العام، كان من بينهم القناصل. وطاف جلالة الملك والملكة والأميرات بالحديقة محيين

المدعويين بكثير من الدعة والمجاملة. وفى المساء أقام عمدة المدينة حفلة راقصة فى دار البلدية دُعى إليها 4000 مدعو، كان من بينهم القناصل أيضًا. ورقصت ولية العهد مع العمدة، ورقصت الأميرة مرجريت مع وزير التجارة". وأضافت بأنه " فى يوم الأربعاء صباحًا زارت العائلة المالكة سيمونزتاون، حيث مقر البحرية البريطانية. وبعد الظهر حضروا سباق الخيل الذى أقيم لهذا الغرض، وتناولوا الغذاء على مائدة رئيس النادى. وفى المساء عادوا إلى البلدية، حيث اقيمت حفلة راقصة لغير الاوروبيين". ثم قارنت القنصلية بينها وبين الحفلة الأولى التى حضرها أكبر عدد من اليهود الذين يحقدون على الإنجليز، من وجهة نظرها، لموقفهم من المسألة الفلسطينية، فكان حضورهم حبًا للتظاهر لا ولاءً للملك. بينما قالت " بأن غير الأوروبيين لا يزالون على الاندفاع قلبيًا فى مسراتهم، والولاء لرمز القوة والسلطان. فكان مظهرهم فيه قوة اليقين والإخلاص". وفى يوم الخميس خرج الركب الملكى لرحلة فى ضواحى الكيب فى مدينتى بارل♥ وستيلنبوش♥، وقطعوا نحو 160 كم فى السيارات فى هذه الرحلة. وفى مساء يوم الخميس أقيمت بدار البلدية حفلة موسيقية لم تحضرها العائلة المالكة، إذ أراد المارشال أن يستأثر بالملك للتحدث فى أمور سياسية هامة. وكان هذا على إثر تغيير حاكم الهند العام، وإرتباط جنوب افريقيا بمصير الهند، ومشكلة الهنود فيها. وكانت تتوق الملكة لحضور الحفلة، ولكنها لقيت معارضة من المارشال. وتخبرنا الوثيقة بملمح مهم فى اهتمام الادارة المصرية بالزيارة الملكية، حيث تشير بأن القنصل المصرى قد تمت دعوته إلى هذه الحفلة بوصفه عميدًا للهيئة القنصلية، وخصص له العمدة مقصورة مواجهة للمقصورة الملكية. ثم تخبرنا بأنه فى ظهر يوم الجمعة افتتح الملك البرلمان، ولم يدع القناصل إلى حفلة الافتتاح. ويعتبر هذا حدثًا تاريخيًا فى حياة البلاد، إذ لأول مرة يفتتح ملك الانجليز بنفسه برلمان إحدى الممتلكات المستقلة.

ويلاحظ أن الملك حرص على تلاوة عبارة افتتاح البرلمان باللغة الانجليزية والأفريكانية على السواء[70].

وأرفقت لنا القنصلية المصرية خطاب العرش الذى ألقاه الملك فى افتتاح البرلمان فى ملاحق تقريرها، والذى نشرته جريدة الكيب تايمز فى 21 فبراير 1947، حيث شكر الجميع، وشكر أعضاء البرلمان، وعبر عن سعادته وترحيبه بهم فى الدورة الرابعة من البرلمان التاسع من الاتحاد، وبأنها المناسبة الأولى التى يكون فيها قادرًا على افتتاح الدورة البرلمانية فى أى بلد تابع للكمنولث، وأنه يرحب بالفرصة، معبرًا عن سعادته بحسن الاستقبال، وأنه يتعامل الآن مع مشاكل السلام وبتوفير جو الحرية والعدالة، ثم عرض المشاكل الأهلية فى الإتحاد نفسه التى نشأت فى الحرب، ودعا إلى حل مشاكل السكن والرفاهية الاجتماعية والصحة والتطور الاقليمى، وما يتبع ذلك من إجراءات تشريعية، ثم تطرق للميزانية الحالية وبأنها سترتفع عما قبل، ثم أعلن افتتاح البرلمان [71]. وإذا ما أعدنا النظر فى الخطاب لوجدناه يعكس الهدف الرئيسى من الزيارة، وهو تحقيق الأمن الاستعمارى، وحل مشاكل رعاياه الاقتصادية والاجتماعية .

وتستأنف القنصلية المصرية حديثها عن برنامج الزيارة بعد ظهر يوم الجمعة 21 فبراير 1947، فتقول: "غادرت العائلة المالكة الكاب بالقطار الابيض الذى اشتراه اتحاد جنوب افريقيا خصيصًا لتلك المناسبة، والذى تتوفر فيه جميع سُبل الراحة والمتعة. وستقضى العائلة المالكة شهرين تجوب فيهما أنحاء البلاد والمستعمرات البريطانية المجاورة، وتعود أواخر أبريل إلى الكاب، حيث تقام حفلات الابتهاج بعيد ميلاد ولية العهد، إذ تبلغ 21 عامًا. وبعدها يعودون إلى انجلترا على ظهر الباخرة الحربية فانجارد" [72]. وعلى هذا أعطتنا القنصلية المصرية خلفية شاملة عن برنامج الزيارة حتى نهايتة، وهو ما يدل على أن هذا البرنامج كان دقيقًا ومعد سلفًا. وما قالت به الوثائق

المصرية أكدته الوثائق البريطانية والأرشيفات البصرية تمامًا.

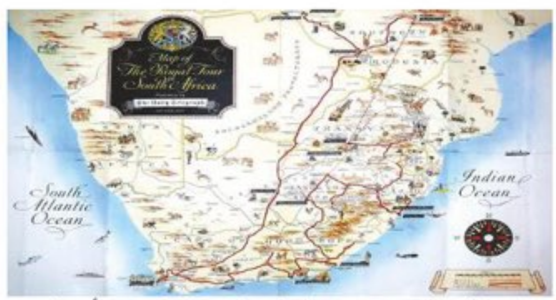
ورغم أن الأرشيف المصرى قد أمدنا بتفاصيل مهمة عن الزيارة وبرنامجها إلا أنه غاب عنه زيارات العائلة المالكة خارج الكيب. بل لم تعد القنصلية المصرية تكتب عن الزيارة إلا فى نهايتها. حيث تشير إحدى وثائقها بأنه " عندما عاد الملك إلى الكيب فى 20 أبريل 1947 دُعى القنصل المصرى فى اليوم التالى إلى حفلة عيد ميلاد الأميرة الياصابات ببلوغها سن الرشد، حضرها القناصل فجلس معهم فى المقاعد الأمامية. وفى يوم 22 أبريل دُعى كذلك بوصفه عميدًا للقناصل إلى الحفلة الموسيقية التى شرفتها الملكة بمفردها، وجلس فى مقصورة مواجهة لها. وفى يوم 23 أبريل حضر مع زملائه القناصل، حفلة شاى فى حديقة حاكم مقاطعة الكيب. وكان بوصفه عميدًا للقناصل من بين من استقبلوا فى الصالون الخاص، حيث شرفت العائلة المالكة، ومنها ذهبوا إلى الحديقة مع رجال السلك السياسى. وفى يوم 24 أبريل حضر وزملائه القناصل العامين غير الممثلين دبلوماسيًا فى الكيب، دعوة غذاء أولمتها الحكومة للملك فى يوم سفره. وكقناصل لم تتم دعوتهم إلى حفلات الغذء السابقة التى أقيمت للملك عند حضوره، وعلى إثر اتصاله الشخصى بوزارة خارجية جنوب افريقيا، رأت مجاملة للقناصل أن تدعو القناصل العامين من السلك الذين ليس لهم ممثلين سياسين، حتى يتسنى لكل دولة أن تمثل فى هذه الحفلات. وكانت لفتة موفقة من جانب وزارة الخارجية أرضت القناصل، ورفعت من شأنه كعميد لهم، إذ تمكن من الحصول على ما لم يكن يتمتعون به من قبل [73].

وإذا كانت الدعوات التى وجهت للقنصل سببًا فى الكتابة عن الزيارة ووصفها، إلا أن الشخصية الزائرة استوجبت منه الاهتمام. بدليل كتابته تفاصيل اليوم الأول للزيارة كاملة، مع انه لم يدع لحفلة الاستقبال. وأعتقد أن المتابعة المصرية للزيارة جاء فى جزء منها، متابعة لنشاط اليهود فى جنوب افريقيا.

وربما كان موقف القنصل المصرة من عمدة كيب تاون اليهودى لعدم دعوته القناصل فى أول يوم للزيارة، جعله يفسر أشياء بطريقة مبالغ فيها. فحين كان يجمع العمدة مساهمة لبريطانيا فى الكيب لم يظهر اليهود أى رغبة فى المساهمة فى الإكتتاب، ذاكرًا بأن "حقدهم معروف ضد بريطانيا"، دون تفسير مصدر هذا الحقد[74]. وعلى هذا فإن متابعة الوثائق المصرية بشأن الزيارة مهم لأمرين: أولهما، أن الاهتمام المصرى بشئون الجنوب الافريقى كان سابقًا على الاهتمام بأى منطقة أخرى فى افريقيا جنوب الصحراء. ثانيها، أن الزيارة مهمة لكل نواحى المستعمرات، ومصر لا زالت تحت الاحتلال البريطانى، فالاستقلال الذى حصلت عليه سنة 1922 كان صوريًا. وبالتالى هى جزء من المستعمرات المشغولة بالتحركات البريطانية ومعنية بها، لتأثيرها على مستقبلها. فهى تسعى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لأن يكون هذا الاستقبال حقيقيًا. ثالثها، الأرشيف البريطانى، إذا كنا قد تابعنا بعض التفاصيل عن الزيارة وبرنامجها عبر الأرشيف البصرى والمصرى إلا أننا سنجد فى الأرشيف البريطانى ما هو مختلف عن كل ما سبق، وفيه أيضًا ما يؤيد ما سبق ويؤكد عليه. لكننا سنأخذ منه فى هذا المحور ما يخص برنامج الزيارة داخل أراضى الإتحاد، أما ما يخص برنامج زيارة المحميات فسنخصص له محورًا مستقلًا(انظر خريطة الزيارة التالية). وفى هذا الإطار، وتحت عنوان زيارة العائلة المالكة إلى كيب تاون والمناطق المجاورة، أرسل السير إيفلين بارينج Evelyn Baring إلى اللورد أديسونLord Addison ، فى 10 مارس 1947، إنطباعاته عن الزيارة، فقال بأنه " ليس هناك شك في أن الأبهة الأكثر روعة خلال الزيارة حتى الآن هو وصول السفينة فانجارد صباح يوم الاثنين 17 فبراير. فهذا اليوم كان الأكثر روعة، فمع هبوب الرياح الجنوبية الشرقية على الكيب في هذا الموسم، وعلى مرأى ومسمع من آلاف المتفرجين، وصلت البارجة قبالة كيب تاون في الفجر، ثم نزلوا فى ميناء

دنكان Duncan Dock في الساعة التاسعة والنصف صباحا، وكانت الراية الملكية ترفرف على الصاري الرئيسي، وعلم البحرية الأبيض الرسمي. وبعد ذلك صعد الحاكم العام ورئيس الوزراء على متن السفينة، وقدموا تحياتهم واحترامهم للأسرة الحاكمة، ثم نزلوا مع بعض الوزراء، واستعرضوا السلك الدبلوماسي والحاكم العام وزوجاتهم". وأضاف " بأن البرنامج الذى رتب للعائلة فى كيب تاون كان مزدحمًا، كما هو الحال فى بقية مدن الإتحاد. ففى 17 فبراير، وبعد نزوله، وصل الملك لمقر الحكومة وتم الترحيب به من قبل مجلسي البرلمان، حيث انتهز الفرصة بمنح رئيس الوزراء شارة ووسام الاستحقاق"[75].

خريطة توضح الأماكن التى زارتها العائلة الملكية عبر منطقة الجنوب الافريقى سنة 1947



خريطة نشرتها جريدة الديلى تلجراف فى 18 أبريل 1947.

وبطبيعة الحال، تعطينا الوثائق البريطانية تفاصيل لا يستطيع الأرشيف المصرى ولا غيره، أن يخبرنا بها. فقول الرسالة السابقة، " بأن العائلة المالكة أخذت الغداء في ويستبروك Westbrooke مع الحاكم العام فان زيل وزوجته، وعادت إلى كيب تاون لحفلة استقبال السلك الدبلوماسي، تلك التى حضرها ممثل بريطانيا نفسه والمفوضين الكندي والاسترالي. وفي المساء كانت هناك مأدبة رسمية تحدث فيها جلالة الملك والفيلد مارشال سمتس. وفي 18 فبراير حضرت الأسرة الحاكمة مناسبة في ساحة المدينة في الصباح، وعلى الفور تم دفعهم للقيام بزيارة مشيًا على الأقدام إلى الحدائق النباتية الوطنية في كريستينبوش Kirstenbosch... وبعد الظهر أقام الحاكم العام حفلة فى حديقة ملاعب ويستبروك، حضره أكثر من 5،000 شخص، وفي المساء حضروا حفلة ساحة المدينة. وفى يوم الاربعاء 19 فبراير ذهبت الأسرة الحاكمة إلى سيمونزتاون، وبذلت ترتيبات خاصة لوضع أطفال المدارس على طريق طوله 20 ميلا، وأمضوا فترة ما بعد الظهر في سباق خيل أجرى في كينيلورثKenilworth. وفي المساء حضروا حفلة في ساحة المدينة لمجتمع الملونيين. وفي20 فبراير قاموا برحلة مضنية بالسيارات لستيلينبوش Stellenbosch وبارل Paarl وبعض المناطق المجاورة. وفى 21 افتتح صاحب الجلالة الدورة الجديدة للبرلمان في الصباح، ثم غادرت الأسرة الحاكمة بالقطار في فترة ما بعد الظهر لزيارة بقية الأماكن" [76]. وعلى هذا يتضح بأن برنامج الزيارة كان معد بشكل جيد، وأن فقراته معدة بشكل سياسى كبير. وأن الأرشيفات المختلفة أعطتنا زوايا مهمة تميز بها كل أرشيف عن الآخر.

المحور الخامس- الموقف السياسى من الزيارة وانعكاساته على الأمن الاستعمارى:-

من المؤكد أن بعضًا من السود والهنود، وكثيرًا من الأفريكانرز، كانوا يعارضون الزيارة الملكية، لكن الرفض لها لم يستمر على طول الخط [77]. وقراءة هذا التغير فى المواقف يتطلب المتابعة لنرى أسبابه وانعكاساته. فحينما استفاد الشيوعيون من الظروف، دبروا الاضرابات والاحتجاجات والاجتماعات. وبهذا أُجريت محاكمات ضد الرؤس المدبرة، بعد أن تم تفتيش نواديهم وصحفهم، وصودرت أوراقهم ومستنداتهم[78]. ولعل ما يشير له خطاب القنصل العام لوكيل وزارة الخارجية المصرية بتاريخ 6 مارس 1947 بأن " الاستقبال لم يكن حارًا كما كان متوقعًا، بل ربما يمكن

القول بأنه كان يسود الناس نوع من التحفظ لما اكتنف هذه الزيارة من دعايات مختلفة الاغراض من الأحزاب المعارضة، ومن الهنود، ومن الملونيين الخ"، يلخص الموقف العام من الزيارة. لكن السؤال الأهم، هل استمر هذا الرفض على طول مدة الزيارة؟ أم أن الأمر تغير لصالح الملك وأسرته بعد أيام من بدء الزيارة؟ وهل يمكن تعميم هذا الرفض على سكان جنوب افريقيا ككل؟ أم أن لكل فصيل أسبابه التى تختلف عن أسباب الآخرين، دفعته لتغيير موقفه من الزيارة؟ غير أن الإجابة التى تقدمها لنا إحدى الوثائق المصرية "من أن الرحلة الملكية كانت موفقة جدًا، وأنها صادفت نجاحًا فى مقاطعة الكيب لم يكن متصورًا، ومن المتوقع أن يستمر هذا النجاح فى المقاطعات الأخرى"[79]، يلخص التغيرات التى جرت على الموقف لصالح الزيارة وأهدافها. وهذا يستوجب منا التعرف على مواقف الأطراف المعنية من الزيارة، وانعكاسها على الأمن الاستعمارى. حيث نجحت بريطانيا فى الاحتفاظ بجنوب افريقيا فى حضنها لمدة أربعة عشر سنة أخرى على الأقل. ولمزيد من فهم تلك المواقف نوجزها فى أربعة:

أولها، موقف الهنود. فحين أعلن هنود ناتال عن عزمهم القيام بعصيان مدنى فى يوليو 1946، وتجمعت جموعهم برئاسة الدكتور نايكر، نراهم قد احتلوا قطعة أرض فضاء تخص الأوروبيين وأقاموا عليها خيامهم. وفى أول ليلة لهم، تجمع بعض الأوربيين المتحمسين حول الخيام، واقتلعوا أوتادها، وقطعوا حبالها، وحرقوا قماشها. وفى الليلة الثانية زادت أعداد المتظاهرين من الأوروبيين، وحرقوا بضع سيارات للهنود، واعتدوا على أفراد منهم. وفى الليلة الثالثة وقف الهنود فى صف لدفع كل اعتداء على أمتعتهم، ومنعوا الأوروبيين من اختراق صفوفهم المتراصة" [80]. ولهذا فإن موقفهم من الزيارة قد ارتبط بقضاياهم ومطالبهم بتخفيف القبضة العنصرية. فنتعرف من أحد تقارير القنصلية الملكية بمدينة الكيب فى 12 فبراير 1947 بأن الاحتجاجات الهندية أثرت فى موقفهم من الزيارة، فقد أعلن الهنود عن مقاطعتهم للزيارة الملكية إذا لم يتم إصلاح أمرهم. وأنهم سيقاطعون الإحتفال الذى سيعقد لملك الانجليز عند قدومه هذا الشهر[81]. ومع أنهم كانوا يذيعون أنهم سيقاطعون الاحتفال بالملك إلا أنهم انقسموا إلى شيع وفرق حول هذا الأمر. فقد اشترك هنود الكيب فى الإحتفالات التى أقيمت، كما تألفت لجنة كبيرة من هنود ناتال لعمل مهرجانات لاستقبال العائلة المالكة تفوق فى رونقها ما أقامه الأوروبيون[82].

وما قالت به الوثائق المصرية لم يختلف عما قالت به إحدى الوثائق البريطانية، حين أشارت بأن أهم سمة فى الجولة الملكية هو ترحيب المجتمع الهندى بالعائلة المالكة، على الرغم من جهود المتطرفين الهنود فى ترتيب مقاطعة للزيارة [83]. وعلى هذا تغير موقف الهنود الرافض للزيارة الى مؤيد لها، بل اقاموا خلال استقبالهم للعائلة الملكية، المهرجانات التى أخذت بالألباب [84]. بل تشير رسالة السير إيفلين بارينج إلى اللورد أديسون فى 10 مارس 1947. بأن الهنود انضموا لصفوف المرحبين بالأسرة الحاكمة في كيب تاون. وفسرت هذا التغيير " بأن الخطوة التى تبنتها حركة المقاومة الهندية التى دعت لتنظيم مقاطعة الزيارة الملكية فى ديربان، قد فشلت. لأن هناك مجموعة قوية من الأراء الهندية في جميع أنحاء البلد تعارض كل اقتراح للمقاطعة" [85]. وهذا يعنى نتيجتين: الأولى، نجاح العائلة المالكة فى تغيير موقف الهنود تجاهها، وضمان ولائها واستقرار المناطق التى تعيش فيها. الثانية، أن تأمين جانب الهنود يصب فى صالح الأمن الاستعمارى ككل.

ثانيها، موقف الافريقيين. لم يختلف موقف الافريقيين القاطنيين فى الاتحاد عن موقف الهنود كثيرًا، حيث تشير إحدى الوثائق المصرية بأن السود فى ناتال قد اتبعوا الهنود فى الاحتجاجات، وقاموا بحرق بطاقات المرور المسلمة اليهم، بصحبه طبل وزمر فى حفل علنى. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل اقتفوا أثرهم فى الإعلان عن مقاطعة الاحتفال بملك الانجليز عند

قدومه [86]. وتؤكد على هذا إحدى الوثائق البريطانية، بـأن هذا الموقف المعارض للزيارة لم يقتصر على منطقة معينة. حيث تشير إلى اجتماع للأهالي للافريقيين في بلومفونتين في بداية شهر فبراير 1947 وقراراهم بألا يرحبوا بالأسرة الملكية. غير أن تصريح المتحدث الرسمي للحكومة " بأن هؤلاء هم السكان الأصليون الوحيدون الذين يرون الملك ضمن أولئك الذين يعملون على وضع القيود أمامهم، وأن الكثيرين منهم ينظرون إليه كملك جيد يراهم فى قيود العبيد المعتادة"، يقطع بأن مواقف الافريقيين من الزيارة كانت متباينة جدًا. فإذا كانت هناك أقلية قد أعلنت مقاطعتها، فهناك حشود كبيرة منهم في المنطقة الشرقية من الكيب قد قدموا ترحيبًا حارًا للعائلة الملكية[87]. ورغم روعة الاستقبالات التى قوبلت بها العائلة المالكة فى المناطق الافريقية، إلا أنها كانت فى زولولاند من أروع ما يكون، بما يدل على تعلق سكانها السود بالعائلة المالكة [88].

وتعطينا إحدى الوثائق المؤرخة بـ 16 مايو 1947، شرحا أفضل للمسألة، فتطرح ثلاثة أمور: الأول، أن جهودًا كبيرة قد بذلت من قبل بعض المتطرفين لعدم تحميس الجماهير الأفريقية تجاه الزيارة، لكن مشاعر الدفء والترحيب التي قدمها أفارقة الاتحاد كانت كبيرة، وأنها ليست مستغربة. الثانى، أن معظم الافريقيين ظلوا يقدمون الولاء للعائلة المالكة، ويرتبطون بالملكة فيكتوريا وبأفكار الحرية والعدالة لجميع الأجناس، تلك التى مورست عمليًا فى اقليم الكاب لسنوات. حيث كانت تسوده الافكار الليبرالية منذ فترة ما قبل الاتحاد، تلك الأفكار التى رفضها الحكام الأوروبيين فى تشريعاتهم العامة، كتشريع هيرتزوج لسنة 1936. الثالث، أنه من سوء الحظ أن تتعرض سلطات الإتحاد لإنتقادات كثيرة من قبل المتعلمين الأفارقة، بخصوص سلوكهم خلال الزيارات الملكية لمناطق الافريقيين داخل الاتحاد. فظهرت مقالات صحفية افريقية تؤكد على قيام السلطات بوضع ترتيبات تؤكد على "التفوق الأبيض"، وعدم السماح لأصحاب الجلالة بالحديث فى المناسبات الافريقية التى حضروها [89].

ثالثها، موقف الملونيين. لم تظهر للملونيين أية مواقف رافضة للزيارة الملكية، وهو ما جعل الزائرين يشاركونهم الاحتفالات فى صباح اليوم الثانى للزيارة. حيث استعرضت العائلة المالكة جموع الملونيين والملايو الذين لبسوا حللًا مهرجانية، طافت مع العرض فى أنحاء المدينة فى شُعب متفرقة تقودها موسيقاها. وكان الملونون والملايو عادة ما يقومون بهذه المهرجانات فى أول كل عام، يصرفون فيها عن بذخ وكرم. وتتنافس فرقهم بعضها البعض لاكتساب شرف التفوق لأحسنها نظامًا، وأجملها ملبسًا وأتقنها موسيقى[90]. وفى مساء الأربعاء 19 فبراير 1947 أقيمت حفلة راقصة لغير الاوروبيين، اجتمع فيها الملايو والملونون والسود بملابس السهرة الأفرنجية، وقام الملايو بتمثيل منظر حرس عربى إسلامى. وإذا كانت الحفلة الساهرة للأوروبيين فى البلدية قد نجحت، إلا أن حفلة غير الأوروبيين فاقتها روعة وإخلاصًا. ولعل شرح الوثيقة المصرية لأسباب هذا التفوق " بأن عمدة المدينة، وهو من أذكياء اليهود، قد حشد فى الحفلة الأولى أكبر عدد من ملته الذين يحقدون على الانجليز لموقفهم من المسألة الفلسطينية، فكان حضورهم حبًا للتظاهر لا ولاءً للملك. بينما كان غير الأوروبيين لا يزالون على الفترة فى الاندفاع قلبيًا فى مسراتهم، والولاء لرمز القوة والسلطان، فكان مظهرهم فيه قوة اليقين والاخلاص" [91]، يعنى أن القنصلية لجئت للطعن فى حفلة البلدية لأسباب تتعلق بمنظمها اليهودى. لكنها نسيت أن قطاعًا كبيرًا من البيض كان متفقًا على عدم إظهار الحماس والترحيب بالزيارة. فى حين لم يظهر الملونيين أية مواقف مسبقة من الزيارة. بل كانت حفلة 19 فبراير 1947 في ساحة مدينة الكيب، والتى كانت خاصة بمجتمع الملونيين، تعد واحدة من أنجح وظائف الزيارة إجمالًا. حيث بقيت الأسرة المالكة بعض الوقت مع عدد من وجهاء الملايو

والأشخاص الملونين المقدمين لهم. وكان ظهورها مع مجتمع الملونين والملايويين موضع تقدير كبير من قبل تلك الفئات المهملة، وكان هذا اللقاء رافعًا لهم[92].

رابعها، موقف البيض. يشرح لنا السير إيفلين بارينج في رسالته إلى اللورد أديسون في 10 مارس 1947 الموقف من زيارة العائلة المالكة فيقول بأنه " قبل وصول العائلة المالكة وزعت أوراق حكومية داعمة تدعو الى ضبط النفس، وتقدم الدعم للزيارة المقبلة". حيث ظهرت عدة رسائل في الصحافة تحث الناس على الخروج والهتاف للموكب الملكي عندما يسير في شوارع كيب تاون، وهي قادمة من ميناء الوصول. ولأنهم يعلموا بأن حشود جنوب أفريقيا لا تقوم بالهتاف إلا في المناسبات الرياضية وما شابهها فقط، لذا كانت هناك خشية من أن تفشل الحشود في إظهار الحماس، ويلتزمون الصمت تجاه الأسرة الحاكمة. لكن الوثيقة تذكر لنا موقفًا مهمًا" بأنه إذا كان الهتاف خفيفًا ومتفرقًا عندما نزلت الأسرة الملكية، لكن حينما استعدوا للسير في شوارع كيب تاون، كانت الهتافات مفعمة بالحيوية في استقبالهم ، ووصلت إلى أعلاها في شارع أدرلي **Adderley Street** ". وقالت بأنه على الرغم من أنه من غير الطبيعي استحالة إجراء تقدير دقيق على ما يبدو لكثير من المراقبين، بما في ذلك محرر صفحة الحزب الوطني المنطهر باللغة الإنجليزية في صحيفة العهد الجديد ***New Era***، بأن الحماس كان يزداد للأسرة الحاكمة أثناء إقامتها في كيب تاون. حيث عرضت لنا الوثيقة " بأنه في مساء وصولهم، شوهدت حشود تندفع باتجاههم خلال الوليمة الرسمية المقامة على شرفهم، وبأن الاندفاع كان قليلًا إلى حد ما في البداية. لكنهم قوبلوا في وقت لاحق، في المأدبة المسائية التى أقامتها المدنية، بتصفيق كبير داخل قاعة المدينة وخارجها. وفي مساء اليوم الثالث تجمعت حشود كبيرة خارج قاعة المدينة في انتظار ظهور الأسرة الملكية، فبرزوا في الشرفات وكانوا متحمسين جدًا في إختراقهم للحواجز"[93].

وتشرح لنا الرسالة السابقة أسباب هذا التغير في موقف سكان الكيب خلال الأسبوع الذي قضته العائلة المالكة في كيب تاون. فتقول بأن الظروف كانت مهيئة لمحادثات الأسرة الحاكمة مع ساستها ونخبتها، وأن احتفالية افتتاح البرلمان وحفل الملونين وفرت المناخ الجيد لتلك المحادثات . بل كانت جنوب أفريقيا ممتنة لصاحب الجلالة لمنحه رئيس وزرائها سمتس وسام الاستحقاق. وكان خطاب الملك في المأدبة الرسمية في مساء وصوله، وشكره على كرم الضيافة وثنائه على المجهود الحربي الذى قدمه الاتحاد خلال الحرب العالمية الثانية، وزيارته للقوات العسكرية، وعشرته اللطيفة لسكان الكيب، قد أدى إلى استقباله الجيد في بارل وستيلينبوش، قلعتى الأفريكانرز في الكيب. فهما بلدتين تقعان في منطقة زراعية تبعدان ساعة أو ساعتين من كيب تاون، ومشاعرهما بالكامل مع الحزب الوطني المتطهر[94].

غير أن الرسالة السابقة تفسر لنا موقف الحزب الوطني المتطهر المثير لاهتمام بعض المسؤلين. فتقول بأنه " منذ أن أعلن لأول مرة عن زيارة العائلة المالكة للاتحاد، أعلن الوطنيون من أنصار الحزب، بأنه من غير المتواقع أن يظهروا أى حماس لها، وأنهم سيتعاملون مع الأسرة الملكية من باب المجاملة والاحترام التى يشتهر بها الافريكارنرز. وتخبرنا بأنهم باستثناء هفوه أو هفوتين، حافظوا على هذا الموقف، رغم أن مجلسى الشيوخ والنواب وافقوا بالإجماع قبل أسبوع من الزيارة على ضرورة إظهار الاحترام والترحيب لصاحب الجلالة في خطاباتهم عبر غرفتي البرلمان. وتشير الوثيقة بأنه باستعراض العناوين صباح يوم 17 فبراير نجدها تقول بحضور 11 أعضاء مجلس نواب من أصل 46 عضوًا، في مشهد استقبال العائلة الملكية. بل لم يكن أي من قادة الحزب الوطني موجودًا. وقد أثار هذا الحادث بعض الانتقادات والحيرة، وعدم وجود تفسير لماذا لم يشترط الحزب؛ إما الحضور، أو الامتناع كليًا. فتقول بأنه تقرر في أحد

اجتماعات الحزب بترك أمر الحضور فرديًا، فمنهم من غاب، ومنهم من حضر. لذا أفادت جريدة دى فادرلاند Die Vaderlnd بأن السيد ستريدوم Strydom، زعيم الحزب الوطنى في الترانسفال، هو فقط من بين أعضاء الحزب الوطنى فى البرلمان الذي بقي بعيدًا على الدوام عن كل الاجتماعات التى حضرتها العائلة المالكة. وكان هذا الرجل عند افتتاح البرلمان موجودًا في بهو الفندق، ولم يتبع أى موكب آخر ذهب فيه أعضاء البرلمان إلى قاعة مجلس الشيوخ. وتشرح لنا الرسالة ما نقلته الصحافة عن هذا الموقف فقالت بأنه " كثيرًا ما يقال أن جوهر معارضة الحزب الوطنى أنه أحد الحزبين الكبيرين، وأحد الأحزاب الكبرى التى تقدم نفسها للعالم الخارجي كجبهة متحدة، وهو في الواقع ينقسم إلى جناحين: أحدهما، لا يلين في كراهيته للبريطانيين وعدم التبعية لهم، والآخر، يتكون من أشخاص يشعرون بالشكوك حول حكمة السياسة الحالية للحزب، وأن لها أهدافًا أخرى غير مجرد المعارضة لكل ما هو بريطانى. ومع ذلك لم تعتبر الوثيقة بأن ما حدث فى الكيب هو مشهد القول الفصل فى المسألة. حيث تشير بأنه " من السابق لأوانه الحكم على آثار أعمق للزيارة على شعب جنوب أفريقيا. لكن يمكن القول بإطمئنان بان الزيارة إلى الكيب كانت ناجحة جدًا.. وبحلول نهاية اليوم الأول في كيب تاون كتبوا القليل ونشر صورًا لشيء آخر"[95]. وهو ما يخالف ما جاء فى إحدى الدراسات لماما [96].

وفى نفس السياق، تعطينا إحدى الوثائق بأن سمتس قد بذل دورًا كبيرًا فى إقناع الافريكانرز المتعصبين ضد الانجليز، وبأنهم مخطئين فى وجهة نظرهم[97]. لكنه لم يفلح فى البداية فى هذا الأمر، حيث تشير إحدى الوثائق المصرية بأن رئيس حزب الافريكانرز واحد عشر عضوا برلمانيا وجميع أعضاء حزبه فى مجلس الشيوخ، قد امتنعوا عن حضور حفلة الترحيب بالعائلة يوم وصولها. وأن هذا يتفق طبعا وسياسة حزب الأفريكانرز الذى يتطلع إلى تحقيق أمنيته فى التخلص من رباط الإمبراطورية البريطانية، وإنشاء جمهورية جنوب افريقيا. وقد حدث هذا رغم تصريحات متكررة سابقة من الدكتور مالان، بأن حزبه لا يدعو بالمرة إلى الجمهورية ملقيًا باللائمة على المتطرفين من الأفريكانرز، الذين ينادون بالجمهورية، مع أنه موقن بأن الوقت لم يحن لذلك بعد. ومن ثم فإن إمتناع رئيس المعارضة مالان، وأحد عشر عضوًا برلمانيًا من حزبه، وكل أعضاء المعارضة فى مجلس الشيوخ، عن حضور حفلة الترحيب، كان دلالة مهمة على رفض القطاع الأكبر من الأفريكانرز للزيارة وأهدافها. وانه بالرغم من اشترك بقية أعضاء الحزب البرلمانيين فى الترحيب إلا أن الأمر كان يتطلب جهدًا كبيرًا من قبل الملك وعائلته". ولعل زيارة العائلة المالكة لمدينتى بارل وستيلنبوش، وتعتبران وكر الأفريكانيين فى منطقة الكيب [98]، يلخص هذا الدور ويوضحه.

ويبدو أن الجنرال سمتس قد استغل الفرصة لصالحه وصالح ضيوفه، ففي **18** فبراير دفعهم مشيًا على الأقدام للقيام بزيارة الحدائق النباتية الوطنية في كريستينبوش**Kirstenbosch**. وهناك قابلوا بالصدفة عددًا من أعضاء البرلمان من الحزب الوطنى المتطهر مع أسرهم يقومون بنزهه خلوية. وكان من بين هؤلاء السيد سوارت، زعيم المتطرفين. حيث استغل رئيس الوزراء تلك الفرصة لتقديم المجاورين له، وأدخلهم فى حوار مباشر مع الملك والملكة[99]. وفى هذا الاطار تقص علينا إحدى الوثائق المصرية بأنه " إذا كان الاستقبال نوعًا ما فاترًا فى البداية، إلا أن الأمر تغير بعد أن أمضت العائلة المالكة خمسة أيام فى الكيب. حيث أبدوا فيها كثيرًا من الدعة والمجاملة واللطف أخذت بمجامع القلوب، لهذا لم يحوزوا إعجاب الجميع فحسب، بل اكتسبوا حبًا وتقديرًا من الخصم قبل الصديق". وفسرت هذا الأمر قائلة " كان لجلالة الملك والمارشال سمتس فضل كبير فى تحقيق ذلك. فكان المرشال يعمد فى رحلاته مع العائلة المالكة أن يخرج إلى الخلوات، حيث يوقن بوجود أعضاء حزب

المعارضة يتمتعون بنزهة خلوية، أو يتسلون بلعبة جنوب افريقيا. فتلوح لهم العائلة المالكة فى الحديقة الخلوية الجبلية، وتلتقى بأفراد من أعضاء البرلمان من حزب الأفريكانرز، وهم يتناولون طعام الغذاء على الطريقة الأفريكانية من شى اللحم فى الخلاء. وهناك يتقدم جلالة الملك الصفوف ويقبل على تذوق أصناف الطعام، فيتحدث إلى الجميع فى غير كلفة". وأضافت " تراهم أيضًا يصلون إلى مكان يلعب فيه بعض أعضاء نفس الحزب، بنوع من الكرات الخشبية، فتتقدم جلالة الملكة وتشارك القوم فى لعبتهم، وتجرب إصابة الهدف. ويسود المكان مرح وسرور، لم يكن لهؤلاء الناس أن يتوقعوه. وكانت الملكة تطلب وصفات الطعام من الأطباق الجنوب افريقية، كما تبدى رغبتها فى التقاط بعض كلمات اللغة الافريكانية". وقالت بأنه حينما انتشرت هذه الأخبار فى عرض البلاد بفضل الدعاية الواسعة لكل حركة تقوم بها العائلة المالكة، تغير الموقف منهم. وتلتقط لنا موقفًا مهمًا لهذا التغير حين تقول " حتى أنه عند زيارتهم لمدينة بارل قابلوا قائد منظمة الأوسيوا براوديج، وهى على غرار النظام النازى، فتلطفوا معه، حتى أنه رغم كراهيته للانجليز، كان يود أن يدعو العائلة المالكة بالبقاء دومًا فى جنوب افريقيا. وفى رحلاتهم فى مناطق الأفريكانرز كان جميع من يقابلون يصرحون بما يكنون لهم من إعجاب وتقدير" [100]. ومما سبق نتعرف على الأساليب التى استخدمتها العائلة الملكية فى التقرب من معارضيها والرافضين لوجودها فى جنوب افريقيا. تلك الأساليب التى جمعت القلوب حول العرش البريطانى مرة أخرى، وأنهت ما كان عالقًا بين الأفريكانرز والملكية البريطانية.

وأرجعت الوثيقة المصرية الفضل فى هذا إلى حكمة المارشال التى مكنته من الوصول إلى الكثير من أغراضه، فقد سعى لتقوية روح الارتباط بالامبراطورية البريطانية. كما أرجعته إلى قوة شخصية العائلة المالكة وروحها الديمقراطية، حيث تكاتف الشعب فى الالتفاف حول العرش مما ظهرت بوادره فى تنقلات العائلة المالكة فى مقاطعة الكيب، وفى الاستقبالات الحارة التى كانوا يقابلون بها فى كل مكان، على خلاف ما حدث فى اليوم الأول لوصولهم. وكان نجاح الحفلات التى أقامها العمدة قد ملأ صدور اليهود بالفخر والإعجاب، خصوصًا عندما أهداه الملك قبيل مغادرته الكيب بتحفه جميلة، عليها توقيعات العائلة المالكة[101].

ويحلل لنا السير إيفلين بارينج فى رسالته إلى الفيكونت أديسون فى16 مايو 1947، الموقف من الزيارة خارج اقليم الكيب. ذاكرًا بأنه كان يعرف الانتقادات العلنية والخاصة الموجهه للزيارة الملكية، وأنه سمع بعض هذه الانتقادات بنفسه فى جلسات خاصة، لدرجة جعلت المتحدثين يفترضون أن يكون هناك إستياء عميق. فذكر بأن الانتقادات لم تكن بنفس الحال فى كل المقاطعات. فعلى سبيل المثال كانت مقاطعة الكيب تحتاج لمعالجة خاصة. أما الترانسفال الغربية، فكان غالبيتها من أنصار الحزب الوطنى المتطهر المؤمنين بالجمهورية، لهذا لم تكن مدرجة في البرنامج. وفيما يتعلق بالراند، بما فيها من عدد سكانى كبير، ومكانة رئيسية تحدد مستقبل سياسة الاتحاد، لم تتلق إلا زيارة قصيرة نسبيًا. أما في جوهانسبرج، وخصوصًا مدن الريف، فقد أعربوا عن شعورهم بالاستياء الحقيقي. مع ذلك يقطع بأن الزيارة حققت نجاحات مهمة اختزلها فى ثلاثة: أولها، النجاح البارز الذى حققته فى دولة الأورانج الحرة. فقد كانت مشاعر الدفء والترحيب ملحوظة بشكل خاص عبر الطريق، وفى التوقفات المتكررة، وفي المدن الصغيرة، مثل كرونستاد Kroonstad وليدى براند Ladybrand. وهى المراكز المعروفة بمناطق القوميين الافريكانرز. ومع أن صحافة الحزب الوطنى أشارت لهدوء الحشود في بلومفونتين، إلا أن شهود العيان ذكروا لبارنج بالتجمع حول العائلة المالكة عندما وصلت إليها فى الصباح، وفى حفلة الحديقة بعد ظهر اليوم، وكانوا يهتفون لهم. واعترفت جريدة دى برجر بأكثر من ذلك،

عن قيام الناس بالرقص للعائلة المالكة والهتاف لهم بصوت عال، ليس فقط من داخل قاعة الاحتفال، ولكن أيضا من قبل الحشود الكبيرة الموجودة فى الخارج. ثانيها، فى الافعال التى قام بها الملك والملكة والأميرتين فى كل محطة توقف للقطار، فقد كان الناس ينتظرون وصولهم. وبهذا كانت هناك مناسبات عديدة للتجمع، بما يعد من أنجح ما حدث فى هذه الجولة. ففى تلك المناسات كان من السهل على مزارع أفريكانرى عادى، التحدث مع الملك والملكة وإجراء محادثات حول مواضيع تهم البلاد. بما جعل الصورة التى يرسمها الوطنيون للعائلة الملكية كاذبة، فقد كانوا يفتقرون في المناطق الريفية فى جنوب أفريقيا إلى جميع الفوائد والمزايا. ثالثها، أن صراخ الحشود الكبيرة من أعضاء حركة الأوسيوا براندوج، لم يؤثر على نجاحات جولة الأورنج. فحينما سمع الملك والملكة ذلك الصراخ فى محطة مرسليا Marseilles فى الأورنج الحرة، صعدوا إلى القطار مرة أخرى وانتهى الموقف (102).

وفى المقابل فإن المناطق التى يقطنها الناطقون بالانجليزية كانوا سعداء للغاية بالزيارة، وبوجود الملك بينهم. ولعل الاحتفال الذى أقيم لميلاد الأميرة اليزابيث، والحفاوة بها فى مدينة إيست لندن، وحضور الجنود وعمال الحرب فى هذا اليوم، وتسليمها الهدايا القيمة (103)، يقطع بأن تركيزنا على المواقف المعارضة للزيارة فى بعض المناطق هدفه التعرف على الجهد الذى بذلته العائلة المالكة لتغيير الموقف. وعلى هذا فإن كل مناطق الناطقين بالانجليزية كان قاطنوها مسرورين بالزيارة وسعيدين بها.

ولعل عدم بخل الملك بوقته لاثنين من الاحتفالات، يبين لنا الجهد المبذول من الرجل لاستثمار الزيارة. ففى الاجتماع الذي عقد في بريتوريا مع الاودستريدرز "oudstryders"، وهم المحاربين فى حرب البوير، قابل أكبر عدد من شخصيات العهد القديم من كبار السن من الرجال، حيث كانوا سعداء لاستقبالهم. أما الاجتماع الآخر، فكان اجتماع غير رسمي مع أعضاء مجلس النواب، حضره الكثير من الوطنيين الأفريكانرز. حيث قدموا للملكة نماذج من قيادات الجوكسكايز♥ jukskeis في النادي البرلماني في فيرنوود Fernwood. وربما كان حديث الدكتور مالان بمفرده مع الملك لمدة نصف ساعة تقريبًا قبل الغداء، والذى أعد له في كيب تاون في آخر يوم للزيارة، أهم من كل ما حدث من اجتماعات. فالملك يجتمع مع زعيم المعارضة التى كانت رافضة للزيارة ومقاطعة لها، ومن ثم كان لابد أن يثير هذا الاجتماع خلافًا حادًا داخل الحزب الوطني. غير أن عدم تعليق الوثيقة عليها، وإعتبارها كما هو حال المشاجرات الداخلية والتواترات التى حدثت في الحزب طيلة السنوات الأخيرة وتعودوا عليها، والدعاية الواسعة التى أبرزتها الصحف الصادرة باللغة الإنجليزية لهذا الاجتماع، كل ذلك كان له تأثيره فى غضب الدكتور مالان، ومن ثم عمل على التقليل من أهميتها (104). وهو ما يجعلنا نستنتج أمرين: الأول، أن الزيارة الملكية لا يهمها إلا مصلحتها، فإذا كانت قد بدأت داعمة لسمتس فى البداية، إلا أنها لم تغلق بابها فى وجه زعيم المعارضة. وهو ما جعلها لم تخسر حينما فاز هذا الزعيم فيما بعد فى انتخابات 1948. الثانية، أن كل من الملك والمعارضين لزيارته قد أوصل رسالته للطرف الآخر، وهو ما جعل نقطة التلاقى تنفتح أكثر فأكثر بعد خمسة أيام من الزيارة، وتستمر حتى لقطة النهاية.

<u>المحور السادس- زيارة الملك جورج السادس إلى المحميات البريطانية وأبعاده السياسية:-</u>

تحدثنا من قبل عن زيارة العائلة المالكة إلى اتحاد جنوب افريقيا ومدنه المختلفة، وتركنا أمر الحديث عن زيارة المحميات لهذا المحور بإعتباره يقع خارج دائرة نفوذ الإتحاد، وضمن المستعمرات الافريقية التى تتمتع بنظام الحماية البريطانية. صحيح أن التقارير الاستعمارية ضمتها فى تقارير الزيارة لجنوب افريقيا، لكنها فصلتها فى تقارير منفصلة عن تلك المخصصة للاتحاد. وربما جاء هذا الفصل من الناحية الإدارية

فقط، لكن كان إنطلاق الرحلة بإتجاه تلك الأماكن يبدأ من الإتحاد وإليه. وهذا الفصل الإدارى نراه واضحًا فى رسالة إيفلين بارينج إلى الفيكونت أديسون فى16 مايو 1947، حيث يخبره بأن زيارات الأسرة المالكة إلى محميات باسوتولاند وبتشوانالاند Bechuanaland وسوازيلاند، ستكون فى تقارير منفصلة [105]. وفى هذا الإطار سنتحدث على كل زيارة على حدة:

الزيارة الأولى، إلى الروديسيتين (روديسيا الشمالية والجنوبية). حيث سافرت العائلة المالكة عبر القطار الملكى من جنوب أفريقيا إلى سالزبوري الى بولاوايو (انظر ملاحق الدراسة). وفي 10 ابريل مرت بعدد كبير من المدن حتى وصلت فى اليوم التالي إلى شلالات فيكتوريا، ثم نزلت بفندق شلالات فيكتوريا، وقامت بعدة زيارات إلى الشلالات خلال الأيام التالية. ثم قامت بجولة وفقًا للبرنامج المعد سلفًا، وقابلهم الأهالى بالترحيب الشديد وإطلاق النار ابتهاجًا بالمناسبة، وقابلهم مدير المحطة، تشارلي وايز، وقدم لهم الاحترام والتحية الملكية، واستقبلتهم الحشود بسعادة غامرة. بل كانت الحشود موجودة في كل مكان، تقابلهم بإظهار الإخلاص والحماس، بما ترك انطباعًا جيدًا فى نفوس العائلة المالكة. لدرجة أن صحيفة ليفينجستون اعتبرت يوم 11 أبريل 1947، "أهم يوم في تاريخ المدينة"، وأنه لأول مرة يحل فيه الملك جورج السادس على تراب محمية روديسيا الشمالية في ليفينجستون. فنزلوا نهر مارامبا، وزاروا جزيرتين صغيرتين فى نهر الزمبيزي، حينها أعرب الملك جورج السادس عن رغبته فى تسمية بعض الجزر في نهر الزمبيزي باسم عائلته. فتم تغيير جزيرة لونج لتكون تحت مسمى جزيرة الملك جورج السادس، وأصبحت جزيرة سيشاكولا Siachikola باسم جزيرة الملكة اليزابيث الأم، وخصصت جزيرتان لتكونان باسم الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت، وتم تسمية بقية الجزر باسم الأميرة هيلينا فيكتوريا والأميرة ماري لويز. وتم تسمية طريق موزي- تونيا إلى الطريق الملكى [106].

وتحت عنوان " الزيارة الملكية إلى روديسيا الجنوبية" أرسل السير كينيدي Kennedy إلى الفيكونت أديسون فى مايو 1947 يخبره بأن الجولة لقيت من وجهة نظر الحكومة وشعب المستعمرة نجاحًا كبيرا. حيث قوبلت العائلة المالكة في كل مكان بحماسة بالغة ومودة. وكان الملك وعائلته قد أعطوا أغلب وقتهم لحضور اجتماعات عدة، فقد حملوا برنامجًا مرهقًا للغاية فى اللقاءات العامة، ولم يخصصوا إلا وقتًا قليلًا للترفيه والنقاهة من آثار الرحلة الطويلة داخل الاتحاد. وخصصت الأسرة الحاكمة معظم وقتها لإتاحة الفرصة أمام الأعداد الكبيرة من سكان الروديسيين لرؤيتهم ومقابلتهم. وبطبيعة الحال كانت هناك خيبة أمل كبيرة لسكان المناطق النائية، لأن الوقت لم يسمح بزيارتهم، خاصة وأن كثيرًا منهم سافروا مئات الأميال إلى المدن الكبيرة لرؤية الملك والملكة والأميرات. لكن كان يحدوهم الأمل فى قيام الأسرة المالكة بزيارة بلادهم مرة ثانية، وبالتالى زيارة بقية البلاد [107].

وتشير الرسالة بعدة أمور نلخصها فى تسعة: الأول، أن ولاء سكان مستعمرة روديسيا الجنوبية للعائلة المالكة والعرش البريطانى والإمبراطورية لا يدانيه أى ولاء آخر، وأن الزيارة قد عززت هذا الشعور وقوته. فقد طغى على المستعمرة إنطباع قوى بأن الملك وعائلته يعيشون بينهم. وليس هناك أدنى شك بشعور الناس بالمودة للملك وأسرته. حيث استغلت الأسرة الزيارة كمناسبة حقيقية لسعادة جميع سكان المستعمرة. الثانى، أن قصاصات الصحف التى أرفقتها الرسالة تعكس حماسة الشعب ونجاح الزيارة. الثالث، تقدير خاص لموافقة جلالة الملك على افتتاح البرلمان. باعتبارها أول مناسبة يحمل فيها الملك لقب افتتاح برلمان خارج الدومينيون، فضلًا عن سفره لمسافة أكثر من 600 ميلًا في صباح اليوم نفسه لحضور هذا الحفل. الرابع، أقيمت عدة حفلات فى مايروز Mayors وسالزبوري Salisbury وبولاوايو Bulawayo تكريمًا لأصحاب الجلالة، حضرها الآلاف من المواطنين

والمقيمين في مدن ومناطق البلاد النائية. وتوقف القطار الملكي في المدن الصغيرة في ميدلاندز Midlands، وفي العديد من محطات السكة الحديد، حيث قابل سكان تلك المناطق الزائرين بشكل جيد، وأعطت الزيارة شعورًا بالارتياح للشعب. وكان هناك تقدير كبير بقيام أصحاب الجلالة بإعطاء التعليمات بتوقيف القطار لعدة ساعات، رغم صعوبة ذلك في بعض الأماكن، وذلك من أجل ألا تفوت الفرصة على سكان المناطق النائية بلقاء العائلة المالكة. الخامس، حضرت مسيرات من الجنود السابقين إلى سالزبوري وبولاوايو، وكانت تبدو عليها الفرحة والرضا، وقضوا الكثير من الوقت وسط هذه المسيرات (108).

السادس، كرمت الاسرة الحاكمة بتاريخ 9 أبريل نحو 260 شخصية بالاوسمة المدنية والعسكرية في ساحة مقر حكومة سالزبوري، وحضره حوالي600 من الأقارب والأصدقاء♥. وكان التأثير الملكي مفيدًا بين المواطنين، وتركت إنطباعًا عميقًا لدى عدد كبير من الزعماء والحاضرين. السابع، كان الملك قادرًا على إجراء مناقشات مع جميع الوزراء، حيث كانوا معجبين بعلمه واهتمامه الواسع والعميق بشؤون المستعمرة ومشاكلها. وكانت هذه المحادثات تلقى تقديرًا كبيرًا. الثامن، تميز عيد ميلاد صاحبة السمو الملكي الأميرة اليزابيث تميزًا كبيرًا♥. وقد ظهر صندوق تمويل عيد ميلاد عبر تبادل الزيارات بين الشباب من بريطانيا العظمى وروديسيا الجنوبية. بل وصل حجم الأموال المجموعة للاحتفال بتلك المناسبة إلى أكثر من 10.200 جنية استرلينى . التاسع، حضور محافظ مانيكا Manica وسوفالا Sofala وزوجته لأصحاب الجلالة أثناء إقامتهم في سالزبوري، فتمكنوا من حضور عدة مناسبات هناك. وكانت طريقة الاستقبال والترحيب قد جعلته يعرب عن تقديره الكبير للطريقة التي تم بها هذا الاستقبال (109).

الزيارة الثانية، إلى سوازيلاند. فتحت عنوان " الزيارة الملكية الى سوازيلاند"، أرسل السير بارينج إلى الفيكونت أديسون فى 23 يونيو 1947 يبلغه بأن العائلة المالكة قد زارت سوازيلاند فى 25 مارس 1947. لكنه يعطينا تفصيلات مهمة عن المنطقة وما حدث خلال الزيارة، ونختزل ذلك فى إثنى عشر ملمحًا: الملمح الأول. مَيَّز بشكل واضح بين أراضيها الشمالية والجنوبية♥. الملمح الثانى، قضاء الأسرة الملكية فى جودجيجون Goedgegun يومًا كاملًا♥. الملمح الثالث، فرضت الأعمال التحضيرية للزيارة ضغطًا شديدًا على الإدارة. فكان من الضروري إحضار كل شيئ من خيام وأثاث، ومواد بناء. وعبر الأهالى من مبابانى، ومن خلال طرق الجبال المختلفة، لجودجيجون. الملمح الرابع، رحب السكان المحليون بأصحاب الجلالة وتعاملوا مع مدركات الناس وطريقة تفكيرهم♥. الملمح الخامس، عندما وصلت السيارات الملكية إلى جودجيجون، كان فى انتظارهم السيد بيتهام وزوجته، والسيد أرمسترونج وزوجته، والزعيم سبوهوزا وزوجته الإندلوفوكازي، وبعض أعضاء مجلس الزعيم، ليمثلوا فى مجلس أصحاب الجلالة وأصحاب السمو الملكي♥. الملمح السادس، بعد الدردشة لعدة دقائق مع السبهورزا وغيره من الأشخاص الحاضرين، عاد أصحاب الجلالة لسياراتهم، وترك موكبهم ساحة العرض. لكن كان من المستحيل الوصول عبر الحشود الكبيرة إلى ماسيرو بيتسو Maseru Pitso، ومن ثم فرضت إجراءات ندابا Ndaba الفرصة لأصحاب الجلالة لرؤية مشهد ربما لن يروه مرة أخرى في جنوب أفريقيا(110).

الملمح السابع، كان هناك تركيز خاص على رقصة سوازيلاند، والمعروفة باسم "سر لا يمكن تفسيره." فذكر مرسل الرسالة بانه " على الرغم من أن سوازي ترتبط إرتباطًا وثيقًا بالزولو، إلا أن رقصة سوازيلاند هى أكثر شعيرة دينية بالنسبة لهم، ولا تتعلق بالاستعدادات للحرب كرقصة الزولو. ولذلك فهى أكثر هدوءا، رغم أن طريقتها الخاصة لا تقل إثارة للإعجاب،

ويـتم أداؤهـا فـى المناسـبات الوطنيـة الكبـرى فقـط"♥. الملمح الثامن، بسبب المسافة التى تفصل بين مباباني وجودجيجون، وبسبب التركيبة العنصرية للسكان، كانت الزيـارة الـى سـوازيلاند ربمـا هـى الأكثـر صـعوبة فـى التنظيم عـن الزيـارات الـثلاث التـى قامـت بهـا الأسـرة المالكـة إلـى المحميـات البريطانيـة. فالكـل كانـت لديـه مخـاوف لا أسـاس لهـا. لكن كـان أهم هدف للزيـارة هو مساعدة إدارة سوازيلاند فى اكتساب ثقة الأهالى. حيث كانـت للمنطقـة قيمـة مهمـة، تتمثـل فـى شـكوك سـكان النـاطقين بالأفريكانيـة فـى جنـوب السـوازى فـى الإدارة البريطانيـة، ويشـعرون بـأن مصـالحهم مهملـة. الملمـح التاسـع، أن بقـاء السير بـارنج فـي سوازيلاند عدة أيـام بعد رحيل الاسرة الملكية، جعله يسمع كل أشكال التعبير مــن الجــانبين♥. الملمــح العاشــر، كــان فقــد أهــالى سـوازيلاند للكثير من أراضيها لصالح الأوروبيين، قد جعلهـم أكثـر الأفـريقيين فـى المحميـات الأخـرى الـذين يرتابون فى الرجل الأبيض، ويشعرون بأن منطقتهم هى سندريلا الأقاليم الثلاثة. الملمح الحادى عشر، أن تـأثير الزيـارة كـان ممتـازًا، فقـد شـعر الأهـالى بـالفخر عنـدما لمسـت أقـدام الملـك أرض السـوازي، ورأوا الأسـرة المالكة تتحدث مع السوبهوزا، ويمشون معه على طول خط المحاربين المسلحين بالكامل. الملمح الثانى عشر، أن السـير بـارنج يشـعر بـالحرج مـن المقارنـات التـي رسـمها الافارقــة انفســهم، فــى نجــاح زيــارة نــدابا وسـوزايلاند، مقابـل فشـل زيـارة ايشـوى فـي زولولانـد. حيث نراه يستشهد بالدكتور موروكا، وهو طبيب مـدرب فـى مجـال الطـب، وعضـو فـى مجلـس إتحـاد السـكان الأصليين "، حيث كتب مقـالًا فـي جريـدة رفاهيـة البـانتو Bantu Welfare ، قارن فيه الحرية التي تمتعت بهـا الأسرة الملكية عند إختلاطهـا بـالافريقين فـى المحميـات، والافريقيين فى بقية مناطق الاتحاد. فوفقا للكاتب، أبْقـى الافارقة بعيدًا عن كل شيء، وتم التأكيد على فكرة تفوق البيض. فقد حـدث اجتمـاع فـي بيترسبيرج بـين سـكان شـمال الترانسـفال الافـريقيين للحـديث حـول هـذا الأمـر،

وتحدث الدكتور موروكا حول تلك النقطـة تحديدًا. ولعل قول بـارنج " لمـا لـم يكـن الـدكتور موروكـا متطرفًـا، ولا جريدة رفاهية البانتو متهمة بالشيوعية، لذا فإن حديثها حول معاملة الافريقيين عبر الزيارة لقى تـاثيرًا"، يصب فـى عمليـة التفرقـة والتمييـز التـى مارسـتها السـلطات العنصرية داخل الإتحاد ضد الافريقيين، فى حين تـركتهم الإدارة البريطانيـة فـى المحميـات أكثـر حريـة. وأرجـع السـير بـارنج هـذا للعناصـر التـى تـتحكم فـى صـحافة البانتو، وقـال " بـأن المـال الـذى يأتيهـا كـان عبـارة عن مسـاهمة مـن قبـل مجموعـة أرجـوس الصـحفية بشـكل رئيسى. وبالتـالى كـان لا يمكن أن تمر الفرصـة دون أن يسجل الـدكتور موروكـا رغبتـه فـى إحـراز نصـر علـى حسـاب السـلطات الاتحاديـة. وقـال بـأن ذات الأفكـار قـد أعرب عنها عدد كبير من أفارقة جنوب أفريقيا" (111).

الزيــارة الثالثــة، إلــى باســوتولاند. فتحــت عنــوان " الزيارة الملكية إلى باسوتولاند Basutoland " يرسل السـير بـارنج الـى الفيكونـت أديسـون، فـى 23 يونيـو 1947، ليحيطه علما بوصول الملك والملكـة وصاحبتي السمو الملكي الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت إلـى باسوتولاند فى 11 مارس 1947. وأنهم غـادروا القطـار الملكي فـي صباح ذلك اليوم، وبعد زيـارة لمدينـة ليدى برانـد Ladybrand فـي دولـة أورانـج الحـرة، وصـلوا ماسـيرو Maseru فـى نفـس اليـوم. ثـم يقـص عليـه تفاصيل ما حدث قبل الزيارة من استعدادت، فيقـول بانـه ولعدة أيام في الباسوتو Basuto كان هناك قادمون مـن جميـع أنحـاء الـبلاد، جـاء بعضـهم عبـر طريـق الـتلال، وجـاء بعضـهم راكبًـا للخيـل مـع زعيمـه وخدمـه، وهـم يهتفـون أثنـاء دخـولهم ماسـيرو ويغنـون للـزعيم. ثـم يتطرق بنا لسبعة مشاهد رئيسية: المشهد الأول، حظيت الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت على إعجاب بعض الأحزاب عندما جائتا لميدان سباق الخيل في وقت مبكر من صباح اليوم التـالي. المشـهد الثـانى، كانـت ماسيرو محاطـة فـى الليلـة السـابقة بمعسـكر مشـتعل بالنـار♥. وكانت الترتيبات الموضوعة من قبل إدارة المعسكرات،

للغـذاء وللرعـي، ممتـازة ولا توجـد مشـكلة. المشـهد الثالـث، كانـت هنـاك علامـات لافتـة علـى تغيير العـادات. ففـي الماضـي فـي بيتسـو Pitso، كانـت الحكومـة تـزود المحتفلـين بـالثيران فقـط، ويعهـد بإعـداد الوجبـات للزعامات التى ترتب إطعام الناس. ونتيجة رغبة الإدارة فى تحمل التكلفة والمشاكل، تركت للجميع ترتيب تلك التغذية ليتحملها الزعماء المحليين، وهو ما ترك الكثير من الأتباع جياعًا. وفى هذا الاطار كان الجنود السابقين يطلبون الطعام بصوت عال، ويطالبون الإدارة بالمجئ لهم بأوانى الطبخ. وخلال اليومين ظهر الباسوتو، على غير العادة، حسنوا المحيا والسعادة. وتفسير ذلك بأنه ربما تكون بطونهم قد غذيت جيدًا. المشهد الرابع، في صباح اليوم التالي أقام البيتسو العظيم على بعد مسافة قصيرة خارج ماسيرو، حيث كانت الأرض مدرجة بشكل طبيعي. وفي نقطة مركزية، عمل تلاميذ الباسوتو، من مدرسـة ليروتـولى الفنيـة تحت قيـادة السيد أرشـيبالد، على تشييد مبنى من الحجر والخشب يغطيها سقف من القش، يقع أمامه درابزين من حديد. وجلست الأسرة المالكة على منصة حجرية في الجزء الأمامي من هذا المبنـى، وكانـت الشخصـيات الرسـمية تجلـس بزيهـا الأبيض علـى المقاعد الخلفيـة، ومباشرة قبالـة الـزعيم الأعلى♥. المشهد الخامس، عند وصول العائلة المالكة مع مرافقيهم لأرض البيتسو غنوا أغنية السلام- المطر. وجلـس الملـك والملكـة علـى المنصـة وبـدأت كلمـات الترحيب، وأعقب هذا خطبـة مـن الزعيمـة العليـا قرأهـا أحد مستشاريها (انظر ملاحق الدراسة). تلك الخطبة التى أجاب عليها الملك. وبعد دقائق قليلة استمع الحشد الهائـل لكـل الخطـب فـي صـمت تـام. المشـهد السـادس، عبرت زعيمـتهم بشـكل قـوى بـأن الباسـوتو يعترضـون بشدة على الكلام المنتشر حول نقل بلادهم لإتحاد جنوب افريقيـا. وبعد الإنتهـاء مـن خطب الترحيب كـان أفضـل تعليق في الإتحاد هو لهجة الصدق الواضحة والعبارات الخلابة المستخدمة من المنتسيبو سيسو Mantsebo Seeiso. المشـهد السـابع، في الخامسـة صباحًا ذهبت الأسـرة الحاكمـة للقطـار الأبـيض الـذي وصـل لمحطـة ماسيرو قبل لحظات من تحركهم. وهنـاك ودعوا كبار المسؤولين، ثم تقدموا إلى الزعيمة العليا وعشرين من المشايخ الواقفين بالزى الوطنى، وتحدث الملك والملكة معهـا ومـع المشـايخ لـبعض الوقت، الـذين حيـوهم عنـد رحيلهم بصرخات المطر[112].

وراحت الرسالة السابقة تتحدث عن مميزات الزيارة على الأمن الاستعمارى، وتجملها فى ستة مزايا: أولهـا، عبَّر الباسـوتو، فـى مظهـر لا تخطئـه عين، عن ولائهـم القوي للاسرة المالكة. واتضح بـأن منـاطق الباسوتو لـم تتـأثر بالدعايـة الشـيوعية المنتشـرة فـى الاتحـاد فـي السنوات الأخيرة. ثانيهـا، أثبتوا عبر أزيـاءهم والتعبير عن هويتهم، شعورهم بـانهم ضد نقل الباسوتولاند إلى الاتحاد، لأنـهم يعتقدون، ولكن بشكل غير صحيح حسب مرسـل الوثيقـة، أن افتـراض سـيطرة الإتحـاد علـى باسوتولاند مـن شـأنه أن ينطـوي علـى تخفيـف الصـلة بـالعرش البريطـانى. ثالثهـا، أن أعداد الشرطة المؤمنـة للزيـارى لا تتجـاوز 22 مـن رجـال الشـرطة وهـو أمـر مختلـف تمامًـا عمـا حـدث فـي ترانسـكاي وزولولانـد. رابعهـا، أن الترتيبات التـي وضـعتها الإدارة طوال فترة الزيارة للتعامل مـع الحشـود الكبيرة فـى الباسوتو كانت تلقـى الإعجـاب، سـواء للمـوظفين الإداريـين، وضـباط الشـرطة، وإدارة الأشـغال العامـة والمـوظفين وطـلاب مدرسـة ليروتـولى الفنيـة. ولهـذا قـدم صـاحب الجلالـة شارة الـ C.V.O. للمفوض المقيم، فورسيث تومسون، وشـارة الــ M.V.O. للعقيد ف ب ثـورب. خامسـها، أن الصحافة الاتحاديـة قدمت دعايـة ممتـازة للزيـارة. فلعدة أيـام ظلت تنشر صور الباسوتو والبيتسو فـي الصحف الناطقـة باللغـة الإنجليزيـة♥. سادسـها، ظهـرت الآراء الحرة التى يتمتع بها الباسوتو مـن خـلال البيتسو. حيث لقيت الزعيمـة اسـتقبالًا بـاردًا جـدًا، لكـن عنـدما ظهـر شـقيق زوجهـا، بيـرنج جريفث Bereng Griffith، حيته الجماهير بحـرارة وحمـاس صـاخب، خاصـة عنـدما تقدم للأمـام بلباسـه الـوطني للحصول علـى ميداليـة مـن

الملك. ونفس الأمر تكرر مع تيكو موكولا Theko Makhaola، حيث كانت له شعبية بين المحاربين، الذين قاتلوا في إيطاليا بين الجبال، وكزعيم لأكبر جناح، هو الماليوتس Malutis. حيث عبرت الصحف بأن هذين الزعيمين كانا يتآمران ضد ريجنتRegent ، وضد تفضيلاتها المختلفة (113).

وإذا كانت الأسرة المالكة تهدف من زيارتها إلى تحقيق الأمن الاستعمارى، فإن إعراب الباسوتو عن رغبتهم فى البقاء كمحمية ورفضهم للإنضمام لإتحاد جنوب افريقيا كان يصب فى هذا الاتجاه. فإذا ما نظرنا إلى خطاب الزعيمة العليا للباسوتو المينستو سيسو Mantsebo Seeiso، ريجنت، زعيمة باسوتولاند العليا، نجد أنها تحدثت بالنيابة عن نفسها وعن زعماء أمة الباسوتو، لتدخل مباشرة فى هذا الموضوع. فبعد أن عبرت عن الترحيب والود للملك والملكة والأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت، قالت بأن هذا الترحيب بمناسبة أول زيارة لباسوتولاند منذ دخولها تحت الحماية البريطانية فى عهد الملكة فيكتوريا، واستمرار الأمر فى عهد خلفائها.ثم ذكرت بأنها ومشايخ الباسوتو وأهلها، تجمعوا في أعداد كبيرة ليعبروا عن الفخر بزيارة الأسرة الملكة، لأنهم يشعرون برعايتها، مؤكدة على أن ذكريات الزيارة الملكية لن يتم نسيانها أبدًا في هذا الإقليم. لكن خطابها حسم جوانب مهمة للغاية، نختزلها فى أربعة: أولها، أكدت على أن أسلافها منذ جدها الأكبر موشيش Moshesh، قد طلبوا بمحض إرادتهم الحماية البريطانية، وأن باسوتولاند بقيت حتى بعد وفاته، وفية لتراثه، وأن أحفاده قد حافظوا على هذا التراث وحقوق الباسوتو فى ظل حماية الملك والحكومة التابعة له. ثانيها، أعلمت الملك بأن رعاية الله هى التى جعلت الباسوتو يدخلون تحت حماية الحكومة الانجليزية، وأنهم يفخرون دومًا بأن يكونوا منطقة متميزة في ظل قيادة الملك، وفى ظل قاعدة الحماية، وأنهم لا يتمنون أن ينفصلوا بأي شكل عن حكومة الملك العادلة. ثالثها، أن الزيارة الملكية قد أتاحت للزعيمة الفرصة لإعادة التأكيد، بالنيابة عن نفسها وعن مشايخ الباسوتو وشعبها، على الولاء للملك وللعرش البريطانى، منذ تعهد أجدادهم بذلك. رابعها، عبرت للملك وأسرته بأن الكلمات تعجز بشكل كاف عن التعبير عن فرح قلوبهم وسعادتها بهم. وأكدت بأنهم على الرغم من أنهم أمة صغيرة بين شعوب إمبراطوريته، وأراضيهم ليست سوى منطقة صغيرة مقارنة بالدول الكبرى البعيدة والواسعة التى تقع تحت حكم بريطانيا، لكنهم يسلمون بالولاء والمودة لملك وللعرش لا لشيئ. خامسها، عبرت الزعيمة بأنهم أكثر سعادة بأن الملك وعائلته حلوا عليهم بالزيارة فى هذا اليوم، 12 مارس، بإعتباره اليوم الذي طلب جدها الأكبر الحماية من قبل الملكة فيكتوريا وحكومتها، وأعتبروا تاريخ الطلب بمثابة عطلة رسمية لهذه المنطقة. سادسها، أنها تتمنى كل النجاح للامبراطورية خلال عهد الملك، وأنها تقدر كل ما يبذله عبر الإمبراطورية، ثم تطالبه بأن يتذكر دائمًا ولاء بلادها لأسرته، وأن علاقتهم ببريطانيا من الموضوعات المنتهية فى موضوع الولاء، ومن النوع الذى لا يمكن الخروج منه. وتطالبه فى نهاية الخطبة بسلامة العودة إلى بلادة وأن يقضى وقتًا لطيفًا هو وأسرته (114).

وعلى هذا حققت الزيارة أهدافها فى التعرف على الهواجس التى تسود بين سكان تلك المحمية. وأطمئنت على استمرار الولاء طالما لم ينضموا إلى إتحاد جنوب افريقيا، وهو الأمر الذى تحقق لهم حتى استقلاهم عن بريطانيا سنة 1968.

الزيارة الرابعة، إلى بتشوانالاند. فتحت عنوان" الزيارة الملكية لمحمية بتشوانالاند Bechuanaland "، أرسل السير بارينج للفيكونت أديسون، فى 20 أغسطس 1947، ليحيطه علمًا بأن الملك والملكة والأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت دخلوا محمية بتشوانالاند من بولاوايوBulawayo، ونزلوا محطة حدود راماكوبانى Ramaquabane قبل ظهر يوم 16 أبريل، وأنهم ترجلوا مشيًا على الأقدام من محطة

فرانسيستاون Francistown واستعرضوا بعض الجنود السابقين، والتقوا تجمع للسكان الأوروبيين. وأن الافريقيين قابلوهم بترحاب شديد، حيث اصطفوا فى المحطة لرؤيتهم. وأنهم كانوا خجولين نوعًا ما في البداية، ولكن عندما لوح لهم الملك أجابوه بحماس شديد. ثم توقف القطار في شاشيShashi ، أسفل خط السكة الحديد، لتمكين الزوار من رؤية المنحوتات الخشبية التي يتخصص بها أهل ذلك المكان. ورغم أن الأسرة الملكية كانت مهتمة كثيرًا بهذه التحف الفنية، إلا أنها اشترت عددًا قليلًا من المعروض، لأنهم كانوا ينتظرون استقبالًا آخر لهم في بلابى Palapye، ومرة أخرى في مهالابى Mahalapye، حيث كانت الأسرة فى حالة جيدة ولا زال ضوء النهار موجود. وعلى الرغم من أن الأمر تم فى ساعة متأخرة، إلا أنهم تحدثوا إلى الناس من المنصة، سواء الأوروبيين والأفريقيين. وتم إعداد جناح خاص قرب محطة لاباتسى Lobatsi، وتقع على بعد 50 ميلا شمال مافيكينج Mafeking، لاسبام لاباتسى الملكية. حينها تحرك القطار ووصل بعد بضع دقائق بعد الساعة السابعة صباح يوم 17، ليصل إلى وادى التلال، ليقف عند فضاء كبير، يروا من خلاله المساحات المفتوحة من الجانبين بإتجاه طريق تجولوا عليه بضعة أمتار. بعد ذلك حدث اجتماع بين الملك وسكان محمية بتشوانالاند. وكما حدث فى استعدادات زيارة باسوتولاند، حدث فى زيارة بتشوانالاند نفس الأمر، حيث تزينت الأرض بالأعلام والرايات، ووصل السكان الافريقيون قبل الزيارة بيومين أو ثلاثة. حيث تشير التقديرات بأنه عندما ترجلت الأسرة المالكة من القطار فى الساعة العاشرة صباح يوم 17، كان عدد الأفريقيين حوالى 25.000 افريقيًا و 2،000 أوروبي. وبالنظر لمعاناة البلاد من نقص المياه وأمراض القدم والفم، وهى أمراض تؤثر فى إنتقال الناس وتحركاتهم، تعد الأرقام مرضية للغاية (115).

وتتطرق الرسالة إلى بعض المسائل المهمة المتعلقة بالأمن الاستعمارى، ونختزلها فى ثمانية: الاولى، أن المفوض المقيم فى بتشوانلاند كان يرتدى الزي العسكري الكامل، وحضر بالقطار الساعة العاشرة صباحًا، فى حين حضرت الأسرة المالكة بسياراتهم. وقدمت مجموعة صغيرة من الحراس من شرطة محمية بتشوانالاند، تحت قيادة الكابتن لانجليLangley ، التحية الملكية. وقامت السيارات التى تقل الملك والملكة والأميرات بعمل استدارة كاملة. الثانية، أن الشونا Bechuana كانوا يملكون العديد من الفضائل الأكثر صلابة، لكنهم ليس من عادتهم التحدث إلى رئيس إلا إذا تحدث هو أولًا. فبمقارنة المظاهرات المتحمسة للأسرة الملكية في أماكن أخرى، يبدو موقف الشونا رصينًا إلى حد ما. فلم يكن هناك صراح بكلمة بولاPula المطر، كما حدث فى المناطق الأخرى، ومع ذلك، فقد كان الرجال لا يرددون كلمة مطر كتحية احتفالية.

الثالثة، قلدت الأسرة المالكة عدد صغير من المناصب والرتب، سواء العسكرية والمدنية، فى مكان الاحتفال، حيث منحوا ميداليات للمشايخ التى حصلوا عليها فى آخر عامين. بل قدم المفوض المقيم شهادتين بحضور صاحب الجلالة. الرابعة، تفقد الملك والملكة، يرافقه المفوض المقيم، والرائد جيرموند J. D. A. Germond، والقائمقام الذي عمل مع القوة الرائدة التى حاربت في شمال أفريقيا وإيطاليا، مجموعة الـ 300 أفريقي من الجنود السابقين، في حين ذهبت الأميرتان لتفقد الحركات الشبابية، التي تتألف من الفتيات المرشدات، والكشافة، ولواءات الأولاد والبنات. ثم حضرت الأسرة الحاكمة وفي وقت لاحق حفل شاي للمجتمع الأوروبي، أقيم في أحد أركان المنطقة. وقبل تناولهم للشاي تفقدوا مجموعة من الجنود الأوروبيين السابقين. الخامسة، قدمت الأسرة الملكية دليل محبتها بالتقاط عدد من الصور بين الناس، وقدموا بعض الهدايا لهم، كرابطة عنق أو شارة، والتقطوا صورًا مع الذين شاركوا فى خدمة محمية بتشوانلاند، فى الفوج

الخاص بقذف القنابل. بعد ذلك أخذوا مرطبات، ومشوا فى جولة. ونظرًا للسلوك الممتاز للحشد الموجود كانت الأسرة المالكة قادرة على التحدث مع عدد كبير منهم. وفي طريق جولتهم تحدثوا مطولًا مع الزعماء المحليين وزوجاتهم المدعويين فى الحفلة. السادسة، كان انتظام الحشد الإفريقي هو الأكثر إثارة وإعجابًا طيلة فترة الصباح. خاصة، وأنه لم تكن هناك حواجز في اجتماع كجوتلا Kgotla تمنع الناس وتحتويهم، وربما كان وجود عدد قليل من الحجارة البيضاء، قد حال دون التدافع والتصارع، وبالتالى لم يحدث تعدي على طول الطريق، ولم تحدث أي حالات من سوء الأدب أو عدم الإكتراث. بل لم يتم استدعاء أعداد الشرطة القليليين ليمارسوا دورهم إلا نادرًا. وفى هذا الاطار لم يكن هناك إلا عدد قليل جدًا من الضحايا في خيمة الإسعافات الأولية، حيث كان رئيسه يقدم العلاج عبر المسكرات الطبية. بل إن الشيئ الوحيد المفهوم والمؤثر أن عدد قليل من الفتيات والفتيان الأفريقين يضحكون ويهتفون ويركضون بشكل جماعي بعد عودة الموكب الملكى بسياراتهم إلى الاجتماع. حيث تأثرت الأسرة الحاكمة بمظاهرات الحب التى رأوها. السابعة، أنه بعد رحيل القطار الملكي، مارس الشباب رياضتهم، وأطلقوا الألعاب النارية في المساء، وعقد الأوروبيون حفلات للرقص، فى حين أعد الأفريقيون عدد من الثيران للذبح. الثامنة، قدمت الزيارة انطباعًا ممتازًا لكل مجتمعات محمية بتشوانالاند، خصوصًا لدى هؤلاء الذين وقعوا أسرى الأخلاق الكريمة وسلوك العائلة الملكية السهل والوقور. هذا بالاضافة إلى تعزيزها اتصال سكان بتشوالاند الأفريقيين بالعرش البريطانى[116].

المحور السابع- موقف الصحافة الجنوب افريقية من الزيارة :-

تعكس لنا ملكية الصحف فى جنوب أفريقيا الهيكل الاقتصادي والسياسي للمجتمع. حيث كان يتم تمويل الصحف الصادرة باللغة الإنجليزية من قبل الشركات الرأسمالية الكبرى" الإنجليزية. حيث تعاونت مع بعضها البعض بشكل وثيق لحماية مصالحها المالية، على ألا تكون هناك منافسة موجودة مع العناصر الأفريكانرية. فى حين كان قلة من صغار الرأسماليين هم الذين يمولون الصحف الأفريكانية، وبالتالى شاركت قضية اللغة الأفريكانية ومحاصرتها بجزء من تأجيج الأزمة بين الطرفين [117]. لكن إذا ما نظرنا إلى ما عرضته رسالة السير إيفلين بارينج فى 10 مارس 1947 للمواقف الرافضة للزيارة، وتسميتها للصحف الناطقة باسمها، سنجد أنها تضعنا بصورة أوضح على طبيعة تلك المواقف. حيث تشير بأن صحيفة دى ترانسفالر Die Transvaler كانت تمثل الجناح الأكثر تطرفًا، فى حين مثلت صحيفة دى برجر Die Burger الجناح الأكثر إعتدالًا. وقالت بأن جريدة الأوسيوا براندوج، وجريدة العهد الجديد، وأصحاب القمصان الرمادية، تمثل المجموعات المتطرفة. تلك المجموعات التى تختلف عن الحزب الوطنى المتطهر فى الاسلوب ووجهات النظر، لكنها حصلت على مزايا برلمانية حكومية، بشرط ألا تعمل على إنشاء الجمهورية أو تعتبرها هدفًا مناسبًا للشعب الأفريكانية فى ذلك الوقت. وكان أتباع هيرتزوج هم الداعمين لسمتس ضد الدكتور مالان خلال فترة الحكومة الاتحادية، مع أنهم كانوا ضد كل من الجنرال سمتس والدكتور مالان خلال الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية، عندما كان الحزب الأفريكانى قائمًا ومعارضًا للحزب الوطنى المتطهر، بإعتباره أحد المنظمات المتطرفة فى ذلك الوقت. لكنهم تعاونوا مع أعضاء الحزب الوطنى سويًا في بعض الأحيان، دون أن يتخلوا عن الجمهورية كهدف، ويرغبوا في المزيد من سياسة الدكتور مالان المعتدلة، وتعبر صحيفة دى فادرلاند عن آرائهم. وفى هذا الإطار، جاءت مذكرة السير ايفلين

بارنج لتلخص ردود فعل الصحافة على الزيارة الملكية، خصوصا تلك التى تدعم الوطنيين المعارضين. حيث تظهر المذكرة ثلاثة مواقف تم اعتمادها، وتعكس بشكل جيد الانقسامات السياسية المذكورة: الموقف الأول، تتجاهل صحيفة دى تراسفالر ودى أوسيوا برانـدوج ودى نيـو أوردي؛ إما الزيارة أو الكتابات المسيئة. الموقف الثانى، انتقلت صحيفة دى فادرلاند فى كتابتها قبل وصول العائلة المالكة من عدم الحماس للزيارة إلى الثناء بحماس للملكة، وإنتقاد الحزب الوطني بشكل متناقض. الموقف الثالث، بدأت جريدة دى برجر بتبنى موقفًا صحيحًا لكنه باردًا، بإظهار المعنى التقليدي للضيافة الأفريكانرية، وأنه من الطبيعى أن يرحبوا بالأسرة المالكة. لكن الرسالة أكدت فى ختامها بأنه "يجب أن لا نتوقع الحماس للملكية، حيث يستنكرون تطرف الصحافة الإنجليزية، ويستنكرون طموحات الجنرال سمتس فى كسب الأصوات من جراء الزيارة". ومن وجهة نظر أتباع الدكتور مالان كان هذا صوت السياسة التحريرية. لكن أصبحت بعض المقالات في الآونة الأخيرة لاذعة أكثر، وأقل مهارة. لكن قولها " بأنه من الممكن أن يحدث التغيير نتيجة نجاح زيارة كيب تاون بعد أن تجاوز توقعات دى برجر، لكن قد يكون هذا مجرد تمني"[118]، يقطع بأن المسؤلين البريطانيين كان لديهم طموح كبير فى قدرة الزيارة الملكية على تغيير المواقف.

وفى هذا الإطار، فإن ملحق رسالة إيفلين بارينج فى 10 مارس 1947، يقدم لنا تفاصيلًا مهمة عن تلك المواقف. فيبدأ بنظرة عامة لما نشرته الصحف، فيشير إلى وجود بعض الشكاوى للصحفيين للحصول على تصاريح لهم، وتسهيلات كافية لإعداد التقارير الصحفية. فقالت بأنه لا توجد ندرة فى أخبار الجولة الملكية عبر الصحف، وأنه منذ أن تحركت السفينة فانجارد من ساوثمبتون Southampton فى بريطانيا، ظهرت هناك تقارير يومية فى الصحف عن أنشطة الأسرة الحاكمة. فظهرت تقارير فى أيام 17 و18 فبراير، حملت صورًا عن وصول العائلة الملكية للاتحاد، شغلت تقريبًا كل الصحف المؤيدة للحكومة، وغطت كل المناسبات التى حضرتها العائلة المالكة. وقد وصفت بشكل كامل وبارز في جميع الصحف المنتشرة فى نواحى الإتحاد، ولمدة اسبوع تقريبا، فى حين أخذت العناوين الرئيسية في صحافة الكيب. حيث عكست الصحف الموالية للحكومة الحماس والترحيب الحادث في استقبال العائلة المالكة، وفى الرسائل والتعليقات المرسلة لتلك الصحف. فظهرت افتتاحيات الترحيب في جميع الصحف الموالية للحكومة فى يوم 17 فبراير، حيث خصصت عدد من صفحاتها الرئيسية للزيارة الملكية على مدى الثلاثة أيام التالية. حيث رحبت بالملك بصفته رئيسًا للدولة، وعكست ترحيب الناس بكل أفراد الأسرة الحاكمة. وركزت كثير من الصحف على بقاء العائلة المالكة مع الشعب البريطاني خلال الحرب [119].

وينتقل الملحق لاستعرض موقف بعض الصحف، فيبدأ بصحيفة دى برجر، فيقول بأن تقاريرها طوال فترة الزيارة كانت منصفة، على الرغم من عدم منحها الزيارة لنفس المساحة والمكان التي قدمت لها في الصحف الموالية للحكومة. فقد أشارت كل دى برجر ودى فولكسبلاد **Die Volksblad** بإستنكار إلى المزج بين الأوروبيين وغير الأوروبيين في الحشود التي استقبلت الأسرة الحاكمة في كيب تاون، رغم تعرض الجريدتين لضغوط مالية ومتاعب لتغطية الزيارة والمشاركة فى الترتيبات الملكية. وكانت دى برجر حريصة قبل وصول العائلة المالكة بأسبوع على إبراز أزمة الوقود التى تواجهها المملكة المتحدة، فنشرت فى صباح يوم 15 فبراير على صفحتها الأولى تقريرًا يزعم أن الزيارة كان هدفها الابتعاد لفترة عن الوضع الخطير الحادث في بريطانيا. وقالت فى تقريرها عن مكانة الملك، وأنه ذهب فى جولته في جنوب أفريقيا، وتخلى عن شعبه في لحظة الأزمة. وحملت دى برجر فى 17 فبراير خبرين رئيسيين مهمين تتناول أزمة الوقود فى المملكة المتحدة، فى حين كانت تقارير الزيارة الملكية

أقل، وفى أسفل صفحتها الأولى، وعلى الصفحة الثانية. وفى 20 فبراير نشرت تقرير مراسل الصحيفة في لندن على صفحتها الأولى، بأن هناك القليل من الدعاية للزيارة الملكية في الصحف الإنجليزية، وأرجعت ذلك إلى حقيقة أن العائلة المالكة ذهبت للاستمتاع بأشعة الشمس، وزعمت بأن شعبيتها كانت تعاني وتستند فقط على بقائها في القصر خلال سنوات الحرب، لتتحمل قصف القنابل مع شعبها. وعلقت جريدة دى برجر يوم السبت فى أحد أعمدتها بتاريخ 22 فبراير ساخرة من نطق الملك للغة الأفريكانية خلال إفتتاحه البرلمان، ولم يكن هناك بيان آخر في الصحافة يشير بأن الوطنيين يودون الخروج عن خط اللامبالاة بطريقة مهذبة [120].

ولم تذكر جريدة دى ترانسفالر، وهى صحفية حكومية، وصول العائلة المالكة في أعمدتها الإخبارية. وحذرت فى 17 فبراير بعدم عمل دعاية كثيرة للزيارة الإمبراطورية، ومنذ ذلك الحين ورد ذكر الزيارة مرتين أو ثلاث مرات. حتى تمثلت سياسة دى تراسفالر بنصيحة أفريكانرز الترانسفال الذين يريدون أن يعرفوا شيئًا بأى نسبة عن الزيارة الملكية، وأنهم ربما يقراءون بدلًا منها صحيفة دى فادرلاند، لسان حال الحزب الأفريكانى، تلك التى قدمت تقارير كاملة ومنصفة. فعبرت الصحيفة فى افتتاحيتها فى 17 فبراير عن الترحيب بالزيارة، وقالت بأن جنوب أفريقيا فخورة بوضعها المساوى للمملكة المتحدة، وبأنها تحمل كل تقدير وإحترام للملك، وسيكون من غير اللائق لأحد أن يدعو دعاية سيئة ضد الزيارة، فينبغى للملكيين أو الجمهوريين أن يظهروا حسن الخلق. وفى 21 فبراير وضعت عناوين كبيرة تشير بأن الملكة قد سرقت قلب الجمهور، وبأن هناك حماسًا كبيرًا في الكيب للعائلة المالكة، وأن الملكة كانت مفضلة من الجميع، وأن "ابتسامتها العريضة تملك تأثير نفسى كبير على المعجبين بها، فقد كانت حشود الناس ترى ابتسامتها كما لو أنها كانت تضحك مع كل واحد على حدة. وفى المقابل يذكر المراسل السياسي للفادلرلاند بأن غياب الوطنيين الأفريكانرز عن إظهار الترحيب يعكس تجاهلهم لقانون الإتحاد. مشيرًا بأن الملك يبقي هو ملك جنوب أفريقيا حتى يتم إلغاء تلك القوانين. معتبرًا بأن موقف الوطنيين كان أحمقًا من الناحية السياسية إذا كانوا يهدفون إلى الحصول على أصوات الناخبين الناطقين باللغة الإنجليزية، فهم لم يأخذوا مشاعرهم بعين الاعتبار. وخلص إلى أن الزيارة الملكية كان لها تأثير هائل على الناطقين باللغة الانجليزية في جنوب افريقيا، وأن الوطنيين لم يفعلوا شيئا لتحييدهم" [121].

وكانت جريدة كروثورنج **Die Kruithoring** أقل تحفظًا بين الجرائد الأفريكانرية، حيث ذكرت رحلة السفارى للعائلة المالكة، بحوالى 24 عربة كارتة. وتساءلت فى 26 فبراير عن مدى تأثير الزيارة على الإنتخابات القادمة، وشعور الوطنيين الأفريكانرز بالقلق. لكنها توصلت إلى نتيجة مفادها بأن المؤمنين بالقومية الأفريكانرية سيظلون غير متأثرين بالزيارة بتاتًا، ولن تكون للحزب المتحد أية مكاسب من ورائها. ثم تحدثت عن خيبة أمل أنصار الحزب الذين فشلوا في الحصول على وظائف، وأولئك الذين لا يزالون يعانون من نقص الغذاء، ومسئولية الحكومة عن هذا الأمر. فى حين أعلنت أوسيوا براندوج عن الزيارة الملكية مع مطالبة الجمهور الأفريكانرى بإحياء يوم ماجوبا فى 27 فبراير، الذكرى السنوية لهزيمة البريطانيين في عام 1881. وأدرجت المظالم ضد النظام الملكي "رمز خضوعنا" ، وأن الأمر من الزيارة لا يزيد عن تقرير يرفعه الرجل إلى حكومته في لندن تحت عنوان "فتح إقليم"، وبالتالى فإن نيران الحرية لا تزال تشتعل في جنوب أفريقيا، مع أن جمهورية جنوب افريقيا عانت الأسبوع الماضي من أعظم أنواع الإذلال. وفى يوم 19 أعلنت بأن عضوًا بارزًا في الاسوابراندوج رفض السماح للأسرة الملكية بنزهة في مزرعته. وفي اليوم التالي، ذكرت الكيب أرجوس ودى برجر بأن "الجنرال" مارش، زعيم الأسيوا براندوج في بارل، وبأنه لم يتعاطف مع بساطة الأسرة الحاكمة، مع إعلانه

بأنـه يود بقـائهم هنـاك. وهذا التقرير تسبب فى إحداث بعـض الحـرج للجنـرال سـمتس" الـذي سـارع إلـى التوضيح بـأن هذه التصريحات كانـت من وجهـة نظره الخاصـة التى قيلت في محادثـة خاصـة، مشيرًا إلى أن طلب الجريدة أن تنشر شرحه للمسألة. أما رد فعل داي كردستاني نيـو أوردي علـى الزيـارة الملكيـة فهـو غيـر معروف، ولم يكن هناك تعليق من صحيفة الحزب (122).

ويقـدم لنـا مرفـق رسـالة السـير إيفلـين بـارينج إلـى الفيكونـت أديسـون فـى16 مـايو 1947، عـن ردود فعل الصحافة على الزيارة الملكية، تفاصيلًا غاية فى الأهمية عن مواقف تلك الصحف وقراءتها للزيارة. ففيما يتعلق بالصحف الموالية للحكومـة، قـال بـأن هنـاك القليل الـذي يمكن أن يقال عن موقفها. فيشير بأنـه كان هنـاك اهتمـام كبير بالزيـارة الملكيـة لـم ينقطـع أبـدًا طـوال الرحلـة، بـل رحبـت الأسـرة الملكيـة بـدور الصـحف، وإنتقالهـا مـع الرحلـة فـى كـل الأقـاليم التـى زارتهـا. فقد كانـت هنـاك تقارير طويلـة وصور عن الجولـة، نشرت في الصحف في جميع أنحاء الاتحاد خلال فترة الزيـارة، مـلأ بعضها صفحات بكاملها، وفى الصحف الرئيسية لكل اقليم. بل كانـت الزيـارة مـن الموضـوعات الافتتاحيـة الرئيسـية للصـحف، يليهـا تعليقـات المحـررين وتحلـيلاتهم. فعلـى سبيل المثـال، كـان خطـاب الملك في بريتوريـا والـولائم الملكيـة، والتى أقلقت الشعب البريطانى، تلقى اهتمامًا واسـعًا. ونفـس الشـيئ حـدث مـع عيـد مـيلاد الأميـرة إليزابيث، حيث لقى نفس الاهتمام. وكذا رحيل الأسرة الحاكمـة، فقد كانـت كـل الصـحف متحمسـة لنشـر كـل التفاصيل، حيث دفعت خصيصًا لهذا الأمر، وشددت على قيمـة الجولـة مـن وجهـة نظـر علاقـات الكومنولـث. لكـن السخط كان واضحًا عبر صحف الراند فقط، فقد احتجت علـى تخصـيص يـومين فقـط لزيـارة جوهانسـبرغ ومـدن الريـف Reef towns. وبعد رحيـل السـفينة الحربيـة فانجـارد، اقترحـت صـحيفة الـديلي ميـل رانـد Rand Daily Mail تقديم جائزة خاصة للمسئولين عن وضع برنـامج منطقة رانـد، والـهديـة عبـارة عن باقـة من ورق التوت يتم شراؤها بمناسبة ذكرى مـا فعلوه مـع الأسرة فـــى الرانـــد". وفيمـــا يتعلـــق بالصـــحافة الوطنيـــة الافريكانريـة، فقد نشرت الـدى برجر والـدى فولكسبلاد Die Volksblad، تقـاريرًا عن الجولـة بشكل يـومى تقريبًـا. وبالنسـبة للجـزء الأكبـر منهـا، فقـد كانـت دقيقـة ومضبوطة، وكتبت ببنط مثير للاهتمام. وبطبيعة الحـال، فـإن عـرض هـذه التقـارير يوضـح تأثرهـا بالسياسـة التحريريـة للصحف. ولـم ينعكس شـيء ممـا قيـل علـى الأسـرة الملكيـة، لكنهـا انتقـدت العقبـات الطفيفـة فـي برنـامج الزيـارة، والتبذير الذى حدث، كهدايا الماس التى انتقدت خصيصًا. وتم الإبلاغ بـأن حشـود الأورنـج الحرة كـان ينقصـها الحمـاس، فـذكرت كـلا الجريـدتين بـأن الاستقبال الذى جرى في بلومفونتين كان باردًا. وزعمتـا بـأن العائلــة المالكــة قــد اسـتمتعت بعــادات الترفيــه الأفريكانيـة أكثـر مـن أي شـيء. بـل أعطـت مكانـة بـارزة لتعليقات الصحف المحلية والخارجية على الزيـارة، ممـا يـوحي بـأن الجولـة سـوف "تعزز أواصـر العلاقـة مـع الإمبراطوريــة". وهــو جانــب مهــم مــن جوانــب هــذه الجولـة، ركـز عليـه الوطنيـون الأفريكـانرز بشـكل جيـد، وأنـه لا يمكن إعتبـار الزيـارة إجـازة ملكيـة يقضـونها فـى الاتحـاد. لكـن لـم توجـد تعليقـات إفتتاحيـة حينمـا كانـت العائلـة المالكـة موجودة فى الكيب. وحينمـا وصلوا إلـى الأورنـج الحـرة، أعـادت جريـدة الفولكسـبلاد نشـر موقـف زعيم الوطنيين الأفريكانرى تجاه الزيارة. حيث تجـاهلوا تهنـأة مجلس مدينـة بلومفونتين وإدارة الاقليم، بإعتبـار اسـتقبال العائلــة المالكــة موضــة إنســانية فــى جنــوب أفريقيا(123).

وتســتمر الوثيقــة الســابقة فــى توضــيحها لموقــف الصحافة من الزيارة، فتشير لإنتقاد جريدة دى برجر فى 25 مـارس لمستشـارى الملـك، لسـماحهم لـه بـأن يلعب التـنس فـي ديربـان يـوم الأحـد السـابق؛ لافتـا إلـى أن رياضـة الأحد كانت مثيرة للجدل في الاتحـاد. ففـى 28 أبريـل رددت جريـدة الفولكسـبلاد شـكر الـدكتور مـالان للافريكـانرز علـى سـلوكهم المهـذب، مضـيفًا " بـأنهم

اضطروا إلى الخضوع لإختبار قاس، منذ أن تم الاعلان فى البداية بأن الجولة عبارة عن عطلة للملك، لكن تم استخدمها فى أغراض دعائية". وحافظت دى ترانسفالر على سياستها المضحكة، حسب الوثيقة، فى تجاهل الزيارة، على الرغم من ذكرها الأسرة المالكة مرة واحدة أو مرتين في المواد المنشورة ، مع مسائل أخرى نشرتها كتقارير من المراسلين. وفي نهاية مارس، وقبل زيارة العائلة المالكة إلى جوهانسبرج، نشرت لوائح حركة المرور في المدينة، مع شرح بأن "هذه القيود تتصل بالزيارة التي قام بها الملك البريطانى"، مما شكل إزعاجًا لقراء الجريدة وشغلهم بالتفاصيل. ثم نشرت الصحيفة فى صدر صفحتها الأولى بأن " الدكتور مالان يقابل من جمهوره باعتباره ملكًا". أما جريدة العهد الجديد، وهى جريدة أسبوعية خاصة بالحزب الوطنى تكتب باللغة الإنجليزية لجذب القراء الناطقين بها، فأظهرت للناخبين الحماس الذى بدا خلال الزيارة الملكية. وشرحت لقرائها ظهور عدد قليل من البرلمانيين فى مشهد ترحيب البرلمان بالملك، وهو ما يجافى الحقيقة. وانتقدت فشل الدكتور مالان فى أن يكون حاضرًا مشهد الافتتاح الرسمي للبرلمان، وحفلة الكيب فى الهول سيتى، وعدم مشاركته لموكب أعضاء البرلمان لمقر الحكومة. وعلى الجانب الآخر كتب إريك لووو **Eric Louw**، مسؤول الحزب الوطنى في جريدة كروتورنج **Die Kruithoring** مقالًا مطولًا ليثبت بأن الزيارة تم تخطيطها من جانب الحزب المتحد لدعم الدعاية له. وقال بأنها جاءت لمساعدة الجنرال في مهمته قبل الانتخابات، والتهدأة لموضوع الضرائب، والدعاية للحزب فى طول البلاد وعرضها. وبالنسبة للحزب الوطنى فقد كانت جريدة فادرلاند تنشر تقاريرًا كاملة طوال فترة الزيارة. وبالنسبة لجريدة الأوسيوا براندوج، فقد كانت تقاريرها تحمل في معظمها إنتقادات حادة من الأفراد أو المنظمات، كالحزب الوطنى، التى تظهر فى مصلحة الزيارة، ثم تثنى على الأفريكانرز الذين ليس لهم علاقة بالعائلة المالكة. وبالنسبة للحزب الشيوعي فقد كانت صحيفة الجارديان **Guardian** تفترض موقف إزدرائى من الزيارة الملكية التي تدعي بأنها شغلت إنتباه السلطات، وقالت بأنه ينبغي التركيز على إحتياجات الشعب. وقد أجتذبت الإنتباه لظروف الفقر التى أخفيت عن العائلة المالكة، وقد نشرت إنتقادات الأسرة خلال الزيارة فى صحف المملكة المتحدة [124].

السؤال الذى يطرح نفسه: هل اقتصر الاهتمام بزيارة الملك جورج السادس لجنوب افريقيا على مستوى الصحافة الجنوب افريقية فقط؟ الاجابة بالقطع لا، لكننا فى هذا المجال لا نستطيع متابعة ردود الفعل الصحفية جميعها على الزيارة، ومن ثم سنورد ما اهتمت به الخارجية البريطانية نفسها من ردود. حيث يعد التقرير الذى أرسله اللورد انفيرشيبل **Inverchapel** من واشنطن إلى بيفن **Bevin** فى **24** يونيو **1947** عن مردود الزيارة فى الصحافة الامريكية، من أهم التقارير فى هذا الشأن. حيث يحيطه علمًا بأن صحافة الولايات المتحدة تحدثت عن الزيارة الملكية الأخيرة لإتحاد جنوب أفريقيا. حيث حظيت باهتمامها، نظرًا لاهتمام الصحافة الأمريكية بنشر أخبار الأسرة الحاكمة ونشاطها، بشكل مستمر ومتتابع لقرائها، كما هو الحال في المملكة المتحدة. ومع ذلك فلم تكن كل التقارير المنشورة دومًا ودية. ومن ثم كان ينظر للزيارة الملكية على خلفية الحرب العالمية الثانية، حيث كان ينظر لرحلة السفينة فانجارد كعلامة على النصر المشترك، والذى كانت البحرية الملكية قد ساهمت فيه بقوة. وفى هذا الإطار، عبرت الصحافة الأمريكية عن إعجابها بالملك والملكة، الذين تقاسموا مخاطر الحرب الثانية ومحنها مع مواطنيهم بصورة لم يسبق لها مثيل في العصر الحديث. وسنة بعد سنة كان خطاب الملك يبث عبر الإذاعة فى دول الكومنولث البريطاني فى الذكرى السنوية لإنشاء الكمنولث، وبطبيعة الحال كانت ملايين المنازل الأمريكية تستمع به. فحدث تعاطف فى جميع الولايات الامريكية مع المملكة المتحدة خلال فترة

الحرب، وهذا ما عكس الدعاية اليومية في الصحافة للعائلة المالكة، وهو ما تسبب فى إهتمامها بزيارتها إلى جنوب أفريقيا. لهذا فإن نشر صور العائلة أصبح عاديًا وسمة من سمات ما تنشره صحافة الأحد والمجلات الأسبوعية، وكذلك أصبح من القضايا العادية من معظم الصحف اليومية الكبيرة". حيث تحدثت عن روح الدعابة، وأصبح لطف صاحبة الجلالة خلال فترة هطول الأمطار في بريتوريا موضوع تعليق خاص[125].

وتحدث التقرير أيضًا عن مرافقة الملك للملكة والأميرتين الشابتين، أحدهما وريثة العرش الرئيسية، ممن بقوا على قيد الحياة بعد الحرب العالمية الثانية، تلك الأسرة التى كان الأميركيون أنفسهم يقدمون لها الولاء منذ 200 سنة. حيث ذكرت الاحتفال بوريثة العرش ببلوغها سن الرشد في سياق الزيارة. مشيرة بأن صاحبة السمو الملكي قد وضعت الأساس لمسؤولياتها المستقبلية، بواسطة رسالتها المدروسة التى بثتها لشعوب الكومنولث، سواء في خزائن ملابس الأميرات، والمفروشات والديكورات على سطح البحر، ومدربيهم على متن القطار الملكي. وتحدثت عن قيمة هدية الماس المقدمة من قبل حكومة جنوب إفريقيا للأميرة وجمالها، وكل هذا كان مصدر اهتمام واضح للمرأة الأمريكية من خلال المجلات وفخامة الوصف والصور. وكانت هناك حرية للمراسلين في أن يدرجوا فى تقاريرهم الخاصة، تعليقاتهم الشخصية على سلوك الأميرتين، وإهتمامات الزوجين، وبصاحبة السمو الملكي الأميرة اليزابيث، وكان هذا ينشر جنبًا إلى جنب مع عناوين المحررين الفرعية، عن طموحات الجمهوريين بجانب الإطراء على النظام الغذائي. فقد حصلت صاحبة السمو الملكي خلال عيد ميلادها على صور وتسميات وتعليقات عالمية ودية، وتراوحت بين الرزانة والمجاملة. حيث ذكرت جريدة هارتفورد تايمز " الأميرة واحدة من أمنيات الشباب" فى حين اندفعت جريدة كورير اكسبريس لتقول " نعتقد أن الأكثر جاذبية هو شابة تدعى اليزابيث". ونفس الأمر ينطبق على جريدة ألكسندرا ماري، حيث بالغت كثيرًا فى هذا الأمر[126].

وبالمقابل، قدمت لنا إحدى الوثائق المصرية صورة مخالفة لما هو منشور فى الصحافة الانجليزية والأمريكية. فالشهرة والمكانة التى حصلت عليها الأميرة اليزابيث ولية العرش البريطانى داخل الوثائق البريطانية على سبيل المثال، تتقاطع تمامًا مع ما جاء فى الوثائق المصرية. فحين تقول الوثائق البريطانية بأن صاحبة السمو الملكي قد حصلت على صور وتسميات وتعليقات عالمية ودية، وتراوحت معاملاتها بين الرزانة والمجاملة، وأنها كانت واحدة من أمنيات الشباب هناك، وأنها الأكثر جاذبية، قدمت لنا هذه الوثيقة صورة مخالفة لذلك. حيث أشارت نصًا " بأن الصحف الانجليزية فى جنوب افريقيا عملت على إظهار الأميرة الياصابات بصورة تخالف ما يشاع عنها فى أوساط العامة"، بل أكدت على " أن الناس يشعرون بالجمود تجاه الأميرة الياصابات، فى حين يشعرون بحب وتقدير لأختها الأميرة مارجريت، باعتبارها أكثر سماحة وأقل تكلفة وأكثر بشاشة من أختها الكبيرة". ومع ذلك تؤكد الوثيقة " مراقصة الأميرتان لبعض المدعويين إلى حفلات الرقص الخاصة، وبأنهما تلطفتا مع الجميع" [127]. ترى هل كان موقف القنصل المصرى يعبر عن موقف سياسى؟ أم هو رفض لكل ما يرمز للسلطة البريطانية؟ أم أنه الحقيقة التى لا تجرؤ الإدارة البريطانية فى الكيب على نقلها لمسئوليها فى بريطانيا؟ الإجابة تقتضى القول بأن الوثيقة تعبر عمن أنتجها، وقد لا تعبر بالضرورة عما حدث بالفعل. وهذا يعنى أن ما كتبه القنصل المصري يعبر عن موقفه الشخصى، وقد يكون دقيقًا أو مخالفًا لما كتبته الصحف في جنوب أفريقيا ووثائق الخارجية البريطانية. لكن الأرجح هو سماعه لبعض تلك التعليقات من الرافضين للزيارة من الأفريكانرز، وأن الادارة البريطانية لا يعنيها إلا الهدف النهائى، وبالتالى نقلت محبة الناس لولية

العهد دون أن تشغل نفسها بتقديم نظرة تقييميه لأى من الأميرتين تحظى بمحبة الناس أكثر من الأخرى.

على أية حال، أرفق تقرير 24 يونيو 1947 نموذجًا من المواد التي ظهرت في مجلة كولير، وصحيفة نيويورك تايمز، ومجلة الأحد، غير أن تحليلة لأهم نتائج الزيارة يعد أمرًا مهمًا. وفى هذا الإطار نختزل ما قاله فى ثلاثة أمور: الأول، عند انتهاء الزيارة لم يكن هناك شك في أن الأسرة الملكية نافست فى شعبيتها صاحب السمو الملكي دوق وندسور الذى كان يتمتع في هذا البلد بشعبية كبيرة عندما كان أميرًا لويلز. حيث اهتمت الصحف اليومية بوضع الجولة في منظورها الصحيح، وشددت على إيجابيتها فى المساهمة في وحدة الكومنولث البريطانى، واعتبرتها مؤشرًا على التوجه السياسى للكومنولث في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. حيث كان المستهدف بأن يصل عدد الدول التى ستنضم للكمنولث إلى ثلاثة أضعاف حجمه الحالى. حيث أكدت الأسرة المالكة في أول مكان زارته على المساواة والاستقلال بين البريطانيين ودول الكومنولث، عبر إقامتها في الدومينيون لعدة أشهر اصطحبت خلالها وزراء من جنوب افريقيا خلال الجولة عبر مختلف المناطق. كما لوحظ أن شرطة جنوب أفريقيا هى التى كانت تتولى حراسة الملك طوال فترة الزيارة، حيث افتتح برلمان جنوب أفريقيا، وأعطى الجماهير وقادة الأحزاب المختلفة وأعضائها، التصرف في جميع الأنحاء على أنه ملك لجنوب أفريقيا. وعززت الزيارة بهذه الطريقة الهدف من زيارة كندا قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. الثانى، أن دفء الترحيب الممنوح للعائلة المالكة، ومشاركة كل أجناس جنوب أفريقيا في مختلف الاحتفالات والمهمات، واصطحاب الوزراء إلى المحميات البريطانية والذهاب فى نطاق أضيق إلى روديسيا الجنوبية والإعداد لترتيبات الإتحاد، والتأكيد على موقف مستقل لإتحاد جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية، كان تاكيدًا على أهمية العرش البريطانى كرابطة بين الأجناس ودول الكمنولث. حيث شرحت للأمريكيين استمرار حيوية الملكية باعتبارها المؤسسة العليا للكومنولث البريطاني والإمبراطورية. الثالث، كان ينظر للزيارة بأنها تهدف إلى تعزيز المجتمع متعدد الأجناس داخل جنوب أفريقيا، ورسم العلاقات بين الاتحاد والمملكة المتحدة. وهذا الاستنتاج الأخير من المعلقين هو الأكثر أهمية في ضوء رأي الولايات المتحدة فى جنوب أفريقيا خلال فترة الزيارة. خاصة بعد الدعاية السيئة التى انتشرت حول رئيس وزرائها سمتس وممارسة بلادة للتفرقة العنصرية على إثر شكوى الهند للأمم المتحدة. فقد كان هناك حماس من قبل القراء للتقارير المتحمسة للقاءات العائلة المالكة مع الزنوج والملونيين والهنود. لكن انتشار صور حفل الملونين فى كيب تاون، حيث كان كل ضيف يرتدي ملابس المساء، مختلف عما هو منشور فى الطرف الآخر عن صور العرايا من المحاربين الزولو، جيدى التغذية والنساء المشاركات في الرقصات القبلية في ناتال، وبالتالى نفذت إلى ما هو أكثر عمقًا، وهو الاقتناع بأن هناك شيئا يحدث، وأن ما يقوله الجنرال سمتس بأن الاتحاد يسعى وبسرعه في جهوده الرامية إلى إنشاء دولة متعددة الأجناس يضع حجر أساسها فى القرن العشرين، هو جارى تنفيذه بالفعل[128]. وهو ما يعنى إعادة إنتاج صورة المارشال سمتس الدولية المشرقة مرة أخرى وبطريقة غير مباشرة. وعلى هذا فإن تحسين صورة الرجل كانت تجرى على المستويين؛ المحلى والدولى، وبدعم بريطانى واضح.

المحور الثامن – أثر الزيارة على الأمن الاستعمارى:

تعددت آثار الزيارة الملكية على الأمن الاستعمارى ليس فى اتحاد جنوب افريقيا فحسب، بل فى عموم الجنوب الافريقى الخاضع لبريطانيا ككل أيضًا. ولفهم هذا المحور فهمًا جيدًا سنقوم بتقسيمه إلى سبعة مسائل رئيسية:

المسألة الأولى، نهاية الزيارة. من المؤكد أن الخطاب الذى رفعه القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب إلى وكيل وزارة الخارجية فى الأول من مايو 1947 [129]،

يضع أيدينا على ما حدث فى الأيام الأخيرة من الزيارة. حيث يرفع لـه التقرير التاسع عشر الذى انتهت منه القنصلية فى 29 أبريل 1947، ليخبرنا " بأن الملك قد أتم رحلته بعد أن طاف فى أنحاء البلاد مدة شهرين، عاد بعدها إلى الكيب بتاريخ 21 ابريل، وغادرها يوم 24 منه، على الباخرة الحربية فان جارد. وبأنه قد أقيمت للعائلة المالكة حفلات رائعة فى كل مكان حلت به، وأن الوزراء كانوا يتناوبون مرافقتها فى حلها وترحالها" (130).

وتشير الوثيقة السابقة بأن الدكتور مالان، رئيس المعارضة، قد نصح أتباع حزبه والأحزاب الجمهورية، بأن تستقبل الملك وأسرته بما جبلوا عليه من كرم، بوصفه شخصية كبيرة تزور بلادهم، فلبى الأفريكارنرز الجامدين نداءه هذا. فلما عاد الملك وعائلته من رحلتهم للمحميات إلى الكيب، وافق أن كان اليوم التالى لوصولهم يوم 21 أبريل، وهو عيد ميلاد الأميرة الياصابات وبلوغها سن الرشد، فأقيمت حفلة عرض عسكرى فى ذلك اليوم(أنظر ملاحق الدراسة). وجاءت الأميرة بمفردها، وبصحبتها المرشال سمتس ورئيس هيئة أركان حرب الجيش، واستعرضت الجيوش وحيت الجماهير. وفى المساء حضرت حفلات راقصة فى البلدية وفى دار الحكومة، حضرها شباب الكيب. وفى يوم 22 ابريل أقامت البلدية حفلة موسيقية شرفتها الملكة بمفردها. وفى يوم 23 ابريل حضرت العائلة حفلة شاى فى حديقة حاكم مقاطعة الكيب، ومنها ذهبوا إلى الحديقة مع رجال السلك السياسى. وفى يوم 24 أبريل حضروا دعوة غذاء أولمتها الحكومة للملك فى يوم سفره (131).

ويضيف تقرير الخارجية المصرية " وفى حفلة الغذاء ألقى المارشال سمتس خطابًا أجاب عليه الملك، ثم تلته الملكة بكلمة أخذت بمجامع القلوب. وقد كان التأثر باديًا عليها عندما أرادت توديع أهالى جنوب افريقيا، حيث أغرورقت عينيها بالدموع. ثم قام المارشال وقدم هدايا من الماس الى الملك والملكة والأميرة مارجريت، كون أختها قد نالت هدايا كثيرة فى عيد ميلادها، وفيما اشتركت فيه من احتفالات، كافتتاح رصيف بورت اليزابيث. كما قدم عمدة المدينة شيكًا بمبلغ نحو ثلاثين الف جنيهًا إلى الأميرة الياصابات إعانة لبريطانيا فى محنتها المالية. بينما جمعت جوهانسبرج أضعاف هذا المبلغ لنفس الغرض. ومن الملاحظ أن عمدة المدينة أرسل نداءه لكى يجمع 25.000 جنية إعانة لبريطانيا لم يتمكن من تغطيتها الا بعد جهد وكد ونصب، حتى أنه أرسل للقناصل مستنجدًا بهم". وهو ما يؤكد على أن الهدف الاقتصادى للزيارة كان حاضرًا، وبقوة. ثم يخبرنا التقرير بنهاية الزيارة فيقول " غادرت العائلة المالكة الكيب مساء يوم 24 ابريل على الباخرة الحربية فان جارد، بعد أن أمضت هنا ما يزيد عن شهرين" (132). وخلاصة القول بأن نهاية الزيارة حملت تجمع الناس حول العائلة الملكية، وإظهار الحماس والترحيب وإقامة الحفلات، بما يؤكد على نجاح العائلة الملكية فى تحقيق أهدافها.

المسألة الثانية، التقارب مع الأفريكانرز الرافضين للملكية. تخبرنا إحدى الوثائق المصرية بأن الرحلة قد جاءت بنتائج طيبة لم يكن يتوقعها أكثر الناس تفاؤلًا فى هذا الإطار. وذكرت لنا عدة أمور فعلتها العائلة المالكة للتقرب منهم، نختزلها فى ثمانية: أولها، سعت إلى منازل العناصر الافريكانية المنحدرة من أصل هولندى أو هوجونوتى، وتحدثت إلى أفرادها بكل بساطة ورفق، وحرصت على مقابلة المحاربين الأفريكانرز القدماء فى حرب البوير. وتوجهت لزيارة زوجة المارشال سمتس فى عزبتها الخاصة. ثانيها، زارت والدة وزير العمل كوليا سليان Colia Slieyn فى دارها. ولما كانت هذه السيدة من أصل اسكتنلندى، ومتزوجة من رئيس جمهورية الارونج الحرة، لذا كانت لا تزال متعلقة بمركزها كرئيسة جمهورية سابقًا. ومن ثم كانت زيارتها لها مردود مهم فى تهدأة الوضع، وفى كسب ثقة ابنها وزير العمل، حيث كان يسير بعدها فى ركاب الملك. ثالثها، رغم ما أظهره الحزب المعارض برئاسة

الدكتور مالان من تحد، وعدم مراعاة عند وصول العائلة المالكة إلى الكيب فى أول يوم للزيارة، وإمتناعه وبعض إخوانه عن الترحيب بالملك، إلا أن تقرب العائلة الملكية من زعيم الحزب، جعل مالان يقابل الملك فى اجتماع خاص فى نهاية الزيارة. رابعها، أن تقارب العائلة مع الافريكانرز جعل الأمور تسير بهدوء وتؤدة طيلة فترة الزيارة. بل عندما عاد الملك إلى الكيب أبدى رغبته فى مقابلة من تخلف من أحزاب المعارضة، وتحدث إليهم فى خلوة مدة نصف ساعة قبل حفلة الغذاء التى أولمتها الكيب يوم مغادرته. خامسها، أظهر حضور العائلة المالكة للصلاة فى كنيسة الأفريكانرز، يقصد الكنيسة الاصلاحية الهولندية Dutch Reforms Church، وللصلاة فى المعبد اليهودى فى الكيب، روحها العائلية السامية. سادسها، أن ظهور الأسرة المالكة بالروح العائلية حببها لقلوب الأفريكانرز الذين يحرصون على التكوين العائلى للأسرة. بل تعلقت بالملكة لما اتصفت به من لطف ومجاملة ودعه وذكاء تفوق كل وصف. فكانت تتحدث إلى الناس وتشعرهم بالتقرب قلبيًا إليهم، وتدخل المحال التجارية لشراء حاجيات منزلية لبناتها ولصديقاتها فى لندن كأى فرد من الناس [133].

سابعها، حجم الهدايا السخية من الماس المقدمة إلى جميع أفراد العائلة المالكة. وهو ما وجه إنتقادات كثيرة لها. فردًا على سؤال برلمانى حول هذا الموضوع، صرح المرشال سمتس بأن أثمن ما أُهدى للعائلة من ماس يقدر بنحو 28 الف جنيهًا وكسور، خلاف أجرة التركيب التى لم تعرف بعد. وأن هذه القيمة اسمية، إذ أن الماس أخذ من المخزون الحكومى. ثامنها، أنه بالرغم من فتور الاستقبالات التى نظمت للعائلة المالكة فى المقاطعات المأهولة بالسكان الأفريكانرز، إلا أن الحشود التى شهدتها كانت كبيرة جدًا وبها زحام شديد. وفسرت الجرائد الموالية للحكومة هذه الظاهرة بأن طلعة العائلة المالكة فى المقاطعات المأهولة بهؤلاء السكان عليهم، ألجمت ألسنتهم، فلم يحركوا ساكنًا لما استولى عليهم من الدهشة [134]. وفى نفس الإطار تشير رسالة السير إيفلين بارينج إلى اللورد أديسون فى 10 مارس 1947بأنه قبل مغادرة العائلة المالكة لكيب تاون، كان الناس يقابلونها بحماس وترحيب حقيقي أينما ذهبوا [135].

المسألة الثالثة، تهدأة الهنود. رغم التوترات التى كانت قائمة بين الهنود قبل الزيارة إلا أن الأمر تغير تمامًا بعدها. ولعل إقامتهم مهرجانات باهرة أخذت بالألباب فى دربان، جعل الاعتقاد يسود بينهم إلى ضرورة فصم عرى الإتحاد بينهم وبين الهند. حيث طالبوا بنشوء حزب معتدل من بينهم، يدعو إلى عدم السير فى ركاب الهند، بإعتبارهم من سكان جنوب افريقيا ورعاياها [136].

المسألة الرابعة، نجاح الترتيبات الأمنية. وربما كانت إشارة إحدى الوثائق المصرية وقولها " مجمل القول أن الزيارة كانت ناجحة، وأن ما وضع لها من ترتيبات كان فى منتهى الدقة والنظام، وأنه لم يحدث أى شيئ يكدر صفو الأمن على قدر ما وصل إلى علمنا، وأن الجميع، أصدقاء وأعداء، نظروا إلى هذه العائلة المالكة بكل تقدير وإعجاب" [137]، يقطع بأن بنجاح العائلة الملكية فى أهدافها من الزيارة قد تحقق تمامًا.

المسألة الخامسة، التأكيد على ولاء المحميات البريطانية فى الجنوب الافريقى. كانت الاستقبالات التى قوبلت بها العائلة المالكة فى المستعمرات الافريقية الموضوعة تحت الحماية، كبتشوانالاند وسوازيلاند وباسوتولاند والروديسيتين، من أروع ما يدل على تعلق سكانها السود بالعائلة المالكة. فقد صافح الملك والملكة رؤساءهم باليد، وقلدوهم نياشين مختلفة، ومنحوهم هدايا وصور موقعة من الملك إلى غير ذلك. حيث تشير إحدى الوثائق المصرية بأن" هؤلاء الناس يتعلقون بالملكة فيكتوريا، ولا يزال رؤساؤهم يتذرون بالملابس المزركشة الإفرنجية التى أنعم بها عليهم من العهد الفيكتورى. ولاشك أنهم أحسن حالًا من أقرانهم فى جنوب افريقيا من ناحية التمتع بنوع من الحرية

والتملك" (138). حيث سمعت العائلة الملكية إلى مطالبهم الصريحة ببقائهم تحت الحماية البريطانية، وعدم ضمهم لإتحاد جنوب افريقيا، وهو ما تحقق لهم حتى ستينيات القرن العشرين، حينما استقلت تلك المحميات، لتصبح دولًا وممالك.

المسألة السادسة، التركيز على المصلحة العليا للامبراطورية. فإذا كانت الزيارة فى أحد أهدافها كانت لمساندة الجنرال سمتس فى استعادة مكانته الدولية والمحلية إلا أن موقف الأحزاب المعارضة منها، ومقابلتهم ببرود، جعل العائلة تتقارب من كل الأطراف حتى لا تتهم بالتحيز لطرف دون آخر. لدرجة جعلت إحدى الوثائق تقول " ولو أن المرشال قد اكتسب كثيرًا من هذه المرحلة إلا أنه لا يزال هناك وقت طويل على الانتخابات، ولا ندرى إن كان أثر الرحلة سيبقى حتى حلولها" (139). وهذا يعنى أن المساندة انعكست فى وقتها فقط، لكنها لم تقطع باستمرار التأثير حتى موعد إجراء الانتخابات سنة 1948. وأول إشارة للزيارة بعد رحيل العائلة المالكة جاءت من كيب تاون من قبل الجنرال سمتس بإحساسه المعتاد للمكان والتوقيت. وبدلًا من الكلام على بعض المناسبات الرسمية التي أدلى ببعض الإشارات فيها، تحدث فى 23 فبراير لجمهور يتكون أساسًا من شباب جنوب أفريقيا يقدر عددهم بـ 1.000 شاب على أعلى جبل تيبل فى إحدى مناسبات التأبين السنوية، حيث قال: "إن تأثير وصول الملك لهو واضح بالفعل في جميع أنحاء البلاد، فهناك المزيد من الوداعة، والمزيد من الوحدة واضحة في جميع أنحاء البلاد، ومن خلال تأثيره الروحى وصفاته الطيبة قام الملك بتأثير مطبب ومهدئ، وبسبب ذلك نحن نقدم التصور الصحيح، وبالتالى وجب علينا أن نثنى على الأسرة الحاكمة لما فعلته من أجلنا " (140).

وتقدم لنا إحدى الوثائق بأن الشيوعيين يوقنون بأن النظام القائم هو خير وبركة عليهم، بالنسبة لما قد يحيق بهم من إضطهاد إذا ما تولى الحزب الافريكانى الحكم، وهو من أكبر المعاديين لهم، ولكنهم يرمون فى نشاطهم إلى تقويض النظام الحاضر، أملًا فى الهدم الذى قد تتجلى عنه ثورة انقلابية. وتقول بأن هذه العوامل مجتمعة، وما تلاقية الحكومة القائمة من عنت فى توطيد أركان النظام فى الحياة العادية الناجمة من مخلفات الحرب، سواء فى غلاء الأسعار أو قلة المساكن وغيرها، كل هذا نال من سمعة حكم المارشال سمتس فى الفترة الأخيرة، فخسر حزبه بعض المقاعد فى المجالس البلدية فى مقاطعة الترانسفال، كما خسر دائرة إنتخاب برلمانية فى مقاطعة الكيب، كانت تعتبر إلى آخر وقت من أكبر معاقل حزبه، مع أنه كان مرشحًا لها رجل يعتبر ركنًا هامًا فى الدائرة يفوق منافسه الأفريكانى ثروة وجاهًا وعلمًا وسمعة (141).

وفى ذات الإطار تشير إحدى الوثائق بقولها " ويعتبر هوفماير من الأحرار الذين ينادون بمحو الفروقات الجنسية واللونية تدريجيًا، وهو ما يعارض رأى البيض وأغلبيتهم الساحقة. فإن بقيت الظروف على ما هى عليه الآن، فإننا نتوقع استمرار النظام القائم للمدة البرلمانية القادمة. ولا يجب أن يغرب عن بالنا سن المارشال، وقد بلغ 77 سنة، مما قد يضعف الأمل فى تمكنه من الاستمرار فى الحكم مدة جديدة. فليس من السهل إعطاء حكم قاطع عما سيتمخض عنه القدر، ولكن يجب ألا نغفل أيضًا قوة رؤوس الأموال اليهودية فى جنوب افريقيا، فهى المسيطرة على جميع مرافق البلاد الجنوبية، وقد تمكنوا بها من السيطرة السياسية على كثير من المصالح الحكومية إن لم يكن أغلبها. ويجب أن نحسب لقوتهم قسطًا كبيرًا فى الميزان، وقد بدأوا يستدرجون العناصر الأفريكانية فى المنشئات المالية ويشركونها فى مجالس الإدارات للشركات (142).

وعلى هذا بدا أن الزيارة صبت فى صالح المعارضة أكثر منها فى مصلحة نظام سمتس الحاكم، وأن المصلحة العليا للامبراطورية هى التى فرضت هذا الأمر. فقد كان تقرب العائلة من المعارضة يصب فى مصلحة الطرفين دون سواهما.

المسـألة السـابعة، تغيير أفكـار الافريكـانرز وخططهـم. فرسـالة السـير إيفلـين بـارينج إلـى الفيكونـت أديسـون فـى16 مـايو 1947، تلخص لنـا نتـائج هذه الزيـارة فـى هذا الاطـار. وتعتبر أن النتـائج طويلـة الأجل هى الأكثر أهمية، وتختزلها فى ست: أولها، أن قليل من الأصوات التى كـان الحزب الوطنى المتطهر سيحصل عليهـا فـى الإنتخابـات القادمـة ستذهب للحزب المتحد. ثانيهـا، أن الأفكار المصبوغة بالصبغة الجمهورية كتلك التى ينـادى بها ستريدوم Strydom أو سوارت، من قـادة الحزب الـوطنى فـي الترانسـفال والأورنـج الحـرة، سـتتعرض للتأثير وستتراجع. وأنـه سيتم إزالـة الكثير من المرارة والتشويش والإرتبـاك، وتصحيح الأفكـار الخاطئـة، وأن المبشرين بها ما هم إلا كاذبون. ثالثها، أن هناك خسـارة مباشـرة لأصـوات النـاخبين سـيتعرض لهـا الـوطنيين الأفريكـانرز فـى الانتخابـات القادمـة، وأن هنـاك أسـبابًا وجيهة للأمل في أن تصبح الأفكار القومية أقل حدة عن السـابق، ويخفت ضجيجها فـى الحـزب. غير أن طبيعـة هذا التغيير فى إضعاف القوميـة ستتم بطريقـة تدريجيـة. رابعها، أن تأكيد الناطقين بالإنجليزية في جنـوب افريقيـا على ولائهم لبريطانيا ولولية العهد وتمسكهم ببريطانيـا، لا ينفـى الشـعور المتنـامى مـؤخرًا بـين شـبابهم، بـأنهم كانوا معزولين فى زمن الحرب، وبأن إنجلترا هي بلد بعيـد، وأن العـرش البريطـانى هـو مجـرد فكـرة مجـردة وغيـر مؤسسـة فـى جنـوب أفريقيـا. لـذا بـدا الأمـر غيـر صـحيًا إذا سـمح لـه بالتمـدد والنمـو. خامسـها، أن أفكـار التحـول والتغييـر فـــى العقليـــة الافريكانريـــة المتبنيـــة للجمهوريـة والاسـتقلال عـن بريطانيـا تـأتي مـن عـدة مصـادر، وبشـكل خـاص مـن محادثـة بـارنج مـع الـدكتور بارنـاردDr. Barnard، حـاكم الأورانـج الحـرة. حيـث يشـير بأنـه " علـى الـرغم مـن أن الـدكتور برنـارد هـو أفريكانرى، ولد في معسكر إعتقال بريطاني، وعـاش كل حياته في أورانج الحرة، إلا أن منزل رئيس الجمهوريـة برانـد دي ويـت وهيرتـزوج، همـا الأكثـر محافظـة علـى الوطنيـة الأفريكانريـة فـى الاتحـاد. فزوجتـه هـي أيضًـا أفريكانيـة، ولكـن ابنـه قد مـر علـى التـو علـى دارتمـوث. وأنـــه هـــو نفســـه، بإعتبـــاره المرشـــح لرئاســـة الحـــزب المتحد، يرحب وبقوة بمحاربة اللجنـة التنفيذيـة القوميـة تمامًـــا، والمجلـــس الاقليمـــى للـــوطنيين الأفريكـــانرز المتطـرفين. لكنـه يؤكـد علـى أن التحـول الفـوري غيـر متوقـع فـي الحـزب. سادسـها، قـدم الجنـرال سـمتس ملحوظة صحيحة عندما خطب على قمة جبل تيبل، حيث تحـدث بـان أهـم نتيجـة للزيـارة هـو نمـو روح اللطـف والاعتدال. حيث انتهت فى سنة 1947 الـروح القوميـة المبنية على الكراهيـة لبريطانيـا العظمـى، والقائمـة علـى تشـويه الصـورة البريطانيـة؛ والجهـل بكـل شـيء يتعلـق باللغة الإنجليزيـة. واعتقد أن ختام الرسالة بقوله بأنـه " إذا انتشـرت روح الانصـاف تلـك، فـإن أمـر الشـعور القـومى سـيتغير سـنة 1957 ليضـعف تمامًـا" (143)، يقطع بـأن نتـائج الزيـارة كانـت ناجحـة تمامًـا فيمـا يتعلـق بالأمن الاستعمارى، وبإعطـاء مزيـد مـن الحيـاة للملكيـة البريطانية فى جنوب افريقيا.

ولعل أهم نتيجـة توصلت لهـا رسـالة إيفلـين بـارينج فـى16 مـايو 1947، بعد استعراضـها للقـاء العديـد مـن الجمهـوريين الأفريكـانرز بالأسـرة، وبـأنهم كـانوا غيـر راغبـين فـي التخلـي عـن وجهـات نظـرهم، بـأن الأسـرة المالكـة كانـت علـى إستعداد للإعـراب عـن أملهـا عبـر الزيـارة بتوحيـد قسـمى البـيض، وأن مـا يسـيرون فيـه سـيؤدى إلـى الإنقسـام بـين قسـمى الجـنس الأبـيض فـي جنـوب أفريقيـا، يشـرح لنـا الـدور الـذى لعبتـه العائلـة المالكة فى إقناع الأفريكانرز بتغيير أفكارهم. ولعل تعبير الأسرة الحاكمة " بأنهـا تأمل فـى أن تزيـد أعداد البيض فى جنوب أفريقيا وتنمو يوميًا، ولكـن لأسباب خاطئـة لا يتحـدون، فـالأوروبيون سـيكونون أكثـر نجاحًـا فـى المحافظــة علـــى مـــوقعهم المهـــيمن علـــى الأجنـــاس الأخـرى"، يقطـع بـأن تركيزهـا علـى الأمـن الاستعمارى بأبعاده المختلفة كـان هدفًا رئيسيًا. ولعل إضافتهم بـأن قطاعًـا مـن البـيض يـرون " بـأن الحاجـة الأولـى هـى الإتحـاد، خاصـة وأن الصـناعة تنمـو بشـكل سـريع، وأن

الإنقسام سيتسبب فى الصعوبات الاقتصادية والمشاكل العرقيـة، وأن اسـتخدام الشـعارات العنصـرية، سـيدفع بإتجاه معركـة عاطفيـة بعيدة عن الاحتياجـات الحقيقيـة للـبلاد، خصوصًـا احتياجـات سكانها الأفـريقيين، وأنهـم يرغبون فـى إقامـة علاقـات أفضل بين قسمين السكان البيض في المستقبل، وأن المؤسسـة الملكيـة تسعى فـى هـذا الاتجـاه بعيـدًا عـن الصـراعات السياسـية الداخليـة داخل لاتحاد" (144)، يؤكد هذا الاتجاه ويشرحه.

غير أن إحدى الوثـائق المصرية تعطينـا شرحًا أفضل لهذا التغير، فتقول بـأن" خطـة الحـزب الأفريكـانى مـن هـذه الناحيـة، غيـر واضـحة بـالمرة، فهـو يخشـى تعجل الحوادث قبيل الإنتخابات التى ستجرى فى عام 1948، ويرمـى إلـى ضـمان معاضـدة المعتـدلين مـن الأفريكـانرز بجانـب المتطـرفين مـنهم، مـع التلطـف مـع المتحـدثين باللغة الانجليزية الذين يضمرون الحقد لليهود. فـالحزب الافريكـانى فـى الواقـع يكـره الانجليـز، ويسـعى للـتخلص مـن الإرتبـاط بـإمبراطوريتهم، كمـا يحقـد علـى اليهـود ويعمـل للحـد مـن نشـاطهم، ويعمـل علـى كسـب بعـض المتطرفين ضدهم إلى جانبه، ويعالج الموقف بكثير من الحذر خشية الفشل فى الانتخابات". وتقدم لنـا تصريح مـالان " بأنـه لا يضمر الحقد لليهود، ولا توجد لحزبـه سياسـة معاديـة لهـم سـوى أن فـرع الترانسـفال يحـتم نظامـه عدم قبـول اشـتراك اليهـود فـى عضـويته، وأنـه يـرى شخصـيًا أنـه لـيس مـن مصـلحة اليهـود أن تتركـز جموع منهم فى منطقة واحدة أو فى بلد معين، إذ كلمـا كثـر عـددهم، إزداد شـعور العـداء لهـم، كمـا أن سياسـة حـزب الافريكـانرز هـى وضـع فروقـات جنسـية ولونيـة متطرفة، ويطلبون تحديد مناطق للسود، وأخرى للهنـود وثالثة للسمر، ورابعة للبيض، ولا تختلط فئة بأخرى فى مسـكن أو مأكـل أو مشـرب"، علـى أن الحـزب وجـد تفسـيرًا يسـوق بـه موقفـه المبـدئى مـن الزيـارة عبـر كراهيته لليهود ليضمن خروجًا من الأزمة ويضمن عدم استفادة سمتس منهـا، والاحتفـاظ بالسياسـات العنصـرية التـى يقدم برنـامجـه الانتخـابى مـن خلالهـا. لكـن الوثيقـة تعطينـا ملمحًـا مهمًـا لا نجـده فـى الوثـائق البريطانيـة، فقولها " مع أن سياسة المارشال سمتس بالنسبة لهذه الفئات تعتبر رحمة ونعمة عليهم، بمضـاهاتها وسياسـة الحـزب الأفريكـانى، إلا أن قيـام روابـط صـداقة ومـودة وتـآلف بـين العنصـر الأفريكـانى والعناصـر الملونـة الأخرى فى الأريـاف والقرى، تغطى كثيرًا فى الشعور العام على مساوئ الحزب الأفريكانى، فالرجل الهندى أو الملـون يجد عطفًـا ومـودة فـى معاملاتـه الشخصـية مـع العنصـر الأفريكـانى بخـلاف الحـال مـع العناصـر الإنجليزية، وأغلب هذه الفئات تتكلم الأفريكانيـة بطلاقـة أكثر من الإنجليزيـة"(145)، يعطينًـا ملمحًـا مهمًـا لأسباب تفـوق الـوطنيين الأفريكـانرز فـى الإنتخابـات التـى جـرت فيمـا بعد. وأن وضـوح سياسـتهم، جعل الأطـراف غيـر البيضاء تتعامل مـع الأفريكـانرز الـوطنيين بشكل أفضل. وعلـى هـذا، قـدمت لنـا الوثـائق المصـرية تحلـيلًا جيـدًا لمسـألة الانتخابـات، بترجيحهـا كفـة الـوطنيين علـى الاتحاديين، فى حين قدمت لنا الوثائق البريطانيـة تحليلا بعيد المدى. فقد وضـح بـأن الزيـارة لا يهمهـا مـن يفـوز من الانتخابات بقدر اهتمامهـا بالاحتفـاظ بجنـوب افريقيـا فى بوتقة الكمنولث البريطانى لاطول فترة ممكنـة، وهـو ما تحقق بالفعل.

خاتمة:-

بعـد دراسـة موضـوع زيـارة الملـك جـورج السـادس وعائلتـه إلـى إتحـاد جنـوب افريقيـا سـنة 1947 دراسـة وثائقية، وبالاعتماد على أكثر مـن أرشيف، نخلص إلـى عدد من النتائج:

- أوضـحت الدراسـة بـأن زيـارة الملـك جـورج السـادس وعائلتـه التـى تمـت فـى الفتـرة مـن 17 فبرايـر الـى24 ابريـــل 1947، قـــد حققـــت أهـــدافها الاســـتراتيجية والسياسية والاقتصـادية والثقافيـة، فأوقفـت الانقسـامات المنتشـرة بـين جبهتـى البـيض فـى جنـوب افريقيـا، واحتفظت بالاتحـاد فى حضن الامبراطوريـة البريطانيـة إلى مـا يتجـاوز الثلاثـة عشر سنة فيمـا بعد. حيث تخلى

عن نزعة الانفصال المستشرية بين قطاع كبير من أبناءه البيض، وجدد روابطه وولاءته للعرش البريطانى، وارتضى بأن يبقى وحدة مستقلة داخل الكمنولث البريطانى.

• بينت الدراسة بأن أهداف بريطانيا من الزيارة كانت تتقاطع مع أهداف التنظيمات السياسية البيضاء المتصارعة على الحكم. فبريطانيا التى خرجت من الحرب العالمية الثانية، وتعانى من ظروف اقتصادية داخلية وخارجية سيئة، وتحيطها مقدمات حرب باردة، وانشقاقات فى القوى الدولية، وانقسام العالم إلى كتل متصارعة، ومستعمرات تريد أن تحصل على استقلالها، كانت أغراضها من الزيارة تختلف عن أغراض تلك المجموعات المحلية المتصارعة على السلطة. فبريطانيا تسعى لأمنها الاستعمارى، وتريد أن تحتفظ بمستعمراتها ذات القدرات الاقتصادية الكبرى، خصوصًا وأن الهند تخطو خطواتها الأخيرة نحو الاستقلال، وبالتالى كان مطلوبًا الإحتفاظ بجنوب افريقيا ركيزة أساسية لأمنها الاسترتيجى فى منطقة الجنوب الافريقى، وفى جنوب الأطلسى. وبالتالى أثبتت الدراسة بأن الزيارة قد حققت معظم الأهداف التى تبنتها الإدارة البريطانية.

• أوضحت الدراسة بأن الدعايات المحلية من قبل الأفريكانرز ضد بريطانيا وملكها، تلك التى اعتبرت الزيارة نوعًا من الهروب من المشاكل الداخلية البريطانية، أزمة الوقود والأزمة المالية، فشلت فى تغيير النظرة الرافضة لبريطانيا. حيث كان تقارب الملك من التنظيمات الافريكانرية المتطرفة والمعارضة للحكم البريطانى، قد أفشل كل خطط هؤلاء.

• أوضحت الدراسة العلاقة المتينة بين بريطانيا والمحميات البريطانية فى منطقة الجنوب الافريقى وأكدت على ولاء بتشوانالاند وسوازيلاند وباسوتولاند وروديسيا الجنوبية والشمالية للعرش البريطانى، وأنهم لا يرضون عن الحماية البريطانية بديلًا. وأنهم لا يقبلون مطالبات الإتحاد بضم تلك المحميات إليه، وأن ولائهم يقتصر على العرش البريطانى فقط. وعلى هذا أطمئنت الإدارة البريطانية إلى قناعاتها بشأن المحميات التى إحتفظت بها كما هى حتى الاستقلال فى ستينيات القرن العشرين.

• أثبتت الدراسة بأن العائلة المالكة البريطانية قد حققت من وراء الزيارة ستة أهداف رئيسية: أولها، وثقت العلاقة مع كل المجتمعات القاطنة فى منطقة الجنوب الافريقى، وتأكدت من ولائها التام للعرش البريطانى. ثانيها، ضمنت استمرار هذا الولاء للأميرة اليزابيث ولية العرش، التى تولت الحكم سنة 1952 وحصلت كل الاقاليم التى زارتها على الاستقلال خلال فترة حكمها(1952- حتى الآن). ثالثها، إحداث تقارب بين العناصر البيضاء فى جنوب افريقيا، وضمان ولائها للعرش وتفاعلها معه. رابعها، تقديم رسالة عبر القناصل للطريقة الوادعة والناعمة فى حل المشكلات الاستعمارية. خامسها، الاحتفاظ بهيبة الملكية البريطانية ورهبتها فى نفوس أتباعها. سادسها، أن بريطانيا التى خرجت جريحة بعد الحرب العالمية الثانية، وتحتاج لدعم اقتصادى من الخارج، لم تمت بعد. وأن أساليبها السلمية فى معالجة المشكلات تصلح للتطبيق فى أكثر من منطقة.

هوامش الدراسة:-

• جورج السادس عاش فى الفترة من 14 ديسمبر 1895 - 6 فبراير 1952، وأصبح ملكا لبريطانيا العظمى وإيرلندا فى الفترة من 11 ديسمبر 1936 - 6 فبراير 1952. تزوج من إليزابيث باوز ليون سنة 1923 وانجب منها ابنتين هما: الأميرة إليزابيث، الملكة إليزابيث الثانية، ولية عهده ووريثته على العرش، والأميرة مارجريت. توفي في 6 فبراير 1952 بسبب سرطان الرئة. للمزيد انظر، .http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9

• هى إليزابيث أنجيلا مارجريت باوز ليون (Elizabeth Bowes-Lyon) عاشت فى الفترة من 4 أغسطس 1900 وحتى 30 مارس 2002. زوجة الملك جورج السادس، ووالدة الملكة إليزابيث الثانية والأميرة مارجريت، لقبت بعد وفاة زوجها بالملكة الأم. توفيت عن عمر يناهز 102 عام. للمزيد انظر، http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%

• إليزابيث هى ابنة جورج السادس، ولدت سنة 1926، وتولت الحكم تحت اسم الملكة اليزابيث الثانية منذ سنة 1952 وحتى الان. وتدربت على القيادة، وتزوج منها دوق إدنبره، فيليب، في 20 نوفمبر عام 1947، اى بعد رجوعها من جنوب افريقيا بعدة أشهر. أنجبت إليزابيث أول طفلا لها، الأمير تشارلز، في 14 نوفمبر 1948. ومارست سلطتها منذ ان تدهورت صحة الملك جورج السادس خلال عام 1951م، حتى تسلمت الحكم رسميا بعد وفاته فى 6 فبراير 1952. للمزيد انظر، http://ar.wikipedia.org/wiki

• الأميرة مارجريت عاشت فى الفترة من 21 أغسطس 1930 وحتى 9 فبراير 2002، وكانت كونتيسة سنودون، والأخت الصغرى للملكة إليزابيث الثانية. تزوجت في 6 مايو 1960 من المصور الفوتجرافي أنتوني أرمسترونج جونز، والذي أعطي لقب أيرل سنودون عام 1961. للمزيد انظر، http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A7%D8%B1

(1) Thompson, L, A History of South Africa, Revised Edition, New Haven: Yale University Press, 1995, pp.33, 55.

(2) أحمد عبدالدايم محمد حسين:- الجذور التاريخية لمشكلة الأرض فى جنوب افريقيا 1835-2006، القاهرة، 2009، ص ص متفرقات.

(3) محمد عبد الحليم محمد على الزرقا:- اتحاد جنوب افريقيا.. دراسة لتاريخه السياسى والعنصرى 1910-1948، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 1992، ص ص 139، 145- .150 .

• حيث تضمن قانون اتحاد جنوب افريقيا الذى تمت صياغته فى 20 سبتمبر 1909، بأن تكون الحكومة التنفيذية للاتحاد مفوضة للملك، وأن يباشرها بناء على رغبته، وهو الذى يخول للحاكم العام المهام والسلطات التى يريدها. لهذا فإن الحاكم العام كان يعينه الملك، ويمارس مهامه بناء على رغبته، وبموجب تخويل السلطة اليه.

• جديون براند فان زيل Gideon Brand van Zyl، ولد فى 3 يونيو 1873، وتوفى فى1 نوفمبر 1956. وشغل منصب الحاكم العام لاتحاد جنوب أفريقيا في الفترة من 1945 إلى 1950. وهو اول من ولد فى جنوب افريقيا وشغل هذا المنصب. وفى عهدة استضاف الملك جورج السادس والعائلة المالكة البريطانية عندما كانوا يقومون بجولة جنوب أفريقيا.

(4) محمد عبد الحليم محمد على الزرقا :- المرجع السابق، ص ص 11، 12، 139، 145- . 150 .

(5) Nicole M. Mares:- The British, Boers, and Civilization in Nineteenth Century South African, Submitted to the faculty of the University Graduate School in partial fulfillment of the requirements for the degree Doctor of Philosophy in the Department of History, Indiana University, .September 2012, p.2.

• ولد جان كريستيان سمتس فى مايو 1870 وتوفى فى 11 سبتمبر 1950، وهو رجل دولة بارز فى جنوب افريقيا والكومنولث البريطانى، وكان قائدًا عسكريًا مميزًا فى الحرب العالمية الأولى والثانية. وتولى العديد من المناصب الوزارية، وشغل منصب رئيس وزراء اتحاد جنوب أفريقيا

في الفترة من 1919 وحتى 1924، ومن 1939 حتى عام 1948. وكان له دور فعال في تأسيس سلاح الجو الملكي، واصبح مارشالا في الجيش البريطاني عام 1941، وخدم في مجلس وزراء الحرب الإمبراطورى تحت قيادة ونستون تشرشل.

(6) محمد عبد الحليم الزرقا: المرجع السابق، ص ص 112 وما بعدها. وكذا أنظر، احمد عبدالدايم محمد حسين :- االتعليم والعنصرية فى جنوب افريقيا فى الفترة من 1948-1976، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الافريقية، جامعة القاهرة، 2001، ص ص متفرقات فى الفصلين، التمهيدى والاول.

(7) السيد فليفل : مستعمرة الرأس البريطانية 1853-1910، رسالته دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، 1983، ص ص متفرقات.

(8) Marais, J.S.: The Cape Coloured People, (1652-1937), Johannesburg, 1962. PP. 3-11.

(9) أحمد عبدالدايم محمد حسين :- مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية فى افريقيا(1951- 1958)، القاهرة، 2009، ص ص 14، 15.

(10) Walker, Eric A.: A History of South Africa, London, 1941. PP. 523.

(11) F.O.468-1854-23655-1:- Correspondence Respecting The British Commonwealth ,H Affairs, Part 1, 1945 and 1946, No. 42, From Sir E. Baring to Viscount Addison,(Received in Dominions Office 26th March.)(No. 8. Saving.) (Telegraphic.) Pretoria, 21th March, 1946, P.175.

(12) Ibid.

(13) أنظر ملاحق الدراسة فى الجزء الخاص بأرشيف الوثائق، .Ibid

(14) خطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى 6 مارس 1947، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ص6، 8.

(15) خطاب من القنصلية الملكية المصرية العامة بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية فى 12 فبراير 1947 ، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية، ص 2.

(16) خطاب القنصلية المصرية العامة بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية، فى 23 ابريل 1947، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية، ص ص 3، 5.

(17) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص6.

(18) نفسه، ص7.

(19) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth. (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 46, United States: The Royal Visit to South Africa: Tour Fully Reported in Press, from Lord Inverchapel to Mr. Bevin. (Received 30th June)Restricted (No. 1485) Washington, 24th June, 1947 P.138.

(20) South Africa Bill, HC Deb 26 February 1962 vol 654, Order for Second Reading read, http://hansard.millbanksystems.com/commo .ns,p p.993,.

(21) Ime John Ukpanah:- Yearning to be Free: Inkundla ya Bantu (Bantu Forum) as Mirror and Mediator of the African Nationalist Struggle in South Africa, 1938-1951, A Dissertation for the Degree Doctor of Philosophy in History, Department of History, College of Humanities and Fine Arts, University of Houston,pp.27,28..

* وهى المنظمة التى تشكلت في بلومفونتين بتاريخ 4 فبراير 1939 من قبل الأفاريكانرز الموالبين لألمانيا، كانت

تقف ضد القوات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية، وعارضت مشاركة جنوب أفريقيا في الحرب.

(22) محمد عبدالحليم محمد على الزرقا :- المرجع السابق، ص 206 .

(23) Dan O'Meara: The Afrikaner Broederbond1927-1948:Class Vanguard of Afrikaner Nationalism,Journal of Southern African Studies ,Vol.3,No.2,Apr.1977.PP.157-159.

(24) خطاب القنصل العام المصرى بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية فى 29 يوليو 1946، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص 7.

• تشكل الحزب الوطنى سنة 1914 من خلال ملاك الأراضى المضارين من التحول الرأسمالى، وكان يدعمهم البورجوازيون الصناعيين الطموحين ، وكان هذا التشكيل يعنى حزب رأسمالى قومى يسعى لسياسات حماية صناعية، وتقديم منح ومساعدات للمزارعين البيض، وذلك قبل تشكيله من جديد تحت مسمى الحزب الوطنى المتطهر سنة 1934، للمزيد انظر، : Daves, Robert and Otheres : Op, Cit., P. 159 وانظر Segal, Ronald:- Political Africa " Awho's Who of Personalities and Parties" Stevens and Sons Limited, London 1961, P. 415

• الحزب الاتحادى : تشكل سنة 1933 نتيجة انضمام حزب جنوب افريقيا الى الحزب الوطنى القديم فصار المسمى، الحزب المتحد. وهو الحزب الذى كان يقوم عليه هيرتزوج حتى بداية الاربعينيات، الى ان تولى الجنرال سمتس زمام الامور، وظل حتى فقد السلطة فى انتخابات سنة 1948. وراح يقوده ستراوس Strauss بعد سنة 1950 ، ثم السيد دى فيليرز منذ سنة 1956 ، وظل هو الحزب المعارض الرئيسى فى البلاد، للمزيد انظر : The New Encyclopadia Britanica Vol. 27, P. 655

(25) Giliiome, Hermann and Luwerance Schlmer: Op, Cit., P. 31..

(26) D.O 35 / 3135, Xc 105325 : Political Situation in South Africa British Commonweath Affairs, South Africa, May ..14, 1947, P. 2

(27) التقرير التاسع عشر المرفوع من قبل القنصل العام إلى وكيل وزارة الخارجية عن الرحلة الملكية فى جنوب افريقيا، فى الأول من مايو 1947، والمكتوب فى 29 أبريل 1947 ، ملف6 ، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص 4 .

(28) خطاب القنصل العام االمصرى بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية فى 30 مايو 1946 ، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص 7. .

(29) محمد عبدالحليم محمد على الزرقا :- المرجع السابق، ص ص 219، 220.

(30) احمد عبدالدايم محمد حسين :- االتعليم والعنصرية فى جنوب افريقيا .. الرسالة السابقة ، ص 90.

(31) خطاب القنصل العام فى 29 يوليو 1946 .. الملف والمحفظة السابقة ، ص ص 2، 3.

(32) خطاب القنصل العام المصرى بمدينة الكيب الى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية، بخصوص التقرير الخامس عشر الخاص بفتح الهجرة فى جنوب افريقيا، فى 5 أبريل 1947، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ص 1، 2، 7.

(33) خطاب القنصلية االمصرية العامة بمدينة الكيب فى 23 ابريل 1947.. الملف والمحفظة السابقة ، ص2.

(34) Ime John Ukpanah:- Op.Cit.,pp.21,27,28, 39, 63.

(35) Ibid.,,pp.1,42,87,88,107.

(36) التقرير التاسع عشر المرفوع فى الأول من مايو 1947.. الملف والمحفظة السابقة، ص 4 .

(37) South Africa Bill, Op.Cit.,p p. 943,944, 949,953, 984.

(38) F.O.468-1854-23656-2:- No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947 P.139

(39) أنظر ملاحق الدراسة فى الجزء الخاص بأرشيف الوثائق، وكذا انظر، Ibid, P.139

(40) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland, Eire, New Zealand, South Africa, General), Part 1, January to December 1947, No. 40 South Africa: Royal Visit to Capetown and Neighbourring Districts, Dispatch from Sir Evelyn Baring to Lord Addison. (Received in Dominions Office 18th March, 1947) Cape Town, 10th March, 1947, P.118

(41) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص 1. .

(42) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, Dispatch from Sir Evelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.118

(43) Ibid., P.119.

(44) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 3، 4، 8. وكذا أنظر الأرشيف البصرى الخاص بالسفينة فانجارد فى ملاجق الدراسة.

(45) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth,(General) (Australia, Canada and Newfoundland, No.43, South Africa: Visit of The Royal Family (Received in Dominions Office 23rd May) from Sir E. Baring to Viscount Addison. (No. 125) Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129.

(46) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 3، 4. .

(47) King George VI and the Royal family visit, 1947, http://www.tothevictoriafalls.com/vfpages/tourism/royalvisit.html

(48) South Africa Bill, Op.Cit., pp.943,944.

(49) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص 1. .

(50) أنظر الأرشيف البصرى الخاص باستقبالات الكيب والمدن الأخرى فى ملاجق الدراسة، وانظر، South Africa Bill, Op.Cit., pp.943,944.

(51) F.O.468-1854-23656-2:- No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947 P.138.

(52) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 44,Royal Visit to Southern Rhodesia., From Sir J. Kennedy to Viscount Addison.(No. 121) Salisbury,16th May, 1947, Pp.133.

(53) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth, (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 48,Royal visit to Swaziland,From Sir K.Baring to Viscount Addison. {Reedred in the Commonwealth Relations(No. 198)[Extract] Pretoria., 23rd June, 1947 P.144.

(54) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 49. Royal Visit to Basutoland, From Sir E. Baring to Viscount Addison. {Received in Commonirea/th Relations Office, 3rd July)(Extract]No. 199) Pretoria,23rd June, 1947 P.144,145,146.

(55) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (GENERAL) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 50, South Africa: Royal

Visit to Bechuanaland Protectorate, from Sir E. Baring to Viscount Addison. (Received in Commonwealth Relations Office, 26th August)(No. 291) Pretoria, 20th August, 1947 P. 147,148.

(56) أنظر الأرشيف البصرى فى ملاجق الدراسة، وكذا انظر South Africa Royal Visit Medal 1947, http://coinquest.com/cgi bin/cq/coins?main_coin=14203

(57) Royal Visit Rarity 1947,www.stephanwelzandco.co.za/Index.cfm?

(58) Film footage of the visit of King George VI, Queen Elizabeth and Princesses Elizabeth and Margaret to the Union of South Africa during February-April 1947, http://janus.lib.cam.ac.uk/db/node.xsp?id=EAD%2FGBR%2F0115%2FRCMS%20358

(59) أنظر الأرشيف البصرى الخاص باستقبالات الكيب والمدن الأخرى فى ملاجق الدراسة، وكذا انظر، www.royal.gov.uk/HistoryoftheMonarchy/KingsandQueensoftheUnitedKingdom/TheHouseofWindsor/GeorgeVI.aspx

(60) Royal Tour of South Africa, http://www.britishpathe.com/video/royal-.tour-of-south-africa

(61) Royal Tour of South Africa, 1947, http://www.colonialfilm.org.uk/node/1064

* إيست لندن East London: تقع جنوب شرق البلاد في مقاطعة الرأس الشرقي على المحيط الهندي عند مصب نهر بافالوBuffalo لتشكل الميناء البحري الوحيد في جمهورية جنوب إفريقيا. وقد دعيت بهذا الاسم للتمييز بينها وبين مدينة لندن عاصمة المملكة المتحدة. للمزيد انظر، جنوب أفريقيا ملتقى المحيطين الأطلسي والهندي، عالم سياحية نادرة وأحياء إسلامية راقية وآمنة، http://www.eyeoftraveler.com/vb/archive/index.php?t-2085.html

(62) King George VI and the Royal family visit, 1947, http://www.tothevictoriafalls.com/vfpages/tourism/royalvisit.html

(63) Royal Diamonds Exhibition at Buckingham Palace, The South Africa Necklace and Bracelet, http://www.forbes.com/pictures/ehgm45hklf/the-south-africa-necklace-and-bracelet

(64) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 3، 4.

(65) نفسه ، ص 1، وكذا أنظر الأرشيف البصرى الخاص باستقبالات الكيب فى ملاجق الدراسة.

(66) Extract from The Cape Times , Cape Town August 18-2-1947

المرفق رقم 1 لخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى 6 مارس 1947 ، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية .

(67) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 1، 2. وكذا أنظر الأرشيف البصرى الخاص بافتتاح البرلمان فى ملاجق الدراسة.

(68) نفسه ، ص ص 1، 2.

(69) , Kings Pays Tribute to Cape Town Extract from The Cape Times , Cape Town August 18-2-1947

المرفق رقم 2 لخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى 6 مارس 1947 ، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ،. . .

* كلمة بارل معناها الجوهرة بالافريكانى، وهى اكثر المناطق خصبا تكثر فيها الفواكه، ويشقها نهر ذى برجر، وتنتشر فيها زراعة العنب، وتقام فيها اكبر مصانع للنبيذ فى افريقيا، وتحيط بها جبال تأخذ مناظرها بالألباب، انظر وخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل

وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى 6 مارس 1947، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص 2.

* ستيلنبوش هى مقر الجامعة الافريكانرية، حيث يتلقى الطلبة هناك العلم بالافريكانية دون الانجليزية، والجامعة حديثة النشأة وثابتة الخطى. انظر خطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى 6 مارس 1947 ، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص 2

(70) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة ، ص ص1-4 .

(71) ,Speech from the Throne union's Extract from The Cape problems of peace . Argus , Cape Town , 21-2-1947

المرفق رقم 3 لخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى 6 مارس 1947 ، ملف4، محفظة 84، فيلم 54 بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ،. . .

(72) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 3، 4. وكذا أنظر الأرشيف البصرى الخاص بالقطار الأبيض فى ملاجق الدراسة.

(73) التقرير التاسع عشر المرفوع فى الأول من مايو 1947.. الملف والمحفظة السابقة ، ص 3 .

(74) نفسه ، ص 4 .

(75) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Evelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.118

(76) أنظر الأرشيف البصرى الخاص بالاستقبالات فى الكيب والمدن الاخرى فى ملاجق الدراسة، وكذلك أنظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Evelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947,P.119.

(77) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 ، نفس الملف والمحفظة ، ص8.

(78) خطاب القنصلية الملكية المصرية لعامة بمدينة الكيب فى 12 فبراير 1947.. الملف والمحفظة السابقة، ص 2.

(79) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 1، 8.

(80) خطاب القنصل العام المصرى بمدينة الكيب فى 29 يوليو 1946 .. الملف والمحفظة السابقة، ص1. .

(81) خطاب القنصلية الملكية المصرية فى الكيب فى 12 فبراير 1947.. الملف والمحفظة السابقة، ص 2. .

(82) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص8. . .

(83) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison.Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(84) .South Africa Bill, Op.Cit.,pp.943,944.

(85) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison,Cape Town, 10th March, 1947, P.120.

(86) خطاب القنصلية الملكية المصرية بمدينة الكيب فى 12 فبراير 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص 2.

(87) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.120.

(88) South Africa Bill, Op.Cit., pp.943,944.

(89) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison, Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(90) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 1، 2.

(91) نفسه، ص 2.

(92) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison, Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(93) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison. (Received in Dominions Office 18th March, 1947) Cape Town, 10th March, 1947, Pp.119,120.

(94) Ibid, P.119.

(95) Ibid,P.120.

(96) حيث ذكرت بأنه حين زارات العائلة الملكية الكيب رحب بهم السكان، وأظهروا لهم كرم الضيافة، لكن تجاهلت بعض صحف الحزب الوطنى هذه الزيارة، انظر محمد عبدالحليم محمد على الزرقا :- المرجع السابق ، ص 230 .

(97) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص8.

(98) نفسه، ص ص 1، 2، 5.

(99) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison. (Cape Town, 10th March, 1947, P.119.

(100) خطاب القنصل العام فى 6 مارس 1947 .. الملف والمحفظة السابقة، ص 4 .

(101) نفسه ، ص5.

(102) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison,Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(103) Ibid,PP.129- 131.

* الجوكسكايز هى لعبة يحاول الافركانرز الوطنيون من خلالها تنمية الشعور الوطنى لدى الشعب الأفريكانرى. لكنهم كانوا من أولئك الذين يفضلون بالحديث باللغة الأفريكانية مع أعضاء الحزب المتحد كما ينبغي أن يكون. حيث عاشت الأفريكانية في الترانسفال وفى الريف، والتزمت وجهات نظر بوتا وهيرتزوج طوال السنوات منذ عام 1912، وهو ما أصبح فى دائرة اهتمام الحزب الوطنى وبعيدا عن اهتمامات سمتس.

(104) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, from Sir E. Baring to Viscount Addison,Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131، وكذا أنظر الارشيف البصرى الخاص بزيارة المحميات فى ملاحق الدراسة.

(105) Ibid.

(106) King George VI and the Royal family visit, 1947,... Op.Cit.

(107) F.O.468-1854-23656-2:- No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947, P.133.

(108) حيث تحدثوا لآلاف الرجال الذين خدموا سابقا، وكذا النساء اللاتى حضرن. وعقدت في مقر حكومات سالزبوري وبولاوايو حفلات الاستقبال ما يقرب من 2،000 من الضيوف، مثل فيها جميع أقسام المجتمع، ودعى الشباب لحضور الحفلات في دار الحكومة فى سالزبوري، حضره نحو 500 من الشباب والرجال والنساء والفتيان والفتيات. ولقى هذا الحدث نجاحا باهرا، حيث وضعت ترتيبات أخرى تسمح لجيل الشباب برؤية الزوار الملكيين بطريقة حميمة، للمزيد أنظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947,P.134

* حيث التقت الاسرة المالكة بجميع أعضاء البرلمان وبجميع الوزراء وعدد من كبار المسؤولين في حفلات العشاء في المقرات الحكومية. وقامت الملكة والأميرات بتنفيذ عدد من الارتباطات الأخرى، كزيارة البعثة التبشيرية، وحضروا الكشافة ومسيرات الفتيات المرشدات، وحفلات الشاي لمقابلة ممثلي كل المنظمات النسائية في المستعمرة، وحصلوا فيها على تقدير كبير جدا. وزارت الاسرة أيضا المدارس فى سالزبوري وبلومترى Plumtree. وفى كل من سالزبوري وبولاوايو حضروا عدة احتفالات لم تكن خلابة كما هو الحال في المناطق التي تسودها التقاليد القبلية. للمزيد أنظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947,P.134

* حيث قدم لها بروش من الماس كهدية من قبل أطفال؛ أوروبيين وملونين وآسيويين وافريقيين، عن طريق اكتتاب بشلنات وبنسات. وقدمت الهدية بواسطة ستة أطفال، اثنان من الأوروبيين، وهندي، وملون واثنين من الافريقيين، حيث جلبوا البروش إلى مقر الحكومة فى سالزبوري. وفي هارتلي قدمت مرشدات المستعمرة لصاحبة السمو الملكى غطاء رأس من الفضة وخشب روديسي، مع بروش في شكل شارة روديسيا. للمزيد أنظر، F.O.468-1854-

23656-2:- No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947,P.135.

Ibid, PP.134,135 (109)

• حيث ذكر بأن معظم أصحاب الأرض من الناطقين بالإنجليزية يسكنون الشمال، ويمارسون الزراعة على نطاق واسع إلى حد ما. اما الجنوب فيسكنه الاوروبيين من اصحاب المزارع الصغيرة. ويتم زراعة الأراضي حسب طريقة الافريكانرز، وهي عبارة عن واحة خلفية للترانسفال، تحصل على دخلها النقدي من بيع حاصلاتها من التبغ الذى يستخدم فى تعبئة الغليون واستنشاق دخانه. وان كرالات الزعيم الرئيسي والإندلوفوكازي Indhlovukazi تقع في الشمال. وتقع مبابان Mbabaneفى جنوب السوازي بين التلال شديدة الانحدار في الشمال، كأى نموذج لعاصمة إقليم استعمارى صغير. للمزيد أنظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 48, From Sir K. Baring to Viscount Addison,Pretoria., 23rd June, 1947, P.143.

• وهى نموذج للمدن الصغيرة التى تقع فى ريف الترانسفال، وتقريبًا تناسب شارع سنكلير لويس الرئيسى. حيث توقف القطار الملكى قرب بيت ريتيف، وبسبب طول رحلة السكك الحديدية زاروا مباباني. وأثناء القيادة بالسيارة إلى جودجيجون رأوا التلال جنوب سوازيلاند، ذلك الجزء الذى يتحدث اللغة الأفريكانية. للمزيد أنظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 48, From Sir K. Baring to Viscount Addison,Pretoria., 23rd June, 1947, P.143.

• فمثلا عند الدخول إلى سرادق الذى يقدم فيه الشاي، كانت تقف بقرة وحصان، حيث تم الاحتفاظ بالجو الريفى، فى ظل ترتيب امنى يشرف عليه المفوض البريطانى المقيم.للمزيد انظر.Ibid, P.143

• حيث حضر السوبهوزا لهذه المناسبة بزيه الجديد المكون من سترة زرقاء لامعة، وسروال أحمر مع وشاح أصفر فاتح وخوذة بيضاء يتوجها الريش الأسود. وارتدت الإندلوفوكازي الزى التقليدى لامرأة السوازى المتزوجة، مع بعض الإضافات المناسبة لمكانتها. وارتدى اثنان من مستشاريه الزي الرسمي، وارتدى أحدهم غطاء رأس وثوب يتناسب مع كونه خريج جامعة جنوب أفريقيا. وحظى ملبس سوبهوزا على شعبية كبيرة. للمزيد انظر.Ibid, P.143

Ibid,P.143. (110)

• وكان هذه الرقصة يؤديها 15.000 محارب، فى حين قدرتهم الصحافة بـ 4.000 مسلح، يلبسون الزى التقليدى والدروع ويمسكون بالرماح. استقبلوا الاسرة الملكية بالتحية التقليدية على صافرة بصوت عال للغاية، فالضوضاء التى أثارها المحاربون صمّت الآذان قبل الرقص عند الملك ، ومشت الملكة على طول صفوفهم. وكانت الرقصة أيضا إحياءً لاعراف افريقية ميتة. فرقصة موريس فى القرن العشرين كان السوازي يعتادونها ويتصرفون فيها بشكل طبيعي ودون قيود. لهذا فإن أداؤها أمام الملك جعلها الرقصة التى سيتم اداؤها فى ديسمبر من كل عام في كامل الزي الرسمى. فضلا عن عدم تدخل ضباط الشرطة الأوروبيين أو الجهات الإدارية فى الرقصة بأي شكل من الأشكال. للمزيد انظر.Ibid, P.144

• فسمع عن بهجة شعب جنوب سوازيلاند وودهم لجميع أفراد العائلة المالكة، ثم حماس البلدة المجاورة لبيت ريتيف، تلك التى ينحدر منها كل سكان جودجيجون، وقيام مديرى المدارس بتقديم شكر للمفوض المقيم على ما قدموه للاطفال. للمزيد انظر.Ibid, P.144

Ibid, P.144. (111)

• حيث كانت الخيول، سواء المربوطة او المتروكة، تظهر في كل مكان. مما اعطى المشهد بانه صورة لمعسكر جيش من العصور الوسطى. حيث جلس الباسوتو القرفصاء، أو في داخل البطانيات، حول النيران يأكلون لحوم الثيران المشوية. للمزيد انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.144

• ويضيف فى هذا المشهد بأنه كان من المستحيل إقناعها من قبل رؤساء المجالس وأعضائها، بأن تلبس ملابس الباسوتو، الثوب المحيط، حيث كانت تواجه الاسرة الملكية في نصف دائرة بين70،000 و 100،000 من الباسوتو من

جميـع المنـاطق ومـن جميـع الأنـواع، مرتـدين مجموعـة متنوعـة مـن الملابـس. وبـرؤيتهم مـن أعلـى نجـد أن آخـر صـفوف المتفرجين تقتـرب مـن تـل الحجـر الرملـي والكهف الذى يقع على مقربة من أراضى باسوتولاند المنخفضة عند منـزل يسـمى فجـوة الرمـاح ، حيـث كانـت دوريـة الفرسـان موجودة، وهى إحدى جماعات الباسوتو القديمـة المحاربـة، وصـورتها أكثـر إثـارة للإعجـاب. وكـل مـا كـان مطلوبـا هـو البطانيات الملونـة الكبيرة المعروفة باسم البيتسو Pitsos. للمزيـد انظـر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.145,146

(112) F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.144-146.

* وكـان هنـاك تعليـق علـى الخطـب، وعلـى سـلوك الباسـوتو وعلـى تنظيم البيتسـو. ففـي صـحيفة المنتـدى Forum قلد الملك الأفارقة بعض الرتب، تلك التى وصفت كحدث فريد من نوعـه فـي تـاريخ جنـوب أفريقيـا ، وقـدمت وصـفا تفصـيليا للزيارة. فضلا عن اشادتها بوسام الشهامة الذى قدم للرقيب ماسوفا Masupha من فيلـق بـايونير أفريقيـا، الـذي حصـل علـى ميداليـة عسـكرية. للمزيـد انظـر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.146.

(113) F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947, PP.146, 147.

(114) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland , Enclosure in No. 49, Paramount Chief's SpeechPretoria,23rd June, 1947 P.147, 148.

(115) F.O.468-1854-23656-2:- No. 50,from Sir E. Baring to Viscount Addison,Pretoria, 20th August, 1947 P.148.

(116) Ibid,PP. 148,149.

(117) Ime John Ukpanah:- Op.Cit.,p.15.

(118) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, FromSir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.120.

(119) F.O.468-1854-23656-2:- Enclosure in No. 40 Press Reactions, Cape Town, 10th March, 1947, P.121.

(120) Ibid,P.121.

(121) Ibid, P.122.

(122) Ibid, P.122.

(123) F.O.468-1854-23656-2:- Enclosure in No. 43 Press Reactions to the Royal VisitCape Town,, 16 May, 1947, PP.132,133.

(124) Ibid, PP.132,133.

(125) F.O.468-1854-23656-2:- No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947 P.137.

(126) Ibid, P.137

(127) التقريـر التاسـع عشـر المرفـوع فـى الأول مـن مـايو 1947.. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 1- 3 .

(128) F.O.468-1854-23656-2:- No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947, P.138

(129) خطـاب القنصـل العـام بالكيـب فـى 29 ابريـل 1947 .. الملف والمحفظة السابقة.

(130) التقريـر التاسـع عشـر المرفـوع فـى الأول مـن مـايو 1947.. الملف والمحفظة السابقة، ص 1 .

(131) نفسه ، ص 3 .

(132) نفسه، ص 4 .

(133) نفسه ، ص ص 1- 3 .

(134) نفسه ، ص 3 .

(135) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.121.

(136) التقريـر التاسـع عشـر المرفـوع فـى الأول مـن مـايو 1947.. الملف والمحفظة السابقة، ص ص 2 ، 3 .

(137) نفسه ، ص 4 .

(138) نفسه ، ص 3 .

(139) نفسه ، ص 4 .

(140) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.121.

(141) خطـاب القنصـل العـام فـى 6 مـارس 1947 .. الملـف والمحفظة السابقة ، ص6.

(142) نفسه، ص7.

(143) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, from Sir E. Baring to Viscount Addison. Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(144) Ibid, P.132.

(145) خطـاب القنصـل العـام فـى 6 مـارس 1947 .. الملـف والمحفظة السابقة، ص5.

عشائر ذي قار في مواجهة الاحتلال البريطاني
1914-1920 كما وردت في المصادر البريطانية

الأستاذ الدكتور نوري عبد الحميد خليل العاني
رئيس قسم تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر
/ معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا –
اتحاد المؤرخين العرب / بغداد

أولا: التصدي لجيش الاحتلال

حملت عشائر ذي قار راية الدفاع عن الوطن منذ أن وطأت أقدام الجنود البريطانيين ارض العراق على الرغم من التطمينات التي أطلقتها القيادة البريطانية للسكان ومحاولة تحييدهم باعتبار أن الحرب موجهة ضد الأتراك وليس ضدهم0 ففي السادس من تشرين الثاني1914، وهو يوم نزول القوات البريطانية في الفاو اصدر برسي كوكس وكان مرافقا للحملة بصفته رئيسا للحكام السياسيين بيانا قال فيه " ليكن معلوما للجميع إننا لسنا في حالة حرب مع العنصر العربي وإنما نتعاون معهم من اجل تحريرهم من تعسف الأتراك وعليهم أن لايتخوفوا من شيء لأننا لن نتعرض لهم إن وقفوا منا موقفا وديا ."[(1)] لكن العشائر لم تلتفت لهذا البيان بل هبت لتلبية الواجب الوطني فوجه أهالي البصرة برقيات إلى علماء الدين تقول " ثغر البصرة الكفار يحيطون به، الجميع تحت السلاح، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع. " فأفتى العلماء بالجهاد وكتبوا إلى العشائر وفي مقدمتهم عشائر ذي قار القوية يحثونها على التصدي للغزو والدفاع عن البلاد فتوافد المقاتلون من إنحاء العراق[(2)] وتحشدوا في الناصرية والعمارة وعلى جانبي شط العرب استعدادا للمواجهة.

كانت عشائر ذي قار في مقدمة من هب للدفاع عن الوطن بحكم قربها وتبعية منطقتها إداريا للبصرة. فتقدموا عبر الفرات والاهوار والبادية الجنوبية وأسهموا في الاشتباكات التي جرت أيام 11، 16، 17 تشرين الثاني بين القوات العثمانية و البريطانية على طول شط العرب فكان عجمي السعدون رئيس تجمعات عشائر المنتفك القوية يقود 250 خيالا . وبعد اندحار العثمانيين واسر والي البصرة صبحي بك وانسحاب قواتهم إلى القرنة دخلت جموع العشائر البصرة أملا في التحرر من سيطرة العثمانيين والتصدي للبريطانيين0 لكن افتقار هذه العشائر إلى التنظيم والتدريب والسلاح الحديث جعلها غير قادرة بمفردها على مواجهة الجيش البريطاني الذي تسانده قوة بحرية كبيرة ومسلح بأحدث الأسلحة، فدخل البريطانيون البصرة في 22 تشرين الثاني.

أما القوة العشائرية التي كان يقودها عجمي السعدون فقد تجحفلت قرب الزبير انتظارا لوصول قوات عثمانية جديدة استعدادا للمنازلة الحاسمة0 ومن خلال المواجهات مع العشائر أدرك البريطانيون الدور الذي يمكن أن تؤديه ضدهم فبذلوا محاولات جديدة بعد دخولهم البصرة لكسبها إليهم أو تحييدهم فأصدرت القيادة العامة بيانا جاء فيه: "إننا لا نكن أي خصومة أو سوء قصد للسكان ونأمل أن نثبت أنفسنا أصدقاء أوفياء وحماة لهم". وجاء في البيان أيضا: "سوف تتمتعون في ظل العلم البريطاني بمنافع الحرية والعدالة، وأصدرت الأوامر المشددة لجنودي أن يعاملوا

السكان بصداقة وتقدير تامين وعليكم أن تعاملوهم بالمعاملة نفسها". [3]

ازدادت المواجهات بين العشائر والقوات البريطانية بعد استيلاء الأخيرة على القرنة في كانون الأول ثم على الشعيبة والزبير وصارت مراكزها مهددة بصورة أكثر من عشائر ذي قار القاطنة في منطقة الاهوار وفي البادية القريبة منها والتي لا قبل للبريطانيين بخوض الحروب فيها. وتزايد الخطر في ربيع 1915 إذ تجمعت هذه العشائر مع أشقائهم القادمين من إنحاء العراق الأخرى في البادية الواقعة بين الزبير والناصرية استعدادا للهجوم على الشعيبة التي تركزت فيها قوة بريطانية كبيرة ومن ثم الانطلاق لتحرير البصرة.

أقلقت تلك الحشود البريطانيين وأثارت مخاوفهم وراحوا يعززون مواقعهم في الشعيبة والبصرة والقرنة بعد زيارة خاطفة قام بها اللورد هاردنك نائب الملك في الهند محاولا تطمين العراقيين، فأطلق الوعود لهم بالرخاء الذي ينتظرهم0 وفي التاسع من نيسان 1915 نزل الفريق جون نكسون إلى البر في البصرة وتسنم قيادة الحملة[4] على العراق.

في ذلك الوقت كان العثمانيون يعززون حاميتهم في الناصرية اعتمادا على القوات المحلية وتم تعيين سليمان عسكري قائدا عاما لقواتهم بدلا من جاويد بك ، واخذوا يدعون العشائر التي ظلوا يعاملونها طوال سنوات حكمهم للعراق معاملة سيئة إلى الجهاد 0 وبدا المقاتلون من أبناء العشائر وسكان المدن يتوافدون من إنحاء العراق إلى الناصرية ليشاركوا عشائر ذي قار في الهجوم على الشعيبة وطرد البريطانيين منها. وبدلا من أن يقدم الأتراك الدعم المادي والسلاح لهذه العشائر ظلوا يعاملونها المعاملة السابقة نفسها.

إن موقف الأتراك هذا لم يمنع العشائر من القتال مع إخوانهم من الزعماء الوطنيين لإدراكهم إن ما يقومون به إنما هو لمصلحة البلاد 0 وقد قدرت المصادر العربية عدد القوات العشائرية التي تجحفلت في منطقة النخيلة قرب الشعيبة بين10- 15 إلف مقاتل[5] القسم الأكبر منها من ذي قار وتقول المس بيل: " كان عدد أفراد العشائر العربية نحو تسعة آلاف مقاتل بقيادة عجمي السعدون وابن عمه عبد الله الفالح فضلا عن ألف مقاتل من الكرد فكانت القوة العشائرية باجمعها تبلغ 18 ألف يعود نحو النصف للسعدونيين"[6] قامت مجموعات منهم بمهاجمة القوات البريطانية قبل أن يتم تحشيد القوات العثمانية. [7]

وضع القائد العثماني خطة ناقصة ومشوشة معتمدا فيها على القوات العشائرية بصورة كبيرة . تتلخص الخطة بمهاجمة البصرة من الناصرية وفي الوقت نفسه مشاغلة القوات البريطانية والتعرض لها في الجهات الأخرى فقام بتوزيع القوات العشائرية على تلك الجهات. كانت الجبهة الرئيسية هي الشعيبة وعلى رأسها عجمي السعدون وابن عمه عبد الله الفالح[8] وكان الحماس الوطني قد استولى على مشاعر المقاتلين فكانت الأهازيج التي يرددونها " بأرض الشعيبة باجر تفكنه ايثور."[9]

وفي 12 نيسان بدأت المعركة التي استمرت ثلاثة أيام ظهر فيها التباين بين الطرفين، فالقائد التركي حمل إلى خارج الميدان لمعاناته من جروح أصيب بها في القرنة ووضع خلفه (علي بك) رجال عجمي السعدون في الجناح الأيمن والقوات العشائرية الأخرى في الجناح الأيسر. واستماتت هذه القوات في القتال الذي استمر 72 ساعة في الشعيبة وغابة البرجسية لكن انتحار سليمان عسكري وتراجع القوات العثمانية إلى الناصرية أدى إلى خذلانها. ومع ذلك فقد كبدوا البريطانيين خسائر تراوحت بين 1000 و1257 بين قتيل وجريح حسب تقدير المصادر البريطانية كان منهم أكثر من 60 ضابطا مما يدل على ضراوة المعركة . وقد واصلت العشائر استعداداتها بعد انتهاء المعركة وبقي عجمي السعدون وأعوانه مرابطين في البادية[10] استعدادا لمنازلة اخر.

كان الحماس الوطني في مقدمة الأسباب التي دفعت عشائر ذي قار للتصدي للقوات البريطانية. فقد أدركت هذه العشائر إن الفرصة أصبحت مواتية لتحرير البلاد ليس من الاحتلال البريطاني حسب بل ومن سيطرة الأتراك أيضا . فلم يكن قتالهم بجانبهم دليل ولاء عميق بمقدار ما كان دليلا على الحرص على ارض العراق فمعظم زعماء هذه العشائر وقفوا ضد الإدارة العثمانية وسببوا لها متاعب قبل الحرب. وظل الأتراك حتى في ظروف الحرب على معاملتهم السيئة لتلك العشائر . على سبيل المثال خاطب احد القادة الأتراك القوات العشائرية المشاركة في معركة الشعيبة بالقول "إننا لو فتحنا الشعيبة والبصرة يبقى علينا واجب ثان هو فتح العراق وخاصة الفرات أولا وعشائر دجلة ثانيا لأنهم خونة" . فرد عليه الشيخ بدر الرميض زعيم بني مالك قائلا " انتم الخونة للإسلام، وتحزبكم ضد العرب كاف لمصداق قولي، وانتم بعد هذا أولى بالحرب والقتال ممن نحارب ولولا فتوى علمائنا لما وجدتمونا في هذه الساحات"(11)

ترك موقف الأتراك هذا أثرا في نفوس عشائر ذي قار وصاروا يعتقدون إن خلاص العراق من الترك لايقل أهمية عن خلاصه من البريطانيين0 وتذكر المصادر البريطانية(12) إن قوات العثمانيين المنسحبة من الشعيبة إلى الناصرية بينما كانت تشق طريقها بصعوبة على طول السواحل الجنوبية لبحيرة الحمار صادفت عدوا غير مترقب، فقد انقضت عليهم عشائر ذي قار ذبحا وسلبا ولم يستطع علي بك الوصول إلى الناصرية إلا ببقايا قوة ضئيلة فقط0 وتواصل تعرض تلك العشائر للحاميات البريطانية في البصرة والقرنة والشعيبة وصرفت القيادة البريطانية جزء مهما من جهودها طوال سنتي 1915و 1916 لكسب هذه العشائر إليها والتقرب من عجمي السعدون فأكدت له "إننا لا نتخاصم مع العرب في العراق أو مع الشيوخ الذين كنا نبغي تحريرهم من تعسف الأتراك". لكن محاولاتها باءت بالفشل فوجهت له إنذارا نهائيا بداية سنة 1916 وعينت له الشعيبة محلا لاستقباله فيها وتعهدت بالمحافظة على حياته وحددت له ثلاثة أيام للإجابة على ذلك، لكن عجمي وإتباعه رفضوا ذلك على الرغم من عدم ثقتهم بالأتراك(13) حسبما ذكرته المصادر البريطانية.

كان على بريطانيا أن تعمل على تامين وجودها في منطقة البصرة ضد إي هجوم عشائري آخر مثل هجوم الشعيبة وضمان مصالحها الستراتيجية والاقتصادية وذلك باحتلال المناطق المجاورة للبصرة بما فيها من اهوار ومستنقعات والتي ظلت منطلقا لأفراد العشائر ومنها كانوا يضايقون القوات البريطانية المتواجدة في البصرة والشعيبة بإطلاق النار عليها بين حين وآخر(14) كما يذكر طونزند قائد الحملة البريطانية على العمارة والكوت. وبعد ان احتلوا العمارة في الثالث من حزيران 1915 بدأت الخطوة التالية باحتلال ذي قار فتقدمت قواتهم التي تحشدت بإعداد كبيرة بقيادة الجنرال غورنك في أواخر حزيران على ظهور المراكب الحربية عبر الفرات وهور الحمار واحتلت سوق الشيوخ يوم السادس من تموز بعد مناوشات حامية مع العشائر. ويقول آرنولد ويلسون الذي شارك في تلك الحملة : " تظافرت التقارير على إن العرب لا الأتراك هم الذين يقفون بوجهنا وكنت تواقا إلى الاتصال بهم لأحملهم على إخلاء البساتين وتركنا نحارب الأتراك وجها لوجه ولم يكن ذلك بالأمر الهين اليسير (15)

أنزلت العشائر بالقوات البريطانية خسائر فادحة إثناء تقدمها على ضفة قناة الشطرة وفي منطقة العكيكة التابعة لسوق الشيوخ بلغت 25 قتيلا و75 جريحا0 ثم تقدمت تلك القوات التي تم تعزيزها بقوات جديدة شمالا واحتلت الناصرية التي أخلاها العثمانيون يوم 25 تموز بعد معركة حامية شاركت فيها العشائر وتكبد البريطانيون فيها 104 قتيلا و439 جريحا(16). وتصف المس بيل الصعوبات التي واجهها البريطانيون إثناء تقدمهم بالقول "كان تقدم الجنرال غورنك على

طول الفرات في تموز عملا فريدا في بابه بالنسبة للتحمل والجلد اللذان أبداها الجنود"(17) 0

لقد تصدى لهم العرب في البطحاء وتل الملح وخاضوا معهم معارك ضارية على الرغم من شكوك العشائر في نوايا الأتراك الذين ظلوا يعاملونهم معاملة سيئة مع حاجتهم الماسة لمساعدتها مما اثر على سير المعركة 0 وفي ذلك يقول ويلسون: " يجب أن نتذكر إننا وان دحرنا الأتراك فإننا لم نقهر العرب بعد، لقد قاومونا وانسحبوا بخسار لايذكر ولعلهم حصلوا على مقدار كبير من الأسلحة والعتاد من القوات التركية المنسحبة0 لقد كان وضعا غير مستحب وينطوي على أعظم خطر بل أعظم الإخطار التي جوبهت خلال الحملة على العراق0 ولو تسنى للأتراك أن يحصلوا على عون العرب الحق لحلت الناصرية محل الكوت في التاريخ ولا سفر ذلك عن نتائج لا تعد ولا تحصى"(18) .

وباحتلال الناصرية تمت السيطرة على كل ولاية البصرة السابقة وعلى مركز محافظة ذي قار. ألا إن وضع القوات البريطانية ظل حرجا بسبب الطبيعة الجغرافية والسكانية للمنطقة0 وكان شبح اتحاد العشائر وتكاتفها ماثلا أمام البريطانيين حسبما يقول ويلسون " فان اتخذ العرب الذين كانوا خلفنا موقف الدفاع قد نجد أنفسنا وقد أحيط بنا من كل جانب"(19) فلقد كانت المنطقة الممتدة من القرنة إلى الناصرية وما تضمه من اهوار ومستنقعات وبساتين نخيل وبادية تسكنها نحو 50 عشيرة كانت كل منها تشكل جزء من مجموعة عشائر المنتفك في ظل أسرة السعدون القوية(20) المعارضة للاحتلال البريطاني0 ذلك إن الوصول إلى تلك العشائر كان امرأ متعذرا فظلت في حالة ثورة دائمة ضد البريطانيين فهي " لم تشهد شدة سلاحنا ووقعه أبدا كما إن الحملات التأديبية التي جردها جيشنا بين حين وآخر كانت على وجه العموم خائبة"(21) حسب قول ويلسون.

<u>ثانيا موقف العشائر من سلطات الاحتلال</u>

إن احتلال البريطانيين لذي قار لم يؤد إلى خضوع العشائر لهم بل ظلت هذه العشائر تقف موقف المتحدي للإدارة المدنية الجديدة وسببت لها مشكلات دائمة وكلفتها نفقات باهظة. وهو الشيء الذي جعل توسع الإدارة يجري ببطئ وحذر شديدين فتم نشر الحاميات والمفارز العسكرية في الناصرية والخميسية وسوق الشيوخ وبني سعيد والمفرق (أور) والعكيكة.(22) وجميعها تقع على خطوط المواصلات0 ولم تتمكن الإدارة غير تجنيد القليل من أبناء العشائر في الحرس المحلي (الشبانة) الذي أرادوه أن يكون بديلا للجند رمة العثمانية0 ولم يتهيأ للميجر أيدي بعد ذلك من أن يجمع غير 40 خيالا ليخدموا في قوة (خيالة المنتفك) بصفة طلائع استكشافية أمام الدوريات ولجمع المعلومات العسكرية والعشائرية، اذ أبت العشائر المشاركة فيها وخاصة أفراد الأسرة السعدونية الذين جعلهم كبرياء نسبهم وتقاليدهم في القتال في معزل عن أية مساهمة في حكم البلاد "(23) على حد قول المس بيل0 وعلى الرغم من ذلك فقد وضعت الإدارة تحفظات على القلة الذين ارتضوا العمل في الشبانة وفي (خيالة المنتفك) ولم يجر استخدامهم بحرية بسبب ما كان يناله من ينظم إليها أو من يظهر تعاونه مع البريطانيين من سخط إفراد عشيرته وغضب السكان عموما فلقد " كفرهم الناس في الشوارع جهارا ومنع عنهم الطعام في الأسواق والشراب في المقاهي وكانت الكؤوس التي يشربون منها تكسر علنا وكانت النسوة يتجمعن حول الثكنات ويصرخن مناديات أزواجهن وأبناءهن للخروج وحمايتهن. إن الانخراط في صفوفها كان يعني الخزي والعار وحتى القتل"(24) .

على الرغم من كل هذا فان السلطات البريطانية لم تكن تثق بمن قبلوا بالانخراط فيها وهم قليلون وتقول المس بيل: "في بحيرة الحمار حيث كانت الوحدات العشائرية صغيرة ومعروفة بالفوضى وجد من المناسب أن لا يوضع الشبانة في مناطقهم

ولـم يكونـوا ينظمـون علـى المنـوال العشـائري فـي منطقة سوق الشيوخ حيث كـان القسم الـرئيس يـرابط في المقر" (الناصرية)[25] ولأجل إحكام السيطرة على المنطقـــة وتـــامين الإدارة فيهـــا قامـــت الســـلطات البريطانيـــة بإيصـــال الســـكة الحديـــد بـــين البصـــرة والناصرية للمساعدة في نقل القوات والعتاد بسرعة وفرضت حصـارا اقتصاديا قاسيا على العشائر بحجة منـع وصـول المـواد الغذائيـة إلـى العـدو. فـي وقـت تناقص فيه إنتاج الرز في سوق الشيوخ وهو الإنتاج الرئيس في المنطقة بسبب شحة المياه وقيام السلطات البريطانيـة بتوجيـه كـل الميـاه إلـى المجـرى الـرئيس للنهـر لرفـع المنسـوب فيـه واتخـاذه طريقـا للنقـل والمواصلات قبل تشغيل السكة الحديد0 خاصـة وان القوات العثمانية قامت بكسر سد الصقلاوية وتوجيه مياه الفرات إلى منخفض عكركوف بعد انسحابهم من بغداد لإعاقة تقدم القوات البريطانية . فتناقصت المياه في الفرات الأسفل وعانى السكان من اثر الحصار. لكـن كـل ذلـك لـم يـؤد إلـى نتـائج ايجابيـة بالنسـبة للبريطـانيين فـي ذي قـار إذ أن العشـائر ظلـت تـرفض جلب متوجاتها وبيعها لهم[26]. وهاجموا السكة الحديد وقطعـــوا خطـــوط التلغـــراف وهـــاجموا الحاميـــات البريطانية.

وفضـلا عـن تلـك الإجـراءات شـنت سـلطات الاحـتلال حملـة منظمـة لإرهـاب الشـيوخ المعارضـين. وكانت بعض العشائر قد طردت زعماءها الذين ابدوا تهاونا في مقاومة الاحتلال أو تعاونوا معه، مستبدلين إيـاهم بالزعمـاء الـذين ينـاوئون الوجـود البريطـاني0 فقامـت سـلطات الاحـتلال بإعـادة أولئـك الزعمـاء المطرودين. على سبيل المثال تحايل الضابط السياسي ديكسـون علـى 22 عشـيرة وفخـذ فـي منطقـة سـوق الشيوخ وأعاد الشيوخ الذين طردوا منهـا[27] . وفي منطقة الجبـايش ألقت السلطات المحتلـة القبض علـى الشـيخ سـالم الخيـون رئـيس بنـي أسـد لتحديـه لهـا وإثارته العشائر ضدها ونفتـه إلـى الهنـد، ولـم يعد إلى العراق إلا سنة 1919[28] . وقاومهم أيضا الشيخ بـدر الرميض من بني مالك الذي طالمـا تشكى البريطـانيون من مواقفه الوطنية0 فلقد اقسم منذ معركة الشعيبة أن لا يلـزم نفسـه بالتعـاون مـع البريطـانيين وكـان عنـد كلمتـه0 وظـل طـوال السـنوات الـثلاث التاليـة يتجاهـل دعوات السلام وتجاهل وكلاءهم ايضـا[29] . وقد أشـار إلـى ذلـك ويلسـون قـائلا: " ظـل عنـد موقفـه المعـادي المكابر وانفذت حمـلات ضده فكانت غير ذات جدوى ووقعت التطمينات القائلة بأنه سيعامل معاملـة شـريفة فـي إذن صـماء غيـر سـميعة ورفـض دفـع الضـرائب وتحـدانا عمومـا وكـان وجـوده قائمـا يعـد لسـلطاتنا تحديا.[30]

ووقف ضدهم كل من عليوي المرهج وسكر النعمـة زعمـاء بنـي سـعيد فـي المنطقـة الواقعـة بـين الغـراف وشـط البدعـة وبحيـرة الحمـار ودجلـة وكـان الوصول إليهم متعذرا[31]. وعلي الفضل زعيم خفاجـة وخيـون العبيـد زعـيم العبـودة وعبـد الله الفـالح زعـيم السـعدون ويوسـف الخيـر الله زعـيم الشـويلات وآل حميد ومحمد آل ياسين زعيم المياح والسيد قصاب زعـيم سـراي وكـاظم العلـي أغـا الـذين فـرض علـيهم البريطـانيون غرامـات ماليـة وعـدد مـن البنـادق بسـبب مواقفهم الوطنية فاضطروا إلـى الانسحاب إلـى منطقـة الجزيـــرة بـــين العمـــارة وذي قـــار[32] تخلصـــا مـــن الملاحقات والاضطهاد.

وهكذا ظلت السيطرة البريطانية على ذي قار غيـر تامـة وهيبـة الإدارة غيـر محترمـة ولـم تخضـع الغراف لهم إداريا، ولـم يسـر الحكـم البريطـاني إليهـا فظلـت عشـائرها فـي حالـة انتفـاض دائمـة[33] تخضـع لتوجيهات زعمائها للدفاع تحت لواء الجهاد. ولم تكن للبريطانيين وحدات عسكرية في الشطرة ولم يعين لها حاكم سياسي ولا لقلعة سكر أو الخميسية على حافة الحدود الغربية إلا سنة 1918[34] .

وبغية التخفيف عن الضغط المفروض على قواتهم المحاصرة في الكوت ومنع عشائر ذي قـار في

المساهمة في الحصار أو دعم القوات العثمانية، قررت السلطات البريطانية في بداية سنة 1916 إجراء حركات عسكرية على طول نهر الغراف وذلك بالزحف من الناصرية إلى الكوت. وفي كانون الثاني تجمعت قوات غورنك في الناصرية وسار بها إلى الشطرة، فتحشدت العشائر واشتبكوا مع الرتل البريطاني في قتال ضار عند قرية السويج واجبروا البريطانيين على التراجع إلى البطحاء بعد أن تكبدوا 40 قتيلا وحاصرتهم العشائر هناك0 وفي شباط أرسلت السلطات البريطانية كل قواتها المتواجدة في الناصرية لإنقاذ الرتل ومساعدته في الانسحاب، وحالما باشرت هذه القوات بالانسحاب طوقتها جموع العشائر التي قدرتها المصادر بين 5 آلاف و17 الف0 ووقع القتال بينهما ولم تنج القوة البريطانية إلا بشق الأنفس بعد أن تكبدت نحو 373 إصابة بين قتيل وجريح وتكررت الحالة في أيلول حين قاومت العشائر بصلابة قوة بريطانية مؤلفة من لوائين كانت تقوم بحركات قرب الناصرية[35] .

والأمر الذي كان يزيد في خطورة الوضع استمرار تواجد القوات العثمانية في المنطقة قبل الزحف على بغداد سنة 1917، وهو شيء كان يشجع العشائر في ذي قار على الثورة . فكانت الاتصالات جارية بين مظهر باشا القائد التركي في الشطرة وبين عشائر ذي قار. وكان أبناء المنطقة يتوجهون بابصارهم أيضا نحو عجمي السعدون وإتباعه المرابطين في البادية الجنوبية فكانوا يشاغلون المراكز البريطانية بالهجوم عليها بين حين وآخر وخاصة المناطق المجاورة للناصرية0 فتواصلت انتفاضات العشائر مما اثر على صبر سلطات الاحتلال تأثيرا شديدا[36]. فكان على القيادة البريطانية العمل على ضمان امن المنطقة وحماية مؤخرة جيشها الذي هيأ للزحف على بغداد .

في ذلك الوقت كان عجمي السعدون قد عقد حلفا مع ابن رشيد أمير شمر في حائل والذي حقق انتصارات على خصمه عبد العزيز بن سعود في نجد واقترب من تخوم ولاية البصرة في ربيع سنة 1916 ورفض الرد على رسائل السلطات البريطانية في العراق. كان هدف الحلف العمل المشترك ضد الوجود البريطاني في المنطقة . ونشط البريطانيون من جانبهم لحماية قواتهم وتامين الحماية لها إثناء الزحف إلى بغداد بعقد تحالفات بين بعض العشائر النجدية المتجولة في البادية الجنوبية المحاذية للفرات وبعض العشائر النصف بدوية في ذي قار التي ارتضت بالتعامل مع سلطات الاحتلال لمصلحة بريطانيا ضد عجمي السعدون وإتباعه 0ولم تتوقف جهود البريطانيين عند هذه الحدود بل عمدوا إلى تجميع المتعاونين معهم من الزعماء ورؤساء العشائر في الخليج العربي وعقدوا لأجل هذه الغاية اجتماعا في الكويت أواخر عام 1916 0 حضر المؤتمر ابن سعود وحاكم الكويت وشيخ المحمرة0 وتقرر الاستفادة من خدمات هؤلاء للتقريب بين بريطانيا وعشائر العراق المعارضة للاحتلال. وبعد أيام قلائل من عقد المؤتمر زار ابن سعود الحامية البريطانية في البصرة وكتب إلى عجمي السعدون كتابا يناشده فيه أن يكرس جهوده وجهود إتباعه (لحرية العرب والمسلمين) وتحريرهم من ربقة الاتراك0 لكن السعدون رفض التعاون مع بريطانيا ومما جاء في رده على كتاب ابن سعود: " من المعلوم جيدا عندي بدرجة لا يتطرق إليها الشك إن موقفي هو موقف من يسعى لمرضاة الله العلي العظيم ولإعلاء اسم العرب باظهار الولاء لهم0 وأي ولاء أعظم من أن أسارع بإخلاص إلى ما أمرني به الله في كتابه المجيد بالجهاد ضد الكافرين أنا الذي أسعى لحب الله ونبيه وبلادنا وحمايتها من أن يدنسها الكافرون"

وواصل عجمي عتابه لابن سعود على تعاونه مع البريطانيين وتعهد بمواصلة محاربته لهم قائلا " كان لي أمل كبير بتدينكم وحميتكم العربية أن توافقوني في رأيي وتؤيدوني في ما أقوم به من اجل

إعلاء كلمة العرب0 وليس هذا بفضل الله تمردا واني مقتنع ومعتقد باني سائر على الطريق السوي الذي يرضي الله والعرب سيرا مستمرا لا يثنيني عنه شيء" . وبعد هذا الجواب لم تبذل مساعي أخرى لزحزحة السعدون عن موقفه حسب ما أوردته المصادر البريطانية قائلة "لم يفرغ له احد شيئا من جهده لكسبه إلينا "[37]. فظل موقفه في البادية كالرمح الطليق خارج نطاق سيطرة الاحتلال0 وشارك في كل الحروب التي خاضها الأتراك ضد البريطانيين في أعالي الفرات وخاصة في جبهة الدليم (الانبار)0 وأراد البريطانيون اغتياله لكنه انسحب نهائيا مع القوات التركية إلى داخل الأناضول وظل معارضا للبريطانيين على الرغم من صدور العفو عنه سنة 1920[38] .

ثالثا عشائر ذي قار في ثورة العشرين

بعد احتلال البريطانيين لبغداد سنة 1917سعوا لتوطيد نفوذهم في المناطق والمدن التي لم يكن لهم وجود فيها من قبل اوكانت سيطرتهم عليها مهزوزة وخاصة مدن ذي قار ومنها الشطرة وقلعة سكر[39] . وفي السنة التالية اجروا تعديلا في إدارة المنطقة وذلك بضم منطقة الجبايش إلى سوق الشيوخ التي ظلت تتبع إداريا القرنة طوال المدة 1914-1918[40] . وتم فصل منطقة ذي قار عن ولاية البصرة لتشكل وحدة إدارية خاصة (لواء) مركزها الناصرية ويديرها حاكم سياسي يتبع الحاكم المدني العام في بغداد مباشرة. وعززت الحاميات في الاقضية والنواحي. ألا إن ذلك لم يؤد إلى استتباب الأمر للبريطانيين فظلت المعارضة العشائرية قائمة بل كانت في حالة ثورة دائمة مهاجمة خطوط المواصلات البريطانية وقاطعة خطوط التلغراف حتى اصبح اللواء في حالة شبه عزلة لبضعة أشهر[41] .

ولما نشط الوطنيون في بغداد ومدن الفرات الأوسط واخذوا يستعدون للثورة لم تكن عشائر ذي قار بعيدة عنهم بل كان لشيوخها وزعمائها صلات وثيقة بمراكز الحركة الوطنية وشاركوا في تنظيماتها0 فكان علي جودت الأيوبي وهو من جمعية العهد ورئيس الهيأة العراقية على اتصال دائم بعجمي السعدون من خلال الضابط محمود نديم وغيره من الضباط الذين أمدوه بالعتاد والسلاح[42] . وكان للوطنيين تأثير طاغ على عشائر ذي قار التي انتشرت بين زعمائها وشيوخها حركة واسعة لتنظيم المضابط التي وقع شيوخ الغراف الكثير منها سنة 1919 وأرسلت إلى الحجاز وسورية بواسطة الشيخ محمد رضا الشبيبي تتضمن مطالبة العراق بالاستقلال وتندد بسياسة الاحتلال. ويطلبون من الملك حسين بن علي إيصالها إلى مؤتمر الصلح في باريس والى الحكومة الأمريكية[43]. فضلا عن المضابط التي يقترحون فيها تعيين الأمير عبد الله بن الحسين ملكا على عراق مستقل استقلالا تاما ويطلبون منه الحضور إلى العراق0 وقد أوردت الإدارة البريطانية نسخا منها مرفوعة في 12 نيسان 1920 من رؤساء ذي قار منهم خيون العبيد شيخ العبودة[44] .

وحين تأسست جمعية حرس الاستقلال السرية في بغداد سنة 1919 للعمل على تحرير البلاد من الاحتلال البريطاني وإسناد العرش إلى احد أبناء الملك حسين أقام الشيوخ والرؤساء في ذي قار صلات بالجمعية وتولوا بث مبادئها في مناطقهم. وكان المبشرون الوطنيون من أمثال الشيخ محمد باقر الشبيبي والشيخ عبد الحسين مطر والحاج علي الدبوس والسيد عبد المهدي حسن والشيخ محمد حسن حيدر وعبد الكريم ألسبتي وآل الشعرباف وغيرهم يواصلون جهودهم لايقاض الشعور الوطني وتحريض العشائر على الثورة[45] على السلطات البريطانية وقيل إن قيادة حرس الاستقلال في بغداد قرروا فتح فرع لجمعيتهم في ذي قار[46] .

وورد ذكر لجمعية سرية أخرى تألفت في كربلاء بعد الحرب العالمية تعمل على تحرير العراق باسم الجمعية الوطنية الإسلامية كان من بين العاملين

فيها بعض شيوخ ورؤساء ذي قار عرفنا منهم طليفح الحسون[47] وأوردت المصادر نماذج لرسائل متبادلة بين زعماء وشيوخ ذي قار وقادة الثورة في الفرات الأوسط وبغداد والتي دعا فيها قواد الثورة العشائر إلى التكاتف والاتحاد والعمل من اجل الثورة[48]. وكان رسل الثورة يترددون إلى الشيخ خيون العبيد الذي كلن يعدهم بالخير ويظهر في أقواله انه مستعد للقيام بالعمل لكنه انشغل بقضايا عشائرية حالت بينه وبين العمل مع الثوار[49] مع انه شارك في بعض الاجتماعات التي عقدها الوطنيون في النجف[50] واسهم في حركة توقيع المضابط كما مر بنا سابقا.

كان أول من انتفض على البريطانيين في ذي قار الشيخ بدر الرميض شيخ بني مالك من ناحية البو صالح الذي قاد انتفاضة مسلحة ضدهم سنة 1919. فعمدت السلطات البريطانية في أول الأمر إلى إخضاعه بالقوة بل فكرت في اغتياله، لكنها حين رأت العشائر تتأهب للانضمام إليه اضطرت لكسبه سلميا خشية اتساع انتفاضته[51] وكان هذا هو السبب الذي دفع القائد العام للقوات البريطانية في العراق إلى القول "إن الحكم البريطاني إن اشتد وتزمت في مكان ما أسفر عن قيام تحالف عشائري فيه ضدنا". ثم تابع القول"إن عشائر المنتفك ظلت كسيف مصلت على راسي في إصباحي وإمسائي مطبقا كابوسه على نفسي أسابيع عدة "[52].

ثم أخذت الأمور تتطور بسرعة نحو الثورة ففي سنة 1920 قام السيد عبد المهدي حسن بزيارة النجف وكربلاء ومدن الفرات الأوسط وبغداد واطلع على نشاط الوطنيين هناك . وأجرى اتصالات مع قادة الحركة الوطنية ببغداد وقيل انه انتسب إلى (حرس الاستقلال) وقدم الدعم المادي للوطنيين[53] الذين اقترحوا عليه العودة إلى ذي قار والعمل على توسيع الحركة الوطنية وحث العشائر على الثورة 0فعاد إليها وشرع بالاتصال بشيوخ العشائر ورؤساء الناصرية والشطرة وسوق الشيوخ وقلعة سكروياخذ موافقتهم على الثورة فيقسمون على مواصلتها حتى يتحقق الاستقلال التام للعراق[54]. وكان ممن عمل في هذا الاتجاه الشيخ كاصد آل ناهي رئيس حجام وعبد الكريم ألسبتي وعبد الحسين مطر من الناصرية وخيون العبيد شيخ العبودة والشيخ موحان الخير الله رئيس آل حميد ومحمد الحاج شلال ومزعل الحميدة من رؤساء بني ركاب والشيخ محمد حسن حيدر من سوق الشيوخ وآل الطحان وآل السيد عبد المهدي وآل الشعرباف والشيخ محمود في الشطرة والشيخ حسن دخيل في قلعة سكر وغيرهم كثيرون0 فتعاقدوا بأغلظ الإيمان وأعظم المواثيق على أن يشد بعضهم أزر البعض وان يعملوا يدا واحدة في قيادة العشائر وتوجيهها نحو الثورة . وسرعان ما بدأت المواجهة بينهم وبين سلطات الاحتلال فانقطع الناس عن مراجعة الدوائر الحكومية وانزوى الحكام السياسيون في بيوتهم خوفا[55].

بعد أن امتدت الثورة إلى إنحاء العراق هبت عشائر ذي قار لمشاركة إخوانهم في المناطق الأخرى فحملوا السلاح وحاصروا المدن الرئيسة والحاميات البريطانية فيها. وشعر معاون الحاكم السياسي في قلعة سكر كراوفورد بخطورة الموقف بعد أن أحاطت العشائر بالمدينة فأراد أن يخفف من نشاط الوطنيين لكن الثوار اخذوا يترصدونه وكمن له ستة منهم وأطلقوا النار عليه لكنهم لم يتمكنوا من قتله بل قتلوا جوادين له. عندئذ طلب إلى الحاكم المدني العام في بغداد أن يرسل له بعض الطائرات لإرهاب العشائر فأمره الأخير بإخلاء المدينة والانسحاب إلى الناصرية فغادرها جوا يوم 12 آب[56] ثم هاجم الثوار دار الحكومة ودار معاون الحاكم السياسي واستولوا على ما فيها وجردوا الشبانة من سلاحهم وانزلوا العلم البريطاني وقطعوا أسلاك التلغراف. وفي اثر ذلك اجتمع لفيف من الزعماء والرؤساء في موضع يقال له ألمصيفي في جوار المدينة ووقعوا ميثاقا يتضمن:

1- المطالبة باستقلال العراق استقلالا تاما وانتخاب الأمير عبد الله بن الحسين ملكاعليهم.

2- المحافظة على المؤسسات الحكومية المفيدة.
3- إتباع ما يأمر به العلماء ورجال الدين.
4- تتعهد كل عشيرة بالمحافظة على الطريق الذي يخترق أراضيها وتضمن سلامة أرواح وأموال المسافرين عليها.
5- تأليف هيأة محلية في كل مدينة يحررها الثوار مهمتها المحافظة على الأمن والسهر على أرواح السكان.

كان ممن وقع على الميثاق كل من موحان الخير الله ومحمد الحاج شلال والسيد دخيل فياض والسيد عبد المهدي حسن وإبراهيم اليوسف وخيون العبيد وصكبان العلي وسلمان الشريف ومزعل الحميدة وعدد من رؤساء الشويلات والقراغول وبني سعيد وغيرهم0 وما أن انتهى الرؤساء من توقيع الميثاق حتى توجه مئتان من الفرسان المدججين بالسلاح إلى الشطرة محاولين تجريد الشبانة من سلاحهم والمدينة من حاكميتها وإنزال العلم البريطاني منها[57]. وهكذا بدأ التحرك العسكري نحو الشطرة لتحريرها وكان السيد عبد المهدي والشيخ موحان الخير الله الروح المحركة للثورة وقد نجحا في الحصول على تأييد مشفوع بحلف اليمين من عشائر قلعة سكر بالزحف على المدينة[58].

وسرت بين إفراد العشائر حركة واسعة للحصول على السلاح وبلغ التوتر ذروته في 25 آب عندما وصل الشطرة ممثل من قيادة الثورة في النجف بعد جولة قام بها على ضفاف الغراف لتحريض العشائر فهبت المدينة لاستقباله واستطاع بعض خيالة الثوار دخول المدينة وجردوا الشبانة من السلاح، فارتاع معاون الحاكم السياسي النقيب برترام توماس[59] وفقد كل سلطة لديه وصار أشبه بالأسير في داره. ولما علم الحاكم المدني العام أرسل أليه طائرتان لإرهاب العشائر وإخلاء المدينة من البريطانيين. فاستغل توماس وقائد الشبانة إحدى الطائرتين وانسحبا إلى الناصرية يوم 27 آب واستولت العشائر على دار الحكومة وانزلوا العلم البريطاني واستولوا على ما في داري معاون الحاكم السياسي وقائد الشبانة[60]. وجرى تشكيل مجالس محليه وعشائرية من الشيوخ في المناطق المحررة لتولي زمام الأمور وجمع الرسوم والضرائب وإدارة المرافق العامة[61].

وسيطرت العشائر على الرفاعي واظهر الثوار حماسا كبيرا من اجل تحرير الناصرية فتجمعت العشائر من المناطق الأخرى وكان لممثل الثوار في النجف دور فاعل في استنهاض الهمم فتجمعت حوله خفاجة وآل ازيرج وأهل الشطرة والقرى المحيطة بها وعسكر بهم في البطحاء وتبعهم جمهور غفير من البو سعيد وبني زيد والتحق بهم أيضا عبد الحسين مطر الذي كان يتقدم صفوف الثوار وشرعوا بمهاجمة الناصرية[62].

في ذلك الوقت كانت الثورة قد سرت إلى إنحاء أخرى من ذي قار، فبعد أن علم زعماء ورؤساء سوق الشيوخ باندلاع الثورة ووصلتهم كتب قادتها من الفرات الأوسط نظموا مضبطة تعاهدوا فيها على العمل في سبيل تحرير العراق واستقلاله و"مشاركة الوطنيين في جميع إعمالهم ومساعيهم"[63].

وأحاطت العشائر بالمدينة وأعلنوا الثورة وكانت عشائر سوق الشيوخ من اشد العشائر كرها للبريطانيين بسبب معاملتهم السيئة لهم وقطعهم المياه عن أراضيهم ولذلك ظلوا يشنون الهجمات على السفن ويقطعون أسلاك التلغراف وخطوط السكك ويهاجمون مقرات البريطانيين0 وبعد أن فرضوا الحصار على المدينة اخذ إفراد الشبانة يفرون منها واحدا بعد الآخر ولم يبق منهم فيها في بداية أيلول إلا القليل وتعذر السيطرة على الوضع بعد أن بدأ المهاجمون يتبادلون إطلاق النار[64] مع الحامية البريطانية .

عندها اضطر معاون الحاكم السياسي النقيب بلاتس إلى الانسحاب مع بقية البريطانيين إلى الناصرية في الأول من أيلول في مركب دفاعي كان راسيا هناك. وقد أطلقت النار عليه وهو في مركبه لكنه نجا من الموت وتسلم الثوار إدارة المدينة بعد أن استولوا على السراي وما فيها ورفعوا العلم العربي بدلا من العلم

البريطاني وكونوا حرسا محليا لحفظ الأمن مثلما فعلوا في قلعة سكر والشطرة . وبذلك صارت المنطقة الممتدة من الحي إلى خط السكة الحديد الذي يصل أور وحتى هور الحمار تحت سيطرة العشائر[65].

ولمنع الاتصال بين البريطانيين الذين تجمعوا في الناصرية والمناطق الأخرى تم قطع السكة الحديد جنوبي مفرق أور في 18 آب وقطع مرة أخرى في الثاني من ايلول0 وتم الاستيلاء على المعاقل الواقعة على خط فرع الناصرية- أور وتهديد الطريق النهري أيضا حين شرع الثوار بإقامة سد جنوبي سوق الشيوخ[66] ولم يتمكن البريطانيون من اتخاذ إجراءات لمعالجة الموقف. وفي الرابع من أيلول أقلعت باخرتان كانتا راسيتان في الناصرية في طريقها إلى البصرة للإفادة منها في دجلة بعد أن توقفت الحركات في الفرات، فأطلقت النيران عليها جنوبي سوق الشيوخ واستمر تبادل إطلاق النار بينها وبين الثوار ساعة ونصف قتل خلالها 12 بريطانيا بينهم ضابط. واغرق الثوار مركبا لسد مجرى النهر ألا إن وصول بواخر أخرى مكن الباخرتين من الخروج من بحيرة الحمار قبل أن يستولي الثوار عليهما[67]. ثم جرد الثوار قوة تمثل سوق الشيوخ والعشائر المحيطة بها يرأسها الشيخ كاصد رئيس حجام وعسكر بها في جبهة الناصرية للاشتراك مع ثوار ذي قار المحاصرين للناصرية[68] التي تجمعت فيها الحاميات التي انسحبت من المدن التي تم تحريرها وتم تشديد الحصار عليها.

من وجهة نظر السلطات البريطانية كانت السيطرة على الناصرية تؤمن السيطرة على عشائر ذي قار جميعا وان إنقاذها من الحصار المفروض عليها يتطلب قوات كثيرة لا قبل لهم بتوفيرها في ذلك الوقت. لذلك عمدوا إلى تحصين الموقع وتقويته بالقوات التي انسحبت إليها من أنحاء اللواء وإقامة الوسائل الدفاعية التي تؤمن استمرار الاتصال بينها وبين القاعدة في البصرة بواسطة السكة الحديد والطريق النهري. فشرعت بتشييد المعاقل على طول السكة الحديد ابتداء من أور حتى السماوة ثم جرى تعزيز الحامية بوحدات جديدة[69] وصل بعضها توا من الهند. والواقع إن سقوط الناصرية بيد الثوار بات وشيكا حتى أن القيادة البريطانية فكرت جديا بإخلائها وصدرت الأوامر بذلك تحت الضغط العشائري المسلط عليها . ففي الثاني من أيلول ابرق الحاكم المدني لحكومته قائلا "إن القائد البريطاني ينوي إخلاء الناصرية حالما يتمكن من نشر مفرزته وسوف يركز كل قواته على دجلة"[70].

أما القوات العشائرية فقد واصلت حصارها للمدينة مدة أربعة أشهر فكانت الجموع تغير على مقرات البريطانيين وتلحق بها الأضرار الفادحة. وكانت العشائر والقرى في المنطقة تقدم لهم الطعام والمأوى. لكنهم كانوا يعانون في إثناء النهار من غارات الطائرات التي كانت تشل حركتهم وقد استشهد الكثير منهم من جراء القصف الشديد0 وفي غضون ذلك خرج من الناصرية رتل قوامه 1500 جندي وما كاد يصل البطحاء حتى أحاط به الثوار وقطعوا خط رجعته ثم التحموا معه في معركة دامت 24 ساعة غنم الثوار خلالها الكثير من العتاد والسلاح[71].

وفي الثالث من تشرين الأول قام برسي كوكس المندوب السامي البريطاني الذي عاد إلى العراق توا بزيارة الناصرية لغرض إعادة الثقة للقوات البريطانية المحاصرة فيها[72]. ثم بدأت القوات البريطانية في أواخر تشرين الأول وبداية تشرين الثاني تؤيدها وحدات جلبت من المناطق التي انتهى فيها القتال ووحدات جلبت من الهند بتنفيذ عمليات عسكرية واسعة النطاق لضرب الثورة. وبدأت الحشود العسكرية في الناصرية وأور عملياتها في ضواحي المدينتين تساندها الطائرات والقوات السريعة[73]. وبعد السيطرة على السماوة في منتصف تشرين الأول سيرت الإدارة البريطانية رتلين على ذي قار سار احدهما من الكوت إلى قلعة سكر والأخر من الناصرية إلى الشطرة والتقيا في الرفاعي وتمكن الرتلان من إعادة احتلال الغراف[74]. ثم سار رتل آخر إلى سوق الشيوخ في

بدايـة شـباط 1921 فـتم إخضـاعها وبـاحتلال سـوق الشيوخ انتهت الثورة في العراق. وفي ذلك يقول هالدن قائـد القـوات البريطانيـة فـي العـراق "ختمـت زيـارة قطعاتنـا لسوق الشيوخ الحركـات المعاديـة جميعـا ولـم تطلـق بعـدها علـى مـا اعلـم أيـة أطلاقـة غضـبى مـن الجانبين"(75).

الهوامش والمصادر

1. المـس بيـل، فصـول مـن تـاريخ العـراق القريـب، ترجمة جعفر خياط بغداد 1974 ص4، 79 .
2. المصدر نفسه ص 12- 14 الحاشية .
3. المصدر نفسه ص7- 8 .
4. محمـد طـاهر العمـري الموصـلي، تـاريخ مقـدرات العراق السياسية، بغداد 1925 104/1-105.
5. عبـد الله الفيـاض،الثورة العراقيـة الكبـرى سـنة 1920، بغداد 1963 ص 112.
6. المس بيل ، المصدر السابق ص 10-11.
7. عبد الشهيد الياسري، البطولة في ثورة العشرين، النجف 1966 ص 75.
8. المس بيل ، المصدر السابق ص 14 هامش .
9. الفياض ،المصدر السابق ص112 .
10. آ0ت ويلسـون، بـلاد مـابين النهـرين بـين ولاءيـن، ترجمـة فـؤاد جميـل بغـداد 1991 91/1 ، تشـارلز اف ان طونزند ، محاربتي في العراق، ترجمة عبد المسيح وزير ، بغداد 1923 ص 49
11. فريـق المزهـر آل فرعـون، الحقـائق الناصـعة فـي الثورة العراقية 1920 ، بغداد 1952ص 40 .
12. المـس بيـل المصـدر السـابق ص 15؛ ويلسـون ، المصدر السابق68/1 .
13. المصدر نفسه ص 11-12؛ المصدر نفسـه 62/1-63.
14. طونزند، المصدر السابق ص 47 .
15. ويلسون ، المصدر السابق ص 125 .
16. المصدر نفسه ص 129، 136 .
17. المس بيل، المصدر السابق ص 16 .
18. فراتـي ، علـى هـامش الثـورة العراقيـة الكبـرى ، بغداد ص 27،22نص خطاب خيون العبيد ز
19. ويلسون ، المصدر السابق 130/1- 131 .
20. المس بيل ، المصدر السابق ص 69 .
21. ويلسن، المصدر السابق 139/2 .
22. المصدر نفسه 109/2 .
23. المس بيل ، المصدر السابق ص 323،78 .
24. ويلسون ، المصدر السابق 2/ 290 .
25. المس بيل، المصدر السابق ص 59 .
26. المصدر نفسـه ص77، 243 ؛ ويلسون، المصدر السابق 139/1 .
27. ل0ن0كوتلوف، ثـورة العشـرين الوطنيـة التحرريـة ترجمة عبد الواحد كرم بيروت 1975 ص 75 .
28. شـاكر مصـطفى سـليم، الجبـايش ، بغـداد 1956 214/1، 233 .
29. Bertram Thomas Alarms and Excursions in Arabia ,London 1931 p25
30. ويلسون، المصدر السابق 333/2 .
31. المصدر نفسه 138/2
32. فراتي ، المصدر السابق ص 22- 23 .
33. المـر هولـدين، ثـورة العـراق1920 ترجمـة فـؤاد جميل بغداد 1965 ص 288
34. Thomas,op.cit p 79
35. F.J Moberly,T he Compaign in Mesopotamia London 1924 vol.11,p 296-301,
36. IBID p 301
37. المس بيل ، المصدر السابق ص 80-85 0
38. ستيفن هيمسلي لونكريك، العراق الحديث 1900-1950 ترجمة سليم طه التكريتي بغداد 1988 1/ 102، ويلسون ، المصدر السابق 63/1 .
39. ويلسون، المصدر السابق 110/2، 331 .

40. Civil Commissioner Office off Baghdad ,Administratave Report of the Muntafiq division for the year 1919 Baghdad 1919 Appendix 1X, M

41. المس بيل، المصدر السابق ص 77، 233 .

42. علي جودت الايوبي، ذكريات علي جودت 1900-1958 0بيروت 1967 ص135 .

43. محمد علي كمال الدين مذكرات السيد محمد علي كمال الدين ، بغداد 1986 ص30 .

44. وميض عمر نظمي، ثورة 1920، بغداد 1985 ص354 .

45. عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى ،بيروت 1982 ص 248 .

46. علي البازركان ،الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية بغداد 1991 ص 96 .

47. العمري الموصلي المصدر السابق 333/3- 344.

48. آل فرعون ، المصدر السابق 339/1-344 .

49. محمد مهدي البصير، تاريخ القضية العراقية، لندن 1990 ص 139 .

50. فراتي ، المصدر السابق ص 22 .

51. Thomas , op cit p.45-52

52. هولدين، المصدر السابق ص 142، 288.

53. البازركان ، المصدر السابق ص 194.

54. آل فرعون ، المصدر السابق ص 341، الحسني، المصدر السابق ص248.

55. الحسني ، الثورة العراقية ص248-249 0؛ فراتي ،المصدر السابق ص24، 28.

56. أرنلد ويلسون، الثورة العراقية، ترجمة جعفر خياط بغداد 1971 ص108. Th0mas 0p cit p102-104

57. الحسني، المصدر السابق ص 250، عبد الشهيد الياسري ، المصدر السابق ص 248 .

58. نظمي ، المصدر السابق ص 386 .

59. Th0mas, op cit p109-110

60. الحسني ، المصدر السابق ص 251، ويلسون الثورة العراقية ص 109 .

61. كوتلوف ، المصدر السابق ص 141 .

62. كاظم المظفر، ثورة العراق التحررية عام1920، النجف 1972 1/ 175، 220/2.

63. آل فرعون ، المصدر السابق ص 343 .

64. هولدين ، المصدر السابق ص 370 ؛الفياض ، المصدر السابق ص 307 .

65. الحسني ، المصدر السابق ص 253 .

66. هولدين ، المصدر السابق ص 370 .

67. كاظم المظفر ، المصدر السابق 138/2 ؛ الفياض ، المصدر السابق ص 308.

68. الحسني، المصدر السابق ص 253 .

69. هولدين المصدرالسابق ص 287 -293 .

70. نظمي، المصدر السابق ص 387 .

71. الفياض، المصدر السابق ص 305-307 .

72. فيليب ويلارد ايرلند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط بغداد 1949 ،ص 0 216

73. كوتلوف ، المصدر السابق ص 149 .

74. هولدين ، المصدر السابق ص 362 .

75. المصدر نفسه ص 372-373 .

الملاح أحمد بن ماجد والمستشرقون:
جرالد ر. تبيتز أنموذجاً

الأستاذ الدكتورة صباح إبراهيم الشيخلي
كلية المأمون الجامعة

توطئة:

تعود نشأة الكتابة في الأدب الملاحي العربي الإسلامي إلى العصر العباسي، ويحدد مولدها بالقرنين الثالث والرابع الهجري/ التاسع والعاشر الميلادي، حيث أشار بعض مؤلفي الأدب الجغرافي العربي (كالمسعودي والمقدسي) إلى وجود مدونات ملاحية يتدارسها الملاحون المبحرون في مياه المحيط الهندي للأسترشاد بها[1]. وقد ظهرت مثل هذه المرشدات الملاحية في بعض مراكز النشاط التجاري النشطة في الخليج العربي كسيراف وموانئ بلاد عمان[2]. ومع الأسف لم تصلنا مثل هذه المدونات ولكننا عرفنا أسماء بعضاً من أشهر مؤلفيها، كان الملاح ابن ماجد قد اطلع عليها واهتم بها وهم: محمد بن شاذان، وسهل بن أبان، والليث بن كهلان[3]، وبهذا يمكن القول ان المرشدات الملاحية المبكرة التي دونت في العصر العباسي كانت معروفة حتى القرن 9هـ/15م.

اما ما وصلنا من الأدب الملاحي العربي الإسلامي اليوم، فيعود إلى القرنين 9و 10هـ/15 و 16م، وهي مؤلفات الملاح أحمد بن ماجد وسليمان المهري، التي يعود الفضل اليهما في معرفتنا التفصيلية والدقيقة على فن الملاحة عن العرب المسلمين، والذي يهمنا في ورقتنا هذه الملاح أحمد بن ماجد.

-1- لا نجد صعوبة في التعريف بالملاح أحمد بن ماجد؛ ففي مؤلفاته يعرفنا بأصله ونسبه وثقافته ونتاجه العلمي الملاحي. فهو شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي أبي الركائب النجدي[4]. فهو سليك أسرة نجدية، وكان مولده مدينة جلفار في عمان (في رأس الخيمة الآن). اما تاريخ ميلاد ووفاته فهو غير معروف لنا بالتحديد، ولكننا نعرف أنه عاش في النصف الثاني من القرن 9هـ/15م.

ينحدر ابن ماجد من أسرة ربابنة، فقد كان جده ملاحاً مشهوراً وكذلك والده الذي يسمى (بربان البرين)، وكان واحداً من مؤلفي المرشدات الملاحية أيضاً[5]. نشأ الملاح أحمد وترعرع في بيئة بحرية، فأعطته هذه النشأة خبرة كبيرة، ودفعته إلى امتهان الملاحة. والذي يهمنا من أحمد بن ماجد، هو ان صيته ذاع ليس كملاح محنك فقط، بل ككاتب كثير الانتاج. فقد ألف في الملاحة البحرية ما يربو على الأربعين مؤلفاً شعراً ونثراً[6].

نالت مؤلفات الملاح أحمد بن ماجد اهتمام بعض الملاحين والمؤرخين بعد وفاته. ففي القرن 10هـ/16م نجد الملاح سيمان المهري يكتب نثراً مؤلفات ابن ماجد الشعرية، وترجم المؤرخ أمير البحر علي بن الحسين ما نشره المهري، والبعض القليل من مؤلفات ابن ماجد الملاحية إلى اللغة التركية[7]. وظلت مؤلفات ابن ماجد في طي النسيان بعد ذلك ولمدة قرنين من الزمان، ليبدأ الكتاب من المستشرقين والعرب من بعدهم بالعناية بمؤلفات ملاحنا ابن ماجد.

-2- ففي سنة 1497م سطا الملاح البرتغالي فاسكودوا غاما على أحد السفن العربية في مياه المحيط الهندي، واستولى على مخطوطات ملاحية عربية كانت فيها،

بعثها إلى الملك البرتغالي مانويل. ان هذه المخطوطات لم تكن الا نسخة من تأليف الملاح أحمد بن ماجد، على ما يبدو، لأنها كانت الإرشادات الملاحية الوحيدة المتوفرة والمتداوة بين الملاحين في القرن 9هـ/15م. ومنذ ذلك الوقت بدأ المهتمون من الأوربيين بدراسة علم الملاحة المدون. ففي سنة 1574م نشر لوليام بورن كتاباً يحمل عنوان " قواعد البحر"، ولم يكن هذا الكتاب الا نسخة من تعاليم وارشادات وأفكار الملاح أحمد بن ماجد، وقام إبراهيم خوري بالمقارنة بين مؤلف بورن وكتابات أحمد بن ماجد فدهش للتطابق التام في الأفكار والترتيب بينهما[8]. وهكذا نقل البرتغاليون إلى لغتهم مبادئ الملاحة العربية في المحيط الهندي، كما جاءت عند ابن ماجد، لتنقل بعد ذلك إلى لغات أوربية أخرى، ومن دون الاشارة إلى الملاح ابن ماجد.

بمرور الزمن كان لا بد من ان تنكشف الحقيقة، فكان ذلك بظهور جملة من المستشرقين تناولوا أعمال الملاح أحمد بن ماجد بالدراسة والتحليل والاستنتاج، فرنسيون وإنكليز وروس وبرتغاليون[9]. والذي يهمنا في ورقتنا هذه هو المستشرق الإنكليزي جيرالد ر. تبيتز الذي كرس جهده ووقته لدراسة مؤلفات ملاحنا الشهير.

إنكب المستشرق تيبتز على دراسة النصوص الملاحية العربية الإسلامية، وبذل في فهمها جهده ومقدرته، وتوفرت له ظروفاً مثلى في إنكلترا وعلاقاتٍ طيبة في باريس ودمشق والمانيا الغربية. كما ساعده في ذلك مهنته كأمين مكتبة في عدد من مكتبات العالم، واختصاصه كجغرافي أيضاً. نشر تبيتز نتاجاته عن الملاحة العربية ما بين سنة 1956 إلى سنة 1971م، في المجلات الجغرافية الشهيرة وفي جمعيات معروفة. نذكر منها:

1- شبه جزيرة ماليزية كما عرفها الجغرافيون العرب (مقالة).
2- الملاحة العربية في البحر الأحمر (مقالة).
3- نظرية العرب الملاحية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.
4- أسماء النجوم عند الملاحين وكتاب أسماء الكواكب لبول كونتز (مقالة).
5- كتاب الملاحة العربية في بحر الهند قبل مجيء البرتغاليين.

والكتاب الأخير من مؤلفات تبيتز هو محط اهتمامنا في ورقتنا هذه كونه يمثل ترجمة ودراسة أحدى أعمال الملاح أحمد بن ماجد النثرية، والمعروف بـ "كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد والفصول"، وضمنه تبيتز مدخلاً عن تاريخ الملاحة العربية، وحواشي عن التقنيات الملاحية وعن طوبوغرافية بحر الهند ومعجم المصطلحات الملاحية (طبع في لندن 1971)[10].

لقد بدأ تبيتز كتابة بمقدمة ذكر فيها بواعث تدوينه لمؤلفه هذا، ذاكراً ان دراسته سوف تسد فراغاً فكرياً ملاحياً لم يستطع أحد قبله أن يملأه. وقد عد كتاب الملاح ابن ماجد "الفوائد" مصنفاً أساسياً لدراسة الفن الملاحي ومعرفة علم الملاحة في المحيط الهندي، فاندفع بترجم هذا الكتاب، ويعلق عليه ويشرحه.
بذل تبيتز جهوداً مضنياً وطويلاً في ترجمة "الفوائد"، فقد قضى هذا المستشرق فيه خمسة عشر عاماً تقريباً يترجم ويفهم مؤلف ابن ماجد، حتى شعر، كما يقول، بعد انقضاء هذه الفترة الزمنية بأنه أصبح في موضع يمكنه من عرض نتائج ما بذله من جهد، وأنه أصبح قادراً على التفسير الصحيح والملائم للمناهج المتبعة عند معالمة بحر الهند الضليعين في العلم والأدب دون سواهم[11].

ولعل أهم ما رغبنا في توضيحه ، في ورقتنا هذه، هي ترجمة ودراسة تبيتز لكتاب ابن ماجد "الفوائد":

- لقد سمى تبيتز كتاب "الفوائد" بـ "الكتاب العظيم" وعده أعظم انجاز ملاحي، وأنه موسوعة ملاحية وضعت ليفيد منها معالمة البحر[12].

لكن تبيتز ذهب إلى ان كتاب "الفوائد" في منهجيته لا يحتوي على وحدة الموضوع فهو مفكك، ومن دراسته له توصل إلى انه ربما كان في الأصل كتابين مستقلين، أو أكثر، دمجا فأصبحا كتاباً واحداً[13]. وهنا يحاول إبراهيم خوري (المهتم بمؤلفات ابن ماجد) إذ يناقش تبيتز في رأيه هذا قائلاً: انه من المحتمل ان ابن ماجد كان قد حرر كتاباً أطول من "الفوائد" وأسهب فيه، ثم عاد فلخصه كثيراً ليصبح صالحاً للنشر؛ أو ان ابن ماجد جمع مادة وفيرة، لخص منها ما لخص في كتابه هذا[14]. ويمكننا ان نضيف نحن هنا ما كان ابن ماجد يَذَّكر به القارئ دائماً بكتابه "الفوائد"، أنه دون موضوعاته باختصار وانه تجنب التفصيل خوفاً من الاطالة[15].

اما التفكك الذي قال به تبيتز في وصف منهجية كتاب "الفوائد" فكان عن طريق مقارنته بمؤلف آخر لابن ماجد وهو "حاوية الاختصار"، حيث وجد في الفوائد نقصاً في موضوعات معينة[16]. وكان على تبيتز ان يتذكر أن ملاحنا، ربما أراد عدم تكرار المعلومات التي دونها سابقاً في مؤلفاته الأخرى، خصوصاً وانه جعل من كتابه الفوائد مختصراً لتجاربه الملاحية، "وتوضيحاً لركاب البحر ورؤسائه ما اشتبه من الحاوية والاراجيز وغيرها [مؤلفات ابن ماجد الأخرى][17]. وهكذا كان على تبيتز ان يعرف ما قاله ابن ماجد ان "الفوائد" عبارة عن موضوعات منتقاة وليس جميع ما لدى مؤلفنا عن فن الملاحة.

يتكون كتاب "الفوائد" من اثني عشر فصلاً سما ابن ماجد كل فصل باسم "الفائدة"، وهذا ما أثار تبيتز، فأخذ المعنى اللغوي للفائدة (وهو الأشياء المفيدة)، فلماذا النقص والتفكك في فوائد ابن ماجد أذن؟ وقد حيّر هذا الموضوع تبيتز؟ وهنا نقول ما قاله إبراهيم خوري[18]، من ان ابن ماجد أكد على الاختصار في تدوينه للفوائد. واضعاً أمامه ما يحتاجه معالمة البحر من أساسيات، وهذا ما دونه في خاتمة كتابه كما أسلفنا. كما يمكن ان نعزو اشتباك الفهم عند تبيتز إلى الأخطاء الموجودة في ترجمته لكتاب "الفوائد"، وهي لم تكن قليلة وقد احصاها إبراهيم خوري[19].

- وأخيراً أرتأينا ان نقف على رأي تبيتز بالفائدة الثانية عشر والأخيرة من فوائد ابن ماجد، والتي خصصها للملاحة في البحر الأحمر. يبدأ ابن ماجد هذه الفائدة بمقدمة صغيرة جداً يوضح فيها أهمية كتابتها ومنهجيته في تدوينها قائلاً: " اعلم وفقك الله تعالى وارشدك، إنا ادخلنا في هذا المختصر من كل شيء أليقه واحسنه وما يليق ذكره، ولا يطيق غيرنا ذكره، ولم يذكره كتاب سوى هذا، ولم نذكر شيئاً من قلزم العرب، فيجب علينا ان نذكره، لأن فيه نوادر وحكماً لا يذكرها الا من جربها، لأن على طريق الحجاز "[20].

لقد استنتج تبيتز من هذه المقدمة ان هذه الفائدة، عملاً ملحقاً أو عملاً منفرداً، اضيف إلى بقية الفوائد (الاحدى عشر الأخرى) ويسند رأيه بالقول ان الفائدة الثانية عشرة تبدأ بالوعظ الديني[21] ولا اخاله صائباً في قوله هذا، فمثل هذه العبارات الدينية، يستخدمها الكثير من المؤلفين المسلمين عادة في بداية كتاباتهم تبركاً وتيمناً، وقد استخدمها ابن ماجد في الفائدة الثامنة أيضاً[22]. كما كان من الأجدر بتبيتز ان يوجه اهتمامه إلى توضيح منهج ابن ماجد الذي أقره لهذه الفائدة، وهو تبنيه لمنهج الاختصار في كتابه "الفوائد" لم يمنعه بأن يذكر معلومات عن بحر القلزم (الأحمر) لم يذكرها في مؤلفاته السابقة، وان ابن ماجد كان مصراً على ذكرها لفائدتها ولأنها نتيجة تجربته في مياه هذا البحر والتي استمرت لمدى أربعين عاماً اضافها إلى تجارب جده ووالده التي اختبرها في مياه هذا البحر، وهكذا وبهذه التجارب جميعها وصل إلى مرحلة "الحكم في شؤون البحر"[23]. كل ذلك لم ينل اهتمام مستشرقاً أبداً.

كما يرى تبيتز أن "الفائدة الثانية عشر" هي ليست من أصل الكتاب، على ما يبدو، وأنها اضيفت

إليـه، وسـبب ذلـك عنـده، هـو مـا دونـه ابـن ماجـد فـي "الفائدة السابعة" من كتاب الفوائد، والتي قال فيها انـه سـوف لـن يستمر فـي التعامل مـع البحـر الأحمـر، وأنـه أعطى أسباباً عامـة عن ذلـك[24]. ومن أجل الرد علـى تبيتز نسجل ما قاله ابن ماجد في الفائدة السابعة والتي خصصها لقياسات العرب في بحرهم وجاء فيها:

أن قياسـات العـرب مـن بحـرهم لـيس فيهـا خـلاف، أمـا قياسـات بحـر القلـزم فلـم يجربهـا غيـره، وانـه سـوف لـن يـذكرها "خـوف ان يقـع عليهـا السـفهاء يجـادلون بهـا العلمـاء، فيسيرون فـي معرفـة القياسـات فـي هـذا البحـر وجزره فتركناها، كي لا يدركها الا من أكثر السفر فيـه" [25]. وهذا رد كـافٍ علـى مـا قالـه تبيتـز وان سـبب تـرك القياسات ليس عاماً. ويستمر ابن ماجد الكلام عن علل القياسات في القلزم ومفسداتها ليؤكد "خطورة استخدام هذه القياسات من قبل الجهلـة"[26]. وفـي هذا تأكيد أن ابن ماجد لم يهمل الكتابـة عن الملاحـة فـي بحـر القلـزم، بل ترك ذكر القياسات فقط، وهذا ما لم ينتبه إليه تبيتز.

ويعـود تبيتـز إلـى الحـديث عـن الفائـدة الثانيـة عشـر، محـاولاً وصـف محتوياتهـا قـائلاً: انهـا تحتـوي بشـكل رئيس على وصف الجزر الموجودة في البحر الأحمر، مـا بـين سـواحل جدّة وبـاب المنـدب مـع أوصـاف قليلـة للطـرق بينهـا والتـي تتوسط هـذا البحـر. ثـم يـتكلم عـن قائمـة الطرق فيـه والمخـاطر التـي تجابـه المبحـرين فـي مياهه، فجاء وصفه مختصراً لمحتويات هذه الفائدة، بل انـه أغفـل معلومـات أخـرى تحتويهـا هـذه الفائـدة، وهـي معلومات تخص تاريخ الملاحة في البحر الأحمر، وهذه المعلومـات بالغـة الأهميـة تخـص الاحـداث التـي تتعلـق بمجرى التغير التجاري في هذا البحر في القرن التاسع الهجري/ الخـامس عشر الميلادي والتـي قمنـا بتدوينها ببحث سابق وعملنا مقارنة بين مـا دونـه ابن ماجد ومـا دونــه المــؤرخ المقريـزي عـن هـذا التغيـر فـي مراكـز النشـاط التجـاري فـي هـذا البحـر مـا يتطلبـه مـن معـارف ملاحيـة خاصـة، والتـي عرفهـا المـلاح ابـن ماجـد بفعـل تجربتـه الطويلـة فـي الابحـار فـي ميـاه هـذا البحـر، وانـه كان أول المبحرين بالسفن التجارية فيـه إلـى ميناء جدة الـذي اسـتبدل بمينـاء عـدن كمركـز للنشـاط التجـاري العالمي[27].

وأخير نقول، أننا لا نريد الانتقاص من جهد المستشـرق الإنكليـزي تبيتـز الكبيـر وعملـه الشـاق والطويل في ترجمة كتاب "الفوائد" لابن ماجد، ولا ما قام به من تعليق وشرح، فكل الشكر لـه، وستبقى آراءه فـي كتـاب ابـن ماجـد "الفوائـد" محـل اهتمـام البـاحثين المهتمين بدراسة الملاحة العربية الإسلامية في المحيط الهندي في عصور الازدهار الإسلامي.

الهوامش:

1) المقدسي، أحسن التقاسيم فـي معرفـة الأقـاليم (ليـــــدن: بريـــــل، 1906) ص10-12؛ المسـعودي، أبـو الحسـن علـى بـن الحسـين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محـي الـدين عبـد الحميـد، ط3(القـاهرة، 1958)، ج1، ص281-283.
2) ينظـــر: كراتشكوفســـكي، اغنـــاطوس يوليـانوفتس، تـاريخ الأدب الجغرافـي العربـي، ترجمـة: صـلاح الـدين عثمـان هاشـم، ط2، (بيـــروت، دار الغـــرب العربـــي) 1987، ص613.
3) أحمد بن ماجد، كتـاب الفوائـد فـي أصـول علـم البحـر والقواعـد والفصـول، تحقيـق إبـراهيم خـوري، منشـورات مركـز الدراسـات والوثـائق في الديوان الأميري برأس الخيمـة، (دمشق، مطبعة الاندلس ، 1989)، ص24-26.
4) أحمد بن ماجد، الفوائد ، ص23.
5) المصـدر نفسـه، ص236؛ أنـور عبـد الحلـيم، ابن ماجد الملاح(القاهرة، 1967، ص13.
6) إبـراهيم خـوري، أحمـد بـن ماجـد، منشـورات مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري

بـرأس الخيمــة، (دمشـق، مطبعـة الأنـدلس، 1989)، ص72-73.

7) المرجع نفسه، ص55.

8) المرجع نفسه ، ص 97-113- 114.

9) من أشهر المستشرقين الذين اهتموا بمؤلفات الملاح ابن ماجد نذكر من الفرنسيين، هنري غروسيه غرانج، غيريبل فران، ليوبولد دي سوسور.

من الانكليز: جيمس برنسب، جيرالد تيبتز.

من الروس: كرانشوفسكي، وشوموفسكي

مــن البرتغــاليين: جيوتشوفســكي، تكســيرا داموتا، ليوينو برادس

(ينظـر: إبـراهيم خـوري، أحمـد بـن ماجـد، ص113-209).

10) المرجع نفسه، ص148.

11) Tibbetts, G.R., Arab Navigation in the Indian Ocaan before the coming of the Portuguese, (London, 1971), P.8, 27-29.

12) Ibid., P.27-23.

13) Ibid, P.37.

14) احمد بن ماجد، ص150.

15) احمد بن ماجد، الفوائد، ص235.

16) Tibbetts , Op.cit., P.37.

17) الفوائد، ص20.

18) احمد بن ماجد، ص153.

19) المصــدر نفســه، وجـد إبـراهيم خـوري فـي إحصائية شملت ترجمة 5 فوائد 175 خطأ أي بمعدل 7 أخطـا فـي كـل صـفحة. وقـد وضـع جدولاً بالأخطاء كاملاً (170-184).

20) أحمد بن ماجد، الفوائد، ص235.

21) Tibbetts , Op.cit., P.35.

22) أحمد بن ماجد، الفوائد، ص171.

23) المصدر نفسه، ص235-236.

24) Tibbetts , Op.cit., P.35.

25) الفوائد، ص168.

26) المصدر نفسه، ص169.

27) الشــيخلي، صــباح إبــراهيم، "مــا أغفلــه المستشــرقون مــن معلومــات تاريخيــة فــي مخلفات احمد بن ماجد: بحر القلزم انموذجاً: بحـث مقـدم إلـى نـدوة مركـز صـلاح الـدين للدراسات التاريخية والحضارية، 2009.

موقف بريطانيا من التوسع المصري في الخليج العربي (1811 – 1819)

الأستاذ الدكتور صادق ياسين الحلو
كلية الرشيد الجامعة -قسم التاريخ

الملخص:

أدى تطلع محمد علي باشا إلى انشاء دولة تمتد من مصر إلى بلاد الشام وصولا إلى سواحل الخليج العربي إلى ردة فعل أوربية مضادة على رأسها بريطانيا باعتبار أن ذلك يهدد طريق بريطانيا التجاري البحري إلى الهند.

حاولت بريطانيا أولا الاستعانة بالقوات المصرية في توسعها الأول لضرب قوة القواسم العربية البحرية ، وعندما فشلت لرفض محمد علي باشا لتلك الرؤية، عرضت رؤية ثانية تقوم على محاولة التنسيق بين بريطانيا و سلطان مسقط وبريطانيا لمهاجمة عاصمة القواسم رأس الخيمة ولم تنجح هذه المحاولة رغم إرسال الكابتن سادلير ولقائه إبراهيم باشا. وكان سبب ذلك يرجع إلى سياسة محمد علي التي تجنبت التورط في صراع محلي لصالح سياسة بريطانيا.

انتهى التوسع المصري الأول بانسحاب إبراهيم باشا من الجزيرة العربية في تموز من عام 1819 بتأثير وضغط من الدولة العثمانية وبريطانيا والتي لم تسمح لمحمد علي بالتوسع في سواحل الخليج العربي عدا الإحساء والقطيف غير أن ذلك لم ينه التوجه المصري للتوسع مرة أخرى نحو الخليج العربي و حصل ذلك بين 1833 – 1840.

وصل المصريون إلى ساحل الإحساء مرة ثانية عام 1839م، فأسرعت الحكومتان البريطانية وحكومة الهند وعملا بجهود دبلوماسية وعسكرية بحرية لمنع توسع محمد علي باشا في الساحل العماني والبحرين التي رأى محمد علي على أنها يمكن أن تكون قاعدة لتوسعه شرقا وغربا في منطقة الخليج العربي ويستفيد منها ولا سيما البحرين بتزويده بالمؤن الغذائية والأموال .

أدركت بريطانيا خطورة وقوع البحرين والساحل العماني تحت سيطرة محمد علي باشا لما يشكله من تهديد لمصالحها وسط تصاعد التنافس الدولي في هذه الحقبة للسيطرة على الخليج العربي والعراق .

كلفت بريطانيا قنصلها العام كامبل في مصر بتحذير محمد علي من التمدد نحو البحرين فكان رد محمد علي باشا أنه لم يفكر في ذلك رغم إرسال ابنه إبراهيم باشا المندوب عنه إلى شيخ البحرين و عقده اتفاقا مع شيخها عبدالله بن أحمد عام 1839 .

و لم تكتف بريطانيا بذلك بل أرسلت المقيم السياسي العام في الخليج العربي هنيل مع قائد البحرية البريطاني في الخليج العربي حيث قاموا بزيارة شيوخ الساحل العماني وسلطان مسقط ليقيما معه تعاون مع القوات المصرية في الخليج العربي وبذلك أفشلت بريطانيا محاولات محمد علي باشا التوسعية نحو الخليج العربي في محاولة ثانية والتي انتهت بانسحابه من الجزيرة العربية عام 1840 بضغط من بريطانيا والدول العثمانية.

بريطانيا والتوسع المصري الأول (1811 – 1819):

تطلع المصريون إلى سواحل الخليج العربي منذ بدء حملتهم الأولى عام 1811م في اول توسع تاريخي لهم نحو تحقيق طموحات محمد علي في اقامة دولة من مصر إلى بلاد الشام والجزيرة العربية.

اصطدمت الخطط المصرية لتحقيق هذا الهدف بالصراعات القائمة بين قوى عديدة محلية تمثلت بالعثمانيين والفرس و الاوربيين على رأسهم بريطانيا.

وسط تلك الصراعات كان على الادارة المصرية رسم سياستها على وفق توازن تلك القوى والعلاقات فيما بينها و اجبرتها على جعل قراراتها عسكرية[1].

مر التوسع المصري نحو الجزيرة العربية بمرحلتين امتدت الأولى من عام 1817م ،عندما بدأت العمليات الحربية فعليا بمهاجمة الحناكية والدرعية في نجد فنظرت بريطانيا اولا بريبة شديدة إلى التوسع المصري الأول بقيادة إبراهيم باشا في الجزيرة العربية و الذي انتهى بالقضاء على قوات ال سعود في الحجاز و نجد واستسلام الامير عبدالله وارساله اسيرا إلى القسطنطينية في 9 ايلول من عام 1818م وبعد ان دمرت القوات المصرية عاصمة ال سعود الدرعية فتقدمت نحو الاحساء[2]

عدت بريطانيا ذلك تهديدا لمصالحها في الخليج العربي و بخاصة في طريق مواصلاتها وتجارتها مع الهند حيث ان ذلك قد شكل المحور الاستراتيجي للسياسة البريطانية في الحفاظ على سلامته في العصور الحديثة حتى استقلال الهند عام 1947م.

و فضلا عن ذلك تجاذبت بريطانيا رؤويتان تجاه ذلك التوسع المصري الأول، رغم ان حكومة الهند نظرت بكثير من الريبة وعدم الارتياح إلى تدخل القوات المصرية في شؤون الخليج العربي[3] لكنها في القوت نفسه رأت في تدميرها لقوات ال سعود المؤيدين للقواسم صب لصالح بريطانيا التي كانت تتهيأ لضرب القواسم لهم و كما ان استمرار تقدم إبراهيم باشا المتواصل (ابن محمد علي باشا) بعد قضائه على سلطة الوهابيين في وسط الجزيرة العربية و وصول تلك القوات إلى شرق الجزيرة العربية سيسهل مهمة الحملة البريطانية المرتقبة ضد رأس الخيمة لان ذلك التقدم كفيل بأثارة الفزع بين القواسم[4]

اما الرؤيا الثانية لبريطانيا كانت محاولة حكومة بومبي اول الامر الاستعانة بقوات إبراهيم باشا في ضرب راس الخيمة ثم عدلت عن ذلك لتدخل طرفا للتنسيق بين إبراهيم باشا والسيد سعيد لعمل عسكري بري مشترك ضد رأس الخيمة وتوابعها على ان تقوم وحدة عسكرية من اسطول الشركة بالعمل البحري، بذلك يمكن لحكومة الهند ان تجني ارباح هذا العمل المشترك خاصة و ان التقارير التي ارسلت إلى بومبي اشارت إلى اعتزام إبراهيم باشا التقدم لضرب رأس الخيمة[5]، ولتنفيذ تلك الرؤيا السابقة ارسلت حكومة الهند الكابتن سادلير مبعوثا من بومبي في 14 نيسان من عام 1819م وهو يحمل خطابات موجهة إلى كل من السيد سعيد وإبراهيم باشا. وكان الهدف من بعثة سادلير تحقيق التنسيق السياسي والعسكري بين حكومة الهند و عمان وإبراهيم باشا وامكانية اسهامهم في الحلمة العسكرية التي تعدها بريطانيا لضرب القواسم كانت التعليمات الصادرة إلى سادلير هي، ان ينزل بمسقط و بعد ان يكشف للسلطان عن طبيعة مهمته مع إبراهيم باشا و يتفق معه بشأن مدى وحدود المساعدة عليه – أي السلطان – تقديمها للحملة يواصل السير إلى معسكر القائد المصري[6] تضمنت كذلك التعليمات الصادرة إلى سادلير بأن، يؤكد للقائد المصري انه بمجرد انتهاء موسم الرياح الحارة وامكان بدء العمليات من الهند فأن قوة بريطانية بحرية وعسكرية كافية سترسل للتعاون مع القوات المصرية في اخضاع مدينة رأس الخيمة

(عاصمة القواسم) وان هذه المدينة ستستسلم بعد اخضاعها لاحتلال قوة مصرية .

اشتملت الخطابات الرسمية لسادلير فضلا عن ذلك على: تهنئة القائد المصري بالانتصارات الباهرة التي احرزها وتم عرض عليه مخططا لقيام عملية من قوات انجلو مصرية مشتركة(7) .

لم تقتصر مهمة سالدير على السعي للاستفادة من القوات المصرية بريا لضرب قوة القواسم العربية بل صدرت تعليمات اخرى له بالتجسس على وضع القوات المصرية في الجزيرة العربية وموقفها وسط الجزيرة و ان يحاول التعرف واكتشاف خطط المصريين مستقبلا بمنطقة الخليج ومهما كانت تلك الخطط عليه ان لا يقدم لقائد القوات المصرية ضمانا باسم الحكومة البريطانية لما هو ابعد من عملية رأس الخيمة(8)، غير ان جهود سادلير لتحقيق تعاون ثلاثي بريطاني عماني مصري من اجل العمل سوية لضرب القواسم باءت بالفشل، فبعد وصول سادلير إلى مسقط 7 إلى 18 مايس 1819م و اجراء محادثات مع السيد سعيد سلطان مسقط و ان سيكشف نواياه في مدى استعداده للتعاون مع إبراهيم باشا من اجل ضرب القواسم(9)، غير انه رفض قبول التعاون بين قواته و قوات المصريين لانه كان يرى ان تعاون هؤلاء في عملية رأس الخيمة امر يهدد اقاليمه كما اعتقد ان إبراهيم باشا يستطيع البت في مقترحات بريطانيا دون الرجوع إلى ابيه لكن تبين لاحقا عند وصول سادلير إلى المدينة المنورة في 8 ايلول 1819 قاطعا شبه الجزيرة للقاء إبراهيم باشا وتسليمه الخطابات المرسلة من الحاكم العام في الهند وحاكم بومبي لكن اصر إبراهيم باشا على رفع مقترحات حكومة الهند رغم استحالة تنفيذها إلى محمد علي باشا في القاهرة وعاد سادلير إلى بومبي بعد رحلة دامت حوالي السنة دون تسليم رد من الادارة المصرية و بذلك فشلت محاولة حكومة بومبي اشراك المصريين بجانب بريطانيا وعمان في حملة عام 1819 على القواسم او امكان مساهمتهم في أي حملة اخرى ضدهم(10).

وهكذا لم تنجح بريطانيا في احداث نوع من التنسيق بين محمد علي باشا و سلطان مسقط من اجل ضرب قوة القواسم البحرية العدو المشترك لبريطانيا وسلطان مسقط على حد سواء و غير ان سياسة محمد علي الحذرة تجنبت التورط في صراع محلي لصالح السياسة البريطانية اذ ان السياسة المصرية اتجهت بالفعل إلى الانسحاب من الجزيرة العربية وكان محمد علي حريصا على عدم الاتصال بالبريطانيين في هذه المرحلة على الاقل(11)

وقد تعرض الانسحاب المصري السريع من شواطىء الخليج العربي إلى انتقادات المؤرخين لاعتقادهم ان ذلك خطأ كبيرا ولأن تلك السواحل كانت تعاني انذاك صراعا استعماريا و ضغطا اجنبيا وبخاصة من جانب بريطانيا(12)

من كل ذلك يظهر ان الحلمة المصرية التي ادت إلى القضاء على الدولة السعودية الأولى عام 1818م ووصلت إلى سواحل الخليج العربي لم يحاول المصريون الاستقرار في الجزيرة العربية(13) كما ان ردة الفعل البريطانية تجاه التوسع المصري في هذه المرحلة تمثل في عدم سماح بريطانيا للمصريين في الهيمنة على سواحل الخليج العربي لكنها حاولت دون جدوى تحقيق تنسيق بين القوات المصرية وعمان وقوات حكومة بومبي لضرب قوة القواسم، وفشلت بعثة سادلير مبعوث حكومة بومبي لتحقيق ذلك الهدف، ويبدو ان ذلك الانسحاب المصري لم يكن نهاية المطاف للمصريين فتوجهات محمد علي باشا لانشاء دولة تضم مصر و الشام والجزيرة العربية بقيت طموحاته وسيطرت على سياسيته، شعر المصريون بارتكابهم خطأ استراتيجي بخضوعهم للضغوط العثمانية و البريطانية ادى إلى انسحابهم من الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربي ولهذا تكررت في ثلاثينيات القرن التاسع عشر خطط محمد

علـي باشـا لاعـادة السيطرة علـى تلـك المنـاطق و قـد تمثل في ذلك التوسع المصري الثاني .

الموقف البريطاني من التوسع المصرى الثانى نحو الخليج العربى 1833 – 1840:

كانـت الخطـوة الأولـى العمليـة التـي اتخـذها محمـد علـي باشـا لتحقيـق هدفـه نحـو سـواحل الخلـيج العربي توجه خورشيد باشا حاكم المدينـة من قبله عـام 1834 لضم بلاد نجد من جديد لحكومـة الحجاز التابعـة لـه و بالفعل نجـح خورشيد باشـا فـي عـام 1838 فـي طرد الحـاكم السعودي فيصل بن تركـي مـن عاصمته بالريـاض وسط نفوذ والـي مصر علـى جميـع مـا كـان تحت سلطته من اقاليم و منها اقليم الاحساء الذي كـان يشكل جزء كبير من ساحل الخليج وقد اتخذ خورشيد من مينـاء القطيف مركـزا للاتصال بالامـارات العربيـة محـاولا اغرائهـا بالانضـواء تحـت سيادة محمـد علـي باشا فأصطدم بمعارضة بريطانية شديدة[14]

جـــاءت المعارضـــة البريطانيـــة لوصـــول المصريين إلـى الاحسـاء عـام 1839م علـى اسـاس ان محمد علي باشا خالف وعد قطعه للرائـد كامبل ممثل الحكومـة البريطانيـة فـي القـاهرة بـان لا تمتـد توسـعاته بأتجاه الخليج العربي ، فضلا عن ان القوات المصريـة لـم تكتف بالاحساء فقط بـل ظهر انهـا كانت مصممة علـى اخضـاع البحـرين لـذلك ارسـلت وكـيلا يمهـد لهـا الطريق بين قبائل عمان المتصالحة[15]

بـدأت الحكومـة البريطانيـة و حكومـة الهنـد التابعة لها تعملان في تنسيق تـام بهدف وقف امتداد النفوذ المصري إلى الخليج العربي فبعث بالمرستون (وزيـر الخارجيـة البريطـاني) إلـى كامبل ممثـل الدولـة البريطانيـة في مصر رسـالة بتـاريخ 29 تشرين الثـاني من عام 1838م طلب اليه ان يوضح لمحمد علـي بـأن الحكومـة البريطانيـة ترغـب وبشـكل جـاد ان لا تـرى قوات على ساحل الخليج العربي[16]

كـان سـبب التحـرك البريطـاني ضـد التوسـع المصـري الجديد نحـو الخليج العربـي يرجـع إلـى عدم اطمئنان بريطانيا لنوايا مصر نحوها لذلك كانت تخشى على سلامة ملاحتها التجارية الجديدة التي تصل الهند بأوربـا فقـد انشـأت بريطانيـا الـذي يصـل بـومبي بالسويس عـام 1829م ليتصل الخـط الفرنسـي الـذي يصل بالاسكندرية بمرسيليا[17]، فلـم تكـن لتنظـر إلـى ظهور قوة مصرية على سواحل الخليج بعين الارتيـاح لانـه سـيجعل كـلا الخطـين واقعـا تحـت رحمـة والـي مصـر[18] وفضـلا عـن ذلـك فـأن الموقـف البريطـاني المعـارض فـي هذه المرحلـة للتوسـع المصـري وصل إلى اتخاذ بريطانيا اجراءات لحصره ملوحـة بأستخدام القـوة بـأعلان بالمرسـتون وزيـر خارجيـة بريطانيـا معارضـته لاي توسـع مصـري فـي الخلـيج و بعـث تعليماته إلى حكومة الهند بالعمل على ايقاف أي تـدخل في امارات الساحل بما في ذلك استخدام القوة[19]

رأى محمـد علـي باشـا مـن جانبـه ان سـاحل الاحسـاء و القطيـف وميـنـاء العقيـر وجـزر البحـرين والسـاحل العمـاني تكـون حـدود مصـر او لمجالهـا الحيوي لما لها من اهمية لقواته في الجزيـرة العربيـة و ان نتـائج الصراع مـع البريطـانيين فـي تلك السـاحة هو الذي يقرر مصير مصر ذاتها[20]

اصـطدم طمـوح محمـد علـي باشـا الواسـع الهـادف إلـى السـيطرة علـى منـاطق جـزر البحـرين والساحل العماني ومحاولته التنسيق مع سلطان عمان واضـعاف الـوالي العثمـاني علـي رضـا فـي العـراق بالمصـالح البريطانيـة الحريصـة علـى سـلامة طريـق مواصـلاتها إلـى الشـرق وتوزعـت الجهـود البرطانيـة لمواجهـة تلـك الطموحـات المصـرية فـي البحـرين والساحل العماني و سلطنة عمان و العراق .

كانـت البحـرين تعـد مفتاحـا للسـاحل الغربـي للخليج العربي، فضلا عن انها غنية بثرواتها الطبيعية و موقعهـــا الاســـتراتيجي و لهـــذا جـــاء رد الفعـــل البريطـاني واضـحا و متمـثلا بسلسـلة مـن الاجـراءات

لمواجهة الاندفاع المصري المتزايد لاسيما ان التقارير التي رفعها خورشيد باشا إلى محمد علي باشا تضمنت ضرورة العمل على ضم جزيرة البحرين إلى الادارة المصرية لانها ستكون سببا في تنشيط التجارة في موانىء الاحساء و القطيف و يمكن اتخاذها قواعد بحرية للقوات المصرية الموجودة في نجد،كما ضم البحرين إلى الادارة المصرية سيحرم الاساطيل البريطانية من اتخاذها قاعدة لها في المنطقة لكل ذلك ادركت بريطانيا خطورة ان تقع البحرين تحت ادارة مصرية فأسرعت بانذار محمد علي باشا بالكف عن عزم تسخير البحرين وغيرها من الاماكن في سواحل هذا البحر وإلا فأن ذلك العزم سيؤدي إلى حصول الخلل بين الدولتين[21]

اصبحت مسألة البحرين بؤرة للصراع بين مصر و بريطانيا في منطقة الخليج العربي واختلطت جهود بريطانيا الدبلوماسية و تلويحها بأستخدام القوة و الضغط على امير البحرين للتراجع عما ابداه من ولاء لمحمد افندي ممثل خورشيد باشا الذي ارسله للجزيرة و عرض حمايته لشيخ البحرين[22]

و لمواجهة النفوذ المصري و توسعه في البحرين حتى وصل الامر انه فكر بالمرستون بأحتلال البحرين لاهمية موقعها[23]

و التصدي لاي توسع مصري، وبخاصة اذا تم الانسحاب البريطاني من جزيرة خرج على الساحل الفارسي، لكن الفكرة استبعدت لتكاليفه الباهضة و صعوبة المناخ في البحرين[24]

من جانب اخر وجه بالمرستون، كامبل، القنصل البريطاني العام في مصر ان يحذر محمد علي باشا من التوسع في الخليج العربي فقابل كامبل بوغوس نيابة عن محمد علي باشا الذي كان وقتها في السودان و ابلغه بالتحذير البريطاني[25]

فأكد نائب محمد علي للقنصل البريطاني بأن محمد علي باشا لم يفكر مطلقا في تحقيق مثل هذا المشروع وانه لا يفكر في التوسع خارج نطاق البحر الاحمر، وانكر تفكيره في السيطرة على الخليج العربي و قد اتسم رد محمد علي بالحذر والذكاء لان اخضاعه للسعوديين يعني اخضاع جميع البلاد التابعة لهم و هذا يوصله إلى شواطىء الخليج العربي والبحرين دون ان يصرح بذلك[26]

لكن وعود محمد علي باشا السابقة لم توقف الاجراءات البريطانية المعارضة لما قام به خورشيد باشا بارسال وكيله محمد رفعت إلى امير البحرين عبدالله بن احمد و اجراءه مفاوضات معه اسفرت عن التوصل إلى عقد اتفاق بين الطرفين ترفع بموجبه البحرين الزكاة لحكومة خورشيد التي كانت تدفعها سابقا إلى حكومة ال سعود[27]

عد المؤرخ الايراني عباس فروجي ان موافقة الشيخ عبدالله بن احمد على عقد تلك الاتفاقية في عام **1839** قد ادت إلى ربط بلاده بالسياسة المصرية بعد حصوله على ضمانات مصرية بحسب المعاملة و الحماية[28]

اشارت تلك الاتفاقية حفيظة السلطات البريطانية و غضبها و حاولت ان تجعل الشيخ عبد الله يتراجع عن اتفاقيته مع المصريين لذلك تدخلت حكومة الهند للضغط على شيخ البحرين من خلال تنفيذ هنيل المقيم البريطاني في الخليج رسالة من اوكلاند تأمره بان يتبع كل السبل و كافة الاساليب لابعاد خورشيد عن البحرين بالوقت نفسه نهى اوكلاند هنيل عن اشتباك مباشر مع خورشيد باشا ولكنه فوضه في ان يعطي شيخ البحرين كل التأكيدات بالمساندة البريطانية و يدعمه دعما يجعله قادرا على الوقوف في وجه خورشيد باشا[29]

و بالفعل هنيل (Hannell) بعد تسلمه تعليمات اوكلاند قام مع رجال بحرية الهند بمظاهرة بحرية عسكرية في الخليج العربي، فوصل قائد بحرية الهند الاميرال فردريك ميثلاند[30] في الخليج العربي لتقديم ما يلزم من حماية لشيوخ البحرين وشيوخ الاخرين ، لكنه وجد ان شيخ البحرين على استعداد

للأعتـراف بالسـيادة المصـرية ولـذلك رأى انــه مـن الحكمة عدم القيام بـأي عمل عسكري واعلم ميثلانـد المقيم السياسـي فـي الخلـيج هنيـل ان شـيخ البحـرين ابـدى ترحيبـه بالمصريين امـلا فـي تخلصـه مـن خطـر البريطـانيين الفـرس و مسـقط جميعـا[31] لاسيما ان بريطانيا ترددت في دعمه لذا فقد نتج عن موقف شيخ البحرين توجيـه هنيـل بـأمر مـن رؤسـائه احتجاجـا إلـى خورشيد باشـا محمـلا اياه ايـة اضـرار تحصل للرعايـا البريطـانيين فـي البحـرين ، وطلـب مـن الشـخ عبـد الله إعطـاءه الاتفاقيــة التــي وقعهــا مــع خورشـيد باشــا ليمزقهـا واوضـح للشـيخ ان حكومتـه علـى اسـتعداد لحمايــة بــلاده لكــن الشــيخ رفــض قبــول الحمايــة البريطانية.

واجـاب المقيم البريطـاني بقولـه "انـي وقـد كنت قد طلبت الحماية منكم قبلا ولكن مـا قلت لكم ان اكون مـن حملـة الرعايـا البريطـانيين، وأمـا اليـوم فقـد تصالحنا و لله الحمد مع خورشيد باشا و ربطنا الصلح بشروط"[32]

وهكـذا يظهـر ان السـلطات البريطانيــة لــم تنجح في محاولتها لتجعل الشيخ عبدالله يتراجع عن اتفاقيته مع المصريين و رفض التهديدات البريطانيـة واصر على الالتزام بتعهداتـه ويبدو ان الشيخ عبدالله اراد الـتخلص مـن البريطـانيين الـذين كـانوا فـي علاقـة طيبة مع اعدائـه سلطان مسقط و شيخ ابو ظبي اللـذان كانـا يطمعـان فـي السـيطرة علـى البحـرين منـذ زمـن بعيد[33]

كانت الاوضاع الداخلية في البحرين من اهم اسباب ذلك التحول في علاقة شيخ البحرين عبدالله بن احمد مع البريطـانيين إلـى صداقة المصـريين حيث ان بريطانيا تنجده عنـدما خـرج بعض افـراد اسرتـه عليـه ولم تستطع بريطانيا ان تلـزم نفسـها بضـمان الحكـم لـه في الوقت الذي تعرض فيه للمنافسة الاسرية، لذلك لـم يجـد امامـه قـوة تسـانده سـوى اللجـوء إلـى خورشـيد باشـا[34] لـذلك عنـدما استوضـح خورشـيد باشـا عـن موقف شيخ البحرين و هل انه لازال ملتزما بالمعاهدة مـع خورسـيد باشـا قـام بكتابـة رد للشـيخ بأنــه مـا دام علـى قيد الحيـاة فأنـه لا يستسلم للبريطـانيين وأضـاف انـهم منـذ ثلاثين سـنة وهـم يحـاولون و سـأبذل جميـع مـالي وقـوتي انـي فـي الثمـانين وقد بلغت اخـر العمـر فلابد ان نموت جميعا اولى من ان نكون برغبـة الكفـار وافضل شيء واشرفه ان لانرى ذلك اليوم وأرجـو مـن الباشـا ان لا يمنـع عـرب نجـد مـن المجـيء عنـدنا بـل نرجو ان يسهل مجيئهم[35]

غيـر ان اسـتمرار الضـغط البريطـاني ضـد البحرين كان احد و اهم العوامل التـي ادت إلـى تراجـع الشيخ عبدالله عن اتفاقـه مـع خورشيد باشـا ولاسيما بعد ان ادرك ان خورشيد باشا كـان يهدف إلـى احتلال البحـرين و اتخاذهـا قاعـدة لشـن هجـوم بحـري علـى البصـرة و انــه كـان يريـد استخدام السـفن التابعـة لال خليفة لتحقيق تلك الغايـة و اكد الشيخ عبدالله بعد ان تراجـع عـن اتفاقــه هـذا فأنــه يطلـب مـن الحكومــة البريطانية ضمان الحكم لـه ولأسرته لذا اوصـى هنيـل حكومة بومبي بقبول مبدأ الحمايـة للبحرين واكد فـي التقرير الذي بعث بـه إلى حكومته بأن تصرفات الشيخ عبـدالله و تـردده بـين القـوى المختلفـة كانـت بسـبب الرغبة في مسالمة اية دولـة قويـة تطمع فـي السيطرة على البحرين، وكانت هذه هـي النتيجـة التـي توصلت اليها بريطانيا في نهاية الامر.

اصـدر محمـد علـي باشـا مرسـوما فـي **10** ايلول من عـام **1839** قضـى بـاغلاق بـاب المصروفات المفتوحـة لحملـة نجـد و يطلـب إلـى خورشـيد الرجـوع إلى القاهرة ، وان يترك امر نجد والاحسـاء إلـى خالـد بن سعود وان يحاول بكل جهوده و بصورة ملائمـة ان تبقى جزر البحرين وغيرها من الجهات و التـي كانـت خاضـعة لال سـعود سـابقا خاضـعة لخالـد بـن سـعود فأضطر خورشيد باشا الامتثال إلى امر والده،وفي هذه الفتـرة قتـل محمـد افنـدي حـاكم الاحسـاء[36] وهكـذا نجحـت الدبلوماسـية البريطانيــة فـي الضـغط المباشـر

على عباس بن محمد علي (وكان ابوه في السودان انذاك) للحيلولة دون تنفيذ خطط خورشيد باشا في ضم البحرين[37] لكن ذلك عندما وصل الاسطول البريطاني إلى الخليج لم يكن في حاجة إلى تنفيذ ما وجهت إلى قانده من تعليمات نيسان من عام 1839م لان خورشيد باشا فضلا عن تعليمات والده كان يشعر بضعف موقفه لعدم امتلاكه قوة بحرية في الخليج كما ان احتلال بريطانيا لعدن في شباط من هذه السنة جعل انتقال البحرية المصرية من البحر الاحمر إلى الخليج العربي امرا صعبا من دون موافقة بريطانيا و هذا ما يعتبر فشل لخورشيد باشا في المحافظة على الاتفاق الذي عقده مع عبدالله ال خليفة في مايس 1839م.[38] حيث تراجع محمد علي باشا عن خططه في السيطرة على البحرين وكذلك تخلى امير البحرين عن اتفاقه مع خورشيد باشا بسبب الضغط البريطاني لصالح الاستراتيجية البريطانية التي كانت تقوم بأبعاد أي قوة دولية او اقليمية من التقرب و الوصول إلى أي جزء من سواحل الخليج العربي .[39]

<u>الموقف البريطاني من خطط محمد علي التوسعية في الساحل العماني :</u>

لكن خطط محمد علي باشا التوسعية نحو تلك السواحل لم تقتصر على الخليج العربي بل شملت مناطق اخرى منها مشيخات الساحل العماني الشمالي فعرض عليهم التحالف معه ، فلقى نجاحا عند احدهم و هو شيخ ابو ظبي ، بينما سارع سلطان بن صقر إلى ابلاغ حكومة الهند بعروض والي مصر[40]

ردا على مساعي محمد علي ، صدرت التعليمات في شباط من عام 1839 إلى المقيم البريطاني في بوشهر بأن يبذل ما في وسعه لعرقلة المزيد من التقدم للقوات المصرية و لهذا الغرض نفسه قام ميثلاند بزيارة لساحل عمان الشمالي بحضور الكابتن ادموندز مساعد المقيم السياسي وابلغ المشايخ انهم لا يقيموا بعد اليوم علاقات ودية مع مبعوث القوات المصرية بل على العكس تعهدوا بأن يقاوموه[41]

وبالرغم من ذلك التعهد فقد سمح الشيخ سلطان بن صقر إلى سعد بن مطلق ممثل ال سعود القديم بالاقامة في الشارقة و وضع تحت تصرفه بيتا و قلعة للاقامة فيها[42]، ومن هذا المكان في الشارقة بدأ مبعوث المصريين مؤامرته حيث حاول اقناع بني نعيم بواسطة الشيخ سلطان بن صقر بأن يسلموا واحة البريمي لحاميه سعودية جاء بها معه و بدأ الاتصال المباشر مع شيخ ابو ظبي الذي كان يؤمل ان يتعاون معهم غير ان تهديدات مبعوث المصريين لم تؤد إلى نتائج تذكر، وظل بنو نعيم على موقفهم المعارض للمصريين وقد ايدهم مباشرة حمود بن عزان والي صحار، اما خليفة بن شخبوط شيخ ابو ظبي فقد رحب بتقدم القوات المصرية نحوه[43]

دافع سلطان بن صقر عن قرار استقبال ممثل ال سعود بأنه يخشى اتحادهم مع شيخ ابو ظبي او أي شيخ اخر من شيوخ المنطقة و ان قوة أي شيخ متحد مع ال سعود يمكن ان تنال من مركزه او ارضه[44]

كان لابد لحكومة الهند ان تقوم بأجراءات بريطانية مضادة لذلك التحرك المصري التوسعي فقام السياسي البريطاني هنيل بزيارة ساحل عمان في 1 تموز 1839 وكشف تحركاته عن ان شيوخ دبي وام القيوين كانوا يعارضون المصريين معارضة تامة اما شيخ ابو ظبي فكان يبذل كل ما في وسعه كي يحل محل شيخ الشارقة في الحظوة عند سعود بن مطلق واتخذ الموقف نفسه سلطان بن صقر ورغم ذلك استطاع المقيم العام ان يحصل على تعهدات خطية من اولئك الشيوخ الاربعة بمناصرة السياسة البريطانية والوقوف في وجه مخطط القوات المصرية واضيف نص بالنسبة لسلطان بن صقر يتعهد فيه بعدم اجراء اية علاقات او مراسلات او اتفاقات مع محمد علي باشا والي مصر او انصاره و اية قوة اجنبية اخرى

قبل موافقة الحكومة البريطانية معتبرا حلفاء هذه الحكومة حلفاء له واعدائها اعداء له و كذلك قدم لشيخ الشارقة خطابات من المقيم موجه له ولسعد بن مطلق تنصح لهذا الاخير بالعودة إلى نجد.

و فيما يتعلق بالحماية التي طلبها فقد تعهد له الكابتن هنيل بأن يؤكد إلى ان التزامه بسياسة الحكومة البريطانية او تعرضه لاعتداء اية دولة اخرى . . . فتقدم له الاسلحة و الذخائر بالقدر الذي يريده و يحتاج اليه.[45]

واقرت حكومة الهند كل ما قام به مكتب المقيم من اجراءات و كل ما حصل عليه من تعهدات مع شيوخ الساحل العماني[46] لكنها لم تقر مشروع مد الحماية البريطانية لتشمل شيوخ البريمي، وذلك لان حكومة الهند كانت ترى ان مشكلة توسع القوات المصرية في فتوحاتها انما هي من اختصاص مجلس الوزراء البريطاني في المقام الأول و غير ان تفويضا صدر للمقيم بأن يستمر و يتوسع في توزيع الاسلحة و الذخائر لاستخدامها ضد القوات المصرية[47]

مع ذلك كان رأي حكومة الهند ارسال الكابتن همرتون إلى البريمي ليتسقط الاخبار ويوحد القبائل و وصل إلى الشارقة و بقى فيها حتى اتاه المقيم في 6 كانون الأول من عام 1839 وعقد فيها مؤتمرا لشيوخ البريمي هنأهم فيه على مقاومتهم العنيدة لخورشيد باشا و شرح لهم ابعاد السياسة البريطانية التي تعمل على صيانة استقلال القبائل ولا تتدخل مباشرة في شؤونهم . . . كما قام بمد الشيوخ ببعض المال و الذخيرة والمؤون و زودهم بالشعير و بعض المأكولات.[48]

هكذا افشل البريطانيون ايضا المحاولات التوسعية المصرية في الساحل العماني و تماشى ذلك مع الاهداف الاستراتيجية البريطانية في ايقاف وصول أي قوة اقليمية إلى جزء اخر من سواحل الخليج العربي الطريق التجاري البحري إلى الهند .

جاء قرار محمد علي باشا في ايلول من عام 1840 بموافقته على ميثاق الاسكندرية على الانسحاب من سوريا و الجزيرة العربية و عدن والكويت[49] ليعزز الوجود البريطاني و تفوقه في منطقة الخليج العربي .

لقد كان قرار محمد علي باشا لسحب قواته من منطقة الخليج العربي مفاجئا للقوى المحلية التي كانت تراهن على تلك القوات للتخلص من الحكم العثماني او من السيطرة البريطانية و يبدو ان دواعي القرار لم تكلن مقنعة حتى لدى الدوائر البريطانية التي ارجعته بعضها إلى غيرة محمد علي من انتصارات خورشيد باشا[50] وارجعه مؤرخ اخر بسبب انسحاب القوات المصرية إلى ان بقاء القوات المصرية في جزيرة العرب يحمل الخزينة نفقات لا طاقة له بها[51] وهكذا نجحت بريطانيا بأبعاد قوات محمد علي كما فعلت سابقا مع قوى اوربية اخرى قوى محلية بأبعادها عن منطقة الخليج العربي ليبقى النفوذ البريطاني سائدا حتى اربعينيات القرن التاسع عشر .

الهوامش:

---

(1) عماد عبد السلام رؤوف، أهداف التوسع المصري في الخليج العربي (1817 – 1840)
www.alukah.net\cultur40\5\4676

(2) لوريمر (ج ج) دليل الخليج، القسم التاريخي، ج1، قطر، ص306

(3) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، بريطانيا و امارات الساحل العماني ، بغداد ، ص10

(4) لوريمر ، المصدر السابق، ج2 ، 1006

(5) نقلا عن عبد العزيز عبد الغني ابراهيم، المصدر السابق، ص 180

(6) لوريمر ، المصدر السابق ، ج2 ، 1009

(7) المصدر نفسه ، ج2 ، 1009

(8) لوريمر . المصدر السابق . ج2 . ص1010

(9) لوريمر . المصدر السابق . ج2 . ص1010

(10) المصدر نفسه

(11) جاكلين بيرين ، اكتشاف جزيرة العرب ، بيروت 1963 ، ص244-245

(12) لوريمر ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 1011-1013

(13) Perrin(n) Relation dela campagne 'd ،paris ،ibrahim pacha contre les whabites ،1912 p5

(14) ابراهيم خليل أحمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ، 1516 – 1916 ، الموصل 1983 و ص145

(15) صلاح العقاد ، الاستعمار في الخليج العربي ، القاهرة ، ص108

(16) المصدر نفسه

(17) لوريمر ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 1068 – 1076

(18) Palmerstone to Campbell. 29th Nov.1534. F. o. 178، 383

(19) Fontanier (V) voyage de lacote de Malabar Constantinople par le golfe persiquel، arabie، T ،et la mesopotamie . 1. paris، 1820 ، 174 – 175 p

(20) جمال زكريا قاسم وتاريخ الخليج العربي في عصر التوسع الاوربي 1507 – 1840 ، القاهرة 2015 ، ص 410

(21) عبـــــد الســــلام ، المصـــــدر الســــابق
www.alukah.ner\cultre\014676

(22) 22 محفظة (267) عابد بن وثيقة رقم 137 حمراء من خورشيد باشا البشعماون بتاريخ 18جمادى الاول 1255، نقلا عن المصدر نفسه

(23) محفظة 267 عابد بن وثيقة (93) اصلية حمراء و 40اصلية و 15حمراء من خورشيد باشا البشعماون بتاريخ 18جمادى الاولى1255 نقلا عن المصدر نفسه

(24) توفيق خلف ياسين السامرائي ، التنافس البريطاني-المصري حول البحرين في القرن التاسع عشر، مجلة سر من رأى ، المجلد الاول،السنةالاولى2005،ص40

(25) كيلي (ج ب) بريطانيا و الخليج 1795 – 1870 ، ترجمة محمد بن عبدالله ص 337 - 338

(26) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، المصدر السابق ، ص 297

(27) فائق حمدي طهوب ، تاريخ البحرين السياسي 1873 – 1870 . الكويت1983 ، ص 181

(28) دار الوثائق القومية ، محفظة 267 وثيقة 137 و مرفقاتها من خورشيد باشا إلى محمد علي بتاريخ 20 ذي الحجة 1254 – 6 مارس 1839 ، نقلا عن ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، من وثاق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي باشا ، الدوحة ، قطر ، 1982 ، ص 37

(29) Abbas Feroughy، The Bahrein Islands، 1750 – 1950 . New York 1951، p82

(30) لوريمر ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 1068

(31) لوريمر ، المصدر السابق ، ج2 ، 1068

(32) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 409

(33) المصدر نفسه ، ص 409 – 410

(34) فائق حمدي طهبوب ، المصدر السابق ، ص203

(35) لوريمر ، المصدر السابق ، ج2 ، ص145

(36) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ج2 ، ص410 – 411

(37) توفيق خلف ياسين السامرائي ، المصدر السابق ، ص41

(38) عمــــــاد عبـــــــد الســــــــلام
www.alukah.neculture\0146076

(39) صلاح العقاد ، المصدر السابق ، ص111

(40) المصدر نفسه ص112

(41) لوريمر، المصدر السابق ، ج2 ، ص1068

(42) المصدر نفسه

(43) لوريمر ، المصدر السابق ، ج2 ، ص1068

(44) عبد العزيز عبد الغني ابراهيم ، المصدر السابق ، ص299

(45) لوريمر، المصدر السابق، ج2، 1069

(46) عبد العزيز عبد الغني والمصدر السابق، ص300

(47) لوريمر ، المصدر نفسه، ج2، 1070

(48) عبد العزيز عبد الغني، المصدر السابق، ص 300 – 301

(49) المصدر نفسه، ص301

(50) لوريمر والمصدر السابق، ج3 ، ص1440، عماد عبد السلام، المصدر السابق، www.alukah.net\culture\014676

(51) عبد الرحمن الرافعي ، عصر محمد علي ، القاهرة ، 1951 ، ص361 ، توفيق خلف السامرائي ، المصدر السابق ، ص42

موقف الولايات المتحدة الأميركية من المسعى التركي للانضمام للاتحاد الأوربي

الأستاذ المساعد الدكتور محمد رشيد عبود
جامعة الأنبار- مركز الدراسات الاستراتيجية

تعتبر مسألة نيل عضوية الإتحاد الأوروبي واحدة من الأهداف الإستراتيجية الهامة التي دفعت تركيا إلى تسخير سياساتها وعلاقاتها لبلوغ ذلك الهدف، ولأجل ذلك، سعت تركيا لتحقيق هذا المبتغى بالإعتماد على وسائل وإمكانيات عدة، منها ذاتي، وآخر خارجي مثل الإعتماد على الدول الحليفة كالولايات المتحدة الأميركية، وذلك في ضوء ما ترتبط به واشنطن من علاقات إستراتيجية قوية وطويلة مع كل من أنقرة والإتحاد الأوروبي. وقد أعرب الكثير من المسؤولين الأميركان عن دعمهم لمساعي إنضمام تركيا إلى الإتحاد الأوروبي[1].

تشكل العلاقات التركية – الأميركية عنصراً مهماً في السياسة الخارجية التركية. فمنذ نشوب الحرب الباردة بالتحديد، ومع إنتقال العلاقات الثنائية بين الطرفين الى " تحالف " رسمي معلن، فقد أصبحت الولايات المتحدة جزءاً لا يتجزأ من الدبلوماسية التركية. وقد نبعت الروابط العسكرية والسياسية القوية بين تركيا والولايات المتحدة آبان الحرب الباردة من بروز قوتين عظمتين تربطهما عقيدة منقسمة وتنافس جيوسياسي أدى إلى ظهور ثنائية قطبية ظرفية في السياسة العالمية. ومع ذلك، فإن ديمومة العلاقات التركية – الأميركية بنفس الدرجة الوطيدة والجادة لفترة ما بعد الحرب الباردة، كانت إلى حد كبير ثمرة عوامل إستراتيجية أخرى مستمدة بشكل خاص من التحولات الإقليمية في الشرق الأوسط والبلقان، عندما بدأت السياسة العالمية تشهد تشكيل تكوين جديد خلال تسعينيات القرن الماضي[2].

لقد إعتمدت الولايات المتحدة عموماً موقفاً مؤيداً ومشجعاً لتركيا بشأن مسألة الإنضمام، إلا أن هذا الموقف لم يحقق أثناء حقبة الثمانينات من القرن الماضي الطموحات التركية المرجوة، غير أنه أرتقى لمستوى دعم تركيا في طلب العضوية والتأثير على الدول الأعضاء في هذا المجال خلال النصف الثاني من عقد التسعينات[3].

فقد أصبح المطلب التركي الذي حظي بالدعم الأميركي، أحد العناصر الرئيسية لأجندة العلاقات الثنائية الأميركية – التركية. وشهد عقد التسعينات إنخراط المسؤولين الأميركان ببذل جهود مكثفة وممارسة ضغوط على أبرز حلفائهم الأوروبيين لتشجيع طموحات الإنضمام التركية إلى الإتحاد الأوروبي[4].

فمسألة إنضمام تركيا إلى الإتحاد الأوروبي تندرج ضمن الأهداف الأميركية الصريحة فضلا عن الإمتيازات التي قد يجنيها حليف أستراتيجي ومهم كتركيا من وراء ذلك، فإن الولايات المتحدة تسعى بالدرجة الإساس إلى إقامة جسر قوي بين الشرق والغرب من خلال البوابة التركية، وكذلك لإيجاد توازن إستراتيجي داخل الإتحاد الأوروبي بين القوى التقليدية التي تمثلها دول فرنسا وألمانيا وبريطانيا وبين القوى الجديدة الأقرب للحليف الأميركي مثل تركيا وبولندا. ولذلك تعتبر العضوية التركية في النادي الأوروبي من المباديء التي تنطوي عليها العلاقات الأميركية – التركية، نتيجة للدعم الأميركي القوي الذي تحظى به أنقرة في هذا الإطار[5].

إن سياسيات الولايات المتحدة الرامية إلى جعل نفسها الدولة الأقوى عالمياً، ومنع ظهور منافسين لها سواء في أوروبا أو آسيا، قد دفعها إلى التركيز على مفهوم "القوة" بشكلها الواسع، حيث زادت الولايات المتحدة من قدراتها بما لا يسمح للدول الأخرى من اللحاق بها، فهي لا تريد ظهور قوة تنافسها في قيادة العالم وتؤثر في مجالات نفوذها السياسي والاقتصادي والعسكري، وتعارضها في توجهاتها العالمية القائمة على أساس قطبية أحادية أميركية ترتكز على هيمنة قوة عظمى ليس للقوى الأخرى النفوذ أو القدرة على منع ما ترغب القيام به. ولهذا تسعى الولايات المتحدة للسيطرة على المنافسة الأوروبية لها من خلال إعتمادها على الجانب العسكري والأمني، والإستفادة من حلف شمال الأطلسي وسياسته الأمنية كمصدر للهيمنة على أوروبا، والحيلولة دون بروزها كقوة تنافس السياسة الأميركية ومصالحها داخل و خارج اوروبا(6).

كما ترى الولايات المتحدة في علاقات تركيا مع الإتحاد الأوروبي مصلحة إستراتيجية لها، كونها ترغب بأن " تتجه تركيا بقوة إلى الغرب " بسبب الدور المهم الذي تضطلع به في حلف الناتو بشكل عام وللولايات المتحدة على نحوٍ خاص، وهو الدور الذي يمكن أن تلعبه تركيا في حماية المصالح الإستراتيجية الأميركية في الشرق الوسط وآسيا الوسطى والقوقاز(7).

ومما يهم ذكره، أن الولايات المتحدة – بمبادراتها الدبلوماسية الساعية إلى حصول تركيا على العضوية الكاملة – لم تطرح على حلفائها الأوروبيين تغيير متطلبات العضوية بشكل يتلاءم مع تركيا، أو التعامل مع عضوية تركيا كحالة خاصة. فالمسؤولون الأميركان قد حافظوا على أن شروط العضوية هي شأن داخلي يخص الإتحاد الأوروبي، وأن له الحق في تطبيق هذه الشروط. ولكن في نفس الوقت، فإن الولايات المتحدة قد طالبت الإتحاد الأوروبي بالتعامل مع تركيا بطريقة متساوية وعلى غرار الدول الأخرى المطالبة بالعضوية، وإبقاء " الباب مفتوحاً أمام عضوية تركيا في النهاية "، ورفض أية معايير دينية أو ثقافية يتم إعتمادها كأساس للحصول على العضوية الكاملة في الإتحاد الأوروبي. ورغم أن واشنطن شاركت مع الإتحاد الأوروبي بممارسة الضغوط على تركيا لإيجاد تسوية للمشكلة القبرصية، إلا أنها لم تعتبرها بالضرورة أحد الشروط المسبقة للعضوية. وعليه، فإنه من غير المرجح أن تتخلى الولايات المتحدة عن دعمها لإنضمام تركيا إلى الإتحاد الأوروبي ، فموقف واشنطن بهذا الصدد واضح تماماً وأصبح من أهم دعائم الروابط الثنائية القائمة بين البلدين(8).

وعلى الرغم من المعارضة التي تلقاها تركيا من قبل الأوروبيين بإعتبارها " حالة فردية " لا تنطبق عليها مبادىء الإنضمام، كونها تنتمي لحضارة مختلفة ولا يمكن أن تشكل جزءاً من أوروبا نتيجة للتعداد العالي لسكانها المسلمين وإفتقارها للخلفية التأريخية الأوروبية، إلا ان العامل الأميركي يلعب دوراً هاماً ضمن إطار العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة. فتركيا تعد حليف أساسي بالنسبة للولايات المتحدة، وأن الولايات المتحدة مقتنعة بأن الإتحاد الأوروبي ينبغي له منح تركيا العضوية الكاملة، لأنها ترى أن ذلك سيخلق منها نموذج ريادي مستقر للعالم الإسلامي بأكمله. فالمنظور الأميركي - عقب الحرب الباردة – حيال أهمية دور تركيا ينطلق من نظرة إستراتيجية بحتة، على خلاف النظرة الأوروبية لتركيا المستندة إلى إعتبارات سياسية وتأريخية وإقتصادية تدفع الإتحاد الأوروبي إلى مقاومة قبول عضويتها قدر المستطاع، لما قد يترتب عن إنضمام تركيا من توسعٍ لحدود الإتحاد الأوروبي وإمتدادها نحو الشرق الأوسط، وإنخراطه بشكل مباشر في صراعات الدول الأقليمية، فضلاً عن تحمله أعباء مشاكل تركيا الإقتصادية(9).

ويعزي البعض أن الهدف الإستراتيجي الأبرز وراء الدعم والتأييد الأميركي لأنقرة لإنضمامها إلى

الإتحاد الأوروبي يكمن في محاولة زعزعة الإتحاد وإضعافه من الداخل، من أجل ديمومة الولايات المتحدة قطباً عالمياً أوحداً. ولذلك، فإن الولايات المتحدة تعمل على بقاء الإتحاد بروازاً فضفاضاً للتعاون بين البلدان الأوروبية، وتسعى الى تعزيز جبهة " الأطلسية " في مواجهة " الأوروبية ". وعليه، فإن أنضمام تركيا قد يشكل عاملاً مساعداً في الحد من قوة وتماسك الإتحاد، ومعيقاً لمساعي الدمج الأوروبي، نتيجة للمخاوف التي يثيرها الرأي العام الأوروبي مما يصفه "بالتغلغل الإسلامي" السياسي والسكاني إلى "الحصن الأوروبي". ولهذا، فإن الضغوط التي تمارسها الولايات المتحدة على الدول الأوروبية لدفعها لقبول عضوية تركيا قد لا تعبر بالضرورة عن مكافأة لتركيا بقدر ما تندرج ضمن الإستراتيجية الأميركية في الحفاظ على نظام دولي أحادي القطب[10].

فأوروبا القوية سياسياً، والقادرة على المنافسة إقتصادياً، وغير المعتمدة على الدعم العسكري الأميركي، ستنافس بلا شك السيادة الأميركية في منطقتين حيويتين إستراتيجيتين لأميركا: الشرق الأوسط وأميركا اللاتينية. وسيظهر التنافس في الشرق الأوسط أولاً نظراً للتقارب الجغرافي مع اوروبا وإعتمادها الكبير على نفط تلك المنطقة. حيث ستُستقبل الطروحات الأوروبية بالتعاطف وذلك لإستياء العرب من السياسات الأميركية. أما التنافس في أميركا اللاتينية، فثمة روابط تأريخية وثقافية قديمة تجمع الإسبان والبرتغاليين والفرنسيين مع المجتمعات اللاتينية، وبالتالي ستلقى الروابط التأريخية والإقتصادية والسياسية القوية مع أوروبا الحازمة إستجابة سريعة من الروح القومية في أميركا اللاتينية، وهو ما سيُضعف السيطرة الإقتصادية التقليدية للولايات المتحدة في المنطقة[11].

وحول المواقف الأميركية المناصرة لدخول تركيا إلى الأتحاد الأوروبي، فقد سبق ان تلقى الرئيس التركي الراحل تورغوت أوزال، وعداً رسمياً بدعم الولايات المتحدة لجهود بلاده للإنضمام إلى الإتحاد الأوروبي، وذلك خلال زيارة جيمس بيكر، وزير الخارجية الأميركي الأسبق، إلى تركيا عقب نشوب حرب الخليج الثانية عام **1991**. حيث أكد بيكر للرئيس التركي ((أن الولايات المتحدة أقرت رسمياً بأنها سوف تؤيد بقوة طلب تركيا للإنضمام إلى المجموعة الأوروبية، رغم أن هذا القرار هو من صميم إختصاصات المجموعة الأوربية))[12].

يقول فيليب غوردون، الأمين المساعد للشؤون الأوروبية والأورآسيوية في وزارة الخارجية الأميركية، خلال محاضرة ألقاها في معهد بروكينغز في **2010**، ((أن الولايات المتحدة ستواصل دعمها القوي لإنضمام تركيا، وتحث تركيا على الإستمرار بإجراء الإصلاحات الديمقراطية والسياسية الضرورية لإستكمال مسيرة العضوية. فإحراز المزيد من التقدم في مجالات حقوق الإنسان والحرية الدينية سينتقل بالتطلعات التركية نحو الإتحاد الأوروبي إلى الأمام. وهذه الإصلاحات بإمكانها أن تحقق لتركيا ما هو أبعد من محاولة الإنضمام وذلك بجعلها دولة أكثر ديمقراطية وحداثة. كما ان على الإتحاد الأوروبي أن يمارس الدور المنوط به، فهو بإستطاعته ضمان إستمرارية التقدم التركي من خلال الإعلان صراحة أن الباب إلى الإتحاد الأوروبي سيُفتح أمام تركيا التي تحقق متطلبات العضوية)). ويضيف ((سنظل مقتنعين بأن تركيا التي تلبي معايير العضوية سيكون في صالح الإتحاد الأوروبي، وأن جهود تركيا بالإيفاء بهذه المعايير سيكون في صالحها))[13].

وهناك من يربط بين العضوية في الإتحاد الأوروبي والدور الذي يمكن أن تضطلع به تركيا في منطقة الشرق الوسط المتأزمة، فقد طالب جيري كونولي، عضومجلس النواب الأميركي عن الحزب الديمقراطي، بوضع تركيا على خطى الدخول إلى الإتحاد الأوروبي، بالقول ((إذا أردنا تحقيق الإستقرار في منطقة متقلبة من خلال حليف إستراتيجي، فعلينا أن

نضع تركيا على طريق الإنضمام إلى الإتحاد الأوروبي، فإن من مصلحة الكل أن تصطف تركيا مع أوروبا والإتحاد الأوروبي))[14].

ولم تغب مسألة دعم تركيا عن لسان الرؤساء الأميركان، حيث طالب الرئيس ريتشارد نيكسون بالضغط على الدول الأوروبية الحليفة من أجل قبول عضوية تركيا في إتحادهم، قائلاً ((أن تركيا هي الجسر الذي يصل العالم الإسلامي بالعالم العربي، وأنها تسهم بقواتها في حلف شمال الأطلسي بأعداد أكثر من الدول الأخرى، وعلينا أن نشجع حلفاءنا الأوروبيين لكي يسمحوا لتركيا بالدخول معهم في الوحدة الأوروبية))[15].

كما ان هذا الموقف الداعم، قد عبّر عنه الرئيس جورج بوش (الأب) عندما أعلن أثناء زيارته إلى أنقرة في تموز 1991 ((أن تركيا – بعد مرور عقد على تبّنيها لحكومة حرة – أصبحت نجماً صاعداً في أوروبا، وهي بلد متحول إقتصادياً وسياسياً. لذلك لا ينبغي أن تُثار الشكوك حول إستحقاق دخولها إلى الإتحاد الأوروبي، وإتحاد غرب أوروبا، وأنها يمكن أن تعتمد على التأييد القوي للولايات المتحدة في هذا الشأن))[16].

وفي كلمته أمام مجلس الأمة التركي الكبير في 15 تشرين ثاني 1999، أكد الرئيس بيل كلينتون على الدعم الذي توليه الولايات المتحدة لتركيا، بالقول ((أن المستقبل الذي نريد أن نبنيه معاً يتطلب التبصر من جانب حلفائنا الآخرين في أوروبا. تلك البصيرة التي تلحظ أن رؤيتنا لأوربا غير مقسمة وديمقراطية ومسالمة لأول مرة في التأريخ لن تكون كاملة ما لم تحتضن تركيا. أن الولايات المتحدة ليست عضواً في الإتحاد الأوروبي، ولكني حثثت بإستمرار على المضي بالتكامل الأوروبي الى ما هو ابعد وبشكل أسرع. وهذا يشمل تركيا))[17]. هذا الموقف، لم يتردد الرئيس كلينتون عن الإفصاح عنه في أثينا بتأريخ 20 تشرين ثاني 1999 أمام اعضاء الحكومة اليونانية، ألد المعارضين لإنضمام تركيا، قائلاً ((أعتقد أن من مصلحتكم جداً أن نرى تركيا وقد أصبحت مرشحة لعضوية الإتحاد الأوروبي، فذلك سوف يعزز المسار العلماني والديمقراطي والحداثي التركي، والذي سيُبّين لتركيا المكاسب التي ستجنيها عند تحقيق تقدم بشأن قضايا ذات علاقة بقبرص وبحر إيجة)). وأضاف ((سأقول هنا فقط ما قلته في تركيا: أعتقد أنه أمر جيد جداً بالنسبة لمستقبل العالم أن تكون تركيا مندمجة في أوروبا. ولكن تركيا لا يمكن أن تكون مندمجة تماماً بنجاح في أوروبا من دون حل إشكالاتها مع اليونان))[18].

أما الرئيس باراك أوباما، الذي زار تركيا كأول بلد إسلامي بعد توليه المنصب، فقد كرر بقوة على الدعم الأميركي لعضوية تركيا في الإتحاد الأوروبي، مخاطباً مجلس الأمة التركي عام 2009، بالقول ((في مجابهتنا تحديات القرن الحادي والعشرين، علينا أن نسعى لأوروبا قوية تكون حقاً موحدة ومسالمة وحرة. إذن دعوني أقولها بوضوح: الولايات المتحدة تؤيد بقوة مساعي تركيا الإنضمام إلى الإتحاد الأوروبي، فنحن لا نتكلم كأعضاء في الإتحاد الأوروبي بل كأصدقاء مقربين لكل من تركيا وأوروبا. فقد كانت تركيا حليفاً مثابراً وشريكاً يضطلع بالمسؤولية في مؤسسات أوروبية وعبر الأطلسي. وتركيا ترتبط بأوروبا بما هو أكثر من الجسور عبر البوسفور. فهناك قرون من التأريخ المشترك والثقافة والتجارة التي تجمعكم معاً. وأوروبا سوف تكسب من تنوع الإثنيات والتقاليد والأديان، ومكانتها لن تنتقص بسببها. كما أن عضوية تركيا ستوسع من أسس أوروبا وتقويتها مرة أخرى))[19].

لقد برز شكل الدعم الأميركي من خلال إنخراط الولايات المتحدة في ثلاث تطورات محورية أنطوت عليها العلاقات بين تركيا والإتحاد الأوروبي خلال عقد التسعينات، وهي[20]:

1. شن حملة مكثفة داخل البرلمان الأوروبي أدت إلى إبرام إتفاق الإتحاد الجمركي بين بروكسل وأنقرة في كانون أول 1995. إذ ساهمت جهود الحملة الأميركية بقلب الموقف لصالح الأتراك من خلال التأثير على نتيجة المفاوضات، وإقناع البرلمان الأوروبي الذي لم يكن مؤيداً لإقرار الإتفاق في البداية.

2. لعب دور أساسي في حمل المجلس الأوروبي خلال قمة هلسنكي في كانون أول 1999 على الإعتراف رسمياً بتركيا كدولة مرشحة للعضوية الكاملة. فالولايات المتحدة التي رفضت بشدة قرار القمة السابقة في لوكسمبورغ عام 1997 بإستبعاد تركيا من قائمة الدول المرشحة للعضوية، قد دفعت بالإدارة الأميركية عام 1999 لممارسة ضغوط واضحة من خلال القنوات الرسمية وغير الرسمية، بما فيها إجراء إتصالات هاتفية للرئيس بيل كلينتون مع القادة الأوروبيين، لعكس ذلك القرار.

3. شن حملة كبرى أخرى للمضي قدماً بتطلعات تركيا للدخول إلى الإتحاد الأوروبي، وذلك قبيل إنعقاد قمة كوبنهاغن في 12 كانون أول 2002، حيث أعاد الرئيس جورج بوش (الأبن) التأكيد على دعم واشنطن لتركيا، خلال لقائه برئيس حزب العدالة والتنمية، رجب طيب أردوغان، في البيت الأبيض بتأريخ 11 كانون أول 2002، وأعلن أن الولايات المتحدة تقف جنباً إلى جنب مع أنقرة في مسعاها للإنضمام إلى الإتحاد الأوروبي، إضافة إلى قيامه بمحادثات هاتفية مع قادة أوروبا، في حين حث وزير خارجيته كولن باول نظرائه الأوروبيين على تحديد موعد لبدء مشاورات الإنضمام بين تركيا والإتحاد الأوروبي. غير أن الحملة هذه لم تحقق هدفها المنشود، فقد أشتكى بعض الأوروبيين من أن الضغوط التي يمارسها المسؤولون الأميركان لصالح تركيا ستأتي بنتائج عكسية، وهي الحجة التي أهملتها واشنطن، ورأت فيها عذر أوروبي آخر لتقويض عضوية تركيا*.

من ناحية أخرى، فأن الوقوف بوجه التطرف الإسلامي وكذلك تعميق المباديء الديمقراطية وترسيخ مفاهيمها، يعتبران من الأهداف الأميركية المعلنة. ولجهة ذلك، قد تجني الولايات المتحدة ثمار الدعم الذي تقدمه اذا ما تسنى للإتحاد الأوروبي قبول عضوية تركيا. فلكي تبلغ تركيا اقصى حدود نفوذها الأستراتيجي، فإنها بحاجة إلى قوة اوروبا، حيث بإستطاعتها – وبدعم أوروبا لها – المساهمة في إعادة صياغة العالم. وهي كذلك قادرة على تعزيز نفوذها، من دون أوروبا، لكنها ستظل محدودة القوة. بالمقابل، فإن بمقدور الإتحاد الأوروبي ايضاً، أن يكون لاعباً دولياً رئيسياً، وتركيا بداخله. إلا أن حظوظه لبلوغ ذلك قد لا تكون كافية، وتركيا خارجه. فتركيا مفعمة بالحياة، وفيها من الطاقات الشبابية المتلهفة للعمل وتسديد الضرائب اللازمة لتعزيز إعاشات تقاعد المُسنين في دول أوروبا. لكن ما هو أهم من ذلك، أن بإمكان تركيا أن تشكل أفضل أمل في تهدئة راديكاليي العالم الإسلامي الذين يمثلون تهديداً لأوروبا ولغيرها من الدول. إذ أن الإتحاد الأوروبي بقبوله لعضوية تركيا، سيعطي إنطباعاً صريحاً إلى البلدان الإسلامية بأن السير وفق النهج الديمقراطية سيفتح أبواب العالم أمامها. أما رفض العضوية، فإنه سيعطي مردوداً عكسياً بأن الأبواب ستبقى موصودة أمامها مهما عملت[21].

ولعل قيام الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما بجعل تركيا أول بلد إسلامي يزوره عام 2009 – بعد توليه المنصب – وثاني بلد خارجي (بعد كندا)، وإتخاذه تركيا منبراً لمخاطبة العالم الإسلامي بمنطلقات إيجابية، مَثلت دعم مباشر للنموذج التركي العلماني في العالم الإسلامي كنموذج مهم للإعتدال السياسي، وإشارة إلى الريادة التركية في هذا العالم[22].

و سيبقى الموقف الامريكي من انضمام تركيا الى الاتحاد الاوربي مرهونا بالسياسة الخارجية التي سيتبعها الرئيس الامريكي الجديد ترامب.

الخلاصة

من خلال دراستنا للموقف الامريكي الداعم لأنضمام تركيا الى الاتحاد الاوربي يمكن أن نستخلص النتائج التالية :-

أولا:- كانت الدولة العثمانية وريثة الخلافة الاسلامية معادية لأوربا في كل حروبها قبل سقوط الدولة العثمانية و كان هدفها التغلغل في قلب القارة الاوربية والسيطرة على مقدراتها لنشر الدين الاسلامي.

ثانيا:- بعد تأسيس الدولة التركية الحديثة عام 1923 م و تحويلها الى دولة علمانية سعى قادتها المؤسسين الى اعتماد قوانين تغريب الدولة و التأثر بالمجتمع الاوربي و قد تجلى ذلك بوضوح اواخر الخمسينيات من القرن الماضي و ذلك بتعليق امالها لبلوغ العضوية الكاملة في الاتحاد الاوربي.

ثالثا:- بحكم عضوية تركيا في حلف الناتو و كونها من الدول المؤسسة لهذا الحلف الذي تتزعمه الولايات المتحدة الامريكية و التي سعت بشكل حثيث و دون كلل او ملل الى تقريب وجهات النظر و الضغط على الدول الاوربية لجعل هذا الحلف العسكري الذي يضم الجميع طريقا لتركيا نحو العضوية الكاملة في الاتحاد الاوربي.

رابعا:- ظلت الولايات المتحدة الامريكية من اكبر الداعميين لتركيا في سعيها للأنضمام للأتحاد الاوربي ولم تترك اي فرصة تمر الا و استغلتها مع شركائها الاوربيين لخدمة هذا الهدف.

الهوامش :

---

(1) الغريري ، د. محمد ياس خضير، الدور الامريكي في سياسة تركيا حيال الاتحاد الاوروبي 1993-2010، الطبعة الاولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية- سلسلة اطروحات الدكتوراه (92)، 2010 ، ص172.

(2) Harunoglu, Nur Cetinoglu, Back to the Past: The Origins of Turkish-American Relations from an Alternative Perspective, The Turkish Yearbook of International Relations, Faculty of Political Science, Ankara University, Vol. 46, 2015, p-134.

(3) النعيمي، لقمان عمر محمود، تركيا والولايات المتحدة الأمريكية: دراسة في علاقاتهما الإستراتيجية بعد الحرب الباردة 1991-2000، مجلة دراسات إقليمية، مركز الدراسات الإقليمية، جامعة الموصل، العدد 4، 2005، ص204.

(4) Sayari, Sabri, The United States and Turkey's Membership in the European Union, The Turkish Yearbook of International Relations, Faculty of Political Science, Ankara University, Vol. 34, 2003, p.168.

(5) العناني، خليل، " مع الولايات المتحدة الأميركية.. مصالح إستراتيجية متبادلة "، في: علي حسين باكير وآخرون، تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج، الطبعة الاولى، تحرير: محمد عبد العاطي، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الدوحة، بيروت، 2010، ص142-143.

(6) سلمان، سعدي كريم، العلاقات الأوروبية – الأمريكية في القرن الحادي والعشرين: تنافس أم مشاركة؟ ، مجلة الدراسات الدولية، مركز الدراسات الدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، العدد 35، 2008، ص86.

(7) نهرا، فؤاد، الإتجاهات السياسية في أوروبا وقضية إنضمام تركيا، شؤون الأوسط، بيروت، العدد 166، خريف 2004، ص79.

(8) Kirac, Ziya Kivanc and Others, The United States of America Effect on Turkey-European Union Relations, Procedia Economics and Finance, Vol. 15, 2014, pp:1701-1702, http://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S2212567114006431.

(9) Guney, Aylin, On Turkey's Inclusion in EU Enlargement: An Asset or a Liability, Perceptions, Center for Strategic Research, Vol. 9, Autumn 2004, p.149.

(10) النعيمي، عمر لقمان، تركيا والاتحاد الاوروبي: دراسة لمسيرة الانضمام، الطبعة الاولى، أبو ظبي، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2007 ، ص60.

(11) بريجينسكي، زبيغنيو، الإختيار.. السيطرة على العالم أم قيادة العالم، ترجمة عمر الأيوبي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، 2004، ص107.

(12) بيكر، جيمس، سياسة الدبلوماسية، ترجمة مجدي شرشر، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص414-415.

(13) Gordon, Philip H., The United States and Turkey: A view from the Obama Administration, Sabanci Lecture, The Brookings Institution, Washington DC, 17/3/2010, http://www.state.gov/p/eur/rls/rm/2010/138446.htm.

(14) Mitch, Hulse, US Lawmakers Urges "Path to EU Accession" for Turkey, Atlantic Council, 28/4/2016, http://www.atlanticcouncil.org/blogs/news-atlanticist/us-lawmakers-urges-path-to-eu-accession-for-turkey.

(15) نيكسون، ريتشارد، الفرصة السانحة: التحديات التي تواجه أميركا في عالم ليس به إلا قوة عظمى واحدة، ترجمة أحمد صدقي مراد، دار الهلال، القاهرة، 1992، ص142.

(16) حميد فارس سليمان، السياسة الخارجية التركية ما بعد الحرب الباردة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، 2006، ص160-161

(17) " Remarks to the National Grand Turkish Assembly in Ankara ", the American Presidency Project, 15 Nov. 1999, http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=56935.

(18) " Remarks by President Bill Clinton and Prime Minister Simits of Greece to the Government of Greece, Business and Community Leaders ", Athens, 20 Nov. 1999, http://www.ahistoryofgreece.com/press/clinton-simits.htm.

(19) " Remarks By President Obama To The Turkish Parliament ", Office of the Press Secretary, The White House, 6 April 2009, https://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-obama-turkish-parliament.

2 Sayari, op. cit, pp:168-169.

* أعتمدت قمة الإتحاد الأوروبي في بروكسل بتأريخ 17 كانون أول 2004 قرار الموافقة على بدء مفاوضات إنضمام تركيا إلى الإتحاد، وتم تحديد تأريخ 3 تشرين أول 2005 موعداً لإنطلاق تلك المفاوضات.

(21) كينزر، ستيفن، العودة الى الصفر: إيران، تركيا ومستقبل أميركا، ترجمة أنطوان باسيل، الطبعة الأولى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2012، ص259-260.

(22) أمين، سرمد عبد الستار، الولايات المتحدة الأميركية وتركيا.. إعادة تفعيل الشراكة الإستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط، مجلة الدراسات الدولية، مركز الدراسات الدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، العدد 49، 2011، ص80-81.

<u>قائمة المصادر والمراجع</u>

- أمين، سرمد عبد الستار، الولايات المتحدة الأميركية وتركيا.. إعادة تفعيل الشراكة الإستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط، مجلة الدراسات الدولية، مركز الدراسات الدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، العدد 49، 2011، ص80-81.

- بريجينسكي، زبيغنيو، الإختيار.. السيطرة على العالم أم قيادة العالم، ترجمة عمر الأيوبي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، 2004، ص107.

- بيكر، جيمس، سياسة الدبلوماسية، ترجمة مجدي شرشر، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص414-415.

- حميد فارس سليمان، السياسة الخارجية التركية ما بعد الحرب الباردة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، 2006، ص160-161.

- سلمان، سعدي كريم، العلاقات الأوروبية – الأمريكية في القرن الحادي والعشرين: تنافس أم مشاركة؟ ، مجلة الدراسات الدولية، مركز الدراسات الدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، العدد 35، 2008، ص86.

- العناني، خليل، " مع الولايات المتحدة الأميركية.. مصالح إستراتيجية متبادلة "، في: علي حسين باكير وآخرون، تركيا بين تحديات الداخل ورهانات الخارج، الطبعة الاولى، تحرير: محمد عبد العاطي، مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الدوحة، بيروت، 2010، ص142-143.

- الغريري ، د. محمد ياس خضير، الدور الامريكي في سياسة تركيا حيال الاتحاد الاوروبي 1993-2010، الطبعة الاولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية– سلسلة اطروحات الدكتوراه (92)، 2010 ، ص172.

- كينزر، ستيفن، العودة الى الصفر: إيران، تركيا ومستقبل أميركا، ترجمة أنطوان باسيل، الطبعة الأولى، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2012، ص259-260.

- النعيمي، لقمان عمر محمود، تركيا والولايات المتحدة الأمريكية: دراسة في علاقاتهما الإستراتيجية بعد الحرب الباردة 1991-2000، مجلة دراسات إقليمية، مركز الدراسات الإقليمية، جامعة الموصل، العدد 4، 2005، ص204.

- النعيمي، عمر لقمان، تركيا والاتحاد الاوروبي: دراسة لمسيرة الانضمام، الطبعة الاولى، أبو ظبي، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2007 ، ص60.

- نهرا، فؤاد، الإتجاهات السياسية في أوروبا وقضية إنضمام تركيا، شؤون الأوسط، بيروت، العدد 166، خريف 2004، ص79.

- نيكسون، ريتشارد، الفرصة السانحة: التحديات التي تواجه أميركا في عالم ليس به إلا قوة عظمى واحدة، ترجمة أحمد صدقي مراد، دار الهلال، القاهرة، 1992، ص142.

- **Harunoglu, Nur Cetinoglu, Back to the Past: The Origins of Turkish-American Relations from an Alternative Perspective, The Turkish Yearbook of International Relations, Faculty of Political Science, Ankara University, Vol. 46, 2015, p-134.**

- **Sayari, Sabri, The United States and Turkey's Membership in the European Union, The Turkish Yearbook of International Relations, Faculty of Political Science, Ankara University, Vol. 34, 2003, p.168.**

- **Kirac, Ziya Kivanc and Others, The United States of America Effect on Turkey-European Union Relations, Procedia Economics and Finance, Vol. 15, 2014, pp:1701-1702, http://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S2212567114006431.**

- Guney, Aylin, On Turkey's Inclusion in EU Enlargement: An Asset or a Liability, Perceptions, Center for Strategic Research, Vol. 9, Autumn 2004, p.149.
- Gordon, Philip H., The United States and Turkey: A view from the Obama Administration, Sabanci Lecture, The Brookings Institution, Washington DC, 17/3/2010, http://www.state.gov/p/eur/rls/rm/2010/138446.htm.
- Mitch, Hulse, US Lawmakers Urges "Path to EU Accession" for Turkey, Atlantic Council,28/4/2016, http://www.atlanticcouncil.org/blogs/news-atlanticist/us-lawmakers-urges-path-to-eu-accession-for-turkey.
- "Remarks to the National Grand Turkish Assembly in Ankara ", the American Presidency Project, 15 Nov. 1999, http://www.presidency.ucsb.edu/ws/?pid=56935.
- "Remarks by President Bill Clinton and Prime Minister Simits of Greece to the Government of Greece, Business and Community Leaders ", Athens, 20 Nov. 1999, http://www.ahistoryofgreece.com/press/clinton-simits.htm.
- "Remarks by President Obama to the Turkish Parliament ", Office of the Press Secretary, The White House, 6 April 2009, https://www.whitehouse.gov/the-press-office/remarks-president-obama-turkish-parliament.

الخلاصة

- موقف الولايات المتحدة من مساعي تركيا للانظمام الى الاتحاد الاوربي

يتناول البحث الموقف الامريكي المؤيد لأنظمام تركيا الى الاتحاد الاوربي ،اذ كانت الولايات المتحده في مقدمة الدول الداعمة لتركيا في مسعاها هذا،لاسيما واذا ما علمنا بان تركيا من الدول المؤسسة لحلف شمال الاطلسي ،الذي يضم بالاضافه الى تركيا كل من الولايات المتحدة والدول الاوربية ،ولم تترك الولايات المتحدة فرصة من اجل الضغط على الدول الاوربية لقبول تركيا في هذا الاتحاد وذلك لما يمثله هذا الدخول من مصالح امريكيه باعتبار تركيا بوابتها المهمة والاستراتيجية للدخول الى الشرق الاوسط ،فضلا عما تحققه من مكاسب اقتصادية وجيوسياسية ، و بالمقابل كانت تركيا تستند على هذا الدعم وضلت تسعى اليه منذ اواخر الخمسينات من القرن الماضي للدخول كعضو كامل العضوية في النادي الاوربي.

The United States' position on the Turkish efforts to join the European Union

- The study is concerned on the American position for supporting of Turkey's accession to the European Union. The United States was one of the first countries to support Turkey in this issue, especially if we know that Turkey is one of the founding countries of NATO, which includes both the United States and the European countries. The United States has not left any opportunity to pressure the European countries to accept Turkey in this union because of the American interests represented by this entry as Turkey's important and strategic gateway to the Middle East, as well as the economic and geopolitical gains it made. In return Turkey has been seeking this support since the late 1950s to enter as a full significant member of the European Union.